محمد أحمد باشميل

حروب الإسلام في الشام

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
Dar El Fikr - Printers- Publishers- Distributors- Beirut- Lebanon

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنتَدى إِقرَا الثَقافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنتَدى إِقرَا الثَقافِي)

براي دانلود كتابهای مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافى)

www. iqra.ahlamontada.com

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ، عربي ، فارسي)

محمد أحمد باشميل

حروب الإسلام في الشام

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الطبعة الثانية :

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

دار الفكر
بيروت لبنان

المكاتب : البناية المركزية . هاتف : ٢٤٤٧٣٩ . ص.ب : ١١/٧٠٦١
المطابع والمعمل : حارة حريك . شارع عبد النور . هاتف ٢٧٢٦٥٠ / ٣٩٠٦٦٣
برقيًا : فكير . تلكس : ٤١٣٩٢ فكر LE FIKR 41392

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

د . محمد علي البار

بدأت حروب الشام بمعركة مؤتة التي استشهد فيها زيد بن حارثة حب رسول الله وربيبه وجعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ الذي أبدله الله بيديه وذراعيه جناحين يطير بهما في الجنة .. وعبد الله بن رواحة الأنصاري شاعر رسول الله ﷺ .. حيث واجه بضعة آلاف من جند المسلمين عشرات الآلاف من جنود الروم والعرب المتنصرة ..

ولولا عبقرية خالد بن الوليد التي تجلت في ذلك اليوم لفني الجيش الإسلامي الصغير عن بكرة أبيه .. فاستطاع خالد بعبقريته الفذة أن يناور ويداور وينسحب بالجيش سليماً .

وجاءت بعدها معركة تبوك بقيادة المصطفى صلوات الله عليه رداً على ما لحق المسلمين في معركة مؤتة .. ولكن الروم وجموع العرب المتنصرة تحاشوا الإصطدام المباشر مع جند الإسلام .. وعاد جنود الحق تحت لواء المصطفى صلوات الله عليه دون أن يواجهوا حرباً حقيقية مع الأعداء ..

وبقي الرسول الكريم يعد العدة لغزو الروم والثأر لشهداء مؤتة .. فأنفذ

جيش أسامة وهو على فراش الموت لترتفع روحه الشريفة إلى الرفيق الأعلى .. وهو يوصي جيش أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه .. وهو فتى يافع صغير .. لم يبلغ السابعة عشر بعد .. وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار .. وفيهم من أمثال أبي بكر الصديق وعمر الفاروق تحت إمرة ذلك الشاب الصغير حتى تكلم أناس في ذلك وتكلم المصطفى صلوات الله عليه ولاح باللائمة على من تكلموا في إمرة أسامة .. وقال إنه بها لخليق .. كما كان أبوه بها خليقاً وجديراً.

ومنذ ذلك الحين بقيت هذه الأمة تتلمس النابهين من شبابها تقدمهم للأمرة مع وجود من هو أكبر منهم سناً وأكثر منهم خبرة لتدربهم على حمل المشاق وتحمل المسئولية .. ولترتفع بهممهم إلى ذرى المجد ومشارف العز .. وترتفع بهم عن وهدة الدنايا ومراتع الرفاهية والترف وتبتعد بهم عن مواطن الفجور والخنا .

ولقد أوتيت هذه الامة يوم أن فقد شبابها تلك الجذوة المشتعلة من الحماس والإقدام وتقتحم الصعاب .. وحين مردوا على الذل وحياة الرغد والرفاهية .. وانجرفوا في تيار الخنا والفناء وصار أكبر همهم متابعة المسلسل التليفزيوني أو حضور مباراة لكرة قدم .

وقد قام الشيخ محمد أحمد باشميل يجهد جبار في حشد همم هذه الأمة وخاصة شبابها بعرض معارك الإسلام الفاصلة .. ذلك العرض الشيق الأخاذ الذي جمع حقائق التاريخ من بطون عشرات الكتب المختلفة ونسقها في صورة جميلة باسلوب مشرق . وعرضها معركة معركة .. ابتداء من معركة بدر الكبرى ثم موقعة أحد ثم الأحزاب ثم بني قريظة والحديبية حتى انتهى إلى فتح مكة فغزوة مؤتة وحنين وتبوك فحروب الردة .

حتى وصل إلى حروب الشام وسيليها إن شاء الله حروب العراق .

ولم يكتف الشيخ محمد أحمد باشميل بعرض الحقائق التاريخية بأسلوبه السهل الجميل .. ولكنه كان يأخذ من كل معركة عبرها..ودروسها..وكيف استفادت الأمة الإسلامية في بزوغها من دروس الهزيمة كما استفادت من مواقع الإنتصار ..

وفي حروب الشام تتجلى عبقرية الصديق رضي الله عنه الذي واجه حروب الردة بشجاعة منقطعة النظير .. ثم دفع بجيوش الإسلام في وجه أعتى امبراطوريتين في ذلك العهد : الرومان والفرس وفي وقت واحد مما أثار الرعب في قلوب الأعداء .. كما تتجلى عبقرية الصديق في اختيار قادة حروبه وخاصة حروب الشام .. وتوجيهاته المستمرة لهم على بعد ما بينه وبينهم من مفاوز وصحارى ..

وانظر إلى وصيته إلى خالد بن سعيد أول قائد إسلامي يدخل أرض الشام « إقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك » .

وما كان من خالد بن سعيد رضي الله عنه إلا أن توالت انتصاراته رغم قلة عدد جيشه فأوغل في أرض العدو دون أن يأخذ عدته لما خلفه .. فطوقه العدو وانهزم بعد ذلك مما أدى إلى فقده أرض فلسطين بأكملها بعد أن استولى عليها في ضربات خاطفة بارعة .. مما أدى إلى بعث الروح المعنوية المنهارة في جنود الرومان .. فما كان من الصديق الرقيق إلا أن بعث خطاباً شديداً لخالد يعزله .. ويمنعه حتى من دخول المدينة لأنه غرر بالمسلمين وأطمع الروم فيهم .

ثم رمى أبو بكر الروم بأربعة من خيرة قادة المسلمين وجعل لكل واحد منهم طريقاً يسلكه .. فجعل أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة قائداً على الجيش الأول وجعل له منطقة حمص .. وعين يزيد بن أبي سفيان قائداً على الجيش الثاني وجعل ميدان معركة دمشق وما جاورها وخصص للقائد الثالث عمرو بن العاص فلسطين بأكملها .. أما القائد الرابع شرحبيل بن حسنة فقد

جعل له إقليم الأردن بأكمله وقد كان يسمى حينئذ البلقاء .

ولم يزد عدد هذه الجيوش الأربعة على عشرين الفاً ليواجهوا مئات الآلاف من جند الروم والعرب المنتصرة .. بأسلحتهم الفتاكة .. وعددهم الهائلة . . وعلى رأسها هرقل إمبراطور الروم الداهية الذي استطاع أن ينقذ روما من جحافل الفرس وأن يحول هزيمتها إلى انتصار .. وأن يستعيد بعدها القدس وفلسطين والشام بأكمله كما استعاد مصر من قبل إلى سلطان روما بعد أن كان يأفل نجمها لضعف امبراطورها آنذاك وغرق أهل بلاطه في الترف والفجور.

ولم يكتف هذا الامبراطور الداهية بما له من عدد وعدة .. ولكنه دبر المكان للإيقاع بجيوش المسلمين كلا على حدة لينفرد بهم واحداً واحداً .. ويقطع عليهم طريق إمداداتهم وميرتهم من المدينة .. فيقطع طريق تبوك التي تشكل خط الإمدادات الوحيد آنذاك ..

ولكن عبقرية أولئك القادة وخاصة ما تمتع به عمرو بن العاص من دهاء وسعة حيلة وبعد نظر جعلتهم يدركون الخطة الماكرة عند بدايتها فأخبروا الخليفة بذلك فأمرهم بتوحيد جيوشهم وتجمعها في اليرموك وأمدهم بخالدبن الوليد سيف الله المسلول وجعله عليهم أميراً .

وتجلت عبقرية خالد العسكرية في أروع صورها عندما غامر بجيشه اللجب ليخترق الصحراء المحرقة اللاهبة حتى يباغت جند الروم من حيث لا يحتسبون فما كان منه إلا أن قطع تلك المفاوز من العراق إلى الشام من أقصر الطرق وأكثرها خطورة ووعورة ليفاجيء المسلمين والروم ليكون بين ظهرانيهم في أسبوع بعد أن عبر بادية السماوة التي لا ماء فيها ولا كلأ ..

ورغم أن هدف خالد هو اليرموك إلا أن عبقريته العسكرية الفذة رأت

ما لمدينة بصرى عاصمة الجولان حينئذ من أهمية عسكرية فقام بهجوم كاسح عليها إلا أن قائدها فضل الاستسلام على قتال خالد . وبذلك أمن خالد ظهره.. ثم انحرف جنوباً إلى فلسطين لينقذ جيش عمرو بن العاص الصغير والمحاط بمائة الف من جنود الروم .

وكانت معركة أجنادين الرهيبة حيث دارت أول معركة حاسمة بين جند الروم الذي بلغ مائة الف وجند المسلمين الذي شارف الثلاثين الفاً .. وأجنادين تقع غربي مدينة الخليل وجنوب غرب القدس وشمال بيت جبرين ..

وتجلت عبقرية خالد العسكرية حيث أمر عمرو بن العاص وعدد جيشه سبعة آلاف فقط أن يواجه مائة الف من جند الرومان .. وما أن بدأت المعركة حتى استيقن الروم من انتصارهم وإذا بهم يفاجأون بجنود خالد ينصبون عليهم من كل جهة فانهارت معنوياتهم وحاول قائدهم أن يمكر بخالد بطلب الصلح .. ولكن خالد اليقظ أبداً عرف المؤامرة وقضى على القائد الروماني الماكر وأباد جيشه تقريباً .

عندئذ توجه خالد بجيوشه مع جيش عمرو بن العاص إلى ميدان المعركة الفاصلة.. معركة اليرموك التي حشد لها الروم كل ما لديهم من قوة وعتاد ورجال وعلى رأسهم تيودور أخي هرقل ومعه كبار قادتهم وفرسانهم .

ووقف جيش خالد الذي لا يكاد يبلغ الأربعين الفاً أمام ربع مليون جندي روماني مجهزين بأقوى الأسلحة وأمضاها .. وبخبرة طويلة في فنون القتال .

وتجلت يومئذ عبقرية خالد العسكرية في أجلى صورها حيث قام بادخال نظام الكراديس في الجيش الإسلامي لأول مرة ليواجه الروم بنظام يماثل نظامهم مع جند يتوق إلى الموت لأنه يشم رائحة الجنة فيغدو اليها فرحاً جذلاً ..

كما تجلت في ذلك اليوم شجاعة خالد والصفوة المختارة من جند المسلمين وقادتهم من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وعكرمة بن أبي جهل وعبادة بن الصامت ومعاذ ابن جبل والقعقاع بن عمرو التميمي وغيرهم من صناديد المسلمين في الف من صحابة رسول الله ﷺ .. من الرهط الكرام الذين بايعوا محمداً على الموت تحت الشجرة.. فوفوا بعهدهم في كل موقف . وفي كل معركة .. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . .

حق النساء كان لهن في اليرموك دور بارز في تذكية الروح المعنوية للمقاتلين. وفي إشعال روح الجهاد لدى الفارين عند الهزيمة .. بل أن منهن أم الحكيم بنت الحارث بن هشام التي قتلت بيدها ستة من فرسان الروم .. ومنهن جويرية بنت أبي سفيان التي قاتلت مع زوجها الروم حتى استشهدت في ذلك اليوم العظيم ..

وككل المعارك الفاصلة في التاريخ ابتدأت المعركة بانتصار الأكثر عدداً وعدة وانتهت بانتصار الأكثر صبراً وإيماناً وجلداً .. ولم تغن عن الروم عندئذ كثرتهم ولا جودة أسلحتهم فمضت فيهم سيوف المسلمين حتى تحقق النصر الكامل بإذن الله . .

تلك المعركة الفاصلة التي جعلت هرقل يبكي ويهتف عندما سمع نهايتها : وداعاً سوريا .. وداعاً لا لقاء بعده ..

ولم تقم للروم بعدها قائمة فتوالت هزائمهم حتى طهر الله الشام بأكملها من رجسهم . .

هذه لمحة خاطفة عن حروب الشام حاولت أن أثير فيها رغبة القارىء في التعرف عليها .. وهي بين يديك في دفتي هذا السفر الجليل الذي وضعه الشيخ محمد أحمد باشميل مع لفتاته البارعة إلى أسباب النصر وأسباب الهزيمة.. وتركيزه

على أهمية العقيدة في كل ميدان وعلى رأسها ميادين القتال .. وكيف أنها كسبت النصر للمسلمين وهم أقل عدداً وعدة وأرعدت قلوب أعدائهم منهم في الوقت الذي جعلت تلك الشعوب الراضخة تحت نير الرومان تتطلع إلى اليوم الذي ينقذها فيه المسلمون من براثنهم . .

ويرينا صفحات رائعة من سلمهم وحربهم وكيف رد قائد المسلمين أبو عبيدة ابن الجراح على أهل حمص ما دفعوه من جزية لأنه لا يستطيع الدفاع عنهم عند توجهه للقاء خالد على اليرموك .. وكيف قاتل أهل حمص جند الرومان وهم على دينهم ووقفوا في صف المسلمين لما رأوه من عدلهم وإنصافهم .

وقد كنت أود أن أرى مزيداً من الخرائط لتوضيح ميدان المعارك وسيرها ليزداد القارىء تبصرة ومعرفة بمواقعها وخط سيرها .. بالرغم من الوصف الوافي الدقيق لها ..

كذلك كان المؤلف يستطرد في موضوع ويخرج منه إلى آخر ثم يعود اليه أخرى مما جعل بعض التكرار ضرورياً .

ورغم هذا وذاك فإن الكتاب في نظري لا غنى عنه لكل قارىء يريد أن يطلع على سيرة سلفه في فتح الشام .. كما أنه مرجع هام لكل باحث يريد أن يكتب أو يطلع على حروب الشام بل لعله يستغني به عن كثير من المراجع حيث جمع الكتاب أهم ما ورد في تلك المراجع القديمة والحديثة .

والله أسأل أن يثيب المؤلف على ما بذل وأن يزيده توفيقاً وتمكيناً لإتمام رسالته في تدوين معارك الإسلام الفاصلة معركة معركة حتى ينتفع بها هذا الجيل من شباب الإسلام والأجيال اللاحقة .

د . محمد علي البار

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

بقلم الطالبة
وردة محمد أحمد باشميل

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه . وبعد .

لقد خاض المسلمون الأوائل معارك عديدة ، أظهروا خلالها كل شجاعة وتفاني ، وضمنوا بذلك تعزيز قواعد التوحيد التي شملت معظم مناطق العالم .

ولقد كان للمؤلف الفاضل كتب عديدة في هذا المجال ، وأبرزها على الإطلاق سلسلة الغزوات التي غزاها الرسول الكريم ومعه المسلمون ، وها هو في هذا الكتاب يتابع معنا تحليل معارك المسلمين الفاصلة ، فيحدثنا هنا عن حروب المسلمين في الشام ، ويصف لنا بالشرح والتفصيل جهاد هؤلاء العباقرة الأبطال في تحريرهم أرض الشام من الاستعمار البيزنطي الظالم ، ويجعلنا نقف على كل ما بذلوه لضم هذا القطر إلى حظيرة التوحيد .

ولست الآن بسبيل الحديث ولو بالإيجاز الشديد عن ذكر هذه الحروب الفاصلة ، لأنني أرى أنها غنية عن التقديم ولا محل لمثل هذا الحديث الآن في هذه الكلمة أن أقدم بها لهذا الكتاب التي سمح لي الوالد الغالي أمد الله في عمره فموضوع ذلك هو كل هذا الكتاب الثمين .

***

إن هذا الكتاب حقاً هو مرجع تاريخي فيه من السهوله والوضوح ما يجعلنا نستغني عن الكثير من المراجع القديمة لما بذل فيه الوالد حفظه الله من جهـــد البحث والشرح والتحليل والتفصيل باسلوب لم يسبقه اليه أحد من المؤلفين .

★★★

وهذا الكتاب يعمد فيه المؤلف إلى عرض الحقائق والملابسات التاريخيـــة المختلفة ، كما أنه لا يغفل عرض الأحداث العسكرية والسياسية والتشريعية المهمة التي سبقت تلك الحروب أو واكبتها ، يعرض لنا كل ذلك باسلوب سهل ممتع ليس فيه صعوبة أو تعقيد يحتاج معها القارىء إلى شحـــذ الذهن أو الرجوع إلى معاجم اللغة .

★★★

وفي ختام هذه الكلمة أسجل كلمة إعجاب واعتزاز بهذا الكتاب الضخم ، وأتوجه بالشكر إلى الوالد الفاضل بلسان كل فتاة مسلمة على هذا الجهد الكبير ، داعية المولى أن يزيده توفيقاً ويسدد خطانا وإياه . إنه سميع مجيب .

وردة محمد أحمد باشميل
كلية التربية – سنة ثانية

رغم وجود بعض الركاكة في هذه التقدمة فإني قد وافقت على نشرها تشجيعاً لابنتي الطالبة جعلها الله من الصالحات القانتات

المؤلف محمد أحمد باشميل
١٣٩٩/١١/١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وعظيم المصلحين محمد وآله وصحبه وسلم.

ونسألك اللهم أن ترزقنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك . .

وأن تجعل أعمالنا خالصة لوجهك تعالى نقية من شوائب الرياء والسمعة .

ونسألك اللهم أن تجعل خير أيامنا يوم لقائك وخير أعمالنا خواتمها . وأن تميتنا على ملة التوحيد .

وبعد فهذا هو كتابنا الجديد (حروب الإسلام في الشام) نأمل أن نكون قد أكملنا بعض ما يمكن أن يكون نقصاً في تفاصيل وتحليل ووصف ما قام به أولئك المجاهدون الأبطال وهم يحررون هـذا القطر العزيز (الشام) من نير الاستعمار البيزنطي ويضيفونه إلى خريطة دولة التوحيد.

وسيتلوه بإذن الله كتاب آخر اسمه (حروب الإسلام في العراق) .

ونزجي الشكر سلفاً لكل من أرشدنا إلى أي خطأ في هذا الكتاب أوغيره من مؤلفاتنا لنسارع إلى إصلاح هذا الخطأ وما توفيقنا إلا بالله تعالى .

محمد أحمد باشميل
جدة ـ المملكة العربية السعودية
العنوان جدة شارع جعفر الصادق ص.ب ١٥٣٥ هاتف ٨٢٨١٤

١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

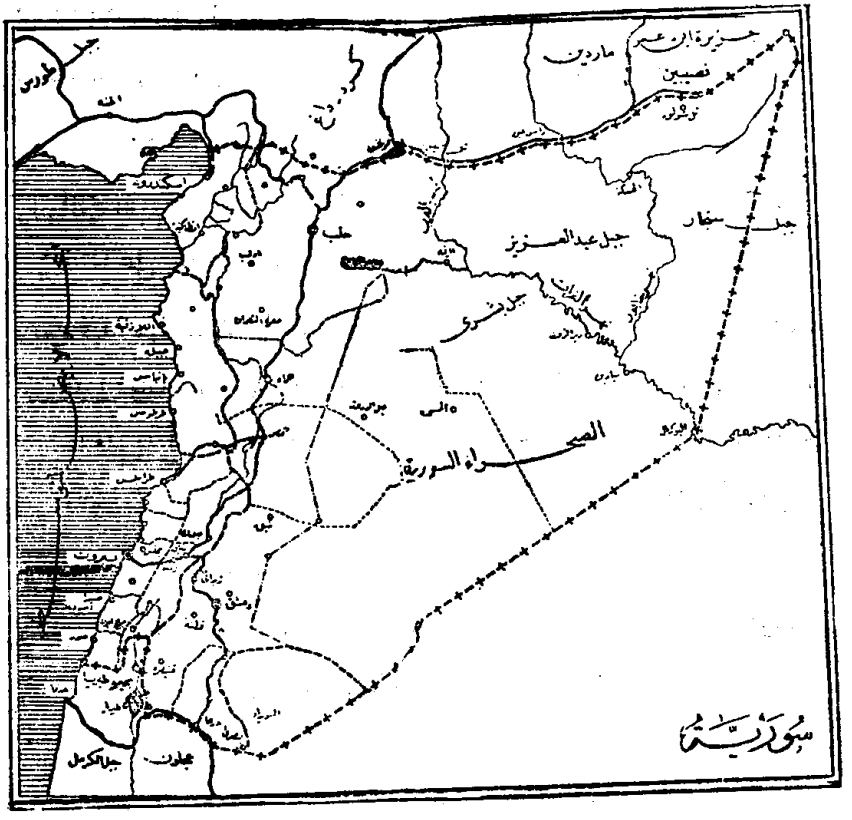
جزيرة ابن عمر
ماردين
نصيبين
نوشرين
جبل سنجار
جبل عبد العزيز
جبل شرقي
الصحراء السورية
سورية

حروب الاسلام في الشام

تمهيد

من المعروف أن جميع الأقاليم في جزيرة العرب (ما عدا قلة قليلة) قد اشتعلت فيها نيران الردة بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ في أوائل السنة الحادية عشرة هجرية .

وقد تصدى الخليفة الأول أبو بكر الصديق للمرتدين بكل حزم وصرامة وقوة . فجهز للقضاء على فتن المرتدين أحد عشر لواء ، واستمرت هذه الألوية الأحد عشر تخوض المعارك الضارية داخل جزيرة العرب سنة كاملة أو أكثر : بعدها تم القضاء على فتن المرتدين [1] : وعادت كل جزيرة العرب إلى حضيرة الإسلام [2] .

التفكير في الامبراطوريتين المجاورتين

لم يكن هناك شك في أن الخليفة الأول كان يفكر في الامبراطوريتين المتجاورتين : (فارس في العراق وإيران والروم في الشام وآسيا الصغرى) . وان الإمبراطوريتين هاتين هما على عداء سافر مستمر للإسلام والمسلمين . وتثبت

---

(١) انظر كتابنا (حروب الردة) .
(٢) انظر كتابنا (حروب الردة) .

كتب السيرة النبوية أن الرسول الأعظم ﷺ بعث بعدة حملات عسكرية في حياته كي تطأ أراضي الشام وترهب العدو فيها .

فكانت غزوة مؤتة [1] التي قام بها جيشه إلى بلاد الشام : وكانت غزوة تبوك [2] التي قادها بنفسه ، لإلقاء الدروس الحربية العملية على مستعمري الشام العربية من الرومان بأن المسلمين قوة يمكنها القيام بالهجوم لا الدفاع فقط .

وكانت الحركة العسكرية الشهيرة التي أمر بها الرسول ﷺ لغزو الشام بقيادة أسامة بن زيد : والتي لم تحدث إلا بعد وفاة النبي ﷺ .

المسلمون والامبراطورية الفارسية

أما الإمبراطورية الفارسية فقد كانت تحرض المناوئين للإسلام من عرب الجزيرة وخاصة عقيب وفاة النبي ﷺ حيث ارتدت مجموعات كبيرة من عناصر البدو المجاورين لفارس . فكانت تشجعهم على ذلك وتمدهم بالسلاح كي يرتبك الوضع الجديد القائم في المدينة برئاسة الخليفة الأول .

إذن فالمسلمون يمكن القول : إنهم كانوا في حالة حرب دائمة مع الإمبراطوريتين الأعظم المتجاورتين (فارس والروم) عندما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى.

الجهاد فرض على المسلمين

وبصرف النظر عن بقية الإعتبارات فإن المسلمين (بموجب نصوص دستورهم) مكلفون بنشر الدعوة الإسلامية ومجاهدة من يقاومها بالسيف . وذلكم هو الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين .

وكان من المفروض أن يبدأ تجريد الحملات العسكرية للجهاد في سبيل الله في

---

(١) مؤتة (بضم الميم وواو مهموزة ساكنة) قرية من قرى البلقاء في الشام وهي من مشارف الشام : وبها تطبع السيوف الممتازة واليها تنسب أجود السيوف التي يقال لها المشرفية وهي الآن ضمن المملكة الأردنية الهاشمية ، انظر كتابنا (غزوة) مؤتة ، ففيه تحديد موقعها .

(٢) انظر كتابنا غزوة تبوك ففيه تفاصيل ذكرها .

العراق والشام بعيد وفاة النبي ﷺ . ولكن حرب الردة في جزيرة العرب . حالت مؤقتاً دون الشروع في أداء هذا الواجب .

فقد انشغل الخليفة الأول طوال سنة كاملة بتأديب المرتدين وإخضاع المتمردين كي يستتب الأمن في المنطلق الأساسي للجهاد وهو جزيرة العرب ، وتكون كلمة التوحيد هي الكلمة الوحيدة النافذة فى تلك الجزيرة .

شراسة حروب الردة

وقد كانت حروب الردة من اشرس ما خاض الصحابة في حياتهم على الإطلاق. لذلك عانت القوات المسلحة الإسلامية الأهوال وهي تخوض تلك الحروب الضارية الشرسة التي أشعلها زعماء البدو الذين كان الطمع في الملك يداعب خيالاتهم ، وكانوا يظنون أن العودة بالجزيرة إلى سابق عهدها في الجاهلية ممالك صغيرة ومشيخات يتحكم فيها الزعماء أمر ممكن ما دام أن الزعيم الأكبر والنبي المرسل محمداً ﷺ قد توفاه الله . وقد فقد الجيش الإسلامي مجموعة كبيرة من خيرة محاربيه في هذه الحرب الشرسة الضارية . التي لولا أن ثبت الله الصديق الأكبر فتصدى لها بحزم وعزم وقوة تهد الجبال لانطفأت شعلة الإسلام إلى الأبد .

فقد خيب الخليفة الأول رضي الله عنه وأرضاه – آمال اولئك الطامعين الأقوياء (فعلاً) فجرد عليهم جند الله فقضوا على التمرد وسحقوا العصيان ، وقتلوا أكثر الزعماء الطامعين في التسلط والسيطرة والملك .

كما أجبروا آخرين على الاستسلام أو الهرب إلى خارج جزيرة العرب كما فعل سيد بني أسد ومتنبؤها الكذاب طليحة بن خويلد الأسدي الذي قاد أعظم حشد للمرتدين في نجد بعد حشد مسيلمة الكذاب .

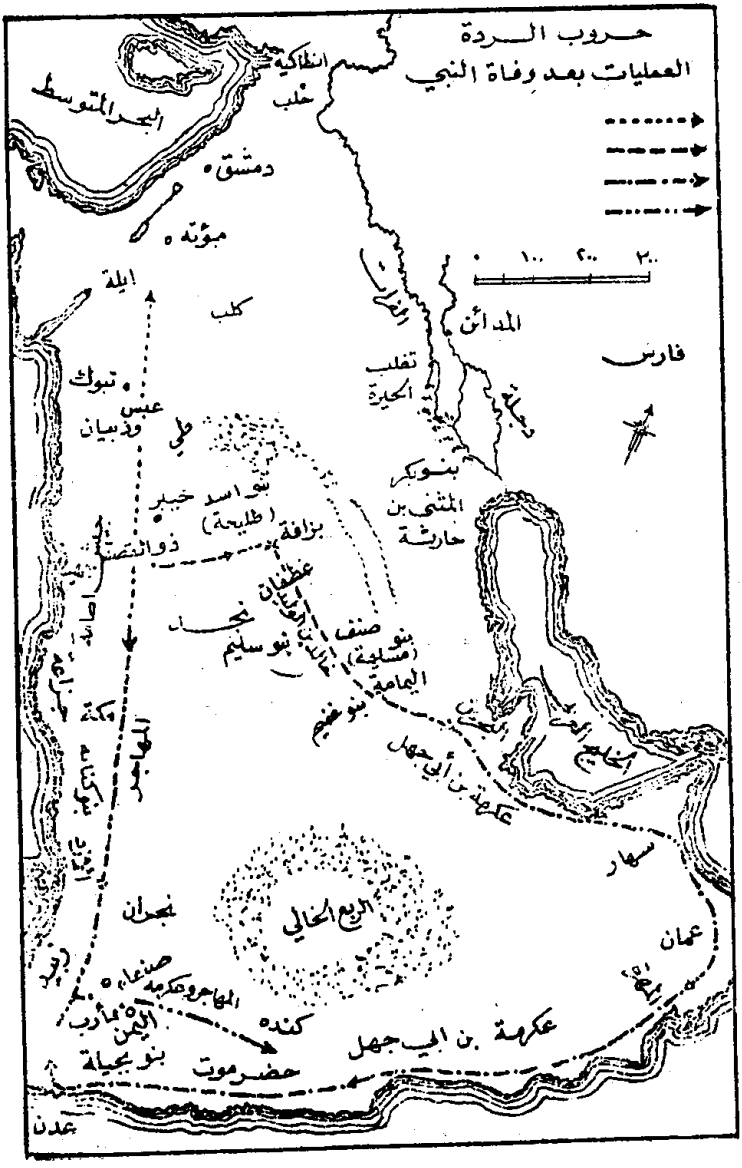
حروب الردة
العمليات بعد وفاة النبي
البحر المتوسط
انطاكية
حلب
دمشق
مؤتة
ايلة
كلب
تبوك
عبس وذبيان
طي
بنو اسد خبير (طليحة)
بزاخة
ذو القصة
غطفان
بنو سليم
نجد
صنف (مسيلمة) اليمامة
بنو حنيفة
مكة
المدينة
الطائف
خالد بن الوليد
عكرمة بن ابي جهل
الربع الخالي
نجران
صنعاء
المهاجر وعكرمة
كنده
اليمن
مأرب
بنو نجيلة
حضرموت
عدن
عمان
مهرة
الخليج العربي
فارس
المدائن
تغلب الحيرة
بنو بكر
المثنى بن حارثة
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠

عودة الأمور إلى نصابها

وبعد أن عادت الأمور إلى نصابها في جزيرة العرب ، ولم يعد أي أثر للتمرد والعصيان في هذه الجزيرة : شرع أبو بكر (فوراً) في مشروع الجهاد في سبيل الله خارج جزيرة العرب .

ولما كان أكثر الجيوش لا يزال بعيداً في المواطن النائية التي قضي فيها على الفتنة : مثل الذين في اليمن وحضرموت والمهرة : وكانت هذه المناطق توجدبها جيوش كثيفة بقيادة قادة أكفاء .

لما كان الأمر هكذا أصدر الخليفة أمره (أولاً) باقتحام العراق على الفرس، وذلك لأن هنالك بالقرب من العراق قوات للاسلام ، كانت مهمتها القضاء على المرتدين كالقوات العاملة في الخليج المتاخم للعراق واليمامة التي لا تبعد كثيراً عن العراق .

ولما كان خالد بن الوليد الذي تولى سحق المرتدين في اليمامة هو أمهر وأقدر قائد على أداء مهمة اقتحام العراق : أصدر اليه الخليفة الأول والقائد الأعلى الأوامر بأن يتولى قيادة الجيوش العاملة في الخليج واليمامة ، وأن يقتحم بها العراق من الجنوب عند مصب النهرين : ففعل خالد : وكان ذلك في السنة الثانية عشر للهجرة .

وقد أفردنا كتاباً خاصاً لحروب خالد في العراق سنتحدث فيه بالتفصيل إن شاء الله عن معارك خالد ومن خلفه من القادة هناك .

بداية التحرك إلى الشام

أما اقتحام المجاهدين الشام فلم يحدث إلا في السنة الثالثة عشر هجرية . وذلك التأخير راجع والله أعلم إلى الانشغال بتجميع القوات الإسلامية المسلحة

المبعثرة هنا وهناك في أنحاء الجزيرة للقضاء على فتن مختلف عناصر الإرتـــداد والعصيان .

ولهذا فإنه لما تجمعت هذه القوات في المدينة شرع الخليفـــة الأول في وضع مخطط الجهاد في الشام وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط في تلك السنة .

ففي هذه السنة أخذت الجيوش الإسلامية تتدفق على حدود الشام . بينما القائد خالد قد أكمل فتح ما يقرب من نصف العراق .

وقد نظم القائد الأعلى والخليفة الأول جيوشاً أربعة كلفهـا جميعاً بالتحرك لاجتياز حدود الشام : بعد أن بعث قبلها بجيش منفرد لغزو الشام بقيادة خالد ابن سعيد بن العاص الذي كان أول قائد مسلم يطأ جيشه تراب الشام في عهـــد الخليفة الأول (إذا استثنينا جيش أسامة بن زيد) .

أول جيش يدخل الشام

فقد كان خالد بن سعيد من السابقين الأولين في الإسلام ، وبالإضافة إلى ذلك فهو محارب من الطراز الممتاز المتفوق : وكان هذا القائد الأموي الكفؤ باليمن في عهد الرسول ﷺ . وكان لعمر بن الخطاب في خالد بن سعيد رأي خاص : لأنه بالرغم من كفاءته العسكرية كان ضمن العناصر المعـارضة لتولي أبي بكر الخلافة : لأنه يرى أنها يجب أن تبقى في بني عبد منـــاف . ولأن فيه روح المغامرة . لذلك أشار عمر على أبي بكر أن لا يسند أي منصب قيـــادي إلى خالد بن سعيد .

ولكن الصديق لم يهتم بمعارضة خالد لتوليه الخلافة : فتجاوز عنه ولم يحاسبه على نظرته السياسية ، وقرر أن يستفيد من خبرته العسكرية كمحارب قديم وصحابي قديم الإسلام وقائد مجرب .

لذلك عندما انتهت حروب الردة كان خالد بن سعيد أول قائد يبعث بـــه (أولاً) إلى تيماء قريب الشام ، ثم إلى الشام نفسها. حيث قاتل الرومان والعرب المتنصرة ، وانتصر عليهم ، قبل أن تتحرك الجيوش الرئيسية الأربعـة التي هي بقيادة أبي عبيدة [1] وعمرو بن العاص [2] ويزيد بن أبي سفيان [3] وشرحبيـل ابن حسنة .

وبهذا ثبت وصح حدس الخليفـــة في هذا القائـــد الأموي الكفؤ خالد بن سعيد بن العاص .

ولقد أمر الخليفة الأول قائده الأول خالداً أن يعسكر (أولاً) في تـــيماء بحيث تكون مركز تجمع للجند وأن لا يجتاز الحدود إلى الشام حتى يتلقى أمراً خاصاً من الخليفة ، وأمره أن يفتح باب التجنيد للجهاد في الشام ، وأن لا يقبل من سبق له أن ارتد عن الإسلام.

خالد بن سعيد ينتصر في الشام

فقد ذكر الطبري أن أبا بكر الصديق كان يعتبر خالد بن سعيد من القـــادة العظام وأنه عندما نشبت حروب الردة أسند اليه قيادة أحد الألوية التي تحركت لإخماد الفتنة (الطبري ج ٣ ص ٢٨٨) .

كما ذكر أبو جعفر أن الخليفة بعد انتهاء فتنة الردة أمر خالد بن سعيد بأن ينزل تيماء ليكون رداً (أي سنداً لعمرو بن العاص) وأمره بأن لا يبرح تـــيماء

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة مؤتة) .

(٣) اسمه شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عبد العزي بن قطن بن الغوث . ابو عبد الله نسبه في كندة ويعد في بني زهرد من قريش لانه حليفهم . قال ابن عساكر كان من الفرسان الذين سادوا الناس . كان قديم الاسلام بمكة وممن هاجر الى الحبشة : قال ابن سعـــد . مات رحمه الله في طاعون عمواس .

وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه ، وأن لا يقبل إلا ممن لم يرتد عن الإسلام ،ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره .

فأقام خالد فاجتمع اليه جموع كثيرة : وبلغ الروم عظم ذلك المسكر الإسلامي الذي حشده خالد في تيماء فضربوا على عرب الضاحية (أي الحدود) البعوث بالشام اليهم – أي فرضوا عليهم التجنيد الإجباري ليسارعوا إلى مقاتلة خالد بن سعيد قبل أن يتحرك من تيماء .

ولما نقلت استخبارات خالد بن سعيد ما يفعله الرومان كتب إلى الخليفة بنزول من استنفرت الروم ونفر اليهم من عرب بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان (وكلهم عرب منتصرة) فسمح الخليفة لقائده خالد بمهاجمتهم قائلاً : (أقدم ولا تحجم واستنصر الله) .

فصدع خالد بالأمر : فتحرك بقواته من تيماء واجتاز بها حدود الشام ، وهاجم الرومان والمرتزقة العرب المنتصرة في جيشهم وانتصر عليهم .

فكان أول انتصار يسجله خالد للاسلام في الشام فور حروب الردة ، فقدفر الرومان وحلفاؤهم من خالد قبل أن يلقوه . حيث أخلوا ديارهم فدخلهاخالد بجيشه وسيطر عليها بدون قتال . وكتب إلى الخليفة بالفتح .

فغمر السرور قلب الخليفة الأول لهذا النصر وأمر خالد أن يستمر فيتقدمه – مع الحذر – ففعل : فواجهه أحد البطارقة الرومان فانتصر عليه أيضاًوقتل جنده داخل الشام .

وكان الخليفة (مع ترخيصه لخالد بالتقدم) أمره بأن يكون شديد الحذر في تحركه ، فلا يتوغل في الشام دونما حماية عسكرية تحمي مؤخرته من أنيأتيها العدو من الخلف فيقطع خط رجعته . فقد كتب اليه أبو بكر يقول : (أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك) .

خالد بن سعيد ينتصر ثانية على الرومان

وكان القائد خالد بن سعيد قد بلغه وهو بأطراف الشام أن بطريقاً رومانياً عظيماً قد جمع جموعاً كثيرة في مكان من فلسطين يقال له (العربا) فبعث اليه خالد سرية بقيادة أبي أمامة [1] فانتصر عليه أبو أمامة وقتل من الرومان خلقاً عظيماً وغنم منهم ، وكان بين القتلى بطريقاً عظيماً من بطارقتهم . (البداية والنهاية ج ٢ ص ٤) .

وتقدم خالد بنفسه وجيشه الرئيسي في حذر داخل فلسطين حتى وصل مكاناً يقع ما بين آبل [2] وزيزاء [3] والقسطل [4] . وهناك عسكر بجيشه .

انتصار ثالث يسجله خالد بن سعيد على الرومان

وعلم قائد روماني اسمه باهان بمكان القائد خالد بن سعيد ، فسار اليه ليوقع به وبجيشه ، والتحم معه خالد في معركة خاطفة مريرة انتصر فيها القائد الإسلامي خالد ، حيث انهزم القائد الروماني بعد أن فقد عدداً كبيراً من جنده .

فكتب إلى الخليفة الأول بما حققته قواته من نصر داخل فلسطين وأنه أصبح لا يبعد كثيراً عن العاصمة دمشق ، ثم طلب الإسراع بارسال التعزيزات اليه ليواصل التحرك .

---

(١) كثيرون من الصحابة اسمه ابو امامة ، فلم يذكر الطبرى بالتحديد ايهم .

(٢) آبل ـ بكسر الباء . قال في مرصد الاطلاء . أربعة مواضع . آبل الزيت بالاردن من مشارف الشام ، وآبل القمح من قري بانياس ، وآبل اسواق ، قرية كبيرة بالغوطة من ناحية الوادى ، وآبل من قرى حمص قريباً منها .

(٣) قال البقاعي . زيزا ـ من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج وبها بركة كبيرة .

(٤) القسطل موقع مشهور بفلسطين قريب القدس . استشهد فيها عبد القادر الحسيني بعد أن استرجعها من اليهود عام ٨ : م .

فبعث اليه الخليفة هذه التعزيزات التي ضمت قائـدين من أمهر قادة الإسلام وهما عكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة ومعهما قائد يمني كان ملكاً عظيمـاً وهو ذو الكلاع الحميري .

الانتكاسة التي اصابت خالداً فأفقدته منصبه

ويذكر المؤرخون أن القائد خالد بن سعيد بن العاص الذي اجتاحت جيوشه أكثر القطر الفلسطيني من الشام قبل تحرك الجيوش الرئيسية الأربعة قـد تهور بعض الشيء فتسرع في اندفاعه نحو قلب الشام، فعرضه ذلك لنكسة مؤلمة جعلته يخسر كل الأراضي التي اكتسبها جيشه في فلسطين .

ذلك انه أوغل في التقدم نحو العاصمة دمشق ليكون له شرف احتلالها : تقدم دون أن يكون خط رجعته محمياً بحاميات حربيـة تحمي ظهره من أن يضربه العدو الذي لا تزال له قواته كبيرة يمين وشمـال قوات خالد المتحركة نحو دمشق : فكان لذلك خط رجعته مهـدداً بأن يقطع فيقع بـين فكي كماشة رومانية .

وهكذا أخطأ هذا القائد الشجاع في التقدير . وقد دفع هو وجيشه ثمن هذا الخطأ القاتل غالياً وهي حياته هو نفسه حيث استشهد وهو يقاتل أثناء تراجعه وتمزق جيشه تمزقاً مؤلماً .

والطبري يذكر (وهذا هو الأرجح) أن خالداً لم يقتل في معركة التراجع وإنما استشهد ابنه سعيد ، أما خالد نفسه فقد كان على رأس الفرسان الذين تمكنوا من الإفلات من قبضة الرومان .

وقد وصف بعض الكتاب انتكاسة القائد خالداً في الشام بعـد الإنتصارات الرائعة المتلاحقة فقال : « بعد أن انتصر خالد بن سعيد على البطريق ماهان في

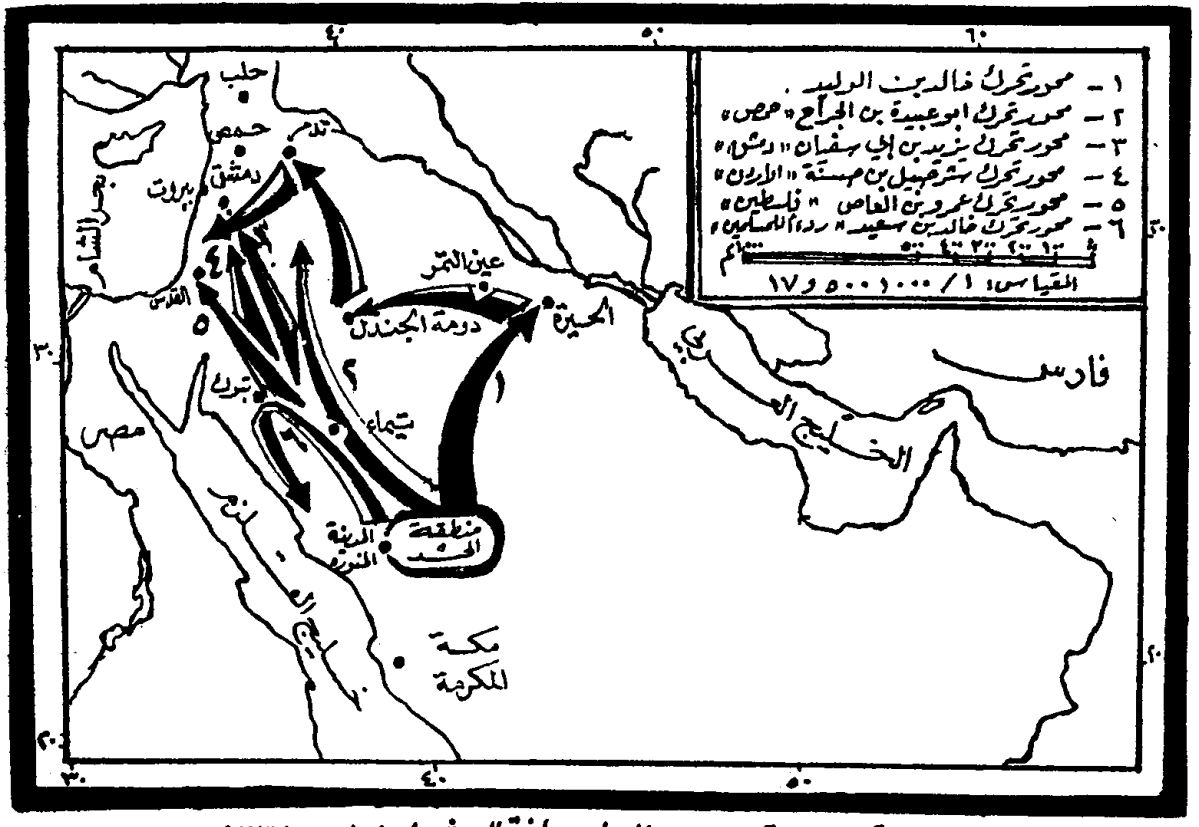

مخطط تحرك . قوات المسلمين لفتح الشام ١٣ هـ ٦٣٤ م

فلسطين تسرع فاتحه بالجيش الإسلامي نحو دمشق دون أن يحسب حساباً لخط رجعته وما قد يتعرض له من مهاجمة القوات الرومانية المتواجدة هناك بكثرة : وفعلاً فإن خالداً قبل أن يصل بجيشه الرئيسي إلى العاصمة دمشق هاجمته قوات رومانية كثيفة من الخلف وسدت عليه مسالك الرجعة ، وشنت من أمامه عليه قوات رومانية أخرى الهجوم فسرت الفوضى في جيشه رغم المقاومة الضارية التي أبداها : ثم تشتتت فصائله ، وأخذ في التراجع على غير انتظام نحو الجنوب، ولكنه وجد صعوبة شديدة فى الإفلات من الطوق الذي ضربته من حوله القوات الرومانية . فتعرض لإصابات جسيمة في الأرواح استشهد فيها ابن القائد العام سعيد بن خالد .

ولم ينج القائد العام نفسه وجريدة من الخيل تابعة للقيادة إلا بأعجوبة .
فقد قاتل القائد خالد وهيئة أركان حربه بمشقة بالغة ليكسروا الطوق الذي ضربه الرومان حولهم .

دور عكرمة بن ابي جهل في إنقاذ خالد

ولولا أن الله تعالى سخر القائد الشهير عكرمة بن أبي جهل المكلف بمساندة خالد فأنجد القوات الإسلامية المطوقة لأباد الرومان هذه القوات .

فقد انبرى عكرمة وباسلوب الصاعقة يهاجم القوات الرومانية في كر وفر فشاغل القوات الرومانية بعض الشيء ، فخفف بذلك الضغط الخانق على قوات خالد المطوقة : فأفسح لهم الطريق فتمكن من بقي منهم من الإفلات ناحية الجزيرة .

وقد انضمت القوات المتراجعة من الشام إلى قوات عكرمة المساندة فانضوت تحت قيادته ، وضلت ضمن جيشه على الحدود حتى حدث الهجوم الشامل على

الشام من الجيوش الأربعة ، وقد انضمت القوات المتراجعة من الشام فيما بعد مع قوات عكرمة إلى جيش شرحبيل بن حسنة قائد الجيش الرابع العامل في الأردن .

إعفاء القائد خالد بن سعيد من منصبه

أما القائد خالد بن سعيد الذي فشلت حملته في الشام بعد نجاحها بسبب قلة حذره وشجاعته التي بلغت حد التهور فقد اتجه إلى المدينة ليشرح للخليفة الوضع ويقدم اعتذاره عما حدث .

وكان الفاروق عمر قد نصح الخليفة الأول بأن لا يولي خالد بن سعيد أي منصب قيادي : غير أن غضب الخليفة كان شديداً على خالد (بعد أن نكب الجيش في الشام على يده) .

ومع احترام الخليفة لخالد فإنه عندما بلغه اقترابه من المدينة أصدر اليه أمراً يمنعه بموجبه من دخول المدينة إلا بإذن خاص ، وأمره بأن يقيم بالمروة [1] حيث حدد إقامته هناك مدة من الزمن ، ثم رضي عنه وسمح له بدخول المدينة وصفح عنه ولكنه عزله عن القيادة .

قال الطبري ج ٣ ص ٢٩١/٢٩٢ : لما قدم خالد بن سعيد المروة وأتا أبابكر الخبر ، كتب إلى خالد : أقم مكانك فلعمري أنك مقدام محجام نجاء من الغمرات لا تخوضها إلا إلى حق ، ولا تصبر عليه ، ولما كان بعد : وأذن له في دخول المدينة . ثم قال خالد للخليفة : أعذرني . قال : أخطل ؟ أنت امرؤ جبن لدى الحرب ، فلما خرج قال الخليفة كان عمر وعلي أعلم مني بخالد ، ولو أطعتهما فيه اختشيته واتقيته .

---

(١) المروة أو ذو المروة موضع بوادي القرى .

وقال الطبري : لم يزل عمر بن الخطاب يكلم أبا بكر في خالد بن الوليد وفي خالد بن سعيد ، فأبى أن يطيعه في خالد بن الوليد وقال : لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكفار : وأطاعه في خالد بن سعيد بعد فعلته : — يعني توريطه الجيش بالزحف على دمشق وهو مكشوف الظهر — .

الهجوم الشامل على الشام ١٣هـ

بعد تجربة القائد خالد بن سعيد ونجاحه السريع ثم فشله المفاجيء في حملته الأولى على الشام شرع الخليفة الأول في تنفيذ خطته المتعلقة بغزو الشام غزواً شاملاً لتطهيره من الإحتلال الروماني ونشر الإسلام فيه .

فقرر أن يبعث بأربعة جيوش عين لها قادة أربعة من أشهر وأمهر القادة بين المحاربين المسلمين . وقد عين لكل قائد إقليماً في الشام تكون فيه عملياته العسكرية .

والقادة الأربعة هم :

١ — أبو عبيدة بن الجراح [١] قائد الجيش الأول .

٢ — يزيد بن أبي سفيان [٢] قائد الجيش الثاني .

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) هو يزيد بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموى أخو معاوية . قال ابن الاثير في اسد الغابة افضل بني ابي سفيان . وكان يقال له يزيد الخير .. اسلم يوم فتح مكة ، وشهد حنيناً واعطاه النبي صلى الله عليه وسلم من الغنائم بها مائة من الابل واربعين اوقية من الفضة . كان له اليد الطولى في فتح ساحل الشام الاوسط . وكان اخوه معاوية يعمل قائد تحت امره . وكان نزيهاً محبوباً وكان عمر يجله ويثق به . كان اميراً على الشام كلها في عهد عمر بن الخطاب بعد وفاة ابي عبيدة ومعاذ بن جبل . ومات سنة تسع عشرة وهو امير عليها .. وهو الذى افتتح قيسارية قاله ابن الاثير .. روى عنه ابو عبد الله الاشعرى رضي الله عنه وارضاه .

٣ – عمرو بن العاص [١] قائد الجيش الثالث .

٤ – شرحبيل بن حسنة : قائد الجيش الرابع .

وقد خصص للقائد الأول إقليم حمص وما جاورها : وخصص للقائد الثاني إقليم دمشق وما جاورها : وخصص للقائد الثالث إقليم فلسطين، وخصص للقائد الرابع إقليم الأردن المسمى آنذاك بالبلقاء [٢] (انظر الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٧٦/٢٧٧ والبداية والنهاية ج ٧ ص ٣) .

الاستنفار العام بين المسلمين

ويشير المؤرخون إلى أن الخليفة الأول لما فتح باب الجهاد الشامل في الشام والعراق أعلن ما يسمى بالاستنفار العام في جزيرة العرب . فدعا كل القادرين على حمل السلاح إلى أن ينخرطوا في سلك الجيوش المجاهدة في سبيل الله .

قال الطبري (وهو شيخ المؤرخين) :

تاريخ التحرك إلى الشام

« لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلى الشام : فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين . فأخذ طريق المعرقة على إيلة : وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ، وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام » .

أما الإمام ابن كثير فقد كان أكثر تفصيلاً لبداية الغزو حيث قال في كتابه (البداية والنهاية) .

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا السابع من الغزوات (غزوة مؤتة) .

(٢) البلقاء مقاطعة في جنوب الشام من اعمال الاردن وهي الآن إحدى محافظات المملكة الاردنية الهاشمية .

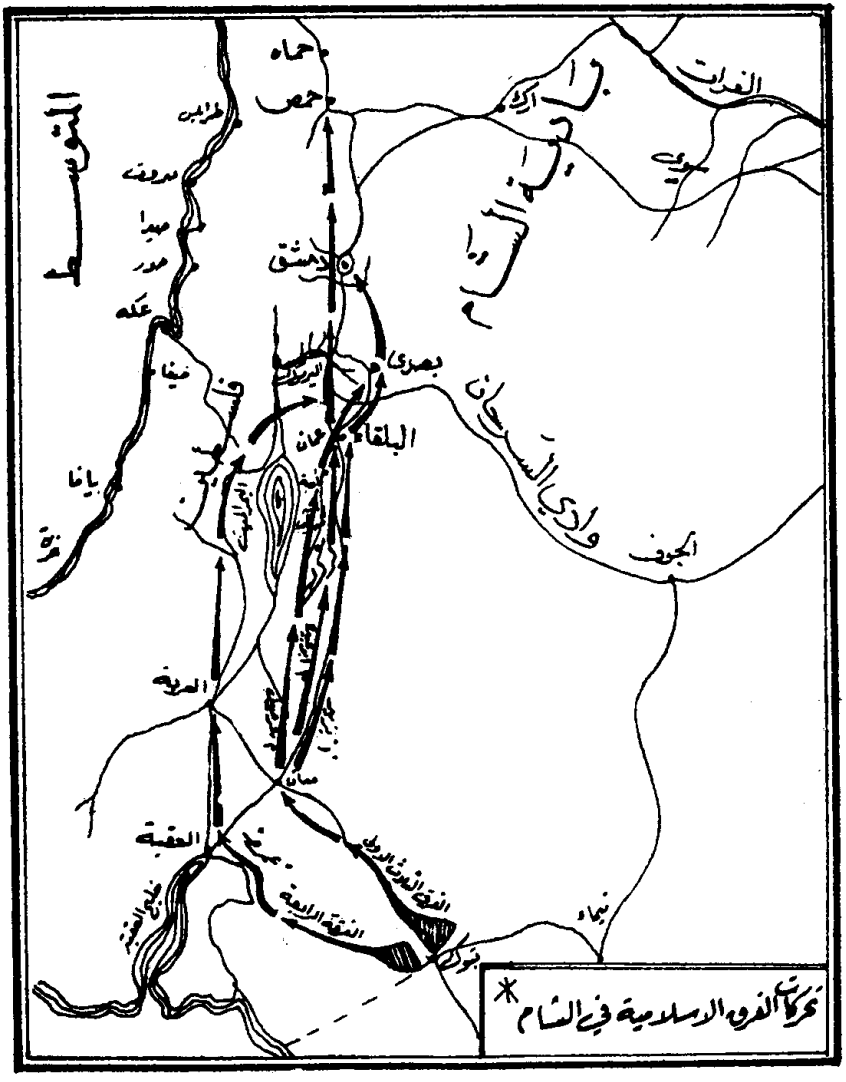

* – عن كتاب « تاريخ العرب العسكري » لمحمود الدرة (بتصرف) .

(ولما اجتمع عند الصديق من الجيوش ما أراد قام في الناس خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم حث على الجهاد . فقال : ألا لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه ، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا انه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا إيمان لمن لا خشية له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وان في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به هي النجاة التي دل الله عليها إذ نجى بها من الخزى أهل الكرامة : ثم شرع الصديق في تولية الأمراء وعقد الألوية والرايات .

فعقد لواء ليزيد بن أبي سفيان ومعه جمهور الناس ، ومعه سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة ، وخرج معه ماشياً يوصيه بما اعتمده في حربه ومن معه من المسلمين ، وجعل له دمشق .

وبعث أبا عبيدة بن الجراح على جند آخر وخرج معه ماشياً يوصيه وجعل له نيابة حمص .

وبعث عمرو بن العاص ومعه جند آخر وجعله على فلسطين .

ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن [1] .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة الصديق أمر قادة الجيوش الأربعة أن يسلك كل قائد منهم طريقاً غير طريق الآخر : على أن يكون ارتباط كل قائد من الأمراء الأربعة بالخليفة مباشرة باعتباره القائد الأعلى للجيش ، وهذا يعني أنه يوم ذاك لم تكن هناك قيادة موحدة للجيوش الأربعة التي بدأت العمل في الشام : فقد كان كل قائد يقوم بعملياته بصورة منفردة .

غير أن الخليفة الأول عدل هذا الأسلوب (بعد أن استفاد منه العدو) فقام

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٢ .

بتوحيد الجيوش الأربعة تحت قيادة واحدة هي قيادة خالد بن الوليـــد الذي حضر إلى الشام من العراق كما سيأتي تفصيله في حينه .

توالي الامدادات إلى المدينة

ويتحدث الطبري عن حشد الجيوش واجتماع الأمراء فيقول : وقدم على أبي بكر أوائل مستنفرة من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكـلاع الحميري (ملك حمير السابق) .

وقدم عليه عكرمة بن أبي جهل قافلاً وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو [1] ، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات (الزكاة) أن يبدلوا من استبدل ، فكلهم استبدل ، فسمي ذلك الجيش جيش البدل ، فقدموا على خالد بن سعيد ، وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره .

ويتحدث أبو جعفر عن اهتمام الصديق بابن العاص فيقول : وكان أبو بكر رد عمرو بن العاص على عمالة كان رسول الله ﷺ ولاها إياه من صدقات سعد بن هذيم (بطن من قضاعة) وعذرة ومن لفها من جذام وحدس قبل ذهابـــه إلى عمان ، فخرج إلى عمان وهو على عدة عمله إذا هو رجع ، فأنجز له ذلك أبو بكر .

فكتب أبو بكر عند اهتياجه إلى الشام إلى عمرو : « إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك إلى

---

(١) السرو بفتح أوله وسكون ثانيه . قال في المراصد : سخاء في مروءة ، وهو منازل حمير عدة مواضع . سرو حمير ، وسرو العلا ، وسرو مندد ، وسرو بئر الحجـــاز ، وسرو سحيم ، وسرو العلا ، وسرو لبن ، وسرو صنعاء ، وسرو السواد بالشام ، وسرو الوعل بالرمل يجهـــة بينه وبين الماء من كل جهة ثلاث ليال بين فلاة ارض طيء ، وارض كلب . والسرو قرية كبيرة مما يلي مكة ، وإلى هذه السروات ينسب القوم يحضرون مكة ويحلبون الميرة ، وهم قوم غتم اشبه بالوحش اه المراصد ج ٢ ص ٧١١ .

عمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت — أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ألا افـــه يكون الذي أنت فيه أحب اليك » .

فكتب اليه عمرو :) اني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاء من ناحية من النواحي) .

وكتب إلى الوليد بن عقبة بنحو ذلك ، فأجابه بإيثار الجهاد [1] .

ويشير الطبري في موضع آخر من تاريخه (ج ٣ ص ٣٩١) إلى أن عمرو بن العاص تلقى مرسوم تعيينه قائداً للجيش الثالث في الشام وهو ببلاد قضاعة شمال الجزيرة بالقرب من حدود الشام ، حيث كان هناك أميراً وإلى جانبه الوليد بن عقبة ، فقد قال أبو جعفر :

كتب أبو بكر إلى عمرو وإلى الوليد بن عقبة — وكان على النصف من صدقات قضاعة — وكان أبو بكر شيعهما مبعثهما على الصدقة وأوصى كل واحد منهـــما بوصية واحدة : « اتق الله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يجعـــل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، إنك في سبيل من سبـــل الله ، لا يشغلك فيه الأذهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم ، فلا تن ولا تفتر ، وكتب اليهما (كي يستعدا للزحف على الشام) : إستخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما :

فولى عمرو على علياء قضاعة عمرو بن فلان العذري ، ولى الوليد على ضاحية

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٨٩ .

قضاعة مما يلي دومة امرؤالقيس ، وندبا الناس فتتام اليهما بشر كثير وانتظرا أمر أبي بكر » .

وجاء الأمر ، فأمد أبو بكر عمرو بن العاص ببعض من انتدب إلى من اجتمع اليه وأمره على فلسطين بطريق سماها له ، وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ، ثم عين الخليفة شرحبيل بن حسنة قائداً للكتائب العاملة في الأردن خلفاً للوليد فانضمت تلك الكتائب إلى جيش شرحبيل وهو الجيش الرابع [1]

أعظم الجيوش الأربعة جيش يزيد

ويدل حديث المؤرخين عن تعيين الجيوش الأربعة إلى أن الجيش الذي يقوده يزيد بن أبي سفيان كان في البداية هو أهم الجيوش الأربعة التي تحركت من الجزيرة إلى الشام ، حيث ذكروا أن الخليفة الأول أمر يزيداً على جند عظيم ، هم جمهور من تطوع للجهاد في الشام [2] .

وكان يزيد بن أبي سفيان بن حرب [3] من خيرة شباب الإسلام ومن السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان لنزاهته وبصره بالحرب ومعرفته بشؤون الحرب وسياسة الأمم ظل أميراً يجاهد في سبيل الله طول عهود أبي بكر وعمر ، وكان أخوه معاوية (رغم خبرته الفائقة) يعمل قائداً تحت أمره . وظل يزيد بعد فتح دمشق أميراً عليها ومتصرفاً في إقليمها وكان الساحل تابع لامارة دمشق .

لذلك وجه أخاه معاوية على رأس جيش إلى الشريط الساحلي ففتح في عهده بيروت وعرقة وجبيل .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٩٠ .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٩٠ .
(٣) انظر ترجمة ابي سفيان في كتابنا الاول (غزوة بدر الكبرى) .

الوصية التاريخية من أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان

ويحسن بنا أن نسجل هنا الوصية التاريخية التي وصى بهـــا الخليفة الأول والقائد الأعلى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان لأن هذه الوصية تعتبر بمثابة دستور رائع للحرب العادلة التي شنها الصحابة في مختلف الجبهات جهاداً في سبيل الله . فقد قال أبو بكر ليزيد وهو يودعه خارج المدينة :

« إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فإن أحسنت رددتـك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك : فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنـك مثل الذي من ظاهرك ، وان أولى الناس أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً اليه بعمله .

وقد وليتك عمل خالد بن سعيد ، فاياك وعبية الجاهلية ، فان الله يبغضهـا ويبغض أهلها ، وإذ أقدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز ، فان كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً : وأصلـح نفسك يصلح لك الناس ، وصل الصلوات لأوقاتهـا باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأطل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علـك وأنزلهم في ثروة [1] عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك ، فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر في أصحابك تأتك الأخبار ، وتتكشف عندك الأستار .

ثم أمره باقامـة الحراسة وتسيير الدوريات والتفتيش على المسؤولين عن الحراسة فقال :

---

(١) ثروة العسكر كثرتهم .

وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ،وعاتبه في غير إفراط.

ثم أمره ووصاه بأن تكون دوريات الحراسة العسكرية بالتناوب كي لايصيب الإرهاق الحرس . فقال : وأعقب بينهم الليل ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فانها أيسرها لقربها من النهار ، ولا تخفف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ، ولا تسرع اليها ولا تتخذ لها مدفعاً ، ولا تغفل عن أهل عسكرك ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العبائين ، وجالس أهل الصدق والوفاء ، وأصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الفلول ، فانه يقرب الفقر ويدفع النصر .

ثم أوصاه بأهل الذمة من غير المسلمين وخاصة زعماء الدين منهم فقال : وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له .

مدى علم البيزنطيين بالتحرك الاسلامي إلى الشام

لم يكن الرومان غافلين عما يجري في المدينة وغيرها من استعدادات لغزو الشام .

فقد كانت استخبارات بيزنطا من اليهود والعرب المتنصرة العملاء في المدينة ينقلون اليها أنباء الحشد والتحرك أولاً بأول .

كان الإمبراطور هرقل – عندما تقدمت الجيوش الإسلامية الأربعة – موجوداً في حمص .

وذكر المؤرخون أن الملك هرقل (وهو عالم بكتبهم وبصدق نبوة محمد ﷺ حاول وللمرة الثالثة إقناع وجوه وقادة الرومان بضرورة مصالحة المسلمين

وتجنب الصدام الدامي معهم : وذلك بدفع الجزية لهم والاعتراف بسلطانهم على الشام مع بقاء الرومان فيها بأملاكهم المنقولة وغير المنقولة ، وذلك حقناً للدماء التي ستراق أنهاراً دون أن يكسب الرومان شيئاً .

لأن الامبراطور (كما أخبر خاصته) على علم بأن المسلمين سيملكون الشام إن سلماً وإن حرباً ، فهو يجد ذلك مكتوباً في كتبهم التي يعلم كبار رهبانهم المنتفعين بالسلطان ما فيها من حقائق حيال صدق نبوة محمد ﷺ .

ولكن البطارقة وكبار ضباط الجيش البيزنطي وكبار الأحبار رفضوا فكرة الإمبراطور ، واعتبروا التسليم للعرب المسلمين إهانة لأعظم امبراطورية وأقوى دولة في العالم آنذاك .

فكيف إذن (وحسب تعبيرهم) تستطيع حفنة من البدو شبه العراة قهر امبراطورية عجزت امبراطورية كسرى العظيمة عن النيل منها وركعت أمامها في الحرب الأخيرة القريبة التي اصطدمت فيها الإمبراطوريتان ، وانتصر فيها هرقل انتصاراً باهراً على الفرس ، فاسترجع منهم بيت المقدس وكل ممتلكاته التي سبق للفرس الأكاسرة وان استولوا عليها في بلاد الشام ومصر وبعض آسيا الصغرى ، فقد كان الرومان – عندما اقتحمت جيوش الإسلام حدود الشام الجنوبية – يعيشون سكارى في نشوة الإنتصار الساحق الذي حققه لهم هرقل على إمبراطور الفرس .

ولكن الملك هرقل (وكان عالماً بالإنجيل الصحيح) أبلغ من يظنهم عقلاء متزنين مثقفين ان حرب المسلمين تختلف عن حربهم مع الفرس .

فالفرس مثل الرومان تماماً ، يحاربون من أجل الأرض ، والأرض فقط .

فلا عقيدة ولا دين مكين يدفعهم للقتال ، وإنما هو التوسع ، والتوسع فقط بالسعي لإضافة أراض جديدة لحساب تاج بيزنطا . فهم يحاربون بروح استعمارية

هدفها استغلال الأراضي التي يستولون عليها فيتمتعون بخيراتها الفياضة مثل الشام وأرمينيا ومصر وأفريقيا .

حرب العقيدة عند المسلمين

أما المسلمون ، فهم في حروبهم (أيا كانت) ينطلقون من مفهوم آخر ، وهو أنهم يحملون عقيدة كلفوا باشهار السلاح في وجه من يحاول حرمانها حرية الإنطلاق بين شعوب الأرض ، إنها رسالة سماوية صادقة يحملون لواءها بعد وفاة نبيهم التي جاء بها (حقاً) من عند الله تعالى .

ولهـذا فان النصر (ولا شك) سيكون حليفهم في أي صراع دامي ينشب بينهم وبين من يعترض دعوتهم .

هكذا كان فهم الإمبراطور هرقل لأبعاد رسالة الإسلام .

وفي اجتماع على مستوى كنسي وعسكري وسياسي في حمص حاول هرقل إقناع أقطاب قومه المجتمعين أن يعوا هذه الحقيقة ويسلموا بها .

وإذا لم يرق لهم قبول الإسلام كدين يحل محل المسيحية المحرفة ، فـلا أقل من أن يتحاشوا الصدام مع حملة لواء هذا الدين الجديد لأن النتيجة معروفـة سلفاً لديه بالتأكيـد وهي تغلب المسلمـين على كل من يحاول الوقوف في وجه دعوتهم .

وما دام هكذا ، فان على الرومان أن يجنحوا للسلم ويقبلوا (على الأقل) دفع الجزية للمسلمين ، وإلا فانهم سيتعرضون لمجازر رهيبـة ، ستكون نتيجتها فقدان الرومان الشام ووقوعها في قبضة المسلمين .

كان هرقل في ذلك الإجتماع التاريخي بحمص باخلاص وبدافع الشفقـة على قومه والحرص على أن يبقوا في الشام نفسها أحراراً في دينهم مطمئنـين على

أرواحهم وأعراضهم وأموالهم في ظل رعاية المسلمين مقابل مبلغ زهيد من المال لا يبلغ واحد في المائة مما يملكه أكثرهم يدفعونه سنوياً للسلطة الإسلامية .

غير أن وجهاء الدولة من أحبار ورهبان وقادة جيش وقادة سياسة استغربوا أن يصدر مثل هذا القول من ملك لا يزال يعيش أفراح أعظم انتصار سجله على أعظم امبراطورية في الشرق كانت تنازع بيزنطا السيطرة وهي امبراطورية الفرس : استغربوا بل استهجنوا أن يصدر مثل هذا القول ويطلب من سيدة الشرق الأوسط (بلا منازع دولة بيزنطا) أن تعطي الذل والصغار لحفنة من البدو جاءوا من الصحراء حفاة شبه عراة ، بل غضبوا لهذا القول وهموا بالفتك بالامبراطور ، لولا أنه بلباقته وسعة دهائه تمكن من استرضائهم وقبل (مكرهاً) حفاظاً على ملكه في آسيا الصغرى – أن يحارب المسلمين ، رغم يقينه بأنه سيخوض معهم حرباً خاسرة .

حيث أنزل المسلمون بالجيوش الرومانية الهزيمة تلو الهزيمة حتى أخرجوهم من الشام بعد أن كبدوهم ما لا يقل عن مائتي الف قتيل ، فصح يقيناً وتذكر الرومان بعد فوات الأوان ما قاله هرقل لأقطاب دولته حين نصحهم بحمص أن يصالحوا المسلمين : (أما إن أبيتم إلا محاربة المسلمين فانهم سيملكون ما تحت قدمي وما تحت سريري .

خطة الخليفة الصديق الأولى في الزحف على الشام

وهكذا وبعد أن رفضت مختلف الفئات الرومانية من كبارهم نصيحة الملك هرقل ، اضطر إلى مصانعتهم وعدم إغضابهم حفاظاً على ما يتبقى من الملك فقرر أن يصادم جيوش المجاهدين المسلمين التي كانت قد دخلت (فعلاً) الشام من حدوده الجنوبية .

لقد كانت خطة الخليفة الأول والقائد الأعلى لجيوش الإسلام التي رسمها أول

الامر لاقتحام الشام تقضي بأن يقاتل كل أمير من أمراء الجيوش الأربعة في الشام منفرداً عن الآخر في إقليم خاص به .

١ – أبو عبيدة بن الجراح : في منطقة حمص.

٢ – يزيد بن أبي سفيان (وهو قائد أضخم جيش) في منطقة دمشق العاصمة .

٣ – عمرو بن العاص : في منطقة فلسطين .

٤ – شرحبيل بن حسنة : في منطقة الأردن .

وكانت قوات الجيوش الأربعة كلها لا تزيد على واحد وعشرين الفـاً : بينما القوات الرومانية المتواجدة في الشام (آنذاك) لا تقل عن ربع مليون مقاتل.

خطة بارعة محكمة لو لم يحبطها العرب

وعندما عبرت الأرتال العربية الإسلامية حدود الشام وتبلغ الرومان التقارير المفصلة عن حجم القوات الإسلامية من استخباراتهم وتفاصيل خطتهم للزحف على الشام : تدارس قادتهم الأمر فيما بينهم لوضع خطة المواجهة التي يمكنهم أن يقضوا على القوات الغازية من مجاهدي المسلمين .

وأثناء البحث تبين لهؤلاء القادة أن عمل كل أمير من أمراء المسلمين مستقلاً عن الآخر هو في صالح القيادة الرومانية إلى حد كبير .

ذلك ان وحدات الجيش الروماني تستطيع (وبما لديهـا من قوات غامرة متفوقة تفوقاً ساحقاً) أن تضرب الأمراء الاربعـة والقضاء عليهم الواحد بعد الآخر ، دون أن يستطيع أحد من الامراء إنجاد الآخر .

فالقيادة الرومانيـة لتفوقهم البشري الهائل يستطيعون (بسهولة) أن يحشدوا لمواجهة كل بضعة آلاف من المسلمين منفردة ستين الف روماني .

وللخبير العسكري أن يقدر أية خطورة كانت تحيق بسبعة آلاف مقاتل حين يتعرضون للهجوم من قبل ستين الف مقاتل أو يزيدون .

فسبعة آلاف (وهو ليس كل قائد من القادة الاربعة المسلمين يقود أكثر منهم) ليس من السهل عليهم مواجهة ستين الفاً أو يزيدون يتفوقون عليهم في جودة التسليح وفي كل شيء مادي ، مهما كانت شجاعة وبسالة السبعة الآلاف هؤلاء ، لان الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون .

وهكذا فقد اغتبطت القيادة الرومانية للخطة التي بموجبها دخلت وحدات الجيش الإسلامي التراب الشامي ، فرسمت هيئة أركان الرومان (باشراف الإمبراطور هرقل نفسه) خطة تقضي بأن تتحرك قوة رومانية غامرة لمهاجمة أمراء الإسلام الاربعة الواحد بعد الآخر ، وذلك لتسهل تصفية جيوش الإسلام الاربعة كل جيش منها على انفراد .

وعلى أساس هذه الخطة التي رسمها هرقل في حمص تحركت جيوش رومانية أربعة لا تقل قوات كل جيش منها عن ستين الفاً من الرومان والمرتزقة من العرب المتنصرة .

وقد عين هرقل لهذه الجيوش الأربعة قادة كبار وهم :

١ التذارق أخو الإمبراطور نفسه .

٢ - جرجه بن توذرا وهو الذي أسلم يوم اليرموك على يد خالد بن الوليد .

٣ – الدراقص .

٤ – الفيقار (وكان فيما بعد أحد قادة اليرموك العظام) .

وكان التذارق أخو الإمبراطور يقود تسعين الفاً ، وكان مكلفاً بمهاجمة الأمير عمرو بن العاص في فلسطين .

أما الفيقار بن نسطوس الذي كان يقود ستين الفاً ، فكان مكلفاً بمهاجمة أبي عبيدة في منطقة حمص .

والقائد الدراقص كلف بمهاجمة شرحبيل بن حسنة في منطقة الأردن .

أما جرجه ، فقد كان مكلفاً بأن يهاجم الأمير يزيد بن أبي سفيان في منطقة العاصمة دمشق .

ولو أن المسلمين استمروا يحاربون بموجب الخطة الأولى التي وضعها الخليفة في المدينة لتمزقت جيوشهم الواحد بعد الآخر دون أن يتمكن أحدهم من إنجاد زميله .

ولكن الأمراء الأربعة أفسدوا (وبسرعة) على القيادة الرومانية خطتها الرهيبة .

فقد نقلت استخبارات كل أمير اليه تفاصيل كامل خطة الرومان التي رسمها الإمبراطور هرقل بحمص لتصفية الجيوش الإسلامية الأربعة بالتقسيط .

فأزعج ذلك الأمراء الأربعة ، وتم الإتصال السريع فيما بينهم للتشاور لمواجهة الخطة الرومانية الجهنمية ، فاتفقوا (لإحباط خطة الرومان) على أن تجتمع الجيوش الأربعة في مكان واحد صالح لخوض معركة حاسمة مع الجيوش الرومانية .

وذكر المؤرخون أن صاحب فكرة التجمع هذه هو الأمير عمرو بن العاص ، وكان قمة في السياسة العسكرية .

وقبل التجمع أبلغ القادة الأربعة الخليفة الأول خطورة الموقف وتفاصيل خطة الرومان لابادتهم ، وأنهم لذلك قرروا الانسحاب من كافة الأراضي التي سيطروا عليها كي يتجمعوا كلهم في مكان واحد ليتمكنوا من إحباط خطة الرومان ، وإجبارهم على خوض معركة فاصلة تخوضها مشتركة كل وحدات الجيوش الاسلامية الأربعة .

وقد وافق الخليفة الأول على هذه الخطة بسرعة . وكان عمرو بن العاص قد أشار على القادة الثلاثة بأن يكون التجمع في اليرموك ، ومن أعجب الاشياء أن رأي الامير عمرو كان مطابقاً لرأي الخليفة بالنسبة لاختيار اليرموك ليكون ميدان المعركة الفاصلة . حيث كتب الخليفة للقادة الاربعة يأمرهم بالاجتماع في اليرموك .

قال الطبري يصف ذلك الموقف : « وأوعب القواد بالناس نحو الشام ، وعكرمة (بن أبي جهل) ردء للناس ، وبلغ الروم ذلك ، فكتبوا إلى هرقل ، وخرج هرقل حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود وعبى لهم العساكر ، وأراد إشغال بعضهم عن بعض بكثرة جنده وفضول رجاله (الفضول هنا ما زاد عن الحاجة) .

وأرسل إلى عمرو بن العاص أخاه التذارق ، فخرج نحوهم باتجاه فلسطين في تسعين الفاً ، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة (أي المؤخرة) ثنية جلق بأعلى فلسطين .

وبعث جرجه بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان ، فعسكر بإزائه ، وبعث الدراقص ، فاستقبل شرحبيل بن حسنة ، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين الفاً نحو أبي عبيدة فهابهم المسلمون ، وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون الفاً ، سوى عكرمة في ستة آلاف : ففزعوا جميعاً بالكتب والرسل إلى عمرو بن العاص يسألونه : ما الرأي ؟

فكاتبهم وراسلهم : أن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لن يغلب من قلة : وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا ، فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمراً ، فطلع عليهم كتابه بمثل رأي عمرو : بأن اجتمعوا

فتكونوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما العشرة الآلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب .

فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه .

وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى بطارقته : أن اجتمعوا لهم وأنزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ، ضيق المهرب ، وعلى الناس التذارق ، وعلى المقدمة جرجه ، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص ، وعلى الحرب (أي القائد العام) الفيقار ، وأبشروا فان باهان في الاثر مدداً لكم ، ففعلوا ، فنزلوا الواقوصة ، وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهب [1] لا يدرك ، وإنما أراد باهان وأصحابه أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها » [2] .

الانسحاب الموقت

ونتيجة الخطة الجديدة خطة تجمع الجيوش الاربعة باليرموك والتي اقترحها عمرو بن العاص وصادق عليها الخليفة ، أخذت الجيوش الاربعة تتجمع في اليرموك وتنسحب من كل المناطق التي سبق وأن سيطرت عليها (بداية الزحف) في الشام .

فقد انسحب أبو عبيدة من منطقة حمص ، وانسحب يزيد بن أبي سفيان من منطقة دمشق ، وانسحب شرحبيل بن حسنة من الاردن ، وأخذ عمرو بن العاص في الانسحاب تدريجياً من فلسطين ، ولكنه لم يتمكن من الانسحاب منها

---

(١) اللهب بالكسر : الفرجة بين الجبلين .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٢ .

حتى أنجده خالد بن الوليد (قبل اليرموك) لان القائد الروماني لمنطقة الساحل كان يطارده محاولاً سحق جيشه الصغير وهو ينسحب في اتجاه اليرموك ، فظل عمرو يناور في بئر السبع حتى وصل اليه خالد وشن بالاشتراك معه هجوماً مضاداً على الرومان ، فكانت معركة أجنادين الرهيبة التي فقد الرومان فيها (قبل اليرموك) حوالي ثمانين الفاً .

وبعد أن حطم خالد مع عمرو جيش الروم بفلسطين انسحب الاثنان مع بقية القادة إلى اليرموك من فلسطين .

وضع القادة الأربعة في اليرموك

عندما تجمعت الجيوش الثلاثة في الشام ، كان كل أمير من الامراء الاربعة قائداً لجيشه الخاص الذي به عبر الحدود من الجزيرة حتى جاء خالد بن الوليد من العراق ، يحمل مرسوماً من الخليفة الاول بتولي القيادة العامة كل الجيوش العامله في الشام ، فاندمجت لذلك كل الجيوش الاربعة في جيش واحد تحت قيادة خالد كما سيأتي تفصيله عند الحديث المفصل عن معركة اليرموك الحاسمة .

تجمع الروم في اليرموك

وعندما بلغ القيادة الرومانية شروع القادة الأربعة في الانسحاب من المناطق التي احتلوها بالشام وعلموا أنهم سيجتمعون باليرموك غاظهم ذلك ، لأن تصرف القادة الأربعة المسلمين نسف خطة هرقل المحكمة التي وضعها لتصفية الجيوش الإسلامية الأربعة كل واحد منفرداً .. وهنا سارعت القيادة الرومانية وبأمر من هرقل في مرسوم أصدره – إلى التوافد على اليرموك لتسبق إلى المواقع الاستراتيجية التي تضمن أنها ستكون عوناً لها على سحق قوات الإسلام في المعركة الفاصلة المنتظرة . وفعلاً عسكرت بازاء المسلمين قوات رومانية بلغ تعدادها مائتان وستون الفاً . بينما جيوش الإسلام كلها التي تجمعت (قبل أن يصل ابن العاص وخالد بن الوليد) – لا تزيد على أربعة عشر الفاً .

القادة الثلاثة يطلبون المدد من المدينة

وعندما رأى أبو عبيدة وبقية القادة في اليرموك كثافة الجيوش الرومانية التي تستعد لمصادمتهم ، سارعوا إلى رفع تقرير مفصل إلى المدينة ، أبلغوا فيه الخليفة الأول بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة الإسلامية كامل التفاصيل عن وضعهم الحرج وكثافة الجيوش الرومانية التي بازائهم ، والمواقع التي أخذت تتمركز فيها في فتحة درعا (اليرموك) وطلبوا من الخليفة إنقاذ الموقف بارسال قوات كافية تساندهم في معركتهم المنتظرة التي أيقنوا أن المنتصر فيها هو الذي سيقرر مصير الشام كلها ، نظراً لكون الفريقان حشدا لها كل ما لديهما من قوات هناك ، وتبلغ الخليفة أن عمرو بن العاص قائد الجيش الرابع في فلسطين ومعه سبعة آلاف مقاتل عاجز عن الحركة والتحرك نحو اليرموك لكون قائد منطقة الساحل الروماني ومعه مائة الف مقاتل يراقبه ويحاول الإيقاع بجيشه وإبادته كي لا ينضم إلى التجمع الإسلامي في اليرموك ، وهذه مشكلة عسكرية لا بد من حلها لانقاذ جيش عمرو الذي لولا مهارته في المراوغة والمناورة لسحق القائد الروماني جيشه الصغير .

كيف أنقذ الخليفة الموقف

وعندما تبلغ الخليفة الأول التقارير المفصلة عن وضع أكثر القوات الاسلامية المجتمعة في اليرمرك وحراجة موقف عمرو بن العاص جيشه الصغير بفلسطين وأنه (وهو قائد أكبر مجموعة بين القادة الأربعة) يعاني صعوبة شديدة في التحرك بل انه عاجز عن الخروج من معقله في بئر السبع إلى اليرموك بسبب مراقبة قائد القوات الساحلية الروماني له ومحاولته الايقاع به .. عقد اجتماعاً على مستوى عال مع كبار المهاجرين والأنصار (وخاصة خبراء الحرب منهم) وبعد تدارس الوضع من جميع جوانبه ، قرر الخليفة الأول أن يأمر (وعلى جناح السرعة) قائد

الجبهة الشرقية في العراق خالد بن الوليد بأن يتوجه بنصف القوات العاملة في العراق إلى الشام للانضمام إلى التجمع الاسلامي في اليرموك .

تعيين خالد بن الوليد أميراً على جيوش للشام

وأصدر الخليفة مرسوماً عين بموجبه خالدبن الوليدقائداًعاماً لجميع الوحدات العاملة في الشام كي يخوض بهم معركة اليرموك الفاصلة المنتظرة .

كان خالد - قبل الزحف على الشام - يخوض حرباً مظفرة ضد الفرس في العراق ، وكان فيها يسير من نصر إلى نصر فقد سيطر على ثلثي العراق، واحتل العاصمة الثانية الحيرة (مدينة المناذرة) وقارب في زحفه حدود آسيا الصغرى (تركيا اليوم) وكان ينوي - بعد السيطرة على غربي الفرات ومابين النهرين - الزحف على العاصمة الكبرى للفرس (المدائن) .

غير أن تحرج الوضع في الشام جعل الخليفة الأول والقائد الأعلى يضطر إلى أن يأمر خالداً بترك العراق وأن يأخذ معه نصف الجيش ليلحق بالشام فيسند المسلمين هناك ويكون قائداً عاماً لهم جميعاً .

وعلى أثر هذا التغيير الجذري في الحرب بالجبهتين الشرقية والغربية ، تنفس الفرس الصعداء مؤقتاً حين رأوا مفزعهم الأكبر خالداً يترك العراق ويترك بطلاً آخر مكانه هو المثنى بن حارثة الشيباني الذي التزم (مضطراً) خطة الدفاع في العراق لصغر حجم جيشه بعد غياب خالد .

بل نتيجة الاستراتيجية الجديدة التي فرضتها على الخليفة ظروف الحرب الحرجة في الشام جعلت المثنى (آخر الأمر) ينسحب بانتظام من جميع الأراضي التي حررها خالد في العراق حتى جاء الأسد الهصور سعد بن أبي وقاص وشن الحرب على الفرس من جديد ، وافتتح انتصاراته المؤزرة عليهم بانتصاره في معركة القادسية الحاسمة التي قتل فيها رستم وزير حرب الفرس وقائد جيوشهم

في المعركة . كما سيأتي تفصيله إن شاء في الكتـــاب الذي سنخصصه باذن الله للحديث عن (حروب الاسلام في العراق) .

مختصر عن الوجود الروماني في الشام

قبل الدخول في تفاصيل معركة اليرموك الحاسمة التي كسبها خالد بن الوليد وكان انتصاره بداية نهاية الوجود الروماني في الشام ، بل وفي أرمينيا وآسيـــا الصغرى ، لا بد من إعطاء لمحة عن الوجود الروماني في الشام .

لقد كان الوجود الروماني في الشام قديماً جداً ، يرجع إلى ما قبل الميلاد ، وقبل أن ينشطر الرومان إلى فئتين تناوىء الفئة منها الأخرى : فئة شرقيـة وهي المسماة ببيزنطا وعاصمتها القسطنطينية : وفئة غربية عاصمتها روما .

قبل هذا الانشطار وطوال عهود الأنباط وآل أذينة في تدمر : كان الشام تابعاً لروما ، غير أن الشام لم تصف دائماً للرومان ، فقد كان سلطانهم فيهـــا (لبعدهم عنها) في حالة مد وجزر ، وأحياناً انعدام كلي .

ذلك أن روما في فترة من الفترات (وهي فترةعظمة الأسرةالعربيةالشهيرة: أسرة آل أذينة وخاصة في عهد الامبراطورة الشابة النابهة الأرملة الزبا) فقدت السيطرة كلياً على الشام كلها ، بل فقدت روما أيضاً آسيـــا الصغرى (تركيا اليوم) حيث طردت جيش أسرة آل أذينة جيوش رومامن الشام وآسيا الصغرى كليهما ، حيث قذفت الجيوش العربية (بقيادة الزبا نفسهـــا جيوش روما إلى ما وراء بحر مرمرة غرباً : ووقفت الامبراطورة الزبا على سواحل بحـــر مرمرة الآسيوية تتحفز لاقتحام القسطنطينية في طريقها إلى روما : لولا أن الزمن (وكما هي سنة الله في خلقه) قلب ظهر المجن لأسرة آل أذينة العظيمة .

إذ بعد حروب ضارية خاطفة استعادت روما سلطانها على الشام من جديـد وآسيا الصغرى ، وذلك بقيادة امبراطور روما الشهير (أورليانوس الذي احتل

تدمر عاصمة المملكة العربية الأذينية ، وأخذ الامبراطورة (الزبا) وابنهـا أسيرين إلى روما حيث طوى الزمن أخبارهما ، وسبحان من ينزع الملـك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

ومنذ ذلك الوقت وهو عام ٢٧٣ للميلاد ، والشام إقليم مرتبط (كمستعمرة بتاج روما ، فكانت الشام بمثابة البقرة الحلوب للرومان ، وذلك لما تفيض بـه تربتها من خيرات .

وعندما حدث الاختلاف المذهبي التاريخي بين الروم الغربيين المتمثلـين في رومان إيطاليا وبين الروم الشرقيين المتمثلين في سكان أو بمعنى حـكام وبعض سكان منطقة القسطنطينية وآسيا الصغرى (تركيـا اليوم) ، وسواحل البحر الأسود (بحر قزوين) .

فبرزت لذلك امبراطورية رومانية جديدة أطلق عليها إسم (إمبراطورية الروم الشرقية ، وأيضاً إسم الامبراطورية البيزنطية ، واتخذت القسطنطينيـة (إسطنبول) عاصمة لها .

وبحكم الموقع الجغرافي العام صارت الشام (بعد هذا الإنقسام والتنـافر) تابعة لمملكة بيزنطا في القسطنطينية بعد أن كانت تابعة لروما .

ولا يعرف تاريخ هذا الإنشطار الخطير على وجه التحديـد ، غير أن بعض المؤرخين يرجحون أنه حدث في القرن الرابع الميلادي .

ومنذ ذلك التاريخ والصلة مقطوعة بين الشام وروما ، حيث استأثرت بهـا حكومة بيزنطا في القسطنطينية التي كانت الشام بالنسبة لها كدول الكومنولث بالنسبة لبريطانيا ، حيث كان في الشام ملوك محليون من الغساسنة العرب ، إلا أن استغلال بيزنطا للشام وخيراتها كان أكثر من استغلال بريطانيا لبعض دول الكومنولث ، فقد كان هؤلاء الملوك العرب المرتبطون بالتاج البيزنطي يتمتعون

بقسط كبير من الحكم الذاتي ، إلا أن أهم معطيات هؤلاء الملوك العرب لبيزنطا (بعد خيرات الشام) تقديم المحارب العربي الغساني كجندي ممتاز عامل في خدمة تاج الإمبراطورية البيزنطية ، حيث يعتبر الملوك الغساسنة أنفسهم (وبموجب تعهدات أعطوها لبيزنطا) ملزمين بتقديم الجيوش منهم ليكونوا إلى جانب جيوش بيزنطا في أية حروب تخوضها ضد أي عدو من أعدائها (وخاصة الفرس عدو بيزنطا التقليديين عبر العصور) .

وفي الحروب التي دارت بين المسلمين والروم في الشام كان الغساسنة رأس الحربة في جيش الإمبراطورية ضد إخوانهم العرب المسلمين ، وقد كان منهم على مقدمة الجيش الروماني في معركة اليرموك خمسون الف فارس كما سيأتي تفصيله في حينه إن شاء الله .

إيقاف الزحف على المدائن

في الوقت الذي تحرجت فيه حالة الفيالق الإسلامية الأربعة العاملة في الشام كان خالد بن الوليد المخزومي قائد عمليات الحرب في الجبهة الشرقية (العراق) يتقدم في تلك الجبهة تقدماً سريعاً ، وكان قد أدخل الرعب في نفوس قادة الفرس ، وأصبح لذكره يهتز تاج كسرى لما أنزله من هزائم بجيش الفرس وبسرعة مذهلة ما كان المسؤولون في المداين يتصورونها مطلقاً ، لأن العنصر العربي في تصورهم وحسبما خبروه عملياً في الماضي القريب ليس أكثر من عنصر فوضوي (هو شجاع في الواقع) ولكنه لا يخوض إلا حرب كر وفر ليغنم شيئاً من المال ثم يتراجع لتبتلعه الصحراء .

ولكن الفرس رأوا في خالد ورجاله نوعاً من الرجال يغاير ما كانوا يعهدون في العرب كل المغايرة ؛ رأوا بالإضافة إلى الشجاعة الفائقة نظاماً دقيقاً وانضباطاً شديداً بين فئات العنصر العربي الجديد في حروبه ، ووجدوا أنفسهم أمام

جيش يفوق أرقى الدول تمسكاً بآداب الحرب العادله (لا وحشية ولا غدر ولا خيانة ، بل رحمة وتسامح وعدل ووفاء) فعلم عقلاء الفرس وكبار مفكريهم أن شيئاً معنوياً عظيماً قد أنار أفكار هؤلاء الاعراب وجعلهم يتحولون من أسوأ مثال للفوضى والهمجية إلى أرقى مثال للانضباط والمدنية ، ولم يفتهم أن يرجعوا سبب كل هذا التحول إلى الدين الجديد الذي اعتنقه هؤلاء الاعراب وهو الإسلام، ولذلك دعا قلة من عظماء الفرس ومفكريهم وبعيدي النظر إلى مصالحة هؤلاء العرب ليتجنبوا وقوع العراق وفارس كلها ملكاً لهؤلاء العرب . ولكن الكثرة الساحقة سخروا من هذه الدعوة الغريبة في نظرهم ، وكان رستم أعظم قائد عسكري من بين الذين دعوا إلى مصالحة المسلمين ، ولكنه غلب على أمره فقاد الجيش الفارسي (مرغماً) في معركة القادسية وسقط تحت سريره في مقر قيادته قتيلاً .

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

كان القائد خالد بن الوليد (بعد سيطرته على مدينه الحيرة عاصمة المناذرة ودرة الفرات وبعد امتلاكه السواد (الريف) الواقع في التجويف بين النهرين ، وهو من أغنى المناطق الزراعية في العراق لاحتوائه على التربة الغرينية الغالية . كان بعد سيطرته على تلك المناطق يضع الخطط لاقتحام المدائن عاصمة الأكاسرة الجاثمة على نهر دجلة ، والتي لا تبعد عن الحيرة (مقر قيادة خالد) أكثر من ثمانين ميلاً والتي كانت دوريات الأمن الإسلامية تضرب في عملياتها حتى ضواحي تلك العاصمة العتيدة .

وقد ظل العملاق خالد (وهو الذي لا يصبر عن الحرب) ما يقارب السنة ينتظر الأوامر من المدينة بالتحرك من الحيرة لاقتحام عاصمة آل ساسان (المداين) التي كانت لعدة آلاف من السنين مقراً لأكاسرة الفرس .

ولطول الإنتظار الذي مله خالد ، أفصح هو نفسه عن تبرمه عن عدم الاذن له بعبور السواد إلى المداين بأن سمى تلك السنة « سنة النساء » .

دمشق بدلا من المداين

وبينما كان الأسد يتأهب للانقضاض على المداين وينتظر الاذن له بذلك إذا به يتلقى الأوامر العاجلة من القيادة العليا في المدينة بالتحرك إلى الشام ليدخل عاصمتها دمشق بدلاً من المدائن .

فقد جاءه مرسوم من الخليفة الأول والقائد الأعلى للجيش بأن يترك العراق على جناح السرعة ويأخذ معه نصف القوات المسلحة العاملة في العراق إلى الشام وفي المرسوم أبلغ خالد تحرج حالة الفيالق العاملة في الشام، وأنه مكلف بالتحرك لإنقاذ الموقف ، كما كلف في المرسوم إياه بأن يكون قائداً عاماً لكل القوات المسلحة التي عليها أن تحارب الرومان في الشام . فقد جاء في هذا المرسوم :

« سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت » يقصد أداء خالد مناسك الحج من العراق دون الحصول على اذن من الخليفة » فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع[1] الشجي من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النعمة والحظوة ، فأتم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل ،[2] فإن الله له المن ، وهو ولي الجزاء » .

هجوم الفرس المعاكس بعد غياب خالد

وكان الجيش المحارب في الجبهة الشرقية عشرين الفاً : أخذ خالد نصفه وبقي نصفه تحت قيادة المثنى بن حارثة الشيباني . فانتعشت آمال الفرس وعمهم

---

(١) النزع هو نزح الماء من البئر، وهو هنا كناية عن شدة ضرب العدو .

(٢) لا تدل : بفتح التاء وكسر الدال : لا تمن وتفتخر .

الابتهاج لغياب الرعب عن العراق والمتمثل في خالد بن الوليد وزادهم جرأة أنه اضطر إلى أن يأخذ معه إلى الشام عشرة آلاف مقاتل .

فقد قرر الفرس في الحال استعادة ما فقدوا من أراض في العراق ، وزاد من أطماعهم أن المثنى نفسه ترك العراق واتجه إلى المدينة يطلب المدد ليسد الفراغ الذي أحدثه غياب خالد بنصف الجيش .

الفرس يستعيدون مؤقتاً ما فقدوا

وفعلاً قام الفرس بهجوم معاكس خاطف سريع استعادوا به أكثر ما فقدوا من مقاطعات ومدن ، كان خالد قد حررها ومنها العاصمة « الحيرة » .

ثم نشبت في غياب خالد أيضاً معارك رهيبة بين الفرس والمسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني سقط فيها عشرات آلاف الضحايا أكثرهم من الفرس، وكان من بين الشهداء القائد العام الخلف لخالد وهو المثنى الذي استشهد متأثراً بجراحه في معركة الجسر الشهيرة ، ولكن بعد أن أعاد السيطرة للمرة الثانية للاسلام على الأقاليم التي حررها خالد واستعادها الفرس ومنها مدينة الحيرة . مما ليس هذا مكان تفصيله بل في كتاب مستقل هو : «حروب الإسلام في العراق» الذي سيتلو هذا الكتاب إن شاء الله .

حرب استنزاف وإنهاك في الشام

قبل وصول خالد بن الوليد من العراق إلى الشام كانت الفيالق الإسلامية فيها تقوم بحرب إنهاك واستنزاف ولتحقيق هذا الهدف كانت الخطة التي بموجبها اخترقت الفيالق الأربعة حدود الشام بأمر الخليفة الأول والقائد الأعلى للقوات المسلحة كلها .

يقول المقدم ياسين سويد في كتابه « معارك خالد بن الوليد » : يقول عن مهمة الفرق الاسلامية في الشام أول الأمر : « كانت المهمة الأساسية لهذه الفرق

أن تقوم بحرب نهك العدو واستنزافه ، فلا تشتبك معه في معركة فاصلة ، بل تسير نحو أهدافها النهائية ببطء وحذر ، ودون أن تلاقي العدو منفردة وأن تعمل متساندة ، وإذا اجتمعت فرقتان أو أكثر في منطقة واحدة ، فإنها تعمل متساندة .

وإذا اجتمعت فرقتان أو أكثر في منطقة واحدة فإنها تعمل جميعاً بامرة قائد واحد ، وأسباب ذلك ما يلي :

١ – لم يكن من الممكن تعيين قائد عام لهذه الفرق لصعوبة الاتصال فيما بينها ، إذ أن كلا منها كانت تعمل في منطقة بعيدة عن الأخرى ، ومنعزلة عنها وعلى محور خاص بها وباتجاه هدف خاص بها .

لذلك كانت أوامر الخليفة للقادة بأن يعملوا متساندين ، وقد سبق أكثر من مرة أن قلنا أن جيوش الاسلام قد دخلت الشام على أساس أن يستقل كل قائد من القادة الأربعة في منطقة من الشام حددها له الخليفة الاول .

يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق ومكلف باحتلال هذه المدينة .

شرحبيل بن حسنة ، في البلقاء ، ومكلف باحتلال بصرى ..

أبو عبيدة بن الجراح ، مكلف باحتلال مدينة حمص .

عمرو بن العاص (وهو قائد أهم قطاعات الجيش الاسلامي في فلسطين) مكلف باحتلال القدس .

ثم يقول المقدم ياسين سويد :

٢ – أن عدد الفرقة الواحدة منفردة قليلة جداً بالنسبة إلى عدد كل فرقة عدوة ، فضلاً عن كون العدو مجهزاً بأحدث معدات القتال ووسائله مهيئاً للحرب بأحدث أساليبها ، وعدا عن أنه كان يقاتل على أرض يحتلها هو ، وبالقرب من خطوط تموينه ومركز قيادته .

٣ – تقضي الضرورة الحربية على المسلمين المقاتلين على أرض الشام أن لا يتوغلوا فيها قبل أن تتمكن القوات الزاحفة إلى فلسطين من تثبيت أقدامها هناك .

ولا يغربن عن البال أن هذه الفرق الأربع كانت مكلفة باشغال الحرب في منطقة مساحتها مائة وعشرون الف كيلو متر مربع ، وهي منطقة تمتد من غزة غرباً حتى صحراء الشام شرقاً ، ومن معان جنوباً حتى أبواب دمشق شمالاً .

والمسافة بين غزة وصحراء الشام ثلاثمائة كيلو متراً ، كما أن المسافة بين معان وأبواب دمشق تبلغ مسافة مائة كيلو متراً ، فتنعدم وسائل اتصالها بها .

وما من وسيلة للاتصال بالقائد العام (الخليفة) إلا السعاة الذين يمتطون الإبل ويقطعون المسافة ما بين المدينة عاصمة الخلافة ومواقع الجيوش بأسابيع.

لهذا نرى الخليفة يحدد لكل فرقة طريقها الذي تسلكه وهدفها النهائي مع توجيهات عامة . تاركاً لقائدها حرية التصرف بالتفاصيل » اه .

تبوك منطلق الفيالق الأربعة

ولإعطاء صورة دقيقة عن تحركات ووضع الفيالق الأربعة وتباين اتجاهاتها وتباعدها فيما بينها .. الأمر الذي جعل القادة الأربعة (وبموافقة الخليفة) يلجأون إلى التخلي عن خطة الحرب الأولى التي وضعها الخليفة لهم نقول :

ان الناظر في خرائط التحرك للفيالق الأربعة إلى الشام يجد أن منطقة تبوك الواقعة في الركن الشمالي الغربي لجزيرة العرب كانت المنطلق لهذه الفيالق إلى الشام .

ويتضح من الخرائط المرسومة (على أساس وصف أساتذة التاريخ القدامى) أن الفيلق الأول المتجه إلى دمشق ،والثاني المتجه إلى بصرى في الجولان،والفيلق الثالث المتجه نحو حمص في الشمال ، كل هذه الفيالق الثلاثة سلكت من تبوك طريقاً واحداً حتى وصل كل فيلق إلى هدفه .

فقد سلك الفيلق الأول بقيادة يزيد بن أبي سفيان معان فالأزرق فالبلقاء فحوران فغوطة دمشق حتى رابط جنوده أمام أبواب دمشق وضربوا عليها الحصار ، وقد اصطدم جنود الفيلق الأول هذا أثناء تحركهم بقوات تماثلهم من العناصر الرومانية في وادي عربا وانتصروا عليهم .

كذلك سلك الفيلق الثاني (بقيادة شرحبيل بن حسنة) معان فالكرك فالبلقاء فبصرى ، وكان هذا الفيلق الجناح الأيمن للفيلق الرابع الذي بقيادة ابن العاص ، وقد وصل هذا الفيلق مدينة بصرى في الجولان دون أن يلقى في طريقه أي مقاومة من الرومان أو حلفائهم العرب المتنصرة الذين كانوا متواجدين (بصفة رئيسية) في الجولان ، إلا أن هذا الفيلق لم يوفق في دخول مدينة بصرى فظل محاصراً لها حتى فك هذا الحصار عندما وضعت خطة التجمع في اليرموك .

أما الفيلق الثالث (وهو بقيادة أمين الأمة ابن الجراح) فيدل سياق المؤرخين أنه سلك الطريق الذي سلكه الفيلق الأول ، وكان الفيلق الثالث الجناح الأيمن للفيلق الثاني العامل في الأردن والجولان ، والجناح الايسر للفيلق الاول العامل في منطقة دمشق .

والفيلق الثالث هذا لم يلق من الروم في تقدمه مقاومة تذكر ، اللهم إلا مقاومة بسيطة في مآب في الجنوب فتغلب على هذه المقاومة وواصل تقدمه فاحتل الجابية بدون مقاومة ، ثم دخل حمص بعد حصار لم يدم طويلاً .

أما الفيلق الرابع الذي بقيادة عمرو بن العاص والذي كانت مهمته من أشق المهمات ، فقد سلك طريقاً بعيداً جداً عن الفيالق الثلاثة ، حيث سلك طريق ساحل خليج العقبة الشرقي ، فدخل العقبة في فلسطين ، ثم اتجه شمالاً ماراً بوادي عربا ، فالناحية الغربية من بحر الميت .

وكان هدف الفيلق الرابع هذا تحرير مدينة القدس .

والفيلق الرابع الذي يقوده عمرو بن العاص ، هو الفيلق الوحيد من بين الفيالق الاخرى الذي خاض أعنف المعارك في المنطقة المخصصة له (فلسطين) قبل التجمع في اليرموك الذي دارت فيه المعركة الفاصلة التي قررت مصير الشام كلها .

فبالرغم من أن الفيلق الرابع قد احتل مساحة واسعة من فلسطين إلا أنه اصطدم في النهاية بمقاومة شديدة تحولت إلى مطاردة من القائد الروماني تيودور أخي الملك هرقل الذي أرسله للدفاع عن القدس، بالقضاء على هذا الفيلق الرابع.

فكان تيودرا يقود أكثر من سبعين الفاً بينما الفيلق الرابع لا يزيد على سبعة آلاف مقاتل .

وضع الجيش الروماني في الشام وتقييم مستواه العسكري

يقول الجنرال جلوب في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) : يصف الوضع الذي كانت عليه العسكرية الرومانية بصفة عامة (وفي الشام بصورة خاصة) :

« لم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول في حرب مع البيزنطيين .

فلقد كانت الإمبراطورية الرومانية تقوم وتستند – منذ أربعة قرون – على أكتاف المشاة الرومانيين الذين اعتبرت فيالقهم المشهورة المثل الأعلى للانضباط العسكري .

لكن جيش بيزنطا في القرن السابق لم يكن يشبه (بحال من الأحوال) تلك الفيالق ، فلقد بدأ التحول بعد معركة أدرنة [1] المشهورة في عام ثلاثمائة وثمان وسبعين – عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الروماني وإبادته بعد

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٥٣٥ فيه التفاصيل الكافية عن ادرنة وتاريخها.

أن كان نموذجاً للجيوش في العالم – تبعت هذه المعركة ثورة قتالية في الشؤون العسكرية ، إذ قدر للخيالة أن يسيطروا على ميادين المعارك للألف السنة التالية ، وكان السيف والمزراق سلاح الجندي الروماني من المشاة .

أما سلاحه الدفاعي ، فالخوذة والدرع ، وهو سلاح غير كاف لمقاومة أساليب الصاعقة التي يلجأ اليها الفرسان في هجومهم الثقيل .

وكان الرومان أنفسهم قد حلوا فيالق مشاتهم بعد معركة أدرنة ، واختفت باختفائهم قرون طويلة من التقاليد والأمجاد ، وأصبح الفرسان السلاح الأول في جيوشهم .

ولما كان السيف والحربة لم يعودوا كافيين لمقاومة أي هجوم يقوم به الفرسان ، فقد لجأوا إلى القوس والنبل ، وسرعان ما تحولت كتائب الفرسان إلى ثقيلة وخفيفة .

أما الكتائب الخفيفة فسلاحهم السهام والقوس ، وفي وسعها أن تطلق السهام وهي في حالة الركض في جميع الإتجاهات .

أما الكتائب الثقيلة ، فسلاحها الرماح ، وتستعمل في عمليات الصاعقة .

وقد تمكن الإمبراطور جستنيان بجيوش من هذا النوع استعادة الإمبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامي خمسمائة وثلاث وخمسين وخمسمائة وخمسة وستين .

وكانت الكتيبة هي الوحدة في الجيش الروماني ، وتضم نحواً من أربعمائة جندي ، ويتألف اللواء من ثلاث كتائب وأكثر .

بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية ، وكان لكل كتيبة شارتها الخاصة واللون الخاص برجالها .

ثم يقول الجنرال جلوب : وكان البيزنطيون على خلاف العرب قد نظموا الخدمات الإدارية والتنظيمية في جيشهم على أحسن منوال .

فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلاً عربة خاصة بالفصيل تحمل لجنوده الفؤس والمجارف لأعمال الحفر ومطحنة لطحن القمح وغير ذلك من الأدوات والمعدات ، وتسير مع الجيش وحدة إسعاف تضم الأطباء والجراحين وناقلات الجرحى .

وكان التدريب التعبوي والعسكري ينفذ بدقة ونظام ومثابرة، كما توافرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية .

ورغم صليبية الجنرال جلوب فإنه كان هنا منصفاً حين اعترف في كتابه الآنف الذكر بأن الجيوش الرومانية –رغم حسن تسليحها وتفوقها التكنلوجي والعددي على المسلمين – فإن هؤلاء المسلمين تغلبوا على هذه الجيوش التي تعتبر آنذاك من أرقى جيوش العالم ، ويقر في كتابه (وهذا مهم جداً) أن عامل العقيدة الذي هو مصدر الروح المعنوية الرائعة لدى العرب حل محل التفوق المادي على اختلاف أنواعه لدى الرومان حيث قال :

« وأمام هذا الجيش الروماني النظامي الرفيع التدريب يقف العرب من أبناء القبائل غير المدربين ، فهم لا يعرفون شيئاً عن التعبئة وفنون الحرب التي يعرفها الرومان ، ولا النظام ولا الكتب العسكرية ، وليست لديهم رواتب أو أطباء ، وكان سلاحهم أقل شأناً وأهمية من سلاح عدوهم ، ومع ذلك فإنهم بعد مؤتة لم يخسروا أية معركة في حربهم مع الروم .

ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذي الفوه باحتمالهم المشاق وافتقارهم لأي تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم ، لكن الفضل الأول والاخير في انتصاراتهم يجب أن يعزى إلى روحهم المعنوية العالية ، فهم بالإضافة إلى كونهم ناري المزاج محاربين بطبيعتهم قد أدى تطلعهم إلى الاستشهاد (في سبيل الله) طمعاً في فراديس الجنان التي وعدهم الله بها أدى

إلى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماماً ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق في السلاح والانضباط .

عاصمة الشام الحقيقية

بالرغم من أن دمشق هي عاصمة الشام التقليدية عبر العصور ، إلا أن مدينة أنطاكية الواقعة في أقصى شمال الشام الغربي تعتبر العاصمة الحقيقية للرومان بالشام ، حيث كانت (في الدرجة الاولى) مقراً للامبراطور هرقل الذي في عهده حررت جيوش الإسلام الشام .

وقد اختار هرقل أنطاكية مقراً له لانها أقرب القواعد العسكرية الكبرى بالشام القريبة إلى آسيا الصغرى الموطن الرئيسي مع القسطنطينية للدولة البيزنطية .

الشام بلد عربي منذ آلاف السنين

أما الشام فقد كان بلداً عربياً منذ آلاف السنين قبل الإسلام ، ولهذا فقد كان أشبه بمستعمرة رومانية وليس قطراً رومانياً كآسيا الصغرى والقسطنطينية.

غير أن الذي لا يعزب عن البال أن سلطان الرومان على الشام كان لمرات عديدة (قبل الإسلام) عرضة للتصدع بل للزوال أحياناً ، وخاصة في عهد أسرة آل أذينة العرب الذين في عهد الملكة الزبا طردوا القوات الرومانية وأخرجوها من الشام بل من آسيا الصغرى كلها .

إلا أن الرومان قبل نهاية القرن الثالث الميلادي استعادوا سلطانهم من جديد على الشام .

عنصر الغساسنة يشد أزر الرومان في الشام

وزاد من تشدد قبضة الرومان على الشام « قبل الإسلام » تواجد الغساسنة اليمانيين العرب واعتناقهم النصرانية في الشام بعد رحيلهم من مأرب عقب انهيار سدها الشهير .

فقد كان هؤلاء الغساسنة عنصراً محارباً ممتازاً ، استغله البيزنطيون إلى أبعد الحدود ، فلكي تتعاظم فعالية القوات الرومانية المسلحة انتهجوا سياسة التقرب من هؤلاء الغساسنة وإرضاء غرور ساداتهم فلجأوا إلى تنصيب ملوك منهم في الشام منحوهم قسطاً كبيراً من الاستقلال في شؤونهم الداخلية شريطة أن يكونوا مرتبطين بالتاج البيزنطي بحيث يكون الجندي العربي الغساني جندياً رومانياً يستجيب عندما يدعى إلى الخدمة في الجيش الروماني للاشتراك في أية حرب تريد بيزنطا خوضها ، فكان الجندي الغساني العربي دائماً رأس الحربة في أية حرب تدخلها الإمبراطورية الرومانية ، وكم كان الغساسنة العرب هم الذين يحرزون النصر وحدهم تقريباً لحساب « بيزنطا » على العدو التقليدي للرومان الفرس .

وظل الوضع هكذا بالنسبة للرومان والغساسنة حتى جاء المسلمون وحرروا الشام من الإحتلال الروماني ، وهنا بقي الغساسنة العرب في وطنهم الشام ، ومنحت لهم من قبل المسلمين الحرية الكاملة بشأن الدين والمعتقد ، فدخل بعضهم في الإسلام طائعاً ظافراً ، وبعضهم بقي على النصرانية ، فأكثر النصارى العرب في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن والجزيرة العربية اليوم هم من أحفاد ملوك الغساسنة الذين كانوا مرتبطين بالتاج البيزنطي في القسطنطينية .

وضع الجيش الروماني في الشام من حيث التوزيع

أما الوضع الذي كانت عليه قوات بيزنطا المسلحة في الشام عند اقتحام فيالق الإسلام هذا القطر من حيث التوزيع ، فهو أن هذه القوات كانت ترابط بشكل رئيسي في ستة مواقع .

الموقع الاول : أنطاكية – وكانت مقراً للامبراطور الذي هو القائد الاعلى للجيش ، والذي ظل يدير عمليات الحرب ضد المسلمين حتى تحطم جيشه في اليرموك وأبيد وسقطت العاصمة التقليدية دمشق في أيدي المسلمين .

الموقع الثـــاني : مدينـــة قنسرين [1] ، وتقع جنوب مدينة حلب [2] وشرقي أنطاكية .

الموقع الثالث : مدينة حمص التي يمكن تسميتها العاصمة الثالثة ، لان الملك هرقل كثير ما يقيم بها ، وتقع شمال دمشق وجنوب قنسرين وأنطاكية .

الموقع الرابع : يقع في الجنوب حيث مدينة عمان اليوم ، وهو قاعدةالبلقاء وفيها قلعة رومانية محصنة شأنها شأن الكرك .

الموقع الخامس : وهو قاعدة أجنادين القريبة من ساحل الابيض المتوسط ، وهي أهم قاعدة عسكرية في الشام بعد أنطاكية ، وتقع في فلسطين بالقرب من غزة وبيت جبرين .

والنـاظر في خرائط حروب الاسلام والامبراطورية البيزنطيـــة في انشام يتضح له أن موقع إجنادين هو من أهم القواعد الاستراتيجية بالنسبـة للجيش الروماني في الشام .

فإجنادين قريبة من حدود الجزيرة العربية منطلق فيالق الجهاد الاسلامية التي عبرت حدود الشام من التخوم الجنوبية القريبة من إجنادين ، كما أنها أيضاً قريبة من حدود مصر التي كانت – حتى ذلك اليوم – إقليماً تابعاً للتـــاج البيزنطي .

---

(١) قنسرين بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده مع سكون السين . مدينة بينها وبين حلب مرحلة كانت عامرة آهلة بعد افتتاح المسلمين لها في عهد عمر . ولما غلب الروم على حلب في القرن الرابع الهجري خاف أهل قنسرين وجلوا عنهـــا وتفرقوا في البـــلاد ، ولم يبق بها إلا خان تنزله القوافل .

(٢) حلب – بفتح أوله وثانيه – قال في مراصد الاطلاع ، مدينة مشهورة بالشام واسعة ، كثيرة الخيرات طيبة الهواء وهي قصبة (أي عاصمة) جند قنسرين يجانب منها قلعة عظيمة . بها في القرن الرابع الهجري – كنيستان وجامع وميدان ودور كثيرة . ومن حلب الى قنسرينيوم والى المعرة يومان ، والى منبج وبالس يومان .

كما أن إجنادين أيضاً قريبة من شواطىء البحر الابيض المتوسط الذي في ذلك العهد بالذات يسيطر عليه كله « تقريباً » الاسطول الروماني البيزنطي ، حيث يستطيع مشاة البحرية البيزنطية أن يدعموا « عن طريق الانزال » قاعدة اجنادين الكبرى إذا ما احتاجت الشام كلها وخاصة جنوبيها إلى أي دعم .

لهذا نجد الرومان قد وضعوا في إجنادين قوات كثيفة جداً بلغت أكثر من سبعين الفاً ، وهو عدد لم يركزوا مثله في أيـــة قاعدة من قواعدهم في الشام باستثناء أنطاكية حيث مقر الامبراطور القائد الاعلى للجيش .

ولعل الامبراطور هرقل كان يهدف من وراء تقوية قاعدة إجنـادين « فيما يهدف » إلى أن تقوم قوات هذه القاعدة « وبعد أن تورطت الفيالق الاسلامية الاربعة بالتفرق في الشام » بالزحف جنوباً فتحتل العقبة ، ثم تنتشر أرتالها على الحدود الشمالية لجزيرة العرب ، فتقطع بذلك « تماماً » خط الرجعة على الفيالق الاسلامية العاملة داخل دمشق ، وتمنع وصول الامدادات اليهم من المدينة .

وكانت خطة بارعة ومحكمة ، لو نجحت لتحرجت حالة الجيوش الإسلامية في الشام إلى أكثر مما كانت عليه قبل قدوم خالد من العراق وتجمعهـا في جيش واحد باليرموك .

ولكن الخليفة الأول والقائد البعيد النظر كان أذكى وأسرع من الملـــك هرقل ، حين أصدر أمره إلى خالد في العراق بأن يتركها ويأخذ نصف الجيش معه ويقود الفيالق الأربعة بعد تجمعها في اليرموك ، فأسرع خالد وباسلوبـه الصاعق المحكم السريع : أسرع قبل معركة اليرموك الفاصلة (وبمساندة عمرو بن العاص قائد القطاع الفلسطيني) إلى مهاجمة قاعدة إجنادين وتصفيتها وتحويلها إلى قاعدة عربية بعد إنزال الهزيمة المدمرة بالجيوش الرومانية المرابطة فيها .

وبهذا جنب المسلمين متاعب كثيرة وخطيرة كانوا سيقعون فيهـا لو خاضوا

معركة اليرموك وجيوش إجنادين باقية في قاعدتها خلفهم : فما أبرع خالد وما أعظمه من قائد عسكري لا مثيل له في قادة جيوش العالم. رضي الله عنه وأرضاه، فكم هي الخدمات العظيمة التي قدمها للإسلام والمسلمين .

القاعدة السادسة : أما القاعدة الرومانية السادسة في الشام فتقع في موقع قيسارية على الساحل الفلسطيني وهي (تقريباً) على بعد حوالي ثلاثة عشر كيلو متراً من حيفا جنوباً . وهكذا نجد الرومان يركزون (أكثر فأكثر) على تقوية مواقعهم في جنوب الشام وبالقرب من ساحل الأبيض المتوسط التي هي في واقعها يوم ذاك بحيرة بيزنطية .

انقلاب خطط هرقل على عكس ما يريد

لقد كان (في الواقع توزيع القوات الرومانية بالشام على ذلك النحو توزيعاً يدل على مهارة عسكرية وتعمق في سياسة الحرب ، فقد كان أسلوب التوزيع ذاك مفيداً إلى أبعد الحدود للقيادة البيزنطية ، لو ظلت استراتيجية المسلمين في حربهم بالشام كما وضعها لهم أول الأمر الخليفة الصديق ، حيث كان كل أمير منهم يقاتل مستقلاً ومنفرداً وبعيداً عن الآخر ، فكان لذلك من السهل على القوات المسلحة البيزنطية بما لديها من تفوق بشري ساحق القضاء على فيالق الإسلام الأربعة ، ولكن تجمع الفيالق الأربعة المتفرقة في جيش واحد جعل ذلك التوزيع الروماني على ذلك النحو يعجل بالقضاء عليها بعد اليرموك ، حيث قام جيش الإسلام المتحد بتصفية تلك القواعد الست الواحدة بعد الأخرى ، وهو ما أراد هرقل أن يفعله بالفيالق الإسلامية .

وهكذا انقلب الوضع على الرومان عكس ما كانوا يتوقعون حين قسموا جيوشهم جعلوها تتمركز في ست قواعد حربية بقصد تصفية فيالق الاسلام الأربعة الواحد بعد الآخر .

المعركة الحاسمة (اليرموك)

فيما مضى أعطينا صورة مختصرة عن القواعد العسكرية الرومانية الست التي تمركزت فيها القوات الرومانية بقصد التعاون فيما بينها على تصفية الفيالق الإسلامية الأربعة التي دخلت الشام على أساس استراتيجية حرب الإنهاك والاستنزاف متفرقة بعيد كل فيلق عن الآخر ؛ تلك الخطة التي أحبطها انسحاب فيالق الإسلام كل من منطقته للتجمع في منطقة واحدة هي اليرموك .

وقبل الدخول في تفاصيل معركة اليرموك الحاسمة التي قررت مصير الوجود الروماني في الشام وجعلت المسلمين يقبضون بأيديهم مفاتيح الشام كله .. قبل الدخول في تفاصيل هذه المعركة ، من المستحسن أن نعطي القارىء لمحة عن وضع كل من الجيشين الذين كان كل منهما يستعد للمعركة الفاصلة في اليرموك لتكون له السيادة المطلقة على الشام : وليتضح مدى الفارق الهائل في كل شيء مادي بين الفئتين المتحاربتين : وأنه من وجهة النظر العسكرية المجردة يتبادر إلى الذهن أن النصر سيكون (بدون جدال) للرومان على العرب للتفوق الساحق في العد والعدد والعلوم العسكرية ووسائل النقل وحتى مستشفيات الميدان لإسعاف المصابين ومعالجة الجرحى .

التفوق المعنوي لا المادي الذي يحقق الانتصارات

غير أن الرومان إذا كانوا يتفوقون على العرب في كل شيء مادي ، فإن

العرب كانوا (مع الفارق المادي الهـــائل) يتفوقون على الرومان بأمور ثلاثة هي التي أكسبتهم النصر الأسطوري العجيب على الجحافل الرومانية الضخمـة الهائلة . وهذه الأمور هي :

١ – العقيدة : وتأتي في المرتبة الأولى .

٢ – خفة الحركـــة الأمر الذي جعلهم يجيـــدون حرب الصاعقة التي لا يعرفها الرومان .

٣ – تحمل شظف العيش وتحمل مشاق السير على الأقدام وهو أمر لا يطيقه الجندي الروماني .

عدد الجيش الروماني في الشام

كان عدد الجيش الروماني في الشام والذي على أهبة الإستعداد للحرب يقدر بثلاثمائة الف مقاتل ، ومنها مائة الف في إجنادين بفلسطين ، وهي أهم الوحدات العاملة في الشام بعد أنطاكية .

بينما لا تزيد عدد القوات الإسلامية بعد تجمعها في اليرموك وبعد انضمام خالد ابن الوليد اليها بعد قدومه من العراق على أربعين الف مقاتل .

وهكذا فإن عدد القوات الرومانية في الشام تبلغ (تقريباً) ثمانية أضعاف القوات الإسلامية فيها .

ميزات الجيش الروماني

كان الجيش الروماني (كما قلنا) : بالإضافة إلى تفوقه البشري الهائل، يتفوق على جيش الإسلام تفوقـــاً كاملاً وشاملاً في أهم سلاح وهو سلاح الفرسان حيث يمتلك أثناء نشوب معركة اليرموك أكثر من مائة الف فارس ، كانوا يشكلون بمفهوم عصرنا ، السلاح الأمامي المدرع (إن صح هذا التعبير) ، كما أنـه يتفوق على جيش الإسلام في اليرموك بسلاح من أهم الأسلحة في ذلك الوقت وهو سلاح الرماة

حيث كان لديه عدة آلاف من أجود الجنود المدربين على استخدام السهام ، فقد كان لديهم فرق كبيرة مكلفة بتغطية أي هجوم يقوم بـــه الجيش كما هي أيضاً مكلفة بالتصدي بنبالها الحادة لأي هجوم مضاد يتعرض له الجيش ، ولقد ذكر أنه عنـــدما شن الرومان هجومهم يوم اليرموك غطى الرماة منهم هذا الهجوم بسحب كثيفة من النبال حجبت عن ميدان المعركـة (فترة ما) نور الشمس ، وذهب من وقع هذه السهام على صفوف المسلمين في آن واحد سبعمائـة عين بـين الجند الإسلامي ، منهم أبو سفيان بن حرب الذي كان أحد خطباء الحماسة بين صفوف الجيش . ففقد عينه بسهم روماني أصابه فيها .

وكان الجيش الروماني بالإضافة إلى ذلك حسن التدريب له مواصلات منظمة وعلى أحدث ما عرف العالم في ذلك العصر ، وكان يمتـاز على الجيش الاسلامي بأنه يقاتل على أرض يعرفها ، ويتنقل في تحركاته على طرق معبدة ، وعند كل فرقة منه وحداتها الطبية والتموينية المنظمه وأدوات حفر الخنادق وشق الطرق وتعبيدها ، وكانت وسائل الاتصال بين وحداته منظمة ، وكانت وسائل بريده الحربي منسقة إلى أبعد الحدود ، وسريعة لأقصى حد ، ثم انـه قريب جداً من مراكز تموينه ، وكانت قواعده الكبرى الست في الشام على اتصال مبـــاشر وبدون أي عائق مع قيـــادته العليـــا بالشمال في أنطاكية ، حيث يقيم الامبراطور هرقل .

وبينما تتوفر كل هذه المتطلبات لأي جيش يريد أن يخوض معركـة فاصلة فيه تقرير المصير ، بينما تتوفر كل هذه المتطلبات الحيوية للجيش الروماني ، فإن الجيش الاسلامي الغازي يكاد يكون خلواً من هذه المتطلبات (وخاصة فيما يختص بالتموين وسرعة الاتصال ووسائل النقل وتوفر التموينات الضرورية وغير ذلك مما لا يتوفر منه شيء مطلقاً للجيش الاسلامي الغازي الصغير) .

فمثلاً إذا كانت القاعدة التموينية والقيادية الكبرى للجيش الروماني لا تبعد عن مكان تجمعه في اليرموك أكثر من ثلاثمائة ميل ، فإن القاعدة الكبرى التموينية والقيادية للجيش الاسلامي تبعد مسافة لا تقل عن الفي ميل ، ليس يوجد عبرها كلها أي مراكز خاصة لتنسيق البريد الحربي لضمان سرعة تبـــادله في أقرب وقت ، كما هو الحال عند الرومان في مناطقهم حيث يوجد بين كل مسافـــة محدودة توجد بها خيل خاصة بنقل البريد بسرعة إلى المحطة التي تليها ، وهكذا حتى تصل إلى القيادة العليا .

عيوب الجيش الروماني مع ضخامته وتقدمه

ولكن هناك مع كل هذه المميزات ، كانت للجيش الروماني عيوب كثـيرة كانت من الأسباب التي يسرت للعرب المسلمين التغلب عليه مع تفوقـه البشري والعلمي والتكنلوجي (إن صح هذا التعبير) .

فقد كان ثقيل بطيء في حركاته ، يبدو وكأنه مهيء للدفاع لا للهجوم ، فهو لا يجيد حروب الصاعقة التي يجيدها العرب المسلمون بخفـــة حركاتهم على سروات الخيـــل أو ظهور الجمـــال التي هي بمثابة المدرعات الخفيفة في حرب الصحراء .

فالعربي ، سواء كان من الخيالة أو الجمالة أو فرق المشاة خفيف الحركة بحكم نشأته في الصحراء ، وتدربه على الكر والفر في سرعة مذهلة ، لأنه لا يشغل نفسه بمثل ما يشغل الجندي الروماني نفسه من أثقال هي في الواقع معدات وقاية في الحرب ، ولكنها ثقيلة تجعل حركة هذا الجندي أبطـــأ بكثير من حركة الجندي العربي المسلم .

من هنا يمكن أن تطلق على الجيش الروماني (بالنسبة للجيش العربي) كلمة ترهل وهي كلمة أطلقها أحد المؤرخين الانكليز المعاصرين . وعلل ذلك بأن الجيش الروماني كثير الأحمال والأثقال .

لذا فإن الرومان يصيبهم الهلع عندما يتعرضون لأساليب حرب الصاعقة التي يجيدها المسلمون الذين أكثرهم من الذين نشأوا في البادية حيث الصحارى المترامية الأطراف التي تدربوا فيها على خفة الحركة مشياً وعلى سروات الخيل وظهور الجمال ، وكانوا مشهورين بالعدو الشديد على الأقدام حتى أن بعضهم يطارد الغزلان على رجليه حتى يرهقه فيصطاده بيده .. وهذا وإن كان نادراً ، ولكنه واقع ، ويدل على نشأتهم على السرعة وخفة الحركة .

لذا استفاد هؤلاء الأعراب عندما أصبحوا مسلمين وأصبحوا جيوشاً نظامية مسؤولة عن نشر كلمة التوحيد ومحاربة من يحاول التصدي لها والحيلولة بينها وبين الوصول إلى أسماع الأمم .

ولمعرفة القيادة الرومانية بهذه الميزة (ميزة خفة الحركة والقدرة الفائقة على المناورة لدى المحارب العربي المسلم) فانها تفضل دائماً في حروبها مع المسلمين أن تكون مواقعها بالقرب من الجبال والوديان والحصون والخنادق ، وعلى مقربة من قواعد تموينها ، وتتجنب (بقدر الامكان) مقاتلة المسلمين في الصحارى والسهول الواسعة .

ولا ينسى الرومان ما كانوا يقرأونه في تاريخهم القديم ما حدث لجيوشهم الثقيلة الجرارة (قبل الميلاد) حينما حاولت التقدم داخل جزيرة العرب للسيطرة على طرق القوافل الممتدة من حضرموت حيث الشحر الميناء الرئيسي لتلقي منتوجات الهند والشرق الأقصى من البخور والعطور والبهارات التي هي (في ذلك العصر ، من أنفس السلع في أوروبا وآسيا الصغرى : لم ينس الرومان كيف كانت صحراء جزيرة العرب مقبرة للجيش الروماني قبل الميلاد حينما قامت بتلك المحاولة .

ومن هنا يمكن القول : إن هناك عقدة مستحكمة في نفس الجندي الروماني بالنسبة لحروب الصحراء والسهول الواسعة .

وسنرى فيما يأتي من تفاصيل معركة إجنادين كيف أن عمرو بن العاص عندما احتمى بصحراء النقب في فلسطين (وهو في جيش لا يزيد على سبعة آلاف مقاتل) وكان سرجيوس يطارده بغية إبادة جيشه قبل اليرموك ، كيف تهيب سرجيوس تتبع عمراً عندما احتمى بالصحراء وصار يناور في القتال ، فلم يجرؤ سرجيوس (رغم أن لديه قرابة مائة الف مقاتل) على التوغل في صحراء النقب لمطاردة جيش ابن العاص خوفاً من تعرض جنوده لحرب الصاعقة التي يجيدها البدو الذين منهم يتألف جيش ابن العاص ، فظل ابن العاص وجيشه سليمين حتى جاء خالد بن الوليد وشن الهجوم على سرجيوس فكانت معركة إجنادين التي تمزق فيها الجيش الروماني قبل معركة اليرموك .

صبر الجندي المسلم على شظف العيش

وما دمنا لا نزال بصدد المقارنة بين الجيشين العربي المسلم والروماني المسيحي ، لا بد من الإشارة إلى أن الجيش المسلم يمتاز على الجيش الروماني في ناحية هامة جداً أكملت النقص الذي لديه في قوة التسليح وجودة التنظيم وتوفر المعدات والمواد التموينية المختلفة ، وهي أمور قد وفرتها القيادة الرومانية لجنودها .. الجيش العربي المسلم يمتاز في ظروف الحرب بكونه خفيف الأحمال والاثقال ، يستطيع التنقل بسرعة مذهلة على متون الخيل وسفن الصحراء السريعة (الابل) الامر الذي يمكنه من التحول من جبهة إلى أخرى ويجتاز الصحارى والمسالك الوعرة بسرعة هائلة ، يستحيل على مثل الجيش الروماني الثقيل المترهل التحرك بمثلها .

وذلك هو الذي جعل المبادرة دائماً في أيدي هؤلاء المسلمين العرب البدو في أي قتال سواء من حيث الانسحاب أو التقدم (الهجوم) .

فهؤلاء العرب البدو (بحكم خفة حركاتهم وقدرتهم على المناورة) يكون

هجومهم خاطفاً صاعقاً إذا ما هاجموا ، كما يكون انسحابهم سريعاً ومنظماً لا يفلح مطاردهم في اللحاق بهم إذا ما قرروا الانسحاب لضرورات تقتضي انسحابهم كما هي سنة الحرب التي يكون التراجع فيها لجيش ما أنفع من الاحتفاظ بالارض أو الاستمرار في القتال إذا كان هناك قتال ، كما فعل المسلمون في معركة مؤتة التاريخية الشهيرة ، وكما فعلوا حين انسحبوا من كل الاراضي التي كانوا قد سيطروا عليها في الاقاليم الاربعة بالشام ليتجمعوا في اليرموك حيث كان انسحابهم في كلا الحادثتين سريعاً ومنظماً ودون أن يتعرضوا لاي خسارة .

يضاف إلى ذلك أن الجندي المسلم « بحكم تكوينه البدوي » الف شظف العيش ونشأ متقشفاً ، يتحمل « في مجال الاعاشة » ما لا يستطيع الجندي الروماني تحمله البتة .

فالجندي المسلم يكتفي بلقيمات من أبسط أنواع الغذاء يقمن أوده خلال أربع وعشرين ساعة ، بل لديه من التحمل « بحكم نشأته البدوية الشاقة » أن يخوض الحرب طاوياً بغير طعام ساعات طويلة .

بينما الف الجندي الروماني التبسط في المأكولات ، لا يصبر عن الكماليات ، فضلاً عن صبره عن الضروريات ، فهو قد نشأ في جو من الترف سواء من حيث المأكل والمشرب أو الملبس والمركب ووسائل النقل .

وهكذا فالجندي المسلم أكمل تحمله المشاق وشظف العيش ، وقدرته الخارقة على سرعة الحركة والتنقل والتحول من موقع إلى موقع ، أكمل النقص الذي كان يعانيه في القوة البشرية ووسائل النقل وانتظام سبل التموين ووفرة الأسلحة وجودتها والفنون العسكرية التي يتفوق عليه فيها الجندي الروماني ، ابن الإمبراطورية البيزنطية التي كانت يوم ذاك أعظم دولة في العالم ، لأنها قد خرجت من حرب ضروس انتصرت فيها بقيادة مليكها هرقل على امبراطورية لا تقل

عنها عظمة وقوة وهي الامبراطورية الفارسية التي هزمها هرقل واستعاد منها مصر وكل الممتلكات الرومانية التي كانت قد استولت عليها في عهد ضعف بيزنطا ووصلت جيوش كسرى إلى أسوار القسطنطينية .

ومع ذلك فقد هزم الجندي البدوي المسلم جند هذه الإمبراطورية العتيدة في كل معركة التحم معهم فيها بالشام وفيما وراء الشام « أرمينيا ومصر وافريقيا وآسيا الصغرى » .

وكانت بداية نهاية الإمبراطورية البيزنطية في الشرق الأوسط كله وأفريقيا هو تدمير المسلمين جيشها في معركة اليرموك التاريخية الخالدة ، حيث لم يقم « بعد هزيمتها في هذه المعركة » لها قائمة ، فصارت تخرج من فشل عسكري « أمام العرب » لتدخل في فشل آخر حتى فقدت كل ممتلكاتها في الشام ومصر وارمينيا وكل أفريقيا وبعض آسيا الصغرى وجزائر البحر الأبيض المتوسط « قبرص وكريت ورودس وكورسكا وسردينيا » .

هرقل المحارب الممتاز المحترف

لم يكن هرقل من الأسرة المالكة في القسطنطينية ، ولكنه كان قائداً حربياً ممتازاً محترفاً في الجيش الروماني ، وكان قائد القطاعات الرومانية العاملة في الشمال الافريقي ، وكان طموحاً وذكي الفؤاد راجح العقل شجاعاً متفوقاً . بالإضافة إلى دهاء ومكر واستقامة يمتاز بها لأنه نشأ نشأة دينية ، وكان متضلعاً في علم النصرانية إلى درجة اطلاعه على التحريفات التي لحقت بهذه الديانة : الأمر الذي مكنه من الاطلاع على الوثائق السرية التي تؤكد في المصادر النصرانية غير المحرفة أن نبياً من العرب سيبعث ويملك أتباعه الشام : لذلك كان كثير التسامح مع كل من يجتمع به من المسلمين .

كيف استولى هرقل على الحكم

وعندما كان يقود الأرتال الرومانية في شمال أفريقيا كان التفكك والانهيار بدا واضحاً على امبراطورية بيزنطا ، ولم يعد أباطرتها قادرين على ضبط شؤونها الداخلية فضلاً عن تصديهم لما يتهددهم من أخطار خارجية .

وكان الفرس العدو التقليدي يطمع في ابتلاع بيزنطا كلها ، وأخذت جيوش الفرس بالفعل تنتقص الأراضي البيزنطية من أطرافها .

وهنا سنحت الفرصة للضابط المحترف الكبير هرقل ، فاتفق مع فئة من أعوانه وخلصائه « وهو بافريقيا » على إنقاذ الإمبراطورية ، ولن يكون ذلك إلا باستيلائه على السلطة العليا أولاً في القسطنطينية ، فأبحر في الحال بالجيش من أفريقيا على ظهر الاساطيل إلى مقر الإمبراطورية ، لانتزاع السلطة من يد الامبراطور الهزيل ، وتم له ما أراد بدون عناء يذكر ، لانه لقي تجاوباً من عقلاء المملكة إذ رأوا فيه منقذاً للامبراطورية من الزوال .

استلم هرقل دفة الملك ، والامبراطورية البيزنطية في أسوأ حال ، حيث سيطر الفرس على الشام ومصر وآسيا الصغرى ، وتولى كسرى نفسه محاصرة العاصمة القسطنطينية بقصد احتلالها وشطب خريطة إمبراطورية بيزنطا من الوجود .

فقام هرقل وهو المحارب العملي المجرب المحترف بالاستعدادات لاعادة بيزنطا إلى سابق مجدها ، فرسم خطة بارعة أضاع بها جميع ما اكتسبته جيوش الفرس من مكاسب عسكرية .

ذلك أنه كون أسطولاً في البحر الاسود وشحنه بعدة آلاف من المقاتلين الاشداء وقام بانزالهم في غربي أرمينيا ، وذلك في الوقت الذي كان فيه الفرس في البر الاسيوي يفرض الحصار على القسطنطينية ، فترك كسرى وشأنه ثم انحدر زاحفاً بجيشه جنوباً نحو فارس قاصداً احتلال العاصمة الفارسية المداين .

وهنا ارتاع كسرى وأسقط في يده ، ففك الحصار عن القسطنطينية وسارع بجيشة عبر آسيا الصغرى متخلياً عنها ليسارع للدفاع عن عاصمة ملكه التي قرر هرقل مهاجمتها .

ثم انبعثت الحياة في القوات البيزنطية المسلحة في كل من مصر والشام وآسيا الصغرى وقام هرقل بتنظيمها حتى تم له طرد الفرس من كل هذه الاقطار الثلاثة وأعادهم مهزومين إلى بلادهم .

ومن هنا رسخت أقدام هرقل في الملك واعتبره البيزنطيون منقذ الامبراطورية وأحبوه ملكاً رغم أنه ليس من الاسرة المالكة في القسطنطينية .

صعوبة مهمة القوات الاسلامية الغازية

وهكذا ، وبالنسبة لوجود هرقل على رأس بيزنطا ، فإن مهمة الجيوش الاسلامية الغازية لم تكن سهلة ، لان أمامها رجل جمع بين مهارة الحرب وعمق السياسة والحنكة وبعد النظر .

فقد كان هرقل الذي تولى بنفسه مواجهة المسلمين ـ محارباً ممتازاً ، كان « قبل أن يكون ملكاً » ضابطاً كبيراً يقود الجيوش ويخوض أعنف المعارك ، وكان أفراد الجيش معجبين به قبل أن يكون ملكاً ، فكيف به وقد أصبح امبراطوراً .

خطط الاستدراج التي اتبعها هرقل

يظهر أن هرقل عندما تبلغ نبأ عزم القوات الاسلامية المسلحة القيام بغزو الشام غزواً شاملاً ، وتبلغ أنهم سيقاتلون جيشه متفرقين ، كل فرقة تقاتل في ناحية منفصلة عن الاخرى : يظهر أنه راقت له هذه الخطة ووجد في اتباع المسلمين لها فرصة ذهبية ، بالنظر لما تحت قيادته من قوات كثيفة غامرة تفوق قوات الاسلام عدة أضعاف مجتمعة .

فقد قدر أن فيالقه الضخمة المتعددة تستطيع أن تسحق فيالق الاسلام الاربعة سحقاً كاملاً دونما أي عناء يذكر ما دام كل فيلق من هذه الفيالق الصغيرة يقاتل منعزلاً عن الآخر كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا البحث .

وعلى أساس ذلك التقدير يتضح من سير الحرب في مراحلها الاولى أن الملك القائد هرقل أوعز إلى قواته القريبة من حدود الجزيرة العربية أن تتراجع إلى الداخل ، وتتجنب الاشتباك الفوري مع القوات الاسلامية بالقرب من الحدود ، وذلك بقصد استدارج الفيالق الاسلامية الاربعة لتتوغل في بلاد وتتسع مسافة البعد بين هذه الفيالق الاربعة ، وتبعد خطوط مواصلاتها وتنقطع خطوط رجعتها ، ثم يجرد على كل فيلق منها جيشاً يفوقه عدة أضعاف حتى يبيده بعيداً عن الآخر .

كيف تمزق جيش خالد بن سعيد

لا سيما وأن هرقل قد ذاق طعم مثل خطة الاستدراج هذه حلواً ، حينما أفسح الطريق للقائد خالد بن سعيد بن العاص الأموي الذي كان قد زحف على الشام قبل الفيالق الأربعة ، وتركه يتقدم بالمسلمين حتى الجولان قريباً من دمشق ثم أمر القوات الرومانية والعرب المتنصرة بأن يطبقوا على الأمير خالد بن سعيد وجيشه ، ففعلوا ، حيث شنت الفيالق الرومانية الهجوم المفاجىء على خالد من جميع الجهات ، وعندما قرر التراجع والانسحاب إلى منطقة تبوك وجد خط رجعته مقطوعاً بوحدات من الجيش الروماني ، فقاتل جيشه «للافلات» بشراسة فتمكن هو وهيئة أركان حربه من الافلات ، ولكن بعد أن أصيب جيشه بخسائر فادحة ، وفقد ابنه سعيد الذي استشهد أثناء محاولة التراجع من الجولان ، وقد غضب عليه الخليفة الأول لتسرعه بالتوغل دونما احتياطي يحرس خط رجعته ثم عزله وحدد إقامته خارج المدينة ، ثم رضي عنه وأعاد اليه اعتباره

لأنه من السابقين الأولين في الاسلام ومن الذين أبلوا بلاءعظيماً في حروب الردة.

خروج الفيالق الاسلامية من الورطة

ولكن إذا كان المحارب الداهية هرقل قد نجح في القضاء على جيش خالدبن سعيد باستدراجه فانه ، وإن نجح في استدراج الفيالق الاربعة حتى توغلت إلى قلب الشام متفرقـــة ، قد فشل في أن يصنع بهـــا ما صنع بفيلق خالد بن سعيد بن العاص .

لقد فطن قادة الفيالق الإسلامية الأربعة (تقدم ذكره) لخطـــة هرقل الإستدراجية هذه ، فقرر التراجع والانسحاب بسرعـــة من جميع الأقاليم التي سيطروا عليها ، والتجمع في اليرموك .

ولقد نجحوا في الانسحاب نجاحاً كاملاً حيث تم هذا الإنسحاب وتم التجمع في اليرموك للفيالق الثلاثة دونما أي متاعب ، والفيلق الوحيـــد الذي تأخر في الانضمام إلى التجمع في اليرموك ، هو فيلق عمرو بن العاص الذي كان متورطاً في جنوب فلسطين حيث كان في حالة مواجهة مع أكبر جيش لهرقـــل مؤلف من حوالي مائة الف مقاتل ويقوده سرجيوس الذي كان يطارد عمراً بغيـــة إبادة فيلقه الذي لا يزيد على سبعة آلاف مقاتل ، فاضطر عمرو إلى المناورة فلم ينهزم ، وفي الوقت نفسه كان يتجنب الإشتباك مع سرجيوس ، فظل معتصماً بصحراء النقب (حصن البدوي التقليدي) حتى أنجده خالد بن الوليد ، ودمر الإثنـــان جيش سرجيوس في الجنوب ثم انضم عمرو إلى التجمع في اليرموك مع خالد .

مثالية الاسلام الرائعة في معاملة غير المسلمين

وهنا حادثة لا بد من الوقوف عندها لنرى ويسمع العالم كيف وصل الإسلام بعدله وإنصافه في مجال معاملة المخالفين له في المعتقد ، وانه الدين والنظام الوحيد

الذي وضع قواعد العـــدل وحقوق الإنسان وأداها (في أصعب ظروف مرت باتباعه) إلى المخالفين له في العقيدة .

فقد ذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) أن القائد أبا عبيدة بن الجراح لما قرر الانسحاب من حمص (وكان قد سيطر عليها وأخذ من أهلهـــا الجزية) استدعى وجهاء وأعيان حمص النصارى ، وأبلغهم أن جيشه (لظروف قاهرة) مضطر للانسحاب من حمص ، وهذا يعني أنـــه أصبح غير مسؤول عن الدفاع عنهم لأنه لانسحابه بجيشه سيكون غير قادر ، وأنه إنما أخذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، وحيث أنه أصبح (بحكم تركه المنطقة) غير قادر على الدفاع وحمايتهم ، فإنه يعيد اليهم ما أخذ منهم من أموال (وهي الجزية) .

فأكبر النصارى هذا التصرف النبيل الذي لم يسمعوا بمثله في قاموس العدل والانصاف والشهامة والانسانية : حاكم عسكري وفي حالة حرب وفي ظروف استثنائية يعامل أناساً مخالفين لمعتقده ودينه هذه المعاملة الانسانية العادلة الرحيمة فيعيد اليهم (بملء إرادته) بل وبوازع من دينـــه كل ما أخذ منهم من أموال دفعوها اليه مختارين فرحين : في حين أنه من المتبع في ظروف الحرب التي سمع عنها هؤلاء النصارى عبر العصور ، يلجأ المضطر للانسحاب من مدينـــة (ما) إلى نهب هذه المدينة وسلب أهلها كل ما يقدر على سلبه ونهبه : تلك شرعة الحرب الغالب اتباعها بين المتحاربين قبل ظهور الاسلام الذي وضع (ضمن قوانينـــه) أرقى قواعد المعاملة الانسانيـــة في السلم والحرب على السواء . وللمرة الأولى (ومنذ فجر التاريخ) أخذت عن الاسلام ووضعت في قواميس الحرب كلمـة (الحرب العادلة) .

نصارى حمص يبكون لانسحاب المسلمين

وعندما فوجيء نصارى حمص العرب وغير العرب بالعمل النبيـــل الذي

أقدم عليه القائد أبو عبيدة إذ أعاد اليهم ما أخذ منهم من جزية ، امتلأت قلوبهم حباً واحتراماً لهؤلاء المسلمين ، فخرجوا في وداع المسلمين ولسان حالهم يقول : لأنتم أحب وأقرب إلى قلوبنا من الروم الذين هم على الدين الذي نحن عليه ، فبالرغم من أننا وإياهم على دين واحد فقد ساموا سوء العذاب وأذاقوا أفظع أنواع الاذلال والابتزاز والاهانة ، أما أنتم (وإن لم نكن على دينكم) فلم نر منكم إلا الرحمة والشفقة والعدل ، ثم أبلغوا أبا عبيـــدة أنهم سيغلقون مدينتهم حمص في وجه الروم حتى يعود اليها المسلمين ظافرين لينعم أهلها في ظل حكمهم بالعدل والانصاف الذي لم يروا له مثيلاً في تاريخ حياتهم الاجتماعية .

وفعلاً فإن عناصر الجيش الروماني لما عادت (بعد إخلاء المسلمين حمص) ليدخلوها أغلق نصارى هذه المدينة في وجههم وحاولوا منعهم من دخولهـــا ، وأبدوا مقاومة مسلحة ، ولكن الجيش الروماني تغلب عليهم ، ثم دخل المدينة ونكل بأهلها أشد تنكيل ، فزاد ذلك من تعلق نصارى حمص بالمسلمـــين لما نعموا بـــه في ظل حكمهم الرحيم من عدل وراحة وأمن واستقرار ، فصاروا يتمنون من صميم قلوبهم أن يكتب الله النصر للمسلمـــين في المعركة الحاسمـــة على الرومان .

وقد حقق الله آمالهم ، فلم تطل مدة سيطرة الرومان على حمص ، فقد عاد المسلمون ودخلوا حمص بعد أن قهروا الرومان وأبادوا معظم قواتهم الرئيسية في معركة اليرموك الفاصلة . كما سيأتي تفصيله في حينه .

عدل الاسلام مصدر الانتصارات

وهكذا فان العدل الذي هو أهم القواعد التي أقام عليها الاسلام بنيان تعامله مع الناس مسلمين كانوا أم غير مسلمين ، كان من أبرز أسبـــاب الانتصارات الأسطورية المذهلة التي حققها الاسلام في حروبه العادلة التي خاضها أتباعه لاعلاء

كلمة الله ونشر العدل وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، أولئك الأتباع الصادقون الذين حرروا وفتحوا من الأقطار والممالك خلال تسعين سنة ما عجز الرومان عن تحقيق نصفه خلال خمسمائة سنة .

فقد كانت أنباء العدل وحسن المعاملة وشرف السلوك تسبق جيوش الاسلام ، فتفتح لهم أبواب القلوب قبل أن يقتحموا أبواب الحصون والمدن ، ولا أدل على صحة هذا القول من الموقف الذي وقفه أهالي حمص النصارى من المسلمين حين خرجوا في توديعهم عندما اضطروا إلى إخلاء المدينة للتجمع في اليرموك حسب المخطط الجديد الذي وضع للمعركة الحاسمة .

خطة التقسيط الرومانية كيف فشلت

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا خطتي الفريقين المتحاربين : خطة فيالق الاسلام للتراجع والتجمع في مكان واحد للامتزاج في جيش واحد : وخطة هرقل لتصفية هذه الفيالق بالتقسيط (إن صح هذا التعبير) الواحد بعد الآخر .

لقد كان المسلمون أسرع في الانسحاب والتراجع حسب الخطة المرسومة ، ففوتوا بنجاحهم في الانسحاب على هرقل تحقيق هدفه الرئيسي من الخطة التي وضعها للقضاء عليهم .

كان الجيش الروماني الثاني والذي مقره أنطاكية حيث يقيم هرقل أعظم الجيوش الرومانية المتمركزة في الشام .

وكان جل اعتماد الملك هرقل على هذا الجيش لتصفية الأغلبية من عساكر الاسلام في الشام كلها ، كان الملك قد أعطى قادة هذا الجيش الأوامر ورسم لهم الخطط لتصفية الفيالق الاسلامية الثلاثة الواحد بعد الآخر ، كلفه (أولاً) بأن يبدأ بسحق فيلق أبي عبيدة المرابط في حمص القريبة من أنطاكية ، ثم يثني بيزيد بن أبي سفيان المرابط جيشه حول دمشق ، ثم يكمل عملية التصفية

في الوسط والشمال بشرحبيل بن حسنة الذي يتمركز بجيشه في الجولان حول بصرى قريباً جداً من دمشق :

مكان التجمع الاسلامي بالتحديد

غير أن قادة الفيالق الاسلامية (كما قلنا) نجحوا بانسحاب سريع منظم قبل أن يتمكن الجيش الثاني الكبير الروماني (جيش أنطاكية) من الالتحام مع أي منهم ، وقد اغتاظ هرقل لافساد خطته المحكمة التي لو نجحت لحلت الكارثة بمجموع الجيش الاسلامي كله في الشام ، وقد اضطر هرقل الملك والقائد أن يغير من خططه للحرب . فرسم خطة جديدة بموجبها خاضت جيوشه معركة اليرموك التي تم فيها (تقريباً) فناء جيشه على يد خالد بن الوليد .

ويدل سياق المؤرخين (وخاصة المحدثين منهم الذين تفقدوا مكان معركة اليرموك في هذا العصر على الطبيعة) يدل سياقهم على أن الفرق الاسلامية الثلاث بعد نجاحها في الانسحاب المنظم ، تجمعت في منطقة الجولان حيث بصرى عاصمة الجولان ، وقريباً جداً من اليرموك الذي يقع تماماً غربي بصرى . والذي هو أحد الأودية التي تجري عبره مياه حوران التي تقع ضمن منطقة بصرى ، وهناك ظلت مرابطة وفي حالة دفاع حتى وصل خالد بن الوليد اليهم بنصف جيش العراق فانحازوا إلى اليرموك حيث دارت المعركة الفاصلة .

كيف توجه خالد من العراق إلى الشام

ولقد أشرنا فيما مضى من هذا البحث أن خالد بن الوليد (وهو يسوس جيش الاسلام ويقوده في العراق) تلقى من القائد الأعلى الخليفة الأول أوامر مستعجلة بأن يتوجه (وبأسرع ما يمكن) إلى الشام ومعه نصف الجيش العامل في العراق ليتولى القيادة العامة في الشام ، ثم إذا ما فتح الله عليه وكتب له النصر على الرومان ، عليه أن يعيد إلى العراق القوات التي اقتطعها من جيش العراق ،

وضمن الخليفة مرسومه بأن يختار خالد خلفاً له المثنى بن حارثة الشيباني (بطل حرب العراق الأول) قائداً عاماً للقوات التي عليها أن تتحمل مسؤولية الحرب في العراق ملتزمة خطة الدفاع . فقد جاء ضمن مرسوم التكليف لخالد من الخليفة :

« أن سر بنصف الناس حتى جمع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا (أي تعبوا وأتعبوا) دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه ، ثم أمض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، واستخلف على العراق المثنى بن حارثة في النصف الباقي ، ولا تأخذن نجداً إلا خلفت له نجداً ، فاذا فتح الله عليك ، فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك (أي أميراً على العراق) والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وجاء في أمهات التاريخ أن خالداً تلقى هذا التكليف في شهر صفر من السنة الثالثة عشرة للهجرة (أنظر تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير) .

لمحة عن أعمال خالد الحربية في العراق

كان خالد بن الوليد قدقام(خلال سنة واحدة في العراق)بأعمال عسكرية هائلة وموفقة للغاية ، ففي خلال هذه السنة حرر أكثر من ثلثي القطر العراقي من السيطرة الفارسية ، فسيطرت قواته على أهم المدن الواقعة على جانبي نهر الفرات ، وخاصة الشاطيء الغربي للنهر .

كما استولت قوات الاسلام بقيادته على أهم المناطق الزراعية الخصبة الغنية بالتربة الغرينية الثمينة ما بين النهرين (دجلة والفرات) وهي المسماة : بالسواد .

الطريق التي سلكها خالد في مسيره من العراق الى الشام *

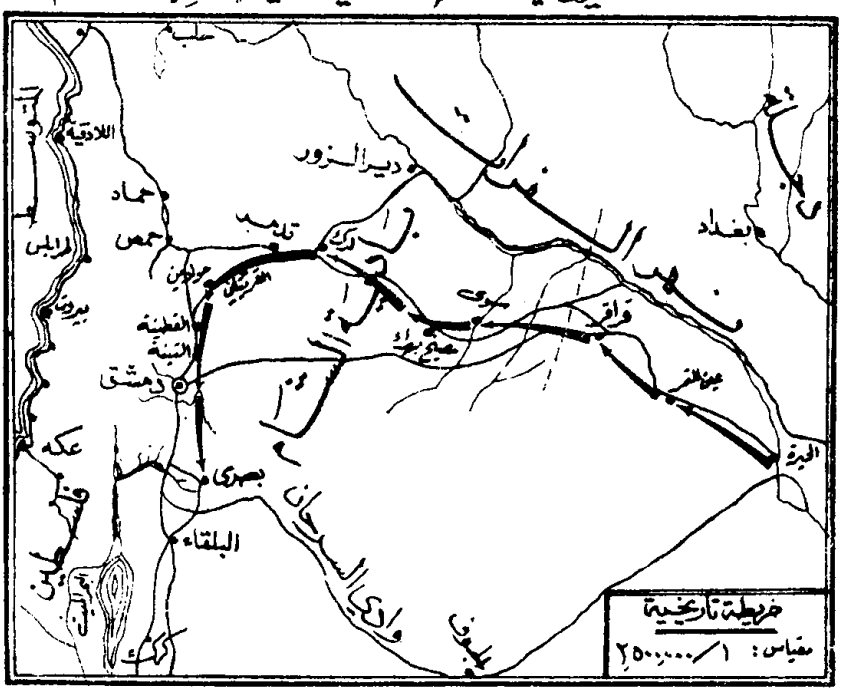

* – عن كتاب « تاريخ العرب العسكري » لمحمود الدرة (بتصرف) .

وبالجملة فقد سيطر خالد في العراق على كل مدنه الهامة ابتداء بالأبلة : الثغر البحري الهام في الجنوب على الخليج حيث البصرة الآن وانتهاء بالانبار في الشمال ، حيث تبدأ سلاسل الجبال وتنتهي المناطق الغنية بالتربة الغرينية الخصبة المعطاء .

ولم يبق من المدن الهامة الكبرى في العراق في أيدي الفرس سوى المداين (العاصمة الأولى للأكاسرة) والواقعة على ضفتي دجلة شرقي الفرات ، والتي كان خالد (قبل تسلمه مرسوم التكليف بالذهاب إلى الشام) يستعد للزحف عليها لإنهاء الوجود الفارسي في العراق العربي ، وكانت العاصمة المداين لا تبعد عن مقر قيادة خالد في الحيرة أكثر من مائة وعشرين كيلو متراً .

بل كانت دوريات الأمن الإسلامية لسيطرة المسلمين على حوض ما بين النهرين — تضرب في تجوالها حتى مسافة لا تبعد سوى عشرين ميلاً عن المداين .

وكان الفرس بالمداين في حالة فزع شديد لوجود القائد العملاق خالد قريباً من عاصمتهم ، وكانوا قد ضاعفوا التحصينات حول العاصمة ، لأنهم كانوا يتوقعون بين يوم وآخر أن خالد سيشن عليها هجوماً عاماً لاقتحامها هذا الهجوم الذي لم يحل بين خالد وبين القيام به إلا عدم تلقيه الاذن من القيادة العليا في المدينة له كي يقوم به .

ولم ينقذ عاصمة الأكاسرة (المداين) من أن يقتحمها عليهم أسد الله خالد سوى تحرج الوضع في الشام بالنسبة للفيالق الإسلامية الأربعة العاملة فيها ، حيث اضطر خالد (وكما هي أوامر الخليفة الأول) أن يغادر العراق إلى الشام ، بل وأن يأخذ معه نصف الجيش الذي كان يقوم بأعمال الجهاد ضد الفرس ، الأمر الذي جعل القيادة الفارسية تتنفس الصعداء ، بل وتشن هجوماً معاكساً على نصف القوات الإسلامية المتبقية في العراق والتي لا تزيد على عشرة آلاف ،

وتنتزع منها ما كان خالد قد سيطر عليه في العراق من مواقع ومدن إلى أن قام القائد المثنى بن حارثة الشيباني للمرة الثانية ثم القائدسعد بن أبي وقاص باستعادتها وتمكن سعد من دخول العاصمة المداين في عهد الخليفة عمر ما ليس هذا محل تفصيله بل محل تفصيله كتابنا الجديد الذي سيتلو هذا بإذن الله وهو بعنوان (حروب الإسلام في العراق) .

كيف غادر خالد العراق إلى الشام

يدل سياق المؤرخين أن الخليفة الأول والقائد الاعلى للجيش، في الوقت الذي أصدر إلى خالد وهو في العراق مرسوم تكليفه بتولي قيادة الجيوش العاملة في الشام ، أبلغ الأمير أبا عبيدة بن الجراح في الشام بأنه قد عين خالداً أميراً على جميع الفيالق العاملة هناك ، وأنه لم يجعله أميراً لكونه أفضل من أبي عبيدة ومن هو في مرتبته في الفضل من السابقين الأولين ، وإنما فعل ذلك للمقدرة والخبرة العسكرية التي يمتاز بها خالد على كل المحاربين المسلمين العاملين في الشام ، ويستشف من مخاطبة الخليفة لأبي عبيدة في كتابه اليه أن أبا عبيدة كان له شبه إشراف على الفيالق الأربعة ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما وجه اليه الخليفة الخطاب دون قادة الفيالق الأخرى في الشام .

فقد جاء في ذلك الخطاب الموجه من الخليفة الأول إلى أبي عبيدة :

(سلام الله عليك أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإني لم أبعثه ألا تكون عندي خيراً منه ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك خيراً والسلام) .

محاولة خالد استصحاب النخبة الممتازة إلى الشام

كانت أوامر الخليفة الأول (ضمن مرسوم تكليف خالد بالذهاب إلى الشام) تقضي بأن يستصحب خالد معه نصف الجيش العامل في العراق ، وكانت تنص

على أن تكون قسمة الجيش متعادلة ، لا من حيث العدد فحسب ، بل أيضاً من حيث المستوى القتالي والسابقة في الإسلام ، بحيث يأخذ خالد نصف من هؤلاء ويترك تحت قيادة المثنى النصف الآخر ، فيكون من المقاتلين الممتازين وأهل السابقة مع خالد مثل الذين يتركون تحت قيادة المثنى في العراق .

اختلاف خالد والمثنى حول اقتسام الجيش

لقد حاول الأمير خالد (كمحارب مغرم بالأبطال ذوي الخبرة الحربية) أن يستأثر بأصحاب رسول الله ﷺ من أهل السابقة في الإسلام وذوي القدرة القتالية ليكونوا ضمن النصف الذي سيستصحبه معه إلى الشام ، فلقد انتقاهم جميعاً ، وقرر ترك من في مستواهم القتالي من أهل البادية ، ولكن ليس لهم قدم الصحبة والسابقة في الإسلام ، ثم قسم الجنود العاديين نصفين .

ولم يفعل خالد باسلوب استبدادي ، وإنما فعل ذلك رجاء أن يتسامح خلفه القائد المثنى معه بهذا الصدد ، فيوافق على هذا الاستئثار والانتقاء ، وكان خالد ينطلق في تصرفه من مبدأ يقول : إن خالداً مقبل على مصاعب ومتاعب ومشاق عظيمة في الشام ، تتطلب وجود أمثال هؤلاء الأبطال من أهل السابقة والخبرة بالحرب والصبر عليه من أصحاب محمد ﷺ ولكون المثنى شهماً ونبيلاً متسامحاً ومن أعز أصدقاء خالد والمقربين اليه .

إلا أن المثنى (كمغرم هو الآخر بالأبطال ومحب لأهل التقوى والصلاح) اعتذر لصديقه وزميله في الجهاد خالد عن الموافقة على تصرفه بهذا الصدد ، فصارح زميله وصديقه بأنه لا يرضى أن يكون الجيش الذي سيبقى تحت قيادته في العراق خالياً من ذلك العنصر الخير الممتاز من أصحاب محمد ﷺ فقد قال لخالد في اعتذاره :

« والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم فكيف تعريني منهم » .

غير أن عنصر التسامح تجلى فى القائد المثنى حينما قبل حلاً وسطاً يرضى عنه رئيسه خالد ، وذلك حينما قبل بأن يستصحب خالد معه إلى الشام ثلاثة أرباع الصحابة ويترك له ضمن الجيش فى العراق الربع ، وبهذا انتهى الخلاف بين القائدين العظيمين .

فكان فيمن بقى مع المثنى من فرسان الصحابة المشاهير ، فرات بن حيان [١] العجلي ، وبشير بن الخصاصية [٢] والحارث بن حسان [٣] الذهلي ، ومعبد بن أم معبد الأسلمى [٤] ، وعبد الله بن أبي أوفى الأسلمي [٥] ، وعاصم بن عمرو التميمي وكان الأخير من أعظم الفرسان ، ظلوا مع المثنى في نخبة أخرى من الصحابة .

---

(١) اسمه فرات بن حيان بن ثعلبة العجلي من بني بكر وائل ، كان قديم الاسلام ، أسره المسلمون في السنة الثانية للهجرة ، وكان دليل قافلة قريش عندما استولوا عليها وهي عائدة من الشام بالطريق الشرقية عبر نجد ، عفى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن اسلامه وما زال يغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفاه الله ، ثم صار من القادة البارزين في حروب الجهاد خارج الجزيرة .. وهو الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى ثمامة بن اثال الحنفي في قتل مسيلمة الكذاب .

(٢) اسمه بشير بن يزيد بن معبد بن ضباب بن سبع ، وقيل بشير بن شراحيل بن سبع بن ضباري وينتهي نسبه الى بني شيبان ثم بكر وائل .. والخصاصية اسم امه . أتى الى النبي(ص) واسمه (زحما) فسماه النبي (ص) بشيراً . وهو ممن روى الحديث النبوي . وكان من قادةالجهاد في العراق لأنها بلد بني شيبان ، وكان ممن سكن البصرة .

(٣) اسمه الحارث بن حسان الربعي وهو من بني بكر وائل ، وكان رسولهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهو الذى قال (لجهله) لرسول الله (ص) .. (على الخبير سقطت) فاستهجنها منه رسول الله (ص) وله قصة طويلة لهذا السبب انظرها في أسد الغابة ج ص ٣٢٣ . أسلم وحسن اسلامه شهد الجمل مع علي كرم الله وجهه .

(٤) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٥) ابن أبي أوفى اسمه عبد الله بن علقمة من هوازن . شهد الحديبية وبايع رسول الله(ص) وبعد وفاة الرسول تحول الى الكوفة وشهد كل المشاهد مع رسول الله (ص) بعد الحديبية .. وهو آخر من بقي بالكوفة من الصحابة .

وكان فيمن أخذ خالد معه إلى الشام من مشاهير الصحابة وفرسانهم ، فارس تميم المشهور ، القعقاع [١] بن عمرو ، وضرار بن الخطاب الفهري [٢] وعياض بن غنم الفهري [٣] وضرار بن الأزور الأسدي [٤] ، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص [٥] وجرير بن عبد الله البجلي [٦] ، وجرير بن عبد الله

---

(١) هو القعقاع بن عمرو التميمي روى عنه أنه شهد وفاة النبي (ص) قال في أسدالغابة. وللقعقاع أثر عظيم في قتال الفرس في القادسية وغيرها وكان من أشجع الناس وأعظمهم بلاءشهد مع علي صفين وكان رسول علي الى طلحة والزبير ساعياً بالصلح وبسعيه تقارب الناس وكادوا أن يصطلحوا ويحقنوا الدماء لولا مكيدة ابن سبأ اليهودى وعصابته المتواجدين في جيش علي كرم الله وجهه حيث أفسدوا الصلح بالاعتداء بالقتل في جماعة الزبير وطلحة بدون علم علي كرم الله وجهه .. والقعقاع هو الذىقال فيه أبو بكر الصديق. .صوت القعقاع في الجيش خيرمن الف رجل.

(٢) انظر ترجمة ضرار في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

(٣) هو عياض بن غنم الفهرى القرشي ، أسلم قبل الحديبية وشهدها وكان شجاعاً صالحاً فاضلا سمحاً كريماً . ولشدة كرمه سموه زاد الراكب ، لأنه يترك نفسه ويطعم الناس زاده،فاذا نفد نحر لهم جمله . استخلفه أبو عبيدة عند وفاته أميراً على الشام فأقره عمر وهو الذى فتح مابين النهرين في العراق والمسمى (بالجزيرة) توفي سنة عشرين .

(٤) ضرار بن الأزور من أعظم أبطال الإسلام وله شأن عظيم في معركة اليمامة وبزاخة والبطاح . انظر ترجمته في كتابنا (حروب الردة) .

(٥) اسمه هاشم بن عتبة بن مالك (وهو أبو وقاص) من بني زهرةأخوسعد بن أبي وقاص. أسلم يوم الفتح . كان من الأبطال الشجعان المشاهر والفضلاء الأخيار ، قال ابن الأثير فقئت عينه يوم اليرموك . وهو الذى قاد الجيوش في فارس وفتح (جلولا) التي يقال لفتحها . فتح الفتوح يكنى أبا عمر ، وهو المشهور بالمرقال .. وقد بلغت غنائم جلولا التي افتتحها في بلاد فارس ثمانية عشر مليوناً . كان الى جانب علي في صفين وقتل فيها وكانت معه الراية وكانت صفين عام ٣٧هـ كان لهاشم اثر عظيم في انتصار المسلمين يوم القادسية رضي الله عنه .

(٦) هو جرير بن عبد الله بن جابر وهو الشليل قبيلته القبيلة المشهورة بجيلة .. أسلم جرير قبل وفاة النبي (ص) باربعين يوماً ، وكان حسن الصورة .. ومعدوداً في زعماءالعرب وفضلائهم وكان حسن الوجه ، لذلك قال فيه عمر بن الخطاب .. جرير يوسف هذه الأمة ، وكان سيد قومه .. وهو الذي جمعها بعد تفرقها وتلاشيها في القبائل ، وحارب بها كتلة واحدة في حرب الفرس باذن من ابن الخطاب .. توفي جرير سنة ٥١ .

الحميري [1] ، وعدي بن حاتم الطائي [2] . كما استصحب الأمير خالد من أبطال التابعين مرثد بن نجيبة ، وأخاه المسيب بن نجيبة الفزاريين ، ومعاوية بن قرمل المحاربي ، من عبد القيس ، والرَبيع بن مطر بن بلخ التميمي .

عدد الصحابة في جيش خالد الزاحف من العراق

وبالجملة فقد كان عدد الصحابة الذين صحبوا خالداً في زحفه من العراق إلى الشام لنجدة الفيالق الأربعة هناك هو ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار .

وضم الجيش هذا أيضاً أربعمائة من قبيلة بجيلة ومائة وخمسين من قبيلة طيء وهكذا وبعد أن تم اقتسام الجيش في العراق بين خالد والمثنى شرع القائد خالد في التحرك نحو الشام .

تاريخ التحرك من العراق ومتاعب المثنى بعد ذلك

وهناك اختلاف طفيف بين المؤرخين في تحديد التاريخ الذي تحرك فيه خالد بجيش النجدة إلى الشام ، غير أن المرجح أنه تحرك به في أوائل شهر صفر من سنة ١٣ هجرية .

لقد كانت المسؤولية التي القيت على عاتق المثنى الذي خلف خالداً في القيادة بالعراق مسؤولية صعبة للغاية فقد كان الجيش الإسلامي الذي قام بتطهير ثلثي العراق بقيادة خالد عشرين الفاً ، فانخفض إلى النصف وهو عشرة آلاف فقط بعد أن فصل خالداً إلى الشام .

وكان على هذا الجيش الصغير المكون من هذا العدد (عشرة آلاف) أن يواجه ما لا يقل عن ربع مليون جندي من الجيش الفارسي ، الأمر الذي جعل المثنى يلتزم في العراق خطة الدفاع ويحاول الإحتفاظ بالمكاسب الإقليمية التي

---

(١) لم أجد له فيما بين يدى من مصادر ترجمة بين الصحابة .

(٢) انظر ترجمة عدى بن حاتم في كتابنا (حروب الردة) .

تحققت على يد القائد خالد . حتى يتلقى تعزيزات جديدة تجعله قادراً على اتخاذ خطة الهجوم كما كان يفعل خالد بن الوليد .

القائد المثنى في المدينة لطلب المدد

ونظراً لذلك ذهب القائد المثنى نفسه إلى العاصمة (المدينة المنورة) كي يطلب من القيادة العليا بنفسه المدد لتعزيز الجيش الصغير الذي تركه في موقف الدفاع بالعراق .

ولكن القائد المثنى وصل المدينة ، فوجد الخليفة الأول قد توفاه الله تعالى ، فشرح للخليفة الثاني (الفاروق) تحرج حالة الجيش في العراق ، وقدم له التقارير المفصلة عن الوضع هناك ، وأنه يتوقع هجوماً واسع النطاق تقوم به القوات الفارسية لانتزاع ما كانت جيوش الإسلام قد حررته في القطر العراقي .

الفاروق يفتح باب التطوع للقتال في العراق

ولدى اطلاع الخليفة الفاروق على تفاصيل الوضع المتدهور في العراق ، فتح باب التطوع للمسلمين كي يقوموا بالجهاد في العراق .

ونجح الخليفة الثاني في حشد قوات من المتطوعين ، بعد تردد من البعض لأن العرب يفضلون مقاتلة الرومان على منابذة الفرس ، لأن الفرس أعند في القتال وأصبر عليه وأبصر به من الرومان .

الفرس يستعيدون ما فقدوه من اراض في العراق في غياب المثنى

وسارع الخليفة إلى إرسال العناصر القتالية المتطوعة إلى العراق ، وأعفى المثنى من قيادة الجيش هناك وأسند القيادة إلى أبي عبيد الثقفي الذي ليس له خبرة المثنى الحربية وتجربته الطويلة مع الفرس .

وكان أبو عبيد الثقفي فيه شجاعة تبلغ حد التهور ، فاشتبك مع الفرس ودارت معارك ضارية بين الفريقين كان النصر فيها أولاً للمسلمين ، ولكن المثنى

رحمه الله ارتكب غلطة تعبوية في خوضه معركة الجسر الشهيرة فنكب فيها جيش الإسلام نكبة شديدة واستشهد فيها عدد كبير من الصحابة على رأسهم القائد أبو عبيد نفسه ومجموعة كبيرة من أسرته ثقيف ، كما جرح فيها القائد الشهير المثنى ابن حارثة جراحة مميتة ، ولكنه (مع إصابته بتلك الجراح) تمكن من الانسحاب ببقية الجيش سالماً ، ثم شن هجوماً معاكساً على الفرس استعاد فيه كل المناطق التي انتزعها الفرس من المسلمين ، وجاء بعده القائد سعد بن أبي وقاص فشن حرباً شاملة على الفرس ، كان أولها معركة القادسية التاريخية التي انتصر فيها على الفرس وواصل تقدمه حتى امتلك المداين عاصمتهم كما سيأتي مفصلاً في كتابنا الذي سيلي هذا إن شاء الله وهو (حروب الإسلام في العراق) .

العودة إلى المنطلق : خالد ورحلته إلى الشام

وبعد أن اقتسم خالد جيش العراق بينه وبين المثنى على تلك الصورة التي ذكرنا آنفاً أخذ في التهيؤ السريع للانضمام إلى الفيالق المحاربة في الشام والمجتمعة في اليرموك .

لقد كان خالد حينما تسلم مرسوم تكليفه بالتوجه إلى الشام ، يعلم تمام العلم أن الخليفة الأول ما كلفه (وهو في أوج انتصاراته بالعراق) بالتوجه إلى الشام وتولي القيادة العامة فيها لمجابهة البيزنطيين إلا للدرجة القصوى من التحرج التي وصلت اليها حالة الفيالق الأربعة المحاربة في الشام ، وانه إنما اختير وأمر بالتخلي عن محاربة الفرس الذين كان قاب قوسين أو أدنى من عاصمتهم إلا لينقذ الموقف المتدهور في الشام .

لذلك أدرك أن عليه أن يسابق الزمن ويتصل بجيوش الشام التي تجمعت في انتظاره بأسرع ما يمكن كي تحقق نجدته الكبرى الهدف من أجله أمر بتجميد الوضع في العراق والتوجه إلى الشام ، لأنه يعلم أن أي تباطؤ في تحركه هو دونما شك مفيد للرومان ومضر باخوانه المجتمعين في منطقة حوران باليرموك .

الطريق المخطر الذي سلكه خالد إلى الشام

وعلى طريقة خالد وهي السرعة في اتخاذ القرارات وتنفيذها بعد الدرس الدقيق استدعى الخبراء بجغرافية الأرض التي عليه أن يطرقها بنجدته إلى الشام.

وبعد التداول والتشاور مع هؤلاء الخبراء الجغرافيين اتضح للقائد خالد أن هناك طرقاً أربعاً كلها يؤدي إلى مكان التجمع في الجولان حيث اليرموك .

وعند الشروح الجغرافية للأرض تلك ذكر الخبراء لخالد أن الطريق الأول يمر بعين تمر [١] ، فسوى [٢] ، فقراقر [٣]، فتدمر [٤]، فالقريتين [٥] ، فالقطيفة[٦]

---

(١) عين التمر .. بلدة في طرف البادية على غربي الفرات ، وهي عاصمة ما حولها من قريات. وتعرف ببلد العين . أكثر نخلها السب ، ومنها يحمل إلى سائر الأماكن .. وكانت دائماً ساحات معارك لموقعها الممتاز . قال الشاعر :

الا هل اتى الفتيان بالمصر انني ... اسرت بعين التمر اروع ماجدا
وفوقت بين الخيل لما توقفت ... بطعن امرىء قدقام من كان قاعدا

(٢) سوى – بضم اوله – قال في المراصد .. ماء لبهراء من ناحية السماوة فوز اليه خالدبن الوليد من قوارقر لما قصد الشام من العراق .. وقال الشاعر يثني على دليل خالد رافع الطائي الذي سار بهم في صحراء السماوة حتى دلهم على الماء بعد خمس ليال ..

لله در رافع انى اهتدى ... فوز من قراقر الى سوى
خمساً اذاماسارها الجيش بكي ... ما سارها من قبله انس يرى

(٣) قراقر – بضم اوله .. واد لكلب بصحراء السماوة من ناحية العراق

(٤) تدمر بفتح اوله وسكون ثانيه مدينة اثرية قديمة بالشام كان لها شان عبر العصور وهي على اطراف البادية وكانت عاصمة ملك آل اذينة العرب وازدهرت غاية الازدهار في عهد الملكة الداهية (الزبا) التي طردت الرومان من الشام وحاولت ان تغزوهم في روما ... انظر اوسع التفاصيل عن تدمر والزبا (زنوبة) في كتابنا (العرب في الشام قبل الإسلام) .

(٥) القريتين .. قرية كبيرة في طريق الصحراء بعد تدمر الى جهة دمشق . واسمها ايضاً حوّارين . قاله البقاعي .

(٦) القطيفة – بضم اوله .. قال في مراصد الاطلاع .. قرية تشية العقاب للقاصد دمشق من ناحية حمص .

فبصرى [1] حيث اليرموك .

الطريق الثانية : تمر بالفلوجة [2] ، فهيث [3] ، فدير الزور [4] ، فتدمر ، فحمص ، فالنبك [5] ، فالقطيفة [6] ، فدمشق ، فبصرى .

الطريق الثالثة : تمر بعين التمر ، فقراقر ، فهيث ، فكبيسة [7] ، فبئر اللوحة [8] ، فأبي الشامات [9] ، فالضمير [10] ، فعذراء [11] ، فغوطة

---

(١) بصرى - بضم اوله .. في موضعين احداهما في الشام وهي عاصمة حوران وهي التي وصل اليها خالد وبها المتنصرة من الغساسنة . وهي التي وصل اليها النبي صلى الله عليه وسلم للتجارة قبل النبوة .. وبصرى اخرى من قرى بغداد ، قرب عكبراءذكرها ابن الحجاج في شعره

(٢) الفلوجة .. قرية كبيرة على شاطىء الفرات عند فم نهر الملك من الجانب الشرقي .

(٣) هيت بالكسر .. سميت باسم بانيها . قال في المراصد .. وهو هيت بن البندي .. وهي بلدة على شاطىء الفرات فوق الانبار بها نخل كثير وخيرات واسعة،على جهة البرية في غربي الفرات مات بها الامام عبد الله بن المبارك المحدث والعالم العظيم.

(٤) دير الزور .. مدينة اثرية شهيرة بسوريا وحتى اليوم يطلق عليها هذا الإسم .

(٥) النبك .. مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق . فيها عين عجيبة تجرى باردة في الصيف صافية طيبة عذبة . موصوفة بالبرد .

(٦) حدد في كتاب (مراصد الاطلاع في اسماء الارض والبقاع) مكان القطيفة بضم القاف وفتح الطاء - فقال .. هي قرية قرب ثنية العقاب للقاصد دمشق من ناحية حمص .

(٧) كبيسة بضم الكاف .. قالوا .. هي عين في برية السماوة على اربعة اميال من هيت .

(٨) لم اجد له ذكر في المعاجم .

(٩) لم اجد له ذكراً لتحديده ووصفه في ياقوت والمراصد.

(١٠) الضمير .. بضم اوله..قرية من قرى غوطة دمشق بين يدي ثنية العقاب .

(١١) عذراء . قرية بغوطة دمشق . اليها ينسب مرج عذراء.اذا انحدرت من ثنية العقاب رأيتها .. دارت بها معركه قبل الإسلام وفيها يقول الشاعر :

وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن لقاتله في اول الدهر قاليا

دمشق [1] ، فبصرى .

الطريق الرابعـــة : تنطلق من الحـــيرة فوادي حوران ، فالجوف [2] ، فالزرقاء فبصرى .

ونظراً للوضع العسكري القائم في ذلـــك العصر ، فإن لكل من الطرق الأربع ميزاتها وأخطارها بالنسبة لجيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل محمول على الخيل والجمال .

فالطريق الأولى خالية من قلاع ومسالح الفرس والرومان ، فهي تصل بصرى فاليرموك بسالكها دون أن يتعرض له العدو اللهم إلا نقاط مراقبة صغيرة يمكن للجيش الإسلامي التغلب عليها بسهولة .

ولكن هذا الطريق محفوف بالمخاطر الأخرى المهولة .

فهو لا بد لسالكه من أن يجتـــاز مفازة صحراوية قاحلة موحشة لا ماء فيها ولا كلأ ، وهي مفـــازة السماوة التي يتهيب (عبر القرون) اجتيـــازها أصحاب القوافل .

انها مع قصرها أخطر الطرق ، فهي مع خلوها من مسالح الرومان وقواعدهم الحربية ، يمكن وصف عبورها بأنه مغامرة .

---

(١) غوطة دمشق مشهورة منذ اقدم العصور . وصفت بغوره الحلوب للمستعمرين الروم . قال في المراصد : الغوطة . بضم اوله هي الكورة التي منها دمشق ، استدارتها ثمانية عشر ميلا يحيط بها جبال عاليه من جميع جهاتها ، ولا سيما من شماليها ، فان جبالها عالية جداً ، وتمتد فيها عيون تسقي بساتينها ، وتصب فضلاتها في بحيرة هناك . وقال ياقوت .. وهي انزه بـــلاد الدنيا واحسنها منظراً .

(٢) لم احد من الجغرافيـــين من حدد مكان الجوف هذا في الشام . الا ان ياقوت قال .. والجوف كثير في بلاد العرب بعد ان حدد عدة مواقع اسمهـــا الجوف في اليمن وحضرموت والاندلس وأواسط الجزيرة .

ان لهب الصحراء يشتعل في جنباتها وقلبها ، والماء فيها غير موجود، وشمسها حارقة إلى ما يقرب من الغليان ، والمدة التي على جيش خالد أن يقطعهـــا فيها – أن هو قرر عبورها – خمسة أيام ، لا بد له فيها من أن يحمل معـه من الماء والزاد ما يكفي لعشرة آلاف جندي مع وسائل نقلهم من خيل وإبـل ، مع الإشارة إلى أن أكثر عناصر الجيش هم من الخيالة .

ان سلوك طريق السماوة بعشرة آلاف مقاتل هو مركب خطر للغـــاية ، فالجيش كله معرض لخطر الموت عطشاً إن لم تحـــدث من الله معجزة ، بالعثور على الماء فيها .

أما الطريق الثانية ، فهي طريق سهلة ولا يصعب سلوكها من حيث تواجد الماء والكلأ والمواد الغذائية ، ولكنها من ناحية أخرى تحف بهـا الأخطـار من الناحية العسكرية حيث تنتشر على جوانبها للعدوين ، الفرس والروم على السواء مواقع حربية وحاميات عسكرية كبيرة متقاربة ، لأنها الطريق الرئيسي وبها تمر القوافل التجارية .

فعبور خالد هذه الطريق سيجعله مجبراً على أن يخوض سلسلة من الاشتباكات (وخالد لا يهاب الحرب بل هو يتعشقها) ولكن دخوله في مثـــل هذه الحرب (وهو في مثل هذه المهمة) يعطل تحقيق الهدف الذي من أجله ترك محاربـــة الفرس في العراق ، وهو الإسراع إلى إنجاد الفيالق الإسلامية المجتمعة في اليرموك وهذا ما لا يمكن أن يقدم عليه خالد وهو في مثل هذه المهمة الخطيرة .

أما الطريق الثالثة فهي من أصلح الطرق للعبور لجيش النجـدة من السهولة وتوفر كلما يحتاجه الجيش ، ولكنها محفوفة بمخاطر أكبر حيث تنتشر على طولها قواعد كبرى للجيش الروماني ، يضاف إلى ذلك أنهـا ستفضي بجيش خالد إلى حصون دمشق العاصمة الثانية ، وهي حصون قوية وملئة بآلاف الجنود الروم ،

وخالد في رحلته هذه لم تكن دمشق من أهدافه ، إنما هو يقود نجدة كلفه الخليفة والقائد الأعلى أن يسند بها (فقط) وبأسرع ما يمكن الفيالق المتحرج وضعها في منطقة بصرى في اليرموك .

فمن الصعب عليه (إذن) اجتياز هذا الطريق دون الاشتباك في سلسلة من المعارك الطويلة مع عدة حاميات رومانية ، وأهمها فيالق العاصمة دمشق .

وهذا أمر يجعله يفشل في تحقيق هدف نجدته من أجلها أوقف القتال في العراق وتحرك إلى الشام .

أما الطريق الرابعة ، فهي أسلم الطرق لمرور جيش النجدة إلى اليرموك من جميع النواحي ، لأنها خالية من مواقع العدو الحربية ، ولكنها طويلة جداً ، فسلوكها يستغرق أكثر من خمسة عشر يوماً .

بينما الطرق الثلاث الأخرى متقاربة من حيث قصر المسافة ، حيث لا يستغرق عبورها أكثر من خمسة أيام ، وكلها تجعل سالكها إلى اليرموك من الشمال .

أما الطريق الرابعة فيضطر الذي يريد سلوكها إلى أن ينحدر من الحيرة جنوباً على شكل قوس طويل ثم يصعد شمالاً حتى يصل إلى الجولان حيث اليرموك مكان التجمع الإسلامي .

ثم ان سلوك هذا الطريق (وإن كان مأموناً) إلا أنه يحرم خالداً من فائدة المباغتة التي هي من أهم ما يحيده ويلجأ اليه خالد .

لأن شريط هذا الطريق كله مأهول بالسكان المدنيين الموالين للرومان ، الأمر الذي يمكن استخبارات الرومان من اكتشاف تحركات خالد وإبلاغ القيادة الرومانية اخبارها ، فيعترضوا سبيله قبل أن يصل إلى اليرموك .

تدارس القائد خالد وهيئة أركان حربه الوضع ، وعلى ضوء درس أوضاع الطرق الأربع ، اختار القائد خالد أن يجتاز بجيشه النجدة الطريق الأول رغم

ما ينتظره أثناء سلوكها من أخطار مخيفة ، لأنه سيقطع صحراء السماوة ، وهي مفازة كان كل المحاربين وأصحاب القوافل التجارية (عبر العصور) يتهيبونهـــا فلا يسلكونها (رغم قصرها) لما يتهدد سالكها من الهـــلاك عطشاً ، وذلك لخلوها من الماء .

ولكن خالداً (رغم علمه بما يتهدد سالكها من أخطار مخيفة) قرر أن يعبرها ، لأنه وضع نصب عينيه الأخطار المدمرة المحيطة بالفيالق الإسلاميـــة المجتمعة في اليرموك ، والتي إن لم يسارع لنجدتهـــا قد تتعرض للإبادة من قبل الرومان قبل وصوله .

ثم ان عبور صحراء السماوة يحقق رغبة الخليفة الأول الذي أمر خالداً بأن يصل بنجدته إلى الجولان بأقصى سرعة لتحرج وضع القوات المحاربة في الشام . والتي تنتظر وصوله على أحر من الجمر . لأن الروم أخذوا يحلبون عليهم بخيلهم ورجلهم ليصادموهم قبل وصول خالد كي يتمكنوا بسهولة من إبادتهم .

المعارضة الشديدة لعبور السماوة

ويذكر المؤرخون أن خالداً (وهو يبحث موضوع عبور صحراء السماوة) سأل عما إذا كان هناك أحد قد عبر هذه الصحراء في حياته ، فلربما أن عنده علم بنقطة فيها يوجد ماء ، فدلوه على رجل يقال له : رافع بن عمير الطـــائي [1] ، وقالوا له أنه قد سبق له وأن عبر السماوة إلى الشام مع أبيه ، فاستـــدعاه خالد وسأله ، فأكد له أنه (فعلاً) عبر هذه الصحراء عنـــدما كان حديث السن ، ولكن معالمها لا تزال مرتسمة ومحفورة في ذهنه .

---

(١) رافع بن عمير ، ويقال له : بن عمرو ، وهو رافع بن أبي رافع من قبيلة طيء اليمانيـة يكنى أبا الحسن .. وتزعم طيء أنه هو الذي كلمه الذئب ، وكان لصاً في الجاهليـــة .. فدعاه الذئب الى اللحوق بالنبي (ص) ، شهد غزوة ذات السلاسل مع عمرو بن العاص في العهد النبوي توفي سنة ثلاث وعشرين قبل عمر بن الخطاب ، روى عنه طارق والشعبي .

فأخذ خالد يستوضحه عن طبيعة هذه الصحراء ، فأخبره رافع أنها صحراء قاحلة موحشة ، كل أصحاب القوافل وقادة الجيوش يتهيبون عبورها ، فلا يعبرونها لانعدام الماء والكلأ فيها ، وان بها مسافة حوالي مائة وستين ميلاً لا يوجد بها قطرة ماء .

إلا أنه بعد تخطي هذه المسافة من المحتمل العثور على الماء في نقطة كان يذكرها هذا الدليل الصحراوي وهو حديث السن منذ عشرين سنة .

وأعطى رافع القائد خالداً ما يشبه التأكيد بأن الجيش إذا تخطى المائة والستين سالماً فإنه سيعثر على الماء وأبلغ رافع خالداً أنه منذ ما يقرب من ثلاثين سنة مضت قد عبر هذه الصحراء مع أبيه ، وانه يعرف مكان الماء، ولكنه طيلة هذه المدة لم يرده ، فالأمر دونما شك (مع ذلك) محفوف بالأخطار، فخلال عشرين سنة ، تزول علامات وتتغير معالم .

والخبير الصحراوي رافع لديه المعلومات أن قوافل بأكملها قد ابتلعتها هذه الصحراء المخيفة فمات كل من فيها وما فيها من إنسان وحيوان لأنهم ضلوا الطريق إلى عين الماء الوحيدة التي حدث خالداً عنها والتي توجد على أطراف هذه الصحراء مما يلي الشام .

ومن يدري ، فلربما لا يهتدي رافع إلى مكان العين إياها ، فتحدث للجيش كارثة بها يفنى عن آخره ، ولكن رافعاً رجح أنه سيعثر على العين بتوفيق الله .

ورغم حديث الناس المتواتر عن خطورة سلوك صحراء السماوة وتناقل الناس قصص الفناء الذي حاق بالقوافل التي أجبر أصحابها على سلوك هذه الصحراء ، فقد اتكل خالد على الله تعالى وقرر الوصول إلى اليرموك عبرها .

وعندما عزم على اتخاذ هذا القرار جمع مستشاريه وهيئة أركان حربه (وكلهم يعلم طبيعة هذه الصحراء المخيفة) فأخبرهم بذلك ، فأفزعهم ذلك جميعاً .

وعندما اطلعوا على قرار خالد الخطير هذا عارضوه بالإجماع ، لأن الأخبار المستفيضة عن الذين غامروا وحاولوا عبور السماوة تؤكد كلها أن أحداً من الذين قاموا بمحاولاتهم كان مصيرهم جميعاً الهلاك ضياعاً وعطشاً وجوعاً .

لذلك تبلغ خالد من مستشاريه وهيئة أركان حربه جميعهم التحذير الصريح من تنفيذ القرار الخطير الذي اتخذه بشأن عبور هذه الصحراء ، رغبة منهم في الحفاظ على أرواح هذا الجيش الكبير الذي يضم ٣٠٠ من خيرة صحابة محمد ﷺ فقد قالوا له بصوت واحد :

(إياك أن تغرر بالمسلمين) أي بعبورك بهم صحراء السماوة المخيفة .

ولكن خالداً أبلغهم أن قراره لا بد من تنفيذه ، وأنه وحده (وبصفته القائد العام) يتحمل المسؤولية الكاملة بهذا الصدد .

واتضح من نبرات كلمات خالد لأصحابه ومستشاريه أن عبور صحراء السماوة شر لا بد منه ، إذا ما رغبوا في إنقاذ الفيالق الإسلامية في اليرموك .

وبعد أن أوضح خالد أنه كقائد عام يتحمل مسؤولية هذه المخاطرة ، شرح لمستشاريه وهيئة أركان حربه المكاسب العسكرية العظمى التي تقابل المخاطر العظيمة التي حذروه منها ، وهي فعلاً مخاطر حقيقية .

ولكن الأمل كبير في النجاة من هذه المخاطر بالعثور على الماء ،فالله سبحانه وتعالى لن يتخلى عن جيش يقتحم الأهوال في سبيل إعلاء كلمته ، هذا كان منطلق أمل خالد في النجاة من خطر صحراء السماوة .

من أجل ماذا ولماذا سيغامر خالد بهذه الآلاف المؤلفة من خيرة خلق الله ؟ أليس لنصر الله ، وأليس الله تعالى قد تعهد بنصر من ينصره : (إن تنصروا الله ينصركم) إذن فليتم العبور مهما كانت المخاطر والمحاذير ، فالله سبحانه وتعالى مع خالد وجيشه المجاهد ، ومن كان الله معه لن يضيع

الابل الصهاريج

ومع يقين خالد المطلق في أن الله تعالى لن يضيع جيشه الغازي في سبيله ، فلم يتوان عن اتخاذ الأسباب لمعالجة مشكلة احتياج جيشه ووسائل نقله للماءعبر مائة وستين ميلاً التي أبلغه دليله الطائي بأنه لا توجد بها قطرة ماء .

إنها لا شك مشكلة معقدة عشرة آلاف مقاتل أغلبهم من الخيالة لا بد لهم ولخيلهم من الماء الضروري عبر هذه المسافة الطويلة التي يستغرق عبورها من الوقت خمسة أيام .

ان خطر الموت عطشاً أثناء العبور محتملاً جداً ، إذا لم يجد خالد وسيلة تبعد هذا الخطر ، ولقد قالها رافع بن عمير صريحة لخالد وهو يستشيره كخبير بهذه الصحراء قال لخالد حين قرر عبورها إلى الشام : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والاثقال ، والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء » .

فأصر خالد على العبور ، ولكنه طلب الاستعانة برافع لما له من خبرة في هذا الصدد ليست لخالد ، فقال لدليله :

(لا بد من ذلك فمر بأمرك) يقصد بذلك الطلب من رافع إيجاد حل لمشكلة الماء للجيش عبر هذه المسافة ، وهي مشكلة المشاكل .

كان رافع بدوياً خارق الذكاء ، فعندما رأى خالداً مصمماً على العبور ، وأنه وضع فيه ثقته ليجد حلاً لهذه المشكلة التي بدون حلها يستحيل على الجيش أن يصل سالماً إلى الشام ، ورأى أن خالداً أطلق يده ليأمر بما يراه بهذا الصدد ، اهتدى إلى فكرة قال : ان بتنفيذها ينجو الجيش من خطر العطش .

والفكرة التي لم يهتد اليها أحد عبر العصور ، هي أن رافعاً اقترح على خالد أن يلجأ إلى ما يمكن تسميته بالصهاريج الحية تحمل الماء للخيل والجند وهي حية

تمشي حتى يصل إلى نبع الماء الذي قال : انه يعرف مكانه منذ ثلاثين سنة ، عندما مر مع والده مغامرين هذه الصحراء .

أما الصهاريج الحية التي اقترح رافع أن تحمل للجيش الماء فهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الجمال السمان القوية ، اقترح رافع أن تترك هذه الجمال عدة أيام عطاشاً بدون ماء ، ثم ترد الماء بعد ذلك العطش الشديد ، حتى إذا ما امتلأت بطونها بالماء قطعت مشافرها وكممت كي لا تجتر فيتغير الماء الذي في أجوافها أو ينقص ، وبعد إتمام هذه العملية يشرع الجيش في عبور الصحراء ومعه هذه الصهاريج الحية في أجوافها الماء للخيل وعلى ظهورها قرب من الماء للجند، واقترح الخبير الصحراوي رافع على القائد خالد أن يذبح في كل مرحلة مجموعة من هذه الصهاريج الحية (الابل) فتسقى الخيل بما في كروشها من ماء ويأكل الجند لحمها. ويشربون من القرب ما يدفع عنهم العطش .

فأعجبت القائد خالد هذه الفكرة الرائعة وشكر عليها رافعاً وقرر العمل بموجبها أثناء العبور ، ثم شرع خالد في التنفيذ .

فوضع جدولاً زمنياً تنحر بموجبه الابل في كل مرحلة ، وأصدر أمره المشدد لأفراد الجيش بأن يقتصدوا إلى أبعد الحدود في ارتشاف الماء من القرب ، فلا يشربوا إلا ما يكسر حدة عطشهم فقط حتى يصلوا النبع الذي توقع رافع أن يجده لهم ، أما الوضوء للصلاة فقد أمر خالد بأن يستعيضوا عنه بالتيمم وذلك لحاجتهم الشديدة للماء شرباً ، وتلك رخصة جاء بها القرآن الكريم .

الأهوال التي لقيها خالد في السماوة

وهكذا تقرر أن يعبر خالد صحراء السماوة ، وقد نجح (فعلاً) في عبورها حتى وصل مكان تجمع الفيالق الإسلامية في اليرموك وبسرعة لم يتوقعها أحد ،

وكان نجاح خالد في العبور عاملاً حاسماً في إنقاذ الفيالق الإسلامية في اليرموك من الورطة التي هي فيها .

ولكن نجاح خالد في العبور لم يتحقق إلا بعد تعرض جيشه لأخطار أشرفت بهم على الموت عطشاً وذلك في اليوم الخامس والأخير من الرحلة كما توقع الدليل رافع بن عمير الطائي .

فقد تم ذبح الصهاريج المتحركة الحية (الإبل) جميعها ، فنفد الماء ولم تبق منه قطرة يشربها إنسان أو حيوان .

ففي فجر اليوم الخامس بدأ القائد خالد يشعر أن جيشه على أبواب كارثة قد تكون فيها نهايتنا ، فقبل أن ينتهي خالد من العبور النهائي ، وبعد أن بقي عليه أن يقطع بالجيش يوماً كاملاً في هذه الصحراء اللاهبة القاحلة الخالية من قطرة الماء ، طلعت الشمس وأخذت تلفح بلهبها وجوه الجند وتسخن ما تحتهم من رمال هذه الصحراء ، وبدا الإعياء واضحاً على الخيل لأنها لا تصبر عن الماء كالجمال .

أما الجند فقد بدأت شفاههم تيبس من شدة العطش ، وأخذ القلق الشديد على الجند يساور القائد خالد ، ولكن الإيمان بالله والثقة في نصره لجنده الأبرار جعلت خالداً لا ييأس من النجاة .

كان الجيش قد وصل منطقة (سوى) في الصحراء ، وهي التي ذكر الدليل الطائي أنه يعرف بها نبعاً من الماء ورده صغيراً مع أبيه قبل ما يقارب الثلاثين سنة .

عندما رأى خالد حالة جيشه تسوء ورأى بعينيه الإعياء قد بدا واضحاً على البعض منهم أقلقه ذلك هتف بدليله رافع يسأله عن مكان النبع ، إذ أخذ الخطر القاتل يهدد الجيش .

كان رافع مصاباً بالرمد إلى درجة إنه لا يبصر من شدة الرمد ، ولكنه كان خريتاً حاذقاً وذا ذكاء خارق فسأل عن المنطقة التي هم فيها فأخبر أنها (سوى) وهي المنطقة التي حزر بها نبع الماء منذ حوالي ثلاثين سنة ، لذلك هتف (مطمئناً خالداً والجيش) : (خيراً ، أدركتم الري وأنتم على المـــاء ، كان رافع يعرف النبع بعلامة فارقة لم تنسخ من ذاكرته ، ولما كان لا يبصر من شدة الرمد قال : انظروا علمين كأنهما ثديان فوجدوهما ، فلما أخبروه بأنهم وجدوهما كما قال بشرهم بقرب العثور على الماء ، ثم قال : انظروا ، هل ترون شجرة عوسج كقعدة الرجل ففتشوا طويلاً فلم يروها ، فقالوا : ما نراها ، فهتف بما أفزعهم حينما لم يروا شجرة العوسج التي وصف لأنه يذكر أن الماء إنما هو تحتها ، فقد قال : (هلكـتم إذن والله وهلكت معكم ، لا أبالكم اضربوا يمنة ويسرة ، فانتشر رجال الجيش يبحثون بدقة عن الشجرة ، حتى وجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية ، فأخبروه فأعاد الطمأنينة إلى نفوسهم وقال : (احفروا في أصلها) .

فحفروا ونبع الماء فتنفسوا الصعداء وحمدوا الله تعالى ، فشربوا وارتوت الخيل والابل .

ثم قال رافع : والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردتـه إلا وأنا غلام مع أبي .

وهكذا انتهت بسلام أخطر رحلة صحراوية يقوم بها جيش في التاريخ .

وبعد الخروج من مفـــازة سوى بالسماوة لم يعد هنـــاك أي خطر على الجيش من ناحيـــة الماء أو الغذاء والكـــلأ ، فقد اتصلوا بالعمران في الشام وصار خالد يهزم كل من يعترضه وهو في طريقه ويمر جيشه من منـــاطق العدو التي يجتاحها في طريقه حتى وصل بصرى في الجولان وتم لقاؤه بالفيـــالق الإسلامية في اليرموك .

القتال بعد عبور السماوة

خلال الخمسة الأيام الصعبة التي قضاها خالد في عبور صحراء السماوة المفزعة لم يلق أية مقاومة من الأعداء سواء كانوا روماً أو فرساً الذين تقع الصحراء على حدودهما المشتركة .

وهذا أمر طبيعي لأنه لا توجد لأي من الإمبراطوريتين أية قواعد حربية أو حتى أي وجود مدني فيها ، لأن تلك الصحراء لا يجرؤ أحد لا من الفرس ولا من الرومان ، ولا حتى من بادية العرب المتنصرة الموالين لأي من الإمبراطوريتين على المرور فيها فضلاً عن التمركز فيها .

وهكذا كان خالد بن الوليد أول قائد عسكري في التاريخ يغامر بالعبور في صحراء السماوة الخالية تماماً من الماء والغذاء والكلأ والمشتعلة طوال النهار بلهب الشمس الحارقة .

لقد كان الطريق الطبيعي الذي تسلكه الجيوش سواء كانت فارسية تريد غزو الشام ، أو رومانية تريد غزو الفرس ، هو الطريق الذي يمر بسالكه مابين النهرين انحداراً من الشمال إلى الجنوب ، بالنسبة للروم عند الهجوم على الفرس وبالعكس بالنسبة للفرس عندما يريدون مهاجمة الروم .

وطريق ما بين النهرين (دجلة والفرات) مسلوك دائماً في حالة الحرب والسلم سواء للقوافل التجارية أو الجيوش الحربية ، لأن كل ما حواليه مأهول عامر ، وبه كل متطلبات الحياة للانسان والحيوان ، لأنه منطقة خصبة معطاة .

ولكن خالداً عزف عن سلوك هذا الطريق المعبد المسلوك السهل ، وفضل عليه سلوك السماوة ، لا خوفاً من القواعد الحربية لكل من العدوين الفرس والروم المنتشرة على جانبي ذلك الطريق ، فخالد لا يهاب قتال أحد ، بل يتعشقه في سبيل الله لأن الله خلقه سيفاً له تعالى .

ولكن خالداً فضل تجنب المرور بمسالح الاعداء في الطريق المسلوك السهل، لأن مهمته التي تحرك من أجلها هي أن يعجل في الاتصال بالفيالق الإسلامية المتحرج وضعها في اليرموك من الجولان ، لدعمها وتولي قيادتها كي يصادم بها جيوش الروم الجرارة التي وضعت خطة مخيفة لإبادة تلك الفيالق قبل أن يصلها أي مدد إسلامي جديد .

غير أن خالداً اضطر (بعد أن عبر السماوة) إلى الاشتباك مع بعض وحدات معادية من العرب المتنصرة الموالين للرومان ، فأباد بعضهم وهزم وشرد البعض الآخر ، وكل هؤلاء العرب من بهراء من قضاعة ، ومن غسان أتباع الرومان المشهورين .

معركة المصيخ[1]

فبعد أن اجتاز خالد نقطة (سوى) وهي نهاية حدود صحراء السماوة ، واصل تقدمه حتى رحل مكاناً يقال له (المصيخ) وهو ماء لقبيلة بهراء من قضاعة القحطانية المتنصرة .

ولقد حاولت هذه القبيلة الحاطبة في حبل الرومان أن تقاوم خالداً وتعيق تقدمه ، ولكنه تغلب عليها وسحق مقاومتها وأباد أكثر أفرادها بمن فيهم قائدهم حرقوص بن النعمان ، وتدل تقارير المؤرخين ان هؤلاء العرب المتنصرة على علم مسبق بتمكن خالد من عبور صحراء السماوة ، وأنه أصبح قريباً منهم .

فقد ذكر ابن الأثير في الكامل أن خالداً انتهى إلى (سوى) فأغار على قبيلة بهراء قبيل الصبح وزعماؤهم مترفوهم يشربون الخمر في جفنة قد اجتمعوا اليها ، ومغنيهم يغني قائلاً ، متوقعاً نهايتهم على يد جيش خالد :

---

(١) المصيخ بضم أوله وفتح ثانيه .. قال الجغرافيون : ماء لبهراء بالشام بعد سوى وهو بالقصوى ورده خالد في مسيره إلى الشام فأوقع بأهله فذهبوا ما بين قتيل وأسير .

ألا عللاني قبل جيش أبا بكر ... لعل منايانا قريب ولا ندري
ألا عللاني بالزجاج وكرروا ... علي كميت اللون صافية تجري
ألا علـلاني من سلافة قهوة ... تسلي هموم النفس من جيد الخمر
أظن خيول المسلمين وخالداً ... ستطرقكم قبل الصبح مع النسر
فهل لكم في السير قبل قتالكم ... وقبل خروج المعصرات من الخدر

ثم ذكر ابن الأثير أن جنود خالد عند اجتياحهم معسكر بهراء قتـلوا المجتمعين مع زعيمهم على جفنة الخمر وسال دم المغني في تلك الجفنة ، ثم استولوا على كل أموالهم غنيمة حرب .

ثم واصل خالد مسرعاً تقدمه حتى أتى قرية تسمى أراك [1] فتخاذل أهلها ولم يبدوا أية مقاومة ، بل سارعوا رغبة في حقن دمائهم والإبقاء على ممتلكاتهم إلى طلب الصلح من خالد ، فصالحهم على أن يدفعوا الجزية ويكونوا في ذمة وأمان المسلمين .

وفي الحال غادر خالد (أراك) حتى أتى تدمر [2] عاصمة آل أذينة التاريخية المحصنة ، والتي تبعد عن دمشق حوالي ٢٣٠ كيلو متراً نحو الشرق ، فتحصن فيها أهلها ، وظنوا أنهم قادرون على مقاومة خالد وإعاقة تقدمـه ، ولكن خالداً شن عليهم هجوماً كاسحاً ، فخافوا أن يحتل مدينتهم فيفنيهم ويستولي على أموالهم غنيمة ، ولما تأكد لديهم أنهم غير قادرين على صد هجوم خالد ، سارعوا إلى إعلان استسلامهم على أساس الصلح ، فأوقف خالد هجومه وقبل منهم وصالحهم على الجزية ، بعد أن احتل مدينتهم ، ثم غادرها بعـد إبرام معاهدة الصلح وتركهم أحراراً في ذمة المسلمين .

---

(١) أراك هذا لم أجد له ذكر في كتب الجغرافيا العربية .
(٢) تقدم الحديث عنها .

فكانت تدمر أول مدينة يحتلها خالد في الشام عقب عبوره صحراء السماوة.

ثم واصل تحركه بسرعة ، حتى وصل بلدة يقال لها : (القريتين) [1] وكان سكانها من نصارى العرب أتباع الروم ، فحاولوا مقاومته وإعاقة تقدمه فشن عليهم هجوماً صاعقاً ، وانتصر عليهم في الحال ، وبعد أن فرغ منهم واصل تقدمه حتى وصل مدينة يقال لها (حوارين) [2] وتقع بين حمص وأراك وهي من قرى حلب ، فحاول أهلها محاربته ولكنه هزم جيشهم في الحال ، ثم تقدم بجيشه نحو هدفه قمر ببلدة يقال لها (قصم) [3] وأهلها من نصارى قضاعة ، فلم يعترضوه بل صالحوه على أساس دفع الجزية والاعتراف بسلطان الإسلام ، وبعد هذه السلسلة السريعة من الانتصارات ، تحرك بسرعة منحدراً جنوباً قاصداً غوطة دمشق ، وقبل أن يصل الغوطة ، وفي بلدة يقال لها القطيفة [4] وهي دون ثنية العقاب [5] للقاصد إلى دمشق في طرف البرية من ناحية حمص ، وجد جمعاً من قبائل غسان مستعدين لمقاتلته بإيعاز من الروم ، بقصد عرقلة سيره نحو بصرى واليرموك ، فشن عليهم هجوماً صاعقاً ، فلم يقووا على الصمود له ، فانسحبوا مفسحين له الطريق نحو الجولان حيث عاصمته (بصرى) والتي بالقرب منها ترابط فيالق الإسلام التي كانت في انتظار وصوله وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٣هـ .

---

(١) تقدم الحديث عنها .

(٢) حوارين بفتح أوله مع تشديد ثانيه وكسر الراء .. هو اسم القريتين التي بين تدمر ودمشق.

(٣) قال في المراصد : قصم .. بضم أوله وفتح ثانيه، موضع بالبادية قرب الشام من ناحية العراق.

(٤) تقدم الحديث عن القطيفة .

(٥) ثنية العقاب – بضم العين – ، هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق قلت : وسميت ثنية العقاب لأن خالد بن الوليد لما سيطر عليها وهو في طريقه إلى اليرموك من العراق رفع عليها راية رسول الله (ص) المسماة بالعقاب .

ثم عجل بتحركه حتى بلغ الثنية المشرفة على غوطة دمشق ، وهناك رفع راية رسول الله ﷺ المسماة بالعقـــاب ، ومنذ ذلك اليوم سمي ذلك التـــل بثنية العقاب .

ثم واصل تقدمه مسرعاً حتى أتى مرج راهط الذي يسكنه الغساسنـــة النصارى ، فداهمهم على حين غرة وهم في يوم عيد الفصح فأنزل بهم الهزيمة ، ثم اخترق غوطة دمشق من الشمال إلى الجنوب حتى وصل قناة بصرى .

وهناك حقق هدفه الذي من أجله خرج من العراق وركب الأهوال ، فقد التقى بالفيالق الإسلامية الثلاثة التي يقودها أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والتي يبلغ تعدادها حوالي واحد وعشرين الفاً .

وهكذا انتهت رحلة خالد التاريخية المثيرة والتي استغرقت من الحـيرة حتى بصرى ثمانية عشر يوماً .

لقد كانت (في الواقع) المسافة بين الحيرة في العراق وبصرى في الشام تقدر بستة وثلاثين يوماً ، ولكن خالداً لما هو عليه من عجل ولكونه يقود جيش نجدة وإنقاذ فعل ما يشبه المستحيل فأرهق نفسه وجيشه ، فصار يقطع مسافة اليومين في يوم واحد .

لقد كانت الحروب عبر آلاف السنين مشتعلة سجـــالاً بين الإمبراطوريتين الجارتين (فارس والروم) وكانت صحراء السماوة المترامية أطرافها على حدود الإمبراطوريتين أقصر طريق يمكن لأي جيش أن يسلكها في تحركـه ، ولكن أحداً من قادة الفرس أو الروم عبر العصور كلهـــا لم يجرؤ على أن يعبر بجيشه هذه الصحراء للأخطار العظيمة التي تحيق بسالكها لانعدام الماء والكلأ فيهـــا مسافة خمسة أيام .

ولكن خالد بن الوليد غامر بعبورها بجيش مقـداره عشرة آلاف ، فصار

أول قائد في التاريخ يعبر بجيشه صحراء السماوة المخيفة ، وقد أعطـــاه نجاحه في عبور هذه الصحراء سمعة عالمية ، إضافة إلى سمعته التي ملأت الدنيا كقائدمن أشهر القادة في التاريخ كله .

كانت مدينة بصرى جنوبي دمشق عاصمة للجولان الذي هو مقر مملكـــة الغساسنة المرتبطين بالتاج البيزنطي والتي تصب قناتها في وادي اليرموك الذي فيه دارت المعركة الفاصلة بين خالد والروم .

لقد كان ظهور القائد خالد بن الوليد في قنـاة بصرى على تلك الصورة غير المتوقعة من ناحية الشمال مفاجأة كبرى مذهلة لا للرومان وحدهم ، بل لقـادة الفيالق الإسلامية التي هي على علم بتحركه من العراق ، ولكنهم ما كانوا مطلقاً يتوقعون وصوله بهذه السرعة التي لا تكاد العقول تصدقها .

ولكنه خالد البطل عاشق المفاجآت وذو الإرادة الحديدية الصلبـــة عندما يكون في مهمة حربية .

ارتباك الرومان للمفاجأة

أما الرومان فقد صعقوا عندما رأوا خالداً يظهر بجيشه الكثيف على مرتفع غوطة دمشق وينصب العلم الإسلامي : علم رسول الله ﷺ العقاب هناك .

لقد كانت مفاجآت تجمدت لها الدماء في عروق هيئة أركان الجيش الروماني ، وأخذت الدهشه منهم كل مأخذ .

كيف ومن أين جاء هذا القائد المغامر المخيف وكيف ظهر هكـذا بصورة مباغتة في قلب الشام ، وعلمهم به انه إنما يخوض حرباً ضروساً في العـراق وان مقر قيادته في الحيرة على الفرات .

ومصدر الحـــيرة والذهول أن الرومان ما كانوا يتوقعون ، وما كان يخطر ببالهم أن القائد خالد سيجرؤ على عبور صحراء السماوة بهذه الجيش اللجب .

فوزارة الحرب وخبراؤها الجغرافيون يعرفون كل التفاصيل عن طبيعة صحراء السماوة الفاصل بين الشام والعراق .

انها بدون شك أقصر طريق على الإطلاق بين الشام والعراق ، ولكن القيادة الرومانية والفارسية على السواء ، الجميع يعرفون أن كلمة عبور هذه الصحراء لمثل جيش خالد الكثيف مرادفة لكلمة (انتحار) .

لأنهم يعرفون حق المعرفة ، ولديهم قصص الذين ابتلعتهم رمال هذه الصحراء الواسعة الشاسعة الموحشة ، بعد أن ماتوا عطشاً .

فالفريقان الخصمان التقليديان اللذان يتنازعان السيادة على العالم وهم فارس والروم ، طوال حروبهم التي استمرت عدة قرون لم يفكر أحد من قادتهم (أثناء كره أو فره) في أن يعبر بجيشه هذه الصحراء التي عبرها خالد بجيشه ، لأنهم يعلمون حق العلم ويدركون تمام الإدراك ما سيتعرض له الجيش من أخطار مميتة متمثلة في انعدام الماء والكلأ مسافة خمسة أيام كاملة .

ولكن خالداً البطل الذي لا يتهيب أخطر الأخطار في سبيل إعلاء كلمة الله أقدم على هذه المخاطرة الكبرى ونجح (بعون الله له) في العبور ، نجاحاً تم به إنقاذ الفيالق الثلاثة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة .

فقد كان وصول خالد إلى الجولان في وقت كانت فيه حوالي ربع مليون جندي روماني وعربي متنصر يتأهبون للاطباق على فيالق الإسلام المجتمعة والتي لا يزيد عددها على واحد وعشرين الفاً ، وكانت فرائص قادة الجيوش الرومانية ترتعد لمجرد سماع ذكر هذا القائد العربي المسلم خالد الذي وصلتهم التقارير بأنه بعشرين الف مقاتل دوخ مئات الآلاف من جنود الفرس الذين لا يجهل الرومان شجاعتهم وصبرهم على القتال .

ولذلك دب الذعر في نفوس القادة الرومان لوصول خالد ، وانتعشت آمال

قادة الفيالق الإسلامية وأنقذها الله تعالى بانضمام القائد خالد بتعزيزاته القوية اليهم في تلك اللحظة الحاسمه من تاريخ الحرب في الشام كلها .

وعلى العموم إذا كانت المفاجأة الكبرى التي فاجأ خالد بها الشام كانت مفاجأة مزعجة مربكة بالنسبة للقيادة الرومانية التي تعرف ماذا يعني تحدي هذا القائد الإمبراطورية بتغلغل جيشه من العراق إلى قلب الشام عبر مسالح ومواقع هذه الإمبراطورية عنوة ، فإن هذه المفاجأة كانت سارة لكل الفيالق الإسلامية العاملة في الشام إلى أبعد الحدود ، لأنهم يعرفون شجاعة خالد وقدرته الخارقة على حل المشكلات العسكرية والتغلب بمهارة فائقة على ما يعترضه من عقبات في الظروف الحربية .

كما يعرفون يمن نقيبته المشهورة في القتال ، حيث لم تهزم له راية ، ولم ينكس له علم ، منذ أن تولى أول منصب قيادي في الإسلام في موقعة مؤتة قبل خمس سنوات .

كما عم الفرح والاستبشار قادة وجنود الإسلام في الشام لمقدم جيش خالد لأنه يضم عشرة آلاف مقاتل من بينهم ثلاثمائة من صحابة رسول الله ﷺ .

فقد كان وجود هؤلاء الصحابة الشجعان الأخيار في الجيوش دائماً بعد وفاة رسول الله ﷺ يعد من أكبر عوامل رفع الروح المعنوية بين المقاتلين المسلمين .

لأنهم كانوا رضي الله عنهم بالإضافة إلى صلاحهم وتقواهم وشرف صحبتهم لسيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ كانوا عنصراً محارباً ممتازاً على أعلى المستويات.

ولذلك رأينا كيف أن القائد المثنى بن حارثة الذي خلف خالداً في قيادة جيش العراق .. رأيناه - عندما أراد خالد أن يجرد جيش المثنى في العراق من هؤلاء الصحابة الكرام ويستصحبهم جميعاً معه إلى الشام اعترض قائلاً : ما معناه : لا والله ما أرجو النصر إلا بهم ، فكيف تعريني منهم ؟

عدد جيش الاسلام بعد وصول خالد

وهكذا وبعد وصول خالد بن الوليد إلى الشام بنجدته تكامل جيش الإسلام في الجولان حيث اليرموك فصار حوالي ثمانية وعشرين الفاً ، فإذا أضفنا اليه فيلق عمرو بن العاص المواجه لجيش سرجيوس بفلسطين ، ويبلغ ذلك الفيلق حوالي سبعة آلاف صارت جميع القوات العاملة في الشام والتي اصطدمت فيما بعد بالجيش الروماني في اليرموك حوالي خمسة وثلاثين الفاً ، وقيل انهم بلغوا أربعين الفاً بنجدات أخرى وصلت من الجزيرة .

فتح مدينة بصرى قبل اليرموك

كانت مدينة بصرى هي عاصمة الجولان ، وكانت في بدء الزحف على الشام هدف الفرقة الثانية التي يقودها شرحبيل بن حسنة ، كانت هذه المدينة قد استعصت على شرحبيل بن حسنة ، فلم يتمكن فيلقه من فتحها ، لأنها كانت محصنة وبها جيش كثيف للعرب المتنصرة وبعض الحاميات الرومانية ، وتعتبر عاصمة ملك الغساسنة المرتبط بالتاج البيزنطي .

وكان شرحبيل عندما قرر تجميع وحدات الجيش الإسلامي بالشام في مكان واحد فك الحصار المضروب على بصرى والتحق بمكان التجمع وهو اليرموك .

غير أنه لما وصل خالد بنجدته من العراق ، لم تكن بصرى هدفه الرئيسي ، وإنما هدفه المرابطة في اليرموك للمعركة الحاسمة ، ولكنه نظر (كخبير حربي) أن بصرى ستكون أثناء الإلتحام الحاسم في اليرموك خلف ظهر جيشه لأنها تقع قريباً من اليرموك ومن الناحية الشمالية .

فلا بد إذن من تحريرها لتصبح أرضاً ضمن سيطرة القوات الإسلامية المسلحة ، فيضمن خالد بذلك حماية ظهر جيشه في اليرموك .

لذلك وفور وصوله قام بمساندة الفيالق الثلاثة المتواجدة قرب بصرى بهجوم كاسح عليها ، وكان الجيش المدافع عنها قوياً إلى حد كبير .

ولكنه لما علم أن خالد قد وصل وأنه هو الذي يقود الهجوم ، وخالد (دائماً وأبداً) مصدر رعب لكل القادة العسكريين في فارس والروم .. لما رأى قادة الحاميات المدافعة عن بصرى أن لا طاقة لهم بمقاومة هجوم خالد فضلوا الاستسلام على أن يخوضوا معركة قر في أنفسهم أنها ستكون خاسرة بالنسبة لهم ، وان خالداً سيجتاحهم ، ولن تكون النتيجة إلا إبادة قواتهم واحتلال المدينة عنوة والاستيلاء على كل ما فيها غنيمة للمسلمين .

فقد بعثوا إلى خالد يطلبون منه إيقاف هجومه وأنهم مستعدون للتفاوض للتسليم على أساس الصلح التقليدي المعروف الذي يحفظ لهم كرامتهم وأرواحهم وأموالهم ويوفر لهم الحماية والأمن ، فقبل خالد ذلك منهم استناداً إلى قوانين الحرب المعروفة في التشريع الإسلامي حيث تلزم هذه القوانين أي قائد مسلم يحاصر بلداً أهلها من أهل الكتاب أن يقبل منهم ويصالحهم ويوقف الهجوم الذي يريد شنه عليهم حتى ولو كان قد قام به ما دام أنه لم يحتل المدينة .

وجاء وفد التفاوض المسيحي من أهل بصرى واتفقوا على أن يسلموا له المدينة على أساس قواعد الصلح المعروفة ، فتمت السيطرة للمسلمين على بصرى ، فكانت بصرى ثاني مدينة كبرى في الشام (بعد تدمر) يستولي عليها خالد وهو في طريقه من العراق إلى اليرموك .

خالد يتدارس الوضع في الشام مع القادة الثلاثة

وهكذا وبعد أن تولى خالد قيادة القوات المسلحة في الشام أبلغ عمرو بن العاص قائد الفيلق العامل في الجنوب بفلسطين ، والذي لم يستطع الإلتحاق بمكان التجمع في اليرموك ، أبلغه بوصوله بصرى ، وطلب منه أن يكون في

انتظار التعليمات النهائية بشأن الخطة الجديدة التي سيضعها للمواجهة الحاسمة مع جيش الإمبراطورية .

ثم ان خالداً بعد سيطرته على مدينة بصرى عاصمة الجولان ، عقد اجتماعاً على مستوى عال حضره قادة الفيالق الثلاثة وبقية كبار قادة الوحدات وأهل الخبرة الحربية – من يمكن تسميتهم هيئة أركان حرب – عقد مع هؤلاء جميعاً اجتماعاً تدارس فيه معهم الوضع في الشام ، وبعد التشاور والدراسة والتقييم من جميع النواحي تبين لخالد أن هناك للرومان في الشام جيشين رئيسيين ، جيش في الشمال ومقره أنطاكية ، وهو الجيش الثاني وقوامه مائتا الف مقاتل .

وجيش في فلسطين قريباً من الساحل ، وقوامه مائة الف مقاتل غربي فلسطين بإجنادين جنوب بيت جبرين ، فنظر خالد فوجد أنه في قلب الشام بقوات الاسلام الرئيسية بين جيشين عظيمين للعدو ، أحدهما وهو الأول بالقرب من الضفة الغربية ، ويقع خلفه وقريباً من حدود الجزيرة العربية ، ولا يوجد أمامه سوى سبعة آلاف جندي مسلم معتصمين بصحراء النقب يتحاشون الالتحام الحاسم مع الجيش الأول .

وجيش في أقصى الشمال وبالقرب من آسيا الصغرى مصدر إمدادات الجيوش الرومانية .

كيف كانت خطة هرقل لتصفية جيوش الاسلام

وكانت خطة الملك هرقل (قبل وصول خالد من العراق) لتصفية التجمع الإسلامي في اليرموك تقضي بتعزيز الجيش الأول في فلسطين ، ثم صدرت اليه الأوامر (وقد بلغ مائة الف مقاتل) أن يتتبع الفيلق الرابع الذي يقوده عمرو ابن العاص ، ويقضي عليه بسرعة ، وبعد ذلك يتجه بجيشه نحو مؤتة (تماماً) خلف خطوط المسلمين في اليرموك وكلفه بالسيطرة على جميع الطرق والممرات

المؤدية من جزيرة العرب إلى الشام كي يقطع على الجيش المحتشد في اليرموك خط الرجعة ويمنع وصول أي إمدادات اليه من الجزيرة .

اطلع خالد (من استخباراته) على تفاصيل خطة هرقل هذه ، فوجد نفسه بين اتباع أمرين للمواجهة الحاسمة المنتظر حدوثها في اليرموك .

اما أن ينتظر مع القادة الثلاثة في منطقة اليرموك جيش أنطاكية الأعظم ، ويوعز إلى القائد عمرو بن العاص بأن ينسحب بالفيلق الرابع من فلسطين إلى اليرموك ليشاركوا في المعركة الفاصلة ، حيث قرر الفريقان المسلمون والروم أن تكون في اليرموك .

واما أن يترك مكانه في بصرى ويسارع بكامل جيشه لنجدة عمرو بن العاص ويصفي بالاشتراك مع فيلقه الحساب مع الجيش الأول الذي يقوده سرجيوس والذي كان مقره إجنادين ويتلقى الامدادات من البحر عن طريق موانىء فلسطين وعن طريق طبريا فالناصرة فقيسارية .

وحتى إذا ما قضى خالد على الجيش الأول في الجنوب عاد لينازل الجيش الثاني – جيش أنطاكية – في اليرموك ، وهو الجيش الأكبر الذي أخذ في التحرك من أنطاكية ، وبدأ بعض من وحداته تتمركز في فجوة درعا الحصينة على نهر اليرموك حيث دارت المعركة الحاسمة .

والمتفحص في خرائط حروب الاسلام في الشام ، يتضح له من وجهة النظر العسكرية أن تصفية الحساب مع الجيش الروماني الأول بإجنادين في الجنوب بفلسطين ، قبل الالتحام بالجيش الثاني جيش أنطاكية أمر ضروري بالنسبة لوضع الفيالق الاسلامية ، وخاصة فيالق اليرموك ، وذلك لسببين اثنين :

الأول : هو أن وضع الفيلق الرابع بقيادة عمرو في فلسطين حرج للغاية ، فهو يقود جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل ، تلاحقه بقيادة سرجيوس قوات

رومانية قوامها مائة الف مقاتل ، من المؤكد أن عمراً وحده ليس في استطاعته مواجهة هذه القوة الرومانية الهائلة منفرداً .

ولذلك اعتصم عمرو بصحراء النقب ، حيث يستطيع جيشه المكون أكثره من البدو القيام بحرب الصاعقة التي يخشاها الرومان ، ولذلك يتهيبون دائماً التصادم مع العرب في الصحارى المكشوفة .

ولولا أن عمراً اعتصم بالصحراء لأوقع به سرجيوس وأباد فيلقه ، ومع ذلك فقد ظل سرجيوس يتتبع القائد عمراً ويضايقه ولكن بحذر وذلك لاعتصام عمرو بالصحراء ، وقد ظل عمرو يناور في مناوشات سرجيوس متجنباً الدخول معه في معركة حاسمة حتى يصله مدد يمكنه من مصادمة سرجيوس .

وكان سرجيوس حريصاً كل الحرص على الاشتباك في معركة فاصلة مع عمرو ليحقق رغبة الملك هرقل في تطهير جنوب الشام من أي وجود عسكري للاسلام هناك .

ولو نجح في تدمير جيش عمرو بن العاص لتحرجت حالة الفيالق الثلاثة التي تولى خالد قيادتها ولكان احتمال انتصارهم في اليرموك احتمالاً ضعيفاً ، لأنهم سيكونون بين فكي الكماشة التي أقامها هرقل : الجيش الأول في الجنوب بفلسطين ، والجيش الثاني في الشمال ومقره أنطاكية ، وقوة المسلمين الرئيسية بينهما .

ولقد أشار الجنرال جلوب في كتابه (فتوحات العرب الكبرى) إلى هذه الحقيقة فقال :

« اعتمد هرقل على تحصينات اليرموك لوقف الزحف العربي على دمشق ، ولاحظ أن عمرو بن العاص وحيد في منطقة بئر السبع ، فراح يبعث بجيشه الرئيسي إلى الجنوب نحو فلسطين عن طريق طبريا فالناصرة فقيسارية التي

يستطيع أن يستعملها بعد الآن قاعدة أمامية ، وكان البيزنطيون يسيطرون على البحر ، وفي وسعهم تموين جيوشهم في فلسطين من ميناء قيسارية أو من ميناء في يافا وغزة فيما بعد .

وكان الهدف من العملية كلها الإنتصار على جيش عمرو بن العاص في منطقة بئر السبع في الوقت الذي تنشغل قوات المسلمين الرئيسية في اليرموك ، واعتقد هرقل أنه إذا حقق هذه الغاية فإنه يصبح قادراً على الزحف إلى إيلة (العقبة) ليهدد منها طريق مواصلات المسلمين مع مكة والمدينة مرغماً بذلك قواتهم على التراجع عن اليرموك اهـ » .

خالد ينقذ جيش عمرو فتفشل خطة هرقل

وهكذا وللأسباب التي ذكرنا فضل القائد خالد اتباع الخطة الثانية ، فقرر الإنسحاب بالجيش الرئيسي من بصرى واليرموك وكل المناطق الوسطى التي احتلتها جيوش الإسلام ، وأخذ يزحف بسرعة جنوباً واضعاً نصب عينيه (أولاً) التخلص من الجيش الروماني الأول في فلسطين وكل الحاميات الرومانية المتواجدة في بئر السبع وغور الأردن ، لينقذ جيش عمرو ، وليجعل خطوط مواصلاته مع جزيرة العرب مأمونة ، لأن القائد الكفؤ يدخل في حسابه الهزيمة قبل النصر ، ويضع قبل الدخول في المعركة الخطط للانسحاب المنظم المأمون الذي قد يضطر إلى اللجوء اليه إذا لم يكتب له النجاح في المعركة .

وتلك هي الخطة التي اتبعها خالد كي يخوض معركة اليرموك وخط رجعته مفتوحاً ومأموناً بحيث يكون خالياً من أية قوات رومانية يمكنها تهديده من الخلف .

الانسحاب من اليرموك ثم العودة اليه

فقد قرر خالد بموافقة قادة الفيالق الثلاثة أن تنسحب جميع القوات الإسلامية

الرئيسية المتواجدة في منطقة بصرى حيث اليرموك ، وتتجه نحو الجنوب لنجدة فيلق عمرو بن العاص والدخول في معركة حاسمة مع الجيش الروماني الأول الذي يضايقه ويتعقبه ليوقع به ويسيطر على خطوط مواصلات المسلمين الخلفية ، ثم بعد أن يدمر الجيش الروماني الأول في الجنوب يعود ثانية بالجيش وقد انضم اليه فيلق عمرو بن العاص نحو الشمال للمواجهة الحاسمة التي حدثت في اليرموك فيما بعد .

ان انسحاب القائد خالد واختفائه تماماً بكامل جيشه من اليرموك ليس هزيمة ، وإنما هو أمر تكتيكي اقتضته ظروف الحرب القائمة وإحباط خطط الملك هرقل المحكمة التي لا يمكن لخالد إحباطها لكسب المعركة الفاصلة المنتظرة إلا إذا اتبع هذا الأمر التكتيكي .

فخالد رغم تعشقه الحرب لا يعالج الأمور العسكرية بالانفعالات العاطفية التي قد يظن وقتها أن خالداً بتخليه عن كل المناطق التي احتلتها جيوش الاسلام في شمال وأواسط الشام اندحاراً وهزيمة للجيش الاسلامي ، وإنما يعالجها بمقاييس النتايج لما يقدم عليه قائد عسكري في مثل تلك الظروف الحربية المعقدة .

فخالد عندما قرر الانسحاب من جميع الأراضي في الشام وتراجع نحو الجنوب ليتصل بعمرو بن العاص في بئر السبع بفلسطين كان قد عزم على أن يحقق بعمله التكتيكي هذا مكسبين اثنين .

الأول : إنقاذ الفيلق الرابع الذي يطارده القائد الروماني سرجيوس للإيقاع به .

والثاني : تدمير الجيش الروماني الأول في فلسطين ، وبذلك يؤمن خط رجعته من التهديد ويضعف قوات الرومان المسلحة التي عليها مجتمعة أن تواجهه في معركة فاصلة في اليرموك ، فيكون خالد بتدميره الجيش الأول قد قص أحد أجنحة الجيش الروماني الرئيسية وذلك لا شك أمر يساعده إلى أبعد الحدود

في المعركة الفاصلة المنتظرة ، وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد حين عاد خالد مرة أخرى إلى اليرموك وقد سحق جيش الجنوب الكبير ، الجيش الروماني الأول في إجنادين .

الطريق الطويل إلى إجنادين

قلنا : ان مقر الجيش الروماني الأول إجنادين : الواقعة شمال بيت جبرين بفلسطين .

والناظر في جغرافية الأرض التي تجري فيها المناورة والتسابق بين الملك هرقل والقائد خالد لكسب المعركة المصيرية ، يجد أنه كان أمام خالد (وقد قرر التراجع حتى جنوب فلسطين) يجد أن أمامه كي يصل إلى هدفه بجيشه سالماً طريقان اثنان :

الطريق الأول يبدأ من الرمثا جنوب اليرموك ، ويمر عبر جبال عجلون ويخترق نهر الأردن في الشمال نحو الغرب حيث فحل وبيسان ثم ينحدر جنوباً ويمر بين القدس والرملة حتى يصل بسالكه إجنادين حيث مقر الجيش الروماني الأول .

والطريق الثاني ينطلق من الرمثا واليرموك وينحدر بسالكه جنوباً على خط مستقيم شرقي جبال عجلون ونهر الأردن ويمر بعمان ومضيق الكرك مخلفاً عن يمينه البحر الميت ثم يمتد حتى وادي عربا ، ومن هناك يعود فيتجه شمالاً عبر صحراء النقب ، فبئر السبع حيث يوجد عمرو بن العاص ثم يستمر صعوداً نحو الشمال حتى بيت جبرين ثم إجنادين حيث تجمع ومقر الجيش الروماني الأول .

ولا شك أن الطريق الأول هو دونما شك أقرب الطريقين إلى إجنادين .

أما الطريق الثاني فهو طويل جداً ، إذ تبلغ مسافته تقريباً ضعف مسافة الطريق الأول .

ولكن الطريق القصير الأول من الصعب على جيش خالد سلوكه ، لوعورة مسالكه الجبلية وصعوبة اجتياز وديانه العميقة على الفرسان وراكبي الابل الذين يشكلون أكثرية الجيش الاسلامي ، فهو طريق لا يصلح في مناطقه إلا للمشاة المدربين على تسلق الجبال ، كما أن الطرق الصالحة منه لمرور الفرسان وراكبي الجمال مكتظة جوانبها بقرى ومدن ومزارع بها كلها عناصر اما رومانية واما عرب متنصرون موالون للرومان ، كما أن به حاميات رومانية كثيرة منتشرة هنا وهناك ، لأن القدس (عاصمة الشام المقدسة) التي تقع على هذا الطريق القصير لا تزال بأيدي الرومان ، وبها قوة كبيرة ، وتقع جنوب الرملة التي هي الأخرى بها حاميات رومانية وسالك الطريق إلى إجنادين لزاماً عليه أن يمربين هاتين المدينتين القدس والرملة ، وهكذا فإن خالداً إذا اختار اختصار الطريق إلى إجنادين وقرر المرور بهذا الطريق القصير ، فإن عليه أن يشتبك في سلسلة من المعارك مع الروم وحلفائهم قبل أن يصل إلى إجنادين ، وهو أمر لا يرغب فيها خالد الآن ، لأن ذلك يجعل تحركه لنجدة عمرو بطيئاً جداً وقد تطول الاشتباكات فتجعله يفشل في تحقيق الهدف الذي من أجله تحرك من بصرى ، وهو الاسراع لنجدة فيلق عمرو بن العاص ، ومصادمة الجيش الروماني الأول قبل أن يستفحل أمره فيتغلب على فيلق عمرو ويحتل العقبة ويسيطر على طرق المواصلات بين الجزيرة والشام .

أما الطريق الثاني فقد كان مع طوله أصلح لاندفاع جيش خالد ووصوله بسلام إلى هدفه ، لأن سالك هذا الطريق يترك جبال عجلون الوعرة والأراضي المزروعة الشائكة بعيدة عنه غرباً ، كما يترك عن يمينه وهو ينحدر جنوباً جبال الكرك والبحر الميت ، ويمر بطريق شبه صحراوي ، والصحراء أصلح طريق لراكبي الخيل والابل – وجيش خالد كله من راكبي الخيل والابل – والعائق

الوحيد في هذا الطريق الطويل السهل هو مضيق الكرك الذي تغلب خالد على مشكلته ، فشقه خالد في هجوم صاعق مفاجيء .

لهذا السبب اختار خالد سلوك هذا الطريق الطويل جداً ، لأنه في تقديره (وهو تقدير أثبتت الأحداث فيما بعد سلامته) يضمن لخالد (دونما أي عائق) الاتصال بالفيلق الرابع الذي يقوده عمرو بن العاص في بئر السبع ، ثم يمكنه من مداهمة الجيش الروماني الأول في إجنادين من حيث لا يتوقع ، فيصاب بالارتباك لتلك المفاجأة التي لم يكن ليتوقعها : وخالد لا يجيد قائد مثلأساليب المفاجآت ، وفي كثير من حروبه طالما كانت مفاجآته من أهم عناصر انتصاره على عدوه .

لقد سلك خالد بجيشه الرئيسي الطريق الطويل الذي أشرنا اليه ، وظل يتحرك بالجيش في هذا الطريق دون أن يلقى أية قوة تعترضه للروم ، وحتى إذا ما تخطى مضيق الكرك والبحر الميت ووصل وادي عربة صعد من هناك نحو الشمال إلى بئر السبع ، وهناك التقى بقائد الفيلق الرابع عمرو بن العاص ، فضم فيلقه إلى جيشه الرئيسي ، ثم أخذ في التحرك بسرعة ليباغت الجيش الرومي الأول المرابط في إجنادين والبالغ مائة الف مقاتل .

عندما انضم فيلق عمرو بن العاص إلى جيش خالد الرئيسي صار عدد القوات الإسلامية كلها التي في الشام كله أربعين الفاً ، وعلى هؤلاء أن يقاتلوا (أولاً)مائة الف مقاتل روماني في إجنادين في الجنوب ثم يعودون إلى اليرموك ويقاتلون ما يقارب الربع مليون جندي روماني آخر .

معركة إجنادين

كانت إجنادين تقع غربي الخليل وجنوب غربي القدس وشمال بيت جبرين وهي من أقرب القواعد الحربية الرومانية الكبرى إلى البحر الأبيض المتوسط .

وبعد أن نجح القائد في اجتياز الطريق من اليرموك إلى جنوب فلسطين وتمكن من الاتصال بعمرو بن العاص واكتملت جميع القوات الإسلامية بالشام تحت قيادته ، وعندما اقترب من موقع إجنادين شرع في تعبئة جيشه لمعركة إجنادين الحاسمة .

إن عليه أن يواجه مائة الف بأربعين الفاً ، إنها مهمة صعبة دونما شك ، ولكن خالداً يكاد يكون أسطورة التاريخ في التغلب على الصعاب .

وكما هي عادة القائد الفذ خالد في إحكام الخطط لخوض المعارك ومن أهمها أسلوب المفاجأة التي هي من أنجح الأساليب لكسب النصر السريع - أخفى عن قائد إجنادين خبر وصوله إلى بئر السبع وزيادة في التمويه على القائد سرجيوس في إجنادين أوعز إلى القائد عمرو بن العاص الذي كان سرجيوس يتعقبه ، أوعز اليه بأن يتقدم الجيش الإسلامي بفيلقه ، وينشب القتال منفرداً مع جيش إجنادين ، لكي يتوهم سرجيوس قائد الجيش الروماني في إجنادين أن عمراً وحده في الميدان ، وكان خالد كامناً بجيشه الرئيسي مختفياً عن أنظار الرومان في مكان قريب جداً من إجنادين .

كيف عبأ خالد جيشه

وكان خالد قد عبأ جيشه للمواجهة بإجنادين على النحو التالي :

١ - الميمنة : أعطى قيادتها لعبد الرحمن بن أبي بكر [١] : وبعضهم يقول للضحاك بن قيس .

---

(١) اسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان وهو اسم أبيه أبي بكر الصديق القرشي التيمي يقال له أبو محمد . كان شقيق عائشة أم المؤمنين .. كان شجاعاً رامياً حسن الرمي شهد بدراً مع المشركين وكذا أحد . وفي بدر دعا إلى البراز فقام اليه أبوه ليبارزه ، فمنعه الرسول (ص) وقال : متعني بنفسك .. أسلم عبد الرحمن في هدنة الحديبية وحسن إسلامه . ، وكان اسمه عبد الكعبة ، فسماه الرسول (ص) عبد الرحمن .. شهد اليمامة مع خالد بن الوليد ، وقتل سبعة من==

٢٠ – الميسرة : لسعيد بن عامر [١] .

=أكابر بني حنيفة . وهوالذي قتل محكم اليمامة ، رماه بسهم أصاب نحره فقتله وكان محكم اليمامة على ثلمة بحميها في الحديقة ، فلما قتلة عبد الرحمن دخل المسلمون الحديقة من الثلمة . قال الزبيربن بكار : كان رجلا صالحاً ، وفيه دعابة .. وذكر ابن حجر ان عبد الرحمن رأى ليلى بنت الجودي العربية ابنة ملك غسان في الجولان قبل فتح دمشق فأعجبته فهام بها حباً . وقال فيهـا الشعر . وكانت نصرانية على دين أبيها . وقال عبد الرحمن فيها الأشعار ومنها :

تذكرت ليلى والسمارة بيننا ... فيا لابنة الجودي ليلى ومالیا
وأنى تلاقيها بلى ولعلها ... ان الناس حجوا قابلا أن توافيا

وكان عمر بن الخطاب يجل عبد الرحمن . فلما بلغه شعره في بنت الجودي قال لأمير الجيش . إن ظفرت بها فادفعها لعبد الرحمن .. فظفر بها ودفع بها اليه فاعجب بها وآثرها على نسائـه . فلامته أخته عائشة على ذلك فلم يفد فيه ثم انه جفاها بعد ذلك وأعادها إلى أهلها .. وقال ابن حجر كان عبد الرحمن من المشهورين بالصدق ، فلم تجرب عليه كذبة واحدة .. مات بمكة قبل أن تتم البيعة ليزيد بن معاوية وكان كارهاً لها ولم يوافق عليها .. وقد وقفت أخته أم المؤمنين عائشة على قبره فبكته ورثته بابيات متمم بن نويرة التي رثا بها أخا مالكاً .

وكنا كندماني جذيمة حقبـة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كاني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

(١) هو سعيد بن عامر بن خذيم بن ربيعة الجمحي ثم القرشي ، أسلم قبل خيبر وشهدها مع الرسول (ص) كان من خيار الصحابة وزهادهم المشهورين ، يشبه سلمان الفارسي في زهده وتقواه. وكان جريئاً في قول الحق ، وعظ الخليفة ابن الخطاب فقال : ومن يقوى على ذلك . قال سعيد: أنت يا أمير المؤمنين . إنما هو أن تقول فتطاع .. ولاه عمر حمص فبلغه أنه يغشى عليه أحياناً. فاستقدمه إلى المدينة فلما قدم ، لم ير معه سوى عكاز وقدح . فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ؟ فقال له سعيد : وما أكثر من هذا ؟ عكاز أتحمل عليه زادي ، وقدح آكل به. انظر رحمك الله . انه أمير على أحسن مناطق الشام ، منطقة حمص . يأتي إلى المدينة مشياً على الأقدام يا له من إيمان وتقوى . وقد سأله عمر أبك لمم ؟ قال : لا . قال : فما غشية بلغني أنها تصيبك ؟قال حضرت الشهيد خبيب في الجاهلية حين صلبته قريش ظلماً فدعا على قريش وأنا فيهم ، فربمـا ذكرت ذلك فأجد فترة حتى يغشى علي . فقال ارجع إلى عملك بحمص فأبى وناشد عمر الاعفاء من منصب الامارة فأعفاه . وكان سعيد من أزهد الصحابة ومن أكرمهم يجود بكل ما في يديه لما قدم الخليفة الفاروق حمص أمرهم أن يضعوا له قائمة بفقرائهم . فرفع اليه الكتاب ، فاذا فيه سعيد بن عامر ، فقال : من سعيد بن عامر ؟ قالوا : اميرنا يا امير المؤمنين ، قال : ار اميركم فقير ؟ قالوا : نعم . فعجب . فقال : وكيف يكون اميركم فقيراً ؟ ابن عطاؤه (اي راتبه=

٣ - القلب : لمعاذ بن جبل .

٤ – الساقة (المؤخرة) : ليزيد بن أبي سفيان .

وكان عدد الفرسان حوالي عشرة آلاف في جيشه . فقسم هـذه القوة إلى مجموعتين .

مجموعة أعطى قيادتها شرحبيل بن حسنة .

وتولى هو مجموعة القيادة الثانية .

وحسب الخطة المرسومة ، وبموجب تعليمات خالد ، اشتبك عمرو بن العاص مع جيش سرجيوس والملقب عند بعض المؤرخين (بالتذارق) اشتبك مع جيشه متظاهراً بأنه وحيداً في الميدان ، فرح التذارق وظن أنه قد حصل على بغيته وهو انفراده بفيلق عمرو البالغ سبعة آلاف فقط ، فلم يكترث كثيراً بالأمر لأن لديه مائة الف مقاتل ، وماذا عسى أن تفعل معها سبعة آلاف مقاتل .

وبينما القتال ناشباً بين فيلق عمرو وبعض وحدات سرجيوس ظهر خالدفجأة في الميدان بقواته الرئيسية ، ودارت رحى معركة من أعنف المعارك في الشام ، انتهت بتدمير الجيش الروماني الأول تدميراً كاملاً حيث لم ينج منه إلا الشريد

=رخصاته) قالوا : يا امير المؤمنين لا يملك شيئاً . قال:فبكى عمر ثم عمد إلى الفدينار فصرها وبعث بها اليه ، وقال : اقرئوه مني السلام وقولوا له بعث بها اليك امير المؤمنين فاستعن بها على حاجتك . قال : فجاء بها الرسول ، فنظر اليها فاذا هي دنانير فجعل يسترجع ، فقالت له امراته : ما شأنك ؟ اصيب امير المؤمنين ؟ قال : اعظم . قالت : فظهرت آية ؟ قال : اعظم من ذلك . قالت : فامر من الساعة ؟ قال : بل اعظم من ذلك . قالت : فما شأنك ؟ قال : الدنيا اتتني الفتنة ، اتتني دخلت علي . فقالت : فاصنع بها ما شئت . قال لها : اعندك عون ؟ قالت : نعم . فصر الدنانير في خلاة ثم بات يصلي فلما اصبح اعترض بها جيشاً من جيوش المسلمين ففرقها فيهم كلها . فقالت امراته : لو كنت حبست منها شيئاً نستعين به . فقال لهـا : سمعت رسول الله (ص) يقول : لو طلعت من نساء الجنة إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك، فاني والله ما أختار عليهن . توفي سعيد رحمه الله بقيسارية وهو اميرها سنة ١٩ هـ .

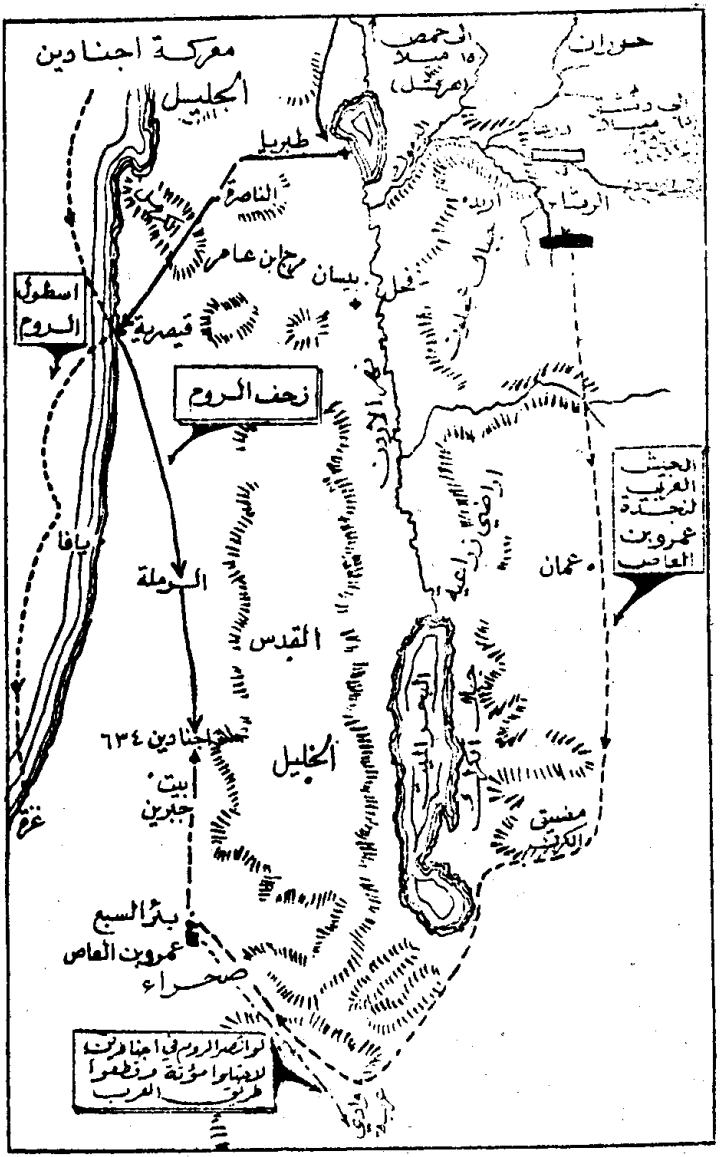
معركة اجنادين
الجليل
طبريل
الناصرة
مرج ابن عامر
بيسان
اسطول الروم
قيصرية
زحف الروم
يافا
الرملة
القدس
الخليل
اجنادين ٦٣٤
بيت جبرين
غزة
بئر السبع
عمرو بن العاص
صحراء
حمص
دمشق
الوشاش
عمان
الجيش العربي لنجدة عمرو بن العاص
مفسق الكرنب
فحل
جبال السراة
اراضي زراعية
البحر الميت
نواصر الروم في اجنادين لم يهنأوا مؤونة وقطعوا طريق العرب

وقد قتل في المعركة عدد كبير من قادة الرومان وحكام المقاطعات بفلسطين على رأسهم القائد العام لجيش الروم في المعركة . قتله خالد بيده .

قائد الجيش الأول يحاول تفادي الحرب بالتفاوض

ويذكر المؤرخون أن قائد جيش إجنادين الروماني عندما وجد نفسه أمام جيش الإسلام الرئيسي بقيادة خالد حاول إغراء المسلمين بإعطائهم ما يطلبون من مال وخيل كي يعودوا أغنياء إلى جزيرتهم الفقيرة ، وذلك ظناً منهم إنما جاءوا إلى الشام للسلب والنهب .

فقد تقدم التذارق أو سرجيوس (كما يسميه البعض) بعرضه إلى خالد بن الوليد ، وجرت مفاوضات قصيرة انتهت في الحال برفض خالد برفض العرض المقدم اليه من قائد الجيش الأول .

وكان سرجيوس قد خلط العرض السخي بتهديد خالد بأنه قادر على سحق جيشه ، ولكن خالداً سخر من هذه التهديدات .

وعندما فشلت المفاوضات بدأت المعركة ، وكان المسلمون البادين بالهجوم ، وكما هي عادة خالد استهدف أول هجومه إبادة العناصر القيادية في الجيش الروماني كي يقطع رؤوس الجيش التي إذا ما قطعت ، تهاوى الجسم وهو بقية الجيش .

وقد نجح خالد وكبار قادته في تحقيق هذا الهدف .

نجح ضرار بن الأزور في قتل حاكم طبريا منذ اللحظات الأولى لبداية القتال ، ثم تخطفت سيوف الإسلام القائد اصطفان حاكم مقاطعة عمان ، فانزعج الرومان لهذه البداية السيئة .

واشتعل لهب المعركة ، وتحرج الموقف بالنسبة للفريقين ، حتى المرحلة الأولى من القتال استغرقت يوماً كاملاً سقط فيه ثلاثة آلاف من جند الروم كان من بينهم

عشرة من القـــادة وحكام الأقاليم : منهم : دمر حاكم نوى : وكوكب : حاكم البلقاء : ولاوى بن حنا ملك غزة .

ولما رأى قائد الجيش الروماني أن القتل قد استحر في جيشه بصورة رهيبة ، وأنه قد فقد أكثر قادة الفرق في جيشه ، قرر أنه لن ينقذ جيشه من هزيمة محققة إلا القضاء على القائد خالد بن الوليد .

فقرر لتحقيق هذا الغرض الغدر به وقتله اغتيالاً .

وذلك أن قائد الجيش الأول تقدم إلى القائد خالد وطلب منه الموافقة على هدنة مؤقتة متظاهراً بأنه يرغب في الصلح وإنهاء الحرب ولذلـــك فهو يطلب الاجتماع بخالد للتفاوض .

وكان في الوقت نفسه قد نصب كميناً كلف رجاله بقتل خالد بمجرد مروره بهم إلى المكان الذي تحدد للتفاوض .

مصرع قائد الجيش الروماني الأول

ولكن خالد (وهو الأسد الهصور والسياسي العسكري النابه الخبير) حصل من استخباراته على كامل تفاصيل مؤامرة القائد الروماني ، وعرف بالتحـديد مكان رجال الكمين الذين كلفوا باغتياله ، وكان المتفق عليه أن يكون التفاوض بين القائدين في صباح اليوم التالي .

وكان قائد جيش إجنادين قد وضع المكلفين باغتيـــال خالد في مكمنهم أثناء الليل .

وهنا قام خالد باختيار عشرة من أشجع قادة جيشه وكلفه بإبادة قوة الكمين المشار اليه واحتلال موقعهم ، فقاموا بتنفيذ المهمة بأسرع ما يمكن وفي سرية تامة حيث أبادوا أفراد الكمين عن آخرهم واحتلوا مكانهم .

وعندما طلع فجر اليوم التالي تقدم قائد جيش إجنادين إلى موضع الكمين وحده ، وهو يظن أنه محمي بجنده الكمين ، وتقدم اليه خالد حسب الاتفاق .

وهنا أمسك القائد الروماني بخالد ونادى قوة كمينه ليخرجوا لأخذ خالد أسيراً أو مقتولاً ، فسارعت قوة خالد إلى القائد الروماني فقتلته ، وأمرهم خالد بأن يقذفوا برأسه في مقدمة صفوف الجيش الروماني .

هزيمة الرومان المدمرة باجنادين

وعندما رأى الرومان رأس قائدهم العام تتدحرج أمامهم تدهورت روحهم المعنوية إلى الحضيض ، بينما ارتفعت روح الجند الاسلامي إلى أبعد الحدود .

ودارت معركة قصيرة كانت فيها إرادة الروم القتالية ضعيفة لأبعد الحدود لفقد قائدهم العام ، لذلك شد عليهم المسلمون بإرادة صلبة فمزقوهم شر ممزق ، فقتل من الروم في المعركة عدة آلاف ، ثم أخذ الباقون في الفرار ، فاستقبلتهم قوات الدعم الاسلامية الآتية من جزيرة العرب فأبادتهم ، فلم ينج منهم إلا عدد قليل تمكن من الافلات نحو القواعد الرومانية في الشمال والغرب .

وقد نشبت معركة إجنادين (على أصح الأقوال) في اليوم الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣ هجرية .

وهكذا نجح القائد خالد في تحطيم جيش إجنادين ، وهو جيش عظيم ، كان هرقل يعلق عليه أكبر الآمال لكسب المعركة الفاصلة المنتظر نشوبها في اليرموك .

وبتحطيم خالد الجيش الروماني الأول في إجنادين طاش سهم الملك هرقل وبدا على ما يشبه اليقين بأن هزيمة جيشه في اليرموك أمر لا مفر منه ، وذلك لانهيار الروح المعنوية بين عامة جنده ، وارتفاعها بشكل ملحوظ بين قوات المسلمين الذين وهم أربعون الفاً حطموا مائة الف [١] .

---

(١) انظر كتاب (الإمبراطورية البيزنطية ، العصور الوسطى ص ٩٦) وفن الحرب ص ١٠٧ والطبري ج ٣ ص ٤١٨ و ٤١٩ وفتوح البلدان ص ١٢٠ والكامل ج ٢ ص ٢٨٦ والفتوحات العربية الكبرى ص ٢٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٤٤١ ومعارك خالد بن الوليد ص ٣٣٩ للمقدم ياسين سويد .

الجنرال جلوب باشا يصف تحطيم الجيش الروماني باجنادين

وقد وصف الجنراب جلوب باشا في كتابه (الفتوحات العربيـة الكبرى) كارثة الروم في إجنادين فقال :

لم يكن ثمة وقت يضاع قبل نجدة عمرو بن العاص وإنقاذه ، واختفى العرب فجأة من موقع اليرموك وراحوا يسيرون ليلاً ونهاراً باتجاه الممر المشار اليـه – يعني مضيق الكرك – ووجـد أهل الكرك (مؤاب) أنفسهم فجـأة يواجهون صفة قوية من راكبي الإبـل فراحوا يعقدون الصلح معهم ويفتحون لهم المضيق .

وكان يقيم في بـلدة الكرك وقراها أقوام هم من أنصاف العرب يدينون بالمسيحية النسطورية ، وعلى عداء مستحكم مع الكنيستين الأرثوذكسية والروحية الكاثوليكية .

وتدفق المسلمون عبر المضيق وعبر وادي عربـة ليعودوا فيرتقوا صعداً إلى سهل بئر السبع شبـه الصحراوي في نفس الوقت الذي كان جيش الروم يزحف جنوباً من قيسارية .

وهكذا تمكن البدو السريعو الحركة على إبلهم بتعودهم شظف العيش والرحيل ليلاً ونهاراً معتمدين في غذائهم على قطعة من الخبز ، من كسب السباق مع الجيش الروماني البليد المترهل الذي يثقل سيره ما يحمله من معدات الحضارة وأدواتها .

ووقعت معركة عظيمة في شهر يوليو (تموز من عام ٦٣٤) في إجنادين التي تقع بين الرملة وبين بيت جبرين ، ومني الروم بهزيمة كاملة .

وكان خالد بن الوليد هو قائد المعركة التي استشهد فيها عكرمة بن أبي جهل قائد جند المسلمين في حروب الردة في عمان وحضرموت .

وهكذا طاش سهم هرقل في معركة إجنادين ، وتحطمت خطته السوقيـة

لشن الهجوم المعاكس ، وعادت قوات المسلمين الرئيسية إلى اليرموك حيث كانت حصون الروم الدفاعية تقف سداً أمام الزحف العربي على دمشق ، وترك العرب (مؤقتاً) المناطق الجبلية في شمال فلسطين وشرقها دون أن يمسوها ، جرياً على ما ألفوه من إيثار الحرب في الصحراء أو في السهول المكشوفة على الأقل ، يضاف إلى هذا أن جيش الروم على اليرموك كان القوة المعادية الوحيدة التي ما زالت في الميدان ، ولو تمكن العرب من هزم هذا الجيش فإن المدن المحصنة ذات الأسوار يمكن أن تصفى على مهل ، وعادت القوات العربية في شهر أغسطس (آب) ٦٣٤ إلى مواجهة حصون البيزنطيين عند ثغر درعا اه [١] .

الآثار المترتبة على تدمير جيش هرقل الأول في إجنادين

لقد كانت معركة إجنادين الضارية التي كسبها خالد وخسرها هرقل أول مواجهة رئيسية تحدث بين الجيش الإسلامي وبين الجيش البيزنطي .

وبتدمير جيش خالد لجيش سرجيوس في إجنادين ارتفعت معنويات المسلمين إلى أعلى مستوى ، بينما انخفضت الروح المعنوية بين عساكر الروم إلى أدنى مستوى ، بالرغم من إن الجيش الروماني في الشام لا يزال (رغم هزيمة إجنادين) متفوقاً على الجيش الإسلامي في كل شيء مادي تفوقاً ساحقاً .

فقد أصيب كبار قادة الجيش الروماني في مختلف مناطق الشام بالذهول عندما تلقوا أنباء تدمير جيش سرجيوس في فلسطين ، وامتلأت قلوبهم رعباً من هذا العنصر العجيب : عنصر العرب الذين (وهم البدو شبه العراة والأقل عدداً) تمكنوا من تدمير جيش أعده هرقل أحسن إعداد وقام بتسليحه أحسن تسليح واختار أن تكون عناصره من خيرة القوات الرومانية المحاربة .

وبات قادة الفيالق الرومان الذين عليهم أن يواجهوا جيش خالد في اليرموك

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى ص ٢٥٥ - ٣٥٦ .

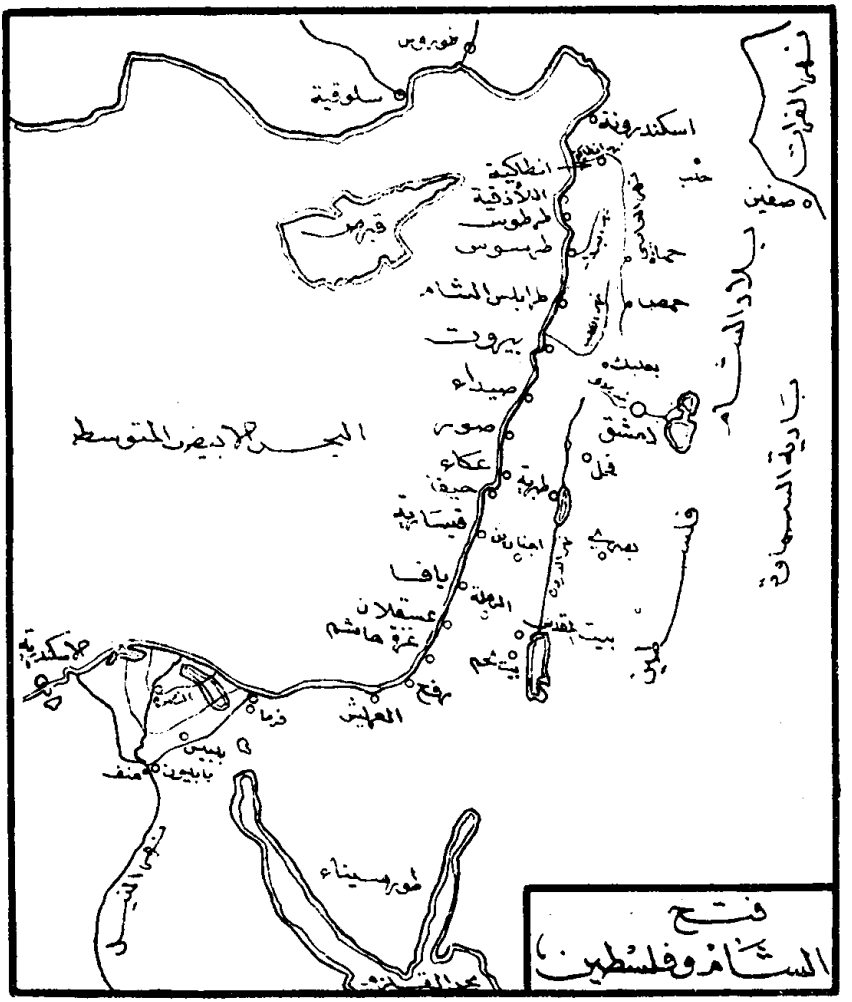
طوروس
سلوقية
اسكندرونة
انطاكية
اللاذقية
طرطوس
طرسوس
قبرص
طرابلس الشام
حمص
حماة
حلب
بيروت
بعلبك
صيداء
صور
عكاء
حيفا
طبرية
دمشق
قنا
البحر الابيض المتوسط
قيسارية
اجنادين
بصرى
فلسطين
يافا
الرملة
عسقلان
غزة هاشم
بيت المقدس
بيت لحم
الخليل
رفح
العريش
فرما
بلبيس
بابليون
منف
طور سيناء
بحر القلزم
بادية السماوة
فتح
الشام وفلسطين

يتحسسون رؤوسهم إذ لا يستبعد أن يفعل بهم خالد ما فعل بسرجيوس وجيشه القوي الكثيف الممتاز في إجنادين .

هرقل وخيبة الأمل الشديدة

أما الملك هرقل الذي كان يدير العمليات من أنطاكية فقد أصيب بخيبة أمل شديدة عندما بلغه تمكن خالد بن الوليد من تدمير الجيش الأول في إجنـــادين وقتل قائده العام سرجيوس (التذارق) . ذلـــك الجيش الذي جهزه أحسن تجهيز لكي ينفذ خطته السوقية التي رسمها لتمزيق الجيش الإسلامي في الشام عن طريق عزل وحداته بعضها عن بعض ، وذلك على غرار الخطة التي اتبعها لتدمير قوات الملك كسرى ابرويز التي كانت تسيطر على الشام وآسيـا الصغرى ، ونجح فيها نجاحاً أذل امبراطورية آل ساسان حين تمكن من تحطيم جيشهم وإخراجهم مدحورين من الشام وآسيا الصغرى ، ثم فرض الحصار على عاصمتهم الذي لم يفكه إلا إبرام الصلح بينه وبين كسرى ، وذلك في مطلع القرن السابع الميلادي ، أي قبل أن تدخل قوات الإسلام الشام بعدة سنوات .

بداية نهاية الجيوش الرومانية

لقد كان انتصار خالد الكبير في إجنادين بداية نهاية الجيوش الرومانيـــة في الشام ، كما أنه كان بمثابة المؤشر القوي الذي صار يميل ميلاً واضحاً بالجند الإسلامي نحو الإنتصار النهائي على الرومان في الشام كلها .

فقد شحن انتصار المسلمين بإجنادين نفوسهم بشحنات هائلة من الثقة بالنفس ، فتضاعفت روحهم المعنوية ورسخ في قرارة نفوسهم أنهـم (بإذن الله) قادرون على تحطيم أية قوة للرومان تحاول اعتراض فرض سلطان الإسلام على الشام .

معركة اليرموك الفاصلة

أما خالد فبعد أن قام بأداء مهمته في فلسطين على ذلك النحو الرائـــع من

تدميره أحسن وأعظم الجيوش الرومانية بعد جيش أنطاكيه (الجيش الثاني) أعاد أدراجه بقواته الرئيسية زاحفاً نحو الشمال حيث تقرر خوض المعركة الحاسمة في اليرموك حيث أخذ الجيش الثاني الروماني يتخذ مواقعه في حصونه هناك في محاولة أخيرة ويائسة لمنع الجيوش الإسلامية من التقدم نحو العاصمة دمشق .

هل دارت معركتان باسم اليرموك ؟

يقول المقدم ياسين سويد في كتابه (معارك خالد بن الوليد ص ٢٤٥) :

قبل البدء بالبحث في معركة اليرموك يجب أن ننبـــه إلى رأي مهم أورده جورج مرعي حداد في كتابـــه (فتح العرب للشام ص ٤٢ – ٤٧ نقلاً عن المستعرب الهولندي ميخائيل دي غويي (١٨٣٦ – ١٩٠٩) وهو أن إجنادين، حيث جرت المعركة التي سميت باسمها ، والتي سبق أن تحدثنا عنها لم يعـــين موقعها بالضبط .

فيقول (الطبري) : إن إجنادين واقعة بين الرملة وبيت جبرين .

ويقول البكري : إنها واقعة بين الرملة والخليل ، وبين هذه المـدن مدينـة قديمة اسمها (برموث) أو (برموتثا) .

إذن يمكن القول بأن هنالك معركتان تدعيان (اليرموك) .

الأولى هي يرموك أو (يرموث) وهي معركة إجنادين التي جرت سنة ١٣هـ والتي سبق أن تحدثنا عنها ، والثانية هي (يرموك أو هيروماكس) وهي معركة اليرموك التي نحن بصددها الآن ، والتي استعـارت من نهر اليرموك اسمهـا والتي يعتقد بعض المؤرخين (الواقدي) أنها جرت سنة ١٥هـ .

ويعتقد دي غويي أن سبب الإختلاف في تحديد تاريخ معركة اليرموك الأخيرة (وهي الكبرى) هو الوقوع في خطأ عدم التفريق بين أخبار المعركتين في رواية سيف (الطبري) أي أنه عرف بحدوث معركة إسمها اليرموك ، ولكنه لم يميز

بينها وبين سابقتها (يرموث) ، فروى أخبار يرموث (أي إجنادين) معتقداً أنها (هيروماكس) أي اليرموك الشهيرة .

ويرى المؤرخ حداد أنه لا بأس من قبول هذه النظرية (لما فيها من الفائدة) ويحاول تأكيد صحتها بالاستناد إلى تاريخ متفق عليه هو تاريخ وفاة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه في جمادى الثاني سنة ١٣هـ (آب ٦٣٤م) أي بعد وقعة إجنادين بوقت قصير .

وبما أن البلاذري وسيف يضعان معركة اليرموك بعد إجنادين فإنهما يقولان: ان خبر وفاة أبي بكر قد وصل إلى المسلمين في أثناء معركة اليرموك .

ويعود حداد إلى تحليل التواريخ فيقول : (وبما أن أبا بكر توفي في أواخر جمادى الثاني فإن خبر وفاته يجب أن يكون وصل إلى المسلمين في شهر رجب ، لأن العهد لم يكن عهد برقيات لاسلكية ، لذا وجب أن تكون المعركة حدثت في شهر رجب إذا صدقنا أقوالهم من أن خبر وفاة أبي بكر وصل في أثناء المعركة ، فإذا حدثت المعركة في رجب ونحن نعلم أن معركة اليرموك حدثت في رجب عام ١٥هـ فقد يكون سيف وأصحابه غلطوا فوضعوا معركة اليرموك (هيروماكس) بدل يرموك (يرموث) التي حدثت عام ١٣هـ .

وبالفعل فإن البلاذري يعود فيذكر اليرموك ثانية في رجب عام ١٥هـ بعد أن ذكرها عام ١٣هـ .

ثم يعقب المقدم ياسين سويد على هذا التحليل فيقول :

ورغم أننا لا نرى موجباً للأخذ بهذا التحليل ، انطلاقاً من اقتناعنا بصحة الرأي الآخر الذي يحدد سنة ١٣هـ تاريخاً لمعركة اليرموك ، فإننا نترك للمؤرخين المحدثين أمر مناقشة هذا الرأي الخطير والمهم واتخاذ موقف منه اهـ .

قلت : (فعلاً) لقد انفرد البلاذري بالقول بأن معركة اليرموك الكبرى

الشهيرة إنما دارت عام ١٥هـ وليس عام ثلاث عشرة بدليل أنه يقول : ان فتح دمشق وفحل إنما كان قبل اليرموك ، وهو بهذا يخالف ما عليه عامة المؤرخين .

ومن جهة أخرى يستنتج مؤرخ أجنبي آخر هو الجنراب جلوب مما اطلع عليه في مختلف المصادر التاريخية أن القتال بين الروم والعرب ربما تكرر وحصل فيه الإنفصال بين الفريقين ثم حدثت بعد ذلك معركة اليرموك الشهيرة الحاسمة ، والتي يؤكد جلوب (تبعاً لجمهرة المؤرخين أنها نشبت بعد إجنادين ، فيقول : (هناك روايات تذكر المرة تلو المرة أن جيش العرب والروم كانا متقابلين عند نهر اليرموك ، ثم تعود هذه الروايات وتذكر أنهما افترقا عن المكان دون الوصول إلى نتيجة .

ثم يعقب الجنرال جلوب على هذا بقوله : فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ؟ ولماذا يتكرر ظهور هذا الإسم (اليرموك) في الروايات ؟ ثم يقول الجنرال :

« ان الصورة الصحيحة لم تتضح أمامي إلا فجأة وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لأغراض عسكرية أيام سيطرة حكومة فيشي على سوريا عام ١٩٤١م ، ولقد أدركت أن هذا المضيق (مضيق اليرموك) على ما عليه من نفع في صدأي هجوم ألماني من الشمال صالح صلاحاً أكبر وأكثر أهمية لصد أي هجوم قادم من الجنوب أيضاً ، وفي وسعي أن أقول : ان فجوة درعا تقوم أمام أي غزو من الجزيرة العربية مقام (ترموبولي) في اليونان اه » (الفتوحات العربية الكبرى) .

اين يقع مكان معركة اليرموك ؟

أين يقع ميدان اليرموك من الشام ؟ كثير ما يبرز هذا السؤال من الباحث الدارس المدقق ، فالناس عن طريق كتب التاريخ القديمة يعلمون أن معركة حاسمة خسر الرومان بعد الشام وكسبها العرب دارت في مكان يقال له :

(اليرموك) ولكن أين يقع مكان هذه المعركة من اليرموك . . لا أحد يدري على وجه التحديد .

لأن المؤرخين القدامى لا يهتمون كثيراً بالتحديدات الجغرافية الدقيقة لمواقع المعارك في الغالب ، ولكن مؤرخاً أجنبياً عاش في المنطقـــة أكثر من عشرين عاماً في العصر الحديث ضابطاً عسكرياً بين العرب يقول : انـــه اكتشف عن طريق الصدفة (أثناء تجواله) ما يعتقد أنه نفس المكان الذي دارت فيه معركة اليرموك التاريخية الشهيرة .

وهذا المؤرخ هو الجنرال جلوب باشا قائد الجيش العربي الأردني (سابقاً) .

فقد قال في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) – بعـد أن شكا من عدم تحديد الإخباريين (جغرافياً) مكان موقعة اليرموك – : نحن نعتمد في مصادرنا على المؤرخين العرب الذين كتبوا تاريخ هذه الحرب بعد أكثر من قرن من وقوعها أي أنهم أجدر بأن يكونوا موضع الثقة من غيرهم ، لقرب عهدهم بهـذه المعركة والذين على الرغم من تدوينهم لأحداثها كانوا يجهلون موقعها أو لا يبالون به .

ثم يقول : ولكني تمكنت من طريق الصدفة العارضة من اكتشاف ما يبدو لي اليوم بأنه مفتاح التفهم لحملة العرب على سوريا ، وهو المضيق الضيق القائم بين نهر اليرموك وبين جبل الدروز عند بلدة درعا .

وقد عثرت على هذا الإكتشاف على النحو التالي :

احتلت القوات البريطانية في يوليو تموز عام ١٩٤١م كلاً من سوريا والعراق أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكانت القيادة البريطانية تخشى أن يقوم الجيش الألماني الذي احتل البلقان باجتياح تركيا للزحف جنوباً عبر سوريا وفلسطين إلى مصر التي كان الجيش الألماني يهاجمها من ناحية الغرب من ليبيا .

ولم تكن هناك تقريباً أية قوات في سوريا وفلسطـين ، كما لم يكن هنـاك أية

دبابات وأسلحة مضادة للدبابات ، وكان من الصعب وقف الألمان لو اجتاحوا تركيا بوحداتهم الصاعقة المدرعة .

ولهذا كان من المهم العثور على جميع المضايق الضيقة الموجودة حيث يمكن لقوات الدفاع أن تصمد أمام القوات الآلية المدرعة ، وأن توقف زحف الأرتال الألمانية ، وقد عهد إلي تحقيقاً لهذه الغاية بالتحري في المنطقة المحيطة بدرعا .

ثم يقول – محدداً المكان الذي يعتقد أن موقعة اليرموك الكبرى حدثت فيه – : يعتبر نهر اليرموك المسيل المائي الذي يصرف مياه حوران ، وقد قام هذا النهر على ممر ألوف السنين بحفر أخدود يسيل فيه ليصب في وادي الأردن الذي ينخفض نحو ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران ، ويبدأ هذا الأخدود عند بلدة درعا ، وتقوم إلى الشرق والشمال الشرقي من هذه البلدة سلسلة ضخمة من الجبال التي ولدتها البراكين الخامدة والتي تكتنف سفوحها بكتل ضخمة من السوائل البركانية المنصهرة ، وتصعب الحركة في بعض الجهات في هذه المنطقة حتى على المشاة ، بينما يتعذر السير فيها على الجياد والإبل والعجلات مهما كان نوعها ، وتهبط هذه النتوءات نحو السهل تدريجياً إلى أن تصل تقريباً إلى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقاً لا يصلح للمرور مطلقاً .

وعبر هذه الفجوة الصغيرة بين الأرض البركانية وبين اليرموك كانت تعبر في عام ستمائة وأربع وثلاثين م ، وما زالت تعبر حتى يومنا هذا الطريق الرئيسي بين دمشق وبين فلسطين وعمان وايلة (العقبة) .

وقد أطلقنا على هذا المضيق اسم فجوة درعا ، وقررنا أن نحفر فيها خنادق لمقاومة الدبابات ، وأن نقيم عليها مراكز محصنة للواء من المشاة لإغلاق الفجوة .

ثم يؤكد جلوب ويدعم رأيه فيقول :

ان الصورة الصحيحة لم تتضح أمامي إلا فجأة ، وبعد أن قمت باستطلاع هذه المنطقة لأغراض عسكرية ، ولقد أدركت أن هذا المضيق على ما هو عليه من نفع في صد أي هجوم من الشمال صالح صلاحاً أكبر وأكبر أهمية لصد أي هجوم قادم من الجنوب أيضاً .

وفي وسعي أن أقول : أن فجوة درعا تقوم أمام أي غزو من الجزيرة العربية مقام مضيق ترمبولي في اليونان .

تشبيه العرب بالألمان

ويشبه الجنرال جلوب (في تحليله هذا) الألمان بالمسلمين في حروبهم الصاعقة فيقول :

ولقد كان الألمان في عام الف وتسعمائة وإحدى وأربعين لا يقهرون في أية حرب آلية صاعقة ، وكان المسلمون سريعي الحركة إلى درجة هائلة ، وكان أسلوبهم المعنوي يتمركز في هجوم عنيف شرس وفي حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات والتموين .

ثم يصف عجز الرومان عن مجارات العرب في حروب الصاعقة (التي يجيدها الألمان كالعرب) فيقول :

ولم يكن في وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تعمل أمام هذه السرعة في التحرك في أرض فسيحة منبسطة . ثم يقول : – محدداً مكان معركة اليرموك – : وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة فأقام جيشهم في عام ٦٣٤م كما أقام الجيش البريطاني في عام ١٩٤١م معسكراً دفاعياً منيعاً على مقربة من درعا في الثغرة الواقعة بين اليرموك والأردن البركانية فكان العرب يقدمون على الإشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعية ليعودوا فينسحبوا ، ولكن افتقارهم إلى العلم العسكري جعل من الصعب عليهم اقتحام

هذه المواقع ، ومن هنا يتبين أن عمليات خالد حول تـــدمر وقرب الشام (أي وقت مجيئه من العراق) تهدف إلى إقناع الروم بالانسحاب من درعا لحمايـــة مؤخرتهم وهو هدف لم يتحقق على أي حال [1] .

قلت : ولكن تحقق ما هو أعظم منه وهو تدمير الجيش الروماني تـدميراً كاملاً في ذلك الموقع من اليرموك الذي تشبث به الرومان وظنوا أنه مانعهم من هجمات العرب الصاعقة (المؤلف) .

استعداد الفريقين للصدام الحاسم

ليس هناك خلاف بين المؤرخين ، مسلمين وأجانب في أن المعركة التي تقرر بعدها مصير الوجود الروماني في الشام هي معركة اليرموك الشهيرة الكبرى .

كما أنه ليس هناك بينهم خلاف في أن هذه المعركة التاريخيـة دارت رحاها على ضفاف ومضايق وادي اليرموك ، ولكن هناك بعض الخلاف بين المؤرخين في أي من الفريقين (الروم والمسلمين) الذي اختار موقع اليرموك ليكون ميداناً لهذه المعركة الرهيبة الفاصلة .

فبعض الروايات تقول : إن المسلمين هم الذين اختاروا اليرموك ميداناً للقتال ، وذلك قبل أن يصل اليهم القائد خالد من العراق بنجدته الكبرى ويتولى قيادتهم جميعاً ، وذلك عندما تكاتبوا واتفقوا على الإنسحاب بفيالقهم الأربعة من جميع الأقاليم التي سيطروا عليها والاندماج في جيش واحد .

وسند هؤلاء ما أورده الطبري في تاريخه ج ٣ ص ٣٩٢/٣٩٣ من أن الملـك هرقل لما بلغه أن فيالق الإسلام تقاتل منفردة بعضها عن الآخر في منطقة خاصة بها اغتنمها فرصة ذهبية وقرر أن يبعث إلى كل فيلق من الفيالق الإسلامية جيشاً من الرومان وحلفائهم العرب غير المسلمين يفوقه في العدة والعدد أي أن هرقل

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى للجنرال جلوب ص ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ .

وضع خطة لتصفية الفيالق الأربعة الواحد بعيداً عن الآخر ، فلما تبلغوا من استخباراتهم تفاصيل خطة هرقل فزعوا جميعاً بالكتب إلى عمرو بن العاص قائد الفيلق الرابع في فلسطين يستشيرونه لما اشتهر به من دهاء وسياسة وخبرة بالحرب قائلين : ما الرأي ، فكاتبهم : إن الرأي الإجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا عدد في يقرن فه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا بـه ، وقد كتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرواً ، فطلع عليهم كتابه موافقاً لمثل رأي عمرو حيث كتب اليهم : « بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

(تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٢ – ٣٩٣)

فاستناداً إلى هذا الذي أورده الطبري يرى الفريق الأول من أهل التاريخ أن المسلمين هم الذين اختاروا اليرموك ليكون ميدان المعركة الفاصلة .

أما الفريق الثاني الذي يرى أن الرومان هم الذين اختاروا اليرموك ، فسندهم أيضاً ما رواه الطبري في تاريخه ج ٣ ص ٣٩٣ من أن الملك هرقل القائد العام لجيوشهم ومدير العمليات في الشام كلها ضد المسلمين ، لما بلغته تفاصيل خطة تخلي المسلمين عن الأقاليم التي سيطروا عليها ليجتمعوا في مكان واحد ويكونوا جيشاً واحداً كتب إلى قادة جيوشه الرئيسية بأن يحتشدوا هم أيضاً في مكان واحد ، فاختاروا (اليرموك) .

قال الطبري : وبلغ ذلك (أي خطة المسلمين الجديدة) فكتب إلى بطارقته

أن اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب ، وعلى الناس (أي قائد عام) التذارق وعلى المقدمة جرجة وعلى مجنبتيه باهان والدراقص ، وعلى الحرب القيفار ، وابشروا فإن باهان في الأثر مدداً لكم ، ففعلوا فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك ، وصار الوادي خندقاً لهم،وهو لهب لا يدرك مداه ، وإنما أراد باهان وأصحابه أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها اه » .

قلت : ووصف الملك هرقل للمكان الذي اختاره لجيشه ينطبق تماماً على المواقع التي حددها الجغرافيون العصريون ، فالرومان يفضلون القتال دائماً في الأماكن المحصنة ذات الممرات والمضايق والمرتفعات لترهلهم وثقل معداتهم والصعوبة التي يلاقونها عندما يدور القتال في الأماكن التي تستلزم السرعة وخفة الحركة .

بينما يفضل العرب (الذين لا يفوقهم أحد في حروب الصاعقة السريعة) المناطق الفسيحة الواسعة لتدربهم على خفة الحركات على سروات الخيل وظهور الجمال ، ولقلة معداتهم الثقيلة .

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن هناك تناقضاً في روايتي الطبري حول اختيار كل من الفريقين منطقة اليرموك مكاناً للمعركة الفاصلة .

والواقع أنه لا تناقض فيما قال :

فقد اختار كل من الفريقين (العرب والروم) من اليرموك الموقع الذي يناسب أسلوبه في القتال ، فكان اختيار الفريقين لليرموك معاً من باب الصدفة وعلى غير اتفاق مسبق .

ويدل على أن العرب المسلمين اختاروا من منطقة اليرموك أمكنة أقرب إلى الصحرى ما ذكر المؤرخ أمين سعيد في كتابه (حروب الإسلام والإمبراطورية الرومانية) حين قال :

بينما القادة الثلاثة مجتمعين دخل عليهم أبو سفيان (قلت وهو من أعلم الناس بالحرب) فشاوروه في الأمر فقال لهم : ان معسكركم هذا ليس بمعسكر ، اني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن ، فيحولوا بينكم وبين حدودكم من المدينة (يعني خشيته في أن يقطع الرومان عليهم خط الرجعة وهم في مكان ضيق) فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أذرعات [1] من ورائكم فيأتيكم المدد والذخيرة ، فعملوا برأيه وارتحلوا إلى اليرموك ، فنزلوا على ضفته اليسرى الجنوبية ، وامتد عسكرهم من تل الأشعري حتى تل شهاب ، قلت والمتفحص لخرائط مواقع المعركة يجد أن الضفة اليسرى الجنوبية المشار اليها هي أقرب إلى مناطق السهول والمنبسطات (وهي ما يفضل العرب الحرب فيها) بدلاً من التلال والمضايق والمرتفعات .

الطبري يؤكد تكرار القتال في اليرموك قبل إجنادين ومعركة اليرموك الكبرى :

لا شك أنه على الباحث في التاريخ أن يحل لقارئه أو مستمعه ما يتسرب إلى أنه إشكال أو تناقض أثناء عرض البحوث التاريخية ، وخاصة إذا كان هذا الإشكال وارد في كتاب من أمهات التاريخ .

وهذا الإشكال لا يصعب حله على الباحث الصابر المدقق كي يلقم حجراً كل الذين يريدون أن يغمزوا من قناة مصادر التاريخ الإسلامي بما يسميه البعض بالتناقضات كما فعل الجنرال جلوب باشا السكسوني حين قال في كتابه الشهير (الفتوحات العربية الكبرى) وهو يتحدث عن معركة اليرموك الحاسمة :

« ويشكو جميع المؤرخين الأوروبيين للفتح الإسلامي لسوريا من غموض الروايات العربيه وافتقارها إلى الدقة ، فهذه الروايات تذكر أن جيش العرب

---

(١) أذرعات بكسر الراء ، بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البلقاء وعمان.

والروم كانا متقابلين عند نهر اليرموك ، ثم تعود هذه الروايات وتذكر أنهما افترقا عن المكان دون الوصول إلى نتيجة ، فهل وقعت معارك عدة على هذا النهر ، ولماذا يتكرر ظهور هذا الإسم – اليرموك – في الروايات » ؟

قلت والواقع أن ما يتوهم أنه إشكال أو تناقض وينبغي حله ورد في تاريخ الإمام الطبري ، وهو أهم مصادر التاريخ في استيعاب تفاصيل حروب الإسلام في الشام .

وهذا الإشكال الذي يقوله جلوب إن المؤرخين الأوروبيين (وهو منهم) اشتكوا منه وسموه غموضاً بالنسبة للقتال في اليرموك يتلخص في عدة أمور بالنسبة للطبري .

أولاً : يبوب الطبري لمعركة اليرموك ، ويذكر تفاصيلها من البداية حتى النهاية قبل معركة إجنادين التي نشبت في فلسطين ، ولكنه يذكر أثناء سياقه عن أحداث كل من المعركتين أن معركة إجنادين حدثت قبل معركة اليرموك ، فهو يذكر على وجه التحديد أنها حدثت في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣هـ ، ويذكر قبل ذلك (أثناء سياقه عن اليرموك) أنها انتهت في شهر رجب من السنة نفسها .

فالأمر إذن بسيط جداً ، إذ يقال لإزالة ما يسمونه غموضاً أو التباس : ان ذلك خطأ فني لا يلام عليه من هو في مثل عصر الإمام الطبري .

لقد كان (فعلاً) من الأفضل أن يسبق السياق عن معركة إجنادين قبل الحديث المفصل عن معركة اليرموك على أساس أن إجنادين نشبت قبل اليرموك .

ولكن في رأينا أن تحديد الإمام الطبري تاريخ نشوب كل من المعركتين لم يترك أي وجود لما يسمونه تناقضاً أو غموضاً أو التباس ، ولم يبق إلا الخطأ الفني الذي قد يكون حدث من النساخ ، وهو تقديم ذكر معركة اليرموك الفاصلة على ذكر معركة إجنادين .

وهذا أمر بسيط في إمكان المؤرخ المعاصر تداركه بأن يذكر تفاصيل إجنادين قبل اليرموك ، وهذا هو ما فعلناه في كتابنا هذا : والفضل الأول للإمام الطبري العظيم ، لأن كتابه أهم مصدر لتفاصيل مثل هاتين المعركتين الحاسمتين وغيرهما من معارك وأحداث في الشام وغيره .

ثانياً : وبينما يذكر شيخ المؤرخين الإمام الطبري رضي الله عنه أن المعركة الفاصلة النهائية الحاسمة بين الروم والمسلمين نشبت وانتهت في اليرموك في شهر رجب من سنة ١٣هـ ، يذكر قبلها ج ٣ ص ٣٩٣ وما بعدها أن هناك مواجهة حربية تكررت بين المسلمين والروم باليرموك استمرت طوال شهر صفر وربيعي الأول والثاني سنة ١٣هـ . أي أن هناك قتال نشب بين الفريقين في اليرموك قبل إجنادين الحاسمة وقبل اليرموك الكبرى بعدة أشهر ، كما يذكر أن هذه المواجهة الطويلة الغير الحاسمة حدثت بالطبع قبل أن يتحرك خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لتولي القيادة العامة .

فقد قال في كتابه الشهير (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٣٩٣ :

« وانتقل المسلمون عن عسكرهم الذي اجتمعوا فيه ، فنزل عليهم (أي القائد الروماني العام باهان) بجذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو : ابشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير [١] .

---

(١) هنا (فعلاً) ما يمكن تسميته غموضاً وأشكالاً وهو ذكر الطبري أثناء هذا السياق أن عمراً كان موجوداً باليرموك أثناء المواجهة غير الحاسمة قبل وصول خالد من العراق والتي ابتدأت بشهر صفر ، بينما تؤكد جميع الروايات وعلى رأسها رواية الطبري أن الفيلق الرابع ظل يباشر أعماله الحربية بقيادة عمرو بن العاص في فلسطين ضد الروم حتى أواخر جمادى الأولى من السنة نفسها حين جاء خالد من بصرى واليرموك وأنقذه من ورطة ثم خاض بالاشتراك معه معركة إجنادين الحاسمة في فلسطين .

فمعركة إجنادين إنما كان من أهم أسبابها مجيء خالد بكافة الفيالق الثلاثة مع جيشه العراقي=

فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم ومخرجهم : صفر سنة ثلاث عشرة وشهري ربيع ، لا يقدرون من الروم على شيء ، ولا يخلصون اليهم : اللهب (وهو الواقوصة التي هي الهوة السحيقة بين جبلين) من ورائهم والخندق من أمامهم ، ولا يخرجون خرجة إلا أديل المسلمون منهم ، حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول وقد استمدوا أبا بكر وأعلموه الشأن في صفر ، فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى ، فوافاهم في ربيع ، ثم يقول الطبري : ان أبا بكر لما بلغه نزول المسلمين باليرموك وطلبهم المدد منهم فقال : خالد لها : فبعث اليه وهو بالعراق وعزم عليه ، واستحثه في السير ، فنفذ خالد لذلك ،

لنجدة عمرو الذي كان متورطاً مع جيش سرجيوس الذي كان يتعقبه للايقاع به حتى اضطر إلى الاعتصام بصحراء النقب متحاشياً الاصطدام معه في معركة فاصلة حتى جاء خالد .

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الحقيقة التي لا غبار عليها وبين ما ذكره الطبري هنا من أن عمراً كان قبل وصول خالد من العراق مع قادة الفيالق الثلاثة في اليرموك أثناء المواجهة الطويلة مع الرومان غير الحاسمة ؟

هناك حلان لهذا الإشكال الواضح .

الحل الأول أن يقال : ان الطبري أثناء سياقه عن مواجهة اليرموك الطويلة غير الحاسمة والتي ذكر فيها اسم عمرو كأحد القادة ، إنما قال عمرو فقط ، فلم يقل عمرو بن العاص ، فيحتمل ان الذي قال كلمته الشهيرة : (وقلما جاء محصور بخير) لم يكن عمرو بن العاص ، وإنما رجل آخر اسمه عمرو .

والحل الثاني أن يقال : ان القائد عمراً بن العاص لما فزع اليه القادة الثلاثة يستشيرونه حين اطلعوا على خطة هرقل لإبادتهم متفرقين نصحهم بالتجمع في اليرموك ، ثم ترك فيلقه في فلسطين تحت قيادة نائب له وحضر (سراً) إلى اليرموك ليشارك القادة الثلاثة في معالجة الوضع الخطير هناك ، وبعد أن أدى مهمته في اليرموك كخبير عسكري مجرب عاد (سراً) الى تولي قيادة فيلقه في بئر السبع بفلسطين وظل هناك يحاول ويناور حتى جاءه خالد وخاض بالاشتراك معه معركة اجنادين الفاصلة التي نشبت قبل اليرموك الكبرى والتي كانت باب النصر الأكبر الذي أحرزه المسلمون في اليرموك حين دمروا الجيوش الرومانية هناك في شهر رجب سنة ١٣ هـ تدميراً كاملاً حيث لم ينج منهم بعد قتل قادتهم جميعاً الا الشريد .. قلت وانا أميل الى الحل الثاني والله اعلم .

فطلع عليهم خالد ، وطلع باهان على الروم ، وقدقدم قدامهم الشمامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضونهم على القتال ، ووافق قدوم خالد قـــدوم باهان كالمقتدر فولي خالد قتاله ، وقاتل الأمراء من بإزائهم ، فهزم باهان ، وتتابـــع الروم على الهزيمـــة ، فاقتحموا خندقهم ، وتيمنت الروم ببـــاهان ، وفرح المسلمون بخالد .

وحرد المسلمون وحرد المشركون وهم مائتا الف مقيد وأربعون الفـاً منهم مسلسل للموت ، وأربعون الفاً مربوطون بالعمائم ، وثمانون الف فارس ، وثمانون الف راجل [1] والمسلمون سبعة وعشرون الفاً ممن كان مقيماً إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين الفاً .

إلى هنا ينتهي كلام الإمام الطبري ، وهو يـدل بكل وضوح على أن قوات الإسلام في اليرموك قبل موقعة إجنادين وقبل معركـــة اليرموك التاريخيـــة الحاسمة التي بها انتهى الوجود البـــيزنطي في الشام ، إشتبكت مع الرومان على ضفاف اليرموك .

وهذا يعني بالتأكيد أن المسلمين – بعد وصول خالد من العراق بنجدتـه – قد انسحبوا من اليرموك واتجهوا جنوباً نحو فلسطين لنجدة عمرو بن العـاص ثم خاضوا معركة إجنادين الشهيرة.

ولكن الإمام الطبري في أي مكان من تاريخه لم يذكر بالتفصيل أن المسلمين عندما تحركوا إلى فلسطين من اليرموك متخلين عن مواجهة الجيوش الرومانيـة المحتشدة في اليرموك منذ شهر صفر ١٣هـ.

---

(١) وهذا يعني أن الطبـــري يرى أن عدد القوات البيزنطيـــة في اليرموك كانت حوالي ربع مليون جندي .

وإنما ذكر أن خالداً تحرك بالمسلمين من مدينة بصرى مدداً لعمرو بن العاص في فلسطين (الطبري ج ٣ ص ٣١٧) .

وهذا أيضاً فيـــه بعض الإشكال ، ولكن هذا الاشكال يمكن حله أيضاً بجملة أوردها الإمام الطبري وهي قوله : - يصف قدوم خالد من العراق - : (ونزل على قناة بصرى ، وبصرى هنا عاصمة حوران ، وحوران تصب مياهها في وادي اليرموك) .

فصح يقيناً أن خالد عنـــدما جاء من العراق أول ما نزل ، نزل على وادي اليرموك حيث تعسكر الفيالق الإسلامية الثلاثة ، وهو الذي عبر عنه بقنـــاة بصرى ، ومن هنا يمكن القول : إن خالداً قرر الإنسحـــاب من اليرموك لنجدة عمرو بن العاص بفلسطين وحرر مدينة بصرى وهو في طريقه إلى فلسطين لنجدة عمرو ، وبعد تدميره جيش سرجيوس الرومي في إجنادين عادومعه عمرو وفيلقه إلى اليرموك مرة ثانية وخاض المعركة الفاصلة في نفس المكان الذي انسحب منه وحطم القوات الرئيسية المتواجدة في الشام .

فهناك إذن نشبت في اليرموك بين المسلمين والروم معركتـــان الأولى غير حاسمة ، بل مناوشات هي عبـــارة عن كر وفر بين الفريقـــين ، وهي التي انسحب على إثرها المسلمون فجأة (كما يقول الجنرال جلوب) نحو فلسطـــين لنجدة ابن العاص .

والثانيـــة فاصلة ، وهي المعركة التاريخيـــة الكبرى التي أنهت الوجود الروماني في الشام كله ، وذلك بعد عودة خالد بكامل قوات الإسلام من فلسطين بعد انتصاره الإنتصار الساحق على الجيش الروماني الثـــاني وقتـــل قائده العام في إجنادين .

عودة إلى المنطلق .. تمبئة الفريقين للمعركة الفاصلة

من المتفق عليه بين المؤرخين مسلمين وأجانب أن هناك تفاوتاً كبـــيراً من

حيث العدد بين القوتين المتحاربتين في اليرموك : فقد كان عدد القوات الرومانية على أقل تقدير مائتين وأربعين الفاً ، بينما عدد القوات الإسلامية على أكثر تقدير تبلغ أربعين الفاً . وهذا يعني أن على كل جندي مسلم أن يواجه وحده ستة من الجند الرومان .

أضف إلى ذلك أنه يوجد في الجيش الروماني من سلاح الفرسان (وهو أهم وأقوى سلاح في ذلك العصر) ثمانون الف فارس .

بينما لا يوجد في جيش المسلمين سوى عشرة آلاف فارس .

أي أن نسبة تفوق الرومان على المسلمين في هذا السلاح الممتاز ثمانية لواحد ، انه تفوق مخيف خطير بالنسبة للمسلمين .

ذلك أن سلاح الفرسان في ذلك العصر يعد بمثابة سلاح الدبابات في عصرنا ، وفي الحرب على الأرض يكون الفوز غالباً للذي يملك التفوق الساحق في سلاح الدبابات . في عصرنا إذا استبعد الطيران .

هذا بالنظر لوجهة النظرة العسكرية المجردة من مختلف العوامل الأخرى .

ولا شك أن المطلع في ذلك اليوم على هذا التفاوت الكبير بين القوتين المتواجهتين في اليرموك سيعطي قراراً مسبقاً بأن النصر الحاسم في المعركة سيكون للرومان على العرب ، وذلك استناداً إلى أصول وقواعد العلوم العسكرية .

وهذا تقدير وحكم صحيح إذ ما كان المتحاربان يتساويان في الدافع والقصد والغاية والمعتقد .

ولكن الرجال المسلمين الذين من طراز الذين قاتلوا في اليرموك ، ولتقبلهم الإسلام بتكاليفه ، أمراً ونهياً وعقيدة وسلوكاً أعطوا في اليرموك وغير اليرموك للعالم أجمع (عملياً) نظرية جديدة تقول : إن التفوق المادي والتكنلوجي الساحقين ليسا هما دائماً وأبداً يمنحان النصر لمن يملكهما .

فقد جاء هؤلاء المسلمين بمفاهيم جديدة للحرب أبطلت مفاهيم الحرب التقليدية المتعارف عليها بين العالمين منذ أقدم العصور ، حيث يكون النصر دائماً للأكثف جنداً والأجود تسليحاً والأعمق في العلوم والفنون العسكرية . ومن سوء حظ الروم أنهم لم يستوعبوا هذه الحقيقة فظلوا على اعتقادهم أن حركة المسلمين هذه إنما هي بدافع الحصول على المادة ورغد العيش [1] لذلك هزموا هزيمة ساحقة .

وهذه المفاهيم الجديدة التي أدهشت العالم هي العقيدة السليمة الصادقة التي يلزم معتقدها نفسه العمل بما جاءت به من تكاليف ووصايا وأوامر ونواهي .

ففي اليرموك دمر أربعون الفاً من حمال هذه المفاهيم الجديدة مائتين وأربعين الفاً من الرومان الذين يتفوقون عليهم تفوقاً ساحقاً في كل شيء مادي .

وكذلك فعلوا بمن يخالفهم في هذه المفاهيم الجديدة ولا يؤمن بها ، في فارس ، في مصر ، في أفريقيا ، في أسبانيا ، في كل مكان قاتلوا فيه وهم ملتزمون عاملون بتكاليف هذه المفاهيم الجديدة التي جاءت بها عقيدتهم الحديثة المستجدة .

خالد بن الوليد يدخل تنظيماً جديداً للجيش ولأول مرة في تاريخه

ومع ما يتحلى به المسلمون من صبر وثبات في الحرب بزخم من العقيدة الصلبة السليمة التي لا يعرف حاملها الخوف من الموت في سبيل الله بل يتمناه ، فان خالداً بعد أن درس تنظيمات قوات خصمه في اليرموك وجد أنه من الخطأ أن يخوض جيشه هذه المعركة الفاصلة حسب الأسلوب التقليدي القديم المتبع عند العرب وهو أسلوب التساند بحيث يخوض كل فيلق من فيالق الإسلام المعركة مستقلاً ، مع تنسيق القادة أثناء القتال مواقفهم تبعاً للظروف .

فقد كان نظام التعبئة للقتال عند العرب قبل اليرموك يقوم أبداً على تقسيم الجيش إلى أربعة أقسام جناحان وهما (المسماتان بالميمنة والميسرة ، والقلب الذي

---

(١) انظر فن الحرب ص ١١٨ .

يكون بينها ، والساقة ، وهي مؤخرة الجيش ، وقد خاض خالد معـــاركه الظافرة التي كسبها في العراق ضد الفرس على أساس هذا التنظـــيم التقليدي القديم وكذلك معركة إجنادين الشهيرة في فلسطين . وكذا اليرموك إلا أنـــه أدخل تنظيماً جديداً .

وخالد كقائد محنك عالمي كبير درس واستوعب أسلوب أعدائه في تعبئـة جيوشهم للقتال سواء في العراق أو الشام ، فأدرك جودة الأسلوب الذي يتبعـه العدو في تنظيم جيشه وتعبئته للقتال ، سواء في العراق أو في الشام .

ولكنه بذكائه وفطنته وحاسته الحربية الخارقة ، أدرك (وهو على أبواب معركة فاصلة) أن جيشه بحاجة إلى تجديد جذري في أسلوب القتال من حيث التعبئة والتنظيم والإدارة . بحيث يماثل عدوه في أسلوبه وتنظيمـــه الذي هو بالتأكيد أفضل وأحسن من أسلوب العرب التقليدي .

فقارن بين أسلوب الفرس والرومان في هذا الشأن .

فأدرك بحكم خبرته العملية أن أسلوب الرومان في التعبئة والتنظيم أرقى من أسلوب الفرس ، لأن الرومان (وإن كانوا أقـــل شجـــاعة من الفرس) إلا أنهم أكثر تقدماً في العلوم والتنظيمات العسكرية .

فقرر أن يعبيء جيشه في اليرموك حسب التنظيم العسكري المتبع عند الروم ، فيواجههم بمثل تنظيمهم .

أما تنظيم الروم العسكري للقتال فقد أوضحه المقدم ياسين سويد في كتابه (معارك خالد بن الوليد ص ٢٤٩) فقال :

« ان النظـــام العسكري الذي كان معروفاً عند الروم في عهـــد يوليوس قيصر هو نظام الفرقة (Legiou) اللجيون التي تتـــألف من عشرة

كراديس [1] وهي أساس كل ترتيب عسكري .

وتعبأ الكراديس في خطين في دائرة يفصل بينها وبين الخمسة الأخرى فاصل معين .

ثم يأتي الخط الثاني وراء الخط الأول ، ويرتب مثله .

على أن تقف كراديس الخط الثاني وراء فرجات (أي فواصل) الخط الأول انظر صفحة رقم ١٥٩ .

وقد طرأ تعديل على هذا النظام بعد يوليوس قيصر ، فأصبحت الفرقة (وهي لا تزال عشرة كراديس) تقف في ثلاثة خطوط .

أربعة كراديس في الخط الأول .

وثلاثة كراديس في الخط الثاني .

وثلاثة كراديس في الخط الثالث انظر صفحة رقم ١٥٩ .

أما الرماة (رماة السهام والحراب القصيرة والمزاريق) فكانوا يقفون أمام الكراديس ، ويقف الخيالة في الجناحين وتكون الكراديس قلب الجيش) أي أن الروم في تعبئتهم للقتال يجعلون الميمنة والميسرة كليهما تتكون من الخيالة .

اسلوب الروم في القتال

اتبع الروم في قتالهم في اليرموك الأسلوب التالي :

١ – الرماة في المقدمة ، ومهمتهم أن ينشبوا القتال ، ثم ينسحبوا إلى ما وراء الجناحين .

---

(١) الكراديس جمع كردوس ، ولربما انها محرفة من الكلمة الرومية (Kortes) كورتيس وهي عبارة عن وحدات تتراوح قوتها عندهم من ٦٠٠ مقاتل ، ولكن خالداً رفع عدد كل كردوس إلى ١٠٠٠ .

٢ – الخيالة في الجناحين (أي الميمنة والميسرة) ومهمتهم أن يحموا الرماة عندما ينشبوا هؤلاء القتال حتى ينسحبوا إلى الخلف .

٣ – الكراديس ، وهم المشاة ، قلب الجيش وقوته الضاربة ، ومهمتهم الإلتحام بالعدو ودحره .

أما ترتيبهم في هذه المعركة ، فقد وزعوا القيادات كما يلي:

١ – جرجه على المقدمه .

٢ – ماهان والدراقص على الجناحين ، أي أنهما قائدا سلاح الفرسان الذي يتكون من ثمانين الف فارس .

هذا هو الأسلوب المتبع عند الرومان في التعبئة للقتال ، وهو أسلوب كما يبدو للخبير العسكري يدل على عمق القادة الرومان في الفنون الحربية والسياسية والعسكرية .

تنظيم المسلمين العسكري في اليرموك

لقد كان خالد بن الوليد من أعظم قادة العالم ذكاء وخبرة وفهماً بالإضافة إلى الشجاعة التي لا يتمتع بمثلها قائد في التاريخ حتى اليوم .

وبالرغم من أن القائد خالداً قد حقق أعظم الإنتصارات الرائعة على المرتدين في الحروب الضارية التي ظل يخوضها معهم طوال سنة كاملة في جزيرة العرب ، وأنزل أشنع الهزائم بجيش امبراطورية فارس في العراق في معارك متتالية استمرت هي الأخرى سنة كاملة .

وأخيراً تغلب على كل قوة رومانية حاولت الوقوف في طريقه وهو يتحرك بنجدته من العراق إلى الشام ثم في النهاية دمر بحفنة من الرجال البدو الجيش الروماني الأول في إجنادين وهو أعظم جيش روماني في الشام إذا استثنينا جيشهم في اليرموك . فطار صيت خالد كمحارب ممتاز خارق الشجاعة

والذكاء ، حتى صار مجرد ذكره يبعث الرعب في نفوس قادة العدو ، سواء في فارس أو الروم .

لقد كان خالد بن الوليد يتمتع بميزات عسكرية على كل المستويات قل أن اجتمعت في قائد مثله في ذلك العصر ، فهو موفق في وضع الخطط ، غاية في سرعة تنفيذ ما يخططه شجاع لا يبالي أوقع عليه الموت أم وقع هو على الموت ، وتتجلى شجاعته وثباته ودرايته إذا تحرجت الأوضاع أثناء القتال ، يشهد بهذه الحقيقة ، ما حدث للمسلمين في معركة بزاخة بنجد ، واليمامة بوادي حنيفة ، وأخيراً معركة اليرموك الحاسمة .

ففي المعارك التاريخية الثلاث كلها شرعت الهزيمة تأخذ بخناق جنده في الصفحة الأولى في كل من المعارك الثلاث ، حيث أخذت بعض وحداتهم تركن إلى الفرار تحت ضغط هجوم العدو الهائل .

ولكن خالد (وكان هو القائد العام في هذه المعارك) كان يسارع ويقذف بنفسه أمام الصفوف فيعالج الوضع المتدهور حتى يعيد الأمور إلى نصابها، ويعمل بمهارته وشجاعته بعد توفيق الله تعالى على تحويل هزيمة المسلمين إلى نصر ساحق على العدو ، ولذلك أحبه جنده وضباطه إلى حد افتتان بعضهم به .

فبالرغم من انتصاراته الساحقة العظيمة التي حققها على الأعداء في فارس والشام وهو يسير على النهج العربي التقليدي القديم في التنظيم والتعبئة ، فإنه بعد درسه الدقيق لتعبئة وتنظيم الجيش الروماني في الشام قرر (ولأول مرة في حياته العسكرية) أن يتخلى في حربه عن الأسلوب العربي التقليدي في التنظيم والتعبئة للقتال في اليرموك .

وذلك بأن اتبع أسلوب الرومان في التنظيم والتعبئة والتموين والإدارة مع بعض التحسينات التي أدخلها من عند نفسه . فحافظ على هذا الأسلوب الجديد

وضع الجيوش الاسلامية والرومية قبل معركة اليرموك

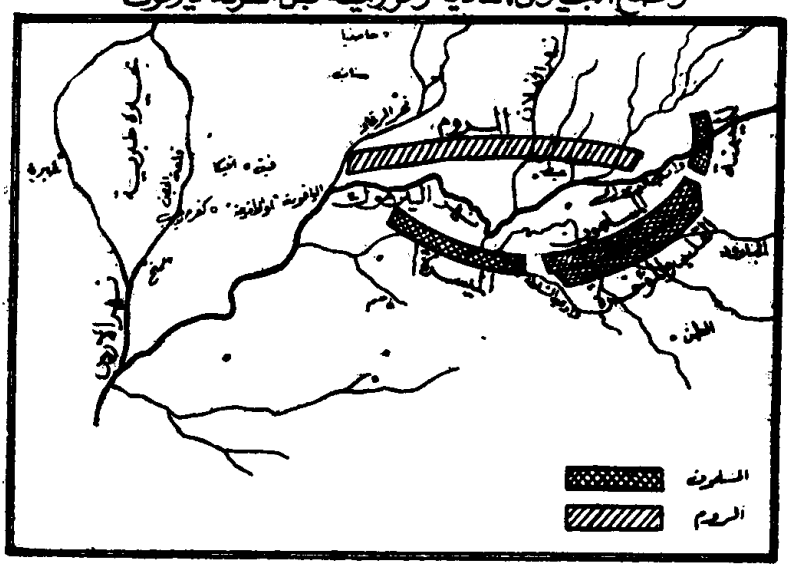

معركة اليرموك فكتب الله تعالى له النصر على أعدائه الرومان رغم تفوقه المادي الساحق .

مؤتمر قيادة المسلمين في الميدان

غير أن خالداً رغم أنه القائد العام الذي يقضي الإنضباط العسكري في الإسلام بإطاعة أوامره ورغم أن الخليفة الأول والقائد كتب لمن هم دون خالد من القادة بأن لا يعصوا له أمراً بل يسمعوا ويطيعوا له ، فإنه أبى (حين راقت له فكرة التغيير في أسلوب تنظيم الجيش) أن يستبد بالأمر ، بل دعا إلى عقد مؤتمر في مقر القيادة ، حضره كبار قادة الفيالق ، أبو عبيدة بن الجراح ويزيد ابن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ، وغيرهم من ذوي الخبرة والتجربة في الحرب .

وعندما اجتمعوا أخبرهم أن ظروف المعركة التي هم مقبلون على خوضها تفرض التغيير في التنظيم والتعبئة التقليديين للجيش ، وأنه جمعهم ليخبرهم بأنه قرر اتباع أسلوب جديد في التنظيم والتعبئة لإدارة دفة المعركة الحاسمة التي كما قال : إن لها ما بعدها ، أي أن الذي يكسبها يكون سيداً للشام بلا منازع ، والذي يخسرها لا يزال في تراجع حتى يفقدها نهائياً .

فقد وقف في القادة خطيباً وقال :

« ان هذا اليوم له ما بعده » ثم أشار إلى عدم صلاحية القتال حسب النظام العربي القديم : « ولا تقاتلون قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغي » .

ثم أكد لهم أن معركة اليرموك مصيرية بالنسبة لكلا الخصمين فقال :

« إنا إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم .. وإن هزمونا لم نفلح بعدها .. فهلموا فلنتعاون (أي نتبادل) الامارة .. فليكن بعضنا اليوم والآخر

غداً ، والآخر بعد ذلك حتى تتأمروا كلكم ، ودعوني أتأمر اليوم »[1] .

موافقة هيئة الأركان على اقتراح خالد

وبعد هذا الخطاب المقتضب الذي القاه خالد في هيئة الأركان ووجوه الجيش وافق الجميع على اقتراحه ، وبعد هذه الموافقة شرع خالد في تعبئة جيشه حسب أصول التعبئة الرومانية .

وكانت التعبئة الجديدة للجيش على النحو التالي :

١ – قسم جيشه البالغ حوالي أربعين الفاً إلى فرق ثلاث ، والفرقة ما يقابل (Legion) اللجيون عند الرومان .

٢ – وبالإضافة إلى الفرق الثلاث كون كتيبة مؤلفة من ٥٠٠ مقاتل جعلها في المؤخرة وهي التي يسميها العرب بتعبيرهم العسكري : (الساقة) ومهمتها قيادة الظعن (النساء) وحمايتهن حيث وضعن من وراء الجيش . وإعطاء قيادتها إلى سعيد بن زيد[2] .

٣ – كذلك أثناء التعبئة الجديدة انتخب بالإضافة إلى الفرق الرئيسية الثلاث قوة الاستطلاع وهي عادة تكون في مقدمة الجيش ، وهي قوة صغيرة كلها من الخيالة ومهمتها مراقبة العدو والمحافظة على التماس معه ، وأسند قيادتها إلى قباث بن أشيم[3] .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٣٩٤ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) انظر ترجمة سعيد بن زيد في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) هو قباث بن أشيم بن عامر بن الملوح ، كناني من بني عبد مناة، شهد بدراً مع المشركين كحلفاء ، ثم أسلم وحسن إسلامه .. وكان من المعمرين ، أدرك عبد شمس بن عبد مناف ، وشهد مجيء الفيل إلى مكة . ورأى رؤثه أخضر محيلا ، كان شجاعاً مجرباً.. سأله عبد الملك بن مروان يوماً وقد كبر جداً .. أنت أكبر أم رسول الله (ص) : فقال : بل رسول الله أكبر مني . وأنا أسن من رسول الله (ص) ، روى عنه الحديث عامر بن زياد الليثي وغيره .

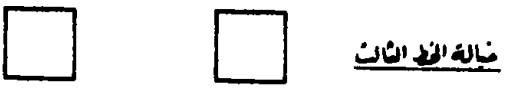

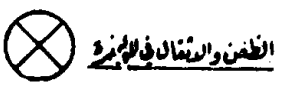

عن معارك خالد بن الوليد للمقدم ياسين سويد

أما القوة الرئيسية التي جعلها القائد خالد ثلاث، فرق والفرقة كما قلنا تسمى عند الرومان في ذلك العصر لجيون (Alligion) فقد أسند قيادتها إلى ثلاثة من خيرة وأمهر القادة وهم :

١ – أبو عبيدة بن الجراح ، الذي سماه النبي ﷺ أمين الأمة ، اسند اليه قيادة القلب .

٢ – يزيد بن أبي سفيان ، الأموي ، أسند اليه قيادة الميسرة .

٣ – عمرو بن العاص السهمي ، أسند اليه قيادة الميمنة ،يسانده شرحبيل ابن حسنة .

هؤلاء القادة الثلاثة الذين يمكن أن يطلق على كل واحد منهم إسم (رتبة) لواء ، هم الذين تولوا قيادة الجيش الرئيسي وأداروا دفة المعركة الحاسمة في اليرموك تحت إشراف خالد بن الوليد الذي يمكن أن يطلق عليه إسم (مشير) لأنه القائد العام للجيش .

كيف نظم خالد الفرق الثلاث

وحسب الأسلوب الجديد الذي اتبعه المشير خالد لتنظيم الجيش وتعبئته يوم اليرموك وضاهى فيه الرومان قسم الجيش إلى ٣٨ كردوساً أي جعله ثمان وثلاثين وحدة قتالية ، عين لكل وحدة قائداً ، وقد انتخب قادة الكراديس من خيرة المقاتلين في جيشه .

فكان تنظيم الكراديس وتوزيعهم على صفوف الفرق الرئيسية الثلاث كايلي:

أ – جعل ١٨ كردوساً في القلب .

ب – ١٠ كراديس في الميمنة .

ج – ١٠ كراديس في الميسرة .

فهذه ثمانية وثلاثون ألفاً هي تشكيلات الجيش الرئيسي .

وبقي ألفان من الجيش ، وضعهم خالد في مهام أخرى مثل حماية الظعن (النساء) في الساقة (المؤخرة) ومفارز الطليعة لمراقبة العدو والتماس معه ، ونقل الجرحى إلى مستشفى الميدان وإسعافهم وغير ذلك من المهام التي يتطلبها جيش مقدم على خوض معركة مصيرية .

ثم قام خالد (ضمن تنظيمه الجديد المبتكر) بتقسيم الفرسان وعددهم عشرة آلاف فارس إلى قسمين ، وأمر كل مجموعة من المجموعتين من الخيالة هؤلاء بالتمركز خلف جناحي الجيش وهما الميمنة والميسرة ، وذلك بقصد حماية هذين الجناحين ، وسد الثغرات .

وهكذا فصل خالد الفرسان عن المشاة الذين تكونت منهم القوات الضاربة في القلب والميمنة والميسرة ، تماماً كما فعل الرومان في تعبئتهم .

ثم قام ضمن التنظيم الجديد المبتكر باحداث ما يلي :

١ – عين قاضي للجيش (وهو الحاكم العسكري حسب تعبير عصرنا) وكان هذا القاضي أبو الدرداء [١] .

٢ – عين ضابطاً للتوجيه المعنوي (قارئاً للقرآن على الجيش) وكان المقداد ابن الأسود [٢] وكان يركز على قراءة سورة الأنفال ، لما تتضمنه من حث على الجهاد .

٣ – عين خطيباً للجيش (وهو الواعظ) وكان ذلك أبو سفيان بن حرب [٣]

---

(١) أبو الدرداء هذا كنيته غلبت على اسمه ، اسمه عويمر بن مالك بن زيد بن قيس من الخزرج تأخر إسلامه ولكن صار من عظماء الصحابة .. آخى الرسول (ص) بينه وبين سلمان الفارسي . وشهد له رسول الله (ص) بالحكمة حين قال : (عويمر حكيم أمتي) شهد ما بعد أحد من المشاهد مع النبي (ص) .. ولي أبو الدرداء قضاء دمشق في خلافة عثمان وتوفي قبل أن يقتل عثمان بسنتين

(٢) انظر ترجمة المقداد في كتابنا الأول من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة (غزوة بدر الكبرى).

(٣) انظر ترجمة سفيان بن حرب في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

نظام الكراديس الرومية

الشكل رقم "١" - في عهد بوليبيوس فيصر

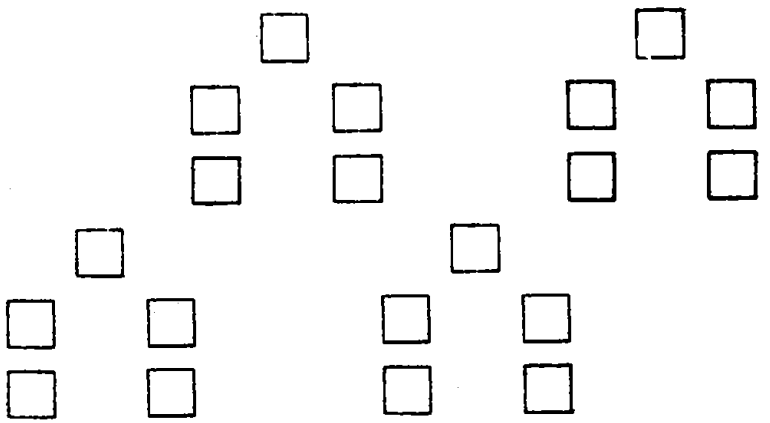

الشكل رقم "٢" - بعد بوليبيوس فيصر

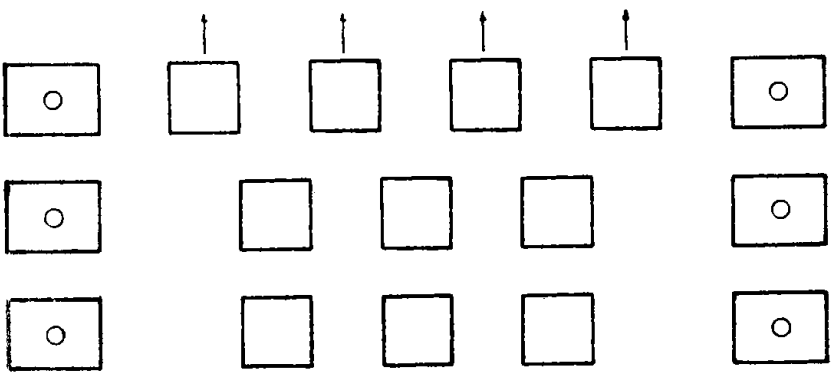

= كردوس أ = رماة = خيالة

الذي صار يطوف على الصفوف يحث الجند على الصبر على القتال ، ويذكرهم ما للشهيد عند الله من منزلة عظماء .

٤ – عين رئيساً للتموين وهو ما يسمى اليوم (ضابط الإدارة) وكان عبد الله بن مسعود [١] .

٥ – كلف النساء اللواتي جعلهن في الساقة (مؤخرة الجيش) القيام بمهمة البوليس الحربي الذي يربط في العصر الحديث وراء الخطوط ، وصدرت الأوامر إلى هؤلاء النساء برد وتوبيخ من يحاول الفرار من المسلمين ساعة القتال ، بل وقتله إن أصر على الهرب والمعركة ناشبة ، فقد روى إبن عساكر في تاريخه أن القائد خالداً أصدر أمره إلى النساء قائلاً : (يا نساء المسلمين – أي رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه) .

ثم بالإضافة إلى مهمة تكليف النساء الحيلولة بين ضعاف النفوس وبين الهرب ولو بالقتل إذا لم يكن منه بد ، أسند القائد العام إلى هؤلاء النساء أدواراً أخرى غاية في الأهمية وهذه الأدوار كما يلي :

١ – العناية بالجرحى والمرضى .

٢ – سقاية المجاهدين أثناء القتال.

٣ – التجوال على المحاربين وإثارة الحماس في نفوسهم .

٤ – الإشتراك في القتال عندما لا يكون بداً من ذلك ، ولم يمنع أحداً منهن من الإشتراك في القتال إختيارياً إذا أردن ذلك مع الرجال .

وقد روى عن أبي يمامة – وهو ممن شهد اليرموك – أنه قال : ان بعضاً من النساء المسلمات دخلن غمار المعركة واشتركن في القتال .

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن مسعود في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

وكان منهن جويرية بنت أبي سفيان [١] وأسماء بنت أبي بكر [٢] وهندبنت عتبة [٣] وأم أبان [٤] زوجة عكرمة بن أبي جهل ، وخولة بنت الأزور [٥] ، (وقد جرحت في المعركة) ، ونسيبة بنت كعب [٦] ، وغفيرة بنت غفار [٧] ، وغرة بنت عامر [٨] ، ورملة بنت طلحة الزبيري [٩] ، وهند ويعمر وسمية بنات عاصم الخولاني .

ضباط الكراديس – وحدات قوة الجيش الضاربة

كذلك عين القائد خالد لقوات الجيش الضاربة وهي الثمانية والثلاثين كردوساً عين لكل كردوس (وهو مؤلف من الف جندي) ضابطاً يقوده ، وقد انتقى هؤلاء الضباط من بين أمهر القادة المحاربين المجربين ، والذين يمكن جعل كل ضابط منهم (حسب التصنيف العصري) برتبة عقيد ، وهذه هي أسماء قادة الكراديس كما ذكرهم الإمام الطبري في تاريخه ج ٣ ص ٣٩٦ على التوالي :

١ - شرحبيل بن حسنة ، وكان مساعداً أيضاً لقائد الميمنة عمرو بن العاص.

---

(١) لم أجد لها ذكر في تراجم الصحابيات .

(٢) انظر ترجمة أسماء بنت ابي بكر في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

(٣) انظر ترجمة هند بنت عتبة في كتابنا الثاني من المغازي (غزوة أحد) .

(٤) هي أم ابان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشية ، خالة معاوية كانت مع زوجها في حروب الجهاد بالشام .. أبان بن سعيد بن العاص فاستشهد عنها بإجنادين .. فعادت إلى المدينة . فخطبها عمر ، وعلي والزبير وطلحة فاختارت طلحة فتزوجها .

(٥) لم اجد لها ترجمة بين الصحابيات .

(٦) هي الشجاعة المشهورة التي اشتهرت في معركة أحد وقطعت يدها في اليمامة .. انظر ترجمتها في كتابنا الثاني (غزوة أحد) .

(٧) لم اجد لها ترجمة بين الصحابيات .

(٨) لم اجد لها ترجمة بين الصحابيات .

(٩) لم اجد لها ترجمة بين الصحابيات .

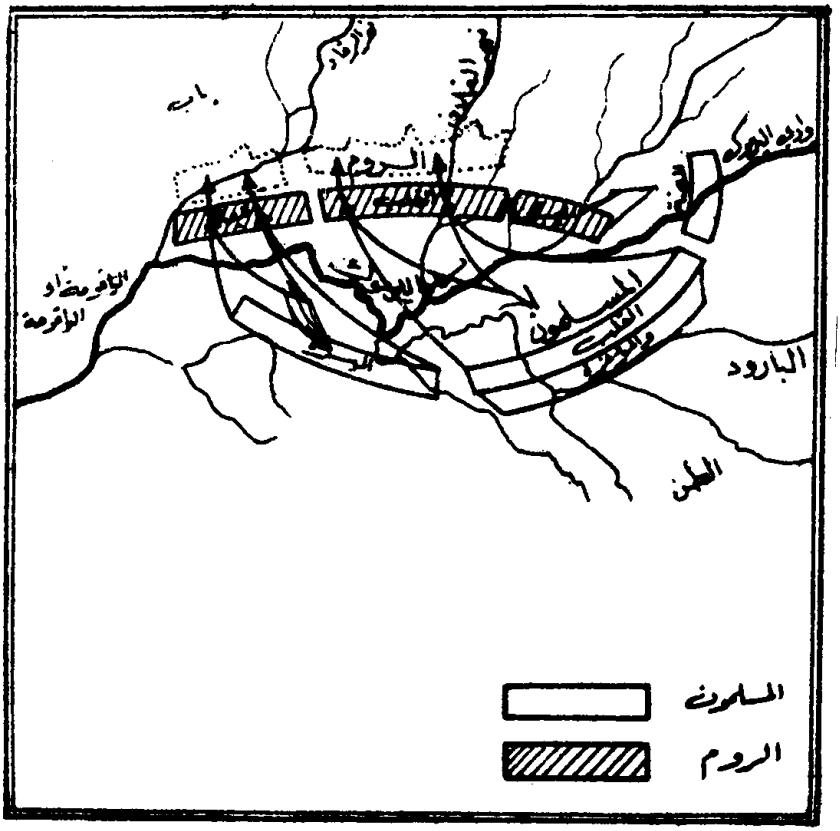

- هجوم قلب المسلمين ويسارهم على قلب الروم ويهزمهم.
- ميمنة المسلمين تسد المنافذ في وجه رجالة الروم وتمنعهم فرار الفرسان.
- تراجع جيوش الروم وتشتتها.

٢ – القعقاع بن عمرو التميمي [١] .

٣ – مذعور بن عدي [٢] .

٤ – عياض بن غنم [٣] .

٥ – هاشم بن عتبة المرقال [٤] .

٦ – زياد بن حنظلة [٥] .

٧ – دحية بن خليفة [٦] .

٨ – امرؤ القيس [٧] .

٩ – يزيد بن يحنس [٨] .

١٠ – عكرمة بن أبي جهل [٩] .

١١ – سهيل بن عمرو [١٠] .

---

(١) تقدمت ترجمته في هذا الكتاب .

(٢) هو مذعور بن عدي العجلي يعد من الشجعان ، وكان خالد في العراق يعتمدعليهلإنجاز كثير من المهمات الحربية الصعبة ، فينجح فيها ، فكان من الملازمين له . ولما ذهب لتولي القيادة في اليرموك في الشام استصحبه وهو يعد في الصحابة .

(٣) تقدمت ترجمة عياض بن غنم .

(٤) تقدمت ترجمة هاشم المذكور .

(٥) هو زياد بن حنظلة التميمي ، قديم الإسلام ، كان عاملاً لرسول الله (ص) وهو الذي بعثه الرسول (ص) إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ليتعاونا على مسيلمة وطليحة والأسود ، وكان من أشد انصار علي وشهد معه كل مشاهد صفين والجمل والنهروان .

(٦) انظر ترجمة دحيه في كتابنا (غزوة بني قريظة) .

(٧) لم يبين الطبري ، امرأ القيس ابن من والمترجمون ترجموا لكثير اسمهم امرؤالقيس.

(٨) هو يزيد بن يحنس ابو الحسن الكوفي ادرك النبي (ص) . روى عن سعيد بن زيد احد المبشرين بالجنة ، وروى عنه يزيد بن ابي زياد الكوفي .

(٩) تقدم ذكره .

(١٠) انظر ترجمته في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

١٢ – عبد الرحمن بن خالد بن الوليد [١] وعمره يومئذ ثماني عشرة سنة .

١٣ – حبيب بن مسلمة [٢] .

١٤ – صفوان بن أمية [٣] .

١٥ – سعيد بن خالد [٤] .

١٦ – أبو الأعور بن سفيان [٥] .

١٧ – ابن ذي الخمار [٦] .

١٨ – نخشى بن خويلد [٧] .

١٩ – خالد بن سعيد [٨] .

---

(١) هو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي القرشي ، أدرك النبي (ص) ورآه يكنى ابا محمد ، كان من فرسان قريش وشجعانهم كان له هدي حسن وفضل وشرف وكرم لم يكن من انصار علي في الفتنة المؤسفة ، وشهد صفين مع معاوية ، وكان معاوية يستعمله على غزو الروم ، وله معهم وقائع كثيرة ، وكان بطلا مظفراً .. مات رحمه الله مسموماً ، وكان مرشحاً للخلافة بدلا من يزيد بن معاوية .

(٢) هو حبيب بن مسلمة القرشي ثم الفهري ، من اشهر قادة الفتح الإسلامي ، ابلى بلاء حسناً في حروب الجهاد في الشام وفي آسيا الصغرى . وهو الذي فتح اجزاء من ارمينيا من صغار الصحابة في السن كبارهم في القدر .

(٣) انظر ترجمة صفوان في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٤) هو سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بأرض الحبشة في هجرة ابيه اليها . وهو ممن اقام بها حتى قدم مع جعفر بن ابي طالب في السفينتين عام خيبر ، وكان من الشجعان كأبيه رحمه الله ،

(٥) ابو الأعور هذا اسمه عمرو بن سفيان قال ابن الأثير يعد في الصحابة ، كان محارباً ممتازاً الا انه كان شديداً على علي بن ابي طالب وكان من انصار معاوية وشهد معه صفين .

(٦) لم اهتد الى اسمه ونسبه في التراجم بين الصحابة .

(٧) لم اجد له ترجمة بين الصحابة .

(٨) هو خالد بن سعيد بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي ابو سعيد امه من ثقيف .. من السابقين الأولين .. اسلم بعد ابي بكر ، فكان ثالثاً او رابعاً .. كان سبب اسلامه انه رأى في النوم انه واقف على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله اعلم به ==

٢٠ – عبد الله بن قيس .

٢١ – عمرو بن عبسة [١] .

٢٢ – السمط بن الأسود [٢] .

وكان ابوه يدفعه فيها، وراى رسول الله (ص) آخذاً بحقويه لا يقع فيها ، ففزع ، وقال: احلف انها لرؤيا حق ، ولقي ابا بكر فذكر له ذلك فقال له ابو بكر اريد بك خيراً . هذا رسول الله (ص) فاتبعه فانك ستتبعه في الإسلام الذى يحجزك من ان تقع في النار وابوك واقع فيها . فلقي رسول الله (ص) وهو باجياد فأسلم .. وعلم ابوه بإسلامه ، وكان زعيماً عظيماً في قومه. اذا اعتم بمكة لا يعتم احد . فأحضره وشتمه وضربه بالعصا على راسه حتى تكسرت ، وقال له : اذهب يا لكع ، والله لأمنعنك القوت . فقال : ان منعتني فإن الله يرزقني ما اعيش به فأخرجه وقال لبنيه لا يكلمه احد منكم صنعت به ما صنعت بخالد ، فانصرف خالد الى رسول الله (ص) ، فكان يلزمه ويعيش معه وتغيب عن ابيه في نواحي مكة حتى خرج المسلمون الى ارض الحبشة في الهجرة الثانية فخرج معهم ، وهاجرت معه امراته اميمة بنت خالد الخزاعية وولد له بالحبشة ابنه سعيد بن خالد ولبنته ام خالد . ثم عاد مع جعفر بن ابي طالب وشهد مع النبي (ص) القضية وفتح مكة وحنيناً والطائف وتبوك .. ولاه رسول الله (ص) اليمن وتوفي النبي (ص) وخالد عليها اميراً .. تأخر خالد عن بيعة ابي بكر ثم بايعه فيابعد . فلم يضطفتها عليه ابو بكر بل ولاه قيادة اول جيش اسلامي يغزو الشام ، وقتل شهيداً بالشام في حروب الجهاد ، سنة اربع وعشرين .

(١) هو عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد من بني سليم .. كان قديم الإسلام ، وكان يقال : هو ربع الإسلام .. روى ابن الأثير ان عمرو هذا كان يقول القي في روعي أن عبادة الأوثان باطل فسمعه رجل وهو يتكلم بذلك فقال له : بمكة رجل يقول كما تقول فأقبل عمرو إلى مكة يسأل عنه فأخبر أنه مختف لا يقدر عليه إلا بالليل يطوف بالبيت . قال عمرو : فنمت بين الكعبة وأستارها فما علمت إلا بصوته يهلل الله ، فخرجت اليه فقلت : ما أنت ؟ فقال : رسول الله . فقلت : بم أرسلك ؟ قال : بأن يعبد الله ولا يشرك به شيء وتحقن الدماء وتوصل الأرحام ، قلت : من معك على هذا ؟ قال حر وعبد . فقلت : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته على الإسلام فلقد رأيتني واني لربع الإسلام . روى عنه من الصحابة ابن مسعود وأبو أمامة الباهلي وسهل بن سعد الساعدي ومن التابعين أبو ادريس الخولاني وسليمان بن عامر وكثير بن مرة وعدي ابن ارطأة وجبير بن نفير وغيرهم (أسد الغابة ج٤ ص ١٣٠) .

(٢) لم اجد له ترجمة بين تراجم الصحابة .

٢٣ – ذو الكلاع الحميري [١] .

٢٤ – معاوية بن خديج [٢]

٢٥ – جندب بن عمرو بن حممة [٣] .

٢٦ – جندب بن عمرو [٤] .

٢٧ – عمرو بن فلان [٥] .

٢٨ – لقيط بن عبد القيس [٦] .

٢٩ – الزبير بن العوام [٧] .

٣٠ – حوشب ذو ظليم [٨] .

٣١ – ضرار بن الأزور [٩] .

٣٢ – قيس بن عمرو بن يزيد بن عوف [١٠] .

---

(١) انظر قصته وقصة حياته في كتابنا حروب الردة عند ذكر مقتل الأسود العنسي .

(٢) هو معاوية بن خديج بن جفنة بن قنبرة الكندي ، أبو عبد الرحمن . يعد في أهل مصر محارباً ممتازاً وهو من الفاتحين المقتدرين ، غزا أفريقيا ثلاث مرات .. وغزا الحبشة مع عبد الله ابن أبي سرح القائد الشهير فأصيبت عينه بالحبشة في هذه الغزوة .. كان معاوية بن خديج من أنصار معاوية بن أبي سفيان ، ومكانه عظيم بمصر ، ويقال انه قتل محمد بن ابي بكر الصديق المشترك في الهجوم على الخليفة عثمان يوم قتل يوم الدار . كان معاوية بن خديج من عظماء مصر ، توفي قبل عمر بن الخطاب .

(٣) هو جندب بن عمرو بن حممة الدوسي حليف بني عبد شمس .

(٤) لم اجد لجندب هذا ذكر في التراجم بين الصحابة .

(٥) لم اجد لعمرو هذا ذكر بين الصحابة في التراجم .

(٦) لم اجد للقيط هذا ذكر بين الصحابة في كتب التراجم .

(٧) انظر ترجمة الزبير بن العوام في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) .

(٨) لم اجد لحوشب هذا ترجمة بين الصحابة لا في الإصابة ولا في أسد الغابة .

(٩) انظر ترجمته في كتابنا (حروب الردة) .

(١٠) لم اجد له ذكر في معاجم التراجم الخاصة بالصحابة .

٣٣ – عصمة بن عبد الله – حليف لبني النجار (١) .

٣٤ – مسروق بن فلان (٢) .

٣٥ – عتبة بن ربيعة بن بهز (٣) حليف لبني عصمة .

٣٦ – جارية بن عبد الله الأشجعي (٤) حليف لبني سلمة .

٣٧ – قباث (٥) .

٣٨ – شرحبيل (٦) .

هؤلاء كما ذكرهم الطبرى ، هم القداء قادة القوة الضاربة لجيش الإسلام الذي دمر الجيش الروماني يوم اليرموك التاريخي الحاسم فخلدوا أسماءهم في سجل التاريخ كأبطال ميامين .

مع العلم أن المجمع عليه بين المؤرخين مسلمين وأجانب أن تعداد جيش الإسلام في ذلك اليوم لا يزيد على أربعين الفاً وأن تعداد جيش الرومان الذي اشترك يوم اليرموك لا يقل عن مائتين وأربعين الفاً ، بينهم ثمانون الف فارس .

---

(١) عصمة هذا شهد بدراً وهو حليف لبني مالك بن النجار ، وهو من قبيلة أشجع .

(٢) لم أجد له ذكر بين الصحابة في كتب التراجم .

(٣) هو عتبة بن ربيعة بن خالد بن معاوية ، قال الكلبي من بني بهز بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم حليف الأوس ، قال ابن اسحق : شهد بدراً .

(٤) لم اجد له ذكر بين الصحابة في كتب التراجم .

(٥) هو قباث بن أشيم بن عامر بن الملوح الليثي الكناني ، شهد بدراً مع المشركين ، ثم أسلم فحسن إسلامه ، وكان من المعمرين ، شهد عبد شمس بن عبد مناف وشهد مجيء الفيل إلى مكة ، شهد اليرموك وسكن دمشق .

(٦) شرحبيل هذا ذكر الطبري مفرداً ، وبما أن إسم شرحبيل يطلق على كثير من الصحابة، فلا نستطيع معرفة أي منهم هو .

نهر الأردن
بحيرة طبرية
نهر الرقاد
نهر العلق
حوران

إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان

وهكذا وعلى النسق الذي فصلنا قام الفريقان بتعبئة جنودهما في اليرموك ، وكان واضحاً أن الرومان يتفوقون في العدد والعدد على المسلمين تفوقاً ساحقاً أي بنسبة مسلم واحد مقابل ستة من الروم ، وفي سلاح الخيالة كانت نسبة المسلمين فارساً مسلماً واحداً مقابل ثمانية فرسان من الروم .

ولذلك عندما اكتملت التعبئة في الجانبين وتقابلت الصفوف ، وقف أحد المقاتلين المسلمين – وقد هالته كثرة العدو الهائلة – فقال : ما أكثر الروم وأقل المسلمين .

فانتهره خالد بقوله :

(بل ما أكثر المسلمين وأقل الروم – إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان)[1] .

ويقول الأستاذ بسام العسلي في كتابه : (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين) : عندما انتهى التنظيم (التعبئة للقتال) لاحظ خالد بن الوليد قلة عدد فرسان المسلمين بالنسبة لخصمهم فقرر تعديل مخططه وتقدم من أبي عبيدة وقال له :

(ان هؤلاء قد أقبلوا بعدة ولهم زجل وقرح وان لهم حدة لا يردهم شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدة خيلهم ورجالهم أبداً ، وقد رأيت أن أفرق خيلي فأكون في إحدى الخيلين ، وقيس بن هبيرة[2] في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حمل الناس ثبت

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨١

(٢) قيس بن هبيرة ممن ارتدوا ثم تاب وأسلم .. انظر ترجمته وقصته في كتابنا (حروب الردة) .

الله أقدامهم ، وإن تكن الأخرى حملت خيولنا عليهم وهي حامية ، وتكون الأعداء قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم فأطلق الأعنة عند ذلك إلى أن يظفرنا الله بهم ويجعل الدائرة عليهم ، وقد رأيت أن يجلس سعيد بن زيد [1] هذا ويقف من ورائه وبحذائه مائتان أو ثلاثمائة ، يكونون للناس ردءاً [2] وأقر أبو عبيدة على اقتراحه .

فجاءت الخطة النهائية كالتالي :

أ – المشاة على ثلاثة أنساق مهمتها تحطيم حدة هجوم العدو ، ويدعم كل نسق النسق الذي يتقدمه .

ب – قوة الفرسان على مجموعتين تقوم بواجب حماية الأجنحة وسد الثغرات، وتتمركز خلف الأجنحة .

ج – تكوين قوة احتياطية ، واجبها دعم محور ثقل الهجوم، وسد الثغرات ومجابهة الطوارىء والقيام بالهجوم المضاد .

وقرر القائد خالد بن الوليد في تعديل خطته مبدأين رئيسيين .

١ – فصل الفرسان عن المشاة وضرب كل طرف بمعزل عن دعم الطرف الآخر .

٢ – ترك العدو يتقدم حتى تتحطم قوة هجومه ، ثم يقوم الفرسان المسلمون بالهجوم المضاد .

وهكذا أنهى خالد استعداداته للمعركة الفاصلة بسرعة القائد الخبير الفذ المحنك ، واستطاع قادة جيشه تفهم مبررات هذا التنظيم ، وعرف كل مقاتل هذا الأسلوب الجديد للقتال ، وكيفية خوض المعركة ، وأصبح قادراً على مجابهة

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ١٦٤ .

الروم في كل وقت [1] .

شعور الفريقين بأن المعركة معركة مصير

لقد كان كل من الفريقين المتواجهان في اليرموك يعلم علم اليقين أن مصير كل منهما النهائي في الشام مرتبط بما ينتج عنه القتال في هذه المعركة .

فالمنتصر فيها هو الذي يكسب السيطرة على الشام كلها إلى الأبد، وعلى العكس يكون مصير الذي يخسرها .

ولقد عبر عن هذه الحقيقة قائد جيش الإسلام خالد بن الوليد حين خاطب هيئة أركان حربه في المؤتمر الأول الذي عقده للتشاور معهم بشأن وضع الخطة الجديدة للمعركة :

« هذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لن نفلح بعدها » .

أما الرومان لفهمهم هذه الحقيقة ولخوفهم من أن ينهزم جندهم حين يعضهم السلاح ، فقد ذهبوا في توطين أنفسهم على الموت أو النصر في هذه المعركة المصيرية إلى أبعد من ذلك .

فقد أمر القائد الروماني العام ثمانين الفاً من خيرة مقاتليه ، بأن تربط كل مجموعة منهم بعضهم ببعض في سلسلة كيلا يفكروا في الهرب عندما يحتدم القتال، ولقد كان حظ هؤلاء المساكين أسود ، فقد سقطوا جميعهم وهووا في هوة سحيقة بين جبلين وهي المسماة بالواقوصة فماتوا عن آخرهم ، وذلك عندما شد عليهم العرب بعد خروج الفرسان والرومان هرباً من المعركة نحو دمشق .

دقة خالد في التنظيم والمعرفة بالنتائج

لقد كان خالد بن الوليد (وهو ينظم وينسق بين وحدات جيشه ويعبؤها

---

(١) فن الحرب للعسلي ص ١١٤ .

للقتال) موقناً بأن بدأه الدعوة إلى المفاوضات للسلم ستنتهي مع القـــادة الروم بالفشل وأن السيف سيكون هو الحكم (لا محالة) بين الروم والمسلمين ، رغم أن المسلمين ملزمون (كما هي تعاليم الإسلام) بدعوة من يواجهون إلى السلام قبل إنشاب القتال إما بدخول المدعوين في الاسلام فيكونون ضمن الأسرة الاسلامية تماماً بالتساوي ، وإما الصلح وإنهاء حالة الحرب على أن يـــدفعوا للمسلمين الجزية كتعبير عن الاعتراف بسلطان الاسلام وسيادته ، وإما الحرب .

ولهـــذا أعد خالد جيشه على أساس أن مصير عروضه التي سيعرضهـــا على الروم في التفاوض قبل الحرب سيكون الرفض ، وأنه لذلـــك لا مناص من الحرب .

وكان خالد في تعبئته جيشه شديد اليقظـــة شديد الحزم في إلزام الجنود والضباط بالثبات في مواقعهم بانضباط عسكري دقيق ، لا يفتـــأ يبث روح الشجاعة والصبر في نفوس جنده ، ويحذرهم أشد التحـــذير من أن يمس نفوس أحد منهم شيء من الوهن في هذه المعركة المصيرية ، لأن الهزيمة لو نزلت بالمسلمين فيها لن تكون كالهزائم العادية ، ولذلك كان في أوامره وتنظيمه صارماً إلى أبعد الحدود حتى أنه أصدر حكماً مسبقاً بالاعدام على الفارين من القتال وذلك حين أمر الوحدات النسائية المسلحة المرابطة خلف الجيش بأن يقتلن من يحاول المرور بهن هارباً من القتال [1]

قال المقدم ياسين سويد في كتابه (معارك خالد بن الوليد ص ٢٥٧) :

« كان خالد يعلق أهمية كبرى على نتائج هذه المعركة ، فهي الحاسمـــة ولا بد ، وكان يعلم أنه إن رد الروم إلى خندقهم ، فسيظـــل يردهم ، وإن هزموه فلن يفلح بعدها (كما قال في كلمته الخالدة) وأن هزيمة الروم في هذه المعركة

---

(١) التاريخ الكبير لابن عساكر ص ١٦٣ .

تعني هزيمتهم في أرض الشام كلها بعد أن أفنى جيشهم في فلسطين ، فتفتح أمام خالد أبواب الشام على مصاريعها دون حواجز ولا عراقيل.

ورأى خالد أمام عينيه بأحلام اليقظة مدن الشام تسقط في يده الواحدة الأخرى ، ورأى نفسه ينطلق منها إلى مصر ، فآسيا وأوروبا حيث يقضي على الامبراطورية الرومية قضاء مبرماً .

أما إذا هزم فلن يقف حائل بين هرقل ومكة .

لكل هذا حزم خالد أمره ، وقرر في نفسه أحد أمرين لا ثالث لهما : الانتصار أو الموت ، ثم وزع مهمات القتال على جنده وقادته كما يلي :

- أبو عبيدة (القلب) ومهمته منازلة العدو.
- يزيد بن أبي سفيان (الميسرة) ، ومهمته منازلة ميمنة العدو .
- عمرو بن العاص (الميمنة) ، ومهمته منازلة ميسرة العدو اهـ) .

قلت وبالاضافة إلى تكليف القائد خالد عمرو قيادة الميمنة لمواجهة ميسرة العدو ، كلفه أيضاً بالعمل على ضرب العدو في مجنبته ومن خلفه ، ثم الوصول إلى قلب جيشه في حركة الالتفاف مغطاة وسريعة ومباغتة ، كما كلفه أول الأمر بأن يسد الثغرة التي تركها الروم مفتوحة بين ميسرتهم وميمنة المسلمين لتكون ممراً لامداداتهم الآتية اليهم من العاصمة دمشق ، ولتكون لهم أيضاً ممراً للانسحاب إذا ما رأوا أن سير القتال في غير صالحهم وأنهم سيخسرون المعركة.

وكان خالد خبيراً بالرجال ، فخالد يعرف أن عمراً من طراز خالد نفسه من حيث الخبرة العسكرية ، وبعد الدراية الحربية والقدرة الخارقة على اتخاذ القرارات وسرعة تنفيذها لتصيب مرماها .

إلا أن خالداً ولا شك يتفوق على عمرو في كثير من المزايا وهي التي جعلته في مقدمة عظماء القادة في التاريخ .

لذلك لم يكن خالد مخطئاً حين اختار عمراً لهذه المهمة الخطيرة التي أشرنا اليها ، فقد قام بها عند احتدام المعركة خير قيام .

فقد نجح في سد الثغرة التي تركها الرومان مفتوحة كخط لتموينهم أثناء القتال من دمشق ، فأكمل بذلك محاصرتهم ، وهو الذي قال : (فلما يأتي محصور بخير) [1] وبمحاصرتهم بسد الثغرة انقطعت عنهم إمداداتهم من دمشق العاصمة القريبة من الميدان .

ثم أن القائد عمراً (ولتغيير الظروف وبأمر من القائد العام خالد)عادوفتح نفس الثغرة المشار اليها ، وذلك أنه عندما احتدمت المعركة ورجحت كفة المسلمين في القتال تحير فرسان الروم وعددهم ثمانون الفاً وصاروا يجولون بخيلهم وهم في حالة فوضى بحثاً عن ثغرة يخرجون عن طريقها من الميدان ، فأدرك خالد ذلك وأصدر أمره إلى عمرو بأن يسحب المفارز التي تسد الثغرة التي تؤدي إلى دمشق ليهرب عن طريقها فرسان الروم ، ففعل عمرو ، وهنا سارع ثمانون الف فارس روماني وانسحبوا عبر الثغرة دون أن تتعرض لهم قوات الميمنة التي يقودها عمرو ، فبقيت القوات الرومانية الرئيسية الضاربة (وهم المشاة)بدون حماية لأن اولئك الفرسان الذين سمح لهم عمرو بالانسحاب كانوا يقومون بحماية أجنحة تلك القوة الضاربة وبانسحاب الفرسان الرومان من الميدان تحقق لخالد ما يهدف اليه من انسحابهم سالمين ، إذ سهل على جيشه أن يبيد القوة الرومانية الضاربة (المشاة) حيث أبيدوا عن آخرهم في هجوم صاعق شنه عليهم المسلمون ولم ينج منهم إلا الشريد ، كما سيأتي تفصيله في موطنه من هذا البحث إن شاء الله .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ١٧٢ .

بذل الخصمين الجهد لرفع معنويات جندهما

كانت القوات الرومانية في اليرموك تتفوق على المسلمين في العدد تفوقاً ساحقاً فقد كانوا (كما قلنا) مائتين وأربعين الف مقاتل ، وكان عدد الجيش الإسلامي أربعين الفاً أي أن النسبة كانت مسلماً واحداً لستة من الرومان .

ومع هذا كان قادة الروم يتخوفون على جيشهم أن ينهزم ، لذلك عمد قادة الروم إلى كبار الأحبار والرهبـــان وطلبوا منهم التطواف بين صفوف الجيش الروماني يحثونهم على الثبات للدفاع عن دينهم ، وذلـــك بقصد رفع معنوياتهم التي دب الإنحطاط فيها منذ هزم خالد بن الوليد جيش إجنادين الروماني وحطمه بأربعين الف جندي وهو البالغ مائة الف مقاتل وعناصره من خيرة العناصر المحاربة في القوات الرومانية المسلحة ، فقد أعده هرقل أحسن إعداد ليقطع على المسلمين خط رجعتهم ويبيد الذي يحميه وهو فيلق عمرو بن العاص .

لقد بذل الشمامسة والبطارقة والأحبار قصارى جهـدهم لتثبيت الجنـــد الروماني وحثهم على الصمود في اليرموك وأنذروهم بأنهم إن فروا وخسروا هذه المعركة فإن بزنطا ستفقد الشام كلها .

التوجيه المعنوي بين المسلمين

كذلك القادة الإسلاميون كانوا يدركون حق الإدراك أن جيشهم إن هزم في المعركة فإنه سيخسر كل شيء ولن يحول بين الجيش الروماني وبين السيطرة على جزيرة العرب شيء .

وقد عبر عن هذه الحقيقة (بكل صراحة) القائد العام خالد بن الوليد حين خاطب هيئة أركان حربه في مؤتمرهم العسكري حين قال :

« إنا إن رددناهم إلى خنـــدقهم اليوم لم نزل نردهم . . وإن هزمونا لم نفلح بعدها »[1] .

لذلك (ومع أن الروح المعنوية بين المجاهدين المسلمين ممتـازة جداً) فإن الوعاظ والفصحاء والخطباء من القـــادة وغيرهم انتشروا بين صفوف جيش الإسلام للقيام بمهمة التوجيه المعنوي ، فصار هؤلاء يذكرون روح الشجـــاعة والحماس في نفوس المحـاربين المسلمين ، ويحثونهم على الصبر ويصارحونهم بأن أي ضعف أو تخاذل يظهر بينهم أثناء الصدام يعني فضيحتهم بين الأمم ويعـني نهايتهم ، ثم صاروا يذكرونهم بأن الفرار أثناء الزحف كبيرة من الكبائر عقوبتها عند الله دخول جهنم .

كما صار قادة الفرق وأمراء الكراديس يكررون تعليماتهم إلى من هم تحت قيادتهم ليكونوا مثالاً للثبات والانضباط العسكري .

ابو عبيدة يتفقد الجند ويعظهم

فقد انطلق (مثلاً) قائد الفرقة الثالثة (القلب) أبو عبيـدة بن الجراح ، انطلق يتجول بين صفوف الجيش وخاصة جنود القلب (القوة الضاربـــة) والفرسان حماة الميمنـــة والميسرة ، انطلق يتجول بـــين صفوفهم ويحثهم على الصبر والثبـــات ، ويذكرهم أن نصر الله إنمـــا يكون لمن ينصره فقال يخاطب الجميع :

« عباد الله : انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم : يا عباد الله اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ومدحضة للعار ، ولا تتركوا مصافكم ولا تخطوا اليهم خطوة ، ولا تبدأوهم بالقتـال ، واشرعوا الرماح ، واستتروا

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٩٤ والكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨١ .

بالدرق ، والزموا الصمت إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله [1] .

وفي الوقت نفسه كان داهية العرب وقائد الميمنة عمرو بن العاص يمر بالوحدات (الكراديس) ويتفقدها لبث روح الثبات في نفوسهم ويعطيهم تعليماته ، وكان خبيراً حربياً ممتازاً ، فكان يقول لهم وهو يتجول بين صفوفهم :

« أيها المسلمون ، غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا الأسنة فثبوا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزي بالإحسان إحساناً ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها (أي الشام) كفرا كفرا [2] وقصرا قصرا ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير أولاد الحجول » [3] .

ابو سفيان يعظ الجيش

وكان أبو سفيان بن حرب الأموي ممن حضر اليرموك وكان شيخاً طاعناً في السن ، وله تجارب علمية طويلة في الحروب وخوض المعارك ، فقد كان وزير الحرب في الجيش المكي حقبة طويلة من الزمن ، وكان معروفاً بحنكته السياسية الحربية ، فاستأذن القائد العام ليمر على صفوف الجيش ليلقي فيهم كلمة تشد من عزائمهم ، فسمح له القائد العام .

فاندفع أبو سفيان بين جموع المسلمين وكان (رغم تقدمه الكبير في السن) خطيباً مفوهاً ، وصار يخطب فيهم ومما قاله للجند :

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ١٦٢

(٢) الكفر – بفتح الكاف وسكون الفاء : القرية .

(٣) تاريخ ابن عساكر ص ١٦٣ والحجول جمع حجل وهو طائر شديد الخوف لكثرة اصطياد الناس له .

« يا معشر المسلمين ، أنتم العرب ، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل إلا من أمير المؤمنين وامداداً لله وقد أصبحتم والله بازاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ، ولا تبلغوا رضوان الله غداً ، إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، إلا أنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المؤمنين صحارى وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول إلا الصبر ، ورجاء ما وعد الله ، فهو خير معقول فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا بها ، ولتكن هي الحصون » (١) .

ثم انطلق أبو سفيان وتبعه خالد إلى معسكر النساء المسلمات ، وقد القيت أمامه الحجارة تحسباً للطوارىء وقال أبو سفيان للنساء :

« لا يرجع اليكن أحد من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة ، وقلن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله ، وعن النساء وهن أمام العدو » .

ثم قال لهن خالد :

« يا نساء المسلمين ، أي رجل أقبل اليكن منهزماً فاقتلنه » (٢) .

ووقف الصحابي العظيم معاذ بن جبل في ميمنة المسلمين يعظهم ويحثهم على الصبر والصدق فيقول :

« يا معشر المسلمين ، إن أعداءكم قد تهيأوا للشدة ، ولا والله لا يردهم إلا الصدق عند اللقاء والصبر عند القراع » وكان فارساً ، فنزل عن فرسه وقال :

« من يريد فرساً يركبه ويقاتل عليه » .

فوثب ابنه عبد الرحمن - وكان غلاماً لم يتجاوز الخامسة عشره من عمره فقال :

---

(١) التاريخ الكبير لابن عساكر ص ١٦٣

(٢) تاريخ ابن عساكر الكبير ص ١٦٣

« يا أبه ، اني لأرجو ألا يكون فارس أعظم غناء عن المسلمين مني فارساً ، وأنت يا أبه راجلاً أعظم منك فارساً ، الرجالة هم عظم المسلمين ، فاذا رأوك حافظاً مترجلاً ، صبروا إن شاء الله وحافظوا » .

فأجابه أبوه :

« وفقني الله وإياك يا بني » .

وتابع معاذ بن جبل تجواله على قوات المسلمين وهو يردد :

« اللهم زلزل أقدامهم ، وانزل علينا السكينة ، والزمنا كلمة التقوى وحبب الينا اللقاء ورضانا بالقضاء »[1] .

توجيه الدعوة إلى الرومان للدخول في الاسلام وإنهاء حالة الحرب

وبالرغم من أن المسلمين قد عبأوا قواتهم أحسن تعبئة للقتال وصارت هذه القوات في أعلى درجات الإستعداد لخوض المعركة ، بعد أن تجول على صفوفهم وعاظ المسلمين وقادتهم وخطباؤهم ومرشدوهم يحثونهم على الجهاد والصبر عند اللقاء ويذكرونهم أن موعد الشهيد الجنة ، بالرغم من هذا الاستعداد والتعبئة الكاملتين فان القائد العام خالد بن الوليد بعث بوفد إلى القيادة الرومانية (قبل إنشاب القتال) يدعوهم إلى السلام وإنهاء حالة الحرب ، وذلك حسب قواعد الجهاد في الإسلام التي تقضي (كما هي التعاليم المحمدية) بدعوة الأعداء إلى مفاوضات مباشرة للسلام قبل الدخول في الحرب ، لأنه ليس شيء أكره إلى نفوس المسلمين من سفك الدماء ، فهم لا يقاتلون حباً في القتال وشغفاً به ، وإنما يقاتلون (مضطرين) من أجل أن لا يعلو شيء فوق كلمة الله تعالى ، وكلمة الله لا يمكن أن تكون هي العلياء كما أراد الله وأمر ، إذا كان الحكم والسلطان والأمر والنهي لغير الإسلام وبأيدي غير المسلمين الذين من المؤكد أنهم لن

---

(١) تاريخ ابن عساكر ص ١٦٢

يسمحوا لدعوة التوحيـد أن تنتشر بحرية بين غير المسلمين ، وهو ما كلف الله عباده المسلمين أن يقوموا به .

فالرومان الذين يعتبرون أنفسهم حماة للنصرانية المحرفة ، ويعتبرون أنفسهم (وكما هو الواقع) أعظم وأقوى امبراطورية في العـــالم لا يمكن أن يسمحوا للاسلام أن ينتشر بين أتباعهم ، وقد سبقت منهم تجارب دلت على أنهم لايمنعون الدعوة إلى الإسلام في مناطق نفوذهم فحسب ، بل يقتلون الذين يتولون القيام بهذه الدعوة الشريفة ، كما حدث وأن قتل أتبـاعهم من العرب المتنصرة ١٧ من الصحابة في مكان يقال له ذات الطلح [١] لأنهم ظهروا هناك يدعون إلى الإسلام بأسلوب سلمي.

تفنيد تهمة باطلة

وبهذه المناسبة يجب علينا دفع شبهة يدلس بها أعداء الإسلام لتشويه سمعة هذا الدين حين يزعمون أن العرب لم ينشروا الإسلام إلا بالسيف وسفك الدماء ، وذلك للتسلط واغتصاب الممالك لينعموا بما تفيض به هذه المـــالك من خيرات زراعية وغيرها كالشام والعراق ومصر ، الأمر الذي لا يوجد شيء منه في جزيرة العرب القاحلة التي انطلق منها هؤلاء العرب الغزاة . حيث يعيش هؤلاء الأعراب منذ عرفوا في شظف من العيش .. هذا الافك الذي يـــدلس به أعداء الإسلام ويجعلونه منطلق هجومهم على الإسلام ينقضه ويرده عليهم بنـــدان في شروط مفاوضات السلام التي يلجأ اليها قادة جيوش الإسلام قبل نشوب القتال .

البند الأول : هو دعوة المفاوض المسلم الجـــانب غير المسلم إلى الدخول في الإسلام ، وذلك تحققه كلمة واحدة يقولها غير المسلم وهي (لا إله إلا الله محمـد

---

(١) ذات الطلـــح موضع بمشارف الشام يقع ضمن حدود سلطـــان ملوك العرب المتنصرة التابعة لبيزنطـــا .

رسول الله) بعد نطقه بها يعتبر عضواً في الأسرة الإسلامية : تحرم تعاليم الإسلام الحنيف على المقاتل المسلم أن يناله بأي أذى سواء في دمه أو ماله أو عرضه وليس عليه في ماله لخزينة الدولة الإسلامية إلا ما على المقاتل المسلم الذي جاء إلى أرضه وهو الزكاة فقط .

هكذا بكلمة واحدة (وهي كلمة التوحيد) يصبح دمه وعرضه وماله ولو كان يبلغ ملايين الدنانير حراماً على المجاهد المسلم أن ينال منه شيئاً ، بل على هذا المجاهد المسلم أن يكون حارساً لكل هذه الأشياء التابعة لهذا الذي دخل حديثاً في الإسلام ، لأنه أصبح واحداً من الأسرة الإسلامية .

البند الثاني : وهو دعوة المفاوض المحارب المسلم الجانب المفاوض غير المسلم إذا أبى إلا البقاء على دينه (وذلك من حقه لأنه في الإسلام : لا إكراه في الدين) أن يدفع الجزية لخزينة دولة الإسلام ، وهو شيء زهيد من المال : دينار واحد يدفعه القادر لبيت مال المسلمين رأس كل سنة ، ويعفى من دفعه غير القادر ، وهذا الدينار يتساوى في دفعه من الذين ارتضوا البقاء على دينهم غير الإسلام ، من يملك الملايين ومن لا يملك إلا قليلاً من المال من متوسطي الحال .

وهنا تنبيهة لا بد من أن يفهمها أعداء الإسلام الذين يملأون الدنيا ضجيجاً منتقدين دفع غير المسلم هذا المبلغ الزهيد (الجزية) رأس كل سنة لبيت مال المسلمين ، وهي أن المسلم نفسه يفرض عليه الإسلام أن يدفع من ماله رأس كل سنة أضعاف أضعاف ما يدفعه غير المسلم ، وهو الزكاة اثنان ونصف في المائة يدفعه المسلم من ماله المنقول وغير المنقول لخزينة الدولة .

من هنا يتضح أن الجزية التي يأخذها المسلمون ممن يدخلون في عهدهم من غير المسلمين ، لا يأخذونها لتفيض بها خزائن بيت مال المسلمين مقابل قيام قوات الأمن الاسلامية بحماية أنفس وأموال وأعراض هؤلاء المجاهدين غير المسلمين الذين ظلوا أحراراً على دينهم في ظل سلطان الاسلام .

وهذا الالتزام من قبل قيادة الاسلام تتضمنه بنود معاهدة السلام التي يتم إبرامها بين المسلمين وبين غير المسلمين الذين يرغبون البقاء على دينهم .

وهذا البند الذي تتضمنه كل معاهدة من هذا النوع هو أن المسلمين (مقابل استلامهم الجزية ممن عاهدوهم من غير المسلمين) ملزمين بحمايتهم كما يحمون أنفسهم وأعراضهم ، فإذا عجز المسلمون عن القيام بحمايتهم لسبب من الأسباب القاهرة ، فإن هؤلاء المعاهدين غير المسلمين ليسوا ملزمين بدفع الجزية ، بل على المسلمين أن يعيدوا الجزية إلى هؤلاء المعاهدين من غير المسلمين حينما يصبحون غير قادرين على حمايتهم والدفاع عنهم .

وعلى أساس هذا المفهوم أعاد الأمير أبو عبيدة ما استلم من جزية من نصارى حمص اليهم حينما قرر أن يسحب قواته من المدينة تحت الظروف القاهرة التي فرضت على المسلمين الانسحاب من جميع الأراضي التي احتلوها كي يتجمعوا في اليرموك ، ولهذا خرج نصارى حمص يشيعون المسلمون وهم يبكون أسفاً على فراقهم لما نعموا به من عدل وأمن في ظل حكمهم ، وتمنوا أن يعودوا اليهم مرة أخرى ليكونوا في ظل حكمهم العادل [1] .

عودة إلى المنطلق .. خالد يبعث قبل المعركة يدعو الروم إلى السلام

وانطلاقاً من القاعدة المعروفة في الاسلام (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) انطلاقاً من هذه القاعدة التي تفرض على المجاهد المسلم أن يخير العدو بين واحدة من ثلاث .

١ – إما الدخول في الاسلام .

٢ – وإما دفع الجزية والاعتراف بسلطان الاسلام .

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٣

٣ – وإما الحرب (وآخر الدواء الكي) .

انطلاقاً من هذه القاعدة المتبعة بعث القائد العام خالد بن الوليد إلى كبار الروم في الجيش وفداً يعرض عليهم السلام ويخيرهم بين واحدة من هذه الثلاث .

وقد اختار القائد خالد تكوين الوفد لمفاوضة الرومان خمسة من كبار وخيار الصحابة وهم :

١ – أبو عبيدة بن الجراح رئيساً .

٢ – ضرار بن الأزور عضواً .

٣ – يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي عضواً .

٤ – الحارث بن هشام [١] عضواً .

٥ – أبو جندل بن سهيل بن عمرو [٢] عضواً .

اسلوب استقبال الرومان للوفد الاسلامي

كان القائد العام للجيش الروماني في اليرموك هو تيودور أخا الملك هرقل .

وقد عرف هذا الأمير الروماني القائد تيودور سلفاً أن وفداً من القيادة الاسلامية سيأتي اليه للتفاوض المباشر من أجل إحلال السلام وإنهاء حالة الحرب لحقن الدماء التي ينبغي أن تصان من الجانبين لأن ساسة الرومان يعلمون علم اليقين أن المسلمين يكرهون سفك الدماء ، وأنهم حمال عقيدة أمرهم الله بنشرها بين العالمين ، وأنهم لا يقاتلون إلا مضطرين من يعترض سبيل نشر هذه العقيدة ويقف في طريق المسلمين الذين جاءوا لنشرها كما أمرهم الله .

ولكن ساسة الروم يغالطون أنفسهم ويكذبون على الشعوب التي يحكمونها

---

(١) انظر ترجمة الحارث بن هشام في كتابنا الثامن (فتح مكة) .

(٢) انظر ترجمة سهيل بن عمرو في كتابنا الأول (غزوة بدر الكبرى) .

حين يحملونهم يعتقدون أن المسلمين العرب ما انطلقوا من جزيرتهم يحملون السلاح الا بدافع من شظف العيش والفقر الذي يعانون منه ، فيحولون بهذا التدليس بين شعوبهم وبين فهم الحقيقة التي عليها المجاهدون المسلمون .

الأبهة التي قوبل بها الوفد الاسلامي

كان الرومان كدولة من أعظم دول العالم مغرمين بالأبهة ومظاهر الترف حتى في ظروف الحرب ، بل هم أحرص على إظهار الأبهة والترف في ظرف الحرب أكثر من غيره ، تلك عادتهم وعادة الفرس لما تنطوي عليه نفوسهم من كبر وبطر ، ظانين أن ذلك يعظمهم في عيون من يريد حربهم ، لأنهم يرون أن مقابلة وفود أعدائهم بالأبهة والترف المفرط ، يظهرهم في مظهر القوة والعظمة وعدم المبالاة بالحرب .

فعندما تبلغ الأمير القائد تيودور أن وفد السلام العربي الاسلامي سيحضر للتفاوض معه لاحلال السلام وإنهاء حالة الحرب بقبوله واحدة من اثنتين : الاسلام أو دفع الجزية أمر ببناء سرادق فخم للغاية ، مكسواً بالحرير والديباج لينزل فيه الوفد العربي المسلم المفاوض .

وكان أمل القائد الأمير تيودور أن يؤثر ذلك في نفوس الوفد الاسلامي فيبهرهم ما يرون من بهارج وأبهة ، فتلين نفوسهم تأثراً بهذا المظهر الفخم المدهش فيكونوا عامل تأثير على القيادة العليا الاسلامية كي تقبل ما يعرضه عليه الروم من أموال فيرجعوا إلى بلادهم ويكفوا عن الحرب ، لأن الرومان حتى تلك اللحظة وبعد التجارب التي مرت بهم عبر تقاتلهم مع المسلمين ، ما زالوا يظنون أن الدافع لخروج العرب من جزيرتهم إنما هو الحصول على المال ، والمال فقط .

مع أن المسلمين أفهموا الرومان أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة أن

غايتهم من بذل أرواحهم في هذه الحرب إنما هو إعلاء كلمة الله تعالى والقضاء على الكفر ومحوه من الأرض التي تتم لهم السيطرة عليها .

وكان هرقل ، قد نصح قادة الروم ووزراءهم بأن يصالحوا المسلمين على نصف ثمار الشام ويرجعوا عنهم دون أن يحاربوهم .

فقد قال الملك هرقل لقادة الروم : أرى من الرأي أن لا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام ، وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ، ويشاركوكم في جبال الروم [1] .

فكان القائد الأمير تيودور مفوضاً بالطبع من هرقل في أن يعرض على المسلمين (مقابل التخلي عن فكرة الحرب) ما يرضيهم من المال ، ونسي أن المسلمين ليس هدفهم من دخول الشام المال .

وإنما هدفهم وغايتهم نشر كلمة التوحيد وإعلاء كلمة الله .

وكان الأمير الروماني القائد تيودور يظن أن وفد المسلمين سيفرح بهذا الإستقبال المتمثل في السرادق العظيم الذي زينه بفرش الحرير والديباج وحواشي الذهب ، ولكنه دهش للغاية وأصيب بالذهول عندما دعا رجال الوفد الإسلامي إلى الدخول إلى السرادق الفخم فرفضوا الدخول قائلين في بساطة (إن ديننا يمنعنا من افتراش الحرير) .

وذهبت محاولات الأمير القائد لإقناعهم بالدخول إلى السرادق أدراج الرياح فقد كانوا مسلمين بمعنى كلمة مسلمين ، أي أنهم مسلمون قولاً وعملاً ، فالمسلم الذي ينطق بالشهادتين ولا يكون ملتزماً بتنفيذ تعاليم الإسلام قولاً وعملاً فهو غير

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٠٢

كامل الاسلام ، وافتراش المسلمين الحرير عمـــل يناقض القول ، وهذا ليس من شيمة المسلم الصادق .

ولا شك أن تيودور القائد تذكر ما يبلغه عن هؤلاء المسلمين أنهم رهبـان بالليل فرسان بالنهار ، فكبروا حقاً في عينه وامتلأت نفسه هيبة منهم ، و لم يعد زيهم البسيط حيث يلبس بعضهم ثياباً مرقعة : لم يعد هذا الزي يبعث شيئاً من الاحتقار في نفس القائد الروماني العام ، بل حل في نفسه محله الاعظام والاكبار ، وتذكر (ببرارة قول أخيه الملك العالم القسيس هرقل) : إنهم سيملكون ما تحت قدمي هاتين ، وذلك عندما سأل أبا سفيان عنهم وعن نبيهم ﷺ .

إجراء المفاوضات في خيمة عادية

ولما رأى الأمير الروماني تيودور وفد التفـاوض الاسلامي مصراً على عدم الدخول إلى السرادق الفخم المفروش بالديباج والحرير ، اضطر إلى نصب خيمة عادية لتكون مكاناً للتفاوض بين الفريقين .

وعندما تم اجتماع الوفدين شرعا في التفاوض .

فعرض المسلمون على الروم (ممثلين في قائـدهم الأعلى تيودور) الدخول في الاسلام أو دفع الجزية كاعتراف بسلطان الاسلام ومقابل حمايتهم . فرفض ذلك بغضب مكبوت وفضل الحرب . وكيف يقبل المفاوض الروماني إحدى الخصلتين ولديه في الميدان مائتان وأربعون الف مقاتل ، بينـما المسلمون الذين يعرض وفدهم هذه العروض العجيبة على الروم لا تزيد قواتهم المتواجدة في الميدان على أكثر من أربعين الف جندي فيهم فقط عشرة آلاف فارس ، بينما في جيش الروم من الفرسان وحدهم ثمانون الفاً .

فكان بدهياً أن يرفض الرومان ما عرضه وفد المسلمين عليهم حين خيرهم بين الاسلام أو الجزية وإلا فالحرب .

فشل المفاوضات

وبالطبع فشلت المفاوضات فقد رفض المفاوضون الروم ما عرضه عليهم الوفد الاسلامي مما تقدم توضيحه ، وكان القائد العظيم خالد يدرك سلفاً أن الروم سيرفضون وسيفضلون الحرب على الدخول في الدين الجديد وترك دين الصليب ، ولهذا عبأ جيشه أحسن تعبئة وأكملها استعداداً للصدام الذي كان يرى سلفاً أن لا بد منه .

محاولة أخيرة من الروم لاغراء المسلمين

غير أن بعض المؤرخين ذكر أن الرومان كمحاولة أخيرة لتجنب محاربة العرب ولاخراجهم من الشام حاولوا إغراءهم بالمال ، بأن يدفعوا لكل نفر منهم مبلغاً من المال على أن يعودوا مقابل ذلك الى جزيرتهم ويتخلوا عن فكرة الحرب .

فقد ذكر بسام العسلي أن ماهان أحد كبار قادة جيش الروم في اليرموك ، عندما انتظمت صفوف الفريقين وتقابلوا للصدام ، برز بين الصفين وطلب مقابلة القائد خالد بن الوليد ليتحدث معه .

فخرج اليه خالد ، فلما التقيا ابتدأ القائد ماهان حديثه قائلاً لخالد :

« لقد علمت أن الذي أخرجكم من بلادكم غلاء السعر وضيق الأمر بكم ، واني قد رأيت أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة ، تحمل حملها من الطعام والكسوة والأدم (الجلود) فترجعون بها إلى أهاليكم ، ونحن نعين لكم هذا في هذه المرة : فإذا كان من قابل بعثتم الينا ، فبعثنا اليكم بمثله ، وإنا قد جئناكم ومعنا من الجيوش والعدد ما لا قبل لكم به » .

فقال خالد بن الوليد :

« ما أخرجنا من بلادنا جوع ولا ضيق [1] » ولعله كرر على ماهان ذكر السبب الحقيقي الذي من أجله خرجوا ، وهو نشر كلمة التوحيد وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده .

وهكذا فشلت محاولة الاغراء التي قام بها القائد الرومي ماهان فرجع خالد في اتجاه معسكره ، وعاد ماهان إلى جنوده وكل يحث جنوده على القتال الذي أصبح أمراً لا مفر منه .

كيف بدأت المعركة الفاصلة

وهكذا وبعد أن فشلت المفاوضات التي أجراها الوفدان كي يتجنبوا الحرب المدمرة، وبعد أن فشل الأمير ماهان في إقناع خالد بإغرائه بالعطايا كي يرجع بالجيش من حيث عاد إلى جزيرة العرب ، لم يعد هنـاك مفر من الحرب : الحرب التي يوقن كل من الفريقين أن الشام بأكملها بل وكل ممتلكات الامبراطورية البيزنطية لن تكون إلا للمنتصر فيها .

أما المنهزم في هذه المعركة الكبرى فلن يكون مصيره إلا الفشل الأبدي ، وخاصة في الشام التي في قلبها ستنشب هذه المعركة .

كان في جيش الفريقين عناصر محاربة من أميز ما عرفوا.

فقد كان في جيش المسلمين مائة ممن حضروا معركة بدر الكبرى [2] مع سيد الخلق محمد ﷺ .

كذلك كان في جيش الروم عدة آلاف فارس من العرب المتنصرة ، والروم يعتزون بهم في الحرب ويعرفون أنهم عنصر محارب ممتاز جداً ، لذلك يجعلونهم دائماً رأس الحرب في أي جيش يريدون أن يدخلوا به الحرب ، وكذلك الفرس

---

(١) فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين ص ١١٨

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٠

يفعلون بالنسبة للعرب المرتبطين بهم ، لأنه لا أصبر على الحرب من العرب لأنهم بحكم تربيتهم القبلية يفضلون الموت على الفرار ، وقد عرف الروم والفرس فيهم هذا الخلق فصاروا يتقربون اليهم ويكرمون ساداتهم إلى درجة أن ينصبوا منهم ملوكاً على قومهم .

وقد عرف خبراء التاريخ كيف أن جيوش الفرس عندما أخذت تنزل الهزائم بجيوش الروم قبل الاسلام ولم ينسحب رؤوس الروم من تحت مطارق الهزيمة الساحقة إلا الملك العربي الحارث بن جبلة وهو عند حمزة الأصفهاني في كتابه – تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء – (الحارث بن أبي شمر) [1] حين شن على الفرس وحلفاءهم المناذرة هجوماً كاسحاً بالاشتراك مع القائد الروماني (بليزاريوس) عام ٥٣١م فأخرجهم من الشام في عهد قيصر الروم (جستنيان العظيم) .

تاريخ نشوب معركة اليرموك

وفي صبيحة اليوم الثاني عشر من شهر رجب عام ١٣ هجرية ١١ أيلول ٦٣٤ ميلادية نشبت المعركة المصيرية ، معركة اليرموك .

وكان التفاوت عظيماً دونما شك في العدد والعدد .

ولكن الروح المعنوية عند المسلمين بلغت أقصى درجات الارتفاع ، وذلك لأسباب ثلاثة :

١ – أنهم يقاتلون في سبيل نشر عقيدة : المقتول في سبيل نشرها مؤمن إيماناً قطعياً بأن مصيره الجنة التي عرضها السماوات والأرض يعيش فيها عيشة أفضل بملايين الدرجات من العيشة التي يعيشها في الدنيا .

---

(١) انظر كتابنا (العرب في الشام قبل الإسلام) ص ٢٠٦ وما بعدها .

٢ – كان المسلمون بطبيعة تربيتهم القتالية منذ نعومة أظفارهم أصبر على القتال من الروم إلى درجة أن الفرد المسلم واثق من أنه قادر على منازلة عشرة من الروم دونما عناء يذكر ، وقد حدث ذلك عن تجربة في عدة مواطن .

٣ – كان المسلمون خارجين من تجربة قتالية رائعة أفعمت قلوبهم ثقة بأنفسهم ، وذلك عندما سحق أربعون الفاً منهم في إجنادين قبل أيام قلائل من اليرموك مائة الف روماني وقتلوا قائدهم العام .

أما الرومان فكانت (رغم تفوقهم العددي الهائل وتقدمهم العلمي العسكري على العرب) فإن روحهم المعنوية متدنية إلى أدنى حد ، فقد انتابهم الرعب والخوف من العرب ، بعد أن خبروا شدة جلادهم وصبرهم على القتال صبراً لم يروا مثله في حياتهم .

وكان عقلاء الرومان في الجيش (والكافرون لا يخلون من عقلاء) أشد توقعاً لهزيمة الروم وانتصار المسلمين لما لمسوا (عن طريق تحرياتهم الشخصية) من فرق هائل في السلوك بين المعسكرين .

المسلمون صلتهم غير مقطوعة بالله تعالى علموهم ركعاً سجداً لله لايضجرون من تلاوة القرآن بالليل . بعيدين عما يحطمن قيمة الانسان وقدره من أقذار المعاصي والانحرافات .

والرومان صلتهم بالله مقطوعة : يبيتون يحتسون الخمر يعربدون سكارى فاقدي الوعي يرتكبون مختلف الفواحش ، وهم مقدمون على خوض معركة بقائهم في الشام حكاماً مرتبط بانتصارهم فيها ، ولكن هؤلاء العقلاء من قادة الرومان يرون من خلال تصرف جمهور جيشهم (والألم يعتصر قلوبهم) بوادر الهزيمة المدمرة .

فمن يبيت نقي القلب أبيض الضمير منزهاً عن محاقر الفواحش متوجهاً إلى

ربه بقلب طاهر ساجداً راكعاً لا يمكن أن يصمد في وجهه من يبيت معاقراً للخمر بعيداً عن ربه بارتكاب ما يغضبه من فواحش .

فالعرب (كما وصفهم الملك هرقل أحد رجال استخباراته الأمناء) رهبان بالليل ، وفرسان بالنهار ، والرومان عرابدة سكارى منغمسين في الفواحش بالليل ، وفي النهار يتظاهرون بالأبهة والقوة وأفئدتهم هواء ترجف خوفاً من العرب ، ليقينهم بأنهم أصدق عند اللقاء وأصبر على القتال ، الفرار عندهم من الزحف من أكبر الكبائر التي يعاقب الله عليها بالعذاب الشديد . فهم لذلك إذا دخلوا معركة لا يفكرون في الهرب مطلقاً وقد صدرت الأوامر إلى النساء (القائمات بأعمال البوليس الحربي) الأوامر من القائد خالد بأن يقتلن من ضعفت نفسه من المسلمين وحاول الهرب من المعركة .

وقد أدرك عقلاء الرومان من القادة هذا الواقع ، فأمروا ثمانين ألفاً (أي ضعف جيش المسلمين) بأن يربط كل عشرة منهم في سلسلة واحدة كي لا يفكروا في الهرب ، ومع ذلك فان ذلك لم يفدهم فقد أبادهم العرب وقذفوا بهم في هوة الوادي السحيق فماتوا عن آخرهم كما سيأتي تفصيله في موطنه إن شاء الله .

وساطة جبلة بن الأيهم يتوسط لتجنب الحرب

كان جبلة بن الأيهم ملك غسان من أقرب المقربين إلى الروم ، فقد نصبوه ملكاً مطلق التصرف على قومه غسان في شؤونهم الداخلية ، أي أن ملك الغساسنة للشام يعني الحكم الذاتي حسب التعابير العصرية ، وكان الملك جبلة ينضوي تحت لوائه قوات كثيفة من خيرة المقاتلين الغساسنة وغيرهم من العرب من قضاعة وجذام وبلي ، وأكثرهم من أصحاب الخيول المطهمة ، فالعربي لا يحب شيئاً مثل الخيل يدخر من أكله الضروري ليتمكن من شراء فرس يتطي صهوته في المناسبات وخاصة الحرب .

كان قادة الجيش الروماني باحساس باطني يتخوفون أن يخسروا هذه المعركة المصيرية الفاصلة ، ولهذا فهم (وإن كانوا في الظاهر) يظهرون التشوق للقتال، إلا أنهم في الباطن يودون من صميم قلوبهم لو أن هذه المعركة لم تنشب وأن العرب ينصرفون ويعودون إلى بلادهم دون قتال مهما كلفهم الثمن ومهما طلب المسلمون من أموال إذا كانوا يقبلون المال بديلاً عن القتال .

ولذلك وبعد فشل المفاوضات الرئيسية بين الفريقين قام الرومان من جهتهم بمحاولة أخيرة لإغراء المسلمين بالمال لحملهم عن العدول عن الحرب ليعودوا إلى جزيرة العرب بعد أن يتخلوا عن فكرة مقاتلة الرومان .

فاختار الرومان للقيام بهذه المحاولة جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة ، الذي كان بعناصره العربية يقود مقدمة الجيش الروماني في اليرموك [1] .

فقد ذكر بعض المؤرخين أنه قبيل نشوب المعركة الكبرى قام ماهان قائد العناصر الأرمنية ، وكان يضاهي الأمير تيودور في المنصب ، قام باستدعاء ملك الغساسنة (جبلة بن الأيهم) وطلب منه أن يحاول إخوته في الدم العرب المسلمين كي يستجيبوا لعرض جديد جاء لتوه من الملك هرقل القائد العام، وهو عرض هدفه تجنب الحرب وعودة المسلمين إلى بلادهم .

وهذا العرض هو أن الملك هرقل مستعد بأن يدفع لهم ثلث ثمار ما تنتجه الشام على أن يتركوا مواقعهم ويعودوا إلى جزيرتهم آمنين .

وحسب رغبة القائد الأرمني الكبير ماهان وكما هي رغبة الملك هرقل – خرج الملك جبلة بن الأيهم على صهوة جواده إلى بين الصفين تصحبه كوكبة من الفرسان من أتباعه الخاصين ، فلما كان غير بعيد من صفوف العرب المسلمين ، وكان عنصرياً قومياً متعصباً لقومه أهل اليمن – فنادى بلغة يمانية فصيحة

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى للجنرال جلوب باشا ص ٣٠٢

أيها الأخوة العرب ، يا معشر العرب ليخرج إلي رجل من ولد عمرو بن عامر ماء السماء [1] ولم يكن في جيش المسلمين من نسل هذا الملـــك (عمرو بن عامر) سوى الأنصار .

فلما سمع قائد الفرقة الثالثة (القلب) أبو عبيـــدة بن الجراح ، قال (وكان ذكياً حكيماً) قال : لقد بعثت الروم اليكم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابـــة ، فابعثوا اليـــه برجل من الأنصار من ولد عمرو بن عامر (مزيقيا) .

فوقع الإختيار على عبادة بن الصامت الخزرجي .

فلما خرج عبادة إلى الملك جبلة وقف جواده بازاء جواد جبلة ، نظر جبلة إلى عبادة ، فاذا هو رجل أسمر طويل القامة بافراط ، شديد السمرة كأنه من رجال شنؤة [2] فهابه الملك جبلة ، ودخل الرعب في قلبه من عظم خلقه .

وكان عبادة من الخطاطين فسأل جبلة عبادة عن نسبه ، فلما انتسب اليـه وعرف أنه من قبيلته اليمانية الملكية بدأ في المخادعة ومحاولة التأثير والتلميـــح بكثرة الروم وشدة بأسهم ، وبدا وكأنه ناصح للمسلمين بصفتهم عرب مثله ، فقال جبلة لعبادة :

« يا ابن العم إنما خرجت اليكم لأني أعلم أن أكثركم من ذوي الرحـــم والقرابة – يعني الأنصار – فخرجت اليكم ناصحاً ومشيراً ، واعلم يا ابن العم أن هؤلاء القوم (يعني الروم) قد نزلوا بازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها ، وخلفهم عساكر وحصون وقلاع وأموال ، ولا تقولوا : هزمنا وكسرنا عساكر الروم (إشارة إلى انتصار المسلمين على الروم في إجنـادين بفلسطين) واعلم أن

---

(١) هو ملك مأرب الذي تفرق وأبناؤه في نواحي الأرض بعد انهدام السد .
(٢) شنؤة . قبيلة من الأزد رجالها مشهورون بالطول .

الحرب سجال ، وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجـأ إلا الموت ، وهؤلاء القوم (يعـني الروم) إن انهزموا يرجعون إلى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون ، وإني أنصحكم أن تكتفوا بما قد نلتم وخـذوه وامضوا إلى بلادكم » .

فأجابه عبادة بن الصامت رافضاً (خديعته المتقمصة بقميص النصيحـة) قائلاً : يا جبلة أما علمت ما لقينا من جموعكم بأجنادين وغيرها ، وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طاغيتكم قائد الملك ، إننـا نعلم أن من بقي من جموعكم يسير علينا أمره ، ونحن لا نخاف مما يقدم علينـا ، وأنا يا جبلة أدعوك إلى دين الإسلام ، وأن تدخل في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ، ولاتكون تابعاً لعلج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهـالك ، أنت رجل من سادات العرب وملوكها ، إن دين الإسلام ظهر أوله ، ويظهر آخره كما ظهر أوله ، فاتبع يا جبلة سبيل من أناب إلى الحق وصدق به ، فقل : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فأظهر جبلة الغضب لدعوة عبادة له إلى الإسلام . وقال : لست مفـارقاً ديني . فقال له عبادة : إذن تلقى حتفك كافراً مع هؤلاء الروم فقال جبلة : لعبادة : لا تخوفني يا بن الصامت من سيوفكم فنحن عرب مثلكم .

فقال عبادة : (أخطأت يا جبلة ، لا ينفعكم أنكم عرب مثلنـا ، نحن نوحد ربنا ونتبع سنة نبينا محمد ﷺ ، وأنتم إنما تتبعون الأوهام ، تجعلون من البشر إلهاً يعبد .

وهنا عاد الملك جبلة إلى اللين والمراوغة . فقـال : يا بن العم ما خرجت إلا أريد النصيحـة لكم ، فان أبيتم فاسأل قومك يجيبونا إلى الصلـح ، وهو ما اقترحه الملك هرقل ، يأخـذ المسلمون ثلث ثمـار الشام وينصرفوا إلى جزيرتهم .

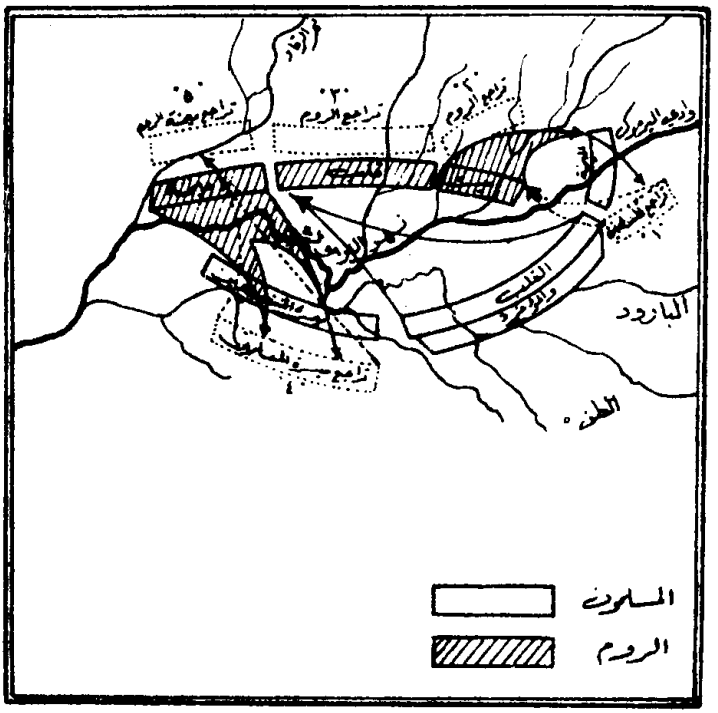

المرحلة الأولى: ١ ـ هجوم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين وتراجع ميمنة المسلمين.
٢ و٣ ـ هجوم ميمنة المسلمين وقلبهم على ميسرة الروم وقلبهم ودحرهما

المرحلة الثانية: ٤ ـ هجوم ميمنة الروم على ميسرة المسلمين ودحرها.
٥ ـ هجوم ميسرة المسلمين على ميمنة الروم وارتفاعها على التراجع.

المرحلة الثالثة: ١ ـ الهجوم الثاني لميسرة الروم على ميمنة المسلمين ودحرها.
٢ ـ رد هجوم ميمنة المسلمين وقهر ميسرة الروم.

في تجنب مقـــاتلة العرب خوفاً منهم) أن أحد العرب المتنصرة طلب الإنفراد بخالد فأجابه ، فلما انفرد به (وكان مدفوعاً من القيادة الرومانيـــة) فقال له (متظاهراً بأنه ناصح لخالد بدافع أخوة العروبة) : (يا خالد إن الروم في جمع كثير مائتي الف أو يزيدون إن رأيت أن ترجع على حاميتك فافعل .

فقال خالد (في ثقة نفس ما بعدها ثقـة) : أبالروم تخوفني (وكان فرسه لا يقوى على الركض لإصابته في حافره) والله لوددت أن الأشقر (يعني فرسه المفضل) براء من توجيه [1] ، وأنهم أضعفوا ضعفهم (أي صاروا ضعف عددهم) فهزمهم الله على يديه [2] .

البداية السيئة للرومان

وذكر المؤرخون أن قائد أحد الأجنحة الرومان واسمه (جرجـة) خرج على صهوة جواده من مصاف قومه الروم ، وقومه لا يدرون ماذا يريدأن يفعل ، فلما كان بين الصفين نادى القائد العام لجيش الإسلام خالد بن الوليد أن يخرج اليه بفرده ، فأجابه خالد وخرج اليه بعد أن أناب عنه لقيادة الجيش أبا عبيـدة بن الجراح وكان نائبه الأول .

وكان الفريقان المسلمون والروم ينظرون بدهشة إلى التقاء القـائدين جرجة وخالد على غير موعد ، وكانوا في حيرة لخروج القائد جرجة بهذه الصورة المفاجئة ووقوفه بين الصفين وحيداً وهو القائد العظيم عند الروم .

وعندما خرج خالد إلى جرجة أمن كل منهما صاحبه ، فلما اختلفت عنقـا فرسيهما شرع جرجة في الحديث الذي من أجله خرج ، والذي لم يخبر به أحد من قومه ، فخاطب خالد قائلاً :

---

(١) التوجي ألم يصيب الفرس في بطن حافره فلا يقوى على الركض كما يجب .
(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٠٢

يا خالد اصدقني ولا تكذبني فان الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فان الكريم لا يخدع ، أسألك بالله : هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

فقال خالد : لا . قال جرجة : فبم سميت سيف الله ؟

قال خالد : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم ان بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به ، فتابعناه ، وقال لي : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

قال القائد الروماني جرجة : لقد صدقتني ، ثم عزم في نفسه على اعتناق الإسلام ، ولذلك تقدم إلى خالد بهذه الإستيضاحات فقال :

يا خالد أخبرني إلام تدعوني ؟

قال خالد إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله والإقرار بما جاء به من عند الله .

قال جرجة : فمن لم يجبكم ؟

قال خالد : الجزية ، ونمنعهم ، أي نحميهم .

قال جرجة : فان لم يعطها ؟

قال خالد : نؤذنه بحرب ، ثم نقاتله .

فقال جرجة : فما منزلة الذي يدخل في دينكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا.

ثم أعاد جرجة القول : هل لمن دخل فيكم مثلما لكم من الأجر؟ والذخر؟

قال خالد : نعم وأفضل .

قال جرجة : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

قال خالد : إنا دخلنا في هذا الأمر وتابعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأيناوسمع. ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وانكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا من العجائب والحجج ما سمعنا ، فمن دخل منكم في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا.

قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني .

قال : بالله لقد صدقتك وما بي اليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولي ما سألت عنه .

فقال : صدقتني وقلب الترس ومال مع خالد ، فقال : علمني الإسلام .

فمال به خالد إلى فسطاطه فشن (أي صب) عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين بعد أن نطق بالشهادتين [1] .

فكانت البداية للرومان سيئة للغـــاية ، وفي الوقت نفسه بـــداية حسنة للغاية للمسلمين .

قائد أحد أجنحة الجيش الروماني خرج ليشارك في إبادة المسلمين بسيفـــه ورجاله ، وإذا به ينضم اليهم ويدخل في دينهم ويقلب شفرة سيفه لتجذ رقاب من كان يقودهم للقتال خلفه ضد هؤلاء المسلمين ، حدث هذا قبل اشتباك الجيشين كما يبدو واضحاً من سير القصة .

فسبحان مقلب القلوب : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وسعق الرومان فشنوا هجومهم الكاسح

كان زملاء القائد الروماني جرجة من هيئة أركان الحرب في جيش هرقـــل يظنون (على ما يبدو) أن قائدهم العظيم إنما اجتمع بالقائد خالد كي يقنعـه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص ٣٩٨-٣٩٩

بأن يعود بجيشه إلى بلاد العرب ويتخلى عن فكرة الحرب ، ولكن الشكوك بدأت تساورهم (فارتبكوا ولم يدروا ماذا يصنعون) حين رأوا زميلهم جرجة يقلب صفحة ترسه ويمضي مع قائد المسلمين و كأنهما صديقان ويدخلان مقر قيادة خالد ، فيغيبان عن الأنظار .

وفي غمرة الحيرة مما فعل القائد الروماني جرجة تسرب إلى أذهان قادة الروم أن انغماسه في صفوف المسلمين إيذان للروم بالهجوم على المسلمين ، وان هو (أي جرجة) قد خاطر بنفسه وحمل على المسلمين .

لذلك شن الرومان الهجوم العام الشامل على صفوف المسلمين المتراصة .

وكان قادة الفرق الإسلامية قد أعطوا الأوامر بأن يلزموا جانب الدفاع حتى تفتر حدة الهجوم الروماني وعندها يقومون بالهجوم المعاكس ضد الروم .

عنف الهجوم الروماني وشراسته

كان القائد خالد يتوقع أن الهجوم الروماني سيكون في المرحلة الأولى شرساً وعنيفاً للغاية ، ولهذا أبلغ قادة الفرق أن يثبتوا ويثبتوا جنودهم ، فإن هجوم الروم لن يستمر طويلا في شراسته وحدته وان فتوره وتراخيه مرهون بصبر الوحدات الإسلامية وثباتها .

كما أنه يعلم دون شك أن ثقل الهجوم سيكون مركزاً على المقر الذي يوجد فيه القائد العام ، وتلك طريقة يتبعها القادة في ذلك العصر ، لأن القائد العام إذا قتل انهارت عزائم جنده فتعمهم الهزيمة .

كان خالد يدرك ذلك ، لذلك أحاط فسطاطه (مقر القيادة) بأشجع الفرسان وأشهرهم ، من بينهم عكرمة بن أبي جهل بطل حروب الردة ومدمر المهربين والحضارمة العتاة المرتدين ، وكذلك جعل إلى جانبه ضرار بن الأزور ،

وابنه سفيان بن خالد بن الوليد ، وأمثالهم من مشاهير القوات ، أو [illegible] وجه الهجوم الروماني الذي سيكون تركيزه بصفة خاصة على ميمنة خالد .

وكما هي أوامر قادة الفرق الإسلامية التزم الجند الإسلامي في الصفحة [illegible] من المعركة اللاهبة موقف الدفاع .

فكان الرومان هم البادئين بالهجوم ، وكان هجوماً عنيفاً مدبراً كما [illegible] مهد له الرومان بقصف كثيف عنيف من النبال ، فكانت السهام [illegible] تنهال على صفوف المسلمين وكأنها سحب من الجراد ، حتى قيل أنها لكثافتها وهي تنطلق نحو المسلمين حجبت الشمس عن أرض المعركة في بعض المواقع

وذكر بعض المؤرخين أن المسلمين فقدوا من فعل السهام في بدء الهجوم سبعمائة عين ، وكان من بين الذين أصيبت عينه أبو سفيان بن حرب ، فقد بصره كلياً ، لأنه فقد إحدى عينيه في حصار الطائف ، فصار بعد اليرموك أعمى .

بعد التمهيد للهجوم الروماني بقصف السهام تقدمت القوات الضاربة [illegible] المشاة) في هجوم عنيف تحمي جناحيهم ثمانون الف فارس من الروم .

وكان العرب المتنصرة (كما قلنا) في المقدمة يقودهم الملك جبلة بن الأيهم الغساني اليماني ، وكان تحت قيادته لفيف من القحطانيين الآخرين جذام وبلقين ولخم وغيرهم .

تراجع المسلمين عند الصدمة الأولى

ويؤكد المؤرخون أن الرومان نجحوا نجاحاً كبيراً في هجومهم [illegible] الأولى من المعركة وأزالوا أكثر المسلمين عن مواقعهم .

فقد قام القائد ماهان بهجوم كاسح عنيف فتخلخلت صفوف المسلمين [illegible] الهجوم الأول من ماهان على ميمنة المسلمين التي تضعضعت بعد هجماته [illegible]

شرسة ، ولكن التفوق العددي الهائل في ميسرة الروم التي يقودها ماهان أجبرت المسلمين على التراجع ، حتى خالط الروم المسلمين ودخلوا معسكرهم .

وكانت ميمنة المسلمين التي تلقت الهجوم الأول فيها قبائل شتى من الأزد وحضرموت ومذحج وحمير وخولان وزبيد . وهؤلاء معروفون في التاريخ القديم الحديث والقديم بالشجاعة النادرة ، فقاوموا الهجوم الروماني مقاومه شرسة عنيدة ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات الدائم للكثرة الرومانية الهائلة الغامرة ، فأخذ بعضهم ينفذ صبره ، فتركوا مواقعهم منهزمين .

وكان قائد الميمنة عمرو بن العاص ومعه أصحاب الرايات من أهل النجدة والصبر ، فصبر عمرو ، وصبر أصحاب الرايات مكانهم لم يتزحزحوا .

ولكن ذلك لم يمنع قلب المسلمين من الخطر ، فبانهزام عامة الميمنة انكشف قلب الجيش الإسلامي فبدأت حالة المسلمين تتحرج ، وزادها حرجاً أنه في الوقت الذي تمكن القائد ماهان من أن يهزم ميمنة المسلمين في الصدمة الأولى ، كان قائد آخر اسمه (قناطر) يشن هجوماً مركزاً على ميسرة المسلمين التي يقودها يزيد بن أبي سفيان بن حرب ، فتمكن كذلك من اختراقها ، وإزالة صفوفها من أماكنها .

وكان في ميسرة المسلمين خليط من قبائل قضاعة وكنانة وقيس وخثعم وجذام وعاملة وغسان . وكانت قبائل ذات قدرة قتالية ممتازة ، ولكنها الكثرة الهائلة التي يمتاز بها الرومان ، كان لها الأثر في زحزحة رجال ميسرة المسلمين عن مواقعهم حتى خالطها الروم ووقعت إصابات كثيرة بين الفريقين .

وكما ثبت عمرو وأصحاب الرايات في الميمنة ثبت قائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان وأصحاب النجدة من أصحاب الرومات ولم يتزحزحوا وجالدوا الرومان بثبات منقطع النظير .

قلب جيش الاسلام ينكشف

وكان بالتأكيد (وكما هو تكتيك القتال في ذلك الزمان) هدف القائدين لميمنة الروم وميسرتها ماهان وقناطر كشف قلب الجيش الإسلامي الذي كانت الميمنة والميسرة تحميانه ، وهكذا وبإزالة ميمنة المسلمين وميسرتهم عن مكانيهما انكشف القلب الذي يقوده أبو عبيدة ويتمركز فيه القائد العام خالد .

واتفق القائدان ماهان وقناطر على القيام بعملية تطويق لقلب الجيش الإسلامي للقضاء على من فيه حتى تعم هزيمة المسلمين بسرعة ، ولكن الليوث لا تصطاد بسهولة كما يقول المثل العربي .

فقد كان في القلب أشجع من عرف العرب في عصره خالد بن الوليد وإلى جانبه النخبة الممتازة من خيرة المقاتلين من الصحابة وغيرهم من أهل النجدة والبأس من أهل البادية ، وكان قائد القلب البطل المجرب والأسد الكاسر أبو عبيدة بن الجراح . والمحارب القديم المحنك وأول قائد إسلامي اجتاز حدود الشام بجيشه خالد بن سعيد بن العاص ، وأمثالهم من رجالات الصحابة أهل السابقة والصلاح .

والواقع أن وضع المسلمين في المرحلة الأولى من المعركة تحرج إلى حد بعيد.

فقد فرح الرومان بنجاحهم المبدئي فشددوا من هجومهم، وركبوا أكتاف المنهزمين من المسلمين في الميمنة والميسرة ، وصار الروم يطاردون المنهزمين حتى وصلت خيل الروم إلى مؤخرة المسلمين .

ثبات قلب الجيش الاسلامي

غير أن الذي خفف من وقع الكارثة أن قلب الجيش الإسلامي (رغم انكشافه بانهزام الميمنة والميسرة من الجانبين ظل (بقيادة خالد وأبي عبيدة)

صامداً لم يصل الخلل إلى صفوفه ، رغم الهجوم الشرس الضاري الذي شنته قوات الرومان .

فقد شكل القائد ماهان وقناطر الرومانيان كماشة من اليمين واليسار قصدا بها خنق قلب الجيش الإسلامي ، ولكن هيهات هيهات ، فقد صمد خالد بن الوليد وأبو عبيدة ، والقعقاع بن عمرو الذي وصفه عمر بأنه يقوم مقام جيش بأكمله ، واحتدم القتال بضراوة ما بعدها ضراوة ، وسقط مئات بل آلاف القتلى أمام مقر قيادة قلب الجيش الإسلامي الذي لم يتزعزع .

وأصر الرومان على مهاجمة قلب الجيش الإسلامي ، وجلبوا دعماً كبيراً من احتياطيهم بغية تحطيم القلب مخافة أن تعيد ميسرة المسلمين وميمنتهم تنظيمها فيفشل الهجوم على القلب .

فقد كان عمرو بن العاص قائد الميمنة ويزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة يبذلان جهوداً مضنية لسد الثغرات الفاحشة التي أحدثتها قوات الرومان في جناحيها ، وصاروا يتجهون بحنق وسرعة نحو القلب لتحطيمه حيث يتمركز القائد العام خالد ونائبه أبو عبيدة .

فكان الموقف عصيباً حقاً للغاية ، ولكن جيشاً يقوده خالد بن الوليد لا يمكن أن يهزم هزيمة نهائية ، لأنه سيف الله سله الله على المشركين ، وهذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى محمد بن عبد الله ﷺ . وسيف يسله الله على أعدائه لا يمكن أن يعود إلى غمده إلا بعد أن يبيد الطغاة الكافرين ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، عند تغيير مجرى سير المعركة وأخذت كفة الميزان ترجح لصالح الجيش الإسلامي .

دور المرأة في المعركة اللاهبة

كانت الأوامر (كما ذكرنا) قد صدرت من القائد العام إلى النساء في المؤخرة

بأن يقتلن كل من يحاول الهرب من المسلمين ساعة القتال ، فكان دورهن دور البوليس الحربي في عصرنا هذا .

وفعلاً فعندما بدأت طلائع المنهزمين من الرجال تركض نحو النساء عند تل شهاب برز هؤلاء النساء الباسلات وواجهن المنهزمين المسلمين يقاتلنهم بما لديهن من أسلحة حتى اضطررن إلى مقاتلتهم بأعمدة الخيام والحجارة وفي أيديهن أبناؤهن وهن يصرخن في وجوههم أين عز الإسلام والأمهات والأولاد والأزواج، فخجل المسلمون المنهزمون ورجعوا إلى الميدان .

وكان دور المرأة في اليرموك دوراً رائعاً فلم يقتصرن على مقاتلة المنهزمين المسلمين بل قاتلن أيضاً من وصل اليهن من الروم ، حيث انتزعن أعمدة الخيام وقاومن من وصل اليهن من الرومان وقاتلن بضراوة فقتلن مجموعة من جنود الروم ، الأمر الذي بهت له الروم ، فما كان عهدهم بالنساء يقاتلن هذا القتال الضاري ، حتى أن أم الحكيم بنت الحارث بن هشام قتلت وحدها ستة من فرسان الروم [1] .

وكانت ابنة عمرو بن العاص تقود النساء في المواجهة المزدوجة حيث يقاتلن المنهزمين من المسلمين ، ومن وصل في تقدمه اليهن من الروم .

كانت ابنة ابن العاص (وهي تقود النساء ساعة المحنة) تصرخ في وجوه المتراجعين المسلمين :

(قبح الله رجلاً يفر عن حليلته ، وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته) .

فتندفع وراءها النساء وهن ينشدن :

(والله لستم بعولتنا إن لم تمنعونا) .

---

(١) انظر كتاب فن الحرب للعسلي ص ١٢١ ، ومعارك خالد بن الوليد لياسين سويد ص ٢٦٩ .

وكان العباس بن سهل [1] بن سعد الساعدي ممن تراجع أمام ضغط الروم حتى وصل معسكر النساء ، فلما رأى ثباتهن واستبسالهن هاجت نفسه بالحمية فصرخ لائماً لنفسه ولغيره من الفارين :

يا هاربا عن نسوة ثنيات فمن قليل ما ترى سبيات

ولا حظيات ولا رصينات

ثم يكر راجعاً في حنق مع مجموعة من الذين معه من الروم فيشتتهم ويطردهم عن النساء ثم يعود إلى ساحة الوفاء مع المنهزمين وكله ثورة وحماس .

وخرجت جويرية بنت أبي سفيان فقاتلت قتالاً شديداً مع زوجها حتى قتلت [2] وكان الذي أخرج السهم من عين أبيها أبو حثمة .

وقال الواقدي . وأقبل أبو سفيان إلى قائد القلب أبي عبيدة ، وقال : أيها الأمير : مر نساءنا أن يعلون على هذا التل (هو تل شهاب) ، فأمرهن أبو عبيدة بذلك ، ففعلن وعلون التل وتحصن فيه ومعهن أطفالهن ، ثم أصدر أبو عبيدة أمره اليهن بأن يقاتلن المنهزمين من المسلمين قائلا : (خذن بأيديكن أعمدة الفسطاط والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن ، وحرضن المؤمنين على القتال ، فان كان الأمر لنا والظفر فكن على ما أنتن عليه وإن رأيتن أحداً من المسلمين منهزماً فاضربن وجهه بأعمدتكن واحصبنه بحجارتكن وارفعن اليه أولادكن وقلن له : قاتل عن أهلك وولدك وعن دين الاسلام ، فقالت النساء أيها الأمير أبشر بما يسرك [3]) .

وعندما تحرج وضع المسلمين وأخذت بعض الوحدات منهم في الانهزام أو المؤخرة حيث النساء ، تنادت الحرائر من نساء المسلمين : يا بنات العم ، دونكن

(١و٢) الطبري ج ٣ ص ٤٠١

(٣) الواقدي ج ١ ص ١٢٥

والرجال ، ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب ، قالت سعيـــدة بنت عاصم الخولاني : وكنت في جملة النساء يومئذ على التل ، فلما انكشفت ميمنـــة المسلمين ، صاحت بنا عقيرة بنت غفار ونادت يا نساء العرب دونكن والرجال (أي الهاربين) واحملن أولادكن على أيديكن واستقبلنهم بالتحريض .

فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل (المنهزمة) بالحجارة ، وجعلت ابنـــة ابن العاص تنادي : قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، وجعلت النساء يقلن لأزواجهن لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج .

موقف خولة بنت الأزور وهند بنت عتبة

قال العباس بن سهل الساعدي [1] كانت خولة بنت الأزور [2] وخولة بنت ثعلبة [3] الأنصارية ، وكعوب ابنة مالك بن عاصم ، وسلمى ابنة هاشم ، ونعم ابنة فياض وهند بنت عتبة [4] ولبنى ابنـــة جوير [5] الحميرية متحزمات ، وهن أمام النساء والمزاهر معهن ، وخولة تقول هذه الأبيات :

يا هارباً عن نسوة ثقات ... لها جمال ولها ثبات

---

(١) لم أجد له ذكر بين الصحابة في كتب التراجم .

(٢) خولة بنت الأزور امرأة شجاعة مشهورة ، ولكني لم أجد لها ترجمة بين الصحابيـــات ويظهر أنها لم تحضر زمن النبي (ص) أو لم تقابله .

(٣) هي خولة بنت ثعلبة بنت حكيم بنت مالك الأنصارية ، زوجة أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت .. هي التي أنزل الله تعالى فيها قوله عز وجل : لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها الآية) . قالوا : مر يوماً الخليفة الفاروق عمر فأوقفته عجوز فوقف ووقف الناس من خلفه ، فجعلت تحدثه ويحدثها فقال رجل : يا أمير المؤمنين حبست النـــاس على هذه العجوز . قال : ويلك ، تدري من هذه ؟ هي امرأة أنزل الله تعالى فيها قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا للصلاة ثم أرجع .

(٤) انظر ترجمتها في كتابنا الثاني (غزوة أحد) .

(٥) انظر الواقدي ج ١ ص ١٢٧ .

تسلموهن إلى الهنـــات تملك نواصينا مع البنات
أعـلاج فسق سوء عتـاة يصرن منهم لأعظم الشتات

قالوا : فلما سمع الفرسان المنهزمون من النساء هذا التعنيف في القول رجعوا رجعة عظيمة .

وخرجت هند بنت عتبة وبيدها مزهر ، ومن خلفها نساء من المهـاجرين ، وهي تقول الشعر الذي قالته يوم أحد :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق قيدي مع المرافق
ومن أبى نفارق أن تغلبوا نعانق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق
هل من كريم عاشق يحمي عن العواتق

ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم : إلى أين ؟ تنهزمون ، وإلى أين تفرون ؟ من الله ومن جنته ، هو سبحانه مطلع عليكم ، ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزماً ، فضربت وجه حصانه بعمودها وقالت : إلى أين يا بن صخر ، ارجع إلى القتال ، أبذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ تعني يوم أحد . فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام زوجته هند ، وعطف المسلمون معه ، وحمل النساء معهم على الروم وبأيديهن أعمدة الخيام ، وقد وثبت منهن امرأة إلى علج من علوج الروم وهو على فرسه فتعلقت به ، وما زالت به حتى طرحته عن جواده وقتلته وهي تقول : هذا بيان نصر الله المسلمين .

مجزرة الفدائيين وكسر الهجوم

وعندما أخجل النساء المنهزمين عادوا إلى الميدان يقاتلون بضراوة وحنق

وغيظ ، وسارع كل من عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان في إعادة تنظيم صفوف جناحه (الميمنة والميسرة) اللتين اخترقهما الرومان وأشاعوا الإضطراب فيهما حتى وصلوا إلى ساقة المسلمين حيث تجمع النساء على تل شهاب .

واحتدم القتال وخاصة بعد عودة المنهزمين بفضل وقفة النساء البطولية وراء الصفوف .

ولكن الرومان لم يخففوا من حدة هجومهم ، فقد ركزوا ثقل هجومهم على القلب حيث أبي عبيدة وخالد ، قاصدين تحطيم القلب وتمزيق صفوفه لأنه لم يبق ثابتاً متراصة صفوفه سوى القلب ، وثقل الهجوم على القلب ، ولاقى المرابطون فيه الأهوال من شدة الهجوم الروماني الذين دفعوا بمعظم قواتهم عليه . والواقع أن أعنف قتال وأشرسه دار يوم اليرموك حول قلب الجيش الإسلامي وأمام فسطاط القائد خالد بن الوليد بالذات .

كان عكرمة بن أبي جهل (وهو من بني مخزوم قبيلة خالد) من الصفوة التي اختارها خالد لتكون ضمن هيئة أركان حربه في القلب ، وكان عكرمة بصيراً بالحرب شجاعاً لا يبارى في الجاهلية والإسلام شأنه شأن خالد بن الوليد مع الفارق في بعض الأمور التي يتفوق فيها خالد . فهو من خريجي مدرسة خالد الحربية ، فكلاهما سيد من أشجع القادة في قريش ، لولا تعجل في عكرمة ، ولولا مكانته العالية وباعه الطويل في شؤون الحرب ، ما اختاره الخليفة الصديق لمصادمة مسيلمة الكذاب قبل خالد بن الوليد ، إلا أن صفة التعجل التي تؤخذ عليه جعلت مسيلمة ينكبه ، فكان أن عاقبه الخليفة بأن أرسله إلى أقصى الجزيرة ليحارب المهرة والحضارمة عام الردة ، ولكنه فعل فعل الأبطال حيث سحق المرتدين هناك سحقاً فرضي عنه الخليفة وأعاد اليه اعتباره كقائد من أبرز القادة في الإسلام .

قلنا : إن اشرس قتال دار يوم اليرموك قبال فسطاط القائد خالد بن الوليد في القلب حيث يرابط البطل عكرمة بن أبي جهل – وسبحان الذي ينتج من الشر خيراً – فأبوا جهل فرعون هذه الأمة وابنه عكرمة من الشجعان السادة المسلمين الغيارى على الإسلام .

عكرمة بن أبي جهل يقود الفدائيين ويستشهد

بعد تخلخل الميمنة والميسرة في الجيش الإسلامي ، تحرجت حالة القلب ، وصار يتعرض لسيل عارم من الجيش الروماني بغية تحطيمه ، واقترب المهاجمون الرومان في عناد من فسطاط القائد العام خالد بن الوليد وأبي عبيدة ، وكان عكرمة على رأس الحامية أمام الفسطاط يجالد الروم بسيفه ، فشق عليه أن يصل الحال إلى ما وصل اليه من التدهور ، وخشي أن يخترق الرومان حجاب القلب ، فيصلوا إلى مقر قيادة خالد فيصاب بسوء (وخالد لا يهاب الموت) ولكن لا بد من عمل جريء حاسم لمواجهة الموقف العصيب .

هنا على دم الإسلام الزكي في عروق عكرمة بن أبي جهل فصاح أمام الفسطاط بأعلى صوته : « قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفر اليوم ؟ لا والله : من يبايع على الموت ؟ » فتسابق أهل النجدة من المتعطشين للشهادة لمبايعة القائد عكرمة على الموت ، فكان في مقدمة الذين بايعوه على الموت سليمان ابن خالد بن الوليد [1] وابنه عمرو بن عكرمة [2] وضرار بن الأزور [3]

---

(١) لم أجد لسليمان هذا ذكر بين تراجم الصحابة ، ويظهر أنه من كبار التابعين من أبناء الصحابة .

(٢) لم أجد لعمرو هذا ذكر بين تراجم الصحابة . فهو من أبناء الصحابة ولا شك الذين لم يدركوا النبي (ص) أو لم يجتمعوا به .

(٣) تقدمت ترجمة ضرار بن الأزور في كتابنا (حروب الردة) .

والحارث بن هشام [1] ، ثم تتابع طلاب الشهادة على عكرمة حتى بايعه أربعمائة منهم .

فكون منهم عكرمة كتيبة فدائية (إن صح هذا التعبير) كان مهمتها حماية قلب الجيش الإسلامي والدفاع عن مقر القيادة العامة بالصمود في وجه عشرات الألوف من صناديد الروم المتدفقين في عناد على القلب ومقر القيادة العامة .

ثم حمل القائد البطل عكرمة بكتيبته الفدائية في هجوم مضاد (فيما يشبه الإنتحار) على جموع الروم المتدفقة على نياط قلب الجيش الإسلامي لتحطيمه ، فغاص عكرمة بكتيبته الفدائية وسط كتائب الروم ، صامداً في وجوههم وكتيبته بكل ما أوتوا من قوة ، وما زال يجالدهم ومن ورائه كتيبة الفداء الباسلة حتى فعل ما يشبه المعجزة .

إذ تمكن (ولكن بعد تضحيات باهظة) من إيقاف الهجوم الروماني المركز على القلب ، في الوقت الذي تمكن عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان من إعادة تنظيم الميمنة والميسرة اللتين مزقهما الهجوم الروماني ، وهكذا يسر عكرمة لعمرو ويزيد القيام من الميمنة والميسرة بهجوم معاكس كاسح على الرومان وفي حركة التفاف بارعة لأن جمهرة جيش الروم مشغولة بالهجوم على القلب بغية تحطيمه وقتل أو أسر القائد العام خالد بن الوليد .

ونجح الفدائيون بقيادة عكرمة في إيقاف زخم الهجوم الروماني المركز على القلب ، فخف الضغط كثيراً على مقر القائد العام ، ثم أخذ الموقف يتحول بسرعة مذهلة لصالح الجيش الإسلامي .

فقد تمكن عمرو بن العاص من تنظيم قوات الميمنة وهي التي (بعد القلب) تعرضت لأشد الهجمات وتمزقت لأنها كانت تقوم بسد الثغرة التي بين جيش الروم

---

(١) تقدم ذكره فيما مضى من هذا الكتاب .

وبين طريق إمداداتهم من دمشق ، تمكن عمرو من إعادة تنظيم قواتـــه وعاد المنهزمون إلى مواقعهم ، وأخذوا في شن هجوم معاكس على الرومان فاستعادوا مواقعهم في الميمنة التي فقدوا ، ثم أخذوا في مطاردة الروم .

و كذلك فعل يزيد بن أبي سفيان قائد الميسرة ، إذ عاد اليه المنهزمون فأعاد تنظيم قوات الميسرة وشن بهم على الرومان هجوماً عنيفاً ، فاشتد ساعد القلب ، وأدرك الروم الذين يحاولون تحطيم قلب جيش الإسلام واحتلال مقر القائد العام أدركوا تغير الوضع والهجوم العنيف المعاكس الذي قامت به قوات ميمنة وميسرة المسلمين ، فسادهم الاضطراب ، وتوقف هجومهم ، بل أخذوا في التراجع بحثاً عن السلامة ، واغتنم القائد خالد الذي كان في أشد صراع في القلب مع الروم ، لأنه ورجال القلب لم ينهزموا ، إغتنم خالد الفرصة عندما رأى الميمنة والميسرة تعودان إلى حالتها من الثبات ، فأمر بالهجوم العام على الرومان ، فاستجـــاب المسلمون ، وقام الجيش الاسلامي كله بهجوم شامل معاكس على الروم .

وبالتنسيق مع الميمنة والميسرة نجح هذا الهجوم المعاكس ، فقـــد تحول إلى مطارده للرومان ، وهكذا تحول الوضع وتغير تماماً لصالح المعسكر الاسلامي ، وبدأت علائم النصر الحاسم تلمع في الأفق ، ولكن كل نصر (بعـــد انتكاسة له ثمن غال) .

فقد كان ثمن إيقاف هجوم جمهرة الروم على مقر القيـادة العامة هو مصرع أربعمائة ، وهم الفدائيون الذين استشهدوا وفي مقدمتهم قائدهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وسلـــيمان بن خالد بن الوليد ، وبالجملة فقد أبيدت كتيبة الفدائيين عن آخرها ما عدا عدد قليـــل بينهم ضرار بن الأزور الذي أصيب بجراح ثخينة . وهم يصارعون السيل المتدفق من صناديد البيزنطيين على قلب الجيش لتحطيمه وقتل القائد العام .

عكرمة يلفظ أنفاسه في أحضان خالد بن الوليد .

وكم كان المنظر مؤثراً حينما جيء بالقائد عكرمة وهو يجود بنفسه إلى القائد خالد فأسند رأسه الشريف إلى فخذه وهو ينزف من جراحاته الغائرة التي أصابه الرومان بها وهو يجالدهم مع كتيبته الفدائية أمام قسطاط القائد خالد الذي كان يدير دفة المعركة بمساندة أبي عبيدة ، ويحافظ ببسالة خالد المعروفة على استقامة صفوف القلب من أن تصاب بالتصدع والتمزق كما حدث للميمنة والميسرة حينما اقتحمها الرومان فاخترقوهما .

لقد ذكر الطبري أن رجال الاسعاف أتوا إلى القائد العام خالد بعكرمة وابنه عمرو وبهما جراحات قاتلة (بعد أن فتر الهجوم الروماني على المقر) فوضع خالد رأس عكرمة على فخذه ، ووضع رأس ابنه عمرو على ساقه وجعل ينفض الغبار ويمسح الدم عن وجهيهما ، ويقطر الماء في حلقيهما ويقول :

« كلا : زعم ابن الحنتمه – يعني ابن الخطاب – انا لا نستشهد [1] ثم فارق عكرمة وابنه عمرو الحياة رضي الله عنهما ورأسيهما على فخذي خالد بن الوليد » .

الموقف الرائع لعمرو بن معد يكرب

كان عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن ممن حضر اليرموك ، وكان قد بلغ مائة وأربعين سنة ، وكان من الخطاطين (أي الذين إذا ركبوا الفرس تخط رجلاهم في الأرض) .

عمرو هذا عندما رأى الحالة في عامة جيش الاسلام قد تحرجت ورأى الناس تنهزم ثبت ووقف كالليث ، وكانت قوته وشجاعته مضرب الأمثال ، كان يطعن الرجل والرجلين والثلاثة فينظمهم جميعاً في طعنة واحدة فيخترقهم الرمح جميعاً .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٠١

وكان عمرو في ميمنة المسلمين ، فعندما رأى الروم يكتسحونهـا ورأى انكشاف المسلمين وتركهم مواقعهم هرباً لشدة حملات الروم ، صاح بقبيلتـه اليمانية (زبيد) :

« عار عليكم ارجعوا إلى ميدان الشرف » فالتف حوله من قبيلته في الحال خمسمائة مقاتل وثبتوا إلى جانبه ، وقاتلوا تحت إمرته الروم قتـالاً شرساً ، مما ساعد قائد الميمنة عمرو بن العاص على إعادة تنظيم صفوف ميمنتـه التي هدمها الرومان في هجومهم الكاسح في المرحلة الأولى .

بطولة أبي هريرة

كذلك وقف راوية الحديث الشهير أبو هريرة ساعة المحنة وقفة رائعة : فقد ذكر الامام الطبري أن أبا هريرة (وهو من قبيلة دوس) لما رأى قومه تركن إلى الفرار صاح بهم لائماً : يا بني دوس سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم في جنات النعيم ، فخجلوا لما سمعوا قوله ، ثم عطفوا نحوه والتفوا حوله في الميمنة وثبتوا يقاتلون بشجاعة وصدق حتى تمكن عمرو بن العـاص من سد الثغرات الفاحشة التي أحدثها هجوم الروم في الصفحة الأولى من القتال .

وفي الواقع أن عمرو بن العاص كان (باستثناء القلب) أكثر الجبهات تعرضاً لشراسة الهجوم الروماني لأنه يواجه ميسرتهم التي تحمي خطوط إمداداتهم من دمشق ولأنه تمكن من قطع هذه الخطوط ، لهذا صار عرضة لثقـل الهجوم الروماني . فعانى الأهوال منهم ، بدليل أن الروم هدموا صفوف ميمنته مرتين ففي المرة الأولى اخترقوها ، فصابر وجاهد حتى أعاد تنظيمها وسد ثغراتها ، فكروا عليه من جديد واخترقوا ميمنته ، فاشتد عليـه الأمر ، ولكن موقف عمرو بن معد يكرب وأبي هريره وقبيلتيهما وعملية الفدائيين الأربعمائة بقيادة عكرمة خففا عليه الوطأة ، فتمكن للمرة الثالثة من تنظيم صفوف ميمنتـه ،

ثم شارك بفعالية في الهجوم المعاكس على الروم والذي انتهى بهزيمتهم الساحقة.

بطولة سعيد بن زيد العدوي

كان سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل صهر عمر بن الخطاب من أوائل المهاجرين والسابقين الأولين ، وكان من الفرسان الذين شهدوا معركة اليمامة الرهيبة وأبلوا فيها بلاء حسناً ، حيث كان من أهم العناصر التي ساهمت في تحقيق النصر على مسيلمة الكذاب وإبادتهم ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة : سعيد بن زيد هذا كان في الميسرة وكان أهل الميسرة أكثر انهزاماً من أهل الميمنة ، فلما رأى (والقائد يزيد بن أبي سفيان إلى جانبه) الروم يتقدمون نحو ميسرة المسلمين ، والمسلمون يفرون من أمامهم لكثرتهم الغامرة التي تفوقهم عدة أضعاف ، زيد البطل هذا اقتحم الأرض وجثا على ركبتيه ، ثم ثار في وجوه الروم وصار يقاتلهم قتال الذي لا أمل له في الحياة ، فيلتف عليه من العشرة والخمسة عشر ، فيفرقهم بعد أن يصرع عدداً منهم .

وما زال زيد وقائد الميسرة يزيد هكذا حتى ثاب المنهزمون إلى رشدهم (وخاصة بعد أن عنفهم فريق نساء تل شهاب) وشرعوا في شن الهجوم المعاكس على الرومان بحنق وغيظ .

وقد سقط عدد كبير من شهداء المسلمين أثناء عملية تصحيح اهتزاز ميسرتهم وميمنتهم عند الصدمة الأولى لأن الرومان ركبوا أكتاف المسلمين ساعة انكشاف ميمنتهم وميسرتهم ووضعوا فيهم السيف .

ولولا ثبات أصحاب الرايات وقادة الفرق والكتائب وأهل النجدة (وبصفة خاصة) وحدة الفدائيين التي قادها عكرمة وأبيدت عن آخرها حين تصديها لهجوم الروم على قلب الجيش الإسلامي ومقر القيادة العامة ، لكانت هزيمة الجيش الإسلامي كاملة منكرة .

وإلا فماذا بعد انكشاف قلب الجيش بانهزام وفرار رجال الجناحين الميسرة والميمنة ؟ وإعطاء قادة الروم الفرصة ليركزوا هجومهم في حرية على مقر خالد ابن الوليد وقائد القلب أبي عبيدة بن الجراح اللذين ثبتا ثبوت الجبال الراسية ، ولم يسمحا لأي خلل يصيب طوابير القلب الذي قصده الروم بهجماتهم في عناد وإصرار لتحطيمه حتى تنتهي المعركة لصالحهم فيقتل القائد خالد أو يؤسر ؟

فتور حدة الهجوم الروماني

وللجهد الشديد الذي بذله الرومان في هجومهم عند الصدمة الأولى وبسبب صمود القلب بقيادة خالد وأبي عبيدة وللموقف البطولي الدي وقفته كتيبة الشهادة (أربعمائة مقاتل) والذين استشهدوا جميعاً بمن فيهم قائدهم عكرمة ما عدا نفر قليل فيهم ضرار بن الأزور الذي جرح جراحات بالغة ثم شفي منها ، ورغم نجاح الرومان في اختراق ميمنة وميسرة المسلمين في المرحلة الأولى من المعركة ، إلا أن المقاومة كانت من المسلمين وقتالهم (حتى وهم يتركون مواقعهم) كانا عنيفين ، يدل على ذلك أن رجال ميمنة المسلمين عندما تركوا مواقعهم تحت ضغط الهجوم الشديد وبعد قتال شرس ، واحتلها الرومان عادوا وطردوا الرومان من هذه المواقع ، ثم عاود الرومان الهجوم واستولوا على نفس المواقع ، فجمع المسلمون شتاتهم واستعادوا مواقعهم في المرة الثانية ، كل هذا يحدث في ظل قتال شرس عنيف ضار كانت (بالطبع) خسائر الرومان فيه فادحة ، والرومان أقل صبراً على القتال من العرب ، وخاصة إذا طال أمده .. لذلك كله فتر الهجوم الروماني وأخذ اليأس يتسرب إلى نفوسهم ، فأخذ الوهن يدب إلى قلوبهم والحماس ينحسر عنهم ، مع التبلد الذي بدا واضحاً على فرسانهم المكلفين بحماية القوات الضاربة المشاة المكلفة بتحطيم قلب الجيش الإسلامي الذي صمد صموداً رائعاً بقيادة خالد وأبي عبيدة رغم انهزام الميمنة والميسرة مرتين .

والفتور والتبلد اللذان بدءا على جمهرة الجيش الروماني لطول الكر والفر دون نتيجه حاسمة ، رغم تمكنهم من اختراق طوابير الميسرة والميمنة للمسلمين ، هما اللذان هدف اليهما خالد حينما أصدر أمره إلى قادة الوحدات الإسلامية بأن تلتزم جانب الدفاع في المرحلة الأولى من القتال حتى يفتر حماس الرومان ، لأنه يعرف أن الروم يقذفون بكل طاقاتهم في بدء أي هجوم يقومون به ليكسبوا نصراً حاسماً سريعاً ، لأنهم (بطبيعة تكوينهم الحربي) لا يتحملون تطويل القتال ، وذلك لثقل المعدات التي يحملونها (فرساناً كانوا أم مشاة) وذلك عكس العرب الذين هم خفيفوا الحركة لخفة المعدات التي عليهم حتى أن البعض منهم يفضل أن يقاتل حاسراً على أن يقاتل مدرعاً وحافياً على أن يكون منتعلاً ، ليستطيع الكر والفر بخفة فائقة ، ويكون لذلك أصبر كلما طال أمد القتال .

ولخفة حركات المسلمين مشاة وعلى سروات الخيل صاروا يجيدون حروب الصاعقة التي من لوازمها خفة ما يحمل المحارب ، والروم لا يخافون شيئاً مثل خوفهم من حرب الصاعقة التي يعرفون عن العرب القدرة الفائقة على القيام بها ، ولهذا اختاروا في اليرموك المرتفعات كما أمرهم هرقل ، لأن الأمكنة الواسعة المنبسطة أصلح للعرب من الروم في القتال لأنها تمكنهم من الكر والفر بخفة وسرعة وحرية تجعلهم يمارسون حرب الصاعقة التي تكون فيها خسائرهم لا تذكر بينما ينزلون أفدح الخسائر بالرومان لترهلهم (كما قال الجنرال جلوب) ولثقل ما يحملون من أدوات الحرب التي تعوقهم عن خفة الحركة .

ولذلك أفادهم اختيار مواقع اليرموك ذات المسالك الضيقة الوعرة ، واستفادوا منها في تكتيكهم في المرحلة الأولى من المعركة ، حيث مزقوا ميمنة وميسرة المسلمين وركبوا أكتافهم وكادوا ينزلون بهم الهزيمة الساحقة لولا عامل

الإيمان وثبات العقيدة ، وقيام الفدائيين الأربعمائة بهجومهم المضاد الصاعق ، وثبات طوابير القلب رغم الإرهاق الذي أصابها من الهجمات العنيفة التي شنتها عليها قوات الروم الضاربة من المشاة تحت حماية ثمانين الف فارس من الروم والأرمن والعرب المتنصرة .

هزيمة الروم الساحقة

كان خالد مع ما يعانيه من شدة الحملات الرومانية يرقب المعركة بدقة ، وبإحساس القائد العالمي المرهف يتحسس معنويات جمهرة الجيوش الرومانية وهي تقاتل ، وكان يترقب بفارغ الصبر فتور حماسهم في الهجوم الذي كان (بحكم خبرته الخارقة) يعلم أنه سيصيبهم رغم كثرتهم ورغم كسبهم الجولة الأولى .

وفعلاً ، لقد طالت ساعات المعركة إذ بدأت ببزوغ الشمس واستمرت حامية حتى ما بعد العصر ، دون أن يحرز الرومان نصراً حاسماً على المسلمين .

الأمر الذي ضجر له جند الروم فرساناً ومشاة ، وفتر حماسهم ، فخف ثم توقف هجومهم على طوابير المسلمين التي استقامت بعد تمزقها ، وبدأت الفوضى تسود صفوف الجيش الروماني الضخم الذي تصعب على قادته السيطرة عليه عندما يضطرب ، لأنه يبلغ قرابة ربع مليون مقاتل .

هنا اغتنم القائد خالد الفرصة (وكانت ذهبية) فسارع إلى تعبئة احتياطيه في غمرة اضطراب جيش الروم الذي خسر ما كسب من مواقع في الجولة الأولى ، ثم أمر خالد جميع قطعات الجيش بالهجوم الشامل الكاسح على الروم الذين بدأت الفوضى تسود صفوفهم ، وأخذ الوضع يتحول بسرعة ضدهم .

فصدعت الفيالق الإسلامية بالأمر وشنت هجومها على الرومان ، ونهد القائد خالد من القلب وقاد الهجوم الشامل .

وأخذ جيش الإسلام يضغط بشراسة على الجيش الروماني الذي قد نال

منه التعب إلى حد الإعياء لمباشرته الهجوم العنيف على المسلمين دون جدوى طوال النهار .

ولم يستطع الجيش الروماني المرهق الصمود في وجه هجوم المسلمين المعاكس، فاضطربت وحداته وانفرط عقد نظامها .

وكان أقوى ما في الجيش الروماني سلاح الفرسان وهو ثمانون الفاً ، وهذا السلاح ناله أيضاً الفتور ، كان خالد يخشاه ، وكان عمرو بن العاص عندما أعاد تنظيم الميمنة التي تمزقت طوابيرها رجع فقفل الثغرة التي تركها الرومان بين ميسرتهم وبين ميمنة المسلمين مفتوحة نحو دمشق لتكون خطاً للتموين ومنفذاً للانسحاب نحو دمشق إذا ساءت الحالة بالنسبة لهم .

أخذ فرسان الروم وهم (كما قلنا ثمانون الفاً) .. أخذوا بعد أن ملوا الكر والفر وفتر حماسهم يجولون حول أنفسهم ، ويبحثون عن مخرج يتركون عن طريقه ميدان المعركة ، ومع ذلك صاروا يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم قتالاً شرساً مجبرين ، وأدرك القائد خالد ذلك ، وعلم (كقائد عام) أن المخرج الوحيد لفرسان الروم لترك الميدان هو الثغرة التي تقع بين ميمنة المسلمين التي يقودها عمرو بن العاص وبين ميسرة الروم والتي قام عمرو بقفلها .

وهنا وعندما لحظ خالد أن فرسان الروم يبحثون عن مخرج يهربون منه بعد أن يئسوا من النصر ، أصدر أمره السريع إلى قائد الميمنة عمرو بن العاص ،بأن لا يقاتل فرسان الروم ، وأن يأمر وحداته بفتح الثغرة بين الميمنة والميسرة ليذهبوا عبرها سليمين حيث شاءوا ، لأن بقاءهم محصورين لا يجدون منفذاً يجبرهم على القتال دفاعاً عن النفس ، وذلك يكلف المسلمين تضحيات كبيرة .

وسارع عمرو إلى تنفيذ أمر القائد خالد ففتح الثغرة نحو دمشق ، فتدفق عبرها حوالي ثمانين الف فارس من الروم تاركين الميدان ، وتاركين القوات

الرومانية الضاربة المشاة دونما حماية ، وهذا هو الهدف الرئيسي الذي هدف اليه خالد من الأمر بعدم التعرض لفرسان الروم أثناء انسحابهم ، بالأمر بفتح الفرجة المقفولة في وجههم نحو دمشق .

فكانت عملية خالد بالنسبة للسماح بفرسان الروم بالانسحـــاب من أروع تصرفاته الحربية يوم اليرموك ، حيث كانت حركة رائعة .

لأن ترك فرسان الروم الميدان جعل قوات الرومان الضاربـــة وهم المشاة يقاتلون بدون حماية ، لأن وظيفة الثمانين الف فارس هي حماية القوات الضاربـة (المشاة) من الجناحين .

وهكذا كان فرار فرسان الروم من الثغرة نحو دمشق وغيرها أكبر نقطة تحول في الوضع القتالي في اليرموك ، إذ تحول الوضع لصالح المسلمين مائة في المائـة ، لأنهم انفردوا بالمشاة الرومان الذين تركوا بدون حماية بعد انسحاب فرسانهم من الميدان ، وزاد حالة الروم سوء أن كان لدى المسلمين في الميدان عشرة آلاف فارس ، ليس في الميدان فارس روماني واحد يواجههم ، وزاد حالة الروم سوء أكثر فأكثر ، أن ثمانين الفاً من مشاتهم كانوا مترابطين في السلاسل ، مما سهل على جند الإسلام إبادتهم عن بكرة أبيهم إما ضرباً بالسيف أو دفعـاً إلى الواقوصة وهي هاوية سحيقة بين جبلين في اليرموك .

لقد سيطرت القوات الإسلامية (بعـد فرار فرسان الروم) على ميدان المعركة ، وصاروا يضعون السيف في مشاة الروم كيف شاءوا وصار المقرنون في السلاسل من الرومان يهو بعضهم ببعض في الواقوصة حتى أُبيد الجميع عن بكرة أبيهم . فكانت هزيمة مدمرة لم يشهد الرومان مثلها في تاريخهم ، ولم تنج إلا قلة قليلة من المشاة تمكنوا من الهرب.

ويقدر الأستاذ بسام العسلي في كتابه (فن الحرب) قتلى الرومان بمائة وعشرين الفاً . وقتلى المسلمين بثلاثة آلاف .

ثبات قادة الجيش الروماني حتى قتلوا

أما قادة الجيش الروماني الكبار وهم تيودور أخو هرقل ، وماهان الأرمني والتذارق ، والفيقار ، فقد ثبتوا ولم يفروا ، وقالوا : إننـــا نفضل الموت على الهرب ، ولا نحب أن نرى يوم السوء ، إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية . فقتلوا جميعهم مع عدد من أشراف الروم الآخرين الذين فضلوا الموت على الفرار ، اللهم إلا القائد (التذارق) فإنه أُخذ أسيراً .

أما القائد الروماني جرجة الذي أسلم على يد خالد بن الوليد فقـد استشهد وهو يقاتل إلى جانب خالد بن الوليد [1] .

المطاردة

وعندما سيطر المسلمون على ميدان المعركة ، وأخذت بقايا فلول الرومان تترك الميدان هرباً . أصدر الأمير خالد أمره إلى عدة وحدات بأن تقوم بمطاردة الفارين من الروم .

فقامت هذه الوحدات بالمطاردة متفرقة في عدة اتجاهات ، لأن المنهزمـين هربوا في كل اتجاه ، وقد نجح المطاردون ، فتمكنوا (أثناء المطاردة) من قتل أربعين الفاً من الروم [2] .

وهكذا أحرز خالد للإسلام نصراً لم يسجل مثله قائد من القادة ، ومنذ تلك اللحظة ، أصبح فى حكم المقطوع به وقوع الشام بأكملها في قبضة المسلمين .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٠٠

(٢) فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين ص١٢٣

لأن الفريقين (كما قلنا فيما مضى من هذا البحث) كانوا موقنين أن الذي يكسب معركة اليرموك يكون سيد الشام بلا منازع.

أما بالنسبة للرومان فإن مصيبتهم في اليرموك ، كانت مصيبة لم يصابوا بمثلها طيلة عهودهم ، وحتى في أشنع هزائمهم أثناء حروبهم مع الفرس .

لأنه لم يحدث وأن أبيد لهم جيش بمثل هذه الضخامة في معركة واحدة .

إعتراف المصادر الأجنبية بإبادة الروم في اليرموك وامتلاكهم الشام

وقد اعترفت المصادر الأجنبية بالانتصار الساحق الذي حققه المسلمون على الرومان في اليرموك ، كما اعترفت بإبادة الجيش البيزنطي ومحوه من الوجود .

فقد قال الجنرال جلوب باشا الإنجليزي في كتابه (الفتوحات الكبرى [٣] – وهو يصف معركة اليرموك – :

« ولما كان العرب قد قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر ، فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها (تيودورس) نفسه ، ولم يحل صباح اليوم التالي حتى كان جيش الروم الذي قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ، ويبذل كل ما في وسعه لإعداده ، وقد زال من الوجود ، فلم يكن هناك إنسحاب أو عمليات تغطية خلفية ، أو نواة لناجين من القتال .. لم يكن هناك شيء على الإطلاق ، ولم يبق من الروم إنسان ، وعندما سمع هرقل الهرم – وكان في أنطاكية – بأن جيشه قد ابيد عن آخره أدرك بأن القرار أصبح حاسماً ، وراح يودع البلاد المقدسة التي حارب طويلاً لاسترجاعها من الفرس ، ليعود فيخسرها للعرب بقوله : – سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده – وراح يمتطي جواده ليعبر جبال طوروس متجهاً إلى الغرب ، ولقد انتهت بمعركة اليرموك العمليات النشيطة التي تمثلت في احتلال العرب لسوريا ، فلقد عاد أبو عبيدة إلى الزحف شمالاً

فاستعاد دمشق وحمص وبعلبك وغيرها من المدن التي كان العرب قد جلوا عنها أثناء هجوم الروم ، وقد استقبلت جيوش العرب في أماكن عدة استقبالاً حسناً مصحوباً بالرقص والأهازيج »[1] .

وقال المؤرخ هـ.ج. ولز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٦٤٥ ٧ ب ٣ لجنة التأليف والنشر والترجمة :

« كان كلا الطرفين (فارس والروم) يستعمل الجنود المرتزقة العرب أوسع استعمال ، وكان في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات المتناثرة للعرب المتنصرة ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس ، وكانت طرق الفرس الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء ، تحت نفوذ أمير عربي تابع لمقر إمارة الحيرة .

وكان سلطان العرب قوياً في مدن الشام من أمثال دمشق ، حيث كان السادة من مسيحيي العرب يقرأون ويتلون آخر قصائد المتبارين من الشعراء في الصحراء ، وبهذا كان أمام الإسلام كمية كبيرة من المواد اليسيرة التمثل مهيأة في متناول اليد ..

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك ، من ألمع ما خلد تاريخ العالم ، فقد أصبحت بلاد العرب على الفجأة بستاناً من رجال ممتازين ، ويبرز إسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه في مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء .

فحيثما حل قائداً لجيش انتصر ، ولما أن خلعته غيرة الخليفة عمر ظلماً منه لا يغتفر (كذا) لم يحدث أي ضجة ، بل خدم الله في سرور وإخلاص تحت

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى ص ٣٠٨-٣٠٩-٣١٠

إمرة الذين كان كبيراً عليهم [1] ، ولسنـــا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحرب هاهنـــا ، فإن الجيوش العربيـــة ضربت في نفس الوقت سوريا البيزنطية ، ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية ، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس أشياء ثلاثـة : فإما أن تدفع الجزية ، وإما أن تسلم بالله الحق وتنضم الينا ، وإما أن نقاتل .

فالتقوا بجيوش كبيرة ومنظمة ، ولكنها جيوش جوفاء ، لا روح فيها ، فهزموها. ولم يحدث في أي مكان شيء إسمه المقاومة الشعبية .

فإن سكان أراضي الري والزراعة الآهلة في بلاد الجزيرة (أي بين النهرين في العراق) لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر ، أن يـــدفعون الضرائب إلى بيزنطـــة أو برسيبوليس [2] أو المدينة .

فإن فاضل الناس بين البلاط الفـــارسي وبين العرب (أعني عرب السنين العظيمة) أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظـــاهر ، وكانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة .

وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة [3] ، كذلك انضم اليهم كثير من اليهود ، وكما كان الحال في الغرب كان كذلك الحال في الشرق ، إذ تحول

---

(١) لم يكن ما حدث من عمر بالنسبة لخالد عن غيرة ولا ظلم ، ولكن عن اجتهاد ، فهو يرى في خالد أموراً قد تضر بالصالح العام ، مثل افتتان الجند به ، فقد أورد ابن الأثـير في الكامل ان عمر قال لخالد : يا خالد ، والله أنت علي كريم وانك إلي لحبيب ، وكتب إلى الامصار (أي العواصم) : اني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن توكلوا اليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع والا يكون بمعرض فتنة (الكامل ج ٢ ص ٢٦٤) .

(٢) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من شيراز الحالية .

(٣) هذا الكلام بعيد عن الصواب فقـــد كان المسيحيون سواء في العراق أو في الشام رأس الحربة في الحروب التي دارت بين الفرس والمسلمين وبين المسلمين والروم .

الغزو إلى ثورة اجتماعية ، ولكنها كانت هاهنا ثورة دينية أيضاً لها حيوية ذهنية جديدة متميزة) .

ثم يتحدث المستر (ولز) في كتابه عن معركة اليرموك فيقول :

« وكان خالد هو الذي قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك ، وهو أحد روافد الأردن ، وكانت الكتائب — كما كان حالها على الدوام — خلواً من الفرسان الصالحين .

ولقد ظل كراسوس الشيخ سبع قرون وهو يتردد على الشرق عبثاً ، فكانت الجيوش الإمبراطورية تعتمد على الجنود العربية المسيحية في أعمال الخيالة ، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان [1] .

وأقام الجيش البيزنطي موكباً عظيماً من القساوسة والرايات المقدسة ، والصور والآثار القدسية ، وساعدهم في ذلك الرهبان بتراتيلهم ، ولكن لم يكن هناك في الآثار أي سحر ، ولم يكن إلا القليل من الاعتقاد في الترتيل .

فأما في الناحية العربيـة ، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيش بخطبهم ، وانطلقت أصوات النساء في المؤخرة تشجيعاً لرجالهن حسب العادة العربية القديمة .

وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان لا يسطع أمام نواظرهم إلا أمران ، النصر أو الفردوس ، ولم يكن في المعركة شك بعد انحيـاز الراكبة غير النظامية .

---

(١) لست أدري من أي مصدر استقى المؤلف (ولز) هذا الكلام ، فالمعروف والمجمـع عليه عند المؤرخين أن العرب المتنصرة كانوا رأس الحربة في جيش الإمبراطورية الرومانية طيلة حربها مع المسلمين ، ولم يـذكر أحد من المؤرخين الذين سجلوا أحداث اليرموك أو غيرها من المعارك الكبرى أن هناك خيانة حدثت من متنصرة العرب بانضمامهم ساعة الإلتحـام إلى العرب المسلمين ، بل كان العرب المتنصرة في كثير من المعارك (كمعركة مؤتـة) في الأردن أشد على المسلمين من الرومان ، حتى أن قائد هؤلاء العرب المتنصرة قتله المسلمون وهو يذود عن الإمبراطورية البيزنطية . مزيد من الرد الواسع في كتاب المجتمع الإسلامي ج ٢ ص ٢٩ وما بعدها .

وانقلبت محاولة التراجع إلى تشتيتة ، ثم تحول الأمر إلى مذبحة ، وكان الجيش البيزنطي يحارب وظهره إلى النهر الذي أصبح للوقت مليئاً بأشلاء قتلاه.

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى في بطء عن سوريا لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يمض على استردادها من يد الفرس إلا زمن قصير ، وسرعان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك دخل المسلمون أنطاكية ، ثم اضطروا إلى أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان ، حيال جهد بذلته القسطنطينية ، على أنهم ما لبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين فيها إلى آخر الدهر » اهـ .

وقال المستر ول ديورنت في كتابه (قصة الحضارة) ج ١٢ ص :

« ولما أن وصل خالد وجنوده (أي من العراق) إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر اليرموك ، على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق ، كانت تلك المؤن (أي التي أصحبها عبر صحراء السماوة من العراق)قد نفدت ، وهناك هزم أربعين الفاً ٤٠٠٠٠ من العرب ٢٤٠٠٠٠ مائتين وأربعين الفاً من الروم في المعارك الفاصلة التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤) ، وهكذا قامر الإمبراطور هرقل ببلاد الشام في معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت البلاد قاعدة الدولة العربية الآخذة في الاتساع) .

ويقول (ديورنت) : وبينما كان خالد يقود جيشه إلى النصر في هذه المعركة إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر ويأمره الخليفة عمر الجديد فيها أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة ، وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة : ثم يقول المستر ديورانت : ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة ملؤها الشهامة ، وما هو أجمل من الشهامة ، فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط ، وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد في شؤون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر .

وكان العرب فرساناً مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم، ولم يكن في أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية المحيرة أو سرعة كرهم أو فرهم ، وكانوا يحرصون على أن يختاروا للنزال الأراضي المستوية التي توائم حركات الفرسان ، واستولى العرب على أنطاكية عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس في عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت بلاد الشام في أيدي المسلمين » قصة الحضارة ج ١٣ ص ٧٤ — ٧٦) .

عودة إلى المنطلق

وهذا بعض وصف نهاية معركة اليرموك الذي جاء في تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٩٧ وما بعدها قال :

« شهد اليرموك الف من أصحاب رسول الله ﷺ ، فيهم نحو من مائة من أهل بدر . وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ، فيقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب ، وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك ، وأمر خالد عكرمة والقعقاع ، وكانا على مجنبتي القلب ، فأنشبا القتال ، ومن أدب المعركة ، جادت قريحة القعقاع البطل بالشعر فقال :

يا ليتني القاك في الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد
وأنت في حلبتك الوراد

وقال عكرمة :

قد علمت بهكنة الجواري أني على مكرمة أحامي

فنشب القتال ، والتحم الناس ، وتطارد الفرسان .

وبعد أن يذكر الطبري قصة إسلام القائد الروماني جرجة فيقول :

وحملت الروم مع انقلاب جرجة إلى خالد ، وهم يرون أنها منه حملة، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا الحامية ، الذين عليهم عكرمة والحـــارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة ، والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس ، فثـــابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم ، فزحف بهم خالد حتى تصـــافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ،ثم أصيب جرجة (أي قتل) ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتـــين أسلم عليهما ، وصلى الناس الأولى والعصر إيماء ، وتضعضع الروم ، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم .

وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب ، فلما وجدت خيلهم مذهبـــاً ذهبت ، وتركوا رجلهم (أي مشاتهم) في مصافهم ، وخرجت خيلهم تشتـــد بهم نحو الصحراء ، وأخر الناس الصلاة ، حتى صلوا بعد الفتح .

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب ، أفرجوا لها ، ولم يحرجوها ، فذهبت فتفرقت في البـــلاد وأقبل خالد والمسلمون على الرجل – أي المشاة – ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط ، فاقتحموا في خندقهم ، فاقتحمـــه عليهم ، فعمدوا إلى الواقوصة (وهي هوة سحيقة بين جبلين) حتى هوى فيها المقترنون (أي في السلاسل) وغيرهم.

فمن صبر من المقترنين للقتال هوى بـــه من خشعت نفسه ، فيهوي الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى إثنان كانت البقية أضعف، فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة الف ، ثمانون الف مقترن ، وأربعون الف مطلق ، سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجل .

وتجلل الفيقـــار وأشراف من أشراف الروم برانسهم ، ثم جلسوا وقالوا :

لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية .

وقال الطبري في موضع آخر من تاريخه ج ٣ ص ٤٠٣ :

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن مطرح عن القاسم عن أبي أمامة وأبي عثمان عن يزيد بن سنان عن رجال من أهل الشام ومن أشياخهم قالوا : لما كان اليوم الذي تأمر فيه خالد هزم الله الروم مع الليل ، وصمد المسلمون العقبة ، وأصابوا ما في العسكر ، وقتل الله صناديدهم ورؤوسهم وفرسانهم ، وقتل الله أخا هرقل ، وأخذ التذارق ، وانتهت الهزيمة إلى هرقل ، وهو دون مدينة حمص ، فارتحل فجعل حمص بينه وبينهم ، وأمر عليهم أميراً وخلفه فيها ، كما أمر على دمشق ، واتبع المسلمون الروم حين هزموهم خيولاً يشنفونهم (أي يطردونهم) .

وصف المقدم ياسين سويد المعركة

ويصف الضابط اللبناني المقدم ياسين سويد ضراوة معركة اليرموك فيقول في كتابه (معارك خالد بن الوليد) ص ٢٦٧ :

(قام جيش الروم بهجوم عام على الجيش الإسلامي وحملت ميسرته على ميمنة المسلمين وفيها قبائل الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد ، فصمد هؤلاء في وجه الروم وقاتلوهم قتالاً شديداً ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود طويلاً فأزالهم الروم عن مواضعهم ، فانكشف قلب الجيش الإسلامي من ناحية الميمنة ، وباتت هزيمة المسلمين وشيكة ، إذ استطاع الروم إحداث ثغرة في صفوف المسلمين والتسلل منها حتى مؤخرتهم ، فخشي هؤلاء حركة تطويق من قبل العدو ، وكان قد صمد منهم نفر باسل من أصحاب الرايات ظلوا يقاتلون تحت راياتهم .

وانكشفت قبيلة زبيد وهي في الميمنة ، فانبرى عمرو بن معدي يكرب الزبيدي ونادى قومه : أن التفوا حولي ، فالتفت حوله ما يقارب الخمسمائة يقاتلون .

ثم برز أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ ونادى قبيلة الأزد : أن سارعوا إلي إلى الحور العين وجوار ربكم في جنات النعيم ، فالتف حوله قومه كذلك يستبسلون .

وكان النسوة يرجمن الفارين من جند المسلمين بالحجارة ويعبن عليهم هربهم وتخليهم عن عرضهم وأطفالهم وذراريهم ، فثاب الناس إلى رشدهم وثبتوا ، واشتدت قبائل حمير وحضرموت وخولان بعد أن كان الروم قد أزالوهم عن مواضعهم فثبتوا وصمدوا من جديد فاضطرب الروم وصاروا يجولون في مجال واحد كما تدور الرحى .

ولما رأى خالد قيلق الروم يرتد ويتراجع أمر بالهجوم العام ، ثم انقض بجنده على الروم مشرعاً سيفه واشتد الهجوم الإسلامي ، وتوغل المسلمون في قلب الجيش الرومي حتى وصلوا إلى قائد ميسرته فقتلوه .

استهدفت حملة خالد المعاكسة قلب جيش الروم وميسرته ، وكان في ميمنة الروم يدعى (قناطر) فحمل على المسلمين ، ولا سيما قبائل كنانة ، وقيس ، وخثعم ، وجذام ، وقضاعة ، وعاملة ، وغسان ، وكانت في الميسرة من الجيش الإسلامي فأزالها عن موضعها ، فانكشف قلب الجيش الإسلامي من ناحية الميسرة ، وركب الروم أكتاف من انهزم من المسلمين حتى دخلوا معسكرهم .

ولكن النساء كن في المؤخرة استقبلن المنهزمين بالحجارة والعصي يضربنهم بها على وجوههم وخيلهم ويقلن لهم : أين عز الإسلام والأمهات والأزواج .

فخجل المنهزمون بهزيمتهم ، وعادت حميتهم المستثارة فانعطفوا نحو العدو

يقاتلونه من جديد حتى استطاعوا أن يزيحوه عن المراكز التي كان قد انتزعها منهم .

واستبسل في هذه المرحلة من القتال سعيد بن زيد ، فما نظر إلى الروم يزحفون نحوه حتى اقتحم الأرض وجثا على ركبتيه ثم ثار في وجوههم ، فصار الرجال يلتفون حوله وقد انبروا يتزاحمون للقتال ، وكذلك يزيد بن أبي سفيان ، إذ قاتل في هذه المرحلة قتالاً شديداً ، وكان قائد ميسرة المسلمين .

ثم يقول المقدم سويد : إن ميمنة المسلمين انكشفت للعدو مرتين ، وانكشفت ميسرتهم مرة واحدة ، أما القلب فلم ينكشف أهله ، ولم تنلهم من العدو شدة .

وكأن الروم يئسوا من إزالة المسلمين عن مواضعهم ودحرهم أو كأنهم أُرهقوا من منازلتهم قوماً جمعت بين قلوبهم عقيدة أن الموت في سبيل الله أفضل من الحياة ، وأن الاستشهاد مجد وانتصار ، فتوقف مدهم وهدأت حماستهم ، وخمدت حدتهم ، وانتهى اندفاعهم إلى القتال ، وهذا ما كان خالد يرومه ويبغيه .

واستجمع خالد قواه وعبأ احتياطيه وأعطى إشارة البدء بالقتال من جديد ، ونهد من القلب على قلب الروم ، بينما نهدت ميسرته على ميمنتهم .

أما ميمنته سدت المنافذ في وجوههم ، فحصرهم بين وادي اليرموك ونهر الرقاد ، وهو المنفذ الوحيد لهم .

ودارت من جديد رحى معركة ضارية أبلى المسلمون فيها أحسن البلاء وأشرفه ، وكان قيس بن هبيرة بفرقتين من فرسان المسلمين ، وراء الميسرة التي دخلت معسكر الروم ، ولكن الروم صمدوا لها ، فاعترض قيس فرسان الروم بفرسانه ، وانتظر وصول فرسان خالد الذين كانوا وراء الميمنة ، ثم حمل على فرسان الروم حتى أرهقهم وأزالهم عن مواضعهم وكشفهم .

فلما رأى خالد أن قيساً قد هزم من كان قبالته من الروم حمل بدوره على من كان قبالته منهم حتى تمكن من الفصل بين فرسانهم ومشاتهم ، واشتدت حماسة خالد وهو على رأس فرسانه ، وضغط على الروم وركب أكتافهم حتى أرهقهم ، فأخذ فرسانهم يتلمسون مخرجاً لهم ، فأمر خالد عمرو (قائد الميمنة) بأن يفسح لهم طريق الهرب ففعل .. وهرب فرسان الروم متفرقين في أنحاء البلاد أشتاتاً .

ثم يثني المقدم سويد على براعة خالد العسكرية فيقول :

كانت حركة الإفراج عن خيل الروم (حركة) رائعة ، فقد ترك خالد بذلك مشاة الروم دون تغطية من خيالتهم ، فلجأوا إلى الخنادق ، وأكثرهم مسلسل أو مقيد وكان الظلام قد غشي ساحة القتال ، فاقتحم خالد بفرسانه ومشاته الخنادق عليهم وأعمل سيفه بهم ، فأخذ معظمهم يتراجع ليسقط في هوة من وادي اليرموك وراء الروم تسمى (الواقوصة) فكان أحدهم إذا رغب في النجاة من سيوف المهاجمين يرتد إلى الوراء لعله يجد منفذاً ، فيقع — والليل دامس — في الواقوصة فيهلك ، ويهلك المقيدون به والمسلسلون معه ، وهكذا فقد كان من ينجو من سيوف المسلمين يلقى حتفه في الهاوية .

أما القادة فكانوا يغطون رؤوسهم وعيونهم ببرانسهم ، — وهذه عادة الطبقة الشريفة عند الروم — ويتقدمون للقاء الموت بصبر وجلد ، فيأمر خالد بقطع أعناقهم .

وأما الناجون وعددهم يناهز الأربعين الف مقاتل ، فقد انسحب قسم منهم إلى فحل ، وهي قرية من قرى اربد في لواء عجلون بشرقي الأردن اليوم ، وانسحب القسم الآخر إلى دمشق .

وقد دامت المعركة من مطلع النهار حتى حلول الظلام » اهـ .

وصف العسلي للمعركة الكبرى

وقال الأستاذ بسام العسلي في كتابه (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين) :

« لم يكن الروم قد استوعبوا عمق جذور الدين الإسلامي في نفوس المقاتلين المسلمين ، ولا عرفوا أبعاد طموح القادة المسلمين ، فظنوا أن القضية ليست أكثر من قضية مادية دفعت الأعراب للقيام بالغزو على عاداتهم القديمة » ولهذا طلب قائد الروم الإجتماع بالقائد خالد ، وعرض عليه الهبات والأموال بما يكفي ويغني كل ضابط وجندي من جنود الإسلام ، ولكن خالداً (انطلاقاً من مفهوم الجهاد في سبيل الله) رفض هذا العرض ، وأبى أن يقبل من الروم إلا واحدة من ثلاث ، إما الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب » .

قال العسلي : لم يدخل اليأس قلوب الروم ، فأرادوا اتباع وسيلتهم التقليدية في التفريق والتجزئة وضرب العرب بعضهم ببعض (قلت وهي طريقة الإستعمار حتى اليوم) فسيروا (الملك) جبلة بن الأيهم الغساني ومعه عدة قبائل عربية كلها يمانية) فحاول خالد بن الوليد عكس ما يقصد الرومان ، وهو اكتساب هذه القبائل وضمها إلى صفوف أبناء عمومتهم من العرب المسلمين .

إلا أن جبلة استمر في عناده ، وصمم على قتال جيوش المسلمين ، وأراد خالد ابن الوليد الحفاظ على قوة المسلمين من أجل المعركة الفاصلة مع الروم ، فاقترح القيام بما يلي :

القيام بإغارة على جيش جبلة بن الأيهم ومن معه من جنود أرمينيا (وكلهم فرسان) وقوتهم تقارب العشرين الفاً بقوة صغيرة .

« وهدف خالد من ذلك أنه » إذا أمكن هذه القوة الصغيرة إيقاع الهزيمة بجبلة وجنوده تكون قوة المسلمين قد بقيت سليمة وعلى استعداد للمعركة الفاصلة .

أما إذا هذمت فلا يقال بأن الهزيمة قد وقعت بجيش المسلمين مما يسيء إلى روحهم المعنوية .

وتطوعت مجموعة . تقول بعض المصادر : إنها لا تزيد على عشرين رجلاً[1] وتقدم خالد بالمتطوعين الفرسان حتى معسكر جبلة بن الأيهم ، وظن جبلة أن هذه المجموعة قد جاءت للمفاوضة ، إلا أن قوة الإغارة أشهرت سيوفها وبدأت معركتها ، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى انجلى الموقف عن انتصار فرسان المسلمين وهزيمة جيش جبلة بن الأيهم ، وكانت خسائر فرسان المسلمين قليلة زهيدة .

معركة الجناح الأيمن

وبدأ الروم هجومهم الرئيسي مع أول ضوء من يوم ١٢ رجب للسنة ١٢هـ على النحو التالي :

اندفع ماهان على رأس جيشه موجهاً الضربة الرئيسية إلى الجناح الأيمن للقيام بحركة استدارة واسعة وتطويق جيش المسلمين ، وتصدى جنود المشاة للهجوم وقاوموا زحف الروم مقاومة باسلة ، إلا أن التفوق العددي للروم ساعدهم على ممارسة ضغط قوي اضطرت معه قوات الجناح الأيمن أن تتراجع عن مواقعها في اتجاه القلب ، لكن ثبات الحجاج بن عبد يغوث في مواقعه أثار حمية قبائل حمير وحضرموت وخولان ، فعاودت هجومها والإلتفاف حول بقية جنود الميمنة .

وانطلق أبو هريرة من أصحاب الرسول ﷺ يقاتل بشجاعة ومعه مجموعة من الأزد ، فيثير الحماسة ، واستطاع المقاتلون تكوين حلقة أحاطت بالمتسللين

---

(١) لا يخلو هذا الكلام من المبالغة ، وإن كان خالد وحده يقوم مقام الف من الفرسان .

من الروم ، واستمر القتال بعناد وضراوة ، بعد أن اختلط مقاتلوا جنـــاح الميمنة بمقاتلي القلب .

معركة الجناح الأيسر

ثم يقول العسلي : عندما اندفع ماهان في هجومه على جنـاح المسلمين الأيمن أصدر أوامره إلى قادته بالهجوم على الجناح الأيسر المسلـــمين لإحكام الطوق وعزل المسلمين .

وطلب قناطر من جرجرين قائد جنود أرمينيا البدء بالهجوم ، وطال الجدل وكل يدعو الآخر للتقدم ، وأخيراً اتفقا على الهجوم بصورة مشتركة .

واندفعت قوات الجيشين في مجابهة الجناح الأيسر ، وصمد جنود المسلمين ، وتحطمت الموجات الأول من جنود الروم أمام مواقع المسلمين ، وهنـــا أيضاً استطاع التفوق العددي أن يفرض وجوده فتراجع الجناح الأيسر ، إلا أن حملة الرايات والشجعان من المسلمين ثبتوا في مواقعهم يقاتلون ويقتلون ، واندفع الروم من الثغرة التي أحـدثوها ووصلوا إلى ما وراء جنود المسلمين ، وفـــر بعض ممن لم تكن له طاقة على الصمود ، فاستقبلتهم النسوة ، وأرغمنهـــم على معاودة القتال .

معركة القوة الاحتياطية

ثم يقول : إختار سعيد بن زيد ثنية من ثنايا الأرض ، ووزع المقاتلين الذين بقيادته من أفراد القوة الإحتياطية ، وكمنت هذه القوة بعد أن أجادت التمويه .

وعندما نجح الروم باختراق الجناح الأيمن والأيسر وتقدمت قواتهم لتطويق المسلمين إندفع سعيد بن زيد وقوته الإحتياطية وقاتل بعناد وشجاعة ، واستطاعت هذه القوة الصغيرة الصمود بشجاعة أمام تفوق الروم ، وانضم يزيد بن أبي سفيان (قائد الميسرة) ومعه مجموعة من المقاتلين فدعموا القوة الإحتياطية ، وكذلك

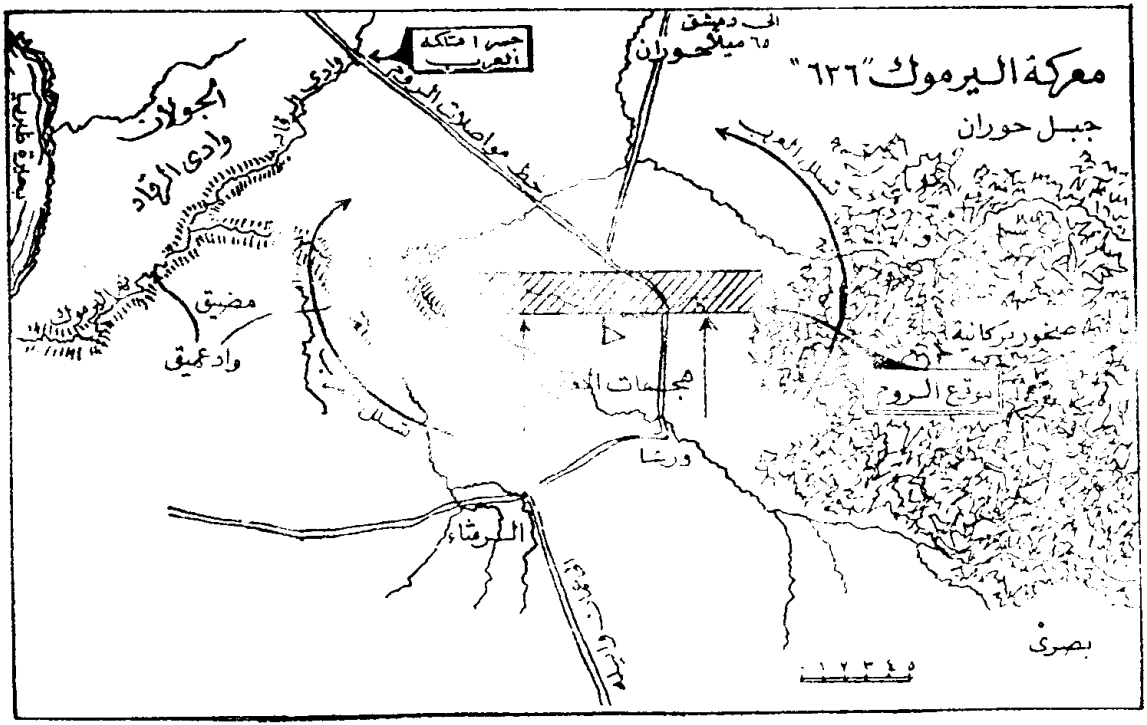
معركة اليرموك "٦٢٦"
جبل حوران
الجولان
وادى الرقاد
مضيق
واد عميق
جسر اقتكله
العرب
خط مواصلات الروم
الى دمشق
٦٥ ميلا
حوران
صخور بركانية
موقع الروم
ورشا
الروثاء
بصرى
٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥

فعل شرحبيل بن حسنة ، واستمرت القوة الإحتياطية في تراجعها أمام ضغط جيش الروم حتى كاد ينكشف قلب جيش المسلمين [1] .

معركة الفرسان

وقف خالد بن الوليد على رأس مجموعة من الفرسان خلف الجنـــاح الأيمن يرقب تطور المعركة ، ولما شاهد بعض فرسان الروم وقد نجحوا في اختراق ثغرة بين صفوف المسلمين ، إنطلق للمعركه ونجح في إيقاف كل تقدم نحو القلب ، وفي هذه الفترة وصله مراسل من قيس بن هبيرة قائد مجموعة الفرسان المتمركزة خلف الجناح الأيسر يعلمه فيها نجاح الروم في اختراق الجناح الأيسر ، وانـدفع خالد لدعم قيس بن هبيرة ، واستطاع الفرسان التصدي لفرسان الروم ما يزيد على ستة آلاف فارس .

الهجوم المضاد

لاحظ قادة المسلمين أن حدة هجوم الروم قد تحطمت ، وأن التعب قد نال من خصومهم ، فانطلقت الأصوات تستثير الهمم ، فهذا صوت أبي سفيـان بن حرب يمسك براية ويقول : بصوت مجلجل اهتزت له صفوف المسلمين (يا نصر الله اقترب – الثبات – يا معشر المسلمين) .

وتجيبه أصوات المسلمين : لبيك اللهم لبيك .

ويندفع فرسان المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وقـد أوشكت الشمس عل المغيب للقيام بالهجوم المضاد وطرد جنود الروم .

وتبدأ مجموعات جنود المسلمين بالتلاحم والانتظام في صفوف متراصة لدعم

---

(١) بل فعلاً انكشف القلب وعانى خالد وأبو عبيدة الأهوال من هجوم رئيسي حتى استشهد أمام فسطاط خالد في القلب حوالي أربعمائة من الفدائيين بقيادة الشهيد عكرمة بن أبي جهل .

الفرسان ، ويشاهد خالد بين الفرسان مقاتلاً أظهر من الصبر والشجـــاعة حداً كبيراً ، فيرغب بمعرفته ، ولم يكن هذا الفـــارس سوى خولة بنت الأزور التي علمت بوقوع أخيها ضرار أسيراً بيد الروم ، فخرجت بحثاً عنه ، ووعدها خالد أن يقدم كل عون .

استمرت المعركة حتى ما بعد غروب الشمس ، إلا أن الروم أرغموا في نهاية الأمر على الانسحاب من معسكر المسلمين .

الكمين

ما إن تم تطهير معسكر المسلمين من جنود الروم حتى انصرف القـــادة إلى إعادة تنظيم قواتهم ومتابعة القتال ، ووضع خالد بن الوليد مخططه وبـــدأ تنفيذه على الفور .

أمر خالد مفارز من جنوده بإشعال النار الكبيرة على محور الطريق وحتى نهر اليرموك ، (قلت وهذا أشبه بزرع الألغام في طريق العدو) ووزع قواتـه على شكل كمين يحتل المرتفعات ويمتد حتى أطراف وادي اليرموك ، ثم اندفع بقوة صغيرة إلى داخل معسكر الروم على شكـل إغارة مباغتة واشتبـك مع فرسان الروم ثم تظاهر خالد بن الوليد بالفرار ، وتبعـه فرسان الروم متخلين عن جنود مشاتهم ، وأخذ الفرسان المسلمون ينطلقون من كـــمائنهم فيعملون في فرسان الروم تقتيلاً وإبادة ، حتى تم لهم القضاء على القسم الأكبر منهم ، ولاذت مجموعة صغيرة بالفرار على غير هدى .

ثم يقول : انطلق جنود المسلمين يقاتلون جنود الروم المقيدين بالسلاسل ، ويتراجع المسلمون حسب المخطط الموضوع حتى حافة الوادي وكان القضاء على واحد أو اثنين من الجنود عند وصولهم حافة الوادي كافياً لإسقـــاط مجموعة العشرة بكاملهم في الوادي ، وأخذ جنود الروم يتساقطون مجموعة بعد أخرى

حتى سقط منهم في الوادي ثمانون الف قتيل ، وأخذت المجموعات الباقية تلوذ بالفرار عندما أشرقت شمس اليوم التالي ، كان الروم قد أخلوا ميدان القتال وانسحبوا على شكل مجموعات صغيرة .

كان عدد الذين سقطوا في الوادي ثمانون الفاً، وحمل الوادي منذ ذلك التاريخ اسم الواقوصة » اه [1] .

وصف ابن الأثير للمعركة

وجاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير :

« فلما تكامل المسلمون باليرموك وكانوا سبعة وعشرين الفاً ، وقدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين الفاً سوى (قوات) عكرمة فإنه كان رداً لهم وقيل بل كانوا سبعة وعشرين وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد ، وعشرة مع خالد بن الوليد ، فصاروا أربعين الفاً سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل .

وكان فيهم الف صحابي منهم مائة ممن شهد بدراً .

وكان الروم في مائتي الف وأربعين الف مقاتل : منهم ثمانون الف مقيد ، وأربعون الف مسلسل للموت ، وأربعون الفاً مربوطون بالعمائم لئلا يفروا ، وثمانون الف راجل .

وقيل : كانوا مائة الف .

وكان قتال المسلمين على تساند ، كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق .

وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهراً .

ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة، فلما أحس

---

(١) فن الحرب لبسام العسلي ص ١٢٣

المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين ، فسار فيهم خالد بن الوليد، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وارضوا ربكم بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة وأنتم متساندون ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراءكم (يعني الخليفة الأول) لو يعلم عملكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه أنه رأي من واليكم ومحبته .

قالوا : هات ، فما الرأي ، قال ان أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم .

ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان للأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له .

ان تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، علموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وان هذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الأمارة إلى آخر الخطبة التي تقدم ذكرها بكاملها .

ثم يقول ابن الأثير : ثم خرج الروم في تعبئة لم ير الراءون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب .

ثم ذكر قصة إسلام جرجة وقتاله مع المسلمين حتى استشهد ، وقال :

ونادى عكرمة بن أبي جهل : من يبايع على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً (أي عجزوا عن الحركة لشدة الجراحة) ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل .

ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة ، ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ، فتفرقت ، وقتل الرجالة ، واقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه عليهم ، وهوى فيها المقترنون وغيرهم ثمانون الفاً ، من المقترنين ، وأربعون الف مطلق سوى من قتل في المعركة ، ودخل خالد الخندق ونزل في رواق تذارق .

وفي اليرموك أصيبت عين أبي سفيان بن حرب ، ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص ، فنادى بالرحيل عنها قريباً وجعلها بينه وبين المسلمين .

وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد [1] وجندب بن عمرو [2] ، والطفيل بن عمرو [3] ، وطليب بن عمير [4] ، وهشام بن العاص [5] ، وعياش بن أبي

---

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي من السابقين الأولين في الإسلام ، هاجر الهجرتين . هو وأخوه خالد بن سعيد . شهد الفتح وحنيناً والطائف وتبوك مع رسول الله (ص) ، واستعمله النبي (ص) على ثمار خيبر . استشهد في اليرموك ، وقيل في معركة مرج الصفر . مات ولم يعقب رحمه الله .

(٢) هو جندب بن عمرو بن حممة الدوسي حليف بني عبد شمس .. زعم آخرون أنه قتل يوم إجنادين .

(٣) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة حنين) .

(٤) هو طليب بن عمير بن وهب بن قصي بن كلاب بن مرة القرشي من السابقين في الإسلام أسلم والرسول (ص) في دار الأرقم . كانت امه اروى بنت عبد المطلب . لما أسلم خرج اليها وقال اتبعت محمداً . فقالت : آزرت ابن خالك . والله لو نقدر على ما يقدر عليه الرجال لمنعناه . هاجر إلى الحبشة . وشهد بدراً ، وكان من خيار الصحابة استشهد باليرموك . وقيل بإجنادين .

(٥) هو هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص السهمي القرشي من السابقين في الإسلام أسلم والنبي (ص) بمكة . هاجر إلى الحبشة .. قدم من الحبشة بعد هجرة الرسول (ص) المدينة فحبسه قومه بمكة ثم أطلقوا سراحه ، فالتحق بالنبي (ص) بعد الخندق .. وكان خيراً فاضلاً . وكان ممن فتن تحت التعذيب بمكة . فغفر الله له . شهد اليرموك وقتل بها شهيداً .

ربيعة (١) وابان بن سعيد (٢) ، وسعيد بن الحرث بن قيس السهمي (٣) ونعيم بن عبد الله النحام (٤) العـــدوي وكان إسلامه قبل عمر ، والنضر بن الحرث بن علقمة (٥) وهو قديم الإسلام والهجرة ، وهو أخو النضير بن الحارث الذي أعدم

---

(١) هو عياش بن أبي ربيعـة عمرو بن المغيرة المخزومي . أسلم أول ظهور الإسلام فهو من السابقين . هاجر الهجرتين ، ولد له بالحبشة ابنه عبد الله هاجر إلى المدينة هو وعمر بن الخطاب وكان الرسول يدعو له ، لما اعتقلته وسجنته قريش عندما رجع إلى مكة من أجل رغبة أمه . استشهد عياش يوم اليرموك .

(٢) هو أبان بن سعيد بن العاص بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي امه من بني مخزوم . صفية عمة خالد بن الوليد . أسلم بعد أخويه خالد وعمرو ، أسلم أبان بين الحديبية وخيبر . وشهد خيبر مع رسول الله (ص) . وقد ولاه الرسول (ص) قيادة بعض السرايا لمهاجمة العدو قتل شهيداً يوم اليرموك .

(٣) هو سعيد بن الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي ثم القرشي من قبيلة عمرو بن العاص من السابقين في الاسلام . هاجر واخوتـــه إلى الحبشة . استشهـــد سعيد هذا يوم اليرموك .

(٤) هو نعيم بن عبد الله النحام العدوي القرشي وإنما سمي النحـــام لأن النبي (ص) قال : (دخلت الجنة فسمعت نحمة من نعيم فيها) والنحمـــة : السعلة .. من السابقين في الاسلام . أسلم والنبي بمكة . كان اسلامه بعد عشرة فهو الحادي عشر في السابقين الى الاسلام . كان كريماً علم قومه المشركون بإسلامه فلم يتعرضوا له لأنه كان عزيزاً بينهم وكان كريماً . طلبوا منه أن لا يتسرع في الهجرة ، لأنه كان ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم ويمونهم . فقالوا له: أقم على أي دين شئت فوالله لا يتعرض اليك احد الا ذهبت ارواحنا جميعاً دونك . ثم هاجر عام الحديبية ، وشهد ما بعدها من المشاهد . فلما قدم المدينة كان معه اربعون من اهل بيته. فاعتنقه النبي (ص) وقبله . وقال له : قومك خير من قومي . قال : لا بل قومك خير يا رسول الله . فقال الرسول (ص) : قومي اخرجوني ، وقومك اقروك . فقال : يا رسول الله قومك اخرجوك الى الهجرة ، وقومي حبسوني عنها . استشهد نعيم هذا في اليرموك .

(٥) اسمه النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة من بني عبد الدار . شهد حنيناً مع المسلمين اعطاه النبي (ص) مائة من الابل .

بعد أسره يوم بـــدر ، وأبو الروم بن عمير بن هاشم [1] أخو مصعب بن عمير الذي قتل يوم أحد شهيداً [2] » اهـ .

وصول خبر وفاة الخليفة الأول والمعركة على أشدها

وهكذا على النحو الذي فصلنا انتهت معركة اليرموك المصيرية الحـــاسمة ، وانهزم فيها الرومان تلك الهزيمة الساحقة التي أبيد فيها جيشهم عن بكرة أبيـه تقريباً ، وقتل أو أسر جميع قادته الكبار ، وبانتهاء معركة اليرموك ، تأكد لدى الإمبراطور الهرم هرقل المقيم (وقت نشوب المعركة الفـاصلة) في الشام أنه قد خسر الشام إلى الأبد ، وأنها أصبحت في حكم ملك المسلمـــين ، رغم المدن والمواقع المتبقية في قبضة الرومان ، لأن هرقل لم يعد لديه جيش يستطيع بسط سلطانه على الشام .

كما أن معنويات من بقي من جنوده وضباطه في الشام أصبحت منهارة لاتؤهله لأن يخوض أية معركة فاصلة تعيد لبيزنطا سلطانها على الشام .

ولذلك وبمجرد علم الملك هرقل بتدمير المسلمين لجيشه في اليرموك اتخـــذ القرار الحاسم بمغادرة الشام إلى القسطنطينية ، وغادرها فعلاً مودعاً الشام بتلك الكلمة التاريخية :

(وداعاً سوريا لا لقاء بعده) .

وقد بقيت بعد اليرموك مدن هامة في الشام في ملك الدولة البيزنطية ، منها دمشق وحلب واللاذقية وحمص وبيت المقدس وأنطاكية ، ومدن وقرى أخرى ،

---

(١) هو ابو الروم بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار القرشي العبـــدري .. اخو الصحابي العظيم مصعب بن عمير .. كان قديم الاسلام وممن هاجر الى الحبشة الهجرة الثانية .. استشهد ابو الروم يوم اليرموك .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٨٤

ولكن كل هذه المدن والقرى تهاوت بعد اليرموك تحت أقدام الجيش الإسلامي دونما مقاومة تذكر ، ما عدا (دمشق وحلب وطرابلس واللاذقية) التي أبدت مقاومات فيها بعض الشدة ولكنها كلها انتهت بسيطرة المسلمين على كل هذه المدن وتمت للمسلمين السيطرة الكاملة على الشام كما سيأتي تفصيله في هذا البحث . إن شاء الله .

وأثناء اشتداد معركة اليرموك حدث حادث مهم بالنسبة للمسلمين ، وهو في واقعه مزعج للغاية ، ولكن القائد خالد بن الوليد كتمه عن المسلمين كي لا تتأثر معنوياتهم وهو خبر وفاة الخليفة الأول أبي بكر الصديق الذي تبلغه خالد من البريد وهو في أشد حالات الإلتحام مع الرومان .

فقد ذكر المؤرخون أنه بينما كانت معركة اليرموك على أشدها إذا بالحامية (وهو ما يعبر عنه بالبوليس الحربي في هذا العصر) تلقي القبض على رجل وتأتي به إلى خالد بن الوليد ، ولدى استجوابه اتضح أن إسمه محمية بن زنيم [1] يحمل بريداً من المدينة ، وكانت خيالة الحامية لما سألوه : ما الخبر أبلغهم أن مدداً قادم من المدينة لأنه رأى القتال على أشده فرأى أن لا يخبرهم بالحقيقة (وهي موت أبي بكر) فينتشر الخبر فتضعف عزائم المسلمين .

وكان في واقعه يحمل خبر وفاة الخليفة الأول وتولية ابن الخطاب وعزل الأمير خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة أميراً بدلاً منه .

وبعد أن جاء رجال الحامية بمحمية بن زنيم ، اختلى به خالد وقال: ما الخبر فأخبر الحقيقة ، فشكره خالد على ثباته وحسن تصرفه إذ أخفى الخبر المفجع عن المسلمين ، لأنه لو انتشر بينهم لانهارت أو ضعفت عزائمهم .

---

(١) لم أجد لمحية هذا ذكر بين الصحابة في كتب التراجم .

ثم أخذ خالد كتاب عمر ووضعه في كنانته وكتم الخبر حتى عن أبي عبيدة ، ثم أمر محمية بن زنيم أن يكون إلى جانبه حتى تنتهي المعركة خوفاً من أن تفلت منه كلمة يعرف منها وفاة الخليفة الأول وعزل خالد فتفتر عزائم الجيش .

إنتهاء المعركة واعتزال خالد الامارة

ولكن القائد خالد رضي الله عنه (وهو الشهم المخلص لله وحده) لما انتهت المعركة بذلك النصر المؤزر جمع أركان حربه وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ، ثم تقدم من أبي عبيدة بن الجراح وسلم عليه بالامارة ، ثم تلى عليهم رسالة الخليفة الجديد التي تتضمن تعزية المسلمين في الخليفة الأول وعزل الأمير خالد وتولية (بدلاً منه) أبا عبيدة . ثم قال خالد لأبي عبيدة : (في شهامة وانضباط رائع) (مرني يا أميري فأنت القائد العام) .

ونقلت عنه حينئذ تلك الكلمة التاريخية المشوبة بالامتعاض : (أنا لا أقاتل من أجل عمر ولكني أقاتل من أجل رب عمر) .

نص خطاب العزل والتولية

وكان نص الخطاب الذي جاء من الخليفة عمر بالعزل والتولية هكذا :

« من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملناك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى الهلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم (أي تقوم باستكشافه) ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية في كشف من الناس (بتقديم طلائع استكشاف أمامهم تستطلع لهم ، وإياك والقاء المسلمين في الهلكة ، وقد أبلاك الله بي ، وأبلاني بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، واله قلبك عنها ،

وإياك أن تهلكك كما أهلكت ممن قبلك ، فقد رأيت مصارعهم »[1] .

وذكر الإمام الطبري في تاريخه أن الأمير خالداً لما تلقى مرسوم العزل من امارة الشام قال :

« الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحب إلى من عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر فألزمني حبه .

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة عمر من أخوال الأمير خالد .

وقد تكلم الباحثون كثيراً عن دواعي الإلحاح من عمر في عزل الأمير خالد حتى تم له ما يسعى اليه طيلة عهد أبي بكر حين تولى الخلافة فكان أول عمل عمله في المجال السياسي والعسكري عزل الأمير خالد .

فبعضهم يقول : إن ذلك لضغينة يضغنها الخليفة عمر على خالد ، حيث كان منذ أسلم خالد وتولى الأمور العسكرية وهو يعارض تصرفاته ويطالب بتصفيته دائماً .

وبعضهم يقول : إن عمر كان يرى في تصرفات خالد تهوراً ، وتبلغه معلومات أكيدة عن افتتان الجند بشجاعة خالد ، فكان يخشى الفتنة ، بأن يحدث تمرد في الجيش وعصيان ضد مقام الخلافة بقيادة خالد نفسه لما يعتقد فيه من طموح .

والواقع أن الخليفة الفاروق أبعد الناس عن حمل الحقد والضغينة لأي فرد عادي فضلاً عن رجل عظيم أسدى الإسلام والمسلمين ما لم يسده قائد مثله .

ولكن الذي نعتقده أن الخليفة عمر كان يحب خالداً ويجله ويحترمه ، ولكنه في الوقت نفسه كان يخشى افتتان الجند به .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٣٤

وقد جاء هذا صريحاً في المرسوم العام الذي عممه الخليفة عمر يثني فيه على خالد ويبرئه من كل نقيصة أو خيانة.

فقد روى ابن الأثير في الكامل ج ٢ ص ٢٦٤ أن عمر قال لخالد بعد تنحيته عن منصب إمارة الشام — :

« يا خالد ، والله إنك علي لكريم وإنك إلي لحبيب ، ثم كتب تعميماً إلى الامصار في بلاد الإسلام كلها جاء فيه : إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن توكلوا إلي فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بعرض فتنة » .

وقد نظم شاعر النيل حافظ ابراهيم معنى كلام الخليفة عمر هذا في خالد فقال :

وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا ... فيه وقد كان أعطى القوس باريها
فقال خفت افتتان المسلمين به ... وفتنة النفس أعيت من يداويها

النهاية إلى الأبد

هكذا وعلى الصورة التي فصلنا انتهت معركة اليرموك التاريخية الحاسمة التي بذل الخصمان فيها كل ما يملكون من جهد لكسبها ، فكسبها العرب المسلمون.

فكانت نتائج هذا الكسب (كما كان خالد بن الوليد وهو يحث جنده على القتال عند التعبئة) :

« إن رددناهم إلى خندقهم لم نزل نردهم وإن هزمونا لن نفلح أبداً » .

وكما توقع الملك القسيس هرقل الذي أقسم أن العرب إن لم يصالحهم الروم سيملكون ما تحت سريره بالشام ولقد كان كما قال وأنذر .

فقد أخذت مدن الشام (بعد معركة اليرموك تتهاوى تحت أقدام الجيش الإسلامي الواحدة بعد الأخرى أمام وحدات الجيش الإسلامي .

والشام في تعريف جغرافي العرب القدامى تعني سوريا وفلسطين ولبنان والأردن .

كل هذه الأقاليم التي تسمى الشام لم تنته السنة السادسة عشرة من الهجرة إلا وقد أصبحت تحت سلطان الإسلام ، ما عدا مدينة طرابلس في الساحل التي لم تفتح إلا في السنة الرابعة والعشرين في عهد عثمان بن عفان على يد معاوية .

أقوال وتحاليل المؤرخين عن معركة اليرموك الحاسمة

ولما كانت معركة اليرموك معركة مصيرية حاسمة قررت مصير الشام كلها تحدث عنها كثير من مؤرخي العالم بإسهاب .

فمنهم من أنصف وأشهر الأسباب الحقيقية لانتصار المسلمين العجيب الذي لا مثيل له على أعظم جيش في الشرق حشدته بيزنطا .

ومنهم من غالط وأعطى أسباباً وأعذاراً غير صحيحة برر بها هزيمة الجيش الروماني في تلك المعركة التاريخية الحاسمة .

وقبل حديثنا عن تحليلات المؤرخين المختلفين لمعركة اليرموك ، نذكر من أدب الحرب أبياتاً رائعة خلد فيها البطل العظيم الذي يساوي الف فارس .. القعقاع بن عمرو التميمي وقعة اليرموك فيها حين قال :

ألم ترنا على اليرموك فزنا ... كما فزنا بأيام العراق
فتحنا قبلها بصرى وكانت ... محرمة الجناب لدى التلاقي
وعذراء المدائن قد فتحنا ... ومرج الصفرين على العتاق[1]
قتلنا من أقام لنا وفئنا ... لهامهمو بأسياف رقاق
قتلنا الروم حتى ماتساوى ... على اليرموك معروف الوراق

---

(١) العتاق أجود الخيل .

فضضنا جمعهم لما استحالوا على الواقوصة[1] البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمر يعضل بالذواق[2]

تعليل بسام العسلي

يضع الأستاذ بسام العسلي عامل العقيدة في مقدمة الأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين في اليرموك فيقول مؤكداً جهل الرومان بفعالية العقيدة الشديدة في نفوس الجند الإسلامي ، وظنهم أن العرب ما خرجوا من جزيرتهم إلا طمعاً في السلب والنهب فحسب ، ولهذا عرضوا عليهم العطايا والأموال مقابل إقلاعهم عن فكرة الحرب ورجوعهم إلى جزيرتهم يقول :

« لم يكن الرومان قد استوعبوا عمق جذور الدين الإسلامي في نفوس المقاتلين المسلمين ، ولا عرفوا أبعاد طموح القادة المسلمين ، فظنوا أن القضية ، ليست أكثر من قضية مادية دفعت الأعراب للقيام بالغزو على عاداتهم القديمة ، ثم يذكر عرض القائد ماهان على القائد خالد الهدايا والأعطيات مقابل انسحاب المسلمين وعودتهم إلى جزيرة العرب ، ورفض خالد تلك العروض السخية وإصراره على تنفيذ أمر الله بأن يقبل الروم ومتنصرة العرب واحدة من ثلاث ولا بد .. الإسلام أو دفع الجزية ، أو القتال وهو آخر ما يضطر اليه المسلمون ، لأنه كما يقول المثل آخر الدواء الكي . ثم يذكر انتصار المسلمين بسبب ما تعمق في قلوبهم من عقيدة صادقة راسخة وهي عقيدة الإسلام ، لا بسطة الأجسام ولا جودة السلاح ولا كثرة العدد ولا إجادة العلوم العسكرية (التكنولوجيا) التي فيها يتفوق الرومان (٣) .

---

(١) الواقوصة هوة سحيقة بين جبلين في اليرموك سقط فيها ومات أكثر من ثمانين الف روماني.
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ١٧٤
(٣) انظر فن الحرب لبسام العسلي ص ١١٨

تعليق ضابط لبناني على معركة اليرموك

وقال المقدم ياسين سويد في كتابـــه (معارك خالد بن الوليد) ص ٢٧٤ وما بعدها :

كانت معركة اليرموك أول معركة خاضها الجيش الإسلامي باسلوب حديث في القتال ، وكان خالد أول قائد عربي استطاع بتجديده في الأسلوب التكتيكي باليرموك ، أن يصل بمستواه العسكري إلى مصاف القادة العظام في التـاريخ ، وكانت معركة اليرموك الدرة التي توجت أعمال خالد العسكرية ورفعتـــه إلى مصاف أولئك القادة .

فمن نجاحه في اعتماد (مناورة الخطوط الداخلية) في إجنادين واليرموك إلى نجاحه في اقتباس التنظيم العسكري عن جيوش الروم (نظام الكراديس والفرق) ومحاربتهم به وانتصاره عليهم ، قبل أن يدرب جنده عليـــه ، إلى الحركة الإفراجية التي اعتمدها مع خيالة الروم في أثناء المعركة ، ذلك كله جعـل من خالد بن الوليد قائداً لامعاً من كبار القادة ، أمثال هنيبال ونابليون وسواهما لما أدخل في فن الحرب عند العرب من تجديد ، ولما أحرز بعبقريته العسكرية الفذة ، وبطولته وشجاعته النادرتين من انتصارات .

نقطة التمركز الخطرة عند الروم

عندما وصل خالد إلى ميدان القتـــال رأى الروم قد تمركزوا في موضع (واسع المطرد ضيق المهرب) فبحيرة طبرية ونهر الأردن عن يمينهـم ، ووادي اليرموك عن يسارهم ، ومن الخلف منفذ يصلهم بمقر قيادتهم العليا ومركز تموينهم وتذخيرهم داخل الشام .

أما أمامهم فلم يكن لهم منفذ سوى فتحة عند ميسرتهم ، عمـــد خالد إلى سدها بميمنته ، فلما دارت رحى المعركة وضغط خالد بجنده على خيالة الروم لم

يتمكن هؤلاء من التراجع عن طريق مسدود بمشاتهم ، فلم يجدوا بداً من النفاذ تجاه ميمنة خالد ، فأمر خالد عمرو بن العاص (قائد الميمنة) أن يفتح لهم الطريق ليعبروا ويتشردوا في طول البلاد وعرضها .

إجبار الروم على ترك مواقعهم المحصنة

رأينا خالداً وصل إلى ميدان القتال والروم متحصنون في مواقعهم ، فعمم على قادته أن لا يبدأوا القتال ، بل أن يتركوا الروم يهاجمون تاركين مواقعهم الدفاعية المحصنة ، فكان له ما أراد ، وقد استهدف الروم من هجومهم تطويق المسلمين فشغلوا ميسرتهم ، ثم ضربوا ميمنتهم ، ثم عادوا فضربوها ثانية لعلهم يخترقوها وينفذون منها إلى مكان يطوقون منه جند خالد ، ولكن المسلمين صمدوا وثبتوا ، فارتد الروم على أعقابهم ، فكر خالد عليهم بعد أن أرهقهم الهجوم وانتزع النصر منهم انتزاعاً .

دور النساء في المعركة

ثم يقول : لم تبق النساء المسلمات دون دور في المعركة ، وقد تبين لنا في أثناء شرح مراحلها أي دور لعبته إذ كان لهن فضل كبير في تثبيت أقدام المسلمين في ميدان القتال ، وبالتالي في انتصارهم على عدوهم .

ولا عجب فقد ساهمت المرأة المسلمة إلى حد كبير وإلى جانب الرجل في معظم حروب المسلمين ، فكانت تحث الرجال على القتال وتدفعهم اليه .

ولنا في الخنساء [1] بنت عمرو السلمي التي حضرت وقعة القادسية مع أبنائها

---

(١) هي خنساء بنت عمرو بن الشريد بن رباح السلمية . . الشاعرة الشهيرة ، واسمها تماضر كانت شديدة الحب لأخيها صخر .. قدمت على رسول الله (ص) مع قومها ، فأسلمت معهم . فذكروا أن الرسول (ص) يستنشدها ويعجبه شعرها . فكانت تنشده ، ويقول : هيه يا خناس. قال ابن الأثير : أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها ومن==

الأربعة فكانت تحرضهم على الجهاد وعدم الفرار ، فاستبسلوا واستشهدوا جميعاً واحداً بعد واحد ، أصدق مثل على ذلك .

الفصل بين فرسان العدو ومشاته

ثم يتحدث عن نجاح خالد في الفصل بين مشاة الروم وفرسانهم وإجبار الفرسان على ترك المعركة فيقول : وهذه الخطة متبعة في الحروب الحديثة ، إذ يعمد الخصم ، أول ما يعمد إلى الفصل بين المشاة وما يحميها من مدرعات ، وقد عمد خالد إلى ذلك ففصل بين مشاة الروم وفرسانهم ، ثم صرف الفرسان من المعركة (بالحسنى) ليتسنى له أن يسحق مشاة الروم وكان له ما أراد .

الحركة الافراجية

ويتحدث عن حركة الإفراج لفرسان الروم ومنحهم الحرية ليذهبوا حيث شاءوا خارج المعركة فيقول :

وهي أفضل حركات خالد في هذه المعركة وأكثرها ذكاء وعبقرية ، إذ أمر عمرو بن العاص (قائد الميمنة) بأن يفتح الفرجة التي تعتبر المنفذ الوحيد للروم تجاهه كي يسهل فرار فرسانهم ، ونفذ عمرو أمر قائده ، فانصرف الفرسان ،

=روائع شعرها في أخيها صخر قولها :

وان صخراً لحامينا وسيدنا	وان صخراً اذا نشتو لنحار
أشم أبلج تأتم الهداة به	كأنه علم في رأسه نار
حمال ألوية شهاد اندية	هباط اودية للجيش جرار

قال الزبير بن بكار : شهدت القادسية ولها اربعة بنين في عنفوان الشباب . فحثتهم على الجهاد والثبات لينالوا الشهادة . فأطاعوها . وقاتلوا قتال الأبطال حتى استشهدوا في القادسية جميعهم . فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحمته . وكان عمر بن الخطاب بعد استشهاد ابنائها الأربعة . يعطيها ارزاقهم لكل واحد مائتي درهم .

وبقي المشاة وحدهم في ميدان القتال ، ولو لم يفعل خالد ذلك لاستمات هؤلاء في القتال ، ولكلفوا المسلمين كثيراً من الجهد والدم للقضاء عليهم .

استخدام الاحتياطي

وككل قائد من قادة الحرب الحديثين لم يستعمل خالد احتياطيه في أول المعركة رغم إرهاقه من قبل خصمه ، بل تركه ، إلى أن حان وقت الهجوم العام ، وهو نهاية مراحل القتال مع العدو ، فاستخدمه عندئذ بنجاح عظيم[1] اهـ.

وهكذا وبعامل العقيدة الإسلامية الصادقة العميقة ثم بصدق عزيمة وشجاعة ومهارة القائد العالمي الفذ خالد بن الوليد وهيئة أركان حربه والصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ وعلى رأسهم مائة من أهل بدر كسب المسلمون (فيما يشبه المعجزة) معركة اليرموك الحاسمة التي على اثرها انفتحت جميع الأبواب للعرب المسلمين ليدخلوها فاتحين إلى جميع ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في مصر ، في أفريقيا ، في أرمينيا ، في آسيا الصغرى .

فكان (بحق) انتصار المسلمين في اليرموك المفتاح الرئيسي الذي قبضت عليه أيدي الفاتحين المسلمين الذين انطلقوا في جميع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية الشرقية بل والغربية يحررون أهلها من عبادة العباد للعباد ليعبدوا رب العباد وحده .

مغالطات بعض المؤرخين الأجانب

وإذا كانت هذه الحقيقة الناصعة التي بها انتصر الإسلام ، والتي مصدرها عقيدة الإسلام الراسخة في أعماق قلب المقاتل العربي ، والصبر والشجاعة والنجدة التي ورثها في صحرائه المترامية الاطرافية منذ نشأته ، فإن هناك بعضاً من

---

(١) معارك خالد بن الوليد ص ٢٧٦

المؤرخين الأجانب من يحاولون اختلاق الأعذار للرومان للهزيمة المدمرة التي منوا بها في اليرموك على أيدي المسلمين ، ويتخيلون أسباباً يحاولون جعلها خارجة عن إرادة القيادة الرومانية ، وأنها من أهم أسباب هزيمة جيشهم الضخم في اليرموك وإبادته محاولين التقليل من شأن عظمة هذا الإنتصار الذي حققه المسلمون على ضفاف اليرموك الخالد .

تخليطات جلوب باشا

من هؤلاء الجنرال جلوب باشا (الملقب عند الأردنيين أبو حنيك) والذي كان قائداً للجيش العربي الأردني قرابة عشرين عاماً : جلوب هذا يقول (أثناء تعليقه على نهاية الروم في معركة اليرموك) يقول في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) :

وقد يعني إضطرار هرقل إلى الإعتماد كل الإعتماد على الفصائل الأرمنية : إن الروم أصيبوا بما يشبه الإرهاق والتعب في حروبهم الطويلة اه .

قلت وهذا من أسخف المبررات للهزيمة ، ذلك أن الروم لم يكونوا أنشط ولا أقوى ولا أكثر اعتزازاً بأنفسهم منهم في الوقت الذي نشبت فيه معركة اليرموك .

ذلك أنهم خرجوا من أعظم انتصار سجلوه في الشرق على أعظم دولة تنازعهم السيادة على العالم وهي فارس التي انتصر عليها هرقل قبل اليرموك بقليل فاستعاد منها لبيزنطا آسيا الصغرى والشام وبيت المقدس ومصر ، فنشوة انتصار الروم على الفرس لا تزال في رؤوس الجند الروماني على أشدها حينما نشبت معركة اليرموك .

فهل المنتشي بهذا الإنتصار القريب العظيم (يقال لجلوب) يكون مصاباً بالإرهاق والتعب ؟

كلا ، فليس هناك أنشط للروح وأروح للبدن من أن يسجل الإنسان الإنتصار

العظيم على خصمه ويستعيد كرامته الضائعة : فانتصارات الرومان على الفرس بقيادة هرقل قبيل معركة اليرموك في الواقع تضاعف القوة المعنوية على كل المستويات في نفس الجند الروماني ، ولهذا يمكن الجزم بأن الرومان كانوا قد خلوا معركة اليرموك وأصوات أجراس الفرح بانتصارهم على امبراطورية فارس لا تزال ترن في آذانهم .

نعم كان الأجدر بالجنرال جلوب أن يقول : إن نشوة انتصار الروم على الفرس جعلت الغرور يلعب برؤوسهم فيستهينوا بالعرب البدو (كما يسمونهم) فكان حصاد غرورهم تلك الهزيمة الماحقة .

ويستمر جلوب باشا في مبرراته لهزيمة الجيش الروماني كي يخفض من قيمة الإنتصار التاريخي العظيم الذي حققه المسلمون في اليرموك على بيزنطا فيقول واصفاً العناصر التي ساندت الجيش الرومي في اليرموك :

« يضاف إلى ما تقدم أن الأرمن كانوا بقيادة زعيمهم (تيودروس) والذي يسميه العرب (شلس) أما القائد الروماني ثيوذروس ، ويسميه العرب (تودر) يبدو أن سلطته على الوحدات الأرمنية لم تكن فعلية يعترف بها ، كما أن الأرمن منذ بدوا وكأنهم جيش منفصل ضمن الجيش الروماني الكبير ، ثم يستمر الجنرال في وصف العناصر التي ساندت الرومان في اليرموك ، كي يصل إلى هدفه المشبوه ، وهو تجريد جيش التوحيد من أي فضل لهم في الانتصار التاريخي على الرومان فيقول :

« وانضم إلى جيش الروم أيضاً أمراء الغساسنة الذين كانوا يحكمون نيابة عن الروم الأقسام الجنوبية من سوريا وشرق الأردن ، وكانت معهم قوة من أبناء القبائل المسيحية .

ويذكر القارىء ولا شك أن الروم كانوا قد الفوا في سنة ثلاثمائة وإحدى وخمسين ميلادية ملك الغساسنة في الشام .

يضاف إلى ذلك أن اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية لنصارى العرب من النساطرة ، قد جعل هؤلاء يقفون منها موقف العداء .

ومن هذا تبين أن ثلثي جيش الروم الجديد كانوا إما من الأرمن أو من العرب والفريقان لا يحسان بمشاعر الولاء والإخلاص للامبراطورية » .

قلت : لقد ناقض الجنرال جلوب نفسه بنفسه في كتابه نفسه (الفتوحات العربية الكبرى) فهو يقول بشأن إخلاص الغساسنة العرب للامبراطورية الرومانية وحماية فرسانها لجيشها يوم اليرموك ، يقول في ص ٣٠٢ :

« وكان جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومي (وقائد المقدمة لا يكون إلا من أهم المخلصين) ومعه الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب ، بسرعة حركتهم ونشاطهم وخيولهم المطهمة غطاء رائعاً من الفرسان للجيش الروماني تماماً كما فعل الجيش العربي الأردني مع الجيش البريطاني في عام ١٩٤١ م ومتعاوناً معه في عمليات سوريا والعراق العسكرية ، إذ شكل له حرس المقدمة والجانبين » . ومن المعلوم لدى الجميع أن دور الجيش العربي الأردني كان كبيراً في إحراز الجيش الإنكليزي النصر على الفرنسيين عام ١٩٤١ في سوريا . ولكن التعصب الدفين ضد الإسلام يغطي حتى عقول الكبار فيتناقضون في أقوالهم كما فعل الضابط جلوب .

ثم يستمر الجنرال جلوب في تبريراته واعتذاراته عن الرومان لهزيمتهم في اليرموك ويقلل من شأن النصر التاريخي الخالد الذي حققه المسلمون فيقول :

أما الثلث الباقي (من الجيش الروماني) فقد ضم المجندين من فلاحي مانسميه بآسيا الصغرى الغربية ، وهم أقوام عرفوا بفضائلهم العسكرية ولا ريب في أن مزايا هذه الأقوام المختلفة لا تخلو من الطرافة حتى يومنا هذا :

إلى هنا يصل المؤلف الجنرال في كتابه إلى قمة المغالطة كي يبرر هزيمة بني

دينه المخزية الخالدة ، فالجنرال الإنكليزي الذي قدر له أن يكون قائداً لجيش عربي عشرين سنة ، يريد بتخليطه هذا من القارىء أن يتخلى عن عقله ويسد منافذ تفكيره وفهمه ليصدق التبرير العجيب الذي سجله في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) ، وهو أن العنصر الروماني المقاتل الأصيل لا وجود له في معركة اليرموك ، وإنما الجيش الذي خاضها كل الجيش وحارب المسلمين فيها ، كله من المرتزقة ثلثاه من الأرمن والعرب المتنصرة ، (وهم كما يقول الجنرال) أعداء للرومان ، أما الثلث الأخير ، فهو من الأتراك الذين أطلق عليهم اسم فلاحين من آسيا الصغرى ، وآسيا الصغرى هي موطن الأتراك منذ آلاف السنين .

فالمسلمون حسب حكم أو تحكم الجنرال الإنجليزي المؤرخ لم يهزموا يوم اليرموك التاريخي الخالد الجند الروماني الأصيل الذي يعتبر من أقدر الجنود في العالم على القتال والعلم بفنون الحرب ، وإنما هزموا خليطاً من أجناس شتى أخرى ، هم الأرمن والعرب المتنصرة وأهل آسيا الصغرى من الأتراك .

هكذا يريد الجنرال الإنكليزي منا أن نصدق كي يرسخ في أذهان قراء التاريخ أن العنصر الروماني ذا الدم الأزرق المفضل الأصيل لم يقاتل المسلمين في معركة اليرموك التاريخية التي كانت بداية نهاية الوجود الروماني في الشام وحدها بل في الشرق الأوسط كله وفي أفريقيا .

المؤلف يسأل الجنرال جلوب

ونحن بعد إيراد تحليلات الجنرال المؤلف جلوب نسأله إذا كان كل الأجزاء الثلاثة من الجيش الذي حارب المسلمين في معركة اليرموك ليس من الرومان ، فأين (إذن) العنصر الروماني المحارب الذي يعتبر من أحسن وأقدر العناصر المحاربة وأعلمها بالفنون العسكرية في العالم عندما نشبت معركة اليرموك التي

يعلم الملك هرقل أن زوال ملكه وبقاءه متوقف على ما يسفر عنه القتـــال في هذه المعركة الحاسمة ؟

أين كان هذا العنصر الذي يبلغ الجنود منه مئات الآلاف ؟

هل كان في إجازة ، (لأنه كما اعتذر له جلوب) كان متعبـــاً من جراء حروبه مع الفرس ؟

وكيف رضي الإمبراطور هرقل (ذو اليد الطولى في خوض المعارك والعلوم العسكرية) لأحسن جيوش الإمبراطورية وأقدرها على القتـال أن يغيب عن حضور معركة اليرموك التي يعلم هرقل أن الذي يخسرها ، يخسر الشام كلهاوأن الذي يكسبها تفتح له الشام أبوابها كلها على مصاريعها ؟

لا جواب عند الجنرال المؤلف على هذا السؤال .

لأن الحقيقة التي كانت قائمـــة يوم ذاك هي أن الأكثرية من الجيش الذي حارب المسلمين في اليرموك هي من العنصر الروماني ، نعم لا ينكر أحد أن في هذا الجيش عناصر غير رومانية كالأرمن والعرب المتنصرةوأهل آسيا الصغرى، ولكن ليسوا هم كل الجيش كما يريد أن يوحي جلوب إلى قرائه ، كي يظل العنصر الروماني كما كان أمام الفرس ، عظيماً متفوقاً في أذهانهم .

والعجيب أن الجنرال الإنكليزي لم يقل شيئاً عن هذا التقسيم عندما تحدث الإنتصارات التي حققتها بيزنطا (قبيل اليرموك) على الإمبراطورية الفـارسية حيث انتزع منها هرقل الشام وآسيا الصغرى ومصر وأرمينيا .

فالمؤلف الجنرال هنا لا يشير بالإكبار إلا إلى الجيش الروماني ، لماذا ؟

لأن الموقف موقف وصف ظفر وانتصار، لا هزيمة وانكسار .

أما في اليرموك الذي تحطم فيه الجيش الروماني على أيدي المسلمين ،فالجنرال المؤرخ يفيض في الحديث عن تنوع العناصر الغير الرومانية والغير الموالية للتـاج

البيزنطي ، ليبرر هزيمة بيزنطا المدمرة في هذه المعركة ويضع اللوم على العناصر غير الرومانية .

وسؤال آخر يقدم للجنرال المؤلف (جلوب) :وهو إذا كان العنصر الروماني الأصيل لم يكن موجوداً أوليس له الثقل المطلوب في معركة اليرموك الحاسمة ، فممن استلم العرب مدينة دمشق العاصمة ثم حمص وفحل وبيسان وحلب والقدس وبقية مدن الساحل الشامي وأهمها طرابلس واللاذقية .

أين بطولة الجيش الروماني الذي لا يهزم ، والذي حج قائده الأعلى الإمبراطور هرقل على قدميه إلى القدس شكراً لإلهه لأن جيشه الروماني حطم أعظم جيش في الشرق ، وانتزع منه جميع ممتلكات بيزنطا التي اغتصبها وعلى رأسها بيت المقدس ؟

كلمة حق في الجنرال جلوب

وبالرغم من أن الجنرال جلوب استجابة لنداء العاطفة نحو الرومان حاول أن يسلب العسكر الإسلامي الذي انتصر في اليرموك – ميزاته القتالية العظيمة التي استمدها من عقيدته الصادقة ، عقيدة التوحيد ، وبالرغم من تبرع الجنرال المؤرخ باختلاق الأعذار والمبررات للرومان كي يخفف من شناعة هزيمة الجيش الروماني، فإنه (والحق يقال في نواحي أخرى وفي أكثر ما كتب مؤرخ ممتاز ، وخبير عسكري ، وخاصة بالمواقع التي دارت فيها معركة اليرموك ، والتي (بحاسته العسكرية) اكتشف مكانها بالتحديد تقريباً وهو قريب من فتحة درعا .

لأنه عاش مع الجيش الأردني الذي كان يسمى بالجيش العربي – عشرين عاماً ، يتنقل بحكم وظيفته في مختلف المناطق ، حتى استطاع معرفة وتحديد مكان معركة اليرموك .

ولو أنه عزف عن التكلف في التفسيرات والاستنتاجات والاعتذارات عن

الرومان في هزيمتهم الماحقة في كتابه ، لجاء كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) من بين الكتب التي يعول عليها كمصدر ذي بال .

وشوه شيئاً من وجه كتاب (جلوب) أيضاً تعسفات أخرى تتعلق بالإسلام والمسلمين سجلها في كتابه ، وانبرى للرد عليهـــا (تعليقاً) مترجم الكتاب الأستاذ خيري حماد .

والمؤلف على كل حال (وفي كثير من الأحيان) يعترف بشجـــاعة العرب وقوة إيمانهم وقدرتهم القتالية في مواضع عدة من كتابه: فيعترف (بدون مواربة) أن المسلمين أبادوا جيش بيزنطا في اليرموك عن بكرة أبيه ، كما أن جلوب (رغم تعسفه في الاستنتاج والتحليل أحياناً) فإن سياقه في الحديث عن معركة اليرموك لا يخلو من روعة .

ونحن هنا سنورد مقاطع من هذا السياق الذي قد يكون ذا فائـــدة لعشاق التدقيق في تفهم تاريخ المعارك وتفاصيلها .

فهو يقول عن النزول الأول لجيش هرقل واحتلاله مضايق ومرتفعات اليرموك (لم يكد جيش هرقل ينزل إلى الميدان ، إما في شهر مارس (آذار) أو ابريل (نيسان) حتى كان العرب يجلون عن معظم المنـــاطق التي فتحوها في غضون الإثني عشر شهراً ، ورابطت قوات المسلمين من جديد وراء نهر اليرموك ، ولحق بهم الروم وأعادوا احتلال فجوة درعا ، وهي بوابة سوريا التي كانوا قـــد جلوا عنها في سبتمبر (أيلول) عام ٦٣٤ أي قبل ثمانية عشر شهراً .

وكان جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومي ، ومعـــه الوحدات العربية ، وشكل الجنود العرب بسرعة حركتهم ونشاطهم وخيولهم المطهمة غطاء رائعاً من الفرسان للجيش الروماني ، كما فعل الجيش العربي الأردني

مع الجيش البريطاني في عام ١٩٤١ متعاوناً معه في عمليات سوريا والعراق العسكرية ، إذ شكل حرس المقدمة والجانبين .

وهذه الحقائق ثابتة كل الثبوت ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع تجنب الإنطباع أن المؤرخين لم يؤكدوا الدوافع الماثلة وراء هذه الحركات العسكرية ، كما أن بعضهم ينسب إلى العرب عزمهم على الإحتفاظ بحصون اليرموك ، لكن الحقيقة هي أن العرب نشدوا الآن كما في أي معركة سابقة أخرى أن يقاتلوا في الصحراء أو في السهول المنبسطة ، وأن يجعلوا الصحراء المكشوفة دائماً وراءهم ليجدوا فيها النجاة إذا اقتضاهم الأمر .

وكان العرب والحالة هذه يؤثرون أن يجروا قدم الجيش الروماني إلى القتال في الصحراء في الجنوب من اليرموك ، بدلاً من أن يخوضوا معه معركة ثابتة عند فتحة درعا .

ولكن لم يكد العرب يمرون من الفتحة مخلفينها وراءهم باتجاه الجنوب حتى كان الرومان يعيدون احتلال هذه الحصون الدفاعية القديمة ، ويغلقون بواب سوريا في ظهر العرب المتراجعين .

وتركزت سياسة هرقل الآن على الإحتفاظ بالخط الدفاعي ، فطالما أن خط ماجينو (اليرموك) صامداً في وجه العرب فإن سوريا ستظل في نجوة من غزوهم ولن يكون في وسع العرب – بما عرف عنهم من تجنب الحرب في الجبال والمناطق المغلقة – أن يغامروا بغزو سوريا عبر طبريا .

وصحيح أن خالداً كان في ربيع ٦٣٤م أي قبل عامين قد هدد حمص وحماه من ناحية الشرق ، أي من ناحية الصحراء التي جاء عبرها من العراق ، ولكن قوته في ذلك الوقت كانت صغيرة ، ومع ذلك فقد كادت تفنى من الظمأ في لهيب الصحراء ، ولم يكن في الإمكان القيام بغزو جدي عن ذلك الطريق ، حتى ولو كان العرب هم القائمون به .

ولا ريب في أن هرقل قد تنفس الصعداء عندما سمع بأن جيشه قد عاد إلى احتلال فتحة درعا ، وأن العرب قد خرجوا منها يعني بذلك انسحابهم من اليرموك لإنجاد عمرو بن العاص في فلسطين) .

وقد خيل إلى هرقل أن سوريا قد غدت في نجوة من الخطر .

نشاط الجندي المسلم وكسل الجندي الروماني

ثم يتحدث الجنرال جلوب عن نشاط الجندي المسلم وخفة حركته وكسل الجندي الروماني فيقول : « واستمرت فترة الركود الثانية في فتحة درعا زهاء أربعة أشهر ، رفض الروم إبانها بأن ينصاعوا لإغراء العرب بالخروج من حصونهم في اليرموك ، والتي كان العرب عاجزين ، أو غير راغبين في اقتحامها ، ولكن المعارك لا تكسب عن طريق الدفاع السلبي ليس إلا (قلت هذا تعريض بالرومان) وكان العرب أقدر على الحركة وأظهروا ميلاً أشد إلى المبادرة من أعدائهم (قلت وهذه كلمة حق قالها الجنرال) ، ويصف مكان المعركة وصفاً دقيقاً لأنه شاهده بنفسه أثناء تجواله فيقول :

تؤلف مضايق اليرموك ووادي الرقاد في الجانب الغربي من الفتحة عقبات في طريق أية تحركات عسكرية ، إذ أن جوانبها تكون من المواقع عمودية تقريباً.

أما في الشرق فعلى الرغم من أن الصخور البركانية تغطي سطح السهل ، إلا أن المرور فيها ليس متعذراً على الفرسان والهجانة ، بل المشاة ، وقد يكون من المتعذر خوض معركة في القرن السابع للميلاد وسط الصخور البركانية ولكن هذه الصخور لا تحول بين جماعات من المحاربين العرب ، وبين التسلل حول الجناح الشرقي للروم للوصول إلى سهل حوران ، ثم يقول : وفي وسعنا أن نخمن أن هذه هي الأساليب التي تبناها العرب قبل انقضاء عهد طويل ، فقد شقوا طريقهم حول الجناح الشرقي لمواقع الروم ، وبات في وسعهم أن يقطعوا طريق

تموين العدو أو يهددوه تهديداً خطيراً ، ويبـدو أن الطريق الرئيسي لمواصلات الروم كان يتجه إلى الجولان ومنها عبر المنطقة التي يقوم عليهـا اليوم جسر بنات يعقوب ، ثم يتجه شمالاً إلى بعلبـك ، بدلاً من الطريق الرئيسي بـين دمشق ودرعا .

زعم الجنرال جلوب وجود خيانة في الجيش الروماني

ثم تعاود الجنرال المؤرخ لوثة التعصب والمغالطة والدفاع عن سمعـة الجيش الروماني فيقول (وبدون مقدمات) : (ولكن الخيانة في صفوف الروم كانت أكبر أثراً على جيشهم من عمليات العرب كما يبدو » .

وهكذا يحاول أن يدس ويسلب المسلمين ميزة تفوقهم المعنوي الهائل المستمد من تمسكهم بالعقيدة الإسلامية ، ويحاول أن يوهم قارئه أن الذي يسر للمسلمين تمكنهم من تدمير الجيش الروماني في اليرموك ليست قوة إيمانهم بالله تعـالى وشجاعتهم الخارقة المستمدة من هذا الإيمان ، وإنما يسر لهم ذلك الخيانة : وأية خيانة تلك ومن أي عنصر أو عناصر في الجيش الروماني ؟

لا جواب ولا تفصيل لدى الجنرال وإنما القاها كلمه على عواهنها .

ثم يعود الجنرال ويلقي اللوم على القائد الروماني أخي هرقل وهو (تيودور) فيقـول :

والمعتقد أن قائد الروم (تيودروس) كان ميـالاً إلى تبني أساليب الدفاع المتصفة بالنشاط والحركة .

إذ أن المؤرخين العرب يتحدثون عن عدد من العمليات الثانوية التي ذكروا أن الروم قد غلبوا فيها كلها (وكان الأجدر بتيودورس وأحكم لو أنه خاض مع العرب معركة حاسمة عندما التقى الجيشان) .

إن عدد جنده كان يفوق عدد جند العرب تفوقاً هائلاً ، لكن فترة الراحة

التي انقضت مكنت العرب من أن يستغيثوا بالخليفة في المدينة ليبعث اليهم بالنجدات الجديدة ، ولا ريب أيضاً في أن إطالة المكوث في حصون اليرموك الدفاعية قد أثرت على معنويات جند الروم ، لا سيما الأرمن منهم الذين كانوا متعودين على أجواء أكثر برودة وعلى مناخ جبلي .

قلت وهذا تبرير غير مقبول من الجنرال المؤلف، ذلك أن العكس هو الصحيح، فالرومان قد الفوا المكوث في الحصون ، إما دفاعاً وإما هجوماً منذ أنشيء الجيش الروماني .

قلت غير أن الحقيقة التي لا يجهلها المؤلف وغيره هي أن الذي يتضايق من المكوث في الحصون طويلاً في الحصون والقلاع أو الوقوف أمامها طويلاً هم العرب لأنهم بحكم نشأتهم الحربية الصحراوية يفضلون الإنطلاق والحرية في الحركة أثناء القتال ، لأن تدريبهم العسكري إنما نشأ على القتال في الصحراء ، فهم أقدر الشعوب على كسب المعارك في الصحراء والأماكن المنبسطة الشبيهة بالصحراء ، ولكنهم (بدافع من إيمانهم) صبروا على الوقوف طويلاً أمام حصون اليرموك التي اختارها هرقل واعتصم بها جيشه ، حتى اقتحموها عليهم وأبادوهم .

في قتال الفرس أبطال وفي قتال العرب

ثم يستمر في اختلاق الأعذار في هزيمة الروم في اليرموك ، فيقول عن الأرمن (وكانوا ممن ساهم في هزيمة الفرس ضد الجيش الروماني بشجاعتهم) : إن الأرمن المتواجدين في جيش الروم ، هم من المرتزقة الذين لا يدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم .

منطق غريب جاء به المؤلف جلوب ، ومتى كان الأرمن (وهم يعملون طيلة عدة قرون ضمن الجيش الروماني) يدافعون مباشرة عن بيوتهم ومساكنهم .

إن الأرمن قد كانوا من أفضل العناصر في الجيش الروماني ، وقد سجلوا

بشجاعة لبيزنطا عدة انتصارات رائعة في فارس والشام وآسيا الصغرى على الفرس وغيرهم ، وهم بعيدون عن شيء اسمه بيوتهم أو منازلهم ، التي جعل السيد جلوب باشا بعدهم عنها من أسباب فتورهم في القتال يوم اليرموك وبالتالي التسبب في نزول هذه الهزيمة بالروم .

إن أحداً من المؤرخين (حتى الأوروبيين) لم يقل : أنهم مرتزقة لا فائدة منهم للجيش الرومي إلا الجنرال جلوب ليحاول مسح عار الهزيمة الفاضحة في اليرموك عن وجه الإمبراطورية الرومانية العتيدة .

ثم يستمر المؤلف الجنرال جلوب فيقول في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) : وبينما سكان السواحل السورية (أي من العرب المتنصرة) موالين للامبراطورية الرومانية ، كان سكان حوران معادين لهم ، أو غير آبهين بهم على الأقل ، وهو عامل لا بد وأن يكون قد أثر على معنويات الجنود) .

قلت وهذا تعليل من أسخف التعليلات في الاعتذار للرومان عن هزيمتهم في اليرموك لأن العرب المتنصرة من سكان الجولان التي منها حوران ، هم أشد العرب المتنصرة ولاء للتاج البيزنطي ، لأن الجولان مقر ملكهم الذي أعطاه الرومان لهم ضمن التاج البيزنطي ، وقد رأينا كيف استماتت عرب بصرى النصارى في الدفاع عنها عندما هاجمها خالد بن الوليد وكيف استعصت على العساكر الإسلامية التي جاءت من العراق وقد فك المسلمين الحصار عنها لدفاعها المستميت .

وهل نسي الجنرال جلوب قوله في كتابه ص ٣٠٢ وكان جبلة بن الأيهم أمير الغساسنة يقود مقدمة الزحف الرومي ، ومعه الوحدات العربية ؟

فهل يمكن أن يسند القائد العام للجيش الروماني قيادة مقدمة جيشه (وهي أخطر مهمة يتولاها قائد) إلى عرب حوران الذين قال عنهم جلوب : أنهم

معادون للرومان ؟ وهل يسلم قائد جيش عام لديه ذرة (من عقل وتفكير) رقاب جيشه لعناصر يعرف أنها معادية له ولهم .

إن مقدمة الجيوش لا تسلم إلا للرجال المخلصين المؤمنين بالقضية التي تقدموا للقتال في سبيلها أما المشكوك في ولائهم فيعتذر القادة العقلاء عن اشتراكهم معهم في قتال عدوهم .

ثم يوغل الجنرال جلوب في تبريراته الغير مقبولة ، فيأتي بتكهنات من عند نفسه ليدفع عن الرومان مسؤولية الهزيمة الشنيعة في اليرموك فيقول :

« ويبدو أن شيئاً من الإتصال جرى بين خالد بن الوليد وبين قائد الأرمن شنس ، وأن هذا الإتصال قد جرى عن طريق الجنود العرب في جيش الروم (كذا) الذين لم يقوموا إلا بدور صغير في القتال ، بعد أن تحول إلى معركة ثابتة ، وقد أدت هذه المنافسات المستمرة بين الوحدات المختلفة في الجيش الروماني وما نجم عنها من تدهور في الانضباط ، بالإضافة إلى الأسابيع الطويلة الجمود داخل الحصون إلى استكمال الإنحطاط المعنوي في الجيش الروماني .

هذا ما يريد الوصول اليه الجنرال جلوب بتحليلاته وتخيلاته ليدفع عن بني دينه البيزنطيين عار هزيمة اليرموك الفاصلة .

الحقيقة أن الجنرال يتخيل الأشياء ، ثم يكتب عنها كحقائق ، إن حديثه عن تدهور الإنضباط قبل القتال في الجيش الروماني يوم اليرموك من أعجب الأحاديث وأغربها ، ذلك أن الجيش الروماني لم يكن أشد منه انضباطاً في ذلك اليوم .

ولا أدل على هذا الإنضباط والتصميم على مقاتلة العرب حتى النهاية من أن حوالي ثمانين الفاً من هذا الجيش قد ربطوا أنفسهم بعضهم ببعض أثناء التعبئة

بالسلاسل كي لا يفكروا في الهرب عندما يحتدم القتـــال ، وقد لقي كل هؤلاء الثمانين الألف حتفهم في صبر وجلد على أيدي المسلمين في المعركة .

كذلك مما يـدل على نقض مزاعم الجنرال المؤرخ هو أن هجوم الرومان في المرحلة الأولى كان غاية في التنظيم مما جعله صاعقاً ومؤثراً فعالاً للغاية بحيث تمكن في عملية منظمة خاطفة من اختراق جناحي المسلمين الميمنة والميسرة ، وجعـل قلب الجيش الإسلامي مكشوفاً تماماً ، الأمر الذي كلف المسلمين غالياً،فاستشهد للدفاع فقط عن مقر القائد العام وقائد القلب في لحظة حوالي سبعمائة على رأسهم قائدهم عكرمة بن أبي جهل ، بل إن وحدات من الجيش الروماني تقدمت في هجومها حتى وصلت إلى مؤخرة المسلمين وكاد الجيش الروماني يطوق الجيش الإسلامي ويبيده لولا صبر المسلمين وتضحياتهم وإعادة تنظيم صفوفهم بسرعة .

فالجيش الروماني (إذن) قاتل يوم اليرموك وهو في الذروة من القوة والتنظيم والانضباط وارتفاع المعنويات والاعتداد بالنفس .

فعالية العقيدة الصادقة

ولكن المعنويات التي باعثها الإيمان بالله والرغبة في الموت لدخول الجنـة ، كما هو الحال عند المسلمين، تتغلب على كل معنوية ليس مصدرها الإيمان بالله والاستشهاد في سبيله مهما كانت قوية وارتفعت ، كما هو الحال عنـد الرومان ، الذين باعث ثباتهم ودافع قتالهم الحفاظ على ملك البيزنطيين في الشام فحسب .

فلولا الإيمان بالله وحده المتأصل في نفوس المسلمين واعتقـــادهم أن المقتول منهم في هذه المعركة يكون مصيره إلى الجنـة لكانت مسيرة الرومان المنتصرة عند الصدمة الأولى سارت في طريقها حتى النهـــاية أي إبادة جيش الإسلام الصغير ، ولخـــلدت أوروبا ذكرى انتصار هـذا الجيش في هذه المعركة التاريخية الحاسمة .

ولكن الايمان بالله تعالى والخوف من عقابه الذي يعاقب به الفارين من الزحف هو الذي جعل المسلمين الذين انهزموا عند الصدمة الأولى يعودون إلى الميدان ويستميتون في القتال ، ويهبون كالأعاصير فيشتتون حشود الرومان (بحنق) كما تشتت العاصفة الورق اليابس .

فالانهيار لم يتعرض له الجيش الروماني باليرموك إلا في الجولة الثانية من المعركة حين أعاد المسلمون تنظيم صفوفهم التي مزقها الرومان في هجمتهم الأولى.

وفي مجال الاعتذار عن نكر الهزيمة المدمرة التي أصابت الجيش الروماني في اليرموك على أيدي المسلمين يتحدث الجنرال جلوب عن حادثة كونية جاءت أثناء المعركة ، قال : انها يسرت للمسلمين النيل من الرومان وتسببت في إحداث الفوضى داخل الجيش الروماني .

ولا ندري من أين أتى الجنرال جلوب بخبر هذه الحادثة الكونية ، لأن المؤرخين المسلمين وهم أصدق من كتب عن تاريخ المعركة وأحسنهم الطبري الذي كتب عنها بعد مرور حوالي مائة وخمسين سنة فقط هؤلاء المؤرخين لم يشيروا إلى هذه الحادثة الكونية التي هي (كما يقول الجنرال جلوب : ريح ساخنة هبت يوم اليرموك وصارت تلطم وجوه الجند الروماني وتحصب عيونهم بالحصباء مما عجل بهزيمتهم إذ جعلهم غير قادرين على القتال فقال :

(وهبت ريح قائظة عابثة من الصحراء من الناحية الغربية في العشرين من شهر أغسطس (آب) عام ٦٣٦ وأخذت سحب الرمال والتراب تلطم وجوه جند الروم ، ولا أعتقد أن هناك ما هو أسوأ من عاصفة رملية حقا في الصحراء ، إذ أنها عادة تقتلع الخيام وتطيح بعدد الطبخ ، ويمتلىء الطعام والماء بالتراب ، بينما تلسع ذرات الرمل الوجوه وتطمس الأعين ، ولا تزيد الرؤية في مثل هذه الحالات على بضع ياردات ، ومن المتعذر على المرء أن يواجه مثل هذه الريح ،

وكل ما يستطيع فعله هو الربض على الأرض ، والانتظار حتى تنتهي العاصفة من نفسها .

وقد تستمر الريح يوم أو يومين أو ثلاثة أيام ، ومن المحتمل أن يكون بدء هبوبها هذه المرة قد وقع في مساء التاسع عشر من أغسطس مما مكن العرب من وضع الخطة للقيام بهجوم شامل في الصباح التالي :

ثم يستمر المؤرخ الجنرال جلوب الانكليزي في تخيلاته وتحليلاته فيقول :

وعلى الرغم من أن البدو لا يستسيغون هذه الزوابع الرملية إلا أنها كانت شيئاً عادياً مألوفاً لديهم ، يضاف إلى هذا أن اتجاه الريح كان في أقفيتهم وفي وجوه أعدائهم ، وعلى الرغم من أن مدى الرؤية أمامهم قصير ، فإن مصير الريح وهي تهب من وراء ظهورهم كانت تمكنهم من أن يظلوا مفتوحي الأعين لا تعرقل سبيلهم كثيراً .

ثم يوغل في محاولاته لتبريراته انهزام الروم ، ويجعل الريح من أهم أسباب هزيمة الروم فيقول : ولا ريب في أن مثل هذه الظروف تجعل من المعركة فردية أكثر منها إجماعية ، فالجيش المتعود على الحرب في صفوف منظمة تلبية لأوامر قادته يصبح في وضع يائس في مثل هذه الأوضاع «يعني بذلك الرومان» أما العرب فهم فرديون في طبيعتهم ، وكل جندي منهم صورة مجسدة للجرأة والنشاط والحيوية ، وهو على استعداد وتلهف للمقاتلة وحيداً قلت « وواقع قتالهم في اليرموك ينقض قوله » : والجنود العرب عاجزون عن خوض معركة نظامية ضارية في صفوف متسلسلة ، ولكنهم يكونون في أحسن حالاتهم في أي هجوم عنيف يشنه كل واحد منهم على انفراد ، ولكن المعركة سارت كما يبدو وفق خطة رسمها العرب ، إذ أن فصيلاً من جنودهم احتل الجسر القائم على وادي الرقاد وراء جيش الروم ، وهو الجسر الذي يمر عليه طريق المواصلات الرئيسي .

قصة الريح لا ذكر لها في مصادر التاريخ

الذي يقرأ تفاصيل معركة اليرموك في أمهات التاريخ ، لا يجد أي ذكر للريح الساخنة التي زعم الجنرال جلوب أنها هبت يوم اليرموك في وجوه الجيش الرومي مما ساعد العرب على إنزال الهزيمة الساحقة بالبيزنطيين في هذه المعركة بزعمه .

إن هذه الريح لو حدثت يوم اليرموك لذكرها المؤرخون ضمن حديثهم عن المعركة (لأنها عامل مهم في تغيير سير القتال) كما ذكروا الريح العاتية التي هبت على جيوش الأحزاب ولطمت وجوه جنودهم واقتلعت خيامهم وأكفأت أدوات الطبخ ، ولاعتبروها عوناً من الله تعالى للمسلمين وكرامة لهم كما كان الحال يوم الأحزاب ، ولكنها بالتأكيد لم تهب أصلاً ، ولو هبت لأفاضوا في ذكرها كما أفاضوا في ذكر الريح التي سلطها الله على عساكر الأحزاب .

ولكن الجنرال جلوب أو من نقلها عنهم من الأجانب أرادبذكرها التخفيف من وصمة عار الهزيمة التي لحقت بالجيش الروماني يوم اليرموك على أيدي أربعين الفاً من المسلمين وعدده ما يقارب الربع مليون جندي .

فهو يريد أن يقول : إن الرومان بعد هبوب الريح الساخنة الضاربة بالرمل في عيونهم جعلتهم يقاتلون وهم كالعميان لذلك سهل على العرب المتعودين على مثل هذه الريح التغلب على الروم وإبادتهم بعد أن احتلوا الجسر وقطعوا خط الرجعة . فهو يقول يصف نهاية الروم السريعة بسبب تعرضهم لهذه الريح : (وسرعان ما وثبت جماعات من العرب الصائحين وكأنهم العقبان الكواسر يسيرون وكأنهم أشباح عبر الرمال المتدافعة على مواقع الروم) .

ثم يعترف الجنرال المؤرخ بأن المسلمين في المعركة التي سماها مذبحة قد

أبادوا الجيش الروماني عن بكرة أبيه مع أنه باعترافه أعظم وأقدر جيش على القتال في الشرق . فيقول في ص ٣٠٨ من كتابه : (ولو كانت العاصفة الرملية في ذلك اليوم كثيفة كما أعرفها لما تمكن جيش الروم من أن يخوض معركة مهما كان شكلها في ذلك اليوم . ثم يقول : ولما كان العرب قطعوا خط رجعة الروم باحتلالهم الجسر فقد وقعت مذبحة هائلة قتل فيها القائد الروماني العام تيودورس نفسه ، ولم يحل صباح اليوم التالي حتى كان جيش الروم الذي قضى هرقل أكثر من عام يصرف الجهد ويبذل كل ما في وسعه لاعداده وقد زال من الوجود ، فلم يكن هناك انسحاب أو عمليات تغطية خلفية أو نواة لنجاة من القتال ، لم يكن هناك شيء على الإطلاق ، ولم يبق من الروم إنسان) اهـ .

قلت يظهر أن الجنرال المؤرخ يخلط في اعتماده على المصادر الأجنبية والعربية لوصف معركة اليرموك في كتابه : إننا نوافق المؤلف أن مذبحة مروعة قد أصابت الجيش الروماني جعلته في حكم المعدوم ، غير أننا لا نوافقه على القول بأنه لم يبق من الجيش الروماني إنسان في هذه المعركة ، فهناك ثمانون الف فارس (كما ذكرت المصادر الإسلامية) من الرومان نجوا بأنفسهم هرباً عندما تمكنوا من الإنسحاب من القتال وهو على أشده ، وهؤلاء الخيالة هم الذين تحيروا وأرادوا الخروج من الميدان ، فمنع القائد خالد بن الوليد قائده للميمنة من مقاتلتهم وأمره بأن يفتح الطريق لهم ليذهبوا حيث شاءوا ، ففتح لهم الأمير عمرو بن العاص الثغرة التي ما بين ميمنة المسلمين وميسرة الروم فهربوا منها . وكان هذا التصرف من خالد تصرفاً حكيماً رائعاً بل من أروع تصرفاته السياسية العسكرية في تاريخه لأنه جنب جيش الإسلام الانشغال بمقاتلة أحسن وأقوى سلاح في جيش الرومان .

إلى هنا ينتهي حديث وإن شئت قل تخليط الجنرال جلوب باشا في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) .

العرب المتنصرة لم يكونوا عونا للمسلمين في حرب الشام بل على العكس

وبمناسبة الزعم بوجود خيانة من العرب المتنصرة داخل المعسكر الروماني قيل : إنها ساعدت العرب على الانتصار على الروم في اليرموك فحسب بل في الشام كلها نورد هنا بعض ما كتبه الدكتور شكري فيصل في كتابه (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول) والذي نفى فيه أن يكون للنصارى العرب أي يد في تحقيق الانتصارات التاريخية على الروم في الشام .

ومن الذين كذبوا وشوهوا تاريخ الإسلام وجعلوا للعروبة المجردة من الدين الفضل الأول في انتصار المسلمين في الشام ، فقال : ان الفتح الإسلامي كان حركة قومية وأن الفوز فيها للقومية العربية لا للدين الإسلامي فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب ص ١٩٧) .

وغالط الآخرون ليخففوا من شناعة انهزام الروم على أيدي المسلمين فيزعمون أن وجود العرب المتنصرة في الشام ساعد كثيراً المسلمين في عملياتهم الحربية حيث لقوا استجابة لدعوتهم حال دخولهم الشام من هؤلاء العرب . وقد فند الدكتور شكري فيصل هذه الادعاءات .

قال في كتابه المشار اليه تحت عنوان (موقف عرب الشام) :

« ان كثرة كثيرة من المؤرخين ترى أن انتشار العرب في هذه المنطقة على حدودها أو في أطراف مدنها ، كبصرى ودمشق أو في مناطق كبرى كالجزيرة كان من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي طريقه وأعانت عليه ، وليس فيهم من يذكر هذه القرابة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة دون أن يشير إلى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق الغلبة حتى ليرى بعضهم « أن الفتح كان حركة

قومية ، وأن الفوز للقومية العربية للدين الاسلامي »[1] .

والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق القول في ذلك منكرين له أو مؤمنين به ، إلا أن يتاح لنا أن نتتبع موقف عرب الشام من الحركة الاسلامية ومن جيوش التحرير ، وسنجهد أن نجعل ذلك في نطاق من التسلسل التاريخي حتى تكون الأمور أكثر استبانة وأشد وضوحاً .

وأول الحوادث التي تطالعنا على هذا النحو أن النبي ﷺ أرسل رسوله إلى قائد قلعة بصرى (العربي) يدعوه إلى الإسلام ويبصره بهذه الحركة التي قامت في قلب بلاد العرب .. ولكن الرسول يقتل .. والرسل منذ عرف تاريخ العلائق الإنسانية حرمتهم وأمنهم في أشد حالات الغضب وأقسى ألوان العداوة ، وما من شك في أن مقتل هذا الرسول في بلاد تقيم لمثل هذه التقاليد حرمتها يهب المطالع للمرة الأولى انطباعاً سيئاً عن تلقي عرب الشام للحركة الإسلامية[2] .

وفي مؤتة في العام الثامن الهجري ايلول (سبتمبر) ٦٢٩ تلقى سرية زيد أشد الهول وتلقف الرماح زيداً من كل نحو ، ويقتل جعفر ابن عمه ، ويموت بعده عبد الله بن رواحة ، ويستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا أسماؤهم ولا أعدادهم

---

(١) تاريخ العرب ص ١٩٧ للدكتور فيليب حتي اه قلت المعروف عن هذا الدكتور أنه كاتب صليبي طالما تنقص الإسلام ، وجرده من كثير من فضائله وجعل الفضل فيما وصل اليه المسلمون من أمجاد للعروبة المجردة من الدين كقوله (مثلاً) : ان الفتح الإسلامي كان حركة قومية ، الفضل في نجاحه للقومية العربية لا للاسلام ، بينما الواقع يكذب هذا الزعم فلولا العقيدة الإسلامية ما انتصر المسلمون في اليرموك والقادسية ونهاوند ولما وصلوا إلى مسافة لا تبعد أكثر من ثلاثمائة كيلو متراً من باريز في فرنسا . ولكنه التعصب الصليبي يعمي البصيرة .

(٢) وهذا من أكبر الرد على من يقولون إن الوجود العربي النصراني في الشام يسر للمسلمين الفتح .

وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب ويقتلونهم [1] .

وفي عام الوفود في العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة ومكن لهم من البيت وهو مثابة العرب وأملهم وموطن حرماتهم ، كانت تتطلق وفود القبائل من كل صوب تتجه إلى النبي ﷺ تمد يدها تبايعه على الإسلام والنصرة ، وتنضوي في نظامه الجديد .

وفي هذا الحين لم نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام أو عرب العراق ، لم نجد لا هجرة أفراد ولا توفد قبائل ، ولو كان شيء من التجاوب بين هؤلاء العرب (النصارى) والحركة الإسلامية لدلت عليها حادثات أو أنباء من طرف بعيد أو قريب .

وتكون غزوة تبوك في العام التاسع الهجري كذلك ، ويقبل على النبي ﷺ صاحب ايلة (وكانت ضمن الأراضي الحجازية) يوحنة بن رؤبة فيصالح الرسول ويكتب له عهده ، ويقبل ناس من أهل جرباء وأذرح فيصالحهم كذلك ويكتب لهم عهودهم ، ويكون الرسول قد قارب مشارف الشام ، ولكن عرب الشام لا يستيقظون لدعائه ولا يستجيبون لدعاته ، ولا يبادرون لنصرته وتأييده [2] .

ثم يقول : فإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام وجدنا أن موقف العرب (أي

---

(١) بل أثبت المؤرخون أن عدة قبائل عربية نصرانية كبيرة اشتركت الى جانب الروم في هذه المعركة وقاتلوا المسلمين بشراسة حتى أن قائد هؤلاء العرب المرتزقة واسمه (مالك بن رافلة) قد قتله المسلمون .

(٢) بل لقد قتلوا ثمانية عشر من أصحابه الذين دخلوا الشام يدعون الى الإسلام باسلوب سلمي (انظر كتابنا غزوة مؤتة) .

عرب الشام) لم يكن في كثير من المرات استجابة أو تأييداً ، وأن الروم كانت تضرب البعوث على عرب الضاحية ، وكانت تستنفرهم فينفروا اليها ، من قبائل بهراء و كلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان ، وكانت تحارب بهؤلاء المستنفرين في المواقع المختلفات ، بل انها كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع (أي على المسلمين) .

ففي إجنادين (مثلاً) بعث (القائد الروماني) القبقلار رجلاً عربياً – قال فحدثت أن ذلك الرجل من قضاعة من تزيد بن حيدان يقال له : ابن هزارف – فقال : ادخل في هؤلاء القوم يعني المسلمين ، فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتني بخبرهم قال : فدخل في الناس (المسلمين) رجل عربي لا ينكر ، فأقام فيهم يوماً وليلة ثم أتاه فقال له : ما وراءك ؟ قال : بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده .

بل لقد جاء في التاريخ ما يوحي العكس ، وهو أن العرب المتنصرة (وقد يكون بإيعاز من الرومان) خانوا المسلمين في أشد ساعات الحرج ، ذلك أنهم تظاهروا بالانضمام اليهم في إحدى المعارك ، فلما اشتد القتال بين الروم والمسلمين خذل العرب المتنصرة العرب المسلمين فانسحبوا من الميدان .

فقد جاء في حديث ابن اسحاق (كما يقول شكري فيصل) عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء المسلمين فيها أن يخص القبائل الشامية بهذا النص العجيب : وكانوا انضموا إلى المسلمين ، حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام فلما رأوا جد القتال فروا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين .

ثم يقول : موقف عرب الضاحية إذن يبدو موقفاً واضحاً ، فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام اليها ، وهم كذلك لم يولوها العطف

والحدب ، كان ذلك مواقفهم طيلة حياة النبي ﷺ ، وكان كذلك مواقفهم في حياة الخليفة الأول .. والقلة القليلة التي التحقت بالمسلمين عادت فحذلتهم فجأة في أحلك ساعات المعركة الكبرى التي فصلت في مصير الشام وفي أقسى مواقفها وعلى حين اضطر النساء المسلمات أن يسهمن بالعون وأن يقاتلن بالسيوف .

ثم يقول : ونحن بعد ذلك أن نستبين موقف العرب الشاميين من غير طريق الروايات ، ونستطيع أن نتمثله في حركات الفتح نفسها إذا تجاوزنا أيام حياة الرسول ﷺ والتمسنا لهم العذر عنها .. فمن الواضح أن البيزنطيين لم يكونوا يقاتلون بالبيزنطيين وحدهم ، كانت كثرة من جيوشهم من هؤلاء العرب أنفسهم ، فمن هم الذين قاتلوا في وادي عربة ؟ ومن هم الذين قاتلوا في إجنادين وفي دمشق ؟

كيف كان يستطيع المحاصرون أن يحفظوا على أنفسهم هذا الحصار ستة أشهر أو سبعة لو رفت في نفوس العرب صلات القربى وحمي فيهم دم النسب المشترك .

ثم يذكر كيف قاتل جبلة بن الأيهم وقومه غسان جيش الاسلام في اليرموك فيقول : أكان ذلك اضطراراً أو إكراهاً ؟ وكيف لحقت بعض القبائل ، بعد أن استقر للمسلمين الأمر وانتهى اليهم الزمام ، بهرقل ومضت معه إلى بلاد الروم [1] ؟ اهـ ج ٢ ص ٢٩ . المجتمعات الاسلاميه .

عامل العقيدة الذي نكب الروم تجاهلهم له

ويتحدث الأستاذ شكري فيصل عن خطأ كبير وقع فيه الروم وهم يقاتلون المسلمين في اليرموك وغيرها وهو جهلهم بالفعالية الشديدة من عقيدة الاسلام

---

(١) الطبري ج ١ ص ٢٣٤ .

في نفوس العرب فيقول : في كتابه المذكور (المجتمعات الاسلامية في القرن الأول) :

أما الأساليب الحربية التي اعتمدها العرب فلم تكن شيئاً قط غير إيمانهم وشجاعتهم وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال [1] . ولو كان من سبيل إلى الحديث عن الأساليب لكان هذا الحديث من نصيب الروم ، هؤلاء الذين كان تاريخهم سلسلة من الحروب ، أفادتهم الدربة والمعرفة بفنون القتال ، وعلمتهم استعمال الابل والخيل على حد سواء ، لأنهم حاربوا العرب في هذه الأرض التي حاربهم بها المسلمون .. فلم يكن هناك مجال لهذه التعلات لا بطبيعة الأرض ولا بأدوات الحرب ولا بأساليبها ، فذلك كله مما الف البيزنطيون وعرفوه تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة التي عاشوها في هذه البلاد والحروب الوبيلة التي أشجوا بها وشجوا ، وان الانسان ليدافع بسمة عريضة حين يرى أن التماس العذر للروم واعتبار الفتح حركة قريبة يسيرة ، لا يكون إلا على حساب اضطراب الحقائق وجعل الحروب بين المسلمين والبيزنطيين في فلوات آسيا وصحاري أفريقيا ، على حين لم تكن في هذه الفلوات والصحاري ، وإنما كانت في المدن والوديان وعلى أطراف الأنهار ، وفي بلاد سكنها البيزنطيون ستة قرون أو تزيد ، وكانت حامياتهم وجنودهم في كل ناحية منها وطرف فيها .

ثم يتحدث الأستاذ شكري فيصل عن التغيير الجذري إلى الأفضل الذي أحدثته عقيدة الاسلام في نفوس العرب ، وجهل الروم بهذه الحقيقة فيقول :

والحق أن الروم كانوا يهملون هذه النقلة النفسية العميقة التى أصابها العرب

---

(١) نص القرآن الكريم على أن الهرب من القتال من الكبائر قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) الأنفال آية ١٥ و ١٦ .

فى الدين الجديد ، وكانوا على غير وعى واضح بحقيقتها البعيدة ، وأنها نظام جديد آمن به العرب فوهبهم حياة داخلية جديدة تغاير كل ما كانوا عليه ، وأنهم دعوا إلى هذا النظام وأرادوا غيرهم على الايمان به ، وخرجوا من أجل هذه الغاية التى كانت تتيح لهم خير الدنيا والآخرة .

ويبدو أن هذه الجهالة كانت مصدراً لكثير مما آل اليه الأمر .

فقد أعمت الروم عن قوة العرب وعن تقويم هذه العقيدة التى تكمن وراءها فلم يستطيعوا أن يدركوا الهجرة فى غير موضع الهجرات السابقة ظناً أنها الغارات ، ثم لا يلبثن أن ينجلين .. ولذلك طاولوا فى القتال ومدوا من أيامه مؤملين أن يكون فى ذلك ملك للعرب يعود بهم إلى مصدرهم.. ولكن العرب فى هذه المرة لم يكونوا عرباً مرتادين (أي طلاب مال) ولكنهم كانوا عرباً مسلمين ودعاة مهاجرين .

ولم يكونوا من هذه القبائل الشمالية التى تنشد النفع ثم ترتد فحسب، ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة لا يردهم شيء عن غايتهم ، لأنهم ليس لهم إلا إحدى الحسنيين ، وليس لأعدائهم إلا اختيار واحدة من ثلاث .

ولذلك كان من خطل الرأي وسوء التقدير ما يروون من أن هرقل قال لأمير حمص بعد موقعة مرج الروم : « بلغني أن طعامهم لحوم الابل وشرابهم البانها ، وهذا الشتاء ، فلا تقاتلوهم إلا فى كل يوم بارد فإنهم لا يبقى إلى الصيف منهم أحد هذا جل طعامه وشرابه » وما يروون أيضاً من « أن أهل حمص كانوا يتواصون بينهم ، ويقولون : تمسكوا فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون » .

لقد غاب عن فطنة الروم أن نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يعد هؤلاء الناس

لهذه الدعوة ، وأن هذا الاعداد هو المدة التى كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين .

ثم يؤكد مقاومة العرب النصارى فى الشام للإسلام مثل مقاومة الرومانله تماماً حيث يقول :

لقد دخل الاسلام بلاد الشام فلقي من مقاومة النصارى مثل ما لقى من مقاومة العرب .. لم يكن دخوله ترحيباً ولم تنصب له الرايات ولم تستقبله على الحدود الوفود ، وإنما تألبت عليه هذه الطبقات جميعاً على اختلاف فى البواعث وتباين فى الأغراض ، ولقى مقاومة العرب (أي النصارى) كما لقى مقاومة الروم ، وكما لقى مقاومة النصارى ، ولعله أن يكون قد وجد منفذاً لحيويته وصلاحيته من خلال هذا الاختلاف والتباين .

أما الأسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها ، سواء ما اتصل منها بالروم أو العرب أو النصارى ، فهي لا تعدو أن تكون ظلالاً خفيفة لاتدل على الحقيقة إلا بمقدار ما تستر منها .

أما الحقيقة ذاتها فهي تكمن وراء ذلك .. تكمن في أنه كان في حركة الاسلام دعوة ، وكان يتنفس بروح معنوية رفيعة ، على حين لم يكن لدى القوى التي واجهته مجتمعة مثل هذه الروح .

الروم يوقنون أن الأرض لم تكن أرضهم – والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش ، فإذا جد الجد سيلتقون معهم بحبل من قرابتهم لهم .

والنصارى بين أن يكونوا عرباً أو روماً وقد ضاعت حماستهم الدينية في ثنايا هذه الأغراض الملتوية الأخرى ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يؤول الأمر إلى مثل ما آل اليه [1] .

---

(١) المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ج ٢ ص ٢٦ وما بعدها .

إلى هنا وأعتقد أننا بما أوردناه من ردود وإيضاحات قد أزلنا السحب والغيوم التي حاول المتعاطفون مع الرومان والمتعصبون لهم أن يستروا بها شناعة الهزيمة المدمرة المخزية التى أنزلها العرب المسلمون بهم في معركة اليرموك الحاسمة والتى كانت فيها قوات المسلمين أربعين الفاً ضمنها عشرة آلاف فارس فقط ، يقابلها مائتان وأربعون الفاً من الرومان ضمنها ثمانون الف فارس .

ما بعد اليرموك

وهكذا وبعد أن كسب المسلمون معركة اليرموك اتضحت الرؤية تماماً للامبراطور هرقل فتبين له أن لا أمل له في أن يستمر ملكاً على الشام ، فقرر مغادرتها وغادرها إلى القسطنطينية بعد أن ترك خلفاً له يتولى إدارة شؤون ما تبقى من أقاليم في أيدي الروم ، وودع سوريا الدرة الثمينة اللامعة في التاج البيزنطى وداعاً لا عودة بعده .

ان الذي عمل على كسب معركة اليرموك بشجاعته وإيمانه (بعد توفيق الله) هو القائد خالد بن الوليد الذي أصبح صبيحة انتهاء المعركة جندياً عادياً من جند الإسلام بعد أن عزله عمر بن الخطاب الخليفة الجديد عن إمارة الشام وأسندها إلى أمين الأمة الطيب الخير أبي عبيدة بن الجراح الذي لم يستغن عن خالد وأبقاه كبير مستشاريه العسكريين لا يفارقه .

توزع الفلول الرومانية

وبعد معركة اليرموك توزع من بقى على قيد الحياة من الروم والعرب المتنصرة وعددهم يناهز الثمانين الفاً توزعوا فلولاً على مقاطعات مختلفة كانت حتى بعد المعركة خاضعة لسلطان بيزنطا ، وأكثرهم التجاء إلى العاصمة دمشق ، وإلى مدينة فحل وهي مدينة حصينة في الأردن .

أما جيش الإسلام بعد انتصاره في اليرموك فقد أبقاه قائده الجديد أبوعبيدة

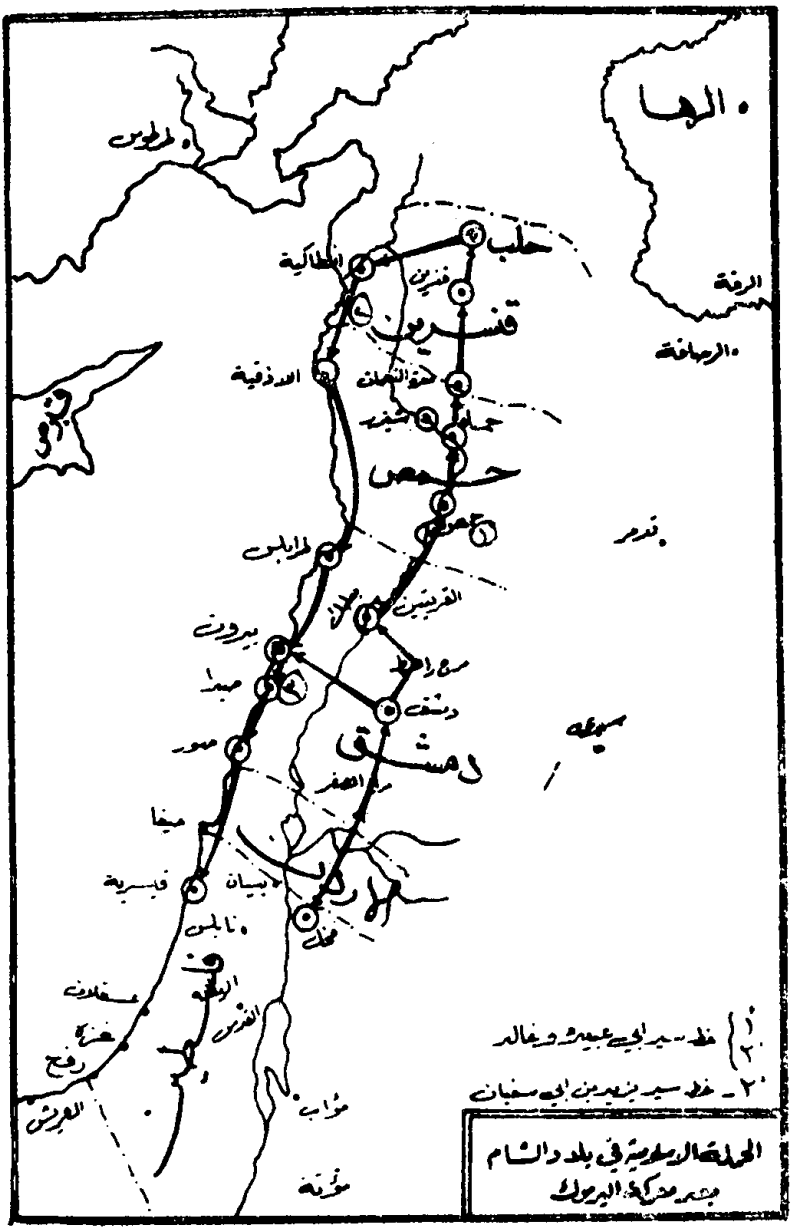
الجزيرة
الرقة
الرصافة
حلب
انطاكية
قنسرين
الاردنية
حمص
تدمر
فلسطين
الغور
القدس
غزة
رفح
العريش
مؤاب
مؤتة
١ ، ٢ خط سير ابي عبيدة وخالد
٢ ـ خط سير يزيد بن ابي سفيان
الحملة الاسلامية في بلاد الشام
بقيادة ابي بكر

فترة من الزمن يستجم فيها من عناء القتال الضاري الذي قام به في تلك المعركة الحاسمة ، بينما أخذ أبو عبيدة في توزيع الغنائم على المجاهدين وخمس الأخماس وبعث بها إلى الخليفة الجديد عمر في المدينة .

وذلك هو نظام الإسلام يؤخذ خمس الغنائم الحربية ويوضع في خزينة بيت مال المسلمين ليصرف في مصالحهم ، أما المقاتلون المسلمون المنتصرون فيأخذون في مكان المعركة ما يخصهم حسب نظام الإسلام . وهذا الذي حدث كما يحدث دائماً بعد كل معركة ينتصرون فيها .

معركة مرج الصفر

وبعد انتهاء اليرموك نشطت (بعد انتهاء مطاردة فلول الروم المنهزمة) مخابرات الجيش الإسلامي في التحري ، وأثناء تحريها حصلت على معلومات أن بعض القادة الرومان تحاول بعث الحياة العسكرية في نفوس المنهزمين من فلول اليرموك ، فحاول تجميعهم ، بل نجح في حشدهم في مكان يقال له : (مرج الصفر) وهو كما قال ياقوت ج ٥ ص ٣٦٧ : المرج أو السهل الذي يقع جنوبي نهر الأعور على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً غربي دمشق .

وهو المكان الذي نكب فيه أول قائد إسلامي وهزم فيه جيشه وهو خالد ابن سعيد بن العاص الأموي الذي كان أول قائد يقتحم بجيش الإسلام الشام قبل القادة الأربعة ، وقد تقدم تفصيل فشل هجومه فيما مضى من هذا البحث .

ولما تبلغ أبو عبيدة هذه المعلومات عن الحشد الروماني لمقاتلته في مرج الصفر قرر التحرك بسرعة لضرب المحتشدين هناك .

ولما كانت اليرموك وفيها فتحة درعا (بوابة الشام) ترك أبو عبيدة بها حامية تحمي الجيش الإسلامي من أن يضربه الروم من الخلف ، ثم تحرك بعامة الجيش إلى مرج الصفر الواقع شمال غربي اليرموك ، وهناك التقى بجمع عظيم من الروم ،

كان هرقل (في محاولة يائسة) قد أمدهم بقوات كبيرة ليقيموا بعد اليرموك خط دفاع جديد عن العاصمة دمشق .

فاشتبك معهم القائد أبو عبيدة في معركة قاتل فيها الرومان المسلمين بحنق وغيظ فكانت معركة ضارية ، إلا أنها كانت قصيرة ، وقد ذكر المؤرخين أنه لكثرة القتلى في المعركة هذه جرت الدماء في الماء وطحنت به الطواحين .

وقد انتصر أبو عبيدة في المعركة وحطم الجيش الروماني ، ولكنه رغم انتصاره الحاسم السريع فقد مني جيشه بخسائر كبيرة ، حيث بلغ عدد الجرحى فقط في المعركة من المسلمين أربعة آلاف ، وفي معركة مرج الصفر هذه استشهد القائد الكبير خالد بن سعيد الذي كان أول غاز في سبيل الله اقتحم الشام بجيشه ، وكان خالد في الليلة التي كانت صبيحتها معركة مرج الصفر قد تزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام مخلفة الشهيد عكرمة بن أبي جهل ، وكانت امرأة ذات عقل وشجاعة ، فلما بلغها مصرع زوجها خالد بن سعيد انتزعت عمود الفسطاط ، ثم قاتلت به عساكر الروم حتى قتلت منهم عدة جنود ، وان ريح عطر العرس ليفوح منها رضي الله عنها وأرضاها ، وقد كانت هزيمة الروم في مرج الصفر هزيمة ساحقة ، وهربت فلولهم إلى العاصمة دمشق فتحصنوا فيها وذلك هلال المحرم سنة أربع عشرة هـ فتوح البلدان ص ١٢٥ .

أبو عبيدة يستشير الخليفة بشأن الجهة التي يزحف عليها

وبعد انتصار أبي عبيدة في معركة مرج الصفر نظر في فلال الروم ، فوجد أن فريقاً منهم التجأ إلى الأردن واحتمى بمدينة فحل ، وهي مدينة استراتيجية حصينة ، وفريقاً لجأ إلى دمشق العاصمة واعتصم بها ، وتحركت النجدات الرومانية من حمص .

وفكر أبو عبيدة في الأمر ، فلم يستطع أن يبت في الأمر ، هل يبدأ بمدينة

فحل ويصفي الحساب مع المعتصمين بها ثم يتجه إلى دمشق فيتدبر أمر فتحها ، فقر رأيه أن لا يتعجل في الأمر ، فكتب إلى الخليفة عمر ، يستشيره فيما يفعل بعد أن شرح له الوضع ، وأقام بمرج الصفر في انتظار الجواب من الخليفة الثاني.

ولم يطل بأبي عبيدة المقام بالمرج ، إذ جاءه الجواب من الخليفة عمر ، وكان يتضمن تعليمات يأمره فيها بأن يقسم جيشه إلى قسمين .

القسم الأكبر منه يقوده بنفسه ويهاجم به العاصمة دمشق،وقسم وهو الأصغر يأمره بالانحدار جنوباً فيهاجم الرومان المجتمعين في مدينة فحل ، فإن تمكنوا من فتحها فذلك الذي يبغي المسلمون والخليفة ، وإن استعصت عليهم ، فعليهم أن يفرضوا عليها الحصار الشديد ويشاغلوا حامياتها حتى يفرغ القائد العام أبو عبيدة من الاستيلاء على العاصمة دمشق ، ثم ينضم اليهم بالقوة الرئيسية ويتم على أيديهم فتح مدينة فحل الحصينة ، وكانت فحل تقع في منطنة تحيط بها المياه لأنها على نهر اليرموك .

ولما وصلت تعليمات الخليفة إلى قائده الجديد أبي عبيدةصدع بالأمر،فاستدعى المحارب الشهير أبا الأعور السلمي وأسند اليه قيادة القوة التي اختارها لمهاجمة مدينة فحل ، وأمر تسعة من القادة الآخرين ليكونوا مساعدين لقائد القوة أبي الأعور في مهاجمة مدينة فحل ، وهؤلاء القادة التسعة هم :

١ – عبد عمرو بن يزيد .
٢ – عامر بن حثمة .
٣ – عمرو بن كليب .
٤ – عمارة بن الصعق .
٥ – صيفي بن علبة بن شامل .
٦ – عمرو بن الحبيب بن عمرو .

٧ – لبدة بن عامر بن خشعة .

٨ – بشر بن عصمة .

٩ – عمارة بن مخش .

ومع كل قائد من التسعة خمسة قادة مساعدين ، وكان الرؤوساء يكونون من الصحابة حتى لا يجد أحد في نفسه غضاضة ، لأن الصحابة أفضل من غيرهم ممن هم في الجيش من غير الصحابة .

متاعب المسلمين في مهاجمة فحل

وحسب أمر القائد العام تحركت القوة المكلفة بمهاجمة مدينة فحل نحو الجنوب ، وعندما وصلت مشارف فحل وشرع في مهاجمتها اصطدم بمتاعب عظيمة ، وكاد أن يقع في كارثة لولا أن نجاه الله من مكيدة أعدها الرومان له للإيقاع به .

فقد كانت مدينة فحل في منطقة غزيرة المياه ، وكانت قريبة من بحيرة طبرية ، فلما تبلغ الروم في فحل من استخباراتهم بتحرك القوة الإسلامية نحو فحل ، سارعوا وأمروا العمال بشق الترع من بحيرة طبرية وسلطوا مياهها على الأطيان المحيطة بفحل ، بقصد إعاقة جيش الإسلام عن التحرك وخاصة الفرسان بإيقاع خيلهم وجعلها عاجزة عن الحركة عندما تتورط في الطين المغمور بالماء .

فقد جعل الرومان من هذه الأوحال خط دفاع منيع عن مدينة فحل رغم أنها تقع في سهل منبسط ، لو كان هذا السهل يبساً لتمكن المسلمون بسهولة من اقتحام المدينة ، لأنهم أقدر الناس على مباشرة حرب الصحراء . ولكن الحواجز المائية التى غمرت الطين المحيط بفحل جعلت جيش الإسلام يقع فى ورطة خطيرة مخيفة .

فقد خدع قائد الجيش الاسلامى فأمر بالهجوم على مدينة فحل ، وكانت فرق الخيالة فى المقدمة ، فلما شرعت الخيل في التقدم ، وكان يمكن أن تنزل بسلاح الفرسان كارثة لو أن الروم خرجوا من مدينة فحل وهاجموا الخيالة المتورطة خيلهم في الوحل .

ولكن عناية الله تعالى ألهمت القائد العام أبا الأعور السلمى ، فأصدر أمره السريع إلى جميع فرق الجيش وخاصة سلاح الخيالة بالتراجع والتوقف عن التقدم ، وأن يخرجوا بأسرع ما يمكن من الأرض المغمورة بالمياه إلى اليابسة .

وفي الحال أخذت الكتائب الاسلامية في التراجع ، حتى خرجت من حقول الوحل ، ولاقى سلاح الفرسان صعوبة شديدة في التخلص من تلك الحقول ، لأن الخيل كانت قد تورطت وغاصت أرجلها في الوحل ، ومع ذلك تمكن الجميع من التخلص من مناطق الوحل التى تورطوا فيها ، وكان أهل فحل من الروم ينظرون إلى ما يعانيه المسلمون في التخلص من حقول الوحل ، ولكنهم لم يجرأوا على اغتنام فرصة تورطهم فيهاجمونهم ، وذلك لما تطفح به (بعد اليرموك) قلوب الروم من رعب من الجندي المسلم ، لأن أكثر الذين يعتصمون بفحل هم من الفلول التى نجت من سيوف المسلمين في اليرموك .

وقد تمكن (وبصعوبة) جيش الاسلام من التخلص من الوحل الذي وقع فيه ، ومن عجب أن المستنقعات هذه التى أحاط الرومان بها فحل قد وقعوا هم فيها فيما بعد ، فأبادهم الجيش الاسلامى وهم متورطون فيما صنعت أيديهم كما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

ولقد اكتفى المسلمون بفرض الحصار على مدينة فحل التى يعتصم بها ثمانون ألفاً من الرومان إلى أن فرغ أبو عبيدة من السيطرة على العاصمة (دمشق) فضم جيشه إلى جيش أبي الأعور السلمى ، ثم تم لهما فتح فحل ،

وبهـذا تخلصوا من أكبر حامية رومانية (بعد الرملة واللد والقدس) بقيت في الجنـوب .

قال أبو جعفر الطبري يصف اعتصام الرومان بمدينة فحل :

فسار المسلمون من مرج الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل ، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فأردغت الأرض [1] ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك ، فحبسوا عن المسلمين ثمانين الف فارس [2] .

فتح مدينة فحل

ويقول الطبري : وكان أول محصور بالشام (أي بعد حرب اليرموك)أهل فحل ثم أهل دمشق .

وظل فيلق أبي الأعور السلمي محاصراً مدينة فحل حتى فرغ أبو عبيدة من دمشق ، فجاء بالقوات الرئيسية إلى منطقة فحل ، وقد اغتر الروم فهـاجموا مقدمة الجيش الاسلامي الذي يقوده أبو عبيدة وكان على مقدمته شرحبيل بن حسنة ، فصمد لهم المسلمون ، وكان هجوم الروم عنيفاً حيث كان بقوة قوامها حوالي ثمانين الف فارس ، وقد حدثت الفوضى في الجيش الروماني المهاجم والفزع للهجوم المضاد الذي قام به شرحبيل بن حسنة ، فوقع الرومان لدى انهزامهم في حقول الوحل التي أحدثوها ببثق الجداول حول مدينة فحل، فركب المسلمون أكتافهم ، وأبيد الثمانون الفاً من الرومان ولم ينج منهم إلا الشريد ويقول شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبري يصف فتح مدينة فحل :

« خلف أبو عبيدة على الناس بعد فتح دمشق يزيد بن أبي سفيان في دمشق ، وسار نحو فحل ، وعلى الناس شرحبيل بن حسنـة ، فبعث خالداً على المقدمة

---

(١) الرداغ الوحل الشديد .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٣٨

وأبا عبيدة على مجنبتيه (الميسرة والميمنة) وعلى الخيل ضرار بن الأزور، وعلى الرجل (أي المشاة) عياض بن غنم ، وكرهوا أن يصمدوا لهرقل (أي في حمص) وخلفهم ثمانون الفاً « يعني الروم الموجودين في فحـل » ، وعلموا أن من بإزاء فحل جنة الروم [1] واليهم ينظرون .

وان الشام بعدهم سلم ، فلما انتهوا إلى أبي الأعور قدموه إلى طبرية، فحاصرهم ونزلوا على فحل من الأردن ، وقد كان أهل فحـــل حين نزل بهم أبو الأعور تركوه وأزروا إلى بيسان ، فنزل شرحبيل بالناس فحلاً ، والروم ببيسان بينهم وبين المسلمين تلك المياه والأوحال ، وكتبوا إلى عمر بالخبر ، وهم يحثون أنفسهم بالمقام ولا يريدون أن يريموا فحلا حتى يرجع جواب كتابهم من عند عمر ، ولا يستطيعون الاقدام على عدوهم في مكانهم لما دونهم من الأوحال .

وكان العرب تسمي تلك الغزوة فحلاً وذات الردغ وبيسان .

وأصاب المسلمون من ريف الأردن أفضل مما فيه المشركون، مادتهم متواصلة وخصبهم رغد ، فاغترهم القوم ، وعلى القوم « أي الروم » سقـــلار بن مخراق ورجوا أن يكونوا على غرة ، فأتوهم والمسلمون لا يأمنون مجيئهم ، فهم على حذر.

وكان شرحبيل بن حسنة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة ، فلما هجموا على المسلمين عافصوهم [2] ، فلم يناظروهم ، واقتتلوا بفحل أشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل ، فأظلم عليهم ، وقد حار الروم، فانهزموا وهم حيارى، ولقد أصيب رئيسهم سقلار بن مخراق ، والذي يليهم فيـــه نسطورس ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه ، وركبوهم ، وهم يرون أنهم على قصد وجدد ، فوجدوهم حيارى لا يعرفون مأخذهم ، فأسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل

---

(١) جنة بضم الجيم بمعنى الوقاية .

(٢) عافصوهم بمعنى فجأوهم وأخذوه على غرة .

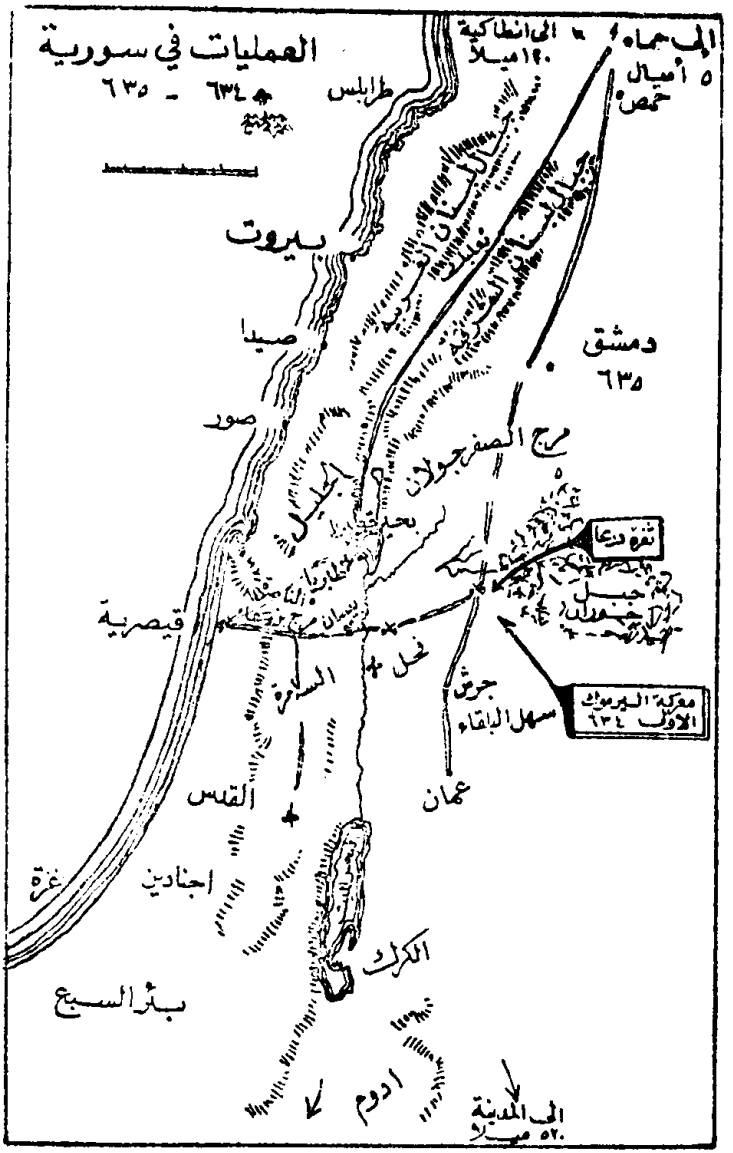
العمليات في سورية
٦٣٤ - ٦٣٥
الى انطاكية
١٢٠ ميلا
الى حماه
٥ أميال
حمص
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
دمشق
٦٣٥
مرج الصفر
جولان
الجليل
بحيرة طبرية
نقرة دعا
جبل جولان
قيصرية
السامرة
فحل
جرش
سهل البلقاء
معركة اليرموك الأولى ٦٣٤
القدس
عمان
غزة
اجنادين
الكرك
بئر السبع
ادوم
الى المدينة ٥٢٠ ميلا

فركبوه ، ولحق أوائل المسلمين بهم ، وقد وحلوا فركبوهم ومايمنعون يدلامس فوخزوهم الرماح ، فكانت الهزيمة في فحل ، وكان معظمهم في الرداغ ، فأصيب الثمانون الفاً ، ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وكان الله يصنع للمسلمون وهم كارهون ، كرهوا انبثاق الماء ، فكان عوناً لهم على عدوهم وأتاة من الله ليزدادوا بصيرة وجداً ، واقتسموا ما أفاء الله عليهم «أي ما أكسبهم من غنائم» وانصرف أبو عبيدة من فحل إلى حمص ، وصرفوا سمير بن كعب معهم ، ومضوا بذي الكلاع ومن معه ، وخلفوا شرحبيل ومن معه اهـ .

فتح العاصمة دمشق

فيما مضى من بحث ذكرنا أن القائد العام أبا عبيدة بعد انتصاره الحاسم الثاني على الروم في مرج الصفر قريب دمشق ، وجه (وبأمر من الخليفة) قسماً من جيشه للاستيلاء على مدينة فحل في الجنوب أو حصارها إذا لم يستطيعوا فتحها ، وذكر كامل قصة استيلاء المسلمين على مدينة فحل .

أما القسم الأكبر من الجيش فقد تحرك (حسب تعليمات الخليفة) لمهاجمة العاصمة دمشق بقيادة القائد العام نفسه أبي عبيدة ومساندة الأمير السابق خالد ابن الوليد ، وقد فتحت مدينة دمشق قبل مدينة فحل ولكننا تمشياً مع السياق ذكرنا فتح فحل قبل فتح دمشق .

لقد كان الخطاب الذي تلقاه أبو عبيدة (وهو بمرج الصفر) من الخليفة عمر يتضمن تفصيل الخطة للاستيلاء على العاصمة دمشق .

وخلاصة الخطة تقضي بفرض الحصار على المدينة العاصمة والطلب من حاميتها الاستسلام على أساس الصلح تجنباً لسفك الدماء إذا لم يرغبوا في الدخول في الإسلام ، ثم اقتحامها إذا رفض مسؤولوا دمشق الدخول في الإسلام أو قبول ذمة المسلمين بدفع الجزية في صلح يبرم بين الفريقين .

أما المخطط الذي رسمه الخليفة الفاروق لقائده في الشام ابن الجراح فهي كما يلي :

يمنع وصول أية إمدادات من أي ناحية في الشام لدعم المحاصرين في دمشق ولتحقيق هذا الهدف أمر الخليفة الفاروق أن ترابط وحدات من جيش الإسلام في الطرق التي يمكن أن تصل عبرها الإمدادات إلى المحصورين في دمشق .

وتنفيذاً لأوامر الخليفة قام أبو عبيدة بإرسال عدة وحدات للمرابطة على الطرق الآتية :

١ — طريق حمص دمشق ، وقد رابطت فيها وحدات قتالية بقيادة الملك السابق لليمن ذي الكلاع الحميري ، وكانت مهمته التعرض لأي مدد قد ترسله حمص لدعم دمشق ومنعه من الوصول اليها .

٢ - طريق دمشق الأردن فلسطين حيث لا تزال للرومان قوات كثيفة هناك وحيث لا تزال الموانيء البحرية تحت سيطرتهم ، وقد رابط على هذا الطريق جيش بقيادة علقمة بن حكيم يعاونه مسروق بن العيسى ، وهذان الطريقان هما (كما علم الخليفة من عيونه) أهم الطرق التي يمكن أن تتلقى العاصمة دمشق عبرهما المدد من الرومان .

ذلك أن حمص هي العاصمة الثانية حيث كانت مقراً للملك هرقل ، وبها أسلحة وذخائر وأطعمة وقوات كثيفة .

أما فلسطين والأردن توجد فيهما قوات كبيرة ، ففي فحل وحدها ثمانون ألفاً من الروم ، وذلك في الأردن .. وفي فلسطين عدد من المحاربين يزيد عن عدد قوات فحل ، موزع في اللد والرملة والقدس والمدن الساحلية حيث يستطيع الأسطول إنزال الجنود فيها للدعم والمساعدة ، ومن المعلوم (كما أشرنا فيما مضى) أن قوات فحل لم تدمر على يد المسلمين إلا بعد فتح دمشق ..

وقد ذكر الإمام الطبري (باختصار) الخطة التي رسمها الخليفة الفـــاروق لفتح دمشق ، فقد كتب إلى أبي عبيدة : (أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم ، وأهل فلسطين وأهل حمص فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمرو بن العاص وأخلهـــما بالأردن وفلسطين . ثم يقول أبو جعفر : فبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص رداً ، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً ، فكانا بـين دمشق وفلسطين ، والأمير عليهما يزيد بن أبي سفيان .

والجدير بالذكر أن الوحدات القتالية التي كلف علقمة أن يمنع بها حمص أن تمد دمشق ، لم يحاول فرض الحصار على هذه المدينة كما فعـل أبو الأعور السلمي حين حاصر فحل ، بل ظل علقمة بوحداته في الطريق بين دمشق وحمص حتى فتح الله على المسلمين دمشق .

وبعد أن تحركت كل من القوتين : فرقة أبي الأعور جنوباً نحو فحل: وفرقة علقمة بن حكيم شمالاً لترابط بين حمص ودمشق : تحرك القائد العام أبو عبيدة من مرج الصفر بقواته الرئيسية نحو العاصمة دمشق التي لا تبعد عن مرج الصفر أكثر من عشرين ميلاً ، وكان يتحرك بالجيش وهو على استعداد وتعبئـة تامة ، لأنه كان يتحرك في مناطق مزروعة بالعناصر الرومانيـــة والعرب المتنصرة الموالين للرومان .

فهو يخشى أي هجوم مفاجيء على جيشه من هذه العناصر المعادية .

وكانت تعبئة جيشه على النحو التالي :

١ – خالد بن الوليد قائد للقلب .

٢ – القائد العام نفسه وعمرو بن العاص قائدان للميمنة والميسرة .

٣ – عياض بن غنم الفهري قائد للفرسان .

٤ – شرحبيل بن حسنة قائد للمشاة .

وسلفاً أبلغ القائد أبو عبيدة (وهو يضع خطة الهجوم على دمشق) أربعة من القادة بأنهم بالإضافة اليه سيتولون قيادة الهجوم على العاصمة دمشق .

وهؤلاء القادة هم : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، شرحبيل بن حسنة ، يزيد بن أبي سفيان .

وقد حدد القائد العام أثناء رسم خطة الهجوم على دمشق خمسة مواقع تحيط بها من كل جانب ، وهذه المواقع هي :

١ – الموقع : باب توما ويقع شمال شرق دمشق وأمر عمرو بن العاص بالمرابطة فيه .

٢ – الموقع المسمى بباب الجابية ويقع جنوباً تجاه حوران ، وقد رابط فيه القائد العام نفسه .

٣ – الموقع المسمى بباب الفراديس ويقع شمال العاصمة ، وقد أمر شرحبيل ابن حسنة بالمرابطة فيه .

٤ – الباب الشرقي للمدينة (وهو أهم المواقع) وقد أمر بالمرابطة فيه خالد بن الوليد .

تاريخ حصار دمشق

ويذكر المؤرخون أن حصار دمشق بدأ في اليوم السادس عشر من شهر محرم سنة أربع عشرة هجرية .

وقد تعب المسلمون في حصار دمشق ، إذ استمر حوالي سبعين يوماً .

ومما أطال الحصار وأعاق تحركات المسلمين في زحفهم على دمشق أن الرومان قد أحاطوا المدينة بسور عظيم ، جعلوا بين هذا السور وبين جيش المسلمين مانعاً صعباً للغاية وهو خندق واسع عميق مملوء بالماء يصعب على الجند اجتيازه ليصلوا إلى سور المدينة ، وزاد الأمر صعوبة أن أكثر الجند الإسلامي من أبناء الصحراء لا يجيدون السباحة ، حتى أنهم في النهاية استخدموا القرب المنفوخة لاجتياز الخندق المشار اليه .

تسليط القذائف على دمشق أثناء الحصار

كان المسلمون أثناء انتصاراتهم في معاركهم قبل فتح دمشق قد غنموا كمية كبيرة من الأسلحة الثقيلة كالعرادات والمنجنيق من الرومان أنفسهم .

ولما كانت دمشق حصينة مطوقة بالأسوار العالية والخنادق العميقة المملوءة بالماء ، فقد طال حصارها على المسلمين ، فاضطروا إلى استخدام هذه الأسلحة الثقيلة التي هي من صنع روماني ، فصاروا يقذفون دمشق بقذائف المنجنيق والعرادات وكانت القذائف أحياناً تحمل النار لإحراق ما يمكن إحراقه من المواقع الحربية ، وكان النفط قد عرف في ذلك العصر ، فصاروا يستخدمونه لإشعال القذائف وتسليطها على مواقع العدو في المدينة المحصورة .

ومع تعب المسلمين لطول الحصار حيث صمدت حامية دمشق القوية ، فإن أهل دمشق أيضاً قد أرهقهم الحصار وأخذت المواد الضرورية تنفد عندهم ، لأن المسلمين تمكنوا من منع أي إمداد يصل من الخارج عن العاصمة المحصورة ، ولذلك تضايق أهل دمشق وحملوا حاكمها على قبول التفاوض مع المسلمين المحاصرين ، ففتحت المدينة بعد حصار دام سبعين يوماً ، ولو أن شيئاً من الإمدادات وصل باستمرار إلى المدافعين عن دمشق لصمدوا شهوراً طويلة ،

إحكام المسلمين الحصار وسيطرتهم على طرق القوافل التي يمكن للرومان خارج دمشق أن يمدوها بالمؤن والذخائر ، عجل بفتح المدينة .

لأن الحاميات الإسلامية المسيطرة على الطرق والمسالك تستولي على كل مدد يرسله الرومان للمحصورين في العاصمة دمشق .

كان الملك هرقل قد كلف محافظ دمشق الروماني بأن يصمد في وجه هجوم الجيش الإسلامي وأعطاه وعداً بأن يبذل كل ما في وسعه ليجعل الأمدادات الغذائية والذخائر تصل اليه تباعاً تحت حراسة جيوش قوية ، وكان الفصل شتاء فاستعد حاكم دمشق وقائد حامياتها للصمود في وجه المسلمين ، واثقاً من عاملين اثنين كان على ما يشبه اليقين بأنهما سيجعلان المسلمين يفشلون في حصارهم وأنهم سيضطرون لفك الحصار عن العاصمة .

العامل الأول : الامدادات التي وعده بها الملك هرقل .

العامل الثاني: شدة البرد في فصل الشتاء الذي فرض المسلمون فيه الحصار على العاصمة .

ولذلك ما كان حاكم دمشق وقائد حامياتها يتصور أن المسلمين سيصبرون على طول الاقامة حول أسوار دمشق محاصرين وخاصة لأنهم لا يتحملون شدة البرد الذي يبلغ درجة هبوب ريح الصقيع التي تكاد تبتر الأطراف لشدةماتحمله من برد شديد ودمشق معروفة بشدة الصقيع في الشتاء .

ولكن المسلمين (رغم شدة البرد القارس) صبروا وتحملوا لسعاته الحارقة التي لا يعرفونها . فظلوا مرابطين حول أسوار المدينة يفرضون حصاراً خانقاً ، ويسلطون عليها قذائف الأسلحة الثقيلة ، وتضايق حاكم دمشق من صبر المسلمين وضاق سكان العاصمة ذرعاً بتطويق الجيش الاسلامي المحكم للعاصمة . فصاروا يكثرون الاستغاثة بمحافظ دمشق لحل مشكلتهم التي بلغت درجة المحنة .

المسلمون يصادرون نجدات المؤن لدمشق

فسارع حاكم دمشق وقائد حامياتها إلى الاستغاثة بالملك هرقل ليرسل اليه الامدادات بعد أن شرح الوضع الذي يسير من سيء إلى أسوأ .

فسارع الملك هرقل المقيم في حمص وبعث بفرقة من الفرسان المختارين لنجدة دمشق ، وهي تحمل المؤن والذخائر .

ولكن الوحدات المرابطة ما بين حمص ودمشق بقيادة ذي الكلاع الحميري كانت لهذه النجدة الرومانية بالمرصاد .

فلم تكد تصل نجدة الملك المتحركة من حمص مسافة يوم من دمشق حتى تصدى له ذو الكلاع بقواته ، وهاجمها ، وبعد معركة قصيرة فر من قدر على الفرار من فرسان النجدة الملكية ، واستولى الأمير ذو الكلاع على كل المؤن والذخائر التي أرسلها هرقل مع هؤلاء الفرسان لنجدة دمشق ، ولما بلغ الملك هرقل ما حدث لنجدة الفرسان ساءه ذلك جداً وفت في عضده وقر في نفسه (كما كان يتوقع) أن دمشق ستقع في قبضة المسلمين [1] .

احتلال القرى المحيطة بدمشق

وبينما كانت النجدات المرسلة من الروم لدمشق تقع في قبضة قوات الإحتياط الإسلامية كانت مفارز من جيش أبي عبيدة تقوم بالهجوم على القرى والمناطق من الأرياف المحيطة بدمشق فتستولي عليها ، فيستفيد الجيش مما يدفعه أهلها من جزية ، ثم بالاستيلاء عليها زاد إحكام الحصار على العاصمة دمشق ، وقطعت عنها كل الامدادات التي كانت تأتيها من الأرياف المحيطة بها .

وأصبح جيش الروم المدافع عن دمشق في عزلة تامة ويأس كامل من تلقي أي

---

(١) انظر فن الحرب للاستاذ العسلي ص ١٢٥ .

مدد عسكري أو غيره ، فوهنت مقاومته ، وأصبح قادته يفكرون في الطريقة التي بها يعالجون وضعهم المتدهور .

واختلف قادة الحاميات (لدى تشاورهم في الأمر) فمنهم من يدعو إلى مصالحة المسلمين وتسليم المدينة لهم على أساس الصلح حقناً للدماء ، ومنهم من يرفض هذه الفكرة ويفضل الاستمرار في القتال ، وهؤلاء المفضون هم الذين تقع قياداتهم عند باب توما حيث ترابط قوات الأمير السابق خالد بن الوليد ، وهم الوحيدون الذين حدثت منهم المقاومة المسلحة للمسلمين عندما اقتحموا العاصمة ، بينما حاكم دمشق نفسه تقدم إلى أبي عبيدة طالباً الصلح ، فصالحه .

قال الطبري يصف تدهور وضع الحاميات المدافعة عن دمشق ، ويأسهم وتدني معنوياتهم بعد وقوع المدد الذي أرسله هرقل من حمص في قبضة ذي الكلاع الحميري :

« وحاصر المسلمون أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي بالمنجنيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب وقد استمدوه ، وذو الكلاع بين المسلمين وحمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص ، وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فأشجتها الخيول مع ذي الكلاع وشغلتها عن الناس ، فأرزوا ونزلوا بازائه ، وأهل دمشق على حالهم ، فلما أيقن أهل دمشق أن الامدادات لاتصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم ، وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قفل الناس ، فسقط النجم والناس مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخولهم دمشق (يعني القوات المسلحة الهاربة من اليرموك) .

---

(١) أبلسوا (بضم الألف وكسر اللام) : تحيروا .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٣٩

اقتحام دمشق والاختلاف بين خالد وأبي عبيدة

فيما مضى من بحث أشرنا إلى أن خالد بن الوليد قدأوكل اليه أبوعبيدة أهم موقع في حصار دمشق وهو الناحية الشرقية من العاصمة .

كان الرومان يدركون أهمية هذه الناحية فحفروا هناك خندقاً ملأوه بالماء فصار هذا الخندق مانعـاً قوياً يحول بين وحدات خالد وبين السور المبـني حول العاصمة ، وكان الخندق هذا أهم ما يشغل بال القائد خالد بن الوليد لأنه يصعب عليهم عبوره ليصلوا إلى السور ، فكان مع معاونيه لا ينام ولا ينيم كماقال الطبري كان حريصاً على الوصول إلى قاعدة السور ناحيته ليعمل على تسلقه ليدخل المدينة بقواته عنوة ، وظل مدة غير قصيرة يتدارس الأسلوب الذي به يجتاز ميـــاه الخندق العميق .

كانت الإستخبارات الخاصة بخالد على غاية من النشاط داخل فئـــات العدو داخل المدينة ، تأتيه بكل صغيرة وكبيرة من تصرفاتهم ، وكان أبو عبيدة يعتمد إعتماداً كلياً على الأمير خالد ، ولهذا كلفه بمحاصرة واقتحام أهم المواقع في دمشق وزوده بخير الرجال الشجعان ، فكان قطاع خالد أحسن قطاع في الجيش بعـد أبي عبيدة القائد العام .

الساعة الحاسمة في تاريخ دمشق

وفي ليلة من ليالي الحصار وهي التي صبيحتها تم الاستيلاء على دمشق ، قدمت استخبارات خالد له تقريراً وعندما اطلع على التقرير علم أنه ولد للبطريق حاكم المدينة ولد ، ومن عادة الروم في هذه المناسبات أن تحتفل دمشق بأسرها لقدوم المولود الجديد للبطريق ، فتقام فيها الزينات والأفراح بأسرها وتفتح خزينـــة الدولة للانفاق على الإحتفالات .

فيكب السكان (مدنيون وعسكريون) على اللهو واللعب والرقص ويفرطون في شرب أم الخبائث الخمر .

فبلغ خالداً (ضمن التقرير) أن كل أهالي دمشق بمن فيهم الحاميات والحراس قد أخـــذوا ينغمسون في غمرة السكر ، وان الكثـــير منهم تركوا مواقعهم الدفاعيـــه تحت تأثير الخمر ليشاركوا في اللهو والرقص ناسين أنهم محصورون وفي حالة حرب .

فاعتبر القائد خالد هذه فرصة ذهبية قد لا تسنح له مثلها .

أكثر الضباط وصف الضباط تخلوا عن مواقعهم ولم يبق عند الباب الذي يروم خالد فتحه ودخول المدينة منه إلا من لا خطر له من الجنود العاديين .

إذن فليبادر أبو سليمان لاقتناص الفرصة لفتح الباب القوي الكبـــير المهم فيقتحم العاصمة بجيشه عن طريقه ، وليس في القواد على الإطلاق سريع في اتخاذ القرارات وتنفيذها في الحال مثل القائد خالد بن الوليد : هذه ميزة عرف بهـا من جميع قواد العالم .

عندما تلقى خالد تقارير استخباراته عن الوضع في دمشق كان الليل قـــد أرخى سدوله ، فسارع إلى مستشاريه واجتمع بهم ، واستدعى كبار مساعديه من كبار الضباط ، ومنهم القعقاع بن عمرو التميمي الذي يقوم مقـــام جيش (بشهادة عمر بن الخطاب) والقائد مذعور بن عدي العجلي وكلاهما من زمـــلاء خالد في معارك العراق الظافرة ، ثم أطلع الجميع على تفاصيل خطة محكمة وضعها لاقتحام العاصمة في تلك الليلة .

فأخبرهم أن الخطة بسيطة للغاية ، تتمثل في اجتياز المانع المائي (الخنـــدق العميق المملوء بالمـــاء) حتى قاعدة سور المدينة ليتسلقه المقـــاتلون ، وأقر المستشارون الخطة .

فأعطى خالد كل مقاتل لا يحسن السباحة قربة منفوخة ليجتاز الجميع المانع المائي في تلك الليلة بأسرع ما يمكن لاقتحام العاصمة بأسرع ما يمكن ، وزودت القوة بالسلالم ليتسلق عليها المقاتلون السور حتى يكونوا داخل المدينة ويفتح المختصون الباب لجمهرة الجيش الذي كلف بالاحتشاد عند الباب ليلجه عند فتحه ويستولوا على العاصمة .

واختار خالد رجالاً يعرف شجاعتهم وقوتهم ، فكون منهم وحدة فدائية كان هو قائدها وأعطى الجميع الحبال والسلالم والاوهاق (١) ، ثم أسر خالد إلى بقية القادة في جيشه أن يكونوا بجنودهم عند باب توما المقصود بعملية تسلق السور وفتحه ، وأعطاهم كلمة السر (وهي التكبير) فإذا سمعوها يقصدون الباب حيث يجدونه قد فتحه خالد ورجاله من الفدائيين ، فيقتحمونه ويدخلوا المدينة عنوة ، فقد قال لمساعديه من كبار القادة : (إذا سمعتم التكبير على السور فارقوا الينا واقصدوا الباب) .

كان خالد طيلة مدة حصار دمشق وهو [illegible] الليلة قد درس مع هيئة استخباراته حالة المنطقة التي كلف بحاد[illegible] منها ، فاكتشف موضع الضعف في السور والخندق المائي ، فعمد إلى [illegible] نقطة في الخندق ، وعندها تقلد ورجاله الذين اختارهم القرب المنفوخة وقذف الجميع بأنفسهم في الخندق الطافح بالماء ، وكان البرد شديداً لحد التجمد ، ولكن الإيمان بالله أقوى من كل قوة وشدة .

وما هي إلا برهة وجيزة حتى تمكن خالد من اجتياز الخندق سباحة بواسطة

---

(١) الاوهاق . حبال ذوات انشوطات يستعملها الفدائيون ليصعدوا بواسطتها أسوار المدن المحاصرة .

القرب المنفوخة ، ووصل مع رجاله الشاطىء الثاني سالمين جميعاً ومعهم أدوات التسلق من سلالم وأوهاق .

وعندما وصلوا اليابسة عند قاعدة السور ، رموا في الحال إلى أعلى السور بالحبال ذوات الانشوطات وهي المسماة (الاوهاق) ، فعلق منها حبلان فسارع الرجال إلى الحبلين ليتسلقوا السور .

فكان أول من تسلق السور القائد البطل القعقاع بن عمرو التميمي ، والقائد المظفر مذعور بن عدي العجلي .

ولمـــا وصلوا أعلى السور أثبتوا فيه بقيـــة السلالم والحبال ، فتسلق خالد ومن معه .

ولما تكاملوا في أعلى السور هاجموا من بقي من حراس فأبادوهم عن آخرهم دونما أية ضجة ، ثم توجه خالد بمجموعته الفدائية نحو باب توما ، فقتل في الحال بقية حرس الباب عن آخرهم ، وهنـــا صاح أحد رجال خالد من أعلى السور بكلمة السر وهي (الله أكبر) ، فسمع من بقي خارج السور وخاصة الذين عند باب توما فاقتحموا المدينة ، منهم من تسلق السور ، وأكثرهم دخلواعن طريق باب توما الذي فتحه لهم خالد وبمجموعته الفدائية .

وسمعت المدينة السكرى تكبيرات المسلمين تشق عنـــان السماء ، فأفاقت مذعورة ، وإذا بها تجد خالداً ورجاله يلجمونهم بالسيوف ويدسرونهم بالرماح ، فاندفعوا إلى داخل المدينة هرباً غير قادرين على أية مقاومة .

وبلغ بطريق المدينة وقائدها أن جند خالد بقيادته قد اقتحموا الجـــانب الشرقي من المدينة عن طريق باب توما ، وكان ذا دهاء وعقل ، فرأى أن لا فائدة من المقاومة ، فسارع إلى حيث يرابط القائد العام أبو عبيدة وعرض عليه تسليم المدينة صلحاً وبدون قتال، ليجنب جند الروم مذبحة رهيبة لوعاند وقرر

المقاومة المسلحة ، فقبل منه أبو عبيدة في الحال العرض، ودخل القـــائد العام المدينة من الباب الذي يليه دمشق على أساس الصلح .

أما القائد خالد فاستمر في زحفه يقتل هو ورجاله كل من يلتقون بـــه من عساكر الرومان ، حتى وصل في زحفه المسلح مكاناً يقال له : سوق النحاسين ، وهناك التقى بالقائد العام (وسط المدينة) فجرى بينهما جدال : خالد يريـد استمرار القتال ، وأبو عبيدة يريد ايقاف القتال ومعاملة أهل العاصمة معاملة المصالحين ، ثم أصدر (بصفته القائد العام) أمره إلى خالد بإيقاف القتال ففعل انضباطاً منه وتسليماً كجندي عامل تحت قيادة أبي عبيدة .

ورغم توقف القتال داخل العاصمة بأمر من أبي عبيدة ، فإن القـائد خالد أصر على أن يكون مصير العاصمة دمشق وأهلها مصير البلد المفتوح عنوة بحـد السيف ، فتسبى نساؤها وذراريها وتكون أموال أهلها غنيمة للمسلمين ، وأبو عبيدة أصر على أن يعامل أهالي دمشق محاربين ومدنيين معاملة أهل الذمة الذين استسلموا على أساس الصلـــح فيكونوا أحراراً في أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذراريهم وليس عليهم سوى دفع الجزية للمسلمين ، واشتد الخلاف بين القائدين خالد وأبي عبيدة ، وأخيراً قررا الإحتكام إلى الخليفة عمر ، فأقر عمر رأي أبي عبيدة ، فصار حكم أهل دمشق حكم أي مدينة فتحت صلحـاً ، بالرغم من أن ما يقرب من نصفها استولى عليه خالد وفرقته بحد السيف .

قال الإمام الطبري يصف كيفية اقتحام خالد دمشق من جهتها الشرقية بالقوة:

« وولد للبطريق الذي دخل على أهل دمشق مولود فصنع عليه (أي أقام بمناسبة ولادته وليمة لأهل دمشق) فأكل القوم وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ، ولا يشعر أحد بذلك من المسلمين ، إلا ما كان من خالد ، فإنه كان لاينام ولاينيم ولا يخفى عليه من أمرهم شيء ، وهو معني بما يليه ، فقد اتخذ حبالاً كهيئـــة

السلالم وأوهاقاً ، فلما أمسى ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي ، وأمثاله من أصحابه في أول يومة وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا، وانهدوا للباب، فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال على الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم ، فلما ثبتت لهم وهقان (أي حبلان ذو انشوطة) تسلق فيها القعقاع ومذعور، ثم لم يدعا أحبولة أثبتاها – والاوهاق بالشف – .

والمكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشده مدخلاً ، وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أو دنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه والحدر معهم ، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي ، وأمرهم بالتكبير ، فكبر الذين على رأس السور، فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها .

وانتهى خالد إلى أول من يليه من الروم ، فأنامهم (أي قتلهم) وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة ، وفزع الناس فأخذوا مواقفهم ولايدرون ما الشأن ، وتشاغل كل أهل ناحية بمن يليهم ، وقطع خالد بن الوليد ومن معه إغلاق الباب بالسيوف ، وفتحوا للمسلمين ، فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي من باب خالد مقاتل روماني إلا أنيم (أي قتل) ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز (أي لجأ) من أفلت إلى أهل الأبواب وقد كان المسلمون دعوهم إلى المناظرة فأبوا وأبعدوا ، فلم يفاجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا (أي لأبي عبيدة وأصحابه) : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب (أي خالد وأصحابه) فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد عنوة ،

فالتقى خالد والقواد في وسطها ، هذا استعراضاً وانتهاباً، وهذا صلحاً وتسكيناً، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح ، فصار صلحاً ، وكان صلح دمشق على المقاسمة، الدينار والعقار ، ودينار عن كل رأس ، فاقتسموا الأسلاب ، فكان أصحاب خالد كسائر أصحاب القواد ، وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب[1]، من كل جريب أرض ، ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئاً (أي أن أموال الملك هرقل الخاصة وأموال حاشيته كلها صادرها المسلمون غنيمة لبيت مال المسلمين) وقسموا لذي الكلاع ومن كان معه (وكانوا مرابطين بين دمشق وحمص لمنع المدد عن العاصمة) ولأبي الأعور ومن معه (وكانوا يحاصرون فحل ويشاغلون الروم في الجنوب) ولبشير ومع معه (وكانوا مرابطين بين دمشق وفلسطين لمنع الروم من دعم أهل دمشق) وبعثوا بالبشارة إلى عمر »[2] .

وهكذا تم تحرير العاصمة العتيدة « دمشق » التي يقال : إن الذي وضع أساسها وبناها لأول مرة شداد بن عاد[3] عندما كان مقر ملك آل عاد حضرموت « الاحقاف » وكانت الشام إحدى الأقطار التابعة لحضرموت الاحقاف التي أهلك الله فيها عاد بالريح الصرصر كما جاء في القرآن الكريم لكفرهم وعدم إقرارهم بالتوحيد وتسفيههم نبيهم هود عليه السلام الذي يزعم بعض سكان حضرموت أن قبره يحتم بين عينات وتريم بحضرموت ، ويؤكدون هذا الزعم بأكوام من الأحجار مستطيلة على هيئة قبر يبلغ طوله أكثر من عشرين ذراعاً، وقد شاهدت هذا الذي يزعمون أنه قبر نبي الله هود ، مع أنه عند المحققين من علماء الإسلام أنه لا يعرف « على التحديد » مكان قبر نبي إلا قبر نبينا محمد ﷺ .

---

(١) الجريب : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع من الأرض .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٠

(٣) انظر كتابنا (العرب في الشام قبل الاسلام : الفصل الأول) .

دس الدكتور فيليب حتي

وكعادة الصليبيين الذين شرقوا بانتصارات الإسلام على الرومان درج المؤرخ الشهير الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) ، فقد ذكرنا فيما مضى من هذا البحث أنه قال (إنكاراً لفضل الإسلام) : أن الفضل في انتصار العرب على البيزنطيين ليس للإسلام وإنما هو للقومية العربية ، ونسي أو تناسى أن أسلافه العرب كانوا رأس الحربة في كل جيش روماني أو فارسي حارب الإسلام .

وهنا (وبمناسبة حديثه عن فتح دمشق) يريد أن يجرد المسلمين من البطولة التي مدتهم بها عقيدة الإسلام ، فيزعم أنه لولا خيانة بعض أهل دمشق لعجز المسلمون إلى الأبد عن فتح عاصمة الشام دمشق .

فقد قال في كتابه (تاريخ العرب المشهور) : إن مدينة دمشق ما كانت لتستسلم للمسلمين لولا الخيانة التي ارتكبها بعض المدنيين والروحيين في دمشق .

فقد ذكر حتي في كتابه أن دمشق سلمت للمسلمين في أول أيلول (٦٣٥ م) بعد حصار دام ستة أشهر على أثر خيانة قام بها بعض أرباب السلطة المدنية والروحية ، ومنهم الأسقف جد القديس يوحنا .

ولا ندري من أين حصل على معلومات الخيانة المزعومة هذه ؟

لعله أتى به محرفاً من كلام البلاذري في فتوح البلدان الذي ذكر - عند حديثه عن فتح دمشق - أن أسقف المدينة وقف على سورها ونادى خالداً (بعد أن علم أنه يجتاح المدينة بحد السيف) : يا أبا سليمان أن أمركم مقبل (لاحظ هذه الجملة) فصالحني على هذه المدينة ، فرضي خالد وكتب له عهداً ، فالأسقف (إن صحت الرواية وهي لما أورده شيخ المؤرخين الطبري واهية) لم يطلب من خالد أن يكتب له الأمان إلا بعد أن أيقن أن خالداً سيقتحم ناحيته فيبيد جمعه بحد السيف ، وحسناً فعل الأسقف ، لأنه (على فرض صحة الرواية) لو لم يأخذ

الأمان لنفسه وقومه لكان مصير رجاله من المحـــاربين كمصير الذين أبادهم خالد عندما اقتحم المدينة .

والأسقف في دمشق ليس أول رجل روحي يطلب الصلح من المسلمين ، فقد فعل أساقفة أمثاله كثير ، ولم يقل أحد أنهم بمصالحتهم المسلمين لإنقـــاذ قومهم وأنفسهم وأموالهم وأهاليهم قد ارتكبوا الخيانة ، فهذا أسقف بيت المقدس قد صالح المسلمين وفتح بيده لهم أبوابها ، فهل قال أحد : إن أسقف بيت المقدس قد خان أمته لأنه صالح المسلمين وفتح لجيشهم المدينة المقدسة ليدخلوها ؟

ولكنه عدم الإنصاف والتعصب الصليبي يفعل في النفوس فعله غير المحمود .

والواقع أن العاصمة دمشق (رغم عدم تلقيها أي دعم من أية جهة رومانية) فقد صمدت طويلاً للحصار ، وكان فيها مقاتلون فيهم شجاعة وجرأة .

فقد ذكر بعض المؤرخين أن مفارز انتحارية رومانية كانت تخرج من دمشق وتشن غارات مفاجئة على معسكرات المسلمين ، فيدور القتال بين الفريقين خارج المدينة ، ثم يتمكن الرومان (بمهارة) من العودة إلى دمشق فيدخلوها ، بعد أن يصاب الفريقان بخسائر قتلاً وجرحاً [1] .

الأمر الذي يدل على أن المسلمين لاقوا عناء شديداً أثنـــاء حصارهم دمشق ، وأن الروم كانوا على مستوى قتـــال عال ، ولو تمكنت الإمدادات من الوصول اليهم لأرهقوا المسلمين بالمقاومة الشرسة ، وفي بعض الروايات أنهم صبروا (رغم انقطاع المدد عنهم) على الحصار ستة أشهر .

وثيقة صلح دمشق

أما وثيقة الصلح التي أبرمت بين المسلمين فقد أوردها البلاذري بأنها صادرة

---

(١) انظر فن الحرب لبسام العسلي ص ١٢٥ .

عن خالد بن الوليـــد لا أبا عبيدة ، قلت وهـــذا على رأي من قال أن خالداً كان أميراً على الشام ولم يعزل إلا وهم محاصرون دمشق [1] أما نص وثيقـــة الصلح فهو كما يلي :

« هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطـــاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخـــير إذا أعطوا الجزية » [2] .

تاريخ فتح دمشق

أما تاريخ فتح دمشق فقد اختلف فيه المؤرخون .

فبعضهم (وفي مقدمتهم شيخ المؤرخين الطبري) وابن الأثير يقولون : إن دمشق فتحت عام ١٣ هـ ، وحسب هذا القول يكون حصار دمشق استمر سبعين ليلة فقط ، وتكون معركة مرج الصفر قد نشبت قبل ذلك التاريخ ، والمسلمون في طريقهم إلى دمشق ، لأنها نشبت قبل فتحها .

وبعضهم يقول (ومنهم ياقوت والبلاذري) : أن فتحهـــا تم في شهر رجب عام ١٤ هـ وعلى هذا القول يكون بدء حصار دمشق في السادس عشر من المحرم من تلك السنة وتكون مدة الحصار ستة أشهر لا سبعين ليلة .

---

(١) البلاذري فتوح البلدان ص ١٣٧

(٢) فتوح البلدان ص ١٢٨ ، قلت الصحيح أن خالد دخل دمشق عنوة وكان يعارض الصلح فلربما ان هذه الوثيقة صادرة عن القائد العام أبي عبيدة ، وقد قال ابن عساكر والصحيح الثابت بالأخبار والآثار ان خالداً دخلها (أي دمشق من الباب الشرقي قسراً ، ودخلها أبو عبيدة سلماً من باب الجابية) . وذكر الطبري ان ابن اسحاق يقول : إن حصار دمشق استمر ستـــة أشهر (الطبري ج ٣ ص ٤٤١) .

ونحن نرجح قول الإمام الطبري لأنه إمام المؤرخين وكتابه (تاريخ الرسل والملوك) من أهم وأوثق المصادر التاريخية .

دمشق درة الشام

وهكذا توج المسلمون انتصارهم الرائع في اليرموك باستيلائهم على العاصمة دمشق (درة الشام) وكان فتح العاصمة دمشق يعني نهاية الوجود الروماني في الشام ، لأن الإستيلاء على العاصمة في أية حرب يكون ذا أثر سيء في نفوس المقاتلين في الجانب الآخر ، وقد انزعج الإمبراطور هرقل لسقوط دمشق في أيدي المسلمين انزعاجاً شديداً ، وكان يقيم في مدينة حمص ، وفت فتح دمشق في عضد الإمبراطور العجوز ، فقد فقد جنة الشام ، لأن بدمشق الغوطة وهي جنة الله في الشام ، كانت تسيل بخيراتها ومنتوجاتها على علية القوم من الرومان وفي مقدمتهم الإمبراطور ، وسقوط دمشق يعني فقدان النعيم الذي كان الروم من علية القوم يرفلون فيه ، ثم إن سقوط دمشق في قبضة المسلمين كان له أسوأ الأثر في معنويات ما تبقى من حاميات رومانية في بقية المدن والمواقع في الشام.

ولهذا يئس الإمبراطور وقر في أعماق نفسه المجروحة أن لا أمل في استقراره في الشام التي كان يحبها كثيراً ويقيم فيها أكثر أيام السنة ، ولقد قرر أن يرحل إلى القسطنطينية إلى الأبد ، وقد فعل ، والقى على سورية السلام الذي لا لقاء بعده . وبعد خروجه من الشام بعد فتح دمشق لم يعد اليها أبداً . بالرغم من أن حروباً شرسة أخرى بعد دمشق دارت بين عساكره وبين المسلمين حول ما تبقى له من مدن ومواقع في الشام ، مثل إجنادين التي استعادها الروم وحلب عظمى المدن السورية بعد دمشق وذات القلعة التاريخية الحصينة جداً والتي قاومت المسلمين مقاومة شرسة وعنيدة ، ولم يقدروا على فتحها إلا عن طريق الحيلة .

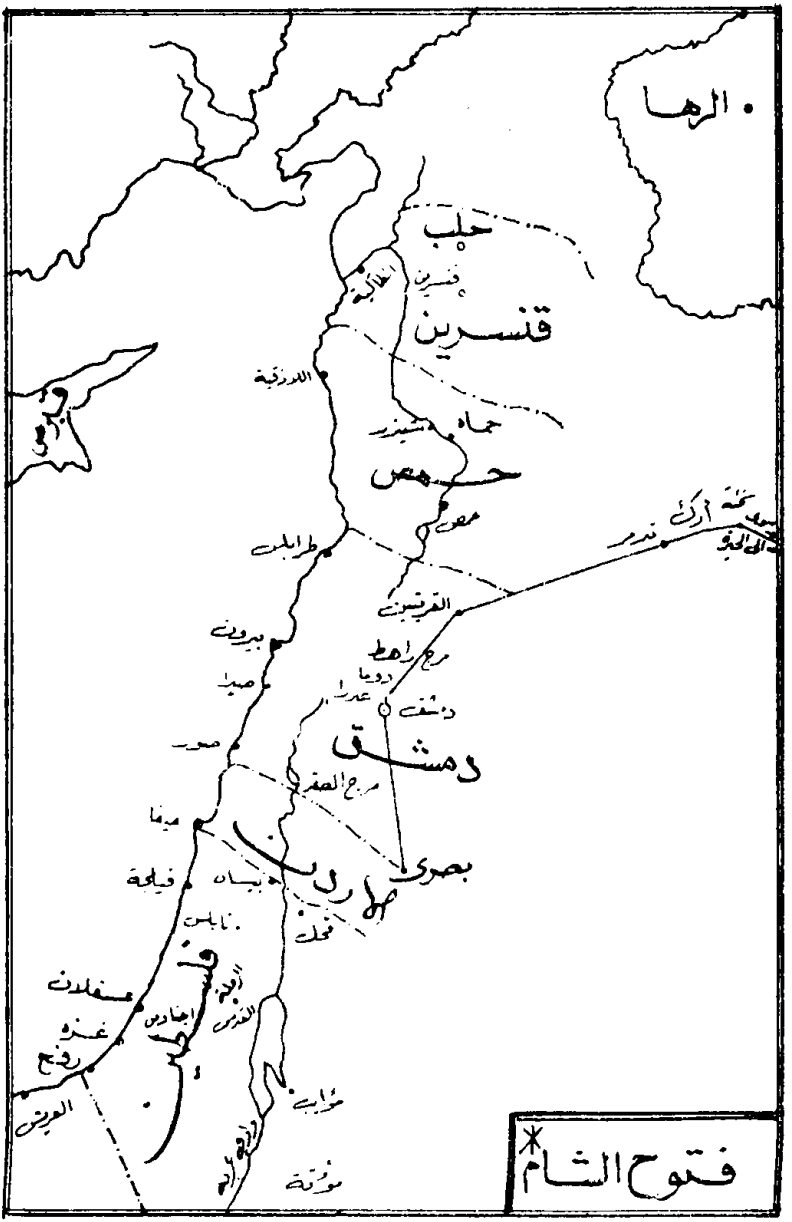

* — عن كتاب « تاريخ العرب المطول » للدكتور فيليب حتي (بتصرف) .

إعادة جيش العراق إلى العراق

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا تفاصيل النجدة الكبيرة التي جاءت لإسناد المسلمين في الشام بقيادة خالد بن الوليد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ، وكان عددهم عشرة آلاف ، وهم الذين رجحوا كفة المسلمين في معركة إجنادين الطاحنة بفلسطين ومعركة اليرموك الفاصلة عند فتحة درعا وبقية معارك الشام الأخرى ومنها معركة دمشق التي انتهت بفتح المسلمين للمدينة المذكورة .

وهكذا وبعد أن تمت السيطرة للمسلمين على عاصمة الشام دمشق ، أيقن الخليفة أن مصير ما تبقى من مدن ومواقع في الشام سيكون كمصير دمشق وأن المعنويات قد تدنت حتى الحضيض في نفوس ما تبقى من عساكر رومانية في سوريا، لا سيما بعد أن سقطت العاصمة في أيدي المسلمين وبعد أن غادر الملك هرقل سوريا، فعلموا أن لا أمل له في استعادتها .

لذلك رأى الخليفة الفاروق أن جيش النجدة الذي جاء به خالد من العراق قد أدى مهمته على أكمل وجه وأنه لم تعد هناك ضرورة لبقائه في الشام ، وأنه لا بد وأن يعود إلى مواقعه في العراق لا سيما وأن قائد القوات المحاربة في العراق المثنى بن حارثة الشيباني غير قادر (لقلة عسكره) على مواجهة جيوش الفرس ، والمسلمون مقبلون على حروب ضارية ، وفعلاً كان دور النجدة التي جاءت إلى الشام من العراق وعادت اليه في معركة القادسية الحاسمة ، كدورهم في معركة اليرموك الفاصلة ، حيث عاد رجال النجدة من الشام إلى العراق ومعركة القادسية على أشدها ، فأنقذوا الموقف وبهم اشتد ساعد جيش سعد بن أبي وقاص الزهري حتى هزم جيش رستم ، كما هزم قائد عام جيش الشام جيش هرقل في اليرموك . كما سيأتي تفصيله فيما يلي من هذا البحث إن شاء الله .

فقد أصدر عمر إلى القائد أبي عبيدة في الشام أمراً بأن يعيد جيش العراق

إلى العراق كاملاً عشرة آلاف ، فمن استشهد منهم أمر عمر أباعبيدةبأن يستبدل به آخر ويضمه إلى جيش العراق الذي حضر به خالد ليعود في عـــدده كما جاء عشرة آلاف ، ولذلك سماه أهل التاريخ جيش البدل :

قال الإمام الطبري :

« كتب عمر إلى أبي عبيدة : أن أصرف جنـــد العراق إلى العراق وامرهم بالحث إلى سعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقاص) وكان سعد علىأبواب معركة حاسمة هي معركة القادسية » .

فصدع أبو عبيدة بالأمر وأمر كل جنـدي جاء مع خالد من العراق إلى الشام أن يعود إلى العراق فاستعدوا للتحرك نحو العراق قال الطبري : وأمر على جند العراق هاشم بن عتبة بن أبي أوقاص الملقب بالمرقال – لأنه يرقل ساعة الحرب – وجعل على مقدمة جيش العراق العائد اليها القعقـاع بن عمرو التميمي ، ويقول الطبري : وكان أصحاب هاشم عشرة آلاف إلا من أصيب منهم فأتموهم بأناس ممن لم يكن منهم ، ومنهم قيس والأشتر ، وخرج علقمة ومسروق إلى إيليـا ، فنزلا على طريقها ، وبقي مع يزيد بن أبي سفيان من قواد أهل اليمن عدد ، منهم عمرو بن شمر ، وسهم بن المسافر بن هزمة ، ومشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيد دحية الكلبي في خيل بعدما فتح دمشق إلى تدمر والزهراء والقشري إلى البثينة وحوران ، فصالحوهـــا على صلح دمشق ، ووليا القيـــام على فتح ما بعثـا اليه .

وأقام أبو عبيدة بعد فتح دمشق فترة من الزمن لإعادة تنظيم الجيش وإعطائه قسطاً من الراحة ، وليقوم بتنظيم شؤون أهل دمشق ، ويتفقد أحوال أهـــل الذمة فيها من النصارى ، ويضع الأسس الثابتة للعلاقات العامة بينهم وبين من سيبقى بينهم في العاصمة من حاميات الإسلام .

وكان الأمير الذي اختاره لدمشق ولساحل الشام كله الرجل الصالح الملقب بيزيد الخير وهو يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي.

وبعد أن استخلف أبو عبيدة يزيداً على دمشق تحرك بالجيش الرئيسي نحو مدينة فحل في الجنوب (وقد ذكرنا تفاصيل فتح فحل فيما مضى من هذا البحث).

الشعر في المعركة

وفي حصار دمشق وفتحها تحدث وتكلم الشعراء فقال القعقاع بن عمرو التميمي - وكان شاعراً فحلاً - :

أقمنا على داري سليمان شهراً ... بخالد روما قد حملنا بصارم
قصدنا إلى الباب العراقي عنوة ... فدان لنا مستسلط كل قائم
أقول وقد دارت رحانا بدارهم ... أقيم لهم حر الورى بالغلاصم
فلما زأدنا في دمشق نحورهم ... وتدمر عضوا منهما بالأباهم

وقال أبو مجيد نافع بن الأسود :

فسائل بنا سيطاس والروم حوله ... غداة دمشق والحروب بها تجري
ينبوك أنا في الحرب مصالب ... كسيل إذا جاش الأعاجم بالثغر
بقوم تراه في الدهور أعزة ... لهم غرض ما بين الفرائض والوتر
أبى الله إلا أن عمراً بنا هو ... قوائم حرب لا تلين ولا تجري

وفي وصف انتصار المسلمين في معركة فحل الصعبة قال القعقاع بن عمرو أيضاً:

وغداة فحل قد شهدنا مأقطا ... ينسي الكمي سلاحه في الدار
ما زلت أرميهم بقرحة كامل ... كر المبيح ريانه الأبسار
حتى فضضنا جمعهم بتردس ... ينفي العدو إذا سما جرار
نحن الأولى جسوا العراق بتردس ... والشام جسا في ذرى الأسفار
وغداة فحل قد أروني معلماً ... والخيل تنحط والبلا أطوار

ما زالت الخيل العرب تدوسهم في حومة فحل والقنا حوار ..

حتى رمينا سراتهم عن أسرهم بعد ما بعدها استمرار

ولقد أبرنا في الرداغ جموعهم طرا ونحوي نسم الأبصار

اتجاه ابي عبيدة لتحرير ما [illegible] من سلطة الروم في الشام

ذكرنا فيما مضى من هذا البحث أن الخليفة [illegible] علم عليها الخليفة الثاني الفاروق بعد فتح العاصمة دمشق تفيد أنه [illegible] قوة الروم العسكرية والمعنوية وقرر هرقل الملك مغادرة الشام إلى غير [illegible] كان يتوقع حدوثه حين نصح أركان دولته من بطارقة وقسس ورهبان واعيان بأن يصالحوا العرب المسلمين على دفع الجزية (وهو شيء زهيد جداً) بدلاً من أن يفقدوا الشام كلها مع الإذلال والإهانة والتقتيل [illegible] وخلصنا من هذا البحث أن الخليفة اطمأن بأن لا خطر من الروم على المسلمين في الشام وأن لا حاجة لبقاء جيش النجدة الآتي من العراق ، وأمر أبا عبيدة بأن يسير إلى العراق ، ويكتفي بالقوات الذاتية التي كانت دخلت الشام [illegible]

فتح بيسان

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا تفاصيل استيلاء أبو الأعور السلمي بمساندة أبي عبيدة على مدينة فحل القريبة من بحيرة طبرية ، وأن فتحها كان بعد فتح دمشق وصرف أهل العراق إلى العراق .

أما بيسان وهي مدينة تقع غربي نهر الأردن شمال فحل فقد بنيت بها حامية رومانية قوية ، وكانت مدينة تاريخية ذات شأن ، وكان الرومان يحبونها لأنها محاطة بضياع وبساتين رائعة تسقى من نهر الأردن المعطاء .

ولما كان جيش أبي عبيدة مكلف بإخراج الرومان والقضاء على سلطتهم نهائياً في الشام أينما كانوا ، فقد صدرت منه الأوامر إلى القائد شرحبيل بن

حسنة (وكان خبيراً بالأردن) أن يتحرك بالجيش الذي حرر به مدينة فحل إلى مدينة بيسان ليفرض سلطة الإسلام عليها ، فيصالح أهلها إن قبلوا أو يقاتلهم ويدخل المدينة عنوة وبحد السيف .

صدع شرحبيل بالأمر وتحرك بأرتاله نحو بيسان ذات المروج الخضراء ، يساندة القائد الشهير عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو .

امتناع بيسان وتحصن اهلها

ولما علم قائد حامية بيسان وأرباضها بتحرك عسكر الإسلام نحوها تحصن فيها وقرر المقاومة حتى النهاية لأنه يعز على الرومان أن يفقدوا بيسان كما فقدوا فحل .

والمسلمون حريصون على فتح بيسان وإنهاء الوجود الروماني فيها ليكون ظهرهم محمياً من الخلف لأن لديهم عمل عسكري لا بد من أن يقوموا به لتحرير فلسطين كلها والأردن ، فهناك مدن ومواقع جنوب بيسان لا تزال تقع في قبضة الجيش الروماني وأهمها القدس ثم اللد والرملة ونابلس ، وبعض المدن الساحلية التي استعادها الرومان في غمرة القتال العنيف في الشمال والتي تقع بيسان بينها وبين عسكر الإسلام ، ولهذا قرر شرحبيل بأمر من القائد العام (أولاً) تحرير بيسان كي لا يبقى خلفهم للرومان أي وجود روماني عسكري .

وكما تحصن أهل بيسان في الأردن ، تحصنت أيضاً الافناء التابعة لها ، فحاول شرحبيل اقتحام بيسان فصمدوا له صموداً شديداً ، ففرض عليهم حصاراً شديداً ، فقطع كل صلة بينهم وبين الخارج .

معركة ببيسان خارجها

كان الحصار شديداً جداً ، الأمر الذي جعل حامية بيسان تتضايق لشدة

الحصار ، ونقص المواد التموينيـــة لذلك لم يصمـــدوا للحصار الشديد إلا أياماً قليلة .

ولكنهم كانوا على جانب كبير من العناد والشجاعة ، فلم يطلبوا الصلـــح ولم يستسلموا للوحدات الإسلامية التي تحاصرهم ، بل قرروا مقاتلة المسلمـــين خارج المدينة .

ففتحوا أبواب المدينة وشنوا على المسلمين المحاصرين هجوماً إنتحارياً عنيفاً ، ولكن المسلمين كانوا أعنف منهم حين استقبلوا هجومهم الإنتحاري ، فقـــد تلقتهم (في عنف) سيوف المسلمين ورماحهم حتى أبادوهم عن آخرهم .

ولما رأى من بقي في المدينة من المدنيين وبعض العسكريين الذين تخلفوا لحفظ الأمن في بيسان ، لما رأوا ما حدث للحامية الحربية من إبادة سارع وجهـــاؤهم وجاء منهم وفد إلى قائد القوة المحاصرة شرحبيل بن حسنـــة وطلبوا مصالحة المسلمين ، فأجابهم القائد شرحبيل إلى طلبهم في الحال ، فصالحهم شرحبيل على ما صالح عليه أبو عبيدة أهل العاصمة دمشق ، ثم دخل المسلمون مدينة بيسان على أساس الصلح ، ونادوا بالأمان لأهلها على أموالهم وأرواحهم وذراريهم ما دفعوا للمسلمين الجزية التي هي عنوان الخضوع لحكم الإسلام والقبول بسلطان المسلمين وحكمهم المستمد من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ .

فتح طبرية [1]

كانت مدينة طبرية تقع شمال بيسان ، وكانت بها حامية رومانية ، ولكنها

---

(١) قال في مراصد الاطلاع .. طبرية بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بها ، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وكذا بينها وبـــين بيت المقدس ، وهي مستطيلة وعرضها قليل ، حتى تنتهي إلى جبل صغير عند آخر العمارة ، وفيهـــا عيون ملحة حارة قد بنيت عليها حمامات . فهي لا تحتـــاج إلى الوقود .. قلت : أما اليوم فطبرية تعتبر جزءاً من فلسطين المحتلة .

ليست أقوى من حامية فحل وحامية بيسان ، ولذلك تداول أهل طبرية الرأي فيما بينهم ، أيقاتلون أم يفتحون طبرية للمسلمين على أساس الصلح كي يضمنوا سلامة أراحهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم ، وبعد التداول ، رأوا أن ما لديهم من قوة عسكرية ليست أقوى من القوات في فحل وبيسان اللتين واجهتا المسلمين فتغلب عليهم المسلمون وأبادوهم ، لذلك قرروا أن يفتحوا أبواب طبرية للمسلمين ليدخلوها على أساس الصلح ، وفعلاً دخل المسلمون طبرية دونما أي قتال ، وأعطوا الأمان كما هي عادتهم – لأهل طبرية الذين صاروا في ذمة المسلمين .

وبوقوع فحل وبيسان وأريافها وطبرية في قبضة جيش المجاهدين المسلمين في الجنوب تم عزل المدينة المقدسة (القدس) واللد والرملة ونابلس عن القيادة الرومانية العليا في الشمال ، وظلت هذه المدن معزولة ، حتى تم فتح القدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب ، وتم الاستيلاء على نابلس واللد والرملة .

قال الإمام الطبري ، يصف تصفية الوجود الروماني في معاقل بيسان وطبرية وبقية الدساكر التابعة لها من قرى الأردن :

« ولما فرغ شرحبيل من وقعة فحل نهد في الناس ، ومعه عمرو بن العاص إلى أهل بيسان فنزلوا عليهم ، وأبو الأعور والقواد معه على طبرية ، وقد بلغ فناء أهل الأردن ما لقيت دمشق ، وما لاقى سقلار والرومان بفحل وفي الردغة ومسير شرحبيل ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو ، يريدون بيسان ، وتحصنوا (أي أهل بيسان) بكل مكان ، فسار شرحبيل بالناس إلى أهل بيسان فحصروهم أياماً ، ثم انهم خرجوا عليهم فقاتلوهم فأناموا (أي قتلوا) من خرج اليهم ، وصالحوا بقية أهلها ، فقبلوا ذلك على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الأعور على أن يبلغهم شرحبيل ، ففعل فصالحوهم وأهل بيسان على صلح دمشق ، على أن يشاطروا المسلمين في المدائن

وما أحاط بها مما يصلها ، فيدعون لهم نصفاً ويجتمعون في النصف الآخر ، وعن كل رأس دينار كل سنة ، ومن كل جريب أرض جريب بر أو شعير ، وأشياء في ذلك صالحوهم عليها ، ونزلت القوات وخيولهم فيها ، وتم صلح الأردن ، وتفرقت الإمدادات في مدائن الأردن وقراها وكتب إلى عمر بالفتح [1] .

تقسيم جيش الاسلام لتصفية ما تبقى للروم من مدن ومواقع في جميع انحاء الشام

وهكذا وبعد أن قام المسلمون بتطهير مواقع فحل وبيسان وبقية المواقع الحصينة في الجنوب أمنوا خط رجعتهم ، وأخذوا يستعدون لتحرير ما تبقى للرومان من مدن ومواقع في الشمال والغرب والجنوب الغربي .

لقد كانت الوجهة الرئيسية لجيش الإسلام مدينة حمص في الشمال لأنها كانت العاصمة الثانية والمقر الثاني – بعد أنطاكية – للملك هرقل .

ولكن لما كانت لا تزال للرومان جيوب حربية في فلسطين وخاصة في الغرب على الساحل وفي القدس ، وجيوب صغيرة أيضاً في الأردن ، وجه القائد العام أبو عبيدة الأمير عمرو بن العاص إلى بقية المواقع في فلسطين ليتولى تصفية المواقع الحربية الرومانية المتبقية مثل غزة وإجنادين (التي استعادها الروم) ثم العاصمة المقدسة (القدس) .

ووجه أيضاً القائد شرحبيل بن حسنة ليتولى أيضاً تصفية بعض الجيوب الصغيرة في فلسطين أيضاً والأردن ، على أن يكون جيش شرحبيل بمثابة حامية خلفية للجيش الرئيسي الذي قرر أبو عبيدة التحرك به نحو العاصمة الثانية حمص وليكون أيضاً قريباً من عمرو بن العاص ليمده بالرجال إذا احتاج إلى ذلك ، لأن

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٤٣ .

عمراً سيواجه قائداً من أمهر قادة الروم وهو (الارطبون) المرابط في إجنادين والقادة الكبار الآخرين في الرملة وقيسارية .

وهكذا وبعد وقوع سقوط فحل الحصين والمعاقل الأخرى بفلسطين والأردن في أيدي المسلمين ، افترق جيشهم الرئيسي الذي يقوده أبو عبيدة بن الجراح إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى وهي [illegible] بقيادة نحو حمص شمالاً بقيادة القائد العام .

الفرقة الثانية وهي الأكبر [illegible] بقيادة عمرو بن العاص بالتحرك إلى الأجزاء المتبقية من فلسطين لتصفية [illegible] فيها من حاميات رومانية ، وخاصة الحامية الكبرى (إجنادين) التي كان خالد بن الوليد قبل اليرموك قد دمر فيها جيشاً رومانياً يناهز المائة الف مقاتل ، وقتل قائده سرجيوس ، والتي نجح الرومان في استرجاعها للمرة الثانية ونصب قائداً لحاميتها داهية الروم الشهير (الأرطبون) .

الفرقة الثالثة وهي الأصغر ، توجهت بقيادة شرحبيل بن حسنة لترابط في الأردن .

وشرحبيل في الواقع هو بمثابة القائد المساند للعمليات التي يقوم بها عمرو بن العاص في فلسطين ، لأن شرحبيل لم يكن له عمل حربي كبير يشغله في الأردن سوى حماية طرق مواصلات المسلمين التي لم يعد يهددها كبير خطر بعد تصفية القوات الرئيسية في فحل وبيسان وقيام جيش عمرو الكثيف نوعاً مابسد المسالك على قوات الارطبون في غربي فلسطين بفرضه الحصار عليها في إجنادين .

والدليل على ذلك أن القائد شرحبيل – رغم أن مكان عمله الرسمي هو الأردن – فإنه قد شارك بقواته عمرو بن العاص في عملياته العسكرية التي قام

بها في فلسطين ، فقد كان قائداً لمقدمة جيش عمرو بن العاص ، جاء اليه بعد أن استخلف على قواته في الأردن أبا الاعور السلمي .

أما الامير أبو عبيدة بن الجراح (وهو القائد العام للقوات العاملة في الشام) لقد تحرك من منطقة فحل قاصداً مدينة حمص في الشمال .

وكان القائد خالد بن الوليد – رغم عزله عن القيادة العامة للجيش في الشام – لم يتركه أبو عبيدة يفارقه ليستفيد من خبراته العسكرية وتجاربه الحربية وطول باعه في السياسة العسكرية .

هرقل يرسم خطط مقاومة يائسة في حمص

لقد بلغ الملك هرقل ما نزل بجيشه الكبير من كارثة مدمرة في مستنقعات فحل ، وبلغه سيطرة المسلمين على المحور الجنوبي الاوسط (بيسان وطبرية وما تبع لها من مواقع ونقاط) ، فأيقن (وهو الخبير العسكري المجرب) أن مدينة حمص ستكون الهدف الاول لقوات أبي عبيدة ، فأخذ هرقل يستعد للمواجهة ، وعندما نقلت اليه استخباراته أن أبا عبيدة أخذ (فعلاً) في التحرك من الجنوب سارع وحشد جيشاً كثيفاً أعطى قيادته لاحد قادته ويسمى (توذرا) وأمره بأن يخرج من حمص ويصادم جيش أبي عبيدة في الطريق ، لعله يتغلب عليه ويمنعه من الوصول إلى حمص .

كما أمر هرقل قائداً آخر اسمه (شنس) بأن يكون في جيش كثيف آخر مسانداً للقائد توذرا ضد قوات أبي عبيدة .

محاولة الروم استعادة دمشق

تحرك جيشا هرقل مسرعين نحو الجنوب لملاقاة أبي عبيدة قبل أن يقترب من حمص ، بينما استمر أبو عبيدة في التحرك بجيش الإسلام الرئيسي ومعه خالد نحو الشمال ، وهدفه الرئيسي حمص التي كان قد استولى عليها قبل اليرموك ثم

انسحب منها ليجتمع بباقي قادة الفيالق الإسلامية في اليرموك كما تقدم تفصيله في هذا البحث .

تقارب الجيشان الخصمان الروم والمسلمون ، وعندما تقاربا توقف كل منهما وعسكر مكانه ، وكانت البقعة التي تقاربا فيها ليست بعيدة من العاصمة دمشق التي عليها يزيد بن أبي سفيان ، تركه أبو عبيدة أميراً عليها بعد فتحها ولقد كان كل من الجيشين قريباً من الآخر .

فقد عسكر أبو عبيدة في موقع يقال له : مرج الروم ، وعسكر بازائه القائد شنس .

أما القائد الروماني (توذرا) فقد عسكر بقواته الرئيسية غربي دمشق في موقع يقال له مرج دمشق [1] فبعث أبو عبيدة إلى القائد خالد بن الوليد ليكون في مواجهة القائد الكبير توذرا ويمنعه من القيام بأي عمل عسكري ، وإذا اقتضى الأمر يشن الهجوم عليه ، لأن أبا عبيدة كان يخشى من توذرا أن يتجه إلى دمشق فيحتلها لأنه ليس بها إلا حامية صغيرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان .

أما أبو عبيدة فقد بقي في مرج الروم حيث يواجهه القائد الروماني (شنس).

أما القائد (توذرا) لما أبلغته استخباراته بتحرك القائد خالد بن الوليد نحوه ، ترك موقعه سريعاً واتجه نحو العاصمة دمشق لعله يتمكن من انتزاعها من يد الأمير يزيد بن أبي سفيان ثم يتحصن فيها .

غير أن استخبارات الأمير يزيد أبلغته على عجل بتحرك القائد (توذرا) نحوه وأن هدفه احتلال دمشق وأن لديه قوات كثيفة تفوق عدد الحامية التي تحت إمرة يزيد في دمشق ، وكان يزيد محارباً ممتازاً ومن المهرة في السياسة العسكرية ، فلما بلغه أن القائد الروماني (توذرا) يتحرك نحو دمشق قرر

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٩٨ .

الخروج منها ومصادمته خارجها ، ليكون قريباً من القائد خالد بن الوليد الذي لا شك أن استخباراته أبلغته بأنه يتحرك بقصد الإصطدام بالقائد توذرا ، فيتمكن خالد من دعم يزيد أثناء القتال لقرب المسافة لأن خالداً كان يتحرك ، وتوذرا ما ترك موقعه واتجه نحو دمشق إلا بعد علمه بتحرك خالد نحوه وكان القادة الرومان ترتعد فرائصهم لمجرد ذكر خالد بن الوليد فهم يخافونه خوفاً شديداً .

وفعلاً التحم الأمير يزيد بن أبي سفيان خارج العاصمة دمشق وبعيداً عنها ، فاقتتلت قوات يزيد وتوذرا اقتتالاً شديداً ، وكانت قوات توذرا أكثر عدداً من قوات يزيد ، ولكن يزيداً صمد له وصبرت قواته رغم قلة عددها .

كان خالد يقود جيشاً من الخيالة ، ولهذا وصل بسرعة وفي اللحظة المناسبة حيث كانت المعركة بين يزيد وتوذرا على أشدها ، وتوذرا يطمع في التغلب على قوات يزيد لتفوقه الساحق عليه في عدد الرجال ، ولكن القائد خالد فاجأهم وشن هجومه إلى جانب يزيد على توذرا وقواته ، وفي الحال انهارت أعصاب القائد توذرا وعم الفزع جيشه لما علم بهجوم خالد ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى تمكن خالد ويزيد من إبادة قوات توذرا عن آخرها ، وقتل خالد توذرا بيده ، وبهذا أبيدت أكثر القوات التي أرسلها الملك هرقل من حمص ، لأن توذرا يقود القسم الأكبر منها .

معركة مرج الروم الضارية

وبينما المعركة قائمة على أشدها بين قوات يزيد بن أبي سفيان الذي سانده خالد بن الوليد وبين توذرا ، كانت هناك في (مرج الروم) معركة أعنف وأشرس تدور بين القائد العام أبي عبيدة بن الجراح والقائد الروماني (شنس) .

فقد اشتبك أبو عبيدة وشنس في معركة كانت في واقعها قصيرة ، ولكنها

كانت ضارية ، كان أبو عبيدة يقود القوات الرئيسية التي يقصد بها الإستيلاء على مدينة حمص ، ولما اعترضه القائد شنس في مرج الروم شن عليه هجوماً صاعقاً، فدارت بينهما معركة قصيرة ، تمكن فيها أبو عبيدة من قتل القائد الرومي شنس نفسه ، وتمكنت قواته من إبادة قوات شنس في المرج ، وبعدها نجت قلة من جيش شنس لتخبر الملك هرقل خبر الكارثتين مصرع قائديه توذرا وشنس وتدمير قواتهما .

وقد غطت جثث قتلى الروم ساحة المعركة في مرج الروم ، ولم تجد من يتولى دفنها .

وقد قال الطبري في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) : أن الأرض أنتنت من قتلى الروم الذين لم يستطع أحد دفن جثثهم .

وقد تحدث الشعر هنا عن هاتين المعركتين الحاسمتين اللتين كسبهما المسلمون والشاعر هنا القائد خالد بن الوليد الذي صور المعركتين ونهايتهما في هذا الشعر الذي يقول فيه :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وهكذا وبتطهير المسلمين أهم المعاقل الحربية في جنوب الشام بعد احتلالهم العاصمة دمشق ثم تدميرهم الجيشين اللذين وضع هرقل الأمل فيهما فدفع بهما من حمص لمقاتلة أبي عبيده الزاحف من الجنوب وإيقاف تقدمه من حمص ، انتهت أهم وأكبر المراحل في فتح الشام ، ولم تعد المسألة بالنسبة للمسلمين سوى مسألة أعمال تطهير لما تبقى من جيوب هنا وهناك في الشام ، اللهم إلا مدينة حلب ثاني مدن الشام الكبرى التي تعب المسلمون في فتحها ، وفقدوا كثيراً من الشهداء حتى تمكنوا من فتحها باحتلال قلعتها في النهاية بطريق الحيلة ، وإجنادين في

الجنوب حيث تبقى فيها للرومان أكبر جيش في الشام بقيـــادة أمكر وأدهى قائد روماني والمسمى بالارطبون الذي غلبه كذلك عمرو بن العاص بالحيـــلة كما سيأتي تفصيله في موطنه .

وبإنجاز خالد وأبي عبيدة كل هذه الأعمال الحربية السريعة الرائعة في الشام، أصبحت الشام كلها في حكم المملوكة لقوات المسلمين رغم ما تبقى للرومان من مواقع حربية مبعثرة هنا وهناك في القطر الشامي ، فالمسألة كانت مسألة وقت فقط ، وأيقن الملك هرقل الذي بلغ من الكبر عتياً أن الشام الحبيبـة إلى قلبه والتي يفضلها حتى على القسطنطينية قد أصبحت في حكم المنزوعة من يـــده لذا قرر مغادرة حمص إلى القسطنطينيه ، حتى لا يكون هو الذي يتولى مجابهة القائد أبي عبيدة بن الجراح الذي (بعد تدمير جيش شنس في مرج الروم قريبـاً من حمص ، وجيش توذرا قريبـــاً من دمشق) قرر مواصلة التحرك نحو حمص لاستعادتها لأنه قد سبق له وأن استولى عليها ، ثم انسحب منها عنـــدما تأزم وضع المسلمين في الشام قبل قدوم نجدة خالد من العراق واجتمعوا في اليرموك، وقد ذاق أهالي حمص من النصارى برد عدل وأمانة وشهامة المسلمين فخرجوا يبكون وهم يشيعونهم ويدعون بأن يعيدهم الله اليهم سالمين ليتولوا حكم المدينة من جديد لينعموا في ظل حكم الإسلام العـــادل ، الذي لم يعرف العـــالم نظاماً أعدل منه .

ولقد لجأ الإمبراطور إلى الهرب إلى مدينة أنطاكية في أقصى الشمال والتي تقع مباشرة – على حدود آسيا الصغرى ، وذلك بقصد سهولة انسحابه وتوغله في بلاد الروم (آسيا الصغرى) دون خشية اعتراض في طريقـــه من القوات الإسلامية المجاهدة ، لأن أحداً (حتى ذلك الوقت) لم يكن موجوداً منهم في آسيا الصغرى والمسماة بلاد الروم في ذلك العهد .

بعلبك والبقاع تصالحان المسلمين

ان الناظر في خريطة حروب الشام بين العرب والبيزنطيين يجد أن منطقة بعلبك والبقاع (التي تقع اليوم ضمن الجمهورية اللبنانية) تقع (بالنسبة للصاعد من جنوب الشام) في منتصف الطريق بين حمص ودمشق .

لذلك وقبل أن يصل أبو عبيدة بن الجراح منطقة حمص كلف معاونه الأول خالد بن الوليد بأن يستولي على منطقتي بعلبك والبقـــاع ، كي لا تبقى أي قوة رومانية خلف القوات الإسلامية حينما تزحف نحو العاصمة الثانية حمص .

فقد أعطى القائد أبو عبيدة خالداً مفرزة من الجند (كمقدمـــة له) وأمره بتطهير منطقة بعلبك والبقاع ، وكانت البقاع تابعة لمحافظة بعلبك .

تقدم خالد نحو مدينة بعلبك .

ولما وصل أطرافها فرض الحصار عليها لأنها مدينة محصنة ذات أسوار وبها قلعة عتيدة منيعة عريقة في القدم .

وعندما رأى الرومان المحصورون في بعلبك (وقد علموا ما أنزل المسلمون بالقوات الرومانية في الجنوب (فحل وبيسان وتوابعها حيث توجد أكبر قوة رومانيه ، وعلموا ما أصاب القوات الكثيفة التي بعثها هرقل إلى الروم بين دمشق وحمص بقيادة عظيمين من عظماء القادة الرومان حيث أبيد جيشاهما ولقيـــا مصرعهما على يد أبي عبيدة وخالد) تشاوروا فيما بينهم . إزاء ما يفعلون لمواجهة حصار قوات خالد بن الوليد الذي يعرف كل روماني وعربي متنصر أن هذا القائد لم تنكس له راية ، وأنه إذا ألح على بلد فتحها بحد السيف واستباحها إن لم يصالحه أهلها .

وأخيراً اتفق وجهاء مدينة بعلبك على أن يصالحوا القـائد خالداً ، فبعثوا اليه من زعمائهم من يفاوضه في الصلح ، وكان على رأس وفـد المفـاوضة حاكم

بعلبك والبقاع نفسه ، فاجتمع الفريقان وتم بينهما الصلح على أن يقر أهالي بعلبك بسلطان الإسلام فيدفعوا لهم الجزية مقابل أن تتولى القوات الإسلامية حمايتهم ، وتدخل قوات رمزية من المسلمين بعلبك وتبقى فيها لحفظ الأمن .

أما نصارى بعلبك من عرب وروم فهم بعد هذه المعاهدة في ذمة المسلمين ، وهم أحرار في أموالهم وكل ممتلكاتهم وليس لأحد من المسلمين أن يمس شيئاً منها، فما على أهل الذمة من أهل بعلبك وما تبعها من منطقة انبقاع إلا دفع الجزية فقط ، وهي مبلغ زهيد (دينار) يدفعه لخزينة الإسلام كل سنـــة كل إنسان منهم ، ولهذا فالمسلمون يدفعون لخزينة الدولة أكثر من أهل الذمة النصارى وهو الزكاة اثنين في المائة من الذهب والفضة وعشرة في المائة من المنتوجات الزراعيـة التي تسقى بماء المطر .

كيف اسلم جبلة بن الأيهم

كان جبلة بن الأيهم ملكاً للغساسنة في الشام ومملكته تقع في الجولان وتمتـد جنوباً حتى حدود جزيرة العرب .. جبلة هذا دخل في الإسلام وذهب مع حاشيته إلى المدينة المنورة ، وقابل الخليفة عمر ، فترك له حاشيته وكل حشمـه وخدمه وكل ما تحت يده من أموال وأكرمه .

وكان جبلة بن الأيهم هذا قائد الفرسان التي تشكل مقـدمة جيش الرومان فتقوم بتغطية الجناحين الميمنة والميسرة وحمايتهما .

ذهب جبلة هذا إلى مكة لاداء العمرة على ما يظهر - وذلك قبل فتح بعلبك وحمص - فحدثت له حادثة بسيطة حولها بفطرسته إلى جناية يعـــاقب عليها الإسلام بالقصاص ، فكانت سبباً في كفره من جديد بارتداده عن الإسلام .

والحادثة تتلخص في أن أحد الأعراب (يقال إنه من مزينة) وطيء إزار الملك جبلة وهو يطوف بالكعبة فأسقطه عن كتفه ، فغضب الملك جبلة فقال :

المزني : ويلك كشفتني في حرم الله ، وكان المزني (بالطبع) غير متعمد حين حين وطيء إزار الملك جبلة ، ولذلك اعتذر له وأبلغه أنه فعل ذلك عن غير عمد ، وإنما بفعل الإزدحام .

ولكن الغضب استبد بجبلة فلطم المزني لطمة عنيفة على وجهه فهشم أنفه وأسقط ثناياه الأربع ، فاشتكاه إلى الخليفة عمر ، فاستدعى عمر الملك جبلة فاعترف ولم ينكر .

فقال الفاروق : إما أن يعفو عنك وإما القصاص .

فاغتاظ الملك جبلة لهذا الحكم الغريب في نظره - لقرب عهده بالإسلام - فقال :

كيف تساوون في الحكم بين السوقة والملوك ؟

فقال له عمر : هكذا هو الإسلام .. الناس فيه سواسية كأسنان المشط لا فرق في الحكم بين رفيع ووضيع أو كما قال :

فطلب من عمر فرصة فأعطاه ، وأثناءها تحمل وحاشيته وهرب على الخيل إلى الشام مرتداً .

قالوا : فكتب عمر إلى قائده في الشام أبي عبيدة كتاباً يتضمن هذا الحادث ، رجاء أن يظفر أبو عبيدة بجبلة فينفذ فيه حكم الإسلام .

وقد جاء في خطاب الخليفة عمر إلى أبي عبيدة:

« وهو في الطريق إلى حمص » : أما بعد فلا راد لقضاء الله تعالى وقدره ، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافراً فلا إيمان له ، وذلك أن جبلة بن الأيهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه ، فأنزلتهم وأحسنت اليهم وأسلموا على يدي وفرحت بإسلامهم إذ شد الله عضد الإسلام والمسلمين بهم ، ثم انا سرنا إلى مكة نطلب الحج ، فطاف جبلة بن الأيهم اسبوعاً ، فوطيء رجل من مزينة

إزاره فأسقطه عن كتفه فالتفت إلى المزني ، وقال له : ويلك كشفتني في حرم الله تعالى ، فأجابه المزني : والله ما تعمدتك فلطم جبلة بن الأيهم المزني لطمة هشم به أنفه وكسر ثناياه الأربع ، فأقبل المزني إلي مدعياً على جبلة فأمرت بإحضاره وقلت له : ما حملك على أن لطمت أخاك في الإسلام وكسرت ثناياه الأربع وهشمت أنفه ؟ فقال جبلة : إنه وطيء إزاري برجله فحله ، ووالله لولا حرمة هذا البيت لقتلته . فقلت له أقررت على نفسك فإما أن يعفو عنك وإما أن آخذ له منك القصاص . فقال : أيقتص مني وأنا ملك وهو من السوقة ؟ قلت قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية . فقال : اتركني إلى غد ويقتص مني ، فقلت للمزني : أتتركه إلى غد ؟ قال : نعم .

فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه إلى الشام يريد اللحاق بالروم وأرجو أن الله يظفرك به ، فأنزل على حمص ولا تنفذ عنها ، فإن صالحك أهلها فصالحهم ، وإن أبوا فقاتلهم ، وابعث عيونك إلى أنطاكية وكن على حذر من المتنصرة [1] .

حديث الواقدي عن صلح بعلبك

قال الاستاذ بسام العسلي في كتابه (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين) :

توجهت الجيوش العربية الإسلامية بعد فتح دمشق إلى الأقاليم المحددة لها .

توجه أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد إلى بعلبك (حمص) .

وصل أبو عبيدة إلى بعلبك ودفع بخالد بن الوليد إلى حمص كمقدمة له ، وحاصر (أي خالد) بعلبك وخرج حاكمها فعقد صلحاً مع المسلمين لمدة سنة ثم

---

(١) فن الحرب ص ١٤٣

جاء حاكم جوسيه [1] وعقد مع أبي عبيدة صلحاً مماثلاً وتوجه إلى حمص .

ويذكر الواقدي أن الذي صالح بعلبك أبو عبيدة (لا خالد) فقد قال :

« وسار أبو عبيدة على طريق البقاع [2] واللبوة فلما وصل إلى هنـاك بعث خالد بن الوليد إلى حمص وقال : يا أبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه ونازل القوم وشن الغارة على أرض العواصم [3] وقنسرين وأنا أسير إلى بعلبـك فلعل أن يسهل الله علينا فتحها .

ثم ودعـه وسار خالد بمن معه إلى حمص ، وتوجه أبو عبيـدة إلى بعلبـك إذ ورد بطريق جوسيه ومعه الهدايا والتحف ، وصالح المسلمين سنة كاملة وقال :

إن فتحتم بعلبك فأنا بين أيديكم ولا نخالف لكم قولاً .

فصالحهم أبو عبيدة على أربعة آلاف درهم وخمسين ثوباً من الديباج ، فلـما انبرم الصلح سار أبو عبيدة إلى بعلبك .

الروم يضمرون الغدر مع الصلح

كان الرومان عندما عقدوا الصلح مع المسلمين في بعلبك لمدة سنة يضمرون الغدر ، ونقض هذا الصلح ، فلم يكن هذا الصلح من حاكم بعلبـك إلا لكسب الوقت ، تجلب فيه التعزيزات من وزارة الحرب الرومانية وعندهاينقض محافظ

---

(١) جوسيه بضم أوله وكسر ثالثه .. قرية من قرى الشام على ستة فراسخ من دمشق .

(٢) البقاع قال في مراصد الاطلاع .. موضع غير بعيد من دمشق ، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، وفيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة ، وأكثر شرب الضياع يخرج من جبل من عين يقال لها : عين الجو .

(٣) العواصم : قال الجغرافيون القدامى : جمع عاصم ، حصون موانع ، وولايات ، تحيط بها جبال حلب وأنطاكية أكثرها في الجبال ، وربما دخل في هذا ثغور المصيصة وطرسوس .

بعلبك هذا الصلح وينقض على المسلمين بكامل قواه في بعلبك والبقاع ، ويعزلوا قواتهم المتجهة شمالاً نحو حمص ، فيجعلونهم بين نارين .

فقد كان الصلح الذي بين المسلمين ومحافظ بعلبك عام ١٤ هـ ومحاولة نقض الروم العهد والانقضاض على المسلمين وضربهم ، وهم يعالجون مسالح حمص كان عام ١٥ هـ حيث بعثوا بقوات كثيفة قوامها سبعة آلاف مقاتل ومعها ذخائر ومواد تموينية هائلة ، ووثائق بها أوامر بالانقضاض على المسلمين رغم العهد المبرم الذي بين الفريقين .

وقد وقعت تلك القافلة بأكملها في قبضة دوريات المسلمين فتم الاستيلاء عليها ، فكانت غنيمة عظيمة للمسلمين ، ولم ينج من أفرادها أحد حيث وقعوا بأيدي دوريات المسلمين بين قتيل وأسير .

وكما فعل أهل بعلبك حيث صالحوا المسلمين لكسب الوقت مع إضمار الغدر فعل نفس الشيء قادة حمص وقنسرين من حيث التمرد على المسلمين ونقض العهد ، ومحاولة ضرب المسلمين ، ولكن المسلمين أحبطوا كل تلك المحاولات الدنيئة ، وكان أعظم الأدوار في إحباط ذلك للقائد الفذ الأمير خالد بن الوليد مما جعل الخليفة عمر بن الخطاب (وموقفه من خالد معروف سلفاً) يثني على خالد ويعترف بفضله ومقدرته القتالية والسياسية الحربية قائلاً : (أبو بكر أعرف بالرجال مني) يعني عصيان أبي بكر عمر كلما طلب منه إقصاء خالد عن المناصب القيادية الحساسة .

وهكذا فإن بعلبك وحمص وقنسرين فتحت مرتين صلحاً ، ومرة ثالثة بعد حرب وقتال على أثر تمرد أهلها من الروم ومحاولتهم غدرهم بالمسلمين .

فقد ذكر بعض المؤرخين أن خالد بن الوليد – بعد مصالحة أهل بعلبك – لما وصل إلى حمص تحصن أهلها ، ثم عقد محافظها مع أعيانها وقادة حاميتها

مؤتمراً تشاور فيه معهم فيما يفعل إزاء هذا الحصار الذي فرضه المسلمون على حمص ، وقد انتهى مؤتمر أهل حمص الروم بأن يعقـــدوا الصلح مع المسلمين (فقط) بقصد كسب الوقت ، يتصلون فيه بوزارة الحرب في القسطنطينيـــة والحاميات القوية القريبة لتبعث اليهم بالمدد كي ينقضوا في الوقت المناسب على المسلمين ناقضين الصلح المعقود بين الفريقين ، وفعلاً عقدت حمص مع أبي عبيدة صلحاً لمدة سنة .

الاغارة على معرة حلب

وبعد عقد الصلح مع أهالي حمص الروم شكل أبو عبيدة قوة من الخيالة ، وقسمها إلى مجموعة قتالية ، وكلف خالد بن الوليد بقيادة منها قوامها أربعـــة آلاف فارس كي يغير بها على معرة [1] حلب والأرياف المحيطة بحمص .

استلم خالد قيادة المجموعة القتالية من الفرسان المشار اليهم وتحرك بهم إلى شيزر [2] ، ومن هناك وجه خالد قوة من خمسمائة مقاتل للإغارة على قنسرين ،

---

(١) قال ياقوت معرة النعمان ، نسبة الى النعمان ابن بشير . الصحابي المعروف الذي اجتاز بها فمات له بها ولد فدفنه وأقام عليه فسميت به قال : وبها قبر يوشع بن نون . قلت : الصحيح عند أهل التحقيق من علماء الاسلام أنه لا يعرف مكان قبر نبي على الاطلاق الا قبر نبينـــا محمد (ص) . وبالمعرة قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي . ثم عقب ياقوت على كلامه . وزعم أن الصحيح أن المعرة انما سميت باسم النعمان الملقب في الجاهلية بالساطع بن عدي بن غطفان . ومنها الشاعر الأعمى أبو العلاء المعري ، واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان .

(٢) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماه يوم ، في وسطها نهر الأردن عليها قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان . تعد في كورة (اي مقاطعة) حمص وهي قديمة وذكرها امرؤ القيس الكندي في شعره وهو في طريقه الى بلاد الروم فقال :

تقطع اسباب اللبانة والهدى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وايقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انمـــا ... نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

وتابع خالد تحركه حتى كفر طاب[1] والمرا ودير سمعان[2] وعادخالدومصعب من جولتهما بعد أن غنمت قوة الإسلام كميات كبيرة من المواشي والأطعمة والغنائم الأخرى بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الأسرى .

ولأسباب خاصة لم يذكرها المؤرخون عامل القائد العام أبو عبيدة هؤلاء الأسرى معاملة خاصة إذ أحسن اليهم وأطلق سراحهم ورد اليهم كل ما أخذ منهم الجيش من نساء وذراري وأموال ، ثم عقد معهم اتفاقاً على تقديم الدعم للجيوش الإسلامية ومساندتها وتقديم المعلومات لها عن نشاطات العدو .

الصلح مع قنسرين والرستن

وفعل أهل قنسرين والرستن نفس الشيء الذي فعله أهل حمص من عقد الصلح مع المسلمين سنة مع نية الغدر ونقض هذا الصلح عند أول فرصة تسنح لهم ونفس الشيء فعله أهل معرة النعمان وحماة وكلها مواقع رومانية تقع شمالي حمص .

فقد ذكر بعض المؤرخين [3] أن حامية قنسرين الرومان لما بلغهم ما فعله أبو عبيدة مع حامية حمص الرومانية من عقد الصلح أرسلوا وفداً عنهم إلى أبي عبيدة وعقدوا معه صلحاً لمدة سنة أيضاً .

وبعد جولة خالد بن الوليد الإستطلاعية التي قام بها في الأرياف المحيطة بحمص

---

(١) قال الحموي : كفر طاب . بلدة بين المعرة ومدينة حلب . في برية معطشة ، ليش لهم شرب الا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج . وينسب الى كفر طاب جماعة من العلماء .

(٢) دير سمعان بفتح السين وكسرها . هو دير بنواحي دمشق في موضع جميل نزه وبساتين محدقة به ، وفيه قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقال الشاعر يرثيه عليه الرضوان :

قد قلت اذ اودعوه الترب وانصرفوا ... لا يبعدن قوام العدل والدين

قد غيبوا في ضريح الترب منفرداً ... بدير سمعان قسطاس الموازين

(٣) انظر كتاب (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين)للعسلي ص ١٤٥ وما بعدها.

توجه أبو عبيدة نحو الرستن [1] فعقد معه أهلها صلحاً ، ثم تابع تقـــدمه حتى وصل حماة فعقد مع حاميتها الرومانية صلحـــاً أيضاً ، ومن حماة انطلق إلى شيزر (وهي قلعة بين حماة ومعرة النعمان) فخرج اليه وفد من أهلها وعقدوا معه صلحاً .

الرومان يحشدون العرب المتنصرة

وأثناء عقد الصلح بين أبي عبيدة وحامية شيزر حصلت استخبارات جيش الإسلام على معلومات أكيدة تفيد أن حاكم قنسرين ينوي الإنقضـــاض على المسلمين والغدر بهم في فترة الصلح ، وأنه طلب الدعم العسكري من الملك هرقل لمحاربة المسلمين فأمده بالعرب المتنصرة ، وعلى رأسهم جبلة بن الأيهم المرتـــد ، كما أمد صاحب عمورية في آسيا الصغرى حاكم قنسرين بعشرة آلاف مقاتل .

وقد أكدت الأحداث هذه المعلومات التي استفاد منهـــا الجيش الإسلامي ، وظل يقظاً غير معتمد ولا مطمئن إلى الصلح الذي عقده مع الرومان .

قالوا : فبينما سعيد بن عامر يبحث عن مولاه الذي ذهب يحتطب بعيداً عن البساتين والأشجار المثمرة تنفيذاً لتعليمات القائد العام أبي عبيدة الذي أمر بمنع إتلاف أية شجرة مثمرة : بينما سعيد هذا يبحث عن مملوكه إذ بوغت بمجموعـــة من الفرسان تعتقله وتحمله إلى الملك جبلة بن الأيهم ، ولدى وصوله إلى جبلة وتعرفه عليه أحسن جبلة معاملته .

---

(١) قال الجغرافيون العرب : الرستن بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه ، بلدة قديمة على نهر العاصي ، وهذا النهر هو المسمى اليوم بالعاصي الذي يمر قدام حماة وحمص في نصف الطريق. بالرستن آثار باقية إلى الآن ، تدل على جلالتها .. وهي في علو يشرف على العاصي وقـــد نسب اليها أبو عيسى حمزة بن سليم العنبسي الرستني ، سمع عبد الرحمن بن جبير بن نفـــير الحضرمي ونفراً من التابعين ، وروى عنه الحارث .

قالوا : فعندما اجتمع به سأله جبلة عن أحوال أقربائه وأهله وعن حسان بن ثابت الذي كان في الجاهلية صديق جبلة ، فأخبر سعيد جبلة أن آخر مرة رأى فيها حسان كانت قبل خروجه مع جيوش الفتح إلى الشام في العام الثاني للهجرة وأنه سمع حسان ينشد :

لله در عصابـــة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول
الملحقين فقيرهم بغنيهم ... المشفقين على اليتيم الأرمل
أولاد جفنة حول قبر أبيهمو ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

فقال جبلة (وقد تأثر لهذا الشعر الرائع) : وهل حفظ لي هذه المكرمة ؟ ثم أطلق جبلة سراح سعيد بن عامر وأهداه ثياباً وطلب اليه إسداء النصح لخالد وأبي عبيدة بعدم زج قواتهما في معركة مع قوات جبلة وقوات صاحب عمورية لأن هاتين القوتين متوجهتان لمساندة حاكم قنسرين الروماني .

وقد عاد سعيد بن عامر بعد أن أطلق جبلة سراحه ، إلى أبي عبيدة فأبلغه ما حصل عليه من معلومات وهو في أسر الملك جبلة بن الأيهم .

خالد يوقع اكبر قائد رومي في كمين ثم يقع هو في كمين

كان أبو عبيدة يتحرك في الجيش الرئيسي نحو الشمال في اتجاه حمص ، وبينما هو يتحرك كلف خالد بالتوجه على رأس قوة مكونة من عشرة فرسان فقـــط ورافقهم سعيـــد بن عامر إلى المكان الذي علم أن حاكم قنسرين سيلتقي فيه بقوات جبلة بن الأيهم فنصب له خالد كميناً ، وعندما أقبـــل حاكم قنسرين انقض عليه خالد واعتقله ، ثم كلف بـــه من يحرسه ، وفي الوقت نفسه فاجأت

قوات جبلة بن الأيهم خالداً ، فأحاطت به وبقوته (الكمين) وهم عشرة فرسان فقط .

وهنا تحصن خالد ورجاله واستعدوا للدفاع وأيقنوا أنه الموت إذا لم يحدث الله لهم معجزة لأنهم (وهم عشرة فرسان) يواجهون عدة آلاف من فرسان العرب المتنصرة .

وكان جبلة (حسب الميعاد) قد التقى بحاكم عمورية ، فبذل الإثنان مجهوداً كبيراً لإنقاذ حياة حاكم قنسرين الواقع أسيراً في يد خالد ـ وكان من المقربين إلى الملك هرقل ـ ولكنهما فشلا وقد هددوا خالداً بأنه (ورجاله العشرة) سيبادون إذا لم يستسلموا ويسلموا حاكم قنسرين ، ولكن خالداً أسد ، وليس من السهل أن تصطاد الأسود ، فرفض خالد تهديداتهم وهزيء بها واستعد لمنازلتهم رغم أنه لم يكن لديه سوى عشرة فرسان ، ولكنه كان يتوقع قدوم الجيش الرئيسي الذي يتحرك به أبو عبيدة ، فإذا حضر في الوقت المناسب فإن خالداً ومفرزته الصغيرة سيحرزون السلامة .

وعندما يئس جبلة وحاكم عمورية من خالد ورأوا أنه مصر على المقاومة وعدم تسليم حاكم قنسرين قرروا القضاء على خالد ومفرزته الصغيرة واستنقاذ حاكم قنسرين من يده فشنوا عليه وعلى مفرزته هجوماً شاملاً فقاومهم مقاومة عنيفة ، وكان خالد يقوم في الحرب مقام الف محارب ، وكان أول من تصدى للقاء جبلة بن الأيهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، ونجح جبلة في إصابته بجراح في عضده .

خالد يعدم حاكم قنسرين كي لا يفلت

وعندما اشتد هجوم الروم وجبلة خشي خالد أن يتمكنوا منه ومن مفرزته ويطلقوا سراح حاكم قنسرين فسارع وأعدم هذا الحاكم (البطريق) .

واشتد القتال بين الفريقين وأيقن خالد أنه ومفرزته من الهالكين إذا لم يظهر أبو عبيدة قريباً لأنه ومفرزته لا يزيدون على عشرة فرسان ، وأعداؤهم يعدون بالآلاف .

ولكن الله أنقذ خالداً ومفرزته فقد ظهر أبو عبيدة في الوقت المناسب حيث أشرفت المعركة على النهاية وخالد ومفرزته قاب قوسين أو أدنى من الموت .

وفي الحال شن أبو عبيدة بجيشه الرئيسي الذي يبلغ عدة آلاف هجوماً شاملاً من الخلف على جبلة وبطريق عمورية ، وبعد معركة عنيفة ولكنها قصيرة وحاسمة تمزق جيشا جبلة وبطريق عمورية ، وبعد الهزيمة أخذ المسلمون يطاردون المنهزمين لعلهم يظفرون بجبلة بن الأيهم الذي أسلم ثم ارتد عن الإسلام وهرب من المدينة مع حاشيته في ظلام الليل .

جبلة بن الأيهم يهرب إلى القسطنطينية

ولكن الملك جبلة تمكن من الإفلات واجتاز حدود الشام إلى آسيا الصغرى معقل الدولة البيزنطية ، ثم دخل القسطنطينية ، فاستقبله امبراطور البيزنطية بالترحاب وأكرمه ، فأقام في القسطنطينية فترة من الزمن ، ثم انتقل إلى اليونان وهناك ذابت أسرته وبقيت عشيرته في أثينا وانصهر الجميع في المجتمع اليوناني بمرور الزمن حتى اندرس ذكرهم ، وهذا يعني أن من الأسر اليونانية اليوم أسر تنتسب إلى الغساسنة العرب ولله في خلقه شؤون .

فتح قنسرين

وهكذا وبتدمير أبي عبيدة وخالد جيشي النجدة لقنسرين اللذين يقودهما جبلة بن الأيهم وبطريق عمورية انكشف ما يضمره حاكم قنسرين من نقض الصلح والغدر بالمسلمين ، فقرر القائد أبو عبيدة تصفية الحساب معه وتأديبه باحتلال قنسرين نفسها .

كانت قنسرين تقع بين حلب وحماة ، وهي من أهم مسالح الرومان في الشام ، وكانوا يحشدون فيها الجيوش بقصد ملاقاة المسلمين في معركة حاسمة .

وكان الرومان بعد اللطمات التي تلقوها في اليرموك وإجنادين ودمشق ومرج الصفر وفحل ومرج الروم وأخيراً بالقرب من قنسرين حيث هزم جيشان لهم من أحسن الجيوش ، وهو جيش العرب المتنصرة الذي يقوده جبلة بن الأيهم وجيش آسيا الصغرى المدد الذي يقوده بطريق عمورية ، وقتل في المعركة حاكم قنسرين الذي وقع في كمين نصبه له خالد بن الوليد .

كان الرومان بعد هذه اللطمات والهزيمة المريعة كالغريق ، قد استولى اليأس على قلوبهم ، ومع ذلك كانوا (وخاصة تجمعات قنسرين) يوطنون أنفسهم ويمنونها عسى أن يحدث ما يشبه المعجزة فيتغلبون على جيش الإسلام الرئيسي الزاحف شمالاً كالسيل المنحدر من عل .

لقد خسر الرومان كل المدن والمواقع المهمة الحصينة والاستراتيجية وذوات الأرياف المعطاة ، ولم يبق بأيديهم سوى قنسرين وحلب وأنطاكية في الشمال ، وإجنادين وقيسارية وغزة والقدس واللد والرملة في الجنوب ، وهي دونما شك مدن ومواقع ذات أهمية ، ولكن الرعب كان مستولياً على قلوب الرومان بعد أن فقدوا أفضل قادتهم وخيرة جنودهم في المعارك الرئيسية التي خسروها مثل اليرموك ودمشق وفحل ومرج الصفر ومرج الروم الذي بين دمشق وحمص حيث قتل المسلمون لها قائدين من أعظم القواد وهما (شنس وتوذرا) .

كان الذي يقود الجيوش التي أعدها الرومان لمواقعة المسلمين عند قنسرين رجل يعتبر الرجل الثاني بعد هرقل واسمه (ميناس) وكان محارباً ممتازاً ، وقد اختاره الرومان ليكون في مواجهة جيش أبي عبيدة في معركة قنسرين التي قرر الرومان خوضها .

المعركة خارج قنسرين

كانت استراتيجية القائد ميناس أن لا يعتصم بمدينة قنسرين ويتحصن فيها ويترك المسلمين يهاجمونها وهو متحصن ، كما هو الأسلوب التقليدي الذي يتبعه الرومان غالباً في جميع حروبهم الدفاعية ضد المسلمين في الشام : بل قرر الأمير ميناس (وكان لديه حشد عظيم من الجنود والضباط) أن يبرز بهذا الجيش إلى خارج قنسرين وهناك وفي مكان اختاره هو قرر أن يقاتل جيش الإسلام الزاحف .

وفعلاً خرج بالجيش الضخم وعسكر به في العراء في مكان يقال له : حاضر قنسرين .

وكان خروجه وتمركزه في حاضر قنسرين قبل أن يصل أبو عبيدة بن الجراح بالجيش الرئيسي إلى قنسرين التي كانت هدفه من التحرك بعد علمه بأن قائدها قد قرر نقض الصلح والغدر بالمسلمين .

مصرع القائد ميناس على يد خالد بن الوليد

كان القائد العام أبو عبيدة (منذ ولاه عمر القيادة العامة) قد استبقى إلى جانبه الأمير السابق خالد بن الوليد لأنه لا يستغني عنه لما يتمتازبه من شجاعة وجرأة ودربة وسياسة عسكرية نادرة وذكاء في الحرب خارق ، ولم يمانع الفاروق في اصطفاء أبي عبيدة خالداً وإبقاءه دائماً إلى جانبه كمساند بل كنائب له ، رغم ما بين عمر وخالد من خلافات شديدة ، مصدرها كلها لدى الإثنين الإجتهاد وبهدف مصلحة الإسلام .

لقد علم القائد أبو عبيدة بتفاصيل الحشد الذي حشده القائد الروماني ميناس ، وأبلغته استخباراته أن ضمن هذا الحشد كثير من العرب المتنصرة ، أجبرهم الرومان (رغم إرادتهم) على الإنخراط في سلك هذا الجيش الضخم .

وقد استدعى أبو عبيدة مسانده ومستشاره خالد بن الوليد بأن يتولى بنفسه نيابة عنه أمر القائد ميناس وجيشه ، فأسند إلى خالد قيادة الجيش ، وأمره بالتحرك إلى حيث يعسكر الأمير (ميناس) الروماني .

صدع خالد بالأمر وتحرك بجيش الإسلام من منطقة حمص واتجه شمالاً نحو قنسرين لتصفية الحساب مع القائد المغرور المتحدي (ميناس) .

وكما هي عادة خالد اتبع خطة الكتمان ليضمن المباغتة التي لا يجيدها أحد من القادة مثله .

فقدم الطلائع لتلقي القبض على كل من يمكن أن ينقل إلى ميناس أنباء تحركاته نحوه .

ولقد نجحت خطة الكتمان الشديد هذه .

فبينما القائد الروماني (ميناس) منهمكاً في إعادة وتنظيم جيشه الضخم في حاضر قنسرين استعداداً للمعركة الفاصلة التي يعلم أن جيش الإسلام سيخوضها بالهجوم ، إذا بخالد يفاجئه قبل أن يستكمل تنظيمه فيشن عليه هجوماً مباغتاً صاعقاً ، فأخذت الرومان الدهشة ، وصعقوا لهذه المفاجأة التي ما كانوا يتوقعونها ، لأن المسافة غير قصيرة بين منطقة حمص (مكان تحرك الجيش الإسلامي) وبين قنسرين ، فقد اختصرها خالد بالإسراع في التحرك .

ولم يستطع الرومان والعرب المتنصرة الصمود ، فشرعوا في الهرب (وخاصة العرب المتنصرة) ولكن خالداً أقفل بجنوده وفرسانه عليهم منافذ النجاة ، فاضطر الرومان للقتال واستسلم العرب المتنصرة إذ القوا السلاح ، أما العنصر الروماني فقد أبيد عن بكرة أبيه في المعركة ، ولقي القائد الروماني (ميناس) مصرعه وهو يقود الجيش وكان شجاعاً .

ويذكر بعض المؤرخين أن العنصر العربي من المتنصرين الذين كانوا ضمن

الجيش الروماني تقدم إلى القائد خالد بن الوليد بالتماس يذكر فيه أنه لم يقاتل المسلمين عن طواعية وإنما قامت السلطات الرومانية بتجنيد من في المنطقة من العرب المتنصرة إجبارياً وبالتهديد ، وانهم لذلك يلتمسون من القائد الإسلامي أن يقدر ظروفهم الصعبة ، فلا يعاملهم معاملة الرومان المحاربين ، فصدقهم خالد بن الوليد وقبل منهم اعتذارهم وتركهم وشأنهم أحراراً ولم يعاملهم معاملة الأعداء المحاربين .

الصلح مع من بقي في مدينة قنسرين

وقد بقيت من الرومان في مدينة قنسرين بقية متحصنة لم تخرج مع القائد المهزوم المقتول ميناس ، وكانوا يعتزمون محاربة المسلمين ، ولكنهم لما رأوا ما حل بجيش ميناس من تدمير دون أن يقدر حتى على إبداء أي مقاومة ، قرروا طلب الصلح من المسلمين ، وجاء منهم وفد إلى مقر قيادة خالد بن الوليد لهذا الغرض ، فقبل منهم خالد ولكنه شرط عليهم أن يخرب مدينة قنسرين ومافيها من معاقل حربية لئلا تعود عناصر معادية فتعتصم بها وتقاتل المسلمين ، ذلك أن قنسرين مدينة حصينة ذات معاقل حربية منيعة ، فقبل أهل قنسرين ذلك الشرط فخرب خالد المدينة وهدم حصونها ومعاقلها وأجرى الصلح مع أهلها ، وبذلك دخلوا في ذمة المسلمين آمنين مطمئنين على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وذراريهم ، وليس عليهم إلا أن يدفعوا عن كل إنسان (قادر) لخزينة بيت مال المسلمين ديناراً واحداً في السنة كلها .

وبتدمير قنسرين وتصفية جيشها الضخم تمكن المسلمون من التغلب على أكبر قوة رومانية تجمعت في الشمال لمحاربتهم ، وإيقاف مسيرتهم نحو الشمال .

التشابه بين اليرموك وقنسرين

كان الملك هرقل يعلق أكبر الآمال على تجمع قنسرين الذي خاض المعركة

وهزمه خالد بن الوليد وهدم قنسرين ومعاقلها ، فقد كانت معركة قنسرين الكبيرة التي نزلت فيها كارثة من أكبر الكوارث الحربية بجيوش هرقل : كانت هذه المعركة التي خسرها الرومان آخر سهم في كنانة الملك هرقل ، حاول أن يرمي به جيش الإسلام عسى أن يصيب منه مقتلاً ، ولكن هذا السهم طاش فأخطأ الهدف ، إذ دمر الجيش الضخم الذي بذل هرقل جهداً كبيراً لتجميعه وتكوينه .

إن معركة قنسرين (معركة التجمع) تشبه من بعض الوجوه معركة اليرموك .

ذلك أن كسب المسلمين وانتصارهم في معركة اليرموك إذا كان قرر مصير الوجود الروماني (بصفة رئيسية) في الشام الوسطى ، فإن معركة قنسرين قررت مصير الوجود الروماني في شمال الشام كله ، حيث (بعد انتصار خالد في معركة قنسرين) أخذ ما بقي للرومان في الشمال (وخاصة الشمال الغربي) من مدن ومعاقل يتهاوى تحت أقدام جيش الاسلام الزاحف الذي لم تعد قوة رومانية بمقدورها أن تصمد في وجهه .

ولذلك حل اليأس النهائي في قلب الامبراطور العجوز هرقل (بعد قنسرين) وشد رحاله وعبر حدود الشام إلى القسطنطينية مودعاً الشام إلى غير رجعة .

ولم يكن مخطئاً في يأسه ، فبعد انتصار المسلمين في معركة قنسرين الطاحنة سقطت حلب وبعلبك والبقاع التي نقضت العهد وغدرت بالمسلمين ، وسقطت أنطاكية إحدى عواصم الشام التي كثيراً ما جعلها الملك هرقل مقراً لاقامته لطيب هوائها ولقربها من آسيا الصغرى ، ثم انحدرت بعد ذلك جيوش الاسلام جنوباً ، واستولت على المدن والمسالح الرومانية الساحلية على البحر الأبيض

المتوسط ابتداء من خليج الاسكندرونة شمالاً حتى مدينة العريش جنوباً، وبذلك أكمل المسلمون فتح الشام كلها في أقل من ثلاثة أعوام ، وخسر الرومان بفقدهم الشام بقرة حلوباً كانت تدر عليهم الخير أكثر من عشرة قرون .

الطبري يتحدث عن معركة قنسرين

وتحدث شيخ المؤرخين عن معركة قنسرين الفاصلة في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) فقال :

وبعث أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم ، وعليهم (ميناس) وهو رأس الروم ، وأعظمهم فيهم بعد هرقـــل ، فالتقوا بالحاضر ، فقتل (ميناس) ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها .

فأما الروم ، فماتوا على دمه (أي ميناس) حتى لم يبق منهم أحـــد ، وأما أهل الحاضر (يعني العرب المتنصرة) فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب ، وأنهم إنما حشروا ، ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم .

ولما بلغ عمر ذلك قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال مني ، وكان عمر عزل خالداً والمثنى بن حارثة الشيباني ، وقال : إني لم أعزلهما ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما ، فلما كان من أمر قنسرين ما كان رجع (أي عمر) عن رأيه .

ثم قال أبو جعفر : وسار خالد حتى نزل قنسرين فتحصنوا منه ، فقال :

انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلنكم الله الينا . قال: فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلـح حمص ، فأبى إلا على إخراب المدينة « أي قنسرين » فأخربها واتطأت حمص وقنسرين ، فعند ذلك خنس هرقل ، وإنما كان سبب خنوسه أن خالداً حين قتل ميناس ومات الروم على دمه ، وعقد لأهل الحاضر وترك قنسرين طلع من قبـــل الكوفة عمر بن

مالك [١] من قبل قرقيسيا [٢] وعبد الله بن المعتم[٣] من الموصل والوليد بن عقبة[٤] من بلاد تغلب وعرب الجزيرة « أي ما قبل النهرين دجلة والفرات » وطووا مدائن الجزيرة من نحو هرقل ، وأهل الجزيرة في حران والرقة ونصيبين وذواتها ، ولم يغرضوا غرضهم حتى يرجعوا اليهم ، إلا أنهم خلفوا في الجزيرة الوليد لئلا يؤتوا من خلفهم ، فأدرب خالد وعياض مما يلي الشام ، وأدرب عمر وعبد الله مما يلي الجزيرة ، ولم يكونوا أدربوا قبله ثم رجعوا ، فهي أول مدربة كانت في

---

(١) هو عمر بن مالك بن عقبة بن نوفل الزهري القرشي ، أدرك حياة النبي (ص) شهد فتح دمشق . وكان من قادة الفتح الاسلامي .. تولى تأديب المتمردين العصاة من أهل الجزيرة بأمر من عمر بن الخطاب . وذلك عندما نقضوا العهد واستعد الروم وأعانوهم على حمص ، فكتب الخليفة ابن الخطاب إلى قائد العراق سعد .. (أن ابعث اليهم عمر بن مالك بن عقبة في جند ، فخرج في جنده حتى نزل على من بهيت فحصرهم حتى أعطوا الجزية فتركهم ، ولحق عمر بأرض قرقيسيا ، فصالحه أهلها على الجزاء . ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه .

(٢) قرقيسيا : قال ياقوت في معجمه اسم معرباً أو محرفاً من كركيسية بالرومية ، ومعناه عندهم المسمى في العربية بالحلبة .. وهي بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق . فهي في مثلث بين الخابور والفرات .. فتحها في الأساس حبيب بن مسلمة الفهري سنة تسع عشرة هجرية . صلحاً . وقد نقض أهلها العهد . فأدبهم وأعادهم الى حضيرة الطاعة بالسيف القائد عمر بن مالك الزهرى القرشي .

(٣) عبد الله بن المعتم من مشاهير حرب العراق كان على احدى مجنبتي جيش سعد بن أبي وقاص يوم القادسية وكان على مقدمة جيش سعد الذي اقتحم المدائن . وهو الذي فتح تكريت في الشمال وفتح أحد قواده الموصل بأمره . اشترك مع الوليد بن عقبة في فتح الجزيرة بأمر من الخليفة الفاروق .

(٤) هو الوليد بن عقبة بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .. أخو الخليفة عثمان لأمه .. أسلم يوم الفتح قال ابن الأثير : كان شاعراً كريماً ومن رجالات قريش حلماً وظرفاً وشجاعة وكان كريماً وأديباً . قال الطبري : تعصب عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً بأنه شرب الخمر .. فأمر عثمان بجلده وهو اخوه وقال له : يا اخي اصبر فإن الله يأجرك ويبوء القوم بإثمك. كان من قادة الفتح الإسلامي في عهد الخليفة عمر .. ولو كان شرب الخمر لما ولاه عمر قيادة جيوش المسلمين . فقد كان من أعظم قادة فتح الجزيرة في العراق .

الاسلام سنة ١٦ هـ ، فرجع خالد إلى قنسرين فنزلها ، وأتته امرأته ، فلما عزل قال : إن عمر ولاني الشام حتى إذا صارت بثنية وعسلاً عزلني [١] .

معركة بعلبك الطويلة

ولما غدر البطريق « ميناس » محافظ قنسرين ونقض الصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فعل نفس الشيء « هربيس » قائد محافظة بعلبك والبقاع ، فقد طلب المدد والدعم من الملك هرقل ليتقوى به جيشه ، لأنه يعلم أن المسلمين سيهاجمونه إذا ما نقلت اليهم استخباراتهم أنه ينوي الغدر بهم ونقض العهد الذي بينهم وبينه .

وفعلاً تلقى القائد العام أبو عبيدة من استخباراته العسكرية أن هربيس نقض العهد وأنه يستعد للحرب وقد طلب الدعم والمدد من الملك هرقل، فقرر الأمير أبو عبيدة تأديبه وتصفية الحساب معه بإخضاعه وإدخال كل محافظة بعلبك في حكم الاسلام حرباً أو صلحاً .

وإذا كان القائد العام أبو عبيدة قد أسند إلى الأمير السابق خالد بن الوليد تأديب أهل قنسرين فانتصر عليهم وقتل قادتهم وعلى رأسهم عظيمهم « ميناس » وأحدث فيهم مقتلة لم يقتلوا مثلها « كما قال الطبري » فإن أمر هربيس الغادر قد تولاه الأمير أبو عبيدة بنفسه فتولى بنفسه تأديبه فحاربه حتى هزمه وأعاد بعلبك والبقاع إلى سلطان الاسلام ، ولكن بعد سلسلة من المعارك الطويلة . فقد كان هربيس عنيداً وساعده في عناده أن ببعلبك قلعة عظيمة من أقوى وأحصن القلاع في الشرق الأوسط . فهي مبنية من الحجارة الضخمة العظيمة التي « حتى اليوم » يتحير الناظر اليها كيف بنيت جدران وأسوار القلعة من هذه الأحجار التي تزن الواحدة منها عدة أطنان . وكيف وضع بعضها فوق

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١ و ٣ .

بعض عدة أمتار علواً ، مع العلم أنه في تلك الأيام لا توجد رافعة آلية لايستطيع غيرها رفع تلك الأحجار مسافة عدة أمتار أثناء البناء .

ابو عبيدة يتولى تأديب هربيس محافظ بعلبك

بعد أن صفى الأمير السابق خالد بن الوليد الحساب مع أضخم قوة رومانية « بعد اليرموك » في قنسرين وحاضرها ، تحرك القائد العام أبو عبيـــدة نفسه تاركاً التحرك نحو حمص وانحدر جنوباً ليصفي الحساب مع أهالي بعلبك والبقاع.

وأثناء تحرك أبي عبيدة نحو بعلبك جنوباً التقى بقافلة كبيرة محملة بالذخائر والتموينات الأخرى بعثت بها وزارة الحرب الرومانية لدعم حاكم بعلبـــك الغادر الذي قرر محاربة المسلمين رغم العهد القائم بين الفريقين ، وكانت القافلة الرومانية تحميها قوة كبيرة من الفرسان ، فكلف أبو عبيدة قوة من فرسان المسلمين بالتعرض لهذه القافلة والاستيلاء عليها .

تحركت القوة الاسلامية من الفرسان ، واعترضت سبيـــل قافلة التموين الرومانية الكبيرة ، ودارت معركة بين الفرسان الذين يحمون القافلة الرومانية وبين الفرسان المسلمين الذين هاجموهم ، وقد انتهت المعركة بهزيمة الفرسان الروم من قوة الحراسة وتم لفرسان المسلمين الاستيلاء على القافلة غنيمة ، فاستعانوا بما تحمله من مؤن وذخائر لتموين وتسليح جيشهم الذي يتحرك لتأديب أهل بعلبك الغادرين ومن شايعهم من أهالي البقاع التابعة لمحافظة بعلبك .

وبلغ بطريق بعلبك الغادر نبأ تحرك جيش الاسلام بقيادة أبي عبيـــدة ، كما بلغه استيلاء فرسان المسلمين على قافلة التموين التي بعثت بها وزارة الحرب اليه ، فاستشاط غضباً وقرر الانتقام من المسلمين بحنق ، وكي يشفي غليله (ويظهر أنه أحمق غير خبير بحقيقة أبطال الاسلام) قرر أن يخرج من قلعة بعلبك الحصينة كي يهاجم المسلمين وهم يتحركون في سهل البقاع .

وما علم أن تلك هي أمنية المسلمين ، لأنهم يفضلون القتال في الصحاري والسهول على القتال حول الأسوار ، ذلك أنهم بحكم تعاليمهم الحربية الصحراوية لا يجيد أحد مثلهم حرب الصاعقة إذا وجدوا أثناء القتال صحراء أو سهلا واسعاً مثل سهل البقاع.

الانتصار الأول على حاكم بعلبك

وقد خرج هربيس للقاء أبي عبيدة في سهل البقاع على رأس سبعة آلاف مقاتل .

وفي سهل البقاع تلقاهم المسلمون بقيادة أبي عبيدة ، ونشبت بينهم معركة قصيرة ولكنها كانت عنيفة ، وقد كسب المسلمون المعركة ، فهزم جيش هربيس هزيمة منكرة ، وجرح هو نفسه ، وكاد أن يقع في الأسر ، ولكن فوارسه الخاصة تمكنت من حمله جريحاً إلى قلعة بعلبك التي تحصن فيها المنهزمون من رجاله .

ونتيجة خوف الرومان من الجيش الاسلامي (لأنهم لا يعرفون أنه لا يتعرض للمدنيين إلا إذا شهروا السلاح في وجهه) نتيجة خوفهم (وهم سكان السهل والضواحي) تدفق سيل من اللاجئين منهم الذين تركوا ديارهم ولجأوا إلى مدينة بعلبك حتى ضاقت المدينة بهم ، وكانت مدينة كبيرة ومحصنة .

ولقد شفي محافظ بعلبك من جراحه التي أصيب بها بسهل البقاع في المعركة التي خرج لها وهو في حالة تشبه الهيستيريا ، لأن الغضب اشتد به عندما علم أن المسلمين يتقدمون نحو أمنع مدينة في الشام بعد حلب ، فوقع في شر عمله السيء (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) [1] .

---

(١) فاطر ٤٣ .

المسلمون يدعون هربيس للسلم

وكما هي العادة التقليدية لدى كل جيش إسلامي غاز في سبيل الله ، وحسب تعاليم الإسلام وآداب الحرب التي سنها ، وانطلاقاً من رغبة المسلمين في السلم وبغضهم لسفك الدماء لأن المسلمين لا يقاتلون حباً في سفك الدماء والتدمير كما تفعل كثير من الجيوش التي يجردها جبابرة تلك العصور .. كما هي عادة المسلمين وحسب تعاليم الإسلام المحبة للسلام بعث القائد أبو عبيدة إلى بطريق بعلبك وقائدها (هربيس) – وكان المسلمون بعد هزيمة الروم في سهل البقاع فرضوا الحصار على مدينة بعلبك من جميع الجهات – بعث أبو عبيدة إلى هربيس وفداً للمفاوضة وكلف الوفد أن يطلب من القائد الروماني الجنوح للسلم كي تضع الحرب أوزارها ، وتتوفر كثير من أرواح الفريقين فلا تزهق ، وكان الطلب من أبي عبيدة إلى هربيس على أساس أن يعترف أهالي بعلبك بسلطان الإسلام الذي شمل أكثر التراب الشامي بما في ذلك العاصمة دمشق ، وعلى أن يدفعوا للمسلمين الجزية : ذلك المبلغ الزهيد الذي لا يزيد على دينار واحد يدفع عن كل إنسان لبيت مال المسلمين كل سنة ، ويبقى بعد ذلك أهل المدينة وتوابعها أحراراً في أموالهم المنقولة وغير المنقولة يتصرفون فيها كيف شاءوا مهما كانت عظيمة .

بعلبك ترفض السلم وتختار الحرب فيحتلها المسلمون

وعندما تبلغ البطريق هربيس رغبة القائد أبي عبيدة في وضع الحرب واللجوء إلى السلم والمصالحة حقناً للدماء ، دعا هربيس إلى اجتماع في القلعة حضره أعيان المدينة وكبار القادة العسكريين الرومان ، وكان في بعلبك جيش كبير لأنها من أهم المسالح التي يعتمد عليها البيزنطيون ، وكانت عبر العصور موقعاً استراتيجياً يهتم به ويقوي من تحصينات كل من تقع الشام تحت سلطانه من مختلف الأمم .

وعندما انعقد الإجتماع في بعلبك ، تدارس المجتمعون الوضع على أثر تسلم

بطريقهم طلب أبي عبيدة الداعي إلى السلم والدخول فيما دخل فيه كثير من حكام الشام من القبول بالصلح وإنهـــاء حالة الحرب على أساس دفع الجزية لبيت مال المسلمين كدليل على الإعتراف بسلطـــان الإسلام ، على أن يبقى المسيحيون من السكان في ذمة المسلمين أحراراً في دينهم لا يتعرض المسلمون لهم في شيء يتعلق بكنائسهم ومعابدهم أو أي شيء له علاقة بدينهم .

ولدى تدارس البطريق هربيس وزعماء بعلبك وقادة الجيش عرض قائد عام جيش الإسلام الداعي إلى الصلح والسلام جرى الإختلاف بين المؤتمرين في بعلبك، وحدث انشقاق بين الساسة المدنيين والقادة العسكريين .

فقد طالب البعض وأكثرهم من المدنيين وبعض العسكريين العقـــلاء قبول العرض وعقد الصلح مع المسلمين أسوة بالذين سبقوهم من أهل الشام الذين اختاروا الصلح على الحرب .

غير أن الفريق الآخر وأكثرهم من العسكريين طالبوا برفض عقد أي صلح مع المسلمين ، وقالوا لا بد من مواصلة الحرب ، وشجعهم على التشبث برأيهم أنهم يتحصنون في مدينة منيعة تحميها قلعة من أمنع القـلاع في الشام ، وقال الفريق المحبذ للحرب بالحرف الواحد : (لا بد من مواصلة الحرب حتى يهلك الأضعف) .

وفي النهاية (وبعد نقاش حاد طويل) تغلب رأي دعاة الحرب الرافضـــين للسلم ، فبلغوا قائد عام جيش المسلمين رفض مذكرته ، وأنهم قرروا الحرب .

ثم كانت استراتيجية الرومان التي وضعوها ، هي التحصن في المدينة وقلعتها الحصينة على أن يشنوا (بين الحين والآخر) غارات مفاجئة على قوات المسلمين المنتشرة حول مدينة بعلبك على شكل دائرة كي تحـــاصر المدينـــة حصاراً محكماً . وكانت للرومان في بعلبك وقلعتها قوات كثيفـــة ومن خيرة القوات الرومانية المسلحة .

ولما تسلم أبو عبيدة الرد على مذكرته السلمية والمتضمن رفض الرومان لهذه المذكرة واختيارهم الحرب بدلاً من السلم أخذ في تنظيم قوته لتشدد الخناق على الرومان المحصورين في المدينة وقلعتها وتلتزم جانب اليقظة ازاء أية هجمات مفاجئة قد تقوم بها القوات الرومانية على القوات الإسلامية خارج المدينة ، لأن البطريق هربيس أفادت التقارير أنه رجل مغامر وذو جرأة .

ثم أخذ أبو عبيدة يعد العدة لاقتحام المدينة العتيدة ذات الموقع الإستراتيجي الخطير .

اهمية بعلبك وقلعتها

لقد كانت بعلبك وقلعتها الضخمة المنيعة تقع في مكان حساس بالنسبة للوجود الإسلامي في الشام ، فهي تقع (تماماً) جنوب حمص وحماة وشيزر وقنسرين وكل المدن التي سيطر عليها المسلمون أو يحاولون السيطرة عليها في الشمال .

كما أن بقاء هذه القوات الرومانية الكثيفة في هذه المدينة المنيعة القريبة من ساحل الأبيض المتوسط يهدد مؤخرة المسلمين أثناء قيامهم بأي تحرك لإكمال فتح ما تبقى في الشمال من مواقع ومدن ، وشجع ذلك هرقل المتواجد في القسطنطينية على إرسال العساكر والذخائر والمؤن إلى منطقة لبنان بواسطة موانيء بيروت وجبيل وطرابلس وصيدا وصور اللواتي حتى ذلك الوقت لا تزال تحت سيطرة السلطة الرومانية ، إذ كانت تموراً بحرية تستخدمها البحرية الرومانية بقدر إمكانها .

لذلك كان من الضروري – قبل تحرير مدن الشمال – لا بد من الاستيلاء على بعلبك وقلعتها الحصينة كي يأمن المسلمون من أن يؤتوا من الخلف .

وقد عبر عن خطورة مدينة بعلبك وقلعتها وضرورة تحريرها وسيطرة المسلمين قبل أي تحرك عسكري نحو الشمال : عبر عن هذه الحقيقة القائد العام

أبو عبيدة بن الجراح عندما قال لضباطه بالحرف الواحد عن بعلبك : (اعلموا أن هذه المدينة وسط أعمالكم وبلادكم ، فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره [1] .

وهكذا وبعد رفض حاكم بعلبك مذكرة القائد أبي عبيدة الداعية إلى السلم وإنهاء حالة الحرب بدأت المناوشات بين الفريقين .

وكانت القوات الإسلامية تطوف بالمدينة وقلعتها المنيعة ، وتقصفها بالسهام، ولم يذكر أحد من المؤرخين (فيما أعلم) أن الجيش الإسلامي استخدم لضرب مدينة بعلبك وقلعتها شيئاً من الأسلحة الثقيلة ، مثل المنجنيقات والعرادات ، واستعمال الدبابات للوصول إلى الأسوار .

استجواب بعض الأسرى عن الوضع في بعلبك

وأثناء قيام الدوريات الإسلامية بأعمالها تمكنت من القاء القبض على بعض المحاربين الرومان ، فأحضروا ولدى استجوابهم عن الوضع في بعلبك أفادوا بأن الروح المعنوية لدى الرومان المدافعين عن المدينة متردية ، وأن هناك حشداً كبيراً من الناس اللاجئين ، يتطلب وجودهم في المدينة كميات كبيرة من المواد الغذائية لإعاشتهم ، وذلك يقلق السلطة الحاكمة في بعلبك لأن المواد الضرورية لهؤلاء الناس غير متوفرة لدى الرومان ، فهم في حالة ضيق شديد من هذه الناحية .

عامل البرد الشديد ضد المسلمين

وفي أول الأمر كان القتال يدور بين الفريقين دونما التحام جاد، بل مداهمات مفاجئة من الرومان في معسكرات المسلمين فتحبط ، وتبادل القذف بالسهام بين

---

(١) فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين ص ١٤٨ .

المتحاربين : المدينة مقفلة أبوابها وأهلها متحصنون فيها ، والمسلمون يشددون من الحصار ويمنعون (ما استطاعوا) وصول أي إمدادات اليها .

كان البرد في تلك الأمصار شديداً جداً ، والمسلمون بحكم نشأة أكثرهم في المناطق الحارة يعيشون في الحرب يتأذون من البرد ، أما الرومان وكل سكان محافظة بعلبك والبقاع فقد تأقلموا في ذلك الجو الذي يشتد فيه البرد في فصل الشتاء ، فلا يؤثر عليهم كثيراً لأنهم الفوه منذ نشأتهم .

ويذكر بعض المؤرخين [1] أن القائد أبا عبيدة لما رأى شدة البرد ، وشعر بتأثر جنده منه أمر هؤلاء الجند أن يأخذ كل واحد منهم وجبة ساخنة كي تعينه على دفع شدة البرد ، حيث قال : (على كل رجل من المسلمين الا يبرز لحرب هؤلاء القوم حتى ينفذ رحله ويصلح له طعاماً حاراً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو) .

وكأن شدة البرد منعت المسلمين بعض الشيء عن مباشرة الهجوم على بعلبك فظن قائد الجيش فيها (هربيس) وكان جاد الطبع متسرعاً ومغروراً - ظن أن ذلك عن ضعف في قدرتهم العسكرية ، فخرج من بعلبك في جيش كثيف ، فاكتشفته دوريات الحراسة التي كلفت بمراقبة أي تحرك من قبل جيش بعلبك ، فاصطدمت الدورية بمقدمة الجيش الخارج من بعلبك ، وكان في دورية الإستكشاف الإسلامية عدد من الأبطال المشاهير ، منهم المقدام عمرو بن معد يكرب الزبيدي وضرار بن الأزور ومالك الأشتر النخعي وذو الكلاع الحميري ، والذين الواحد منهم يقوم في القتال مقام العشرات .

ورغم التفوق الساحق في جيش العدو على رجال الدورية ، فقد دارت بين

---

(١) الاستاذ يسام العسلي في كتابه فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين ص ١٤٨ .

الفريقين معركة حامية ثبت فيها رجال الدورية ، وأوقفوا تقدم جيش هربيس الذي كان يقصد مباغتة الجيش الرئيسي بهجومه .

وبلغ الجيش الإسلامي الرئيسي بما حدث بين الدوريـــة وجيش هربيس ، فسارع رجال هذا الجيش إلى أسلحتهم ، وسارعوا بالانضمام إلى رجال الدورية من قوات الحراسة ، فشنوا الهجوم على جيش هربيس ، وهنا شرع هربيس في التراجع إلى بعلبك ، فطاردهم المسلمون حتى أبواب المدينـــة التي احتمى بها الجيش بأسوارها وأبراج قلعتها الحصينة .

انسحاب المسلمين اربعة اميال عن بعلبك

وأشار بعض المؤرخين [1] إلى أن قيادة جيش الإسلام اكتشفت أنها قـــد أخطأت حين رابطت بالجيش الرئيسي قريباً من أسوار المدينة وثكنات القلعة ، الأمر الذي يجعل جنود الإسلام عرضة لأن تنال منهم سهام الأعداء المتحصنين في المؤينة وراء أسوارها وداخل أبراج قلعتها ، فالمسلمون مكشوفون في العراء ، فمن المحتمل جداً أن تصيبهم سهام رماة العدو ، بينما الإحتمال ضعيف أن تنال سهام المسلمين من الروم لأنهم متسترين بأسوا المدينة وأبراج القلعة .

كما أن اقتراب جيش الاسلام من أسوار المدينة يجعل من الصعب على الخيل أن تجول إذا ما نشب قتال ، والخيل لا يزيد فعاليتها في القتال مثل سعة الأرض التي تمنحها حرية الكر والفر .

لذلك كله أصدر الأمير أبو عبيدة بأن يتراجع الجيش مسافة أربعة أميـــال عن المدينة . فقال بالحرف الواحد :

« اعلموا أن من الرأي أن نتأخر عن المدينة مقـدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالاً لخيلكم ومتعة لحربكم » .

---

(١) فن الحرب ص ١٤٩ للعسلي .

وهكذا تراجع أبو عبيدة عن بعلبك مسافة أربعة أميال ، وعسكر بجيشه في مكان فسيح واسع فيه مجال للخيل في سهل البقاع ، فصار الجيش بمنجى عن سهام العدو الذي كان يقذف المسلمين بها من أسوار بعلبك وقلعتها .

وبعد انسحاب أبي عبيدة بقواته تلك المسافة عن بعلبك أعاد تنظيم قواته من جديد وغير استراتيجيته الحربية وقد كان تنظيمه الجديد على النحو التالي:

١ – كون قوة قتالية من خمسمائة فارس ، وأعطى قيادتها لسعيد بن زيد .

٢ – أنشأ قوة قتالية أخرى من المشاة أصغر قوامها ثلاثمائة محارب أعطى قيادتها لعمرو بن نفيل ومهمتها التوجه إلى الوادي الواقع خلف مدينة بعلبك للمرابطة عند أبواب المدينة في تلك الناحية كي تشاغل الرومان وتمنعهم من الخروج من تلك الناحية إذا ما نشبت المعركة الحاسمة .

٣ – نظم قوة قتالية ثالثة أخرى من الفرسان : تتكون من خمسمائة فارس تساندها مائة من المشاه ، وأعطى قيادة الجميع للفارس الشهير ضرار بن الأزور الأسدي ، وكانت مهمة هذه القوة المرابطة عند باب من أبواب بعلبك يقال له: باب الشام ، وصدر الأمر إلى قائد هذه القوة بأن يقاتل من يريد الدخول أو الخروج من هذا الباب من الرومان . وكانت المدينة ذات أبواب كثيرة .

فتح مدينة بعلبك بعد قتال شرس

تحركت كل من المجموعات القتالية الثلاث ، كل إلى الموقع الذي حدده له القائد العام وظل أبو عبيدة في معسكر الجيش الرئيسي في سهل البقاع وعلى بعد فرسخ (أربعة أميال) من المدينة ، لقد كان قائد حامية بعلبك هربيس رجلاً عنيداً ومتهوراً ، وزاد من غروره وعناده أن لديه في منطقة بعلبك قوات كثيفة تفوق قوات المسلمين عدداً .

كما أطمعه في المسلمين أنهم في اللقاء الأول الذي اشتبك معهم فيه عندما

هاجمهم لم يتمكنوا من أن ينزلوا الهزيمة الكاملة بجيشه حيث تمكن من الانسحاب والرجوع الى القلعة سالماً .

لذلك قرر مهاجمة المسلمين والالتحام معهم في معركة حاسمة حتى يقضي عليهم فيفك الحصار عن المدينة .

فقد جمع رجال جيشه ووقف فيهم يهون عليهم شأن عسكر الاسلام ويصغرهم في أعينهم ، ويبلغهم أنه قرر الخروج بكافة قوته لمهاجمة القائد العام في مقر قيادته حيث يوجد الجيش الرئيسي في سهل البقاع فقد قال في الكلمة التي القاها في رجاله داخل القلعة :

« أن أهل النصرانية قبلكم قد فشلوا في قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن نزالهم ثم دعا رجاله إلى الثبات في القتال ، فأجابه رجاله : طب أيها القائد نفساً وقر عيناً فإنا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم ، وقد علمنا بالأمس أنهم إذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب ، لأن أحدهم يدخل الحرب وعليه ثوب خلق خام وفروة خلقة ، ونحن علينا الدروع والزرد » .

فارتاح واطمأن البطريق هربيس لهذا الجواب من قادة جنده ، فخرج بجيشه من بعلبك وكله ثقة بنفسه وبجيشه ، ثم شرع في التحرك نحو معسكر المسلمين الذي يقيم داخله القائد العام أبو عبيدة .

فلما رأى أبو عبيدة تقدم الرومان (وكان قد تبلغ خبر تحركهم من استخباراته وعباً جيشه) القى كلمة قصيرة في جيشه يحثهم على الصبر قال فيها:

« يا معشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين »

لقد كان جيش هربيس هو البادىء بالهجوم ، وكان قسم من قوات الاسلام موزعاً لعدة مهام كأعمال الدورية ، وفصائل مراقبة بعض أبواب مدينة بعلبك ، فكانت القوات الرومانية أكثر من القوات التي يقودها أبو عبيدة .

نشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، قاتل فيها الرومان بضراوة وعنف كي يكسبوا النصر ، مغتنمين غياب قسم كبير من الجيش الاسلامي عن المعسكر الذي تعرض للهجوم ، ولقد كاد الرومان يتغلبون على أبي عبيده وجيشه لولا أن قوات ضرار بن الأزور وسعيد بن عمرو بن نفيل التي تعمل خارج المعسكر الرئيسي تلقت إشارة استغاثة فهمت منها أن جيش الاسلام يتعرض للهجوم فتركت مواقعها وأسرع ضرار بن الأزور وسعيد بن عمرو بن نفيل ، وانقذوا الموقف ، فخرج هربيس ما قد كسبه حين أشرف على الانتصار على أبي عبيدة ، ومني الرومان بهزيمة فاندحروا وهربوا ، ولم يتمكن البطريق هربيس من الرجوع إلى مدينة بعلبك ، فلجأ إلى قرية في سفح جبل وتحصن فيها حين حال جيش الاسلام بينه وبين العودة إلى بعلبك التي بقيت فيها حامية فقط .

وقد جاء في بعض كتب التاريخ حديث جندي إسلامي تحدث عن المعركة وكان ممن شهدها ، وكان هو الذي ساهم بإنقاذ موقف جيش أبي عبيدة بإشارة أطلقها فجاءت النجدات وتغير الوضع حين انهزم جيش هربيس . قال هذا الجندي واسمه (سهل بن صالح العبسي) : شهدت قتال أهل بعلبك ، وقد خرج الينا أهلها في اليوم الثاني ، وهم أطمع مما كانوا في اليوم الأول ، وقد حملوا علينا حملة عظيمه شديدة منكرة ، وكنت ذلك اليوم أصابني جرح في عضدي الأيمن ، وما أطيق أن أحرك يدي ، ولا أحمل سيفاً ، فترجلت عن جوادي وجريت بين أصحابي ، وقلت في نفسي : إذا قصدني أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لي بد من أن أدفع عن نفسي ، فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته على العسكرين ، وجعلت أنظر إلى حربهم وقتالهم ، وقد طمعت الروم في الحرب ، والمسلمون ينادون بالنصر ، وأبو عبيدة يدعو لهم ، والتحمت القبائل ، وافتخرت العشائر ، وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر إلى ضرب السيوف على البيض والجحف ، والشرر

يطير من شعاعها ، وقد التقى الفريقان واختلط الجمعـــان ، فقلت في نفسي : ويحي وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب (يعني مرابطتها عند أبواب بعلبك) والأمير أبو عبيدة في مثل هذه الحرب ، وانهم والله على وشك أن ينكشفوا (أي ينهزموا) من عظم شدتهـــم وحربهم وهول ما يلقونه (من الروم) فأسرعت إلى جرائم شجر فجعلت أكسرها وأعي الحطب على بعض ، وعمدت إلى زناد (الزناد الذي تقدح منه النار) كان معي ، فأوقدت النار ، وأضرمتها ، وعببت عليها حطباً أخضراً ويابساً ، حتى عـــلا الدخان ، فما هو إلا أن علا الدخان وتصاعد في الأفق حتى نظر اليـه ضرار بن الأزور وسعيد بن زيد وأصحابها ، فنادى بعضهم بعضاً : فأسرعوا بخيلهم حتى أشرفوا على المسلمين وهم في شدة الحرب وأعظم الكرب ، وقـد بلغت القلوب الحناجر ، وإذا بهاتف : ياحملة القرآن قد جاءكم النصر من الرحمن وإذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في أوائل خيلهم ، وقـد شرعا سنانها ، وحملا في الروم ، وقد أيقن الروم أنهم الغالبون ، فالتفتوا ينظرون : ما الخبر ؟ وإذا بالمسلمين من ورائهم ، قد حالوا بينهم وبين مدينتهم ، فظنوا أنه قد أتت للمسلمين نجدة ومدد) اهـ .

وهكذا انهارت نفسيات الرومان في المعركة وصاروا يفكرون في الخلاص ، لأنهم وقعوا بين نارين ، لأن نجدة سعيد وضرار تتألف من الف فارس وسبعمائة راجل ، وهي التي حالت بين هربيس وبين الرجوع إلى مدينة بعلبك .

لقد كان وصول سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في ذلـــك الوقت العصيب بالنسبة لجيش أبي عبيدة عاملاً حاسماً في المعركة ، بل هو العـامل الأساسي في حمل الرومان على الاستسلام في النهاية وتسليمهم مدينة بعلبك للمسلمين ، لأن معركة البقاع التي انقلب نصر الرومان فيها إلى هزيمة هو الذي قرر مصير الوجود الروماني كله في محافظة البقاع كلها

عزل قوات هربيس عن بعلبك

كان ضرار بن الأزور وسعيد بن زيد (كما هو مشهود لهما في التاريخ) محاربين ممتازين وقائدين مظفرين ، وبالإضافة إلى شجاعتهما وخبرتهما العسكرية ، كانا قمة في التكتيك والشؤون الاستراتيجية (حسب تعابير هذا العصر) .

فقد قاما في وقت واحد بعملين هامين حاسمين ضد الرومان : عامل حربي بحت : وعامل استراتيجي .

العـــامل الحربي هو (بالطبـع) ضرب قوات هربيس بضراوة من الخلف ، وإدخال الإرتباك والفوضى على تشكيلاتهـــا التي كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم .

والعامل الثاني هو أن جعلا قواتهما من المشاة والفرسان حاجزاً بـين بعلبـك وقلعتها بحيث يتعذر على قوات القائد هربيس العودة اليهما .

فعند وصول سعيد وضرار ، أيقن القائد الروماني هربيس أن لا فائـدة من الاستمرار في القتال ، فمع شدة الدهشة ظن هربيس أن نجدة جديدة وصلت إلى العرب من جزيرتهم .

فصاح في جيشه (آمراً بالانسحاب) : يا ويلكم لا ترجعوا إلى المدينة فقد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكائدالعرب) .

وفي الحال أخذ الرومان في الانسحاب وترك الميدان وصاروا يقاتلون دفاعاً وهم ينسحبون على شكل حلقة دفاع دائري متجهين شمالاً نحو الجبل .

وهنا أصدر القائد العام لقوات المسلمين أمراً إلى قواته بأن لايتبعوا الرومان خوفاً من أن يقعوا في كمين قد يكون الرومان نصبوه لهم فقد قال في أمره :

(معاشر الناس لا يتبعهم أحد ، ولا يفترق جمعكم لأني أخشى أن تكون هزيمة القوم مكيدة لكم ، حتى إذا تفرق جمعكم زحفوا عليكم) .

فأطاع المسلمون أمر القائد العام ، ولكن في غمار المعركة ، فإن قائدين كبيرين من قادة المسلمين لم يسمعا النداء الذي وجهه أبو عبيدة إلى الجيش ، وهما ضرار بن الأزور ، وسعيد بن زيد ، لذلك انطلقا بفرسانهما يطاردان الروم المنهزمين.

فأما الرومان فبعد أن أيقنوا أنهم لن يتمكنوا من العودة والاعتصام ببعلبك وقلعتها ، اتجهوا إلى قرية حصينة في الجبل المجاور ، فاعتصموا بها ، ونظموا فيها قواتهم من جديد استعداداً للقتال (هجوماً أو دفاعاً حسب الظروف) .

وكانت قوات سعيد بن زيد وضرار بن الأزور وهي مكونة من الف فارس وسبعمائة راجل تطاردهم ، وعندما اعتصم الروم بالقرية وتحصنوا فيها والخوف باد عليهم استضعفهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور ، فارتكبا لذلك خطأ كاد يكون سبباً في إبادة خمسمائة من قواتها .

فبدلاً من أن ينسحب القائدان المسلمان ويعودان إلى مقر الجيش العام بكامل قواتها أو يبقيا يحاصران الروم في القرية بكامل هذه القوة ، تركا فقط خمسمائة مقاتل من المشاة لمحاصرة القرية ، ثم انسحبا بالخيالة وانضما إلى جيش أبي عبيدة الرئيسي .

وكان الروم في القرية الكبيرة بقيادة هربيس كثيروا العدد ، ويقودهم قائد مغامر عنيد ، فعندما رأى هذا القائد الرومي قلة عدد المسلمين الذين يتولون محاصرته وأنهم من المشاة فقط شن عليهم هجوماً معاكساً عنيفاً ، وكان القائمون بالهجوم (حسب أمر هربيس) من الخيالة ، فصارت معركة غير متكافئة ، فقد وجد المشاة المسلمون الذين يتولون حصار جيش هربيس أنفسهم يحاصرين بآلاف من الخيالة والمشاة الرومان الذين خرجوا من القرية وكانوا خمسمائة مقاتل ليس

بينهم فارس واحد . فكانت ورطة وقعوا فيها بسبب التهاون في أمر القائد هربيس واستصغار شأنه وشأن قواته المحصورة .

كان هدف البطريق هربيس من الهجوم على ما يبدو إبادة القوة الإسلامية المحاصرة ، كي تفتح الطريق أمام جيشه المحصور ليتصل بالقوات المتمركزة في مدينة بعلبك ويدخلها ثم يتحصن فيها ، ويعيد تنظيم قواته من جديد ،ثم يطلب المدد من القيادة العليا الرومانية .

أما قوات الإسلام الصغيرة التي حاصرها هربيس بخيالته وعددها خمسمائة كلهم مشاة ، فقد قاتلت قتالاً شديداً وقد لاقت الأهوال أثناء مقاتلة الرومان ، بعد أن انقلب الوضع عليهم فحوصروا بعد أن كانوا هم المحاصرين للقرية والقوات المتمركزة فيها .

وقد كاد هربيس وجيشه يبيدون قوة المشاة المسلمين أمام القرية ، لولا أن ألهم الله رجلاً من جند الإسلام واسمه (مصعب بن عدي) سارع وركب جواده يسابق الريح حتى وصل مقر قيادة أبي عبيدة في البقاع وأخبره بالوضع الحرج الذي وقعت فيه مشاة المسلمين التي كانت تحاصر هربيس .

وفي الحال أصدر أبو عبيدة أمره إلى ضرار وسعيد بن زيد بأن يأخذوا قوة كافية من الفرسان لإنقاذ مشاة المسلمين المطوقين أمام القرية .

فسارع ضرار وسعيد بالانطلاق على الخيل بقوتها حتى وصلا مكان المعركة التي كانت على وشك الإنتهاء لصالح الرومان ، وهنا شنا هجوماً على الرومان وحاولا أن يفرضا طوقاً على الرومان الذين يطوقون مشاة المسلمين ، ولكن القائد هربيس فطن للأمر فسارع بفك الحصار عن مشاة المسلمين ثم انسحب بسرعة إلى القرية وتحصن فيها بجيشه من جديد ، بعد أن خسر عدداً من رجاله.

وهكذا نجت قوة مشاة المسلمين من الإبادة ، ولكن بعد أن فقدت سبعين شهيداً سقطوا في الميدان أثناء مقاتلة هربيس وجيشه الكثيف .

عاد الموقف وتحول إلى ما كان عليه : المسلمون (بعد وصول نجدة ضرار وسعيد) في مركز القوة ، وسادة الموقف بعد معركة القرية .

فالقائد الروماني هربيس محصور بجزء كبير من قواته الرئيسية في القرية الجبلية ، وضرار وسعيد يشددان عليه الحصار ، وبقية القوات الرومانية المعتصمة ببعلبك وقلعتها ، منهارة في معنوياتها ، إذ أخذت المؤن والذخائر تنفد بسرعة ، لدى الرومان سواء الذين حصروا في القرية مع القائد العام هربيس ، أو الذين يحصرهم المسلمون في بعلبك المدينة ، المكتظة باللاجئين من قرى ودساكر البقاع .

وأخذ الموقف (بالنسبة للمسلمين يسير من حسن إلى أحسن ، فخطوط مواصلاتهم مفتوحة مأمونة في جميع أقاليم الشام التي سيطروا عليها ، وصلتهم مأمونة بجزيرة العرب ، تأتيهم المؤن كيف ومتى شاءوا .

أما الرومان في المنطقة ، فقد كان الوضع لديهم (وخاصة هربيس وجيشه المحصور في القرية الجبلية) فقد أخذ الوضع لديهم يتردى ، ويسيء من سيء إلى أسوأ ، فقد تقطعت أوصال جيشهم ، فصار الذين في بعلبك وقلعتها لا يستطيعون الإتصال بالذين في القرية الجبلية ، لأن قوات المسلمين سيطرت على كل المسالك في المنطقة ، وصارت دورياتهم المسلحة تتجول بنشاط وحرية مطلقة .

ومع ذلك أصدر هربيس أمره إلى قواته بالصمود والصبر ، لأنه كما قلنا عنيد ومتكبر ، وكان يأمل في أن يصله المدد الكافي لدحر المسلمين من القيادة العليا الرومانية .

نموذج من الانضباط العسكري في الاسلام

قبل اختتام الحديث عن معارك بعلبك وكيف انتهت باستيلاء المسلمين عليها ، لا بد من أن نقف هنا وقفة تدبر في مفهوم الانضباط العسكري في الحرب في الاسلام .

فقد ذكرنا فيما مضى أن الجندي الجريح (سهل بن صباح) كان هو السبب في إنقاذ جيش أبي عبيدة من أن يقهره ويتغلب عليه جيش هربيس في المعركة الرئيسية التي دارت رحاها في البقاع حينما هاجم هربيس معسكر المسلمين الرئيسي ، وذلك حين أشعل (باجتهاد منه) النيران على رأس الجبل ليتصاعد منها الدخان فيراه ضرار بن الأزور وسعيد بن زيد اللذان يقودان قوات تقارب الألفين يرابطان بها حول الأبواب أمام بعلبك ، وكيف أن ضراراً وسعيداً حينما أبصرا الدخان يتصاعد من الجبل فوق معسكر أبي عبيدة أيقنا أن خطرا ما يهدد أبا عبيدة فسارعا في قواتهما إلى أبي عبيدة فأنقذا الموقف ، إذ تحول نصر الرومان الذي كان وشيكاً إلى هزيمة كما تقدم تفصيله.

فبالرغم من أن عملية الدخان التي لجأ اليها سهل بن صباح العبسي والتي أنقذت الموقف ، فإن القائد العام أبا عبيدة (ولكون ذلك حدث دون أمر منه لسهل) قد أجرى تحقيقاً استجوب فيه سهلا وضراراً وسعيداً ، باعتبارهم أقدموا على عمل يخالف الانضباط العسكري (لا حركة ولا تحرك لمأمور عسكري إلا بأمر من رئيسه) فأثناء التحقيق (وبالرغم من أن تصرف الثلاثة أنقذ جيش أبي عبيدة من الهزيمة) فإنه نهاهم عن أن يعودوا إلى مثلها ، فلا يتصرفوا إلا بأمر يأتيهم من آمرهم مهما كانت الظروف والأحوال ، لأنهم إن أصابوا هذه المرة (بتصرفهم الفردي) قد يخطئون مرات أخرى مميتة .

فقد قال لهم أبو عبيدة (أثناء الاستجواب) : (ما هذه المخالفة ؟ ألم

آمركم بالاقامة على أبواب المدينة ومشاغلة القوم ؟ فما الذي ردكم إلي وقد أرعبتم قلبي وقلب من كان معي ، فقد ظننت أن أهل المدينة كادوكم ، وذلك الذي منعنا أن نتبع المنهزمين) .

فأجابه سعيد بن زيد : والله أيها الأمير ما عصيناك أمراً ولا خالفنـــاك في قول ، وانا قد وقفنا حيث أمرتنا ، ولكنا رأينا دخاناً قد علا قتامه ولاح لنا بيانه . فقلنا : والله ما هذه إلا داهية من دواهي الروم أو نفير قد استدعانا به المسلمون ، فأسرعنا نحوك (وكان إرسال الدخان عند العرب إشارة استغاثة).

وهنا استدعى أبو عبيدة سهل بن صباح العبسي الذي أرسل الدخان ، وأجرى معه استجواباً فيما فعل فقال :

(ما الذي جرأك على ذلك) ؟

فذكر له أن سبب ما فعل أنه رأى حراجة موقف الجيش في البقاع ، وأن خير وسيلة لتخفيف وطأة الروم الشديدة عليه ولئلا تنزل به الهزيمة ، هو إعطاء الاشارة لسعيد وضرار ليسارعا لنجدته ، وأن ما حدث إنما هو اجتهـــاد منه أراد به (وبحسن نية) تقوية الجيش الذي هو في وضع سيء) .

وهنا قال أبو عبيدة لسهل بن صباح :

(لقد وفقك الله تعالى إلى الجنة فإياك أن تحدث حدثاً من غير إذن أميرك) [1].

عودة إلى المنطلق : استسلام بعلبك

وبعد انتهاء المعركة حول القرية التي حوصر فيها الروم بقيـــادة البطريق هربيس ، وهو اليوم الثالث للقتال الضاري الذي دار في منطقة بعلبك أصدر القائد العام أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد قائد القوة المحاصرة بأن يكون شديد الحذر ، كي لا يتكرر ما حدث للقوة التي كانت تحاصر هربيس وجيشه في القرية .

---

(١) فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين ص ١٥٠ والواقدي ج ١ ص ٨٠ .

فقد قال له : (الحذر : على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله أن لا يفوتك من الروم أحد ولا تفسح لهم قدماً واحداً ، فيتبع أولهم آخرهم فتكون كمن حصل شيء في يده فأضاعه).

وكان أبو عبيدة قد ضم إلى قوات سعيد بن زيد خمسمائة من رماة النبل فصارت القوة الإسلامية المحاصرة لهربيس حوالي الف فارس وسبعمائة من المشاة وخمسمائة من الرماة .

وعندما تسلم سعيد بن زيد أصدر أمره إلى قواته بأن يكونوا على غاية التيقظ والحذر ، وأن يحيطوا بالضيعة من كل جانب وأن لا يتركوا فرصة لأي إنسان أن يخرج منها ، وأن يشعلوا النيران كي تمدهم في ذلك البرد القارص بالدفء ، وتنير لهم ما حولهم من القرية ، وأن لا يخرجوا لحاجاتهم إلا في جماعات (خوف الاغتيال) فهم في منطقة لا يزال كل سكانها حرباً عليهم .

فقد قال الأمير سعيد : (أحيطوا بالضيعة من كل جانب ولا يخرج إلى الحطب إلا مائة بالسلاح) ففعلوا ذلك وأضرموا النيران وباتوا ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيعة يطوفون .

فاشتد الحصار على البطريق هربيس في الضيعة ، فحاول الإتصال بحاكم الجوسيه وحاكم عين الجوز يطلب منهما المدد ليقوى على مقاومة الحصار ، ولكن الخبر جاءه مخيباً لآماله ، ذلك أنه تلقى ما يفيد أن حاكم الجوسيه إما محصور ، وإما أنه قد عقد صلحاً مع العرب ، وأما أهل عين الجوز ، فقد تلقى ما يفيد أنهم في حالة صلح مع العرب وأنهم مشغولون بتجارتهم متفرقون في الشام في ظل أمان المسلمين يزاولون أعمال التجارة . فأيقن هربيس أن كلا الفريقين (وهما أقرب المعاقل الرومانية إلى بعلبك) ليسا بإمكانهما تقديم أي عون له أو للذين هم محصورين في بعلبك .

وهكذا نظر القائد هربيس إلى وضعه في القرية المحصورة ، فوجد أنه سيء للغاية ، فقد اتضح له أن القرية ليست معقلاً حربياً وليس بها أي سلاح احتياطي ، وأبلغه المسؤولون عن المواد الغذائية أن كل الموجود في الضيعة لن يفي بحاجة جيشه المحصور أكثر من ثلاثة أيام ، ثم نظر فوجد أن روح جيشه المعنوية متردية ومن الانتحار أن يقوم هذا الجيش المنهار بالهجوم على المسلمين لفك الحصار وشق الطريق ليدخل مدينة بعلبك .

لقد تدارس هربيس مع قادة جيشه الوضع ، ليروا كيف السبيل إلى المخرج من المأزق الحرج الذي هم واقعون فيه سواء في القرية أو في بعلبك .

كان من رأي البطريق هربيس أن يطلب من المسلمين السماح له ولجيشه بالذهاب إلى مدينة بعلبك على أساس مصالحتهم وتسليمهم المدينة ، وأبلغهم أن لديه رأي خطير ، وهو أن يتظاهر برغبته في السلام ، فيعقد مع المسلمين الصلح ثم يفتح لهم مدينة بعلبك ، فإذا دخلوها أمر قواته بأن تطبق عليهم فيبيدوهم : غير أن بقية القادة الروم أنكروا على البطريق هذه الطريقة الدنيئة ، وأفهموه أنها أسلوب بعيد عن الشرف العسكري وأنها من الغدر المذموم المشؤوم ، والمسلمون ليسوا من البلاهة التي يتصور ، بحيث يمكنوه من أنفسهم حتى يبيدهم ، فقد يكون اللجوء إلى هذا الأسلوب من الغدر سبباً في أن يبيد المسلمون عنصر الرجال في المدينة عند دخولها (إذا ما تعرضوا للغدر) ويسبوا نساءها وذراريها كما هي سنة الحرب في ذلك العصر وفي عصر يحارب فيه المسلمون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى : ولقد نصح القادة البطارقة وبقية وجوه الجيش هربيس بأن يفاوض المسلمين لعقد صلح صادق ، لا غدر فيه ولا خيانة ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد لنجاة من تبقى من الروم ، وحفظ ما تبقى من كرامتهم ، لا سيما وأن المسلمين (كما قال أحد البطارقة لهربيس بالحرف الواحد : لا يغدرون إذا أعطوا عهداً).

لما رأى البطريق هربيس معارضة البطارقة والقادة لأسلوب الغدر بالمسلمين الذي أراد اللجوء اليه أرسل إلى القائد سعيد بن زيد ، قائـــد قوات الإسلام المحاصرة لهربيس في القرية ، بأنه يرغب في مقابلته والتحدث اليه بشأن إنهـاء الحرب بعقد صلح بين الروم والمسلمين ، وطلب هربيس من سعيد أن يعطيـــه وبقية أعضاء وفده الأمان عندما يحضر إلى معسكر المسلمـــين حول القرية ، فأجابه سعيد بن زيد إلى طلبه ، ومنحه وبقيـة أعضاء وفده الأمان : وأصدر إلى أفراد قواته أن لا يتعرضوا للبطريق هربيس وجماعته عندما يمرون بهم إلى معسكر المسلمين ، فخرج هربيس ورجال وفده في حراسة مفـــرزة من قوات الإسلام حتى وصل إلى حيث يعسكر سعيد بن زيد بجيشه ، فاستقبله سعيـد بن زيد استقبالاً يليق بقائد عسكري ذي رتبة عالية ، حتى أن سعيداً أجلسه إلى جانبه ، ثم شرعا في المفاوضة ، وأخيراً انتهت المفاوضة بالاتفاق على إنهاء حالة الحرب بين المسلمين والروم ومن شايعهم من العرب المتنصرة في منطقـــة القرية المحصورة ، بحيث يبقى الرومان المحصورون في القرية دون أن يحركوا ساكناً ، وتظل القوات الاسلامية المحاصرة في مواقعها ، فيلتزم الفريقان بما يشبه الهدنة المؤقتة حتى تعرف نهاية المفاوضات الرئيسية بين هربيس والقائد العام أبي عبيدة إذ تقرر أثناء المفاوضة الأولية على أن يذهب البطريق هربيس ومعه القائد سعيد ابن زيد إلى القائد العام أبي عبيدة بن الجراح لاجراء مفاوضات صلح نهائية وتامة ، تتناول مدينة بعلبك وتوابعها من مناطق البقاع .

وعندما تم هذا الاتفاق المبدئي بين هربيس وسعيد بن زيد أرسل سعيد إلى أبي عبيدة من يخبره بما تم في هذه المفاوضات الأولية . فوافق أبو عبيدة على تصرف سعيد بن زيد بعد أن أعطى الأمان لهربيس .

وهنا تحرك سعيد بن زيد والبطريق هربيس نحو معسكر القائـد العـام أبي

عبيدة ، بعد أن استخلف سعيد على جيشه رجلاً من أصحابه ليحل محـــله في قيادة الجند ، وأمره أن يفي للروم بالعهد ما لزموا الهدوء ولم ينقضوا العهد .

ويذكر بعض المؤرخين [1] أن البطريق هربيس لما وصل معسكر القائد العام الاسلامي عض على شفتيه ، فلما سئل عن سبب ذلك ؟ قال :

لقد كنا نظن أنكم أكثر عدداً ، ولقد خيل لنا عند محـــاربتكم أنكم عدد الحصى من كثرتكم ، ولقد كنا نرى خيلاً شهباً عليها رجال وبأيـديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر ، فلما صرت بينكم لم أر منهم أحداً ، وما أراكم إلا في قلة عدد ، وما أدري ما فعل جمعكم أبعثتموه إلى عين الجوز أو مكان آخر .

فقال له أبو عبيدة : ويلك نحن معاشر المسلمين يكثرنا الله تعـــالى في أعين المشركين ، ويمدنا بالملائكة ، كما فعل بنا يوم بدر .

فقال البطريق هربيس : إني لأعجب لقـد وطئتم الشام الذي عجزت عنـه ملوك فارس والترك والجرامقة ، وما ظننا أن يكون ذلك أبداً . ثم تحدث عن تاريخ ومناعة مدينة بعلبك وقلعتها فقال متأسفاً :

(أما مدينة بعلبك فهي حصينة لا تعبأ بالحصار ، لأنها مدينة ليس مثلها في الشام بناها سليمان بن داود لنفسه وجعلها دار مقامة وخزانة لملكـه ، ولولا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها اليكم وانحرافنا عنها ما صالحناكم أبداً ، ولا هالنا حربكم ولو أقمتم علينا مائة سنة) .

فقال أبو عبيدة : (باختصار) : هكذا ملكنا الله أرضكم وديارکم.

وهنا اعترف البطريق هربيس بأن ما أصاب الروم في الشام على أيـــدي المسلمين إنما هو انتقام من الله تعالى ، كما اعترف (صراحة) بأنـه حاول الغدر

---

(١) الواقدي ج ١ ص ٨٣ .

بالمسلمين فلم ينجح ، وأن ذلك مما يسر الله به للمسلمين الظفر فقال هربيس: (لقد غضب الله على أهل هذه المدينة إذ بعثكم اليها وملككم عليها ، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكري واجتهادي لأنكم مسلطون علينا وإنما طلبت الآن منكم السلم والقيت يدي في أيديكم بعد جهد مني لا شفقة على نفسي ، ولكن أردت صلاح البلاد لأن الله لا يحب الفساد) .

ثم شرع القائدان في مفاوضات السلام ، وانتهت المفاوضة بالصلح وحسب البنود الآتية .

١ – على الروم أن يدفعوا للمسلمين (قبل كل شيء كغرامة حرب) خمسة آلاف سيف ، والفي اوقية من الذهب ، والفي اوقية من الفضة والفي ثوب من الديباج .

٣ – على الروم أن يدفعوا للجيش الإسلامي (غير الجزية) خراج أرضهم لسنة واحدة .

٣ - على أهالي بعلبك والبقاع التابعة لها أن يدفعوا للمسلمين الجزية المتعارف عليها كل سنة عن كل إنسان قادر دينار .

٤ – أن ينزع من الرومان سلاحهم ويمنعوا من حمله في منطقة بعلبك والبقاع .

٥ – على القيادة الاسلامية أن تفك الحصار عن أصحاب القائد هربيس المحصورين في الضيعة التي كان هو يعتصم بها ، وأن لا يتعرض أحد من المسلمين لهم بأذى .

٦ – على المسلمين أن يتكفلوا بحفظ الأمن في منطقة بعلبك ويحموا الروم المتواجدين فيها من أي اعتداء خارجي وأن لا يتعرض أحد من المسلمين لهم بسوء .

٧ – تلتزم قوات الحماية الاسلامية التي ستبقى في منطقة بعلبك لحفظ الأمن بأن لا يدخل أحد منها مدينة بعلبك ، بل يظل رجال هذه القوات حول المدينة .

٨ – يسمح للبطريق هربيس بأن يظل في مدينة بعلبك حاكماً مدنياً يفصل بين أهل دينه في أحوالهم الشخصية الخاصة حسب تعاليم دينهم .

هذه هي البنود الرئيسية في وثيقة الصلح التي بموجبها استسلمت مدينة بعلبك لجيش أبي عبيدة .

مصرع البطريق هربيس بأيدي قومه

وتذكر بعض مصادر التاريخ (١) أن خلافاً نشب – بعد انتهاء الصلح – بين البطريق هربيس وأعوانه وبين المواطنين الرومان من أهل بعلبك أدى إلى مقتل هربيس واستدعاء أهالي بعلبك القوات الإسلامية التي كانت معسكرة خارج المدينة لدخول المدينة والإقامة بينهم ، فدخلت الحامية الإسلامية بعلبك حسب رغبة أهلها من الرومان والعرب المتنصرة .

وبعد انتهاء سيطرة المسلمين على بعلبك والبقاع ، أبقى القائد العام لحفظ الأمن في المنطقة تسعمائة فارس بقيادة رافع بن عبد الله وأوصاه بأن يكون مثالاً للعدل والإنصاف في الروم لأنهم أصبحوا في ذمة المسلمين قائلاً له :

(إني آمرك بما أمر الله به ، فاتق الله حق تقاته ولا تكن إلا من الولاة العادلين وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين ، واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم – أي أهل الذمة – ومطالبك بما تصنع بغير الحق) ثم أمره بأن يراقب الشواطيء البحرية لقربها من بعلبك خوفاً من أي إنزال تقوم به البحرية الرومانية في عرقة أو جبيل أو بيروت قائلاً :

---

(١) الاستاذ العسلي في كتابه (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين)ص ١٥١ .

(أقم الأرصاد في أطراف البلاد فإنك بين أعدائك واحذر من السواحل ، وشن الغارة عليهم ولتكن غارتك في المائة والمائتين وأمر أصحابك ومن معك أن يكفوا عن الفساد والظلم للرعية والله تعالى خليفتي عليك) .

وقبل أن يتحرك أبو عبيدة بجيشه الرئيسي في اتجاه حمص لتأديب أهلها الذين نقضوا الصلح وغدروا حضر اليه قائد حامية عين الجوز وهي من أعمال جبل لبنان ، فعرض عليه الصلح ، فقبل منه أبو عبيدة وصالحه على نصف ما صالح عليه أهل بعلبك .

وقد كانت معاملة خاصة لينة عامل بها أبو عبيدة حاكم عين الجوز ، لأنه حضر بنفسه دون أن تتوجه اليه أية قوة حربية إسلامية ، وقد استخلف أبو عبيدة على أهل عين الجوز سالم بن ذوئب السلمي في مفرزة من رجاله ، كقوة لحفظ الأمن وحماية السكان من أي عدوان خارجي .

ابو عبيدة يتحرك من البقاع إلى حمص

وبعد أن أنهى أبو عبيدة مهمته الشاقة في منطقة بعلبك أخذ في التحرك بالجيش الرئيسي نحو العاصمة الثانية حمص لتصفية الحساب معهم ، وفي الطريق وبينما هو بين الرأس والكفيلة بسوريا وعلى بعد ستة فراسخ (٢٤ ميلاً) من مدينة حمص التقي به بطريق الجوسيه وهي من قرى حمص تقع بين جبل لبنان وجبل سنير ، وهي منطقة زراعية خصبة بها عيون تسقي أكثر بساتينها ، التقى البطريق بأبي عبيدة وقدم له هدايا كثيرة فقبلها منه ، وكان صاحب جوسيه قد صالح المسلمين ، ولكنه خشي أن يظن المسلمون أنه قد نقض الصلح كأهل بعلبك وحمص ، فبادر إلى ملاقاة أبي عبيدة وأكد له ولاءه وأهل الجوسيه للمسلمين فجدد معه الصلح [1] .

---

(١) فتوح الشام للواقدي ج ٢ ص ٨٥ .

استمر القائد العام أبو عبيدة في التحرك بالجيش الرئيسي من البقاع نحو حمص وكان جزء من الجيش بقيادة خالد بن الوليد يتولى محاصرتها منذ توجه أبو عبيدة إلى منطقة بعلبك .

ولما وصل أبو عبيدة الأراضي السورية ووصل مكاناً فيها يقال له : الزراعة توقف هناك ، ونظم جيشه ، وكان موضع الزراعة لا يبعد كثيراً عن منطقة حمص ، ومن هناك أخذ أبو عبيدة يبعث بالألوية الواحد يتبع الآخر ، وذلك ليدخل الرعب في نفوس المحصورين الغادرين في حمص .

فقد بعث (أولاً) باللواء الأول وعدده خمسة آلاف فارس بقيادة مسروق العبسي وعقد له راية سوداء بها لمع من البياض ، فلما وصل ضواحي حمص وجد في استقباله القائد خالد بن الوليد الذي يتولى محاصرة حمص ، فرحب به وضمه إلى عسكره ، ثم دفع أبو عبيدة باللواء الثاني وعدد قواته خمسة آلاف فارس أيضاً ، وأعطى قيادته لضرار بن الأزور ، ثم وجه لواء ثالثاً بقيادة عمرو بن معدي يكرب الزبيدي .

وبعد أن وصلت الألوية الثلاثة إلى ضواحي حمص ، وأخذت مواقعها حول المدينة المحاصرة تحرك القائد العام نفسه في بقية الجيش الذي يضم جمهرة المهاجرين والأنصار وهيئة الأركان .

دعاء أبي عبيدة عندما أشرف على حمص

وعندما أشرف أبو عبيدة على حمص دعا الله تعالى بهذا الدعاء: (اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين) .

قالوا : ونزل أبو عبيدة على النهر المسمى بالنهر المقلوب ، وهناك جعل مقر قيادته ، ومن مقر قيادته هناك بشاطىء النهر بعث إلى قائد حامية حمص الروماني واسمه (هرابيس) بعث اليه كتاباً يخيره فيه بين واحدة من ثلاث .

١ – الدخول في الإسلام .

٢ – وإما دفع الجزية .

٣ – وإما الحرب .

وكان نص الكتاب إلى بطريق حمص : (من أبي عبيـــدة عامر بن الجراح عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على الشام وقائد جيوشه ، أما بعد فإن الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يغرنكم عظم مدينتكم وتشييد بنيـانكم وكثرة رجالكم ، ونحن ندعوكم إلى دين ارتضاه لنا ربنا عز وجل ، فإن أجبتم إلى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالاً منا يعلمونكم أمر دينكم وما فرض الله تعالى عليكم : وإن أبيتم الإسلام قررناكم على أداء الجزية : وإن أبيتم الإسلام والجزية فهلموا إلى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) [1] .

وعندما انتهى أبو عبيدة من كتابة الكتاب إلى قائد حامية حمص استدعى أحد العرب المتنصرة الداخلين في عهد المسلمين وأعطاه الكتاب وطلب منه إيصاله إلى البطريق هرابيس قائد الحامية .

وكانت حمص محاطة بسور ولها أبراج ، فعنـدما وصل المبعوث المتنصر إلى السور حاول بعض رجال الحامية من على السور أن يرميه بالسهام ، ففطن العربي المعاهد ، فخاطبهم في الحال بلغتهم الرومية (وكان يجيدها) ، وأبلغهم أنـــه رجل مسيحي عربي ولكنه داخل في عهد المسلمين ، وأنه إنما جاء يحمل خطاباً من أمير جيش الإسلام إلى البطريق هرابيس ، فكفوا عنه ، وأرسلوا له من على السور حبلاً متيناً ، فربطه في وسطه وعندها رفعه حرس السور اليهـــم ، ثم ذهبوا به إلى مقر قائد حامية المدينة البطريق ، وهناك سلمه خطاب أبي عبيدة ،

---

(١) الواقدي ج ١ ص ٨٦ .

وعند تسليمه الخطاب قال له هرابيس : هل رجعت عن دينك إلى دين هؤلاء العرب ؟ قال : (لا) ولكني في ذمتهم وعهدهم أنا وأولادي وأهلي ومالي ، ثم أخذ أمام هرابيس وهيئة أركان حربه ومستشاريه يثني على المسلمين من حيث وفائهم وبعدهم عن الغدر والخيانة .

فقد قال : (والله ما رأينا من القوم إلا خيراً ، والصواب عندي أن لا تقاتلوهم فإن القوم أولوا بأس شديد ، لا يخافون ولا يرهبون الموت ، قد تمسكوا بدينهم ، والموت عندهم أفضل من الحياة ، وقد أقسموا أن لا يبرحوا عن مدينتكم حتى تسلموها اليهم (أي صلحاً) أو يفتحها الله على أيديهم ، ثم قال لبطريق حمص : أنكم أحب إلي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم ، ولكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم ، فسلموا تسليماً ، ولا تخالفوا تندموا) .

وبدلاً من أن يستجيب بطريق حمص (هرابيس) لنصيحة ابن دينه العربي المتنصر غلى الدم في عروقه واشتد غضبه عليه وقال له حالفاً بالإنجيل : (لولا أنك رسول لأمرت بقطع لسانك على جرأتك علينا) .

وبعد أن ترجم خطاب أبي عبيدة للبطريق وفهم محتواه أجابه بكتاب قال فيه – بعد أن افتتحه بكلمة الكفر – : (يا معاشر العرب إنه وصل الينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعيد ، ولسنا كمن لاقيتم من أهل الشام ، ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد اليه من العساكر ، والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال ، فإن سورنا شديد ، وأبوابنا حديد وحربنا عتيد) .

تشديد الحصار على حمص

وعندما تسلم أبو عبيدة جواب البطريق هرابيس الذي يرفض فيه عرض السلام قرر مهاجمة حمص وفرض الحصار الشديد عليها . فقسم جيشه إلى أربع

وحدات قتالية ، خصص لكل وحدة ناحية حول المدينة تكون فيها عملياتها ، واختار لهذه الوحدات أربعة من القادة المشاهير .

الوحدة الأولى : ومكان عملياتها حول باب يقال له : باب الجبل . وقائد الفرقة : المسيب بن نجيبة الفزاري .

الوحدة الثانية : ومكان عملياتها حول باب يقال له : باب الرستن : وقائدها: المرقال : هاشم بن أبي وقاص .

الوحد الثالثة : ومكان عملياتها حول باب يقال له : باب الصغير : وقائدها خالد بن الوليد .

أما الفرقة الرابعة : فقد كانت بقيادة القائد العام : ومكان عملياتها باب يقال له : باب الشام .

فتح حمص

لقد كان حاكم حمص من القادة الكبار الذين يثق بهم ويعتمد عليهم الملك هرقل ، وكانت حمص (غالباً) مقر الملك ، حيث كان دائماً يفضل الإقامة بها على الإقامة في العاصمة دمشق ، رغم أن دمشق عاصمة الشام العتيدة عبر العصور .

غير أن الإمبراطور هرقل ، لما أحس بلفح الحرب تهب من ناحية بعلبك التي لا تبعد كثيراً عن حمص ، والتي كانت تدور حولها المعارك بين الروم والمسلمين قرر نقل مقر قيادته إلى أنطاكية في أقصى الشمال ، وخلف يده اليمنى (هرابيس) حاكماً على حمص ووعده بالمساعدة والمدد ليتقوى على المسلمين .

وكان البطريق هرابيس أتقن تحصين مدينة حمص ، وشحنها بأعداد هائلة من المقاتلين ، كما اختزن شيئاً عظيماً من المواد الغذائية ، يكفيه لعدة سنوات ، ولديه ما يكفي جيشه من احتياطي الأسلحة ، وذلك استعداداً منه لمقاومة

المسلمين الذين يعلم أنهم سيحاصرونه لنقضه الصلح الذي كان قـــد عقد بينهم وبين أهل حمص .

وذكرت بعض المصادر التاريخية أن حصار حمص كان في فصل الشتـاء : والشتاء يكون في تلك المناطق قارصاً للغاية حيث يهطـــل المطر بغزارة ، وتتساقط الثلوج .

فكان البطريق هرابيس يأمل في أن يكون عامل البرد الشديد فعالاً في حمل المسلمين على الابتعاد عن حمص وفك الحصار عنها ، لأن المسلمين لا يحتملون البرد لكون الطقس في بلادهم طقساً حاراً أكثر أيام السنة .

ولقد تأذى المسلمون المحاصرون لحمص بالبرد الشديد ولكن أحداً لم يمت منهم كما توقع هرابيس ، بل صبروا وصمـدوا ، وحدث العكس ، وهو أن الذين أثر عليهم البرد الشديد ولم يحتمله الكثير منهم هم من الجنـــد الرومان في حمص ، رغم تعودهم على البرد والثلج ، فقد تقطعت أقدام كثير منهم من شدة تعرضهم للبرد الشديد .

فقد ذكر الإمام الطبري في تاريخـه عن أبي الزهراء القشيري عن رجل من قومه . قال : كان أهل حمص يتواصون فـيما بينهم ويقولون : تمسكوا فإن العرب حفاة ، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم ، فكانت الروم تراجع ، وقد سقطت أقدام بعضهم في خفافهم ، وان المسلمين في النعـال ما أصيب أحد منهم حتى انخنس الشتاء : أي ذهب) .

وبعد أن انتهى فصل الشتاء استسلمت المدينة للمسلمين فدخلوها صلحاً.

وهناك خلاف بين المؤرخين حول كيفية استسلام حمص ، فبالرغم من أنهم متفقون على أنها في النهاية استسلمت ودخلها المسلمون صلحاً ، إلا أن الاختـلاف

حول : هل جرى قتال بين حاميتها وبين المسلمين قبل استسلامها أم أنها استسلمت نتيجة الحصار فقط وبدون قتال .

فبعضهم يذكر أن المسلمين لما رأوا مناعة المدينة وشدة تحصيناتها ، وانه يكاد من المستحيل اقتحامها عنوة لجأوا إلى حيلة استدرجوا بها الحامية الرومانية حتى خرجت بأكملها من المدينة ، فتم تطويقها من قبل المسلمين ومنعها من العودة إلى حمص .

وبعد قتال عنيف دار خارج المدينة بين الفريقين جنح أهل حمص إلى السلم، وطلبوا الصلح ، فأجابهم المسلمون إلى ذلك ، فوضعت الحرب أوزارها، ودخل المسلمون حمص وسيطروا عليها ومنحوا أهلها الأمان على أساس شروط الصلح التقليدية المعروفة : ويذكر هذا الفريق أن الرومان خسروا في معركة حمص قبل عقد الصلح خمسة آلاف مقاتل ، وخسر المسلمون مائتين وخمسة وثلاثين شهيداً أكثرهم من أهل اليمن . ويذكر هذا الفريق من المؤرخين أن قائد الحامية نفسه لقي مصرعه في هذه المعركة .

ويذكرون أن المسلمين انهزموا في أول الأمر ، ولكنهم بتحريض من الأمير خالد بن الوليد وأبي عبيدة عطفوا على الروم وحمي الوطيس واختلط الفريقان ودار قتال عنيف انكسر أثناءه سيف خالد بن الوليد عندما ضرب به أحد البطارقة الرومان على خوذته ، وقالوا : ان خالداً قال في هذه المعركة الضارية شعراً وهو :

ويل لجمع الروم من يوم شغب ... ان رأيت الحرب فيه تلتهب

وكم لقوا منا مواقع النصب ... وكم تركت الروم في حال العطب

فقد ذكر الاستاذ بسام العسلي (وهو من مؤيدي هذا الرأي) ذكر في كتابه (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين) فقال :

(كان حاكم مدينة حمص قد حصن مدينته واستعد للقتال وحفظ كميات من الأغذية للحصار ، وأخذ ينتظر قوات الدعم التي وعده بها هرقل ، معتقد أن جيش العرب المسلمين لن يقاوم قسوة الطبيعة وتحمل البرد ، لكن جيش أبي عبيدة صمد وقاوم المطر والثلج والعواصف ، ثم ذكر أن الخليفة عمر – وكان يتتبع أنباء معركة حمص – خشي أن يبعث هرقل بدعم قوي لحامية حمص من العرب المتنصرة أمر سعد بن أبي وقاص أن يشاغل هؤلاء المتنصرة في مناطقهم كي يعجزوا عن إسناد هرابيس حاكم حمص فقال : وعندما علم الخليفة عمر بحصار حمص واحتمال قيام العرب المتنصرة من غسان ولخم بدعمهم أصدر أمره إلى سعد بن أبي وقاص بتوجيه قوة إلى هيث وقرقيسيا لفتحها ، ولما اشتد الحصار ولم تصل قوات الدعم المنتظر أخذت إرادة القتال تضعف لدى الجندي في حمص ، وأخيراً وضع أبو عبيدة مخططه للهجوم الكبير ، وتظاهر بالانسحاب تاركاً المواشي والغنائم في المؤخرة ، وعندما ابتعد عن المدينة خرج جيش حمص لمطاردة جيش أبي عبيدة ، وأسرع الفرسان المسلمون لتطويق جيش حمص ومنعه من العودة إلى المدينة ، وبعد معركة حاسمة انهارت مقاومة جيش حمص وتمزق المقاتلون ، وطاردهم فرسان المسلمون وتابع أبو عبيدة تقدمه حتى المدينة ، فخرج أهلها وطلبوا الصلح) اهـ .

وهكذا استسلمت العاصمة الثانية مدينة حمص للمسلمين ، ودخلوها صلحاً بعد معارك شرسة سقط فيها عدة آلاف من القتلى أغلبيتهم الساحقة من الرومان الذين حيل بينهم وبين العودة إلى حمص بعد أن خرجوا منها لمطاردة المسلمين .

هذا هو رأي الفريق الأول وقد استند فيه الاستاذ الفاضل بسام العسلي على الواقدي .

أما الفريق الثاني وعلى رأسه الإمام الطبري فهو عند حديثه في تاريخه لا يذكر أي قتال دار للاستيلاء على حمص ، إذ يذكر انها إنما فتحت صلحاً .

وفي رأينا أن عدم تعرض الإمام الطبري لذكر القتال الذي قيل أنه دار خارج حمص بين الفريقين قبل عقد الصلح لا ينفي أن يكون هذا القتال قد نشب فعلاً ، فقد لا يكون خبر هذه المعارك وصل إلى علم الإمام الطبري (وهو يجمع المعلومات عن فتح حمص) .

وإذا كان العسلي قد أيد الرأي القائل أن حمص لم تستسلم للمرة الأخيرة إلا بعد معارك طاحنة ، فإن المقدم ياسين سويد قد أيد هذا الرأي في كتابه (معارك خالد بن الوليد) .

وعلى كل حال فإن الفريقين متفقان على أن المسلمين دخلوا مدينة حمص صلحاً ، والاختلاف (فقط) هو حول نشوب القتال قبل إبرام الصلح ، ونحن لا ننكر على الذين قالوا : ان القتال دار عنيفاً قبل إبرام الصلح فقد يكونون حصلوا ممن حضر القتال على معلومات بهذا الشأن ، لم يحصل عليها الفريق الآخر ، وهو يدون أخبار فتح مدينة حمص الفتح الأخير .

ونحن هنا زيادة في الإيضاح نذكر ما صرح به الطبري (حرفياً) من أن المدينة فتحت صلحاً وبدون أي قتال ، فقد ذكر في كتابه المسمى (بتاريخ الرسل والملوك) :

فقال : لما بلغ هرقل الخبر بقتل أهل المرج (مرج الروم) — وقد تقدم تفصيله ضمن هذا البحث - أمر أمير حمص بالسير والمضي إلى حمص ، وقال : انه بلغني أن طعامهم (يعني المسلمين) لحوم الابل وشرابهم البانها ، وهذا الشتاء ، فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم بارد ، فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد ، هذا جل

طعامه وشرابه ، وارتحل من عسكره ذلك فأتى الرها [1] ، وأخذ عامله بحمص وأقبل أبو عبيدة حتى نزل على حمص وأقبل خالد بن الوليد بعده حتى ينزل عليها ، فكانوا يغادون المسلمين ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون بها برداً شديداً والروم حصاراً طويلاً فأما المسلمون فصبروا ورابطوا وأفرغ الله عليهم الصبر ، وأعقبهم النصر ، حتى اضطرب الشتاء وإنما تمسك القوم بالمدينة رجاء أن يهلكهم الشتاء .

وعن أبي الزهراء القشيري عن رجل من قومه قال: كان أهل حمص يتواصون فيما بينهم ، ويقولون تمسكوا فإنهم حفاة ، فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يأكلون ويشربون ، فكانت الروم تراجع وقد سقطت أقدام بعضهم في خفافهم وأن المسلمين في النعال ما أصيب أصبع أحد منهم حتى إذا انخنس الشتاء قام فيهم شيخ لهم يدعوهم إلى مصالحة المسلمين . قالوا : كيف والملك في سلطانه وعزه ، ليس بنا شيء ، فتركهم وقام فيهم آخر . فقال : ذهب الشتاء وانقطع الرجاء فما تنتظرون ؟ فقالوا : البرسام فانما يسكن في الشتاء ويظهر في الصيف ، فقال : إن هؤلاء قوم يمانون ، ولأن تأتوهم بعهد وميثاق خير من أن تؤخذوا عنوة أجيبوني محمودين قبل أن تجيبوني مذمومين . فقالوا : شيخ خرف ، ولا علم له بالحرب .

الزلزال في حمص ايام الحصار

وعن أشيخ من غسان وبلقين . قالوا : أثاب الله المسلمين على صبرهم أيام

---

(١) الرها بضم اوله من مدن الحدود . وهي تقع بين الموصل في العراق والشام وبينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استجدها وهو (الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر) واسمها بالرومانية (آذاس) وكانت من استراحات الملك هرقل هي وأنطاكية وحمص ، بنيت في السنة السادسة من موت الاسكندر . وهي ذات شأن عظيم . وقد سكنها كثير من علماء الإسلام ورواة الحديث .

احمص أن زلزل بأهل حمص ، وذلك أن المسلمين ناهدوهم فكبروا تكبيرة زلزلت معها الروم في المدينة وتصدعت الحيطان ، ففزعوا إلى رؤوسائهم وإلى ذوي رأيهم ممن كانوا يدعونهم إلى المسالمة فلم يجيبوا وأذلوهم بذلك ، ثم كبروا الثانية ، فتهافت منها دور كثيرة وحيطان ، وفزعوا إلى رؤسائهم وذوي رأيهم فقالوا ألا ترون عذاب الله فأجابوهم : لا يطلب الصلح غيركم ،فأشرفوا،فنادوا: الصلح الصلح ، ولا يشعر المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وقبلوا منهم على أنصاف دورهم ، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم ، ولا ينزلونه عليهم . فتركوه لهم فصالح بعضهم على صلح دمشق ، على دينار وطعام على كل جريب أبداً ، أيسروا أو أعسروا ، وبعضهم على قدر طاقته ، وولوا (أي المسلمون) ما جلا عنه ملوكهم »[1] .

ثم يختتم الإمام الطبري حديثه عن عمليات فتح حمص فيقول :

(وبعث أبو عبيدة السمط بن الأسود في بني معاوية والأشعث بن شناس في السكون ، معه ابن عابس في بلي ، وبلالاً وخالداً في الجيش ، والصباح بن شتير ، وذهيل بن عطية وذا سمستان ، فكانوا في قصبتها ، وأقام في عسكره ، وكتب إلى عمر بالفتح ، وبعث بالأخماس مع عبد الله بن مسعود وقد وفده وأخبر خبر هرقل ، وأنه عبر الماء إلى الجزيرة فهو بالرهاء ، ينغمس أحياناً ، ويطلع أحياناً ، فقدم ابن مسعود على عمر ، فرده ثم بعثه بعد ذلك إلى سعد بالكوفة ، ثم كتب إلى أبي عبيدة : (أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فاني غير تارك البعثة اليك بمن يكاتفك إن شاء الله)[2] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٩٩ وما بعدها .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٦٠٠ .

رحلة هرقل النهاية من الشام

كان الملك هرقل أثناء حصار المسلمين لحمص قد عبر النهر إلى الرهاء ، وهي مدينة في شمال الجزيرة (ما بين النهرين) بين الشام والموصل وعلى حدود آسيا الصغرى مقر الإمبراطورية البيزنطية ، فعندما بلغ هرقل استسلام مدينة حمص للمسلمين ، قرر الرحيل إلى القسطنطينية وإلى الأبد ، لأنه لم يعد له أمل في استعادة ما فقد من بلاد الشام ، ولديه اليقين أنه سيفقد ما تبقى منها بأيدي الرومان .

فقد ذكرت مصادر التاريخ أن الامبراطور هرقل لما خرج من الرهاء واستتبع أهلها . قالوا : نحن ههنا خير منا معك ، وأبوا أن يتبعوه ، وتفرقوا عنه وعن المسلمين ، وكان أول من أنبح كلابها وانفر دجاجها زياد بن حنظلة [1] وكان من الصحابة ، وكان مع عمر بن مالك مسانداً ، وكان حليفاً لبني عبد قصي ، خرج هرقل حتى شمشاط [2] وهي مدينة خارج حدود الشام بآسيا الصغرى على نهر الفرات ناحية أرمينيا التركية - فلما نزل القوم الرهاء أدرب فنفذ نحو القسطنطينية ولحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت . فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم فقال :

أحدثك كأنك تنظر اليهم ، فرسان بالنهار ورهبان بالليل ، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه فقال : لئن صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين : وكان هرقل لما حج بيت

---

(١) هو زياد بن حنظلة تقدمت ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٢) شمشاط بكسر أوله مدينة تاريخية قديمة تقع على شاطىء الفرات وكانت تابعة للروم .وفي الأساطير .. سميت شمشاط . بشمشاط بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام ، لأنه أول من أحدثها .. وقد سكنها جماعة من علماء المسلمين البارزين .

المقدس ، فخلف سوريا وراءه وظعن في أرض الروم (آسيا الصغرى) قال : عليك السلام يا سورية تسليم مودع لم يقض منه وطره وهو عائد : فلما توجه المسلمون نحو حمص عبر الماء فنزل الرهاء ، فلم يزل بها حتى طلع أهل الكوفة (يعني الجيش الذي أرسله سعد بن أبي وقاص) وفتحت قنسرين وقتل ميناس بطريقها ، فخنس عند ذلك إلى شمشاط ، حتى إذا منها نحو الروم علا على نشز (أي مكان مرتفع من الأرض) ثم التفت ونظر نحو سورية وقال : عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ، ولا يعود رومي اليك أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليته لا يولد ، ما أحلى فعله ، وأمر عاقبته على الروم .

وعن أبي الزهراء وعمرو بن ميمون قالا : لما فصل هرقل من شمشاط داخل الروم : التفت إلى سورية فقال : قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم ، وليته لم يولد ، ومضى حتى نزل القسطنطينية ، وأخذ أهل الحصون التي بين اسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم ، وشعث الحصون ، فكان المسلمون لا يجدون بها أحد ، وربما كمن عندها الروم فأصابوه غرة المتخلفين ، فاحتاط المسلمون لذلك) [1] .

وهكذا وبعد استرجاع المسلمين لمدينة حمص وسيطرتهم عليها السيطرة النهائية خرج الامبراطور هرقل الشام خروجاً لا رجعة بعده بالرغم من أن هناك مدناً كبيرة لا تزال تحت سلطان الرومان في الشام . وبالرغم من أن جميع القواعد البحرية كلها على الأبيض المتوسط لا تزال تحت سيطرة الأسطول الروماني ، إذا لم يتم إلا بعد رحيل هرقل عن الشام .

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٢ وما بعدها .

فتح الرستن

كان أهل الرستن قد عقدوا مع المسلمين صلحاً في سنة ١٤ هـ شأنهم شأن أهل حمص وبعلبك ، ولكنهم مثلهم غدروا ونقضوا الصلح ، فقرر أبو عبيدة التوجه اليهم لإخضاعهم وتأديبهم وذلك سنة ١٥ هـ ، وكانت الرستن مدينة حصينة تقع على مرتفع من الأرض وهي على نهر العاصي ، وتقع بين حماة وحمص ، وكانت في الماضي ذات شأن عظيم ، والدليل على ذلك أن بها آثاراً باقية حتى اليوم ، قال ياقوت في معجم البلدان : إن ذلك مما يدل على جلالتها .

كان قائد حامية الرستن زعيماً رومانياً كبيراً اسمه (نقيطاس) ، وقد استعد لمواجهة المسلمين ، لا سيما بعد علمه بوقوع مدينة حمص في قبضتهم ، فقد شحن الرستن بأعداد كبيرة من المقاتلين ، وكان الغذاء والماء متوفران فيها بكميات كبيرة .

تحرك أبو عبيدة إلى الرستن من منطقة حمص ولما وصل إلى ضواحيها وجدها مدينة محصنة للغاية ووجد أن أسوارها وأبراجها ومنازلها تشرف على كل ما حواليها من الأرض ، وأن جيش الإسلام إذا ما رابط قريباً منها فإنه سيكون مكشوفاً وعرضة للقصف بسهام الروم منها ، كما أنه رأى أن من الصعب جداً اقتحامها بحد السيف ، وأنه لو قرر اقتحامها عنوة ، فان ذلك سيكلفه الثمن غالياً من أرواح جنده .

لقد كانت الرستن ذات أبواب سميكة محكمة وعليها الحرس يتناوبون الليل والنهار .

وأمام هذا كله عقد أبو عبيدة مع هيئة أركان حربه ومستشاريه مجلساً عسكرياً للتشاور والبحث عن وسيلة تمكن المسلمين من فتح المدينة بأقل خسارة ممكنة .

وكان أبو عبيدة قد بعث إلى حاكم الرستن يطلب منه العودة إلى ما كان عليه من الصلح وأن يدخل وقومه من جديد في ذمة المسلمين وحمـــايتهم ، وأن يقلع عن الغدر .

كان في بطريق الرستن (نقيطاس) شيء من الليونة والدهاء فقد رفض العودة إلى ما كان عليه من الصلح مع المسلمين ، ولكنه أبلغ المسلمين أنـه لا يرغب في الحرب ، وطلب من المسلمين الإنصراف عن الرستن بسلام ، وأن يعـاملوا أهل الأرياف التابعين له معاملة حسنة ، كما أبلغهم أنـــه يفضل أن يشنوا حربهم على مناطق أخرى لا تزال تابعة للملك هرقل ، وبعد ذلك ينظر في أمر طلبهم ،وفي الجلسة التي عقدها أبو عبيدة قال لهيئة أركان حربه ومستشاريه : ان هذا حصن منيع ليس إلى فتحه من سبيل لنا إلا بالحيلة والخديعة ، ثم تقدم باقتراح خلاصته أن يحضر عشرين صندوقاً ، وأن يضع في كل صندوق رجلاً من ذوي البـــأس والنجدة والرأي ، على أن تكون أقفـال الصناديق عندهم باطنهـا ، ثم يطلب من البطريق (نقيطاس) أن يبقي تلـــك الصناديق أمانة عنده في الرستن ، حتى يعود المسلمون .

فاذا ما قبل نقيطاس بادخال الصناديق إلى مدينـة الرستن يسارع الرجال الذين بداخلها إلى الخروج منها ويركزون هجومهم على أبواب المدينة فيفتحونها للمقاتلين المسلمين ، وقد راق هذا الإقتراح للمحاربين الصحابة من هيئة الأركان والمستشارين ، فوافقوا عليه ، إلا أن القائد خالد بن الوليد تقدم باقتراح يقضي بأن تكون أقفال الصناديق ظاهرة ليزداد الروم اطمئناناً إلى أنهـا فعلاً تحتوي على أمتعة ثقيلة ، ثم اقترح خالد بأن يكون ترتيب الصنـــاديق أنثى في ذكر (أو عاشق ومعشوق كما يقولون) ، ليسهل على من بداخلها منها عن طريق فتحها الذي سيكون سهلاً عليها ليست بها مسامير ، فراقت هذه الفكرة لأبي عبيدة والمؤتمرين ، فتم تركيب الصناديق حسب اقتراح خالد .

وبعد أن تم تركيب الصناديق أدخلوا فيها الرجال المنتخبين لهذه المهمة الصعبة ، وكان الواحد منهم يعد بالمئات ، بينهم ضرار بن الأزور وعمرو بن معدي يكرب الزبيدي فارس اليمن ، وذو الكلاع الحميري ملك حمير السابق ، وفارس بني زهرة هاشم بن عتبة المرقال ، وقيس بن هبيرة ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ومالك الأشتر النخعي ، ومسلمة بن حبيب الفهري ، وربيعة بن عامر[1] وعتبة بن العاص وعبد الله بن جعفر ، وكان البطريق نيقطاس قد فرح بقبول اقتراحه برحيل المسلمين عن الرستن ، فقبل (دون تردد) أن تدخل الصناديق إلى مدينته ، وأدخلت الصناديق العشرين إلى مدينة الرستن لتبقى عنده حتى يعود المسلمون للتفاهم معه بعد غزوهم الروم المجاورين،فوضع البطريق الصناديق في قصر الامارة .

وهنا ارتحل أو تظاهر أبو عبيدة بالرحيل بجيشه عن الرستن ، حتى نزل قرية غير بعيدة من الرستن يقال لها : السودية .

وكان الاتفاق قد تم بين مجموعة الصناديق الذين يمكن أن يطلق عليه اسم الفدائيين – وبين القيادة العليا على أن يبعث أبو عبيدة في ظلام الليل بجيش يرابط قريباً من أسوار مدينة الرستن ، بحيث لا يشعر أحد بوجوده من أهل الرستن .

كانت العلامة بين الجيش المرابط سراً خارج المدينة وبين مجموعة الصناديق أنهم إذا ما خرجوا من الصناديق يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل،ثم يبتدرون الأبواب ويقتلون الحرس ، ثم يفتحون الأبواب ، فيدخل الجيش السري المكلف بالسيطرة على الرستن بالاشتراك مع الفدائيين .

وكان أبو عبيدة قد كلف خالد بن الوليد بقيادة الجيش السري المكلف بهذه

---

(١) هو عامر بن ربيعة بن بجاد، قيل الأسدي وقيل : الأزدي ، يعد في أهل فلسطين .

المهمة ، فتحرك خالد بجيشه في ظلام الليل حتى أبواب الرستن دون أن يشعر به أحد من أهل الرستن .

وقد ساعد مجموعة الصناديق في نجـــاح مهمتهم أن بطريق الرستن ذهب من القصر مع كبار قادة جيشه وأعيان الرستن إلى الكنيسة ليصلوا صلاة الشكر ، لأن الجيش الإسلامي رحل عنهم

وبينما البطريق وقادة الرستن وأعيانها في الكنيسة فتح الفدائيون الصناديق ، ثم اندفعوا نحو أبواب المدينة وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير حتى ارتجت المدينة ، ولما وصلوا إلى الأبواب قضوا في الحال على جميع الحرس عند الأبواب ، وفتحوها لجيش خالد في الحال .

وهنا اندفع المقاتلون من الخارج بقودهم خالد بن الوليد إلى داخل الرستن ، فأبادوا المقاومة التي وقفت في طريقهم .

ولما رأى بطريق المدينة ما حدث انهارت أعصابه ، ورفع راية الاستسلام وأمر جنده بالكف عن المقاومة ، فتوقف القتال في المدينة ، وتم عقد الصلح بين المسلمين وبين أهالي الرستن ، وبموجب هذا الصلح تم للمسلمين الاستيـــلاء للمرة الثانية على الرستن على أساس أن يكون أهل الرستن آمنين في ذمة المسلمـــين ، يدفعون لهم الجزية كأمثال من صالح قبلهم .

وهكذا تمت للمسلمين إعادة الرستن إلى حضيرة طاعة المسلمين دون أن يخسروا رجلاً واحداً من جند الإسلام .

فتح المعرة وشيزر

وبعد أن تمت السيطرة للمسلمين على مدينة الرستن وتم عقـــد الصلح مع بطريقها أخذ القائد أبو عبيدة في التحرك بجيشه نحو الشمال في اتجاه المعرة وشيزر لإخضاعها وتأديب حاميتها وأهلها الذين نقضوا الصلح .

فبدأ أبو عبيدة بالمعرة وهي التي سميت فيما بعد : بمعرة النعمان ، سميت باسم النعمان بن بشير الأنصاري [1] الصحابي الشهير ، وذلك أنه حينما اجتاز بها مرة مات له ابن بها فدفنه فيها فسميت باسم النعمان .

والمعرة مدينة أثرية قديمة مشهورة ، وهي من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وهي بلدة الشاعر المشهور أبي العلاء المعري القائل فيها :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما . رماني اليها الدهر منذ ليالي

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال

وقال ياقوت الحموي في معجمه : (والذي أظنه انها سميت بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تيم الله وهو تنوخ من أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة) .

فهي على رأي الخفرافي ياقوت مدينة قديمة مشهورة منذ القدم ، وكانت كثيرة المزارع ويكثر بها الزيتون والتين .

وعندما بلغ أهل المعرة تحرك جيش أبي عبيدة نحوهم انتابهم الفزع ، وفي الحال تدارس قائد حاميتها مع أعيانها وضعهم ، فوجدوا أنه من الانتحار مقاومة جيش المسلمين الذي هزم جيش هرقل في اليرموك وبعلبك ودمشق وحمص ومرج الروم وقنسرين ، لذلك قرروا مصالحة المسلمين والدخول في ذمتهم بدفع الجزية ، ثم خرجوا واستقبلوا أبا عبيدة وجيشه قبل أن يصل إلى مدينتهم ، فجددوا معه الصلح ، فعادت المعرة إلى سلطان الإسلام كما كانت بالصلح ، ولم يحدث قتال .

---

(١) تقدمت ترجمة النعمان هذا في سلسلة معارك الاسلام الفاصلة .

وبعد إبرام الصلح مع أهل المعرة تحرك أبو عبيـــدة بجيشه نحو مدينـــة شيزر لفتحها .

وكانت شيزر مدينة شهيرة قديمة ، وبها نهر يمر وسطها وعليه قنطرة ، وبها قلعة حصينة تقع على شرف (أي مرتفع) من الأرض .

وكان الرومان متحصنون في المدينة وقلعتها ، ويذكر المؤرخون أن مدينة شيزر مشهورة في الجاهلية ، ذكرها الشاعر المشهور ، امرؤ القيس الكندي في شعره حين كان في طريقه إلى أنقرة ببلاد الروم فقال :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة ... فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فواحزناً إذ فارقونا وجاوروا ... سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا
بلاد تعول الناس لم يولدوا بها ... وقد غنيت منها معاناً ومحضرا
ليالي قومي صالح ذات بينهم ... يسوسون أحلاماً وإرثاً مؤزرا

ورغم أن مدينة شيزز تقع في مكان حصين وبها قلعة حربية منيعـة ، وبهـا عدد غير قليل من الرومان المقاتلين إلا أن أهلها فضلوا الصلح على الحرب ، وخاصة بعد أن بلغهم ما حدث لأهل الرستن وبلغهم انعقاد الصلح بين المسلمـــين وأهل المعرة : لذلك سارع أهل شيزر إلى طلب الصلح ، وخرج من المدينة وفد كبير من الأهالي ، وقابلوا أبا عبيدة في الطريق طالبين أن تدخل شيزر في ذمة المسلمين على أساس الصلح وشروطه المعروفة ، فصالحهم أبو عبيدة ، وبهذا أصبحت شيزر ضمن نطاق سلطان الإسلام .

فتح حماة

أما حماة الواقعة على نهر العاصي التي دخلت أيضاً في ذمة المسلمين بالصلـــح فهي مدينة قديمة مشهورة قبل الإسلام ، وعندما دخلهـــا المسلمون صلحاً كان

عليها سور عظيم محكم وفيها قلعـــة حصينة عظيمة ، يحيط بهـــا خندق عمقه مائة ذراع .

ورغم شدة تحصينها وبالرغم من موقعها الحصين الإستراتيجي فإن بطريقهـا كان بعيد النظر لذلك قرر مصالحة المسلمين قبل أن يشرعوا في محاربته وكفى الله المؤمنين القتال .

وحماة اليوم من أشهر المدن السورية ، وقد وصفها ياقوت في معجمه وصفـاً دقيقاً فقال :

(حماة - بفتح أول - مدينة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حقلة الأسواق يحيطها سور محكم وبظاهر سورها حاضر كبير ، فيه أسواق كبيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي ، عليـــه عدة نواعير تسقي الماء من العاصي ، فتسقي بساتينها وتصب إلى بركة جامعها ، ويقال لهذا السوق : الأسفل ، لأنه منحط عن المدينة ، ويسمون المسور : السوق الأعلى ، وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها وإتقان عمارتها وحفر خندقها نحو مائة ذراع (أي عمقه) وهي مدينة قديمة جاهلية ، (أي كانت ذات شأن قبل الإسلام) وقد جاء ذكرها في شعر امرء القيس ، وذكر البلاذري أنها فتحت صلحاً سنة ١٧ هـ ولكن الصحيح أنها فتحت في سنة ١٥ هـ .

فتح قنسرين للمرة الثانية

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا تفاصيل المعارك الطاحنـة التي دارت خارج قنسرين وكيف كان فيها النصر للمسلمين بقياده خالد وأبي عبيدة ، وكيف سارع أهل قنسرين بعد الهزيمة وعقدوا الصلح مع المسلمين ودخلوا في ذمتهم .

ولكن يظهر أن أهل قنسرين أقدموا على نقض الصلح للمرة الثانيـــة ، فاضطرت القيادة الإسلامية إلى إرسال قوة كبيرة لتأديبهم وإخضاعهم ، فقـد

ذكر ابن الأثير في الكامل أن القائد أبا عبيـــدة بعد سيطرته على شيزر والمعرة وحماة بعث السمط الكندي إلى قنسرين ففرض عليها الحصار ، فاضطر أهلهـا لطلب الصلح ، فجاء منهم وفد اليه فصالحهم وعقد معهم إتفاقيـــة سلام دائم وفق تعاليم الإسلام .

فتح حلب ١٥ هـ وتحرك جانب من الجيش لفتح المدن الساحلية

وبعد السيطرة من جديد على حمص وشيزر والمعرة وحماة وقنسرين التي كانت المطاف الأخير لتأديب ناقضي الصلح ، قرر القائد العام (وهو يعسكر في منطقة قنسرين) أن ينقل المعركة إلى أقصى وأهم مدينة في الشمال ، بل أهم مدينة في الشام كله (بعد دمشق) وهي حلب ، وبينما هو يستعد للتحرك نحو مدينـــة حلب تلقى من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أمراً بأن يفتح جبهة جديدة في الشام وحدد موقع الجبهة وهو الشريط الساحلي على الأبيض المتوسط وذلك لتصفيـة جميع القواعد البحرية غزة وقيسارية وقرقيسيا وبيروت وجبيـــل وطرابلس وغيرها لأن بقـاء هذه الموانىء تحت سيطرة الأسطول الروماني يجعـل الإحتمال قائماً دائماً بأن يقوم البيزنطيون بإنزال بحري كبير ويحاولوا ضرب مؤخرة القائد العام أبي عبيدة وهو يعـــالج أمور ما تبقى للرومان في أقصى الشمال من قواعد حربية مثل حلب ، ويقطعوا خطوط مواصلاته التي بعدت عن قاعدتها الرئيسية المدينة أكثر من الفي ميل .

وقد عين الخليفة عمر قائداً لهذه الجبهة الجديدة الأمير يزيد بن أبي سفيان ، فتحرك يزيد نحو أهدافه في الساحل بعد أن عين أخاه معاوية على مقدمته فقام بفتح عدة مدن ساحلية ، وفي بحثنا هذا ذكرنا أنه بعد استيلاء المسلمين على فحل وبيسان ونابلس وطبرية ، ترك أبو عبيدة عدة وحدات بقيادة عمرو بن العـاص وشرحبيل بن حسنة ليعمل الأول في فلسطين والثاني مسنداً له في الأردن ، وهذا

يعني أنه يتحرك يزيد بن أبي سفيان جنوباً نحو الساحل يكون هناك جيشان يعملان في الجنوب في الساحل وقرب الساحل ، وبعد انتهائنا من الحديث عن فتح حلب سنتحدث بإسهاب إن شاء الله عن الأعمال الحربية التي بها تم استيلاء المسلمين على مدن الساحل الممتده من اسكندرونة في الشمال حتى رفح في الجنوب وكذلك على ما تبقى من مواقع فى فلسطين الداخل مثل العاصمة المقدسة (القدس) .

ابو عبيدة يتحرك نحو حلب

ومن منطقة قنسرين تحرك القائد العام ومعه الأمير خالد بن الوليد نحو مدينة حلب التاريخية العتيدة لفتحها وإنهاء الوجود الروماني فيها وفي كل القرى والأرياف التابعة لها .

ولا بد من إعطاء القارىء لمحة عن تاريخ حلب هذه المدينة التي تعاقبت عليها عدة أنظمة لأباطرة وملوك عبر القرون ومنذ أقدم العصور ،لموقعها الإستراتيجي ولما تمتاز به من مناعة لقلعتها العظيمة الحصينة .

تقع مدينة حلب في أقصى شمال الشام وعلى مقربة من حدود آسيا الصغرى حيث ثقل الإمبراطورية الرومانية التي أوشك العرب المسلمون على انتزاع الشام كلها آنذاك من يدها .

وتقع حلب شمال شرق أنطاكية المدينة الساحلية الكبيرة التي تقع هي الأخرى على حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى وهي ميناء هام يستخدمه الأسطول الروماني دائماً لتعزيزات القوات الرومانية في المحور الشمالي من الشام.

وصف مدينة حلب

وحلب مدينة تاريخية قديمة قدم التاريخ ، وبها قلعة حصينة غاية في الروعة وهي قائمة حتى اليوم على تل شبه ترابي هائل ، وقد بنيت حلب وقلعتها منذ

آلاف السنين ، ولا يعرف على وجه التحديد متى تم بناء مدينة حلب وقلعتها ، ولكن بعض المصادر التاريخية والجغرافية ذكرت أنها وقلعتها من بناء العمالقة ، الذين نزحوا من الغور وعمان بالأردن في جنوب الشام بعد تخريب أراضيهم وديارهم فجاءوا إلى المنطقة وبنوا مدينة حلب وأنشأوا قلعتها لتكون لهم حصناً للدفاع عن أنفسهم ، ولقد كانت قلعة حلب من أشهر القلاع في تاريخ الشرق الأوسط ، فعبر آلاف السنين تداولها الملوك والأباطرة والخلفاء والأمراء المسلمون وكانت دائماً في الحروب من أهم معاقل الدفاع لمن يملك حلب ، وآخر من امتلكها واستخدمها وأدخل التحسينات عليها قبل المسلمين الرومان الذين ملكوها لعدة قرون وظلوا يملكونها حتى انتزعها جيش أبي عبيدة بن الجراح من أيديهم .

وقد وصف ياقوت قلعة حلب فقال :

(أما قلعتها فبها يضرب المثل في الحسن والحصانة ، لأن مدينة حلب في وطأ من الأرض وفي وسط ذلك الوطا جبل عال مدور صحيح التدوير مهندم بتراب صح تدويره ، والقلعة مبنية في رأسه ، ولها خندق عظيم وصل بحفره إلى الماء ، وفي وسط هذه القلعة مصانع إلى الماء المعين وفي القلعة جامع وميدان وبساتين ودور كثيرة ، وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب قد اعتنى بها بهمته العالية فعمرها بعمارة عادية (أي تشبه عمارة آل عاد في القوة) وحفر خندقها وبنى رصيفها بالحجارة المهندمة ، فجاءت عجباً للناظرين اليها ، ولكن المنية حالت بينه وبين تتمتها ولها في أيامنا هذه (يعني القرن السادس الهجري) سبعة أبواب : باب الأربعين ، وباب اليهود ، وباب الجنان ، وباب أنطاكية ، وباب قنسرين ، وباب العراق ، وباب السر ، وكان الملك الظاهر قد جدد الباب المسمى : باب اليهود فسماه : باب النصر .

ثم يستمر ياقوت في وصف حلب فيقول : حلب بالتحريك مدينة عظيمة

واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والمـــاء ، وهي قصبة (أي عاصمة) جنـــد قنسرين . ثم يقول : إن حلب وحمص وبرذعة كانوا أخوة من بني عمليق ، فبنى كل واحد منهم مدينة فسميت باسمه ، فحلب إسم أحد أبنـاء عمليق بن لوذ بن سام بن نوح) .

وفي موضع آخر من كتابه الجغرافي الشهير - معجم البلدان – قال : (كان على سورية وبابل والبلاد العليا سلقوس نقطور ، وهو سرياني ، وملك الثالثـة عشرة لبطليموس بن لاغوس بعد ممات الاسكندر ، وفي الثالثة عشر من مملكته بنى سلقوس اللاذقية وسلوقية وأفاميـــة وباروا (وهي حلب) وأداسا وهي (الرهاء) وأكمل بناء أنطاكية ، وكان بناها قبله انطيقوس في السنة السادسة من موت الاسكندر) ، وذكر آخرون في سبب عمارة حلب : (أن العماليق لما استولوا على البلاد الشامية ، وتقاسموها ، بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الغور ، ودعاهم الناس الجبارين ، وكانت قنسرين مدينة، ولم يكن يومئذ إسمها : (قنسرين) ، وإنما اسمها (صوبا) وكان هذا الجبل المعروف الآن (أي في القرن السادس) بسمعان يعرف بجبـــل بني صنم ، وبنو صنم كانوا يعبدونه في موضع يعرف اليوم (أي في القرن السادس الهجري) بكفر نبو ، والعمائر الموجودة في هذا الجبل إلى اليوم هي آثار المقيمين في جوار هذا الصنم . وقيل : ان بلعام بن باعور إنما بعثه الله إلى عباد هذا الصنم ، لينهاهم عن عبـادة هذا الصنم ، وقد جاء ذكر هذا الصنم في بعض كتب بني إسرائيل : وأمر الله أنبياءه بكسره ، ولما ملك بلقورس الاشوري الموصل وقصبتها يومئذ (نينوى) كان المستولي على خطة قنسرين حلب بن المهر أحد بني الجـــان بن مكثف من العماليق ، فاختط مدينة سميت به ، ثم يقول ياقوت : وكان أكبر الأسبـاب في عمارة حلب ما حل بالعماليق في البلاد الشامية من خلفاء موسى عليه السلام وذلك

أن يوشع بن نون لما خلف موسى (ع) قاتل أريحا الغور وافتتحها وسبى وأحرق وأخرب ، ثم افتتح بعد ذلك مدينة عمان ، وارتفع العماليق من تلك الديار إلى أرض صوبا وهي (قنسرين) وبنوا حلب وجعلوها حصناً لأنفسهم وأموالهم ، ثم اختطوا بعد ذلك العواصم ولم يزل الجبارون مستولين على حلب متحصنين بعواصمها إلى أن بعث الله داود (ع) فانتزعهم عنها) .

حلب في عهد الفتح الاسلامي

وكانت حلب عند الفتح الإسلامي مدينة ذات قرى كثيرة وأرياف واسعة أحيطت بها ، وهذه القرى والأرياف هي التي يعبر عنها : (بالحاضر) فيقال : حاضر حلب .

وكان حاضر حلب يقطنه العرب المتنصرة ، وكان الكثير بل أكثرهم (رغم انتمائهم والرومان في الأصل إلى دين واحد) يشعرون بأنهم مستعمرون ، فكان شبابهم دائماً وقوداً للحرب التي تخوضها الإمبراطورية لتوسيع رقعتها ، وخاصة الحروب التقليدية المزمنة التي تنشب بين الروم والفرس ، فكان العرب المتنصرة رأس الحربة في كل حرب تخوضها بيزنطا كما كان يحدث بينها وبين فارس وكما حدث بينها وبين المسلمين في كثير من المعارك التاريخية ، وقد رأينا كيف كان جبلة بن الأيهم يتقدم الجيش الروماني في معركة اليرموك الحاسمة على رأس خمسين الف فارس من العرب المتنصرة .

مصالحة حاضر حلب المسلمين

واصل أبو عبيدة تحركه بالجيش نحو الشمال في اتجاه حلب حتى وصل حاضر حلب ، وهناك استدعى زعماء هذا الحاضر وكلهم من العرب المتنصرة ، فلما حضروا نصحهم بأن لا يكون شبابهم وقوداً لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، وأنه مستعد أن يمنحهم الأمان وأن يحميهم إذا هم دخلوا في ذمة المسلمين على

أساس الصلح ودفع الجزية للمسلمين على أن يبقوا أحراراً في دينهم وممتلكاتهم وأنفسهم وذراريهم ، وإلا فإنه سيبدأ بهم وسيكونون هم الخاسرين حيث يفقدون كل شيء بعد أن ينتصر عليهم في الحرب ، وهنا استجاب هؤلاء الزعماء لدعوة أبي عبيدة وصالحوه ودخل كل حاضر حلب بما فيه من قرى وأرياف في ذمة وعهد المسلمين ، فكان هذا بداية فتح حلب ، لأنه لم يبق تحت سيطرة الروم إلا مدينة حلب وقلعتها .

وقد استفاد جيش الإسلام من السيطرة على قرى وأرياف حلب حيث توفرت له المواد الغذائية والعلوفة للخيل والبغال وبقية الحيوانات العاملة في الجيش ، كما أنه أمن من أن يتعرض جيشه لأي قتال من قبل هؤلاء العرب المتنصرة بعد أن ضمن ولاءهم بهذا الصلح ، كما أن هؤلاء المتنصرة سعدوا في ظل حكم المسلمين وذاقوا من حلاوة العدل والإنصاف ما لم يذوقوا مثله طوال عهد خضوعهم لبني دينهم من الرومان .

ملك حلب شبه المستقل

وفي بعض المصادر التاريخية التي توسعت في ذكر فتح الشام أن محافظة حلب وما حواليها من قرى وضياع وأراض واسعة تمتد حتى حدود الفرات ، كانت شبه مستقلة وشبه منفصلة عن التاج البيزنطي وإن كانت في الإسم ضمن ممتلكات بيزنطا ، فقد كان يسيطر عليها بطريق جبار ، كانوا يلقبونه بالملك .

قال الواقدي :

وكان هذا الملك البطريق قد ملك البلد وأعماله وضياعه ورساتيقه إلى حدود الدروب وإلى حدود الفرات ، وقد ملك حلب سنين ، لا ينازعه فيها منازع .

وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ، ولا يحاربه ، كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم ، وقد مات هذا الملك الطاغية البطريق بحلب قبل أن تتحرك

جيوش الإسلام نحو حلب ، فورثه إبنان له ، إسم أحدهما يوقنا ، وكان الكبير ، والأصغر واسمه : يوحنا .

كان يوقنا شجاعاً طموحاً مقداماً يعشق الحرب : وكان أخوه يوحنا الصغير على نقيضه عالماً مسالماً وناسكاً ، قد نزع يده من الرياسة وترهب ، وكان من أعلم أهل زمانه ، وكان يسكن مع أخيه يوقنا في القلعة ، تاركاً له الرئاسة والحكم ، ومتفرغاً هو للعبادة والتبحر في العلم .

ولما تبلغ البطريق يوقنا الحاكم الفعلي لحلب من استخباراته تحركات الجيش الإسلامي نحو حلب اجتمع بأخيه الراهب يوحنا ، فقال له يوحنـــا : على ماذا عولت يا يوقنا ؟

قال : على قتال العرب ، ولن أدعهم يقربون من أرضنا وبلادنا حتى يروا أني لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها .

وكان يوحنا قد درس الإنجيل وقرأ المزامير ، وكان بعيد النظر سديد الرأي وكان يعلم (بما يعلمه مما قرأ في كتبهم) أن محمداً ﷺ هو رسول الله الذي بشر به عيسى ، فلما سمع من أخيه يوقنا عزمه على منازلة المسلمين سكت ، ثم اجتمع مرة أخرى بأخيه الملك ، وأسدى له النصح بأن يتجنب محاربة المسلمين ويعقد الصلح معهم لينجو من ذل الإحتلال العسكري الذي لن يجلب لحلب وساكنيها إلا إذلال الروم ، وصارح أخاه يوقنا برأيه المدعم بالحجج والبراهين والشواهـد بأنه إذا دخل مع المسلمين في نزاع مسلح فانه سيكون الخاسر ولا شك ، فغضب أخوه الملك لصراحته ، وشتمه ، وحلف أن لا يكلمه أبداً وكان يوقنا سفاحاً لا يعرف قلبه الرحمة حتى أنه في النهاية قتل أخاه .

وجاء في بعض مصادر التاريخ نص حوار دار بين يوقنا وأخيه يوحنـــا حينما طلب اليه الإختلاء به لاستشارته فقد قالوا :

(لما بلغ هذين الأخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحاً وأن العرب نازلون عليهم وأن خيلهم تضرب إلى الفرات والعواصم والبقاع أقبل البطريق يوقنا على الراهب أخيه يوحنا وقال : يا أخي أريد أن أختلي بك لأطلعك على سري ورائي ، وأشرف على سرك ورأيك قال : نعم ، فلما اجتمعا في دار كانت لأبيهما (ملك حلب السابق) في القلعة وجلسا للمشورة أقبل يوقنا على أخيه يوحنا وقال : يا أخي ألا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال وأنهم لا ينزلون مدينة إلا فتحوها وملكوا أهلها فما ترى أن أصنع في أمر هؤلاء ، فكأني بهم قد أشرفوا علينا . فقال يوحنا يا أخي أما وقد استشرتني في أمر الله فاني أنصحك ولا أغشك إذا قبلت النصيحة وإن كنت أصغر منك سناً فاني أعلم منك بصيرة ، ولئن قبلت مشورتي ليعلون أمرك ويسلم لك ملكك ونفسك . فقال يوقنا : ما علمتك إلا ناصحاً فما عندك من الرأي ؟ فقال يوحنا : الرأي عندي أن ترسل رسولاً إلى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسألهم الصلح ، وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم كل عام (يعني الجزية ما دامت لهم الغلبة) .

فلما سمع الطاغية يوقنا ذلك الكلام من أخيه يوحنا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال : قبحك الله ما أعجز رأيك ، ما ولدتك أمك إلا راهباً وقسيساً ولم تلدك ملكاً ، ولم تكن محارباً ولا مقاتلاً ، والرهبان ليس لهم قلوب لأكلهم العدس والزيت والبقل ولا يأكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال بصيرة ولا بملاقات الرجال خبرة وأما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبين العرب إلا الحرب ، ولا ترى الملوك العجز ، ويلك كيف نسلم للعرب ملكنا ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال .

قالوا : ولما سمع الراهب يوحنا من أخيه الطاغية هذا الكلام العنيف عجب

لغطرسته وقصر نظره . ثم بلغه (صراحة) بأنه سيكون في النهاية هو المهزوم الخاسر المقتول إن هو أصر على مقاتلة المسلمين لأنه ليس أقوى من الملك هرقل ولا أكثر دهاء ولا أعمق سياسة ، ومع ذلك تحطمت جيوشه على أيدي المسلمين في اليرموك وإجنادين وفحل ودمشق وقنسرين ودمشق وحمص ، ثم قال له :لا أرى إلا أن أجلك قد اقترب ، لأنك صاحب بغي تحب سفـــك الدماء ، وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع ماهان ويوم إجنادين (بفلسطين) حيث تحطمت هذه الجموع على أيدي المسلمـــين : خذها صريحة مني . ان الله قد أيد المسلمين علينا ، فاتق الله ولا تسعى إلى حتف أنفك.

ففضب يوقنا وقال لأخيه النـــاصح : اني لست كمن لاقى العرب من جموع هرقل التي ذكرتها ولا أقاس بهم ، انني أعلم كل من ذكرت من الروم أسلم بـلده عنوة أو صلحاً قبل أن يقاتل بلا غدر في القتال وبذل المجهود من نفسه ، اني إنما جمعت الأموال من قبل إلى الآن لأدفع بها الأذى عن نفسي واني مجمع على قتـال العرب مهما كانت النتائج .

ثم حدث أخاه الناسك بلهجة كلها غرور ، أبلغ أخاه بها بأنه لن يقتصر في محاربة المسلمين على إخراجهم من الشام ، بل سيتعدى في محاربتهم إلى احتـــلال الحجاز ذاتها حيث قال لأخيه يوحنا : (وإذا ظفرت بالعرب فإني سأطاردهم إلى أن أدخل خلفهم الحجاز وأسود على سائر الملوك وأرجع إلى الشام ملكاً ، فـلا يقدر هرقل أن ينازعني وإن هزمتني العرب اعتصمت بقلعتي ولزمتهـا فاني قـد عبيت فيها من الزاد والأطعمة ما يكفيني طول دهري وأكون فيهـا عزيزاً إلى أن أموت ، ولا القي بيدي إلى العرب ولا أبذل الأموال من غير طلب) ثم هدد الطاغية أخاه يوحنا بالقتل إن هو فاتحه مرة أخرى في الدعوة إلى مهادنة العرب والخضوع لسلطانهم حيث قال :

(فلا تعـــارضني في شيء من أمر العرب ولا تـــدعني إلى الصلح وإلا بطشت بك) .

بطريق حلب يخرج لملاقاة المسلمين خارج المدينة

وقد قرر ملك حلب يوقنا أن يخرج من مدينة حلب لملاقاة جيش أبي عبيدة قبل أن يصل إلى حلب وقبل أن يخرج اجتمع بمن لجأ اليـــه من فلول العرب المتنصرة والأرمن الهاربين من وجه المسلمين الذين دحروهم في مختلف المعـــارك ودعاهم إلى الانخراط في سلك جيشه للدفاع عن حلب ، فأجابوه وقد القى فيهم كلمة يشجعهم فيها فقال :

(إنما العرب قليل ونحن أكثر منهم لأن جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه إلى غيرها) .

ثم قام بتسليح هؤلاء الأخلاط من الأرمن والعرب المتنصرة وغيرهم ، وفرق فيهم الأموال وأجزل لقادتهم العطايا كي يساندونه في معركته الحاسمة مع المسلمين.

وعندما اتخذ الملك يوقنا القرار بالخروج من حلب لمواجهـــة جيش الإسلام خارجها استدعى أحد كبار ضباطه الكبار واسمه (كركس) وأبلغه أنه قد عينه خليفة له على مدينة حلب ليحرسها ويتولى حمايتها حتى يعود من مقـــاتلة المسلمين ، وشدد عليه في أن يكون شديد اليقظة والحذر للمحافظة على المدينة .

وخرج يوقنا يقود إثني عشر الف فارس كي يواقع جيش أبي عبيـــدة ويحول بينه وبين الاقتراب من مدينة حلب ، وكانت هناك غير الفرسان قوة من المشاة تدعم الفرسان خرج بها يوقنا ، كما أحاط نفسه بألف من قواته الخـــاصة وهو ما يطلق عليهم بلغة العصر إسم الحرس الملكي .

المعركة الأولى قبل حلب

أما القائد أبو عبيدة فبعد أن أكمل سيطرته على حاضر حلب (وهو القرى

والأرياف المحيطة بحلب) عزم على التحرك نحو الهدف الرئيسي وهو حلب ، ولكنه قبل أن يتحرك بعث أمامه بمفرزة كبيرة من الفرسان كي تقوم بأعمال الاستطلاع وإذا أجبرت على القتال قاتلت .

قالوا : وكان ضمن جيش أبي عبيدة رجل من أشجع الناس يقال له كعب : وهو من بني ضمرة ، فاستدعاه أبو عبيدة وأبلغه أنه قد أوكل اليه هذه المهمة الخطيرة ، ووضع تحت تصرفه الف فارس من خيرة فرسان الجيش وأمره بعدم القتال ، وخاصة إذا كانت القوة المعادية لا يطيقها) فقد قال له :

« يا كعب لا تقاتل جيشاً لا تطيقه واختبر أمر هذا العلج واعرف خبره وأنا راحل من ورائك .

وحسب أوامر القائد العام تحرك كعب الضمري بقواته للاستكشاف أمام الجيش الرئيسي .

كان الملك يوقنا قبل خروجه من حلب بعث استخباراته كي يستكشفوا له ويقدموا له التقارير عن تحركات المسلمين نحو حلب .. وأثناء استكشاف استخباراته اكتشفت قوة الاستطلاع التي يتحرك بها القائد كعب الضمري ، فأبلغت الملك يوقنا وحددت له اتجاه تلك القوة ، فقالت له .. إنها على بعد ستة أميال من حلب .

فاغتنمها يوقنا فرصة لإدخال الوهن في نفوس جيش أبي عبيدة بالقضاء على قوة الاستطلاع الإسلامية الصغيرة بالنسبة للجيش الضخم الذي يقوده. فهو يقود ثلاثة عشر الف فارس ، بينما قوة الاستطلاع الإسلامية الف فارس فقط .

وقد وضع الملك يوقنا خطة محكمة لإبادة قوة الإستطلاع بأكملها ، فقد وضع كميناً على الخط الذي يمكن أن يكون خط رجعة لقوة الإستطلاع التي يقودها كعب إذا ما أرادت التراجع والإفلات من الطوق الذي قرر أن يضربه حولها

لإبادتها ثم تحرك بقوته الرئيسية إلى حيث تستريح تلك القوة الإسلامية الصغيرة، فداهمها وضرب حولها نطاقاً فحاصرها تماماً ، ثم شن عليها هجوماً عنيفاً ، فصمدت له رغم التفاوت الهائل في العدد بين القوتين .

وقد استمر القتل بين قوة الإستطلاع الإسلامية رغم الشجاعة الفائقة التي أبداها رجالها ، وبينما الملك يوقنا على وشك الإنتهاء من إبادة هذه القوة الإسلامية الصغيرة إذا بمفاجأة مزعجة للغاية تقلب الموقف رأساً على عقب وتجبر يوقنا على فك الحصار المضروب على قوة الإستطلاع .

فقد بلغه وهو يتأهب للهجوم الأخير بقصد إبادة قوة الإستطلاع أن أهالي حلب وأعيانها خرجوا في غيابه إلى القائد أبي عبيدة وعقدوا معه الصلح على أن يسلموا له المدينة بدون قتال حقناً للدماء ، فاتجه يوقنا مسرعاً بكامل قوته التي كان يحاصر بها كعباً وقوته الإستطلاعية ليدفع المسلمين عن حلب ويؤدب الذين خرجوا من قومه وعقدوا الصلح مع قائد جيش المسلمين .

لقد قاتلت قوة الإستطلاع الصغيرة قتال المستميت ، وقد نجحت أول الأمر في الثبات وكادت تنزل الهزيمة بجيش يوقنا رغم تفوقه العددي الساحق حيث أخذ جيشه في الاضطراب وشرع بعضه في الفرار نتيجة المقاومة العنيفة التي أبداها كعب الضمري ورجاله ، لولا أن يوقنا استنجد بالكمين الذي تركه وراءه فساند في المعركة ، وهنا أيقن المسلمون من قوة الإستطلاع بالهلكة بعد أن كانوا موقنين بالغلبة .

وقد وصف أحد الجنود المشتركين في المعركة من أبناء البادية واسمه مسعود ابن علوان .. وصف معركة الإستطلاع وكان ممن شهدها فقال :

ان المسلمين بعد أن شعروا بالظفر على يوقنا وجيشه الضخم طلع عليهم الكمين، فأيقنوا بالهلكة بعد أن كانوا موقنين بالغلبة ، وقد قتل من قبيلة كندة وحدها مائة شهيد .

وذكر مسعود هذا (على ما ذكره الواقدي) ان وحدات الطلائع المسلمة عندما هاجمها الكمين الروماني إلى جانب الملك يوقنا أصابها شيء من الإضطراب فشرع بعضهم في الإنهزام ، ولكن قائد الطليعة كعب الضمري حثهم على الصبر والثبات قائلاً : أيها المسلمون أثبتوا إنما هي ساعة ويأتي النصر وأنتم الأعلون ، فعاد المنهزمون والجراح في القوم فاشية وقد قتل منهم مائة وسبعون رجلاً ، وبينهم كثير من الصحابة .

وقد استبسل المسلمون بعد تلك العودة إلى الميدان وشنوا على الروم هجوماً معاكساً على أسلوب حرب الصاعقة ، حتى تضعضعت صفوف يوقنا رغم كثرته الهائلة ، ففكر بعضهم في الفرار ، ولكن يوقنا ثبتهم وناداهم قائلاً : (ويلكم ان العرب ليسوا إلا كالذئاب إن صمد لها ولت وإن تركت طمعت)فأقلع المفكرون في الفرار وشنوا الحملة من جديد على المسلمين ، فتمكن الملك يوقنا من تطويق قوة الطليعة من جديد وتأزم الموقف للمرة الثانية ، وكان كعب الضمري قائد الطليعة يرقب الأفق لعل أبا عبيدة يصل بجيشه فينقذ الموقف المتدهور ، ولكنه لم ير شيئاً يدل على ذلك ، لأن أبا عبيدة كان مشغولاً بمصالحة أهل حلب ، ثم جاء الفرج من عند الله ، فبينما يوقنا يتهيأ للهجوم لإبادة من تبقى من قوة الطليعة الإسلامية إذا بخبر خروج أعيان حلب لمصالحة المسلمين يصل اليه فيأمر في الحال بالانسحاب من الميدان كي يعود إلى حلب ، وهنا زالت المحنة عن قوة الإستطلاع ونجا الباقون من الفناء .

كيف تم الصلح بين اهل حلب وأبي عبيدة في غياب يوقنا

وقد ذكر المؤرخون عن قصة مصالحة أهل حلب في غياب الملك يوقنا ما معناه ، وهو أن أعيان حلب ووجوهها اجتمعوا وتدارسوا الوضع فيما بينهم ، وبعد أن أكد بعضهم لبعض أن ما يقرب من سبعين في المائة من التراب الشامي

أصبح في قبضة المسلمين ، وأخذوا العبرة ممن سبقهم من أهل دينهم المغلوبين فقالوا: إن إخواننا النصارى الذين أصبحوا الآن تحت حكم المسلمين فريقان : فريق قاوم وقاتل ، فخسر كل شيء ماله وأهله ودمه ، وفريق اتخذ العقل مستشاراً ، فصالح هؤلاء المسلمين فنجا بنفسه وماله وأهله ودمه ، وصار في أمن ونعمة وأمان لم يعهد مثلها حتى في عهد من هم على دينه من قومنا فروا رأيكم) .

فقال بعضهم : الرأي أن نخرج إلى قائد المسلمين ونعقد معه الصلح ونفتح للمسلمين أبواب المدينة ليدخلوها صلحاً ، فهم قوم شرفاء وأهل وفاء بالعهد ، لا يخونون ولا يغدرون ، وهذه فرصتكم ، حيث أن البطريق يوقنا غائب فاتخذوا طريقاً غير طريقه وأسبقوه لمقابلة جيش الإسلام قبل أن يصطدم به حتى تتم النجاة لكم .

ولقد استحسن الوجهاء والأعيان هذا الإقتراح ، فاتخذوا قراراً في الحال اتفقوا بموجبه على الخروج لمقابلة أبي عبيدة قبل أن يقترب جيشه من حلب وعقد الصلح معه ، فخرج منهم ثلاثون زعيماً ، وبعثوا أمامهم مبعوثاً خاصاً يبلغ أبا عبيدة بأنهم يرغبون في الصلح وأنهم قادمون اليه وأنهم يطلبون الأمان كي يتمكنوا من دخول المعسكر ، فسمح لهم أبو عبيدة وأعطوا الأمان .

وتمت المقابلة وانتهت بالصلح ، وأن يدفع أهل حلب للمسلمين نصف مادفعه أهالي قنسرين ، وذلك أن اهالي حلب اشتكوا جور حاكمهم البطريق يوقنا الذي بظلمه جعلهم جميعاً شبه فقراء لكثرة ما يرهقهم به من طلباته ، فأبدى أبو عبيدة تقديراً لظرفهم الخاص – عطفاً عليهم فتساهل معهم في الصلح من حيث المادة ، إلا أنه شرط عليهم أن يقاتلوا معه البطريق يوقنا إذا حاول العودة إلى المدينة بجيشه .

فاعتذروا عن قبول هذا الشرط لعجزهم عن تنفيذه وقالوا : لن نعطيك

عهداً كاذباً لا نستطيع الوفاء به ، أننا ضعفاء قد أرهقنا البطريق ولا نستطيع القتال فاعفنا مما لا نقدر عليه ، فاشترط عليهم النصح للمسلمين وعدم كتمان أي خبر من أخبار أعدائهم ، والإبلاغ عن أي جاسوس يتجسس لحساب أعداء المسلمين ، فوافقوا على ذلك وأعفاهم أبو عبيدة من مقاتلة يوقنا إذا عاد ليدخل القلعة ، وأخذ عليهم الأيمان فحلفوا كما يريد منهم ، وتم الصلح بين الفريقين .

كل ذلك تم بين أبي عبيدة وشيوخ وعمد مدينة حلب .. والملك البطريق مشغول بمحاولة القضاء على قوة الطلائع الإسلامية التي كانت بقيادة كعب الضمري وبينما كان أهالي حلب عائدون من معسكر أبي عبيدة بعد إبرام الصلح معه وبيدهم وثيقة الصلح التقوا برجل لا يعلمون أنه من عيون واستخبارات يوقنا فأخبروه تفاصيل اتفاقية الصلح الذي عقدوه مع المسلمين ، فما كان منه إلا أن همز جواده وأركضه يسابق الريح حتى وصل إلى حيث يطوق البطريق يوقنا قوة الإسلام الإستطلاعية ، وأخبره بتفاصيل ما أحدث أعيان مدينة حلب من عقد الصلح مع أبي عبيدة ، فذلك هو السبب الذي جعل يوقنا يترك الميدان ويفك الحصار المضروب على قوة الإستطلاع وعاد أدراجه ليسبق المسلمين فيدخل القلعة ويتحصن فيها ويحكم أبوابها قبل أن يصل اليها المسلمون وليؤدب أعيان حلب الذين عقدوا الصلح مع المسلمين في غيابه .

دفن شهداء الطليعة والتحرك إلى حلب

وعقب انصراف الملك يوقنا من الميدان حيث توجد قوة الإستطلاع الإسلامية التي كانت مطوقة طلع خالد بن الوليد (يقود مقدمة أبي عبيدة) على موقع المعركة حيث لاقت قوات الطلائع الأهوال من يوقنا وفرسانه ، والتقى قائد الطليعة بخالد وأبي عبيدة وأخبرهما تفاصيل ما حدث ، فدفنوا الشهداء وشرعوا في معالجة الجرحى .

وبعد أن فرغوا من دفن الشهداء في مكان المعركة أصدر القائد العـــام أبو عبيدة أمره للقائد خالد بن الوليد بأن يلحق يوقنا كي يحول بينه وبـين دخول حلب ، فيدافع عن أهاليها إذا ما أراد بهم يوقنـــا شراً لأنهم أصبحوا في ذمة المسلمين ، وأصبحوا مسؤولين عن حمايتهم حسب تعاليم الإسلام ، لأن أي ذمي يدخل في صلح المسلمين تكون السلطات العسكرية الإسلامية والمدنية مسؤولة عن حمايته والدفاع عنه مقابل الجزية التي يدفعها لخزينة الإسلام .

مذبحة نصارى حلب على يد بطريقها

ولعله من سوء حظ سكان حلب (إن صح هذا التعبير) أن يوقنا تمكن من دخول حلب قبل أن يصل خالد بن الوليد ، وكانت استخبارات يوقناقد قدمت له قائمة بالأعيان الذين أبرموا الصلح مع المسلمين .

لقد ساوم يوقنا زعماء حلب على أرواحهم . فقال لهم : إن أحببتم النجاة من الإعدام أخرجوا معنا لمحاربة المسلمين دفاعاً عن المدينة ، فرفضوا عرضه وقالوا: إصنع ما بدا ، إننا لن ننقض عهداً أبرمناه ولن نخرج في جيشك لقتال من عاهدنا، ونحن قد صالحنا قوماً منصورين لا محالة ، وسيملكـون حلب كما ملكوا ما هو أمنع منها دمشق وقنسرين والرستن وشيزر وحماة والمعرة .

وهنا شرع يوقنا (وبوحشية بالغة) في ارتكاب مجزرة رهيبة في بني دينه ، فقد نفذ حكم الإعدام (أولاً) في الزعماء الذين أبرموا الصلح مع المسلمين وكانوا حوالي الثلاثين زعيماً ، ثم شرع في القتل الجماعي مختاراً الصفوة والبـارزين من أهل المدينة حتى تم لرجاله إعدام حوالي ثلاثمائة من نصارى حلب الروم بدون أية مناقشة أو محاكمة .

وقد ارتعبت المدينة ، فعلا الصراخ والضجيج لما يحدث من مجازر في الأبرياء العزل من أهل حلب والقلعة .

الملك يوقنا يقتل اخاه الراهب يوحنا

وقد سمع الناسك يوحنا أخو الملك يوقنا ، فتحرى الأمر ، فنظر فإذا عبيد وأعوان أخيه الملك يقتلون الناس بوحشية لا مثيل لها انتقاماً منهم لإبرام زعمائهم الصلح مع المسلمين ، فصاح الناسك بأخيه الملك .. كيف تفعل هذا يا يوقنا .. ان المسيح قد نهانا أن نقتل عدونا ، فكيف تقتل من هو على ديننا ، فقال يوقنا – وقد تملكه الغضب الشديد – إنهم صالحوا العرب وصاروا عوناً لهم علينا .

فقال الناسك يوحنا (وكان الإسلام قد أضاء روحه) .. والله ان العرب سينتصرون عليك ولن يبقوا عليك أبداً ، وان لهؤلاء المظلومين من قومك من يقتص لهم منك . وقال : ومن يقتص مني ؟

قال : الله يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب .

وهنا استشاط الملك يوقنا غضباً ، وقال لأخيه الناسك : أنت الذي حملهم على ذلك وأنت أول من أبطش به ، ثم جرد سيفه ليفذ تهديده ، ولما علم يوحنا أنه مقتول سارع إلى إعلان إسلامه ليموت على التوحيد ، فرفع رأسه إلى السماء وقال :

اللهم أشهد أني مسلم ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال لأخيه الملك الغاضب : إصنع ما أنت صانع ، وهنا استبد الغيظ بيوقنا فأسرع وضرب عنق أخيه يوحنا فمات شهيداً .

وبعد ذلك استمر في قتل من يقدر على قتله من أهالي حلب النصارى الروم أبناء دينه وجلدته .

وقد فعل يوقنا كل هذه الجرائم قبل أن يصل خالد بن الوليد لحماية أهالي حلب الذين هم في ذمة المسلمين .

الاستيلاء على مدينة حلب وإنقاذ اهلها

كان خالد بن الوليد يتحرك بسرعة لإنقاذ أهل حلب ، ولكنه جاء متأخراً قليلاً لأن يوقنا كان أسبق منه إلى حلب .

كانت استخبارات الإسلام قد قدمت التقارير المفصلة عن الفظائع التي ارتكبها الملك يوقنا ضد نصارى حلب الذين هم بحكم معاهدة الصلح في ذمة المسلمين .

وعندما وصلت قوات الإسلام إلى مشارف حلب ويوقنا وقواته تعيث فيها فساداً وجداول الدماء تسيل من القتلى الذين قتلهم يوقنا . قال خالد بن الوليد للقائد العام أبي عبيدة :

(أيها الأمير هلك أهل صلحك) يعني أهل حلب ، فأصدر أبو عبيدة إلى خالد أمره بأن يتولى بنفسه مهمة إنقاذهم . فصدع خالد بالأمر ، وشن في الحال هجوماً صاعقاً على حلب حاولت قوات الملك يوقنا إيقافه ولكن بدون جدوى ، فقد شددت قوات خالد من ضغطها على عساكر يوقنا ، وأعملت السيف بعنف في فرسانه ، فانهزمت عساكره ، فأصدر أمره إلى عساكره بالإلتجاء إلى القلعة ليتحصنوا فيها قبل أن يحول المسلمون بينهم وبين الإعتصام بها .

وقد نجحت قوات يوقنا في الانسحاب بعد أن تركت شوارع حلب مغطاة بجثث القتلى منهم . . نجحت في دخول القلعة مع قائدها يوقنا ، وتمكنوا من إغلاق الأبواب قبل أن يتمكن المسلمون من الوصول اليها ، وكانت القلعة على تل ترابي هائل .

أما جيش خالد فبعد أن تمت له السيطرة على المدينة شعر أهلها بالطمأنينة والأمان بعد أن هرب منها الطاغية الملك يوقنا إلى القلعة ، وقام المسلمون بإحصاء القتلى من ضحايا بطش يوقنا فاتضح أنهم حوالي ثلاثمائة أكثرهم من الأعيان

والزعماء وكلهم من الروم النصارى . أما القتلى من قوات يوقنا فقد بلغوا حوالي ثلاثة آلاف قتيل .

وقد تحدث شاهد عيان عن معركة حلب واسمه (محصن) فقال :

حمل خالد على جيش البطريق في حلب وحمل المسلمون معه ، وبذلوا السيف في الأعلاج ، فلما نظر يوقنا إلى ذلك انهزم إلى القلعة ومعه بطارقته ، وفرج الله عن أهل البلد بقتل الأعلاج ، فمن لجأ إلى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه ، فكان جملة من قتل يوقنا ثلاثمائة ، وقتلنا نحن من أصحاب يوقنا ثلاثة آلاف أو يزيدون ، فكانت وقعة عجيبة فرح المسلمون بها [1] .

وبعد أن تمت السيطرة للمسلمين على مدينة حلب ، جاء وفد من أهاليها لتهنئة القائد العام أبي عبيدة على انتصاره على السفاح يوقنا ، وشكروه على إنقاذهم من شره ، فاستقبلهم أبو عبيده وهيئة أركان حربه استقبالاً لائقاً ، ووعدهم خيراً.

وتذكر بعض المصادر أن وفد حلب من الروم النصارى لما لجأوا إلى أبي عبيدة للتهنئة أحضروا معهم أربعين من كبار ضباط البطريق الملك يوقنا وقالوا: إنهم وقعوا في قبضتهم عندما هرب يوقنا إلى القلعة، وقد سلم رجال الوفد الضباط الروم الأسرى إلى القائد أبي عبيدة ليرى رأيه فيهم .

وقد عرض أبو عبيدة عليهم الإسلام ، فأسلم سبعة منهم ، وامتنع الباقون فأعدم الباقين ، لأنهم من المسؤولين عن مذبحة الأهالي العزل في حلب .

إنقاذ حلب من الهدم والتدمير ومحاصرة القلعة

وكان يوقنا قد بلغ به الغيظ على أهل حلب إلى أن قرر هدم وتدمير المدينة انتقاماً من أهلها لاختيارهم السلم على الحرب ومصالحتهم المسلمين ، ولكن

---

(١) الواقدي ج ١ ص ١٦١ .

وصول قوات الإسلام بسرعة حالت دون بوقنا ومشروعه الرهيب ، لأن بوقنا هرب إلى القلعة قبل أن يتمكن من هدم وتدمير المدينة .

كانت القوات التي التجأت مع بوقنا إلى قلعة حلب تعد بالآلاف ، وكانت القلعة لمناعتها وسعتها أشبه بمدينة حيث توجد بها دور وأسواق ، وقد استعد الملك بوقنا فيها للدفاع والصبر على الحصار ، فنصب الآلات الثقيلة في مواقعها الإستراتيجية من القلعة لدفع الجيش الإسلامي مثل المنجنيقات وقاذفات النيران ، كما سيطرت قواته على جميع الطرق والمسالك المؤدية إلى القلعة لتكون قواته في مأمن من أي تسلل لقوات الاسلام إلى داخل القلعة .

العرب المتنصرة والاستخبارات الرومانية

كان العرب المتنصرة دائماً هم القاعدة التي يعتمد عليها الرومان في الشام للقيام بأعمال التجسس ، فكانوا عنصراً مهماً داخل الكيان الروماني في الشام بالنسبة للاستخبارات الرومانية .

وكان ضمن الذين لجأوا إلى القلعة من الرومان مجموعة كبيرة من العرب المتنصرة ، فكان الملك بوقنا يعتمد عليهم للقيام بخدمة جهاز الاستخبارات بالتجسس على العرب المسلمين ، لأنهم يجيدون اللغتين العربية والرومانية ، ولكونهم يرتدون الزي العربي وليس هناك كبير فارق بينهم وبين العرب المسلمين من حيث اللون والهيئة ، الأمر الذي يمكنهم من التقاط أسرار المسلمين بسهولة وإبلاغها لجهاز استخبارات العدو ، كما أن المسلمين قد يستخدمون هؤلاء العرب المتنصرة للمهمة نفسها مهمة التجسس على العدو إذا وثقوا من ولائهم .

مجلس عسكري للتشاور حول تحصن الروم في قلعة حلب

وبعد أن تحصن بوقنا وجيشه البالغ عدة آلاف في قلعة حلب – وكانت من أمنع الحصون في الشرق الأوسط – عقد القائد العام أبو عبيدة مجلساً عسكرياً

حضره كبار القادة ووجهاء القبائل للتشاور فيما يجب أن يفعله الجيش لانهاء الوجود الروماني في المنطقة والطريقة التي يمكن بها الاستيلاء على قلعة حلب .

وقد طلب أبو عبيدة من المجتمعين إبداء آراءهم حول الموضوع ، فالقلعة حصينة ومن الصعب اقتحامها للموانع الطبيعية الصعبة التي تحيطها (جبل ترابي مهندم كثير المزالق صعب على المشاة تسلقه وأسوار عالية قوية وأبراج قوية محكمة وأبواب سميكة قوية وكثيرة ، وكل شيء يحتاجه الجند الروماني متوفر داخل القلعة التي هي أشبه بمدينة .. الماء والغذاء والعلوفة للخيل والسلاح والذخيرة .

كان من بين الذين حضروا المجلس العسكري رجل من أهل اليمن يقال له يونس بن عمرو الغساني ، وكان مسلماً ممن استوطنوا الشام قبل دخول الجيوش الاسلامية اليها ، وكان ذا خبرة دقيقة بالشام وجبالها ومدنها وأوديتها ومختلف مناخاتها في الأقاليم .

وأثناء التشاور طلب من القائد أبي عبيدة الاذن له بالكلام فأذن له .

فقال : إن الله تعالى قد فتح على يديك الشام سهله وجبله ، وحزنه ووعره ، ثم أشار إلى هرب الملك هرقل إلى القسطنطينية فقال

وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب (يعني الحدود) وهي جبال وعرة ومضايق صعبة ، وقد امتلأت قلوب القوم رعباً مما أباد الله منهم على أيدي جيوش الاسلام في إجنادين واليرموك وفحل ونحوها .

فلم تعد لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين .

ثم اقترح عدم مهاجمة القلعة ومحاولة اقتحامها بحد السيف لصعوبة ذلك وتعذره تقريباً ، ثم نصح بالاكتفاء بفرض الحصار الشديد على القلعة ، لأن ذلك أجدى للجيش الاسلامي الذي أصبح حوالي ثمانين في المائة من أراضي الشام تحت سيطرته .

فقد قال هذا الخبير اليماني :

فحاصر القلعة أيها الأمير وبث الخيل تشن الغارات في بقايا البلاد مثل شاطيء الفرات ، فإنهم شبه معزولين وليست لديهم إمدادات تعينهم على المقاومة ، حيث أن كل طرق ومسالك الشام الرئيسية تحت سلطان المسلمين .

وكان القائد السابق للجيش خالد بن الوليد حاضراً يسمع اقتراح الخبير الغساني ، فأعجبته اقتراحاته ، فأشار على أبي عبيدة أن يعمل بها ، إلا أن خالداً أضاف إلى اقتراح الخبير اليماني اقتراحاً آخر ، وهو أن يقسم أبو عبيدة الجيش إلى قسمين قسم عليه أن يشن الغارات على شتى الأقاليم المتبقية تحت سيطرة الروم في المناطق التي لا تبعد كثيراً عن حلب ، وقسم يبقى فارضاً الحصار الشديد حول القلعة لعله يفتتحها عن طريق اقتحامها ، وقد عمل أبو عبيدة باقتراح الخبير اليماني واقتراح خالد معاً ، فنجح العمل بالاقتراح الأول – اقتراح الغساني اليماني – ولم يكتب النجاح للاقتراح الثاني – اقتراح خالد بن الوليد – فقد فرض الحصار على قلعة حلب ، ثم شن هجوماً عنيفاً على القلعة بغية افتتاحها عنوة وبحد السيف .

ولكن يوقنا تمكن من إحباط هذا الهجوم وتشتيت قوات المسلمين المهاجمين وإحداث خسائر كبيرة بينهم ، وذلك لمناعة القلعة وشدة تحصيناتها .

فقد كانت قلعة حلب ولا تزال حتى اليوم على جبل شبه ترابي عظيم ، وقد بنيت بناء محكماً ، وكان كل فاتح عظيم تتم له السيطرة عليها يدخل التحسينات على تحصيناتها الشيء الكثير ، ومن الذين قاموا بتقويتها وإصلاحها إصلاحاً كبيراً ، الاسكندر المقدوني عندما سيطر على الشرق الأوسط .

أما الهجوم الغير الناجح الذي شنه ابو عبيدة على القلعة ، فقد ذكرت بعض

المصادر التاريخية . عن رجل اسمه مسروق بن مالك – وكان ممن شهـــد هذا الهجوم الفاشل – قال مسروق :

والله ما رأيت في قتال حصون الشام يوماً اعظم من ذلـــك اليوم (اي يوم الهجوم على القلعة) لأننا نشبه دوران الحرب كدوران الرحى تطحن ما دارت عليه ، ولقد برزنا اليهم في أول حربهم ، وتبادرت أبطال اليمن وسادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضاً ، وهم يطلبون القلعة .

وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق لها، فإذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورماهم الروم بالمجانيق والعرادات .

ثم قال مسروق : كنت انا واصحابي اقرب الناس إلى القلعـــة ، فكررنا راجعين على اعقابنا ، فقد شدخت احجار المنجنيق وبقية الآلات الروميـــة خلقاً كثيراً فقتلت بعضنا ، وبعضنا اصيب بجروح ، وكان من بين الشهداء في هذه الحملة ومن الذين قتلوا بالحجارة عامر بن الأصلع الربعي ومالك بن خزعل الربعي ورجال من اهل اليمن من آل عامر .

وقد أصيب يوم القلعـــة بعضهم بعـــاهات مستديمة فظلوا يعرجون من يوم القلعة) .

وقال مرزوق بن مالك (وهو ممن شهد الهجوم الغير الناجح على القلعة) .

كنا نرى فيم بعد بسنين خلقاً كثيراً مصابـين بالعرج ، وكانوا ممن أصيب يوم حصار القلعة

قالوا : وبعد تراجع المسلمين عقب فشل الهجوم أمر قائدهم العام بـــدفن الشهداء ومعالجة الجرحى الذين جرحوا في هذا الهجوم .

وجاء في بعض المصادر ان الأمير ابا عبيـــدة نصب رايـــة ودعا رجاله إلى اجتماع عام .

وعندما اجتمعوا القى فيهم كلمة قصيرة اعترف فيها بفشل الهجوم حيث قال:

أيها الناس انكم قاتلتم اليوم على غرة فادفنوا الشهداء وشدوا كل من اصابه جرح فانتدبوا المسلمون إلى ذلك .

أما الرومان فقد انتابهم الفرح والزهو والغرور بسبب نجاحهم في صدهجوم المسلمين على القلعة ، وأكد لهم يوقنا أن هزيمة المسلمين ساحقة ، وأنهم لن يطمعوا مرة أخرى في الاقتراب من القلعة حيث قال لهم :

(ان العرب لن يدنوا بعد اليوم أبداً من القلعة وإن حاصرونا فلأكيدنهم ولأهبطن إلى قواعدهم واهاجمها حتى اطردهم) .

كان البطريق (وهو الذي يسميه أهل حلب باسم الملك) محارباً ممتازاً وذا دهاء عسكري وكان شجاعاً إلى حد التهور ، وكان سفاحاً ، وكان وهو محصور في القلعة لا يقر له قرار .

بطريق حلب يهاجم المسلمين في معسكراتهم هجوما مفاجئا

لقد كانت لدى يوقنا في القلعة قوات كثيفة من الفرسان والمشاة وكان يمني نفسه بفك الحصار عن القلعة وطرد المسلمين بالقوة وعن طريق الغارات الصاعقة المفاجئة في الليل .

وفعلاً فقد قام البطريق يوقنا بهجوم صاعق مفاجيء في جنح الظلام على عدة معسكرات للمسلمين حول القلعة .

فقد انتخب الفي فارس من قواته الخاصة وكلفهم بأن يهاجموا أطراف معسكرات المسلمين في الليل في الوقت الذي يكون فيه العسكر عادة نياماً .

وقد نفذت قوات يوقنا من الفرسان العملية فأخذت المسلمين على حين غرة ، فهاجمت المعسكرات التي حددها لها يوقنا ، فلم يشعر المسلمون وأكثرهم نيام

إلا بالهجوم الروماني ، وقد نجح الهجوم إلى حد ما ، إذ تمكنوا من إلحاق خسائر كبيرة بمعسكرات المسلمين .

فقد ذكر عبد الله بن سليمان الدينوري وكان ممن نقل أخبار فتوح الشام عن ثقات من المسلمين الذين حضروا محاصرة قلعة حلب واشتركوا فيها ، قال حدثني عمرو أن يوقنا انتخب الفين من خيار بطارقته وأبطاله وقال لهم :

أنزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضاً وميلوا على أطراف عسكر المسلمين إذ أخمدت نيرانهم واغتنموها غرة ، ثم أسند قيادتهم إلى وزيره . قال : فنزلوا ليلاً من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر إلى أن أتوا إلى مكان، وقدخمدت نيرانهم ، وكانوا بادية أهل اليمن .

قال عبد الله بن صفوان [1] وكان أحد الذين تعرضوا للهجوم – كنا تلك الليلة غارين آمنين عدونا لكثرتنا ، وقد غفل حراسنا ، فلم نشعر إلا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم ، وقد أعلنوا التبهرج بزينتهم ، فلا نعلم ما يقولون ، ووضعوا الأسياف فينا ، فثار الناس إلى سلاحهم ،فكان النجيب منا من استوى على جواده وهو لا يعلم كيف يتخلص .

وقد قتل من المسلمين في هذه الغارة الليلية المفاجئة خلق كثير .

وشعر المسلمون في أنحاء المعسكر ، فصاروا يتنادون.. النفير.. النفيرورب الكعبة دهينا ، وهم يسرعون إلى خيمة أبي عبيدة في بعض رجاله، وهم ينادون كبسنا يوقنا ، عندها ركب أبو عبيدة في بعض رجاله ، وجعل يدور حول العسكر ، فنظر قائد الروم المغيرين إلى العرب يتسابقون نحوه فنادى في أصحابه .

---

(١) عبد الله بن صفوان بن قدامة التميمي قال ابن الأثير : قدم على النبي (ص) مع أبيه صفوان ، وهو أخو عبد الرحمن بن صفوان لأبيه ، ولأخيه صحبة ، ولما قدما على رسول الله (ص) كان إسماهما عبد العزى وعبد نهم . فسماهما رسول الله (ص) .. عبد الله وعبد الرحمن .

من كان أخذ شيئاً فليتركه ويطلب نجاة نفسه ، فانسحبوا إلى القلعة ، وقد تمكنوا من أخذ خمسين أسيراً من عسكر الإسلام.. أكثرهم من ربيعة ومضر .

وأدرك خالد بن الوليد الروم في اللحظة الأخيرة فهاجمهم فألقى القبض على مائة من فرسانهم وقتل عدة من المهاجمين أما الباقون فقد لجأوا إلى القلعة حيث كان البطريق يوقنا ينتظرهم .

ابو عبيدة يامر بالحيطة وتشديد الحراسة

وبعد تلك الغارة الناجحة المفاجئة التي قام بها رجال البطريق يوقنا على أطراف معسكرات المسلمين ، وجه القائد العام أبو عبيدة اللوم إلى فرق الحراسة المكلفة بتسيير الدوريات حول المعسكرات لحراستها من مثل تلك الغارة المفاجئة العنيفة ثم نادى في عامة الجيش يحذرهم وينبههم .

« عزيمة من الله ثم من رسوله ومن الأمير أبي عبيدة على كل رجل ، أن لا يكل حرسه إلى غيره ، وليكن كل رجل منكم حارس نفسه ، ولا يتكلم بعضكم مع بعض » .

فانتبه المسلمون وأخذوا حذرهم وشددوا الحراسة ليلا على معسكراتهم .

ومع هذا فقد ظل البطريق يوقنا مصراً على النيل من المسلمين عن طريق الغارات الليلية المفاجئة ونصب الكمائن لإلحاق أكبر خسارة ممكنة بهم ، وذلك ما يمكن تسميته بحرب الاستنزاف ، حتى يضعف المسلمون ويأسوا من الروم الذين في القلعة فيفكوا عنها الحصار .

فعالية استخبارات يوقنا بين المسلمين

كما تقدم ذكره كانت للبطريق يوقنا الذي يطلق عليه إسم (ملك حلب) استخبارات دقيقة ونشطة كلهم من العرب المتنصرة لأنهم يجيدون اللغتين العربية

والرومية بحكم كونهم عنصراً عربياً محتفظاً بطابعه العربي لغة وهيئة وبحكم نشأته منذ قرون بين العنصر الروماني الحاكم الفعلي للشام .

كان رجال استخبارات يوقنا طالما أحدثوا المتاعب المعقدة لجيش الإسلام ، لأن هؤلاء العرب المتنصرة يستطيعون الإختـــلاط بعساكر الإسلام ويتزيون بزيهم دون أن يفطن لهم أحد إلا في النادر ، إذا ما اكتشفهم المختصون من رجال استخبارات المسلمين .

وقوع وحدة إسلامية في كمين بفعل استخبارات الروم

كان المسلمون قد عقدوا الصلح مع جميع أهل الضواحي والأرياف حول حلب من النصارى العرب ، وكانوا على ولاء للمسلمين وفي ذمتهم ، ويقدمون لهم بعض المساعدات مثل التموينات والعلوفات للخيل من مزارعهم في الأرياف ، وحدث أن الأمير أبا عبيدة كلف وحدة من جيش الإسلام قوامها مائـة فارس ليتجهوا إلى جهة معينة من قرى أهل الذمة من نصارى أرياف حلب ، ليجلبوا منهم على ظهور الجمال والبغال بعض التموينات للجيش والعلوفة للخيل ، وكان رجل من العرب المتنصرة العاملين في جهاز استخبارات البطريق يوقنـا مدسوساً داخل معسكر المسلمين فاطلع على كافة التفاصيل لما ستقوم به الوحدة الإسلامية إياها لجلب المؤونة والعلوفة ، فسارع إلى البطريق يوقنا وأبلغه كامل تفاصيل ما علم من أمر هذه الوحدة التموينية الإسلامية ، وحدد له الأماكن التي ستتجه اليها لاداء مهمتها ، فانتخب يوقنا في الحال الف فارس من خاصته وكلفهم بأن يتبعوا الجاسوس العربي المتنصر ليدلهم على حيث سيجدون الوحدة الإسلامية المـكلفة بجلب التموينات والعلوفة من الوادي الذي يقطنه المعاهدون من أهل الذمة العرب المتنصرة ، كي يقوموا بإبادة الوحدة الاسلامية إياها .

وقد قال يوقنـــا (وهو يأمر قوتـــه الخاصة بتتبع الوحدة الاسلامية المشار اليها) .

(والله لأضيقن على العرب مسالكهم ولأقطعن عليهم طرقاتهم) .

وعندما أقبل الليل فتح أحد أبواب القلعة فخرجت منه القوة الخاصة المؤلفة من الف فارس ، كي تهاجم الوحدة الاسلامية المؤلفة من مائة فارس في الموقع الذي حدده الجاسوس .

وما زال ذلك الجاسوس العربي المتنصر يتقدم القوة الرومانية إياها حتى وقف بها على الوادي الذي توجد فيه الوحدة التموينية الاسلامية التي يقودها رجل اسمه مناوش بن الضحاك .

وكانت الوحدة قد أوقرت القافلة من البغال والجمال بالمؤن والعلوفة من قرى المسيحيين العرب المعاهدين، وقد أبصر قائد الوحدة مناوش القوة الرومانية المعادية ، فعلم أنه محاط بقوة كبيرة تريد إبادة وحدته والاستيلاء على ما لديها من علوفة ومؤونة للجيش ، فأمر أصحابه في الوحدة بالاستعداد لمواجهة القوات الرومانية رغم عدم التكافؤ العددي بين القوتين .

ولقد هاجم الألف فارس من الرومان الوحدة الاسلامية الصغيرة وأحاطوا بها من كل مكان ، ودارت معركة حامية شرسة قتل فيها كثير من الفريقين ، واستشهد فيها قائد الوحدة الاسلامية مناوش بن الضحاك وغيره من كبار رجاله ، وبعد أن استشهد ما يقرب من نصف عدد الوحدة الاسلامية وكلهم من قبيلة طي اليمانية الباسلة ، انسحب الباقون على متون الخيل .

وبعد انسحاب بقية الوحدة الاسلامية من الميدان ، عمد قائد القوة الرومانية المغيرة إلى قتل الجمال والبغال التابعة للوحدة الاسلامية ، وحمل ما خف مما تحمله للمسلمين ، ثم اختفى في أحد الوديان حتى حلول الظلام ليتمكن في جنح الظلام من العودة إلى القلعة ، لأنه لا يستطيع التحرك أثناء النهار ، لأن كل المنطقة التي حدث فيها الحادث وإن كان أهلها مسيحيين إلا أنهم ميالون للمسلمين لأنهم في ذمتهم وذاقوا حلاوة عدلهم وإنصافهم وتسامحهم وشهامتهم .

غير أنه قبل أن تتمكن القوات الرومانية التي نجحت في عمليتها ضد وحدة التموين الإسلامية من الانسحاب والرجوع إلى قلعة حلب بلغ نبأ ما حدث القائد العام أبا عبيدة بن الجراح ، فساءه الأمر واهتم به غاية الإهتمام واشتد عليه الأمر فحزن على الشهداء ، ثم استدعى في الحال الأمير خالد بن الوليد وأمره أن يأخذ معه وحدة كافية من الفرسان مدعمة بأبطال ممتازين مثـــل ضرار بن الأزور ، ويلحق بالقوة الرومانية قبل خروجهـــا من مكمنهـا وقبل تمكنها من العودة سالمة إلى القلعة .

فسارع خالد إلى تحقيق أمر القائد العام فألف وحدة خفيفة من الفرسان انتخبهم بنفسه وانتقاهم من خيرة الفرسان ولا أحد أعرف بالرجال من خالد بطل اليرموك وإجنادين ، ثم اتجه بهم على جناح السرعة إلى حيث يختـــبيء الرومان الذين أوقعوا بالوحدة الإسلامية الصغيرة ، ومعه بعض من شهد معركة الوادي ، يدله على الطريق المؤدية إلى المنطقة التي دارت فيها المعركـة والتي كمن قريبـــاً منها الرومان الغادرون .

وما زال خالد يحث السير بوحدته الخفيفـة من الفرسان حتى وصل مكان المعركة فوجد جثث الشهداء الخمسين مبعثرة في الوادي ، والمسيحيون المعاهدون حولها يبكون ، ويرتجفون من الخوف ظناً منهم أن المسلمين سيحملونهم مسؤولية ما أصاب رجال وحدة التموين فينتقمون منهم .

ولكن خالداً لما وصل مكان المعركـة بث الطمأنينة في نفوس المعـــاهدين السيحيين ، لأنه متأكد أن لا يد لهم فـــيما أصاب رجال الوحدة ، وبعد أن أخبروه تفاصيل ما حدث في الوادي طلب منهم أن يدلوه على الطريـــق الذي سلكه قائد القوة الرومانية المهاجمـــة ، فدلوه وأرشدوه وحددوا له موقعه وقواته الكامنة .

فأطلق خالد ورجاله لخيلهم الأعنة كي يلحقوا بالقوة الرومانية التي أوقعت بالوحدة الإسلامية الصغيرة قبل أن تتمكن من الإلتجاء إلى القلعة . وقد أعطاه المعاهدون المسيحيون رجلاً يدله على الطريق ، وكان المعاهد خريتـــاً وخبيراً بمسالك وطرق تلك النواحي .

ولما وصل بقوات خالد إلى أحد الأودية قام بفحص الطريق ، ثم قال للأمير خالد أن البطريق وقواته لم يعبروا بعد الطريق إلى القلعة ، وأنهم لا بدسيمرون بهذا الطريق ، وقال لخالد : عليك أن تكمن برجالك على جانبي هذا الطريق ، فإن البطريق قائد القوة المشار اليها لا بد وأن يمر بها ، وكان الليل قدخيم بظلامه فعمل خالد بنصيحة المسيحي المعاهد .

وما هي إلا برهة حتى وصل البطريق وقوته التي أوقعت بوحـــدة التموين الإسلامية ، وهم يحثون السير كي يلجـــأوا إلى القلعة قبـــل أن تلحق بهم قوات الإسلام .

فلما توسط الطريق بقواته بين قوات الكمين التي نصبها القائد خالد، انقضت هذه القوات على الروم ، وصاح خالد في الروم صيحـــة انخلعت لها قلوبهم ، ثم قصد خالد إلى قائد القوة الرومية فضربه بالسيف حتى صار فلقتـــين ، وساد الاضطراب القوة الرومانية رغم أنها أكثر عدداً من قوات خالد ، وعنـدما علم رجال البطريق المقتول أن خالد بن الوليد هو الذي يهاجمهم ركنوا إلى الفرار ، ولكن قوات خالد ضيقت عليهم المسالك فصار الروم يقتلون دونما أية مقاومة ، فتمكن رجال خالد من إبادة أكثر تلك القوة الرومانية ، ووقع في أيدي رجال خالد ثلاثمائة أسير ، ضرب المسلمون أعناقهم أمام أسوار القلعة لإرهاب العدو ، فلا يتجرأ مرة أخرى الغدر بالمسلمين ، ولأن الروم ضربوا أعناق خمسين أسيراً على أسوار القلعة أمام أعين المسلمين .

وبعد تلك الغارتين اللتين شنها رجال يوقنا خارج القلعة على المسلمين ، شدد المسلمون الحصار على قلعة حلب ، فرابطت قوات الإسلام على أهم المسالك المؤدية من وإلى القلعة ، كي لا يتكرر هجوم الرومان المفاجيء على معسكرات المسلمين ودورياتهم .

ورغم ذلك فقد تكررت غارات البطريق يوقنا على معسكرات المسلمين خارج القلعة ، وسقط كثير من الشهداء في هذه الغارات التي يشنها الداهية يوقنا بأساليب شيطانية ماكرة ، وكلها يشنها رجال يوقنا بتخطيط منه أثناء الليل ، الأمر الذي جعل الأمير السابق خالد بن الوليد يبدي تذمره لتلك الحال فيقول:

« إنا كنا نظن أننا محاصرون القوم ، وإذا نحن بخلاف ذلك ، أنهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا » .

وقد تقدم خالد إلى الأمير القائد العام أبي عبيدة باقتراح يكون في تنفيذه خير وسيلة لإحكام الحصار ومنع حروب الصاعقة الليلية المفاجئة التي يشنها الطاغية يوقنا على أطراف معسكرات الإسلام حول القلعة .

وخلاصة اقتراح خالد هو أن ترابط قوات من الجيش الإسلامي على الطرق التي تؤدي إلى القلعة وتراقبها مراقبة دقيقة بحيث لا يغفل الحراس لا ليلاً ولا نهاراً عن مراقبة هذه الطرق والمسالك حتى يتعذر على المتسللين من قوات يوقنا في القلعة الخروج لمهاجمة معسكرات المسلمين المحاصرين على حين غفلة .

فقد قال خالد لأبي عبيدة :

« والصواب أن نجعل عليهم حرساً في كل طريق يمكننا ولا يمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا فقال أبو عبيدة جزاك الله خيراً يا أبا سليمان ما أبصرك بالأمور » .

وفي الحال أمر أبو عبيدة بتكوين قوة كبيرة من خيرة رجال الجيش وأشدهم وأمرهم بمراقبة الطرق والمسالك التي إلى القلعة وحراستها حراسة شديدة .

وقد أسند قيادة قوات الحراسة هذه إلى أشجع الرجال وأرسخهم قدماً في الاسلام ، وعلى رأسهم ضرار بن الأزور وقيس بن هبيرة وسعيد بن عمرو بن نفيل وعبد الرحمن بن أبي بكر وميسرة بن مسروق .

فتوزعت قواتهم حول القلعة وأحكموا الحصار حولها بمراقبة الطرق وحراستها حراسة شديدة ، فكان ذلك عامل مضايقة شديدة ضد البطريق يوقنا وتضاءلت إلى حد كبير غارات يوقنا الليلية المفاجئة التي كانت تقوم بها قواته لمداهمة أطراف معسكرات المسلمين . ومع ذلك كان يقوم في حالات نادرة ببعض الغارات الخاطفة على المعسكرات ولكن هذه الغارات يكون مصيرها الفشل ويستمر القتل في القائمين بها لشدة المراقبة والحراسة التي تقوم بها قوات الاسلام الخاصة بالمراقبة .

ولكن المحصورين من ناحية أخرى كانوا يتمتعون بمركز ممتاز من حيث منعة القلعة وصعوبة الوصول إلى داخلها عن طريق الاقتحام بالقوة ، ومن حيث توفر الماء والغذاء والعلوفة للخيل وبقية وسائل النقل الأخرى ، فقد كان لديهم في القلعة من التموينات ما يكفيهم لأكثر من سنة كاملة ، إذ كانت القلعة أشبه بمدينة صغيرة يتوفر فيها لوازم الحياة حتى الأسواق فيها مفتوحة للبيع والشراء .

فيكاد من المستحيل على أي جيش اقتحام هذه القلعة عنوة ، وخاصة إذا كان فيها مثل القوة الكثيفة التي يملكها الملك يوقنا ، فقد كانت من أمنع وأحصن القلاع في الشرق الأوسط ، فهي على جبل مدبب أحسن تدويره بشكل هندسي بحيث يستحيل على المشاة تسلقه بالقوة لأنهم سيستحر فيهم القتل لما سيتعرضون له من قذف بمختلف آلات الحرب من أسوار وأبراج ومكامن القلعة الحصينة المنيعة .

وفعلاً فشلت جميع المحاولات التي قامت بها قيادة الجيش الاسلامي لاقتحام القلعة بحد السيف ، حتى طال المقام على المسلمين وهم يحاصرونها ، وكاد اليأس يأخذ بنفوسهم من فتحها ، ولكنهم صبروا حتى تمكنوا عن طريق الحيلة من فتحها بالدخول من أبوابها بعد فتحها خلسة .

اكتشاف جواسيس يوقنا داخل معسكر المسلمين

ومع مناعة القلعة وشدة اعتصام البطريق يوقنا بها وحذره الشديد ودفاعه القوي الدائب عنها ، كان يبعث إلى معسكرات المسلمين بجواسيسه من العرب المتنصرة لينقلوا اليه ما يفيده عسكرياً من معلومات عن المسلمين الذين يتولون محاصرة القلعة .

وقد كان أبو عبيدة القائد العام متوقعاً قيام يوقنا بهذا العمل ، فكان لذلك حذراً من الجواسيس ، ويحذر رجاله منهم ، وقد عانى المسلمون المتاعب من هؤلاء الجواسيس (وكلهم من العرب المتنصرة) فلايضع المسلمون خطة أويدبرون أمراً ضد المحصورين في القلعة إلا ونقل خبره في الحال هؤلاء الجواسيس إلى البطريق يوقنا فيأخذ حذره ، ويحبط الأمر .

ولقد شكا الأمير أبو عبيدة لمستشاريه والمقربين اليه من هيئة الأركان هذه الظاهرة الخطيرة فقال :

« ان جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتحذرة » .

ثم طلب من الأمير السابق خالد بن الوليد أن يتولى بنفسه مراقبة المعسكرات والتحري عن هؤلاء الجواسيس والاسراع بإلقاء القبض على من يشتبه في أنه يعمل ضد المسلمين لحساب يوقنا .

فقد قال أبو عبيدة لخالد :

« إني أقسم عليك يا أبا سليمان إلا ما جلت في عسكرنا واختبرت الناس ، فلعلك تقع بأحد من جواسيس العدو » .

فصدع خالد بالأمر .

وركب ، وأصدر أوامره إلى مختلف القطاعات بأن تلقي إستخباراتها القبض على كل من يشكون في أمره ولا يطلقوا سراحه حتى يتأكدوا من براءته من تهمة التعاون مع العدو .

ثم شرع خالد بنفسه في التجول على مختلف المعسكرات للقيام بالتحري عن هؤلاء الجواسيس ، وبينما هو يتجول إذ بصر برجل من العرب المتنصرة يقلب عباءة متظاهراً بالرغبة في شرائها ، فشك خالد في أمره ، فجعل يراقبه ، ثم أمر بإحضاره .

فلما حضر استجوبه وأجرى معه التحقيق ، ولدى استجوابة زعم أنه من أهل اليمن .

ولكن الله فضحه ، حيث بدرت منه كلمة تبين منها خالد أنه جاسوس يعمل لحساب العدو .

فقد سأله خالد . من أي الناس أنت ؟

فقال : من أهل اليمن .

قال : من أيها ؟

قال : (موقعاً نفسه في الفخ) أنا رجل من غسان .. وكلمة غسان تكفي لأن تجعل الشك يكتنفه ، لأن الغساسنة في الشام هم (غالباً) أتباع للرومان .

وهنا احتجزه خالد ، ثم شدد عليه في التحقيق ، ووجه اليه تهمة التجسس لحساب الروم قائلاً :

« يا عدو الله أنت عين لعدونا » .

فأنكر ذلك وقال : ما أنا متنصر وأنا مسلم .

فلم يصدقه خالد ، ولكنه لم يبت في أمره ، بل ذهب به إلى القائد العام أبي عبيدة ، وأخبره قصته .

فقال أبو عبيدة : (اختبره يا أبا سليمان) .

قال خالد : (وكيف) ؟

قال : (اختبره بالقرآن والصلاة ، فإذا أجابك وإلا فهو كافر) .

فقال خالد للغساني : (قم فصل ركعتين واجهر بالقرآن فيهما) .

فأسقط في يد الجاسوس فلم يدر ما يقول : لأنه لا يعرف الاسلام ولاالصلاة.

فأجرى خالد معه مزيداً من التحقيق ، فاعترف أنه عميل للمخابرات الرومانية ، فسأله خالد : هل أحد معه مثله في معسكر الاسلام ؟

فقال : كنا ثلاثة ، أنا أحدهم ، والاثنان قد ذهبا إلى القلعة ليخبرا بوقتنا بخبركم ، وأنا تخلفت لأنظر ما يكون من أمركم .

وبعد أن تمت إدانة الرجل الجاسوس خيره القائد العام أبو عبيدة إما أن يدخل في الاسلام وإما أن يقتل لأنه جاسوس وكافر ، ففضل الدخول في الاسلام ، وشهد شهادة الحق وهنا انتهى كل شيء بالنسبة له ، وأخذ المسلمون مزيداً من الحذر بالنسبة لأمثال هذا الجاسوس الذي تاب وهداه الله للإسلام .

وصول المدد من المدينة وفتح قلعة حلب بحيلة عملاق حضرمي من المدد

كان المسلمون في شتى أقاليم الجزيرة العربية منذ سمعوا بفتح باب الجهاد في الشام والعراق ، وهم يتوافدون على المدينة ويضعون أنفسهم تحت تصرف الخليفة عمر بن الخطاب ، فيبعث بهم إلى جبهات القتال في الشام والعراق وأكثرهم يختار الشام لأن الروم أقل ضراوة في القتال من الفرس الذين كانوا أصبر وأعند في القتال .

وحدث أن جاءت مجموعة من المقاتلين الحضارمة إلى المدينة يطلبون الانخراط في سلك المجاهدين في سبيل الله . وكانوا من طريف وكندة ، فبعث بهم نجدة إلى الشام وإلى جيش أبي عبيدة المرابط أمام حلب ، وكان بين هؤلاء الحضارمة الكنديين أحد مواليهم (وهو من أصل زنجي) وكان عملاقاً ومحارباً ممتازاً تخط رجلاه في الأرض إذا ركب الحصان ، وكان شديد السواد عظيم الخلقة شديد البنية كأنه نخلة متحركة . وكان في الجاهلية بحضرموت يخافه جميع الفرسان لشدة بأسه ولما اختصه الله به بسطة في الجسم حيث لا يشبهه أحد ولا يقدر أحد على مواجهته ، ولما أسلم رغب في أن يسخر قوته الجسميه التي رزقه الله إياها للجهاد في سبيل الله فجاء مع مواليه الكنديين إلى المدينة ، فكان ضمن المدد الذي جاء إلى أبي عبيدة بالشام .

الجنوبيون يحبطون غارة على المعسكر

وصادف أنه وقت وصول المدد الذي يضم الكنديين والعملاق الزنجي الحضرمي الأسود ، قام بطريق حلب يوقنا بنفسه بهجوم كبير خاطف مفاجيء في جنح الظلام وبقوة مقدارها خمسمائة فارس على أحد معسكرات المسلمين وعلى حين غفلة من أهل المعسكر وقد تمكن يوقنا منهم وكاد يفتك بهم ، لولا أن الله سبحانه وتعالى سخر قوة المدد الجنوبية التي وصلت لتوها في تلك الليلة ، وكانت قد اتخذت مواقعها بالقرب من المعسكر الذي تعرض للهجوم ، وقبل أن يخلدوا إلى الراحة بالنوم سمعوا الضجيج داخل المعسكر فعلموا أنه يتعرض لهجوم من الروم فسارع الكنديون يتقدمهم العملاق الأسود مولاهم البطل لنجدة المسلمين في المعسكر ، وشنوا في الحال من الخلف هجوماً على قوات الروم الغادرة المهاجمة التي يقودها يوقنا ، ثم وضعوا فيها السيف فقتلوا منها حوالي المائتين ، وكاد البطريق قائد القوة نفسه يقتل ، لولا أنه أفلت فنجا بأعجوبة .

وعندما وقع الهجوم من الحضارمة على قوات يوقنا في جنح الظلام وقتل من قتل من فرسانـــه أصدر أمره إلى من بقي من قومه بالانسحاب من المعسكر واللجوء إلى القلعة في الحال ، لئلا تسبقهم قوة أخرى من المسلمين فتحول بينهم وبين الدخول اليها .

وقد قام الكنديون المنجدون (يتقدمهم العملاق الأسود) بمطـاردة قوات يوقنا المنسحبة إلى القلعة ، وقد حاول الحضارمة دخول القلعة ، ولكن الأوامر المشددة صدرت اليهم من أبي عبيدة بأن لا يفعلوا ، لأن ذلك تورطاً له عواقبـه الوخيمة ، حيث سيكون مصيرهم القتل أو الأسر مهما كانوا أشداء لأن الأبواب ستقفل عليهم وفي القلعـــة عشرات الألوف من قوات الأعداء . فتوقفوا عن المطاردة إطاعة لأمر القائد العام واكتفوا بما ألحقوا بيوقنا ووحدته من خسائر بلغت قرابة نصف قواته التي بها هاجم المعسكر خلسة .

ولقد أعجب القائد أبو عبيدة بما فعلته كندة وخاصة مولاها العملاق الأسود الذي ذاع صيت شجاعته وأفاعيله التي فعلها برجال يوقنا في تلك الليلة ، وكان خالد بن الوليد ، لديه معلومات سابقة عن شجاعة هذا العملاق وما كان يفعله بأعدائه في الجاهلية بأرض المهرة حيث كانوا يهابونه ويخافون من بطشه خوفاً شديداً ، وأخبر أبا عبيدة قصص بطولاته التي كانت شائعة في جنوب الجزيرة ، فطلب أبو عبيدة مقابلته ، فحضر بين يديه . فأعجب به ، وقال له : بلغـــني عنك عجائب وأنت وأيم الله أهلها لأنك جزل من الرجال ، واعلم أنك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع ، ولقد اقتحمت البـــارحة أثر القوم اقتحاماً منكراً فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنـــا . فقال له العملاق الاسود :

أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة [1] وأخذت أموالها وان جبالها منيعة شامخة ذات وعر وحجر ، وما هذه (يعني القلعة) بأمنع من تلك الجبال .

ثم قال هذا العملاق الجنوبي واسمه (دامس) . فما الذي تأمرني به .

فقال أبو عبيدة آمرك بتقوى الله سراً وجهراً ثم المكيدة على الأعداء طوعاً وصبراً ، فارجعوا إلى رحالكم حفظكم الله . فقالوا بأجمعهم : وفق الله رأيك أيها الأمير وظفرك بأعدائك إنه سميع عليم فعال لما يريد ، ومضوا إلى مقر وحدتهم في المعسكر .

لقد أُعجب أبو عبيدة بذلك المولى الكندي العملاق الأسود ، وصار يهتم به ويولي شجاعته وبصره بالحرب اهتماماً خاصاً لما رأى من بلائه العظيم في تلك الليلة ولما سمع من أخبار شجاعته وحيله البارعة في حروبه في جنوب الجزيرة فقرر أن يستفيد من خبرته رغم أنه كان عبداً مملوكاً لبعض الأسر الكندية ، فالإسلام لا يفرق بين العبد الأسود والحر الأبيض المسود ، فالكل عبيد لله ، وقد يكون العبد الأسود أفضل عند الله وأنفع لخلقه من السيد المسود الأبيض ، وتلك كانت حالة العبد العملاق الأسود البطل الذي كان فتح القلعة المنيعة على يديه بسبب خبرته ومعرفته بالمكائد والخدع الحربية التي استخدمها وجنى المسلمون ثمارها فدخلوا بسببها القلعة التي وقفوا حائرين أمامها عدة أشهر لشدة مناعتها وصعوبة الوصول إلى أسوارها وأبوابها . لما يحيطها من مزالق ترابية هائلة أنشئت على أساس هندسة حربية مذهلة .

---

(١) مهرة بفتح أوله وسكون ثانيه .. اقليم يقع على المحيط الهندي (بحر العرب) غربي عمان وشرقي حضرموت .. وسمي هذا الإقليم باسم مهرة بن حيدان الحميري .. وأهله رجال مقاتلون ممتازون . قتل منهم عكرمة بن أبي جهل لما ارتدوا حوالي عشرة آلاف مقاتل .، ومن بلادهم يؤتى بالابل المهرية التي تسبق الخيل والتي قال فيها المتنبي :

ويلمها خطة ويلم قابلها ... لمثلها خلق المهرية القود

القائد العام يستشير العملاق الحضرمي بشأن الاستيلاء على القلعة

لقد طالت مدة الحصار المضروب على قلعة حلب، وفشلت محاولات اقتحامها عن طريق الهجوم المباشر الشامل المكشوف بحد السيف لمناعتها وكثرة الموانع الشديدة المعقدة المقامة حولها من الخارج.

ولربما فكر القائد العام كي يستولي على القلعة بطريقة غير الاقتحام المكشوف فكر في أسلوب آخر كالحيلة والخدعة والحرب خدعة، كما قال سيد المرسلين محمد ﷺ، ومن باب الإستعانة بذوي الخبرة والشجاعة والدهاء الحربي والتجربة العملية استدعى أبو عبيدة العبد العملاق الحضرمي ذا الأصل الزنجي لعله يظفر منه بفكرة صائبة تيسر للمسلمين الإستيلاء على القلعة دون تعريض الجيش لما تعرض له من خسائر حينما حاول اقتحام القلعة في هجوم مكشوف، فعاد إلى مواقعه بدون جدوى، إلا إصابات لا يستهان بها من قتل وجرح.

قلق الخليفة عمر لانقطاع أخبار العمليات حول القلعة

وكان الخليفة الفاروق عمر متلهفاً للاطلاع على ما وصلت اليه العمليات العسكرية في منطقة حلب، وكانت الأخبار انقطعت عنه لمدة رآها طويلة فانتابه القلق على جيشه، لأن أغلى الناس عنده رضي الله عنه الجندي المجاهد في سبيل الله.

لذلك كتب إلى القائد العام أبي عبيدة يطلب منه رفع تقرير عن الوضع .. «يا أبا عبيده ان بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقي على اخواني المسلمين، وكأنك لا تكتب إلا بالفتح .. إنني وإن كنت غائباً عنكم فإن همتي عندكم واني داع لكم وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها».

فكتب اليه أبو عبيدة كتاباً ذكر فيه انتصاراته على الروم في قنسرين والعواصم ووقوع مدينة حلب نفسها في قبضة جيشه، إلا أنه ذكر له في كتابه

أن قلعة حلب رغم الحصار الشديد المضروب عليها .. قد استعصت على الجيش وقد يكون ذكر له فشل الهجوم المكشوف الذي قام به الجيش على القلعة ، وقد استأذن الخليفة في هذا الكتاب أن يسمح له بفك الحصار عن قلعة حلب كي يتجه بالجيش شمالاً نحو العاصمة الثالثة (أنطاكية) ليقوم باحتلالها مع المواقع الرومانية الحربية المتبقية في منطقتها والواقعة بالقرب من الحدود البيزنطية نفسها .

فقد جاء في خطاب أبي عبيدة الذي هو بمثابة جواب على استفسار الخليفة ..

« ان الله قد فتح علينا قنسرين وقد شننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا وقد كادنا مراراً وقتل منا رجالاً رزقهم الله الشهادة على يديه ، والله من ورائه بالمرصاد ، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر ، وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين » .

وبعث الكتاب مع عبد الله بن قرط [1] وجعدة بن جبير .

فلما وصل خطاب أبي عبيدة إلى الخليفة الفاروق .. وقرأه لم ترق له فكرة فك الحصار عن قلعة حلب لأن الخليفة رأى أن في ذلك تقوية لمعنويات الروم يجعلهم يطمعون في المسلمين من جديد ، فتنتعش آمالهم بفكهم الحصار عن أهم حصن لا في الشام وحدها بل في الشرق الأوسط وهو قلعة حلب ، فكتب إلى

---

(١) هو عبد الله بن قرط الأزدي الثمالي .. كان اسمه في الجاهلية شيطاناً . فسماه النبي (ص) عبد الله . له ولأخيه عبد الرحمن صحبة قال ابن الأثير . شهد اليرموك وفتح دمشق ، وأرسله يزيد بن أبي سفيان بكتابه إلى أبي بكر الصديق . ذكره عبد الله بن محمد بن ربيعة في كتابه (فتوح الشام) واستعمله أبو عبيدة على حمص مرتين ، ولم يزل عليها حتى توفي أبو عبيدة ثم استعمله معاوية على حمص أيضاً . كان ممن أخذ التابعون عنه الحديث الشريف . قتل عبد الله بن قرط شهيداً في غزوة في الروم بآسيا الصغرى سنة ست وخمسين .

أبي عبيدة بأمره بالاستمرار في محاصرة القلعة مهما كانت النتائج ، حتى يفتحها الله عليه ، ومع ذلك أمره بتوجيه وحدات من الجيش تشن الغارات في الوقت نفسه على بقيه المواقع الرومانية المتواجدة في المناطق القريبة . فقد جاء في كتاب أمير المؤمنين عمر ..

« وأما ما ذكرت من انصرافك إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب .. تترك رجلاً قد دنوت من ديارهوملكت مدينته - يعني حلب - ثم ترحل ، فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل اليه ، فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع ويجتريء عليك أجنادالروم خاصتهم وعامتهم » ثم اختتم الفاروق كلامه بالأمر الحاسم بأن يستمر أبو عبيدة في محاصرة قلعة حلب حتى يحكم الله بين الفريقين فقال :

« فإياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم اليك إن شاء الله تعالى ، وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة وشن الغارات ، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ، ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين ، وقد أنفذت اليك كتابي ومعه عصبة من حضرموت وأهل اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله ، والمدد يأتيك متواتراً إن شاء الله تعالى والسلام »[1] .

كما تقدم ذكره وعندما حضر العملاق الحضرمي الذي كان ضمن المدد الذي أشار اليه الخليفة في خطابه أنه بعث بهم إلى أبي عبيدة . عندما حضر حسب طلب أبي عبيدة واجتمع به طلب المشورة فيما إذا كان لديه فكرة باتباعها تتم للمسلمين السيطرة على القلعة بواسطة الحيله ، لأن محاولة الإستيلاء عليهاعن طريق القوة قد جربت ولم تنجح . فقد قال أبو عبيدة للعملاق الحضرمي دامس :

---

(١) انظر الواقدي ج ١ ص ١٦٥ وما بعدها .

« ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة ؟ » .

فأكد العملاق الأسود للقائد العام بأن فتح القلعة عن طريق الإقتحام بحد السيف يكاد يكون من المستحيل لمناعتها وشدة تحصينها وشدة يقظة قائدها وكثرة من بها من جيوش وما يملكون من ذخائر ومؤن تجعلهم لا يبالون بطول الحصار ، وأنه لا يمكن التوصل إلى الإستيلاء عليها إلا بالحيلة .

فقد قال دامس :

« إعلم أيها الأمير أنها قلعة حصينة منيعة شامخة تعجز الوافد وتمنع القاصد في أهلها محاصرة ، ولا تضيق صدورهم من قتال .. غير أني أفكر في حيلة أحتالها أو بلية أعملها وأرجو من الله أن يتم ذلك عليهم فيكون ما فيه تبديد وتملك (بمشيئة الله) ديارهم وتقلع آثارهم ».

فسأله أبو عبيدة عن الحيلة التي يريد اتباعها لتسهيل فتح القلعة .

فشرحها له العملاق دامس بالتفصيل ، فأعجب بها القائد ووافق عليها ووضع كل الإمكانات التي طلب العملاق توفيرها كي تنجح الحيلة لفتح أبواب القلعة للمسلمين دون قتال .

تفاصيل حيلة العملاق الحضرمي لفتح قلعة حلب

وخلاصة الحيلة التي اقترح العملاق دامس أن يقوم بها وطلب من القائد العام الموافقة عليها هي أن يسمح أبو عبيدة للعملاق الأسود أن يختار بنفسه من رجال الجيش ثلاثين رجلاً يكونون كأقوى وأشجع ما يكونون من الرجال .. تتوفر فيهم بسطة الجسم وقوة العضلات وطول القامة .

ثم أن العملاق شرح لأبي عبيدة تفاصيل الخطة التي رسمها لتسهيل فتح أبواب القلعة للمسلمين بمساعدة الثلاثين الذين سيختارهم مساعدين له في مهمته .

فقد أبلغه أن حيلته هدفه منها أن يتمكن ورجاله الثلاثون (وباسلوب خاص سيتبعه هو) من التسلل إلى داخل القلعة في ظلام الليل دون أن يشعر بهم أحد من الرومان ، ثم يتجهون إلى أبواب فيفتحونها فيلجها رجال جيش الإسلام على حين غفلة من يوقنا ورجاله ويتم الاستيلاء على القلعة .

والعملاق حين رسم هذه الخطة يعلم أن تنفيذها في غاية الصعوبة ، وأن تنفيذها يتطلب جهد مضن ، ومن المحتمل فشلها وفقد الثلاثين رجل أرواحهم إن فشلت ، ولكن العملاق الحضرمي عزم بإصرار على القيام بها ، فإن نجحت فذلك الذي تبغيه قيادة الجيش والمسلمون أجمع ، وإن فشلت وقتل الثلاثون ففي سبيل الله ، فهي إذن (للعملاق ووحدته الفدائية) إحدى الحسنين إما الظفر وإما الشهادة.

ولقد استحسن القائد العام اقتراح العملاق الحضرمي الكندي الإفريقي العرق فأبدى استعداده لتحقيق طلب هذا العملاق، ومنحه كامل الحرية لاختيار الرجال الثلاثين الذين يريد اختيارهم ليكونوا تحت امرته.

ولقد اختار العملاق الحضرمي الرجال الثلاثين .

وبعد أن اختارهم العملاق وعينهم بأسمائهم أصدر اليهم القائد العام أمراً بأن يسمعوا ويطيعوا العملاق البطل دامس .

فقد قال أبو عبيدة للثلاثين المختارين إياهم ..

« إني قد أمرت دامساً عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره ، واعلموا رحمكم الله ، اني ما أمرته عليكم لكونه أجل منكم حسباً ونسباً ولا أعظم موكباً ، فلا يقل أحدكم أني قد أمرت عليكم عبداً احتقاراً لكم ، وبالله أحلف مجتهداً لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم وأنا أرجو من الله أن يفتح على أيديكم ، فأقبلوا عليه بجمعهم وقالوا :

« أصلح الله الأمير ما نشك في إعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا ولقد كان

كلامك الأول أثر في نفوسنا ، وها نحن لك وبين يديك ولو أمرت علينا علجاً أغلف لم نخرج لك عن أمر ولا رأي ، إذ علمنا أنك لا تريد إلا نصحاً للدين وحياطة ، فالسمع والطاعة لله ثم لك .. ففرح أبو عبيدة بما قالوا ووثق بكلامهم وجزاهم خيراً ، ثم ذكرهم بأنه لم يولي عليهم العبد العملاق إلا لأنه مشهور بدقة الحيله وحسن البصيرة ، ثم ذكرهم بأن النبي قد ولى عبداً معتوقاً مثله على سادات العرب المسلمين ، فلم يروا في ذلك غضاضة فسمعوا وأطاعوا ، لأن القصد والهدف خدمة الإسلام ونصر المسلمين ، والإسلام من قواعده الثابتة أنه لا فرق بين أسود وأبيض عند الله ولا فضل لأحد على أحد إلا بقدر ما يقدم من نفع للإسلام والمسلمين ويكون أتقى من غيره (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] .

وبعد أن تمت الموافقة على طلب العملاق الجنوبي ، وتم اختياره الثلاثين بطلاً من جيش أبي عبيدة ، أصدر أمره إلى فصيلته المختارة أن يكونوا على أهبة الإستعداد لتلقي الأوامر منه بالتحرك في أية لحظة ، كما طلب منهم (بصفتهم وحدة فدائية سرية) أن يضيفوا إلى أسلحتهم التقليدية (التي هي السيف والرمح) الخناجر ، بحيث يكون لدى كل واحد منهم خنجراً يخفيه داخل ثيابه ، إذ قد لا يمكنهم في بعض عملياتهم الفدائية الشاقة استخدام سوى هذه الخناجر لان عملياتهم تتطلب التخفف وشدة التستر وخفة الحركة والاستغناء عما قد يعيقهم من ثقيل السلاح في بعض عملياتهم داخل القلعة لفتح أبوابها لفرسان المسلمين .

فك الحصار الموهوم

وبعد أن تمت الموافقة من القائد العام على اقتراح وطلبات الفدائي العملاق الحضرمي مدبر الحيلة لفتح القلعة تقدم هذا العملاق إلى القائد العام باقتراح يساعد تنفيذه في تيسير المهمة لفتح القلعة .

---

(١) ١٣ الحجرات .

وخلاصة الاقتراح هو أن يختار القائد العام مجموعة يكونون من أنبه وأذكى وأشجع الجند ، تكون مهمتهم الاتصال سراً بمجموعة العملاق الفدائية والقائد العام ، لنقل المعلومات عن سير عملية المجموعة التي تقرر أن تتولى بالحيلة فتح أبواب القلعة ، واقترح العملاق أن مجموعة الاتصال هذه متنكرة في لباس مدنية وعلى هيئة العرب المتنصرة وأن لا يحملوا من السلاح سوى الخناجر مخفية بين ثيابهم ، وأن يكونوا (مع تعارفهم) متفرقين ، وأن يجتمعوا في فترات (سراً) حسب الحاجة ، وأن تكون مهمتهم تتبع سير عملية العملاق ومفرزته . ونقل أخبارها إلى القائد العام .

وحتى إذا ما نجحت المجموعة في فتح أبواب القلعة ركبوا خيلهم وسارعوا إلى أبي عبيدة ليخبروه فتسارع وحدات الجيش المتأهبة لاقتحام القلعة .

وقد جاء هذا الاقتراح والموافقة عليه بعد أن تقدم العملاق الأسود إلى القائد العام باقتراح آخر وافق عليه أبو عبيدة خلاصته .

أن يتظاهر القائد العام بفك الحصار عن القلعة فيتوهم يوقنا ورجاله المحصورون أن المسلمين ملوا طول الإقامة ويئسوا من فتحها فرحلوا .. فاقترح أن ينسحب بكامل جيش الإسلام إلى مسافة غير بعيدة بحيث يتوارى تماماً عن أنظار المرابطين في القلعة ، ثم يتوارى بكامل جيشه في بعض الأودية القريبة الواسعة فيختفون فيها بحيث لا يعلم بوجودهم أحد ، ويكونون على أهبة الاستعداد وفي حالة استنفار تام وعلى استعداد للهجوم الصاعق على القلعة إذا ما تلقوا من العملاق الحضرمي ومجموعته بأن أبواب القلعة قد فتحت .

فقد قال العملاق الخبير صاحب الفكرة لأبي عبيدة :

« عليك أيها الأمير أن ترحل بجيشك ، فتكون منا على مسيرة فرسخ ، فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وأن يختفوا ما استطاعوا ، ويكون لك

رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين ، يتجسسون عن أخبارنا وآثارنا دون أن يعلم بهم أحد ، ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر ، فإذا ما عاينوا الظهور على أعدائنا والظفر بهم (يعني النجاح في قتل حراس الرومان على الأسوار والموكلين بحراسة أبواب القلعة) لحقوا بك وبشروك ، فتلحق بنا إن شاء الله ، وليكونوا متفرقين ، فإن ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمورهم والله المستعان في جميع الأمور والأحوال »[1] . فوافق أبو عبيدة على هذه الفكرة لأنها فكرة تمويه على العدو صائبة ورائعة ، تسهل على مجموعة الفدائيين مهمتهم .

وبعد الموافقة على كل هذه الاقتراحات والآراء التي تقدم بها العملاق الأسود إلى القائد العام ، تحرك بمجموعته الفدائية نحو القلعة لبدء العمل ، وذلك بعد أن خيم الظلام .

ثم بعد ذلك أخذ أبو عبيدة في فك الحصار عن القلعة متظاهراً بأنه يريد أنطاكية شمال حلب ، فانسحب بكامل جيشه من أمام القلعة ، وبعد أن اختفى عن أنظار المحصورين في القلعة ، ووصل إلى مسافة أربعة أميال عن القلعة وفي بعض الأودية الكبيرة الواسعة اختفى وجيشه في فجوات وشعاب ذلك الوادي اختفاء محكماً .

ورأى الروم المحصورون في القلعة الانسحاب الفجائي الذي قام به المسلمون عنهم فعمهم الفرح والابتهاج ، واحتشدوا على أسوار القلعة ينظرون (بسرور بالغ) إلى عشرات الألوف من المسلمين وهي تفك الحصار عن القلعة ، فصاروا يبربرون بلغتهم (فرحاً) في تظاهرة كبيرة فرحين مستبشرين ، موقنين بأن المسلمين سينسحبون إلى غير رجعة .

---

(١) الواقدي ج ١ ص ١٧١ .

يوقنا يمنع رجاله من تتبع المسلمين المنسحبين

وهز الغرور بعض رجال يوقنا ، فاقترح تتبع المسلمين ومطاردتهم وضربهم أثناء انسحابهم الذي ظنه انسحاب يأس وهزيمة .

ولكن البطريق يوقنا (وكان ذا دهاء حربي وخبرة عسكرية وبعد نظر في السياسة الحربية) رفض هذا الاقتراح وأمر جنده بالتزام مواقعهم في القلعة وأن يكونوا كما كانوا حذرين متيقظين ، حتى ينجلي الموقف تماماً .

فلم يستفزه الفرح بذلك الانسحاب الموهوم ، فيأمر بمهاجمة المنسحبين ، لأنه أدخل في حسابه كقائد خبير من أمهر القادة أن هذه العملية قدتكون مكيدة ، وأن في مطاردتهم قد تكون نهاية قومه المحصورين في القلعة ، فيكونون بخروجهم من القلعة كمن يبحث عن حتفه بظلفه . إذا الأسود لا تصاد بسهولة ، وهويعرف أن المسلمين أسود ولا كل الأسود تصاد ، والتجربة أكـــبر برهان ، في اليرموك وإجنادين ومرج الروم وقنسرين ودمشق .

ولعل البطريق يوقنا هو المحارب الوحيـد الذي ساوره القلق والاضطراب لهذا الانسحاب الإسلامي المفاجيء ، ومع ذلك فهو لم يخف اغتبـــاطه لذلك في الظاهر .

ولا نشك أن الجيش المحصور قـــد انتشى كثيراً ، فارتفعت معنوياتـــه لانسحاب المسلمين من أمام القلعة ، وما علموا أن هذا الانسحاب هو بـــداية نهايتهم جميعاً .

نجاح العملاق الحضرمي في فتح أبواب القلعة

أما مجموعة الفدائيين الثلاثين ، فقد تحركوا بقيادة قائدهم العمـــلاق المولى الحضرمي وتسللوا تحت ستار الظلام نحو هدفهم ، وما زالوا يدورون بجذرحول القلعة حتى اهتدوا إلى كهف ملاصق لسورها فاختبأوا داخله .

وبعد أن اختبأوا في الكهف طلب منهم قائدهم العملاق أن يبقوا مكانهم ، ليقوم هو بالتحري والبحث في سبيل الحصول على مكان مناسب يستطيعون منه التسلق إلى سور القلعة ، ثم يواصلوا مهمتهم حتى يتمكنوا من فتح بعض أبواب القلعة قبل أن يطلع الفجر .

وبعد قيامه بجولة تفتيش حول القلعة عاد إلى مجموعته في الكهف ، وطلب منهم أن يتبعوه فأطاعوه وساروا خلفه ، وما زال يسير بهم حتى وصل بهم إلى نقطة بجانب السور اكتشف أنها أنسب مكان في الإمكان أن يتسلق ومجموعته منها إلى رأس سور القلعة . ثم شرع في عملية التسلق ، وكان يصدر تعليماته إلى مجموعته فيطيعونه حتى تمكن الجميع من الوصول إلى رأس سور القلعة ثم توغلوا إلى داخلها .

كيف تسلق الفدائيون سور القلعة ؟

أما كيف نجحوا في تسلق السور حتى وصلوا جميعهم إلى داخل القلعة ، فقد تم ذلك بأسلوب رياضي اخترعه العملاق ، وباتباعه نجح الجميع في الوصول إلى أعلى سور القلعة ثم التسلل إلى بعض الأبواب ففتحوها لجيش الإسلام بعد أن قتلوا بالخناجر حراس السور وحراس الأبواب دون أن يشعر بهم أحد .

وقد تركزت عملية التسلق على قوة العملاق الأسود الجسمية الخارقة وطوله الهائل .

وخلاصة الطريقة التي بها نجح العملاق في إيصال مجموعته إلى أعلى السور وهو معهم ، هو أنه قعد ملاصقاً للسور القرفصاء ، وانتخب سبعة من المجموعة وطلب من الأول أن يجلس على منكبه (أي العملاق) ثم يجلس الثاني مثله على منكب الأول ثم يجلس الآخر مثله على منكب الثاني ، حتى ينتهي السبعة على

هذا المنوال ، فإذا ما تمت العملية هكذا رمى (حسب تعليمات العملاق) كل من السبعة ثقله على جدار السور ليخفف من الثقل على الجالسين تحته .

وبهذا الأسلوب الذي اعتمد فيه (طبعاً) على القوة الجسمية الخارقة تمت العملية في لحظات ، إذ وجد السابع نفسه في أعلى السور واقفاً ، وكان قد زود بالحبال الكافية لانتشال الباقين .

وعندما استوى الأول على السور رمى بالحبل للأول فانتشله حتى استوى معه عليه ثم قاما بانتشال الباقين الواحد بعد الآخر ، حتى تم انتشال ثمانية وعشرين كان آخرهم العملاق القائد الحضرمي .

أما الإثنان الباقيان ، فقد أمرهما قائدهما بأن ينطلقا ويخبران القائد العام بنجاح تسلق المجموعة وأنهم جميعاً ما عداهما – أصبحوا داخل القلعة ، وأنهم بسبيل التسلل إلى الأبواب لفتحها ، وطلبا منه (حسب رغبة العملاق القائد) أن يسارع بإرسال قوة الفرسان ليكونوا قبل الفجر أمام أبواب القلعة .

وكان الفدائي الأول الذي ارتقى سور القلعة قد وجد ثلاثة من الحراس الروم في حالة سكر فقتلهم بخنجره حتى لا يسمع أحد له صوتاً .

وبعد أن استوى الثمانية والعشرون والعملاق قائدهم على السور . طلب منهم قائدهم الإختفاء – وكان الوقت ليلا – ليذهب بنفسه للاستكشاف والتحري تمهيداً لنجاح العملية ، وقد قاده التحري والبحث إلى دار البطريق يوقنا ، فوجد القادة والكبراء مع يوقنا نفسه في احتفال وفي حالة سكر ، فصار ذلك عوناً للمجموعة في مهمتها ، فقد تركهم العملاق وشأنهم في عربدتهم تاهين ثم عاد إلى مجموعته وأخبرهم بما رأى ، وقال لهم : ابشروا .

العملاق يفتح أبواب القلعة ويقتل حراسها

وبعد ذلك طلب قائد المجموعة من أصحابه أن يبقوا مكانهم يسترهم الظلام ،

وأخبرهم أنه ذاهب بمفرده ، لعل الله تعالى يمكنه من فتح أبواب القلعة ، ثم تركهم وذهب في اتجاه بابين من أبواب القلعة فاعترضه دهليز به حرس مهمتهم حراسة البابين ، وكان (كما قلنا ذا قوة جسمية هائلة) ، وقد وجد الحرس في حالة سكر وكان ذلك قبيل الفجر حين يطيب النوم للانسان فانتضى خنجره وذبح جميع الحرس بدون أي ضجة ، ثم ذهب إلى البابين المغلقين ففتحهما في الحال ، وتركهما مردودين كي لا يغلقهما أحد .

ثم رجع في الحال إلى مجموعته وأخبرهم أنه قتل الحرس وفتح البابين وأنه تركهما مردودين ، وطلب منهم أن يتبعوه بسرعة إلى حيث الأبواب ، فسارع الجميع إلى البابين يحمونهما ، ثم أرسل إلى خالد بن الوليد من يخبره بأن البابين مفتوحين وطلب منه أن يسرع قبل أن يطلع الفجر ، ويكتشف الروم الحيلة فيعيدوا قفل البابين ، وكان أبو عبيدة قد أمر خالداً بأن يكون في قوة من الفرسان قريباً من القلعة متسترين بالظلام . وقد تبلغ خالد الرسالة من العملاق فسارع بخيله نحو البابين المفتوحين لاقتحامهما .

وبينما الرسولين في طريقهما إلى خالد اكتشف يوقنا الحيلة وعلم أن وحدة من المسلمين داخل القلعة فارتاع واستنفر أقرب قوة اليه لتسارع لمقاتلة الوحدة الاسلامية التي يقودها العملاق دامس وقفل البابين الذين فتحا ، فسارعت وحدة من القوات الرومانية نحو العملاق وباقي مجموعته ، فتصدى لهم العملاق ، ومجموعته وكان العملاق يعادل المئات من الأبطال ، ودارت معركة حامية ، بين الفريقين واستطاع العملاق ومجموعته على قلة عددهم منع الوحدة الرومانية من الاقتراب من البابين المفتوحين .

وبينما القتال الأولي على أشده بين العملاق ومجموعته من جهة والوحدة الرومانية من جهة أخرى إذا بخيل خالد تصل ويقتحم بها البابين إلى داخل

القلعة ، ويرسل المسلمون تكبيراتهم التي زلزلت القلعة ، وانهارت معنويات بوقنا وجيشه بعد أن علم أن خيل المسلمين قد دخلت القلعة وزاد موقف بوقنا حراجة أن لحق أبو عبيدة بباقي قوات الاسلام وانضموا إلى خالد ، وقد قاتل الروم قتالاً شديداً ، ولكنهم تراجعوا سريعاً بعد أن انهدمت معنوياتهم وعلى رأسهم قائدهم البطريق بوقنا ، ورأت الروم أن لا طاقة لهم بقتال جيش الاسلام وقد انتشروا في أرجاء القلعة يقتلون ويأسرون ، فألقى الروم السلاح وأبلغوا المسلمين أنهم يطلبون الأمان ومستعدون للاستسلام ، ثم القوا سلاحهم كدليل على إنهاء الحرب من جانبهم .

وأثناء عملية مجموعة الفدائيين لدفع الروم من أن يصلوا إلى البابين الذين فتحها العملاق الحضرمي لجيش الإسلام استشهد ثمانية منهم ، وبقي على قيد الحياة من هؤلاء الأبطال (وعلى رأسهم قائدهم العملاق الذين كان لهم الفضل الأكبر في سيطرة الجيش الإسلامي على القلعة) بقي منهم على قيد الحياة بعد استسلام القلعة ثلاثة وعشرون ، وكانوا عند بدء العملية بالإضافة إلى قائدهم العملاق واحداً وثلاثين .

أبو عبيدة يأمر برفع السيف عن الروم

وبعد أن طلب الروم الأمان واعلنوا استسلامهم وأنهم يطلبون الصلح أمر أبو عبيدة جيشه بالتوقف عن قتل الروم ، فتوقف القتال ، ثم شرع رجال جيش الاسلام في السيطرة على القلعة .

وبعد أن تمت السيطرة على القلعة قاموا بنزع السلاح من كل محارب روماني أو عربي متنصر يعمل ضمن الجيش الروماني .

وذكرت بعض المصادر أن البطريق بوقنا هداه الله فدخل في الاسلام هو ومجموعة من كبار قادة جيشه ، فرد عليهم أبو عبيدة أموالهم وأهليهم .

وبعد السيطرة على القلعة وتفقدها استولى المسلمون على كميات هائلة من الذهب والأواني الثمينة ، فقسمها أبو عبيدة بين رجال الجيش حسب قوانين الحرب في الاسلام ، بعد أن عزل خمسها وبعث به إلى الخليفة في المدينة .

وهكذا وبعد سيطرة المسلمين على حلب وقلعتها العتيدة ، فقد الرومان (بعد دمشق) أهم مدينة وأحصن موقع في الشام كله وهو قلعة حلب التي لا يزال بنيانها شامخاً حتى هذا اليوم .

وكان الاستيلاء على حلب سنة ١٥ هـ[١] .

وبعد وقوع مدينة حلب وقلعتها في قبضة المجاهدين المسلمين أصبح الجيش الاسلامي المنتصر والمتزايد عدده بالامدادات وبالداخلين فيه من أهل الشام يتعاظم ويهدد بلاد الروم نفسها المسماة اليوم (آسيا الصغرى) وهي الآن (الجمهورية التركية) ، فقد أصبحت منطقة حلب الحصينة والقوية مصدر تهديد للامبراطورية الجارة العدوة العتيدة ، لأن منطقة حلب لا تبعد عن حدود الامبراطورية أكثر من خمسين ميلاً .

ولا شك أن وقوع مدينة حلب وقلعتها في أيدي المسلمين قد أزعج القسطنطينية ، فصارت تفكر في حراسة حدود بلادها الأصلية وخاصة مما يلي حلب والعواصم (وهي مناطق بها سلسلة من الحصون تقع بين حلب وأنطاكية وقعت كلها في قبضة جيش الاسلام) .

سقوط المواقع الهامة المتبقية بأيدي الروم بعد سقوط حلب

وهكذا فلم يبق – بعد سقوط حلب وقلعتها في أيدي المسلمين – لم للروم

---

(١) انظر فتوح البلدان ص ١٥٢ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٤ وفن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين ص ١٥٣ وفتوح الشام ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها. وتاريخ الطبري وحركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ٢٥ ج ٢ .

في الشام من مواقع ذات أهمية تذكر سوى أنطاكية في أقصى الشمال وطرابلس جنوب إنطاكية والمدينة المقدسة (القدس) وإجنادين التي استعادها الروم بعد سيطرة خالد عليها وجميع مدن شريط ساحل المتوسط ، وكانت اللاذقية بعد أنطاكية وطرابلس من أهم المسالح الساحلية الرومانية ، لانها ميناءاستراتيجي منذ أقدم العصور . كذلك من المدن أو المواقع الساحلية ذات الاهمية الثانوية التي بقيت بأيدي الروم بعد سقوط حلب ، طرطوس وجبلة وبانياس وتقع متقاربة مع اللاذقية على الساحل الشمالي .

فتح أنطاكية

وهكذا وبعد أن انتهى أبو عبيدة من السيطرة على مدينة حلب وأريافها وقراها اتجه نحو مدينة أنطاكية الواقعة جنوب غرب حلب ، والتي طالما اتخذها الملك هرقل مقراً له ، لأنها مدينة ساحلية مهمة ولأنها تقع مباشرة على حدود الإمبراطورية وذات هواء نقي جيد .

ولقد لجأ اليها خلق كثير من منطقة حلب ممن لم يرغبوا في البقاء في ذمة المسلمين ، أو تمكنوا هرباً من القتال الذي كان دائراً في حلب يوم فتح قلعتها .

وأثناء تحرك أبي عبيدة من حلب إلى أنطاكية اجتاح جميع القرى والأرياف في المثلث الواقع بين حلب وقنسرين وأنطاكية ، وقد دخل الجميع في ذمة المسلمين بعقد الصلح ، حيث لم يحاربوهم ، وهذا المثلث هو الذي يسميه مؤرخوا العرب بـ (العواصم) .

أما الجيش الرومي المرابط في مدينة أنطاكية ، فعندما بلغه سيطرة المسلمين على حلب وأنه آخذ في التحرك نحو أنطاكية استعد لمواجهة جيش الإسلام الزاحف نحوه .

وبعد أن قامت قوات أبي عبيدة بفرض سلطانها على المناطق الواقعة ما بين

حلب وأنطاكية وهي المسماة بالعواصم وصل إلى ضواحي المدينة العتيدة أنطاكية وشرع في فرض الحصار عليها .

وقبل أن يحدث أي صدام مسلح بين المسلمين والروم توجه زعماء أنطاكية إلى قائد الحامية الروماني وطلبوا منه أن يعقد صلحاً مع العرب ، إذ أن أية مقاومة مسلحة لهم سيكون مصيرها الفشل بعد سفك مزيد من الدماء التي ينبغي الحفاظ عليها ما دام أن النتيجة معروفة وهي استيلاء المسلمين على أنطاكية سواء سلماً أو حرباً لأن أنطاكية ليست أمنع من حلب وقلعتها العتيدة التي اقتحمها المسلمون ، ولقد أثرت كلمات وجهاء أنطاكية على قائد حامية أنطاكية فجنح للسلم وقبل التفاوض مع القيادة الإسلامية على أساس الصلح التقليدي المعروف وهو تسليم المدينة للسيادة الإسلامية شريطة أن تترك للنصارى كامل حريتهم في دينهم وتترك لهم جميع ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة وليس عليهم أن يعطوا المسلمين مقابل هذا السلام والأمان سواء الجزية وهي شيء ضئيل .. دينار واحد عن كل إنسان قادر على دفعه ولا فرق سوى كان متوسط الحال أو يملك الملايين، لأن هدف المسلمين ليس ابتزاز الأموال ، وإنما هدفهم تأمين الطريق لدعوة التوحيد لتأخذ سبيلها إلى قلوب من يريد اعتناقها بحرية وبدون إكراه .. أي أن قاعدة الدعوة الإسلامية .. أنه لا يجوز للمسلمين أن يكرهوا أحداً بقوة السلاح على الدخول في الإسلام . ولكن عليهم أن يقاتلوا من يريد (بالقوة) منع الناس من غير المسلمين من الدخول في هذا الدين .

مفاوضة تسليم أنطاكية للمسلمين

وبعد أن وقع قادة الحامية الرومانية تحت تأثير زعماء ووجهاء أنطاكية المدنيين أبلغ هؤلاء القادة قيادة الإسلام بأنهم يرغبون في التفاوض لعقد الصلح وإنهاء حالة الحرب ، وأنهم يرغبون في مقابلة القائد الإسلامي العام لإبرام الصلح ،

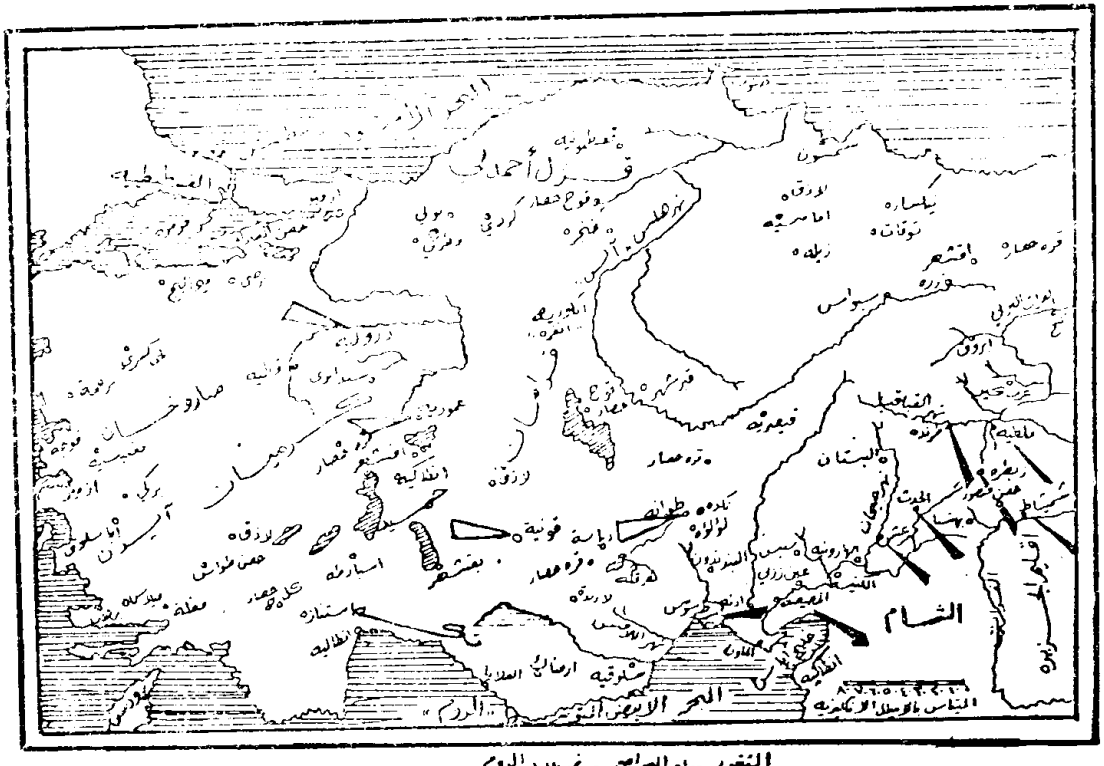

الثغور - او العواصم - في بلاد الروم

فرحب أبو عبيدة بهذا العرض وأبدى استعداده لمقابلة وفد من أهل أنطاكيـــة لعقد الصلح .

بعد ذلك خرج من أنطاكية وفد من كبار العسكريين الرومان والزعمـــاء الدينيين والمدنيين إلى معسكر المسلمين بعد أن حصلوا على الأمان الكافي .

وفي داخل المعسكر تمت المفاوضة بين الفريقين ، وانتهت بعقد الصلح بـين المسلمين وأهل أنطاكية ، وكانوا خليطاً من لاجئي حلب والبيزنطيين الأصليـين وسكان أنطاكية الذاتيين ، وكان الذي تولى إبرام المعاهدة عن أهل أنطاكيـــة زعيم ديني سياسي اسمه (بترك بن مرقص) ، وكان الصلح على أساس دفع الجزية وتمكين المسلمين من وضع أنطاكية وملحقاتها ضمن سلطانهم .

وقد اشترط المفاوض الروماني على المسلمين شرطاً قبل به المفاوض المسلم وهو . على المسلمين أن يمنحوا سكان أنطاكية الخيار بين أمور ثلاثة .

١ - إما أن يخرجوا إلى حلب .

٢ – أو يرجعوا إلى بيزنطا .

٣ – أو يبقوا في المدينة تحت سلطان المسلمين .

وقد سأل النازحون من حلب أبا عبيدة أن يسمح لهم بالعودة اليهـــا ففعل فرجعوا في حماية وأمن المسلمين آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

كما رغب البيزنطيون في الرحيل إلى بيزنطا ، فأجابهم أبوعبيدة إلى مارغبوا وسهل لهم مهمة رحيلهم بمنتهى الحرية وفي غاية الأمان .

أما سكان أنطاكية الأصليون من روم وعرب متنصرة فقد رغبوا في البقـاء في المدينة ، فسمح لهم أبو عبيدة فاستقروا بها آمنين في ظل حـــكم الإسلام على أرواحهم وأموالهم وذراريهم .

وفي بعض المصادر أن الذي تولى إبرام الصلح مع أهل أنطاكية (نيابة عن أبي عبيدة) هو القائد الشهير عياض بن غنم الفهري ، وأنه صالحهم على أن يدفعوا للمسلمين ثلاثمائة الف مثقال من الذهب ، ولربما اعتبرت بمثابة غرامة حرب قبل بها الأنطاكيون .

كرسي النصرانية

كان المسلمون يسمون أنطاكية (لما لها من أهمية عظمى) كرسي النصرانية.

وبعد أن فتح الله كرسي النصرانية أنطاكية على يد أبي عبيدة قالوا : كتب إلى الخليفة عمر يبشره بالفتح العظيم وجاء في كتابه هذا ..

« ان الله تعالى فتح علينا كرسي النصرانية مدينة أنطاكية وكسر الله عسكرها ونصرنا الله عليهم وهرب الملك هرقل في البحر ، واني لم أقم بها لطيب هوائها واني خشيت على المسلمين أن يغلب عليهم حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم » .

وفي بعض المصادر .. أن أبا عبيدة منع بعض المسلمين من التزوج من بنات الروم ، وقد أرادوا ذلك ، وكتب إلى عمر يستشيره ، فجاء الجواب من الخليفة يلومه فيه على محاولته ترك أنطاكية ليحرم المسلمين من التمتع بطيب هوائها وأمره بأن يسمح لغير المتزوجين من الجيش بالتزوج من الروميات أو التسري منهن إذا كن من الاماء المملوكات قائلاً :

« وأما قولك : انك راحل عن أنطاكية لطيبها فإن الله تعالى لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات . قال تعالى : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً [1] . وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات

---

(١) المؤمنون الآية ٥ .

ما رزقناكم واشكروا لله [1] الآية . فكان ينبغي لك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله، وأما قولك : إن العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج ، فمن أحب ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز ، ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه فإن ذلك أصون لفروجهم وأعف لنفوسهم » [2] .

أنطاكية تغدر وتنقض العهد

ويظهر أن أبا عبيدة وعياض بن غنم بعد أن اطمأنا إلى الوضع القائم في كرسي النصرانية (أنطاكية) سحبا معظم الجيش منها ليقوم بتطهير ما تبقى من جيوب ومدن لا تزال في الشام (وخاصة الساحل) في قبضة الجيش الروماني .

وقد وسوس الشيطان لأهل أنطاكية فاغتنموا فرصة غياب القوة الضاربة الإسلامية عن أنطاكية ، واستضعفوا الحامية التي خلفها أبو عبيدة ، فغدروا بالمسلمين ونقضوا الصلح ، وطلبوا المدد من القسطنطينية لعلهم يستطيعون الإحتفاظ بأنطاكية .

ولكن قائد جيش الإسلام العام كان أسرع من القسطنطينية ، فبمجرد أن تلقى نبأ غدر أهل أنطاكية وجه في الحال قوة قتالية لتأديبهم بقيادة قائدين شهيرين هما حبيب بن مسلمة وعياض بن غنم ، وكلاهما من بني فهر بن مالك القرشي .

فسارعت تلك القوة واقتحمت مدينة أنطاكية ، فلما أيقن الغادرون الروم

---

(١) البقرة الآية ١٧٢ .

(٢) الواقدي ج ١ ص ٢٠١ .

أن لا قبل لهم بهذه القوة الإسلامية القوا السلاح وأعلنوا الندم وطلبوا تجديد الصلح بينهم وبين المسلمين .

فلم يتردد القائدان حبيب وعياض في قبول عرض الروم فقبلوا اعتذارهم وأجابوهم إلى تجديد الصلح ، ودخلت قواتها المدينة وسيطرت عليها بعد أن نادت لأهلها بالأمان ، وكان الروم قد عهدوا في المسلمين الصدق والوفاء بالعهود فأمنوا واطمأنوا ، وعادت الأمور إلى مجاريها ، ولم يسفك دم في حملة التأديب هذه [1] .

الخليفة عمر يأمر باقامة حامية كبرى في أنطاكية

ولقد بلغ الخليفة عمر ما لجأ اليه أهالي أنطاكية من غدر حين نقضوا العهد ، فساءه ذلك وكتب إلى الأمير أبي عبيدة كتاباً يأمره فيه بأن يكون قوة كبيرة ويبعث بها إلى أنطاكية لترابط فيها بصورة دائمة تكون حامية متيقظة لأن أنطاكية مدينة ذات أهمية استراتيجية ، والبيزنطيون يحنون دائماً إلى الإستيلاء عليها لأنها كرسي النصرانية .

فقد جاء في كتاب الخليفة إلى أبي عبيدة .

« رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء » [2] .

ففعل أبو عبيدة وقام بإنشاء حامية كبرى في أنطاكية ، استقرت لوجودها وتيقظها الأوضاع ولم يعد أهل تلك المدينة يفكرون في التمرد على السلطة الإسلامية .

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٥ ،

وهكذا وبعد سقوط كرسي النصرانية في قبضة المسلمين أصبح هؤلاء المسلمين مرابطين على حدود الإمبراطورية البيزنطية ذاتها على طول الحدود الشمالية للشام من الجزيرة (ما بين النهرين) حتى أنطاكية على الساحل . وصارت قواتهم تهدد المدن والحاميات الرومية المتواجدة على الحدود داخل أراضي بيزنطا ذاتها .

أبو عبيدة يتحرك لفتح بقية مدن الساحل الشمالي ويستأذن لدخول حدود بيزنطا .

أثناء حديثنا في هذا البحث وعند السياق عن المعارك في منطقة قنسرين ذكرنا أن هناك قوتين للإسلام تعمل بالجنوب في فلسطين لفتح ما تبقى في أيدي الحاميات الرومانية من ومواقع على الساحل مثل قيسارية وغزة ورفح وقرقيسيا وما تبقى في الداخل مثل القدس والرملة واللد وتوابعها ، وأن الخليفة عمر عين على وجه الخصوص القائد الشهير يزيد بن أبي سفيان ليتولى مهمة فتح مدن الساحل الأوسط مثل بيروت وعرقة وجبيل وغيرها ، فتحرك يزيد بعدة آلاف من منطقة قنسرين نحو الهدف الذي حدده الخليفة وشرع في مباشرة مهمته في الوقت الذي تحرك فيه القائد العام بمعظم القوات في اتجاه حلب ،

أما عمرو بن العاص ، فقد بقي في الجنوب بفلسطين بعد فتح فحل وبيسان ونابلس ، ليتجه لمهاجمة قوات الروم المتواجدة في مدن الساحل الجنوبية (قيسارية غزة ، رفح) والمدن القريبة منها مثل المدينة المهمة ذات الموقع الاستراتيجي (إجنادين) التي يرابط فيها أدهى قادة الروم القائد الارطبون .

أما القائد العام أبو عبيدة بعد أن فرض سلطان الاسلام على كرسي النصرانية المدينة العظيمة (أنطاكية) ووضع عليها الحراسة الشديدة بالحامية التي أمره الخليفة بإقامتها فيها بصفة دائمة ، فكر في تنفيذ مشروعين حربيين اثنين ، والمشروعان هما :

١ قيام قسم من الجيش باجتياز حدود الشام وشن الغارات على صميم بلاد الامبراطورية البيزنطية ذاتها بقيادة بعض القادة الممتازين كي يرهبوا القسطنطينية ويبثوا الرعب في نفوس عظمائها المتغطرسين .

٢ – قيامه هو (أي أبو عبيدة) بالانحدار جنوباً للاستيلاء على ما تبقى للرومان من ثغور حربية على الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط ، مثل اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس ، وهي قواعد بحرية لا يستهان بها وخاصة مدينة اللاذقية وطرطوس .

واجتياز حدود الشام التي يسميها المؤرخون العرب (الدروب) يحتاج للحصول على اذن خاص من الخليفة لأنها من مدن الشام التي قد صدر الأمر الشامل بفتحها من الخليفة الأول .

ولذلك فإن الأمير أبا عبيدة (بالنسبة للمشروع الأول) كتب إلى الخليفة الثاني يطلب منه السماح له بأن يدفع بجزء من قواته عبر الحدود للاغارة على بلاد الروم ذاتها .

وقد تلقى أبو عبيدة من الخليفة الثاني الموافقة على اقتحام حدود الروم والتوغل داخل بلادهم فيما يسمى بالدروب .

فقد تلقى خطاباً من الخليفة يقول فيه .

« وقولك أنك منتظر أمري .. فالذي آمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب ، فإنك الشاهد وأنا الغائب ، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالأخبار ، فإن رأيت أن دخولك إلى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم بالسرايا وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك ، ومن طلب منك الصلح فصالحه ووف لهم بما تقدر .

وفي الحال نفذ أبو عبيدة مشروعه الأول ، فبعث بقوات كثيفة عبر الحدود الشمالية لتغير على الأراضي الرومانية ذاتها داخل آسيا الصغرى .

وكانت الدفعة الاولى من القوات التي أغارت على حصون الروم داخل بلادهم الاصلية بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي [1] .

فقد تحرك ميسرة (حسب أمر الامير أبي عبيدة) بقوات محدودة العدد تقل كثيراً عن القوات الرومانية والعرب الموالين لها ، واجتاز بها الحدود .

وما زال القائد ميسرة يتحرك بقواته داخل بلاد الروم نفسها بعد أن أدرب حتى وصل درب (بفراس) وهي مدينة تبعد عن أنطاكية حوالي أربعة فراسخ (١٦ ميلاً) وهناك وجد قوات رومانية مؤلفة من ثلاثين الفاً وهي خليط من الروم والعرب المتنصرة من غسان وتنوخ يربدون اللحاق بهرقل في القسطنطينية .

ولدى تقابل الفريقين ، نظر ميسرة إلى قوته ، فوجد أن الأعداء يتفوقون عليها في العدد عدة أضعاف ، ولكنه مع كل هذا التفاوت الهائل قام بمهاجمة العدو .

ودارت معركة طاحنة غير متكافئة ، وبدأ القتل يستحر في المسلمين لقلتهم وكثافة قوات عدوهم .

وعندما رأى ميسرة أن قواته متورطة إلى حد بعيد ، وأنه يخشى عليها الفناء أرسل في الحال فارساً إلى أبي عبيدة يخبره بتحرج الحالة ويطلب النجدة بسرعة لإنقاذ الموقف .

وفي الحال سارع أبو عبيدة فأرسل نجدة قوية لميسرة بقيادة مالك الملقب بالأشتر النخعي ، فوصل الدعم مكان المعركة وقوات ميسرة في أشد حالة الحرج حيث أخذت تتناقص بشكل مخيف لكثرة ما يسقط منها من قتلى .

---

(١) هو ميسرة بن مسروق العبسي . كان أحد التسعة الذين وفدوا على رسول الله (ص) . أسلم وحسن إسلامه . وقال للنبي (ص) . الحمد لله الذي استنقذني بك من النار . وكان له منزلة كبيرة عند أبي بكر . كانت له اليد الطولى في حروب الجهاد بالشام وخاصة في معارك الحدود الشمالية .

وهنا سارع الأشتر بالاشتراك مع ميسرة إلى شن هجوم مضاد على الرومان الذين كانوا من النصر النهائي بإبادة قوة ميسرة قاب قوسين أو أدنى .

فتغير الوضع لصالح قوات ميسرة ، ودارت معركة ضارية بين الفريقين .

وفي النهاية كتب الله النصر المؤزر لميسرة وقوة الدعم التي أرسلها أبو عبيدة وكان الأشتر من الشجعان المشاهير .

فقد كسب ميسرة والأشتر المعركة وخسرها الرومان والعرب المتنصرة الذين مزق المسلمون قواتهم (وعددها ثلاثون الفاً) شر تمزيق .

وفي معركة بفراس هذه (وهي أول معركة داخل حر الأراضي الرومية) غنم المسلمون غنائم عظيمة ، وعاد كل إلى قاعدته والبشر يعلو وجهه . أما الشهداء فقد دفنوا مكانهم في (بفراس) وكانوا عدداً غير قليل وأكثرهم من قوات ميسرة قتلوا قبل وصول الدعم بقيادة الأشتر .

وبعد نجاح حملة (بفراس) رغم الخسائر الجسيمة التي منيت بها قوات ميسرة استمر أبو عبيده في تجريد الحملات على الروم الذين عبروا الحدود منهزمين من الشام ، وكان الهدف من هذه الحملات ، تأمين الحدود بين الشام وبيزنطا ، بحيث يتمكن المحاربون المسلمون من تدمير قواعد الرومان القريبة من حدود الشام ، كي لا تكون هذه القواعد مصدر تهديد لبلاد الشام التي أصبحت ضمن ممتلكات الإسلام ، بعد أن كانت درة في تاج الإمبراطورية البيزنطية وسبحان الذي ينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

ولهذا كانت الوحدات الإسلامية المغيرة على حدود بيزنطا ، كلها كتب لها النصر في منطقة يخربون المدن والمواقع ذات الطابع العسكري أو التي يمكن أن يكون في بقائها تهديد لأمن الوجود الإسلامي في الشام .

خالد بن الوليد يهاجم الروم في بلادهم

لقد كانت عملية الإستيلاء على مدينـــة (بفراس) رغم الخسائر التي لحقت بجيش الإسلام ، عملية ناجحة أدخلت الرعب في نفوس الرومان وجعلتهم يشعرون بالقلق الشديد أكثر فأكثر ، فالعرب قـد نقلوا المعركة من مستعمرة الشام إلى بلادهم الأصلية (آسيا الصغرى) المسماة آنذاك (ببلاد الروم) .

كما أن نجاح عملية (بفراس) شجعت القيادة الإسلاميـــة على الاستمـــرار في تكرار إرسال الحمـــلات العسكرية لتتوغـــل داخل أراضي الامبراطورية البيزنطية .

فبعد إنزال المسلمين الهزيمة بالروم وحلفائهم العرب المتنصرة في مدينة التخوم (بفراس) جاء دور (مرعش) وهي حصن روماني ذو أهمية خطيرة ، ترابط به (منذ زمن طويل) قوات بيزنطية لأنه موقع استراتيجي بقـــاؤه في أيدي البيزنطيين ضروري لحماية حدودهم .

بعد إنزال تلك الهزيمة بالقوات الرومانيـــة الخليط في (بفراس) بعث أبو عبيدة بمجموعة قتالية بقيادة خالد بن الوليد إلى مدينة (مرعش) [1] لإخضاعها وتدميرها لأنـــه موقع استراتيجي روماني حربي من الممكن على الدوام أن

---

(١) مرعش بفتح أوله وسكون ثانيه ، مدينة من مدن الثغور بين الشام وبلاد الروم ، وقد سيطر عليها المسلمون وشحنوها بالمقاتلين .. لها سوران ويحيط بها خندق ، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . ثم أخذ الرشيـــد بعده سائر المدينة ، وبها ربض يعرف بالهارونية ، وهو مما يلي باب حصن الحدث . وقد ذكر مرعش شاعر الحماسة ، فقال :

فقد شهدت أم القديد طعاننا ... بمرعش خيل الأرمني أرنت
عشية أرمي جمعهم بلبانه ... ونفسي وقد وطنتها فاطمأنت
ولاحقة الأطال أسندت صفها ... إلى صف أخرى من عدي فاقشعرت

يكون مصدر تهديد لأمن المسلمين في بلاد الشام ، لأن مرعش هذه أيضاً تقع قريباً من حدود الشام .

وقد تقدم خالد بقواته فعبر الحدود قاصداً (مرعش) فصمم رجال حاميتها على الصمود في وجهه فامتنعوا بها وكانت حصينة ، ففرض عليها الحصار .

وقد أضر الحصار بالروم المحصورين فرأوا أن لا فائدة من المقاومة ، ففضلوا مصالحة خالد على اقتحامه المدينة عنوة لأن الإقتحام عنوة يعني مصادرة أموالهم وكل ممتلكاتهم وسبي نسائهم وذراريهم وأخذهم أسرى ليصبحوا عبيداً بموجب قانون الحرب في الإسلام وفي الأعراف السائدة آنذاك .

لذلك سارع أعيان مرعش فبعثوا إلى خالد من يفاوضه لإبرام الصلح بين الفريقين ، فقبل منهم خالد ، ولكن لا على دفع درهم ولا دينار وإنما على الجلاء كلياً عن مدينة مرعش بكامل أموالهم التي يقدرون على نقلها ، ولهم الحرية في أن يذهبوا إلى أي مكان شاءوا .

لأن هدف القيادة الإسلامية من غزو (مرعش) تخريبها كحصن روماني استراتيجي في بقائه تهديد لأمن المسلمين في الشام ، وهذا يدل على أن المال لا يحرص المجاهدون المسلمون على الحصول عليه في حروبهم وإنما هدفهم إعلاء كلمة الله وتقوية أجهزة القوات التي تحارب لإعلاء هذه الكلمة التي هي أعلى كلمة على الإطلاق .

وقد قبل أهل مرعش عسكريون ومدنيون شرط خالد فجلوا جميعهم عن المدينة ، وهنا قام خالد بتدمير المدينة حتى جعلها والأرض سواء ، كي لا يفكر الروم مرة أخرى في أن يجعلوها منطلقاً لأي هجوم يشنونه على المسلمين في بلاد الشام .

فتح الحدث [1]

وفي الوقت الذي كان خالد بن الوليد يقوم فيه بتدمير مسالح (مرعش) كان القائد الشهير والفاتح المشهور حبيب بن مسلمة الفهري (وبأمر من أبي عبيدة) يتحرك بمجموعة قتالية محدودة إلى موقع استراتيجي حربي روماني آخر على الحدود يقال له (الحدث) .

وذكر ابن الأثير في الكامل أن المسلمين أطلقوا على ذلك الموقع اسم (الحدث) وذلك لأن شاباً حدثاً صغيراً من الروم تصدى فيه وقاد الروم في الحرب وقاوم المسلمين مقاومة شديدة ، يسانده مجموعة في مثل سنه من الأحداث ، وكان الأمويون يسمون هذا الدرب .. درب السلامة .

وعندما هاجم القائد حبيب بن مسلمة حصن الحدث لقي مقاومة عنيفة من حاميتها ، ودارت معركة شرسة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين ، ولكن النصر في النهاية كان للمسلمين على الروم رغم البسالة التي أبدوها في المقاومة ، فقد تمكن حبيب بن مسلمة في النهاية من تطهير موقع (الحدث) من القوات الرومانية وتمت للمسلمين السيطرة على هذا الموقع الهام .

ماذا تعني حرب الحدود

لقد كانت حرب الدروب التي كان يشنها المسلمون في الشام تعني نهاية الوجود

---

(١) الحدث .. بالتحريك والفتح ، قال ياقوت : قلعة (رومانية) محصنة بين ملطية وسميساط ومرعش .. من الثغور ، وقلعتها على جبل يقال له : الأحدب . قال : وكان الحسن بن قحطبة قد غزا الثغور وأشح العدو ، فلما قدم على المهدي وأخبره بما في بنـاء طرسوس والمصيصة من المصلحة للمسلمين . فأمر ببناء ذلك ، وأن يكون بالحدث وذلك في سنة ١٦٢ هـ وفي كتاب احمد ابن يحيى بن جابر .. كان حصن الحدث مما فتح في أيام عمر . فتحه حبيب بن مسلمة الفهرى من قبل الأمير عياض بن غنم . وكان معاوية يهتم به كثيراً ويتعاهده بعد ذلك ، وكان بنو أمية يسمون درب الحدث .. درب السلامة .

الروماني في الشام ، وتعطي الروم الدليل العملي أن المسلمين قادرون على نقل المعركة إلى داخل بلاد الروم نفسها ، فضلاً عن قدرتها على حماية حدودها مع بيزنطا من أية محاولة غزو للشام قد تفكر فيه هذه الإمبراطورية ، فقد أصبح المسلمون بعد سيطرتهم على اكثر مدن وحصون ومسالح الشام في مركز القوة وكانوا سادة الموقف على الحدود

لقد كانت القيادة الإسلامية في الشام (بعد سيطرتها على الشام الأوسط والشمالي كله) حريصة كل الحرص على تأمين الدروب ما بين الشام ودولة بيزنطا ، كي تتفرغ قواتها لتطهير ما تبقى من مدن ومواقع في الشام يتواجد فيها الرومان العسكريون .

ومن باب مساندة القيادة في الشام لضرب سياج يمنع البيزنطيين من المحاولات للعودة إلى الشام ، كانت القيادة الإسلامية في الثغور العراقية في الجزيرة (ما بين النهرين) .. كانت (في الوقت الذي تقوم قوات الشام بتأمين الحدود وحمايتها) تقوم هي من ناحيتها بنفس العمل لتطهير الدروب مما يليها من الوجود الروماني العسكري .

فحسب رغبة القيادة العليا تحركت من الكوفة بالعراق مجموعة قتالية كبيرة إلى الثغور العراقية البيزنطية المتاخمة للشام في الجزيرة ، وذلك بقيادة عمر بن مالك حتى وصلت قرقيسيا وعبرت الحدود إلى بلاد الروم مما يلي الجزيرة كما تحركت لنفس الغرض نفسه ومن الشمال الشرقي (الموصل) مجموعة قتالية أخرى بقيادة عبد الله بن معتم [1] ، فتوغلت هذه القوة في بلاد الروم مما يلي

---

(١) هو عبد بن المعتم كان من أركان حرب سعد بن أبي وقاص في القادسية ، وكان قائداً ممتازاً ومحارباً فذاً . بعث به الأمير سعد إلى تكريت في العراق واسنده بعرفجة بن هرثمة ، وربعي بن الأفكل . وكان في تكريت جمع من الروم فهزمهم وفتح تكريت ، وارسله سعد إلى نينوى والموصل ففتحها ،

الجزيرة قريباً من حدود الشام لتطهير أي موقع حربي على الحدود من العنصر الروماني المسلح ، وقد نجح الجميع في تطهير الحدود من الوجود الروماني العسكري على امتداد الحدود من الجزيرة في شمال العراق شرقاً حتى أنطاكية في الشام غرباً . وقد وصلت بعض القوات الإسلامية المغيرة من الشام عبر حدود بيزنطا إلى مسافة قريبة من أنقرة عاصمة آسيا الصغرى التي كانت تسمى يوم ذاك بلاد الروم .

وقد امتلأت قلوب الرومان رعباً من تلك العمليات السريعة الخاطفة التي قام بها القادة خالد وحبيب وعمر والأشتر وميسرة عبر الحدود ، فخافوا خوفاً شديداً من المسلمين ، وخاصة بعد أن وصلت بعض وحداتهم في مطاردتها الروم حدود أنقرة .

وهكذا لم تنته السنة الخامسة عشرة هجرية إلا وقد صارت جيوش الإسلام ترعب الإمبراطورية البيزنطية وتجوس داخل أراضيها تدمر حصونها وتنسف مواقعها الحربية ، وذلك بعد أن يئس الملك هرقل من الدرة اللامعة التي اقتلعها المسلمون من تاج بيزنطا وهي الشام ، فغادرها إلى غير رجعة [1] ،

أبو عبيدة يتفرغ لفتح المدن الساحلية الشمالية

وهكذا وبعد أن نجحت عمليات الحدود التي قامت بها الوحدات الاسلامية تحت إشراف القائد العام أبي عبيدة بن الجراح ، وبعد أن دمر المواقع الرومانية التي يمكن أن تكون منطلقاً لغزو الشام من قبل الروم ، وبعد أن أقام على الحدود من المقاتلين مفارز لمراقبة الحدود بين الشام وآسيا الصغرى لحمايتها قرر التحرك بنفسه على رأس قواته الرئيسية نحو الجنوب على الشريط الساحلي تلقاء البحر الأبيض المتوسط في المنطقة الشمالية للقضاء على الحاميات الرومانية

---

(١) انظر فن الحرب لبسام العسلي ص ١٥٧ والواقدي، ج ٢ ص ٢ وما بعدها .

التي لا تزال ترابط في بعض المدن الاستراتيجيـــة البحرية ، مثل اللاذقيـــة وطرطوس وجبلة وبانياس ، وهي مسالح متقاربة أهمها مدينة اللاذقية التي ترابط فيها أقوى وأكثف الحاميات الرومانية .

ففي السنة الخامسة عشرة هجرية تحرك أبو عبيدة من منطقة أنطاكية نحو الجنوب لتطهير تلك المدن والموانيء من الحاميات الرومانية كي تتصل قواتـه بالقوات الاسلامية العاملة لتطهير الساحل الاوسط والتي يقودها يزيـــد بن أبي سفيان يسانده أخوه معاوية وذلك في منطقة بيروت وعرقة وجبيل وقرقيسيا، والقوات الاخرى التي يقودها عمرو بن العـــاص لتحرير إجنـــادين وغزة وقيسارية ورفح وغيرها .

فتح اللاذقية [1]

وكان أول عمل يقوم به أبو عبيدة جنوب أنطـاكية علي الشريط الساحلي

---

(١) اللاذقية بكسر الذال والقاف . قال ياقوت في معجمه . مدينة عتيقة رومية الأصل ، فيها أبنية قديمة مكينة . قلت ولا تزال الآثار الرومانية ظاهر في كل مكان منها .. وهي على ساحل البحر الأبيض المتوسط .. طيبة الهواء قال بطليموس في كتابه (الملحمة) : مدينـــة اللاذقية طولها ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة . وعرضها ثمان وثلاثون درجة وست دقائق ، في الاقليم الرابع . وهو بلد حسن في وطأ من الأرض ، وله مرفأ جيد وكانت لها قلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض . والبحر على غربيها وهي على ضفته ، وكانت تعد في عمل حمص ، وهي غربي جبلة ، بينهما ستة فراسخ . وهي الآن (أي في عصر ياقوت) من أعمال حلب. وقد ذكرها المتنبي في شعره الحربي فقال :

ويوم جلبتها شعث النواصي	معقدة السائب للطراد
وحام بها الهلاك على أناس	لهم باللاذقية بغي عاد
وكان الغرب بحراً من مياه	وكان الشرق بحراً من جياد

ولما كانت اللاذقية في زمن الملحد المعري بيد الروم بها قاض وجامع وخطيب ومؤذن وكنائس إذ أتى المسلمون ضرب الروم النواقيس كيداً لهم . فقال الملحد المعري : ==

محاولة الاستيلاء على مرفأ اللاذقية ، فقد كانت هذه المدينة ثغراً استراتيجياً من أهم الثغور التي يستخدمها الاسطول الروماني في الحرب والسلم ، وبالاضافة إلى أهميتها من هذه الناحية ، فقد كانت مدينة استراتيجية حصينة من الناحية الحربية ، إذ تقع على مرتفع من الارض ، وتحيطها وديان عميقة منخفضة من الجهات الثلاث ، والبحر من الجهة الرابعة وهي جهة الغرب .

وعندما وصل أبو عبيدة منطقة اللاذقية وجد بها قوة ضاربة للرومان ،لانها كانت من الموانيء الرئيسية التي توافيه السفن البيزنطية في كل وقت وحين ، وكانت المدينة ذات تحصينات طبيعية ويحيطها سور بني بتخطيط من أدمغة عسكرية للدفاع عن المدينة الحصينة ذاتياً ، مما جعل بعض الصعوبات تواجه أبا عبيدة أثناء محاولته تحريرها .

وقد صمم القائد الروماني المسؤول عن الحفاظ على هذا الميناء الاستراتيجي الهام .. قرر محاربة الغزاة المسلمين المجاهدين والصمود في وجههم ، معتمداً على حصانة المدينة الذاتي وعلى السور المنيع والابواب المحكمة التي أقيمت بقصد الدفاع عن المدينة ضد أي غزو خارجي من أقدم العصور .

وبعد أن حطت القوات الاسلامية رحالها قام المختصون من الجيش بتفقد المدينة وتحصيناتها تمهيداً للهجوم عليها ، وبعد تشاور مع هيئة الاركان والخبراء العسكريين رأى القائد أبو عبيدة أنه من الصعب ومن غير المجدي مهاجمة اللاذقية

= في اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق والشيخ من حنق يصيح

يعني بذلك الأذان .. قلت ومنطقة اللاذقية جيدة الهواء ، وبها اليوم عدة مصايف ، من أهمها كسب والحفة وغيرهما ، وأهلها أناس طيبون لهم معاملة حسنة وخاصة للغريب .. ومن مميزاتها أنك لا ترى في الشارع انساناً يمشي بعد الساعة الواحدة ليلاً وأكثرية أهلها محافظون جداً رغم أنها مدينة سياحية .

هجوماً مكشوفاً ، لان هذا الهجوم قد يفشل لحصانة المدينة ومناعتها وإن نجح فستكون الخسارة فادحة في جانب القوات الاسلامية .

إذن لا بد من اللجوء إلى الحيلة من أجل الاستيلاء على المدينـــة ، كي تتم السيطرة عليها دونما خسارة تذكر ، فقادة الجيوش الاسلامية تمسكاً بتعـــاليم الخليفة عمر بن الخطاب لا يرون شيئاً أغلى من حياة الجندي المسلم المجـــاهد ولهذا فهم يحافظون على حيـــاة المجاهدين أشد المحافظـــة ، كما هي أوامر الخليفة الفاروق .

سلاح الفرسان واقتحام اللاذقية بالحيلة

لذلك عدل أبو عبيدة عن عملية اقتحام اللاذقية في هجوم مكشوف، وقرر اللجوء إلى الحيلة لفتح هذه المدينة العتيدة حفاظاً على أرواح جنده .

كان الجيش الاسلامي بعد انتصاراته المتتالية في الشام تعـــاظم فيه سلاح الفرسان تعاظماً كبيراً ، فصار من أقوى الاسلحة التي يعتمد عليها الفاتحون المسلمون ، وكان العربي بطبعه ومنذ نشأته في صحرائه الواسعة أحب شيء اليه من المقتنيات الخيل ، وعندما دخل المسلمون في غمار الحروب مع الفرس والرومان صاروا يعتنون أشد الاعتناء بهذا العنصر الشريف (الخيـــل) ، لان سلاح الفرسان صار دائماً عند المسلمين (بل وعند غيرهم) رأس الحربة في كل هجوم يقومون به أثناء جهادهم .

من هذا المنطلق قرر أبو عبيدة أن يجعل سلاح الفرسان عدته الرئيسية لافتتاح المدينة عن طريق اقتحام الفرسان لها ولكن بعد نجاح الحيلة التي رسمها والتي تيسر للفرسان (دونما أي عناء يذكر) دخول اللاذقية والسيطرة عليهـــا على حين غفلة من المسؤولين عن الدفاع عنها من الرومان .

والحيلة أو الخدعة التي لجأ اليها أبو عبيدة (توفيراً لارواح جنده من أن

تزهق في هجوم مكشوف) هو أنه أثناء الحصار، أمر الجنود بأن يحفروا حفراً عميقة واسعة ، بحيث تتسع الحفرة الواحدة للفارس وفرسه وتخفيهما عن الأنظار تماماً . فسارع الجنود إلى تنفيذ أمر القائد العام وشرعوا في حفر هذه الحفر ، فانتشرت وبأسلوب هندسي متقن حول اللاذقية ، وقد تم حفرها (على مايبدو) في ظلام الليل ، وقد نجحت القيادة الإسلامية في إخفائها والاتخاذ من أساليب التمويهات ما يحول بين الرومان واكتشافها .

وبعد أن انتهت عملية الحفر والتغطية والتمويه بشأن هذه الحفر ، وقدر الأمير القائد أبو عبيدة أن عددها كاف لإخفاء ما يحتاجه من فرسان أعدهم للهجوم الفجائي الذي قرر عن طريقه اقتحام المدينة بعد اطمئنان أهلها وخروجهم منها إلى حقولهم ومزارعهم واعتقاد رجال الحامية الرومان أن المسلمين عجزوا عن اقتحام المدينة ويئسوا من ذلك ، أمر جميع قواته في وضح النهار على مرأى من الرومان بالانسحاب والتراجع متظاهراً بفك الحصار عن اللاذقية والرحيل لمهاجمة غيرها من المواقع الأخرى .

نجاح الحيلة واحتلال المدينة دونما إراقة قطرة دم

وقد تم انسحاب جيش أبي عبيدة الموهوم عند حلول المساء ، وقد نجحت الحيلة نجاحاً كاملاً ، فقد اعتقد المدافعون عن اللاذقية أن قوات الإسلام التي كانت تفرض الحصار قد يئست من التغلب على حامية المدينة ففكت الحصار وانسحبت إلى غير رجعة .

غير أن الفرسان المسلمين المكلفين بتنفيذ عملية الإستيلاء الأولي على المدينة عادوا تحت ستار الظلام وعمدوا إلى التمركز بخيلهم واختفوا في الحفر العميقة الواسعة التي حفرت خصيصاً لهم ، بينما اختفت تحت ستار الليل القوات

الرئيسية بقيادة أبي عبيـــدة في أحد الأودية القريبة من المدينـــة ، وبقيت متوارية عن الأنظار .

ولما لم ير أهل اللاذقية مدنيون وعسكريون الصباح التـــالي أي أثر لقوات المسلمين اطمأنوا إلى أن المسلمين انسحبوا تماماً بعد أن يئسوا من اقتحام المدينة ، ففتحوا أبواب اللاذقية وخرجوا في الصباح إلى حقولهم ومزارعهم وركن المحاربون إلى الراحة . بعد أن اطمأنوا إلى أن المسلمين عدلوا عن مهاجمة المدينة .

وكانت استخبارات أبي عبيدة ترقب ما يجري ، وقد أبلغته أن أبواب المدينة فتحت وخرج النـــاس منها إلى الحقول والمزارع ، والمحاربين في حالة غفـــلة واطمئنان وغير متوقعين أي هجوم من قبل المسلمين على اللاذقيـــة ، وأنها قد نجت من الحرب .

وهنا أصدر أبو عبيدة إلى الفرسان المختفين في الخنادق أمره بأن يشنوا على المدينة هجوماً صاعقاً وسريعاً بحيث لا يعطي أية فرصة للمقاومة ، على أن يتبعهم بعامة الجيش فتتم السيطرة للمسلمين على البلدة .

وفي الحال انطلق الخيالة من خنادقهم القريبة من اللاذقية وشنوا حرباً صاعقة على اللاذقية فاقتحموا الأبواب التي كانت مفتوحة ، فلم يشعر الرومان إلا وفرسان المسلمين يجولون بخيلهم وسط اللاذقية يتبعهم باقي الجيش من المشاة وبقية الخيـــالة وراكبي الجمال ، فأسقط في أيدي حامية اللاذقية لا سيما أن خيالة المسلمـــين لم يتركوا لهم أية فرصة للمقاومة .

وهنا سارعوا إلى طلب الصلح من المسلمين ، حيث لا نجاة لهم بدونه ، فبعثوا على جناح السرعة إلى القائد العام أبي عبيـــدة من يطلب باسم أهل اللاذقيـــة الصلح ، فاستجـــاب لهم أبو عبيدة ، وأمر كافـــة قطاعات الجيش التي قد

دخلت المدينة أن توقف القتال ، لأن الرومان القوا السلاح وتوقفوا عن المقاومة وطلبوا الصلح .

وبعد مفاوضات قصيرة تم عقد الصلح بين الفريقين ، أصبحت اللاذقية بموجبه مدينة إسلامية ، وسكانها النصارى من عرب وروم الذين اختاروا البقـــاء على دينهم في ذمة المسلمين وأمانهم على أن يدفعوا للمسلمين الجزية كاعتراف بخضوعهم لسلطان الإسلام مع بقائهم أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية واحتفاظهم بجميع ممتلكاتهم واللاذقية تأتي في المنزلة والأهمية الاستراتيجية البحرية بالنسبة للأسطول الروماني في الشريط الساحلي بعد الأنطاكية من بين مدن الشمال .

وقد كان وقوع اللاذقية في قبضة المسلمين مقدمة حتمية لسقوط الثغور التابعة للاذقية (بانياس وطرطوس وجبلة) لأنها ليست أقوى من اللاذقية .

بعد أن سيطر أبو عبيدة على مرفأ اللاذقية بنى بها مسجداً ، ولم يمس كنائس المسيحيين ومعابدهم عملاً بأوامر الإسلام حيث جاء في كتابه الخالد (لا إكراه في الدين) فالمسيحي إذا أعطى الجزية وقبل نظام الإسلام العادل ، حرم الله على المسلم المنتصر أن يمس هذا المسيحي في نفسه أو ماله أو ذريته أو أهله بسوء، بل عليه (فرضاً واجباً) أن يحميه ويكفل ويوفر له الأمن والاستقرار .

وبعد أن استقرت الأوضاع في اللاذقية ، اتجه الأمير أبو عبيدة إلى ما تبقى من مواقع وثغور بحرية مجاورة ليتولى تطهيرها من الروم .

فاستدعى الصحـــابي الجليل الشهير عبادة بن الصامت وعينـــه أميراً على اللاذقيـــة لإدارة شؤونهـــا نيابة عنه وأقام مجموعة من العرب المسلمين معه في المدينة .

وكانت الدعاية الرومانية التي تذيعها الاستخبارات الرومانية تصور المسلمين

كأنهم وحوش لا يحتمل غيرهم البقاء والعيش معهم ، ونتيجة للتأثر بهذه الدعاية هرب كثير من الروم والعرب المتنصرة عن طريق البحر إلى بيزنطـــا خوفاً مما صورته لهم الدعاية المغرضة أنه بطش سينالهم من المسلمين الفاتحـين ، حتى أنهم تركوا أموالهم وديارهم نجاة بأرواحهم مما يظنون أنه سيـــنزل بهم من إبادة من المسلمين عقب استيلائهم على اللاذقية .

ولكن هؤلاء الذين هربوا من اللاذقية على تلك الصورة المستعجلة إلى بـلاد الروم من عرب ومتنصرة ، عندما استقروا في بلاد الروم بعيـــدين عن ديارهم ومسقط رأسهم وأملاكهم بلغتهم حقيقة ما عليه المسلمون من رحمـة بالمنهزمين وتسامح مع المهزومين الذين يقبلون الدخول في عهدهم وذمتهم ، شرعوا في العودة إلى اللاذقية لأنها بلادهم فتلقاهم المسلمون الفاتحون المنتصرين بصدور رحبـــة ومنحوهم الأمان الذي لم يروا مثله حتى في عهد الذين كانوا وإياهم على دين واحد وهم البيزنطيون .

فقد أعادوا اليهم مزارعهم وديارهم وكل ممتلكاتهم على أن يدفعوا الجزية التي لا تنقصهم من أموالهم شيئاً والتي يسهل على أفقرهم أن يدفعها وهي دينار رأس كل سنة يدفع الفرد المسيحي للمسلمين . ثم تبقى له الحرية الكاملة في التصرف فيما يملك ولو بلغت أمواله الملايين .

وطالما تحدث المؤرخون عن أهمية مدينة اللاذقية من الناحية الحربية ، حيث أنها ثغر بحري هام بالنسبة لمن يحكم الشام ، وكانت من أقرب الثغور البحريـــة إلى مملكة بيزنطا ، فكان الحاكمون للشام يخشون أن يحاول الرومان القيام بإنزال مشاة بحريتهم فيها ليشنوا بهم الهجوم على بعض نواحي الشام .

ولذلك فقد ذكر المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان لما تولى إمارة الشام في

عهد عمر وعثمان ثم آلت اليه الخلافة أدخل تحسينات حربية كبيرة على ميناء اللاذقية ، فبنى عليها سوراً خارج الحصن الروماني ، وجلب اليها قطعات كبيرة من الجيش ، ظلت مرابطة بها على الدوام وعلى يقظة تامة ، لأن معاوية كان يخشى الإنزال البحري من قبل الرومان عن طريق الأبيض المتوسط .

وكان معاوية قد حكم الشام أربعين سنة .. عشرين سنة أميراً عليها لعمر وعثمان .. وعشرين خليفة بعد عام الجماعة الذي اغتال فيه الشقي ابن ملجم الملعون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، واستخار الله خليفته من بعد ابنه الحسن فصالح معاوية بالتنازل له عن الخلافة ، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم، وكان العام الذي بويع فيه الخليفة معاوية يسمى عام الجماعة ، لأن كلمة المسلمين اجتمعت على معاوية بعد انتهاء تلك الحروب المؤسفة واستقرار الأوضاع رغم المعارضات السياسية التي ظلت قائمة ولكن دونما إشهار سيف ، فتحملها معاوية ولم يسفك لإسكاتها دماً ، بل كان يسمعها بإذنه وفي مجلسه من المسلمين الذين كانوا قد قاتلوا في جانب علي قتالاً صادقاً مخلصاً مثل قيس بن سعد بن عبادة والأحنف بن قيس الذي قال لمعاوية مرة في مجلسه معلناً عن استمرار ولائه لأمير المؤمنين علي – (ان القلوب التي أبغضناك بها يا معاوية لبين جنوبنا والأسياف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا والله لئن مشيت الينا شبراً مشينا اليك بها ذراعاً) فلم يعاقبه على كلامه هذا بأي نوع من أنواع العقاب . ومثل كلام الأحنف كثير ، كان يسمعه معاوية فلا يعاقب عليه ما دام مجرد كلام ، وهذا يعني أن معاوية كان قد منح الشعب الديموقراطية التي يتشدق بها الغرب اليوم قبل ١٤ قرناً .

احتلال طرطوس [1] بانياس [2] جبلة [3]

وبعد أن نظم عبادة بن الصامت أمير اللاذقية الأمور وأقام الإدارة المدنية

---

(١) طرسوس بفتح أوله وثانيه . كلمة أعجمية ورومانية . ولا يجوز سكون الراء في الشعر (ضرورة) ح . قال ياقوت : سميت بطرسوس بن الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام .. وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم وبينها وبين أذنة ستة فراسخ . وفي عهد ياقوت في القرن الخامس الهجري ، عليها سوران وخندق واسع . ولها ستة أبواب ، ويشقها نهر البردان . وبها مات المأمون بن الرشيد وهو غازياً . فقال الشاعر يدعو إلى الاتعاظ بموت أعظم خليفة عباسي فيها .

هل رأين النجوم أغنت عن المأ ... مون في عز ملكه الماسوس
غادروه بعرصتي طرسوس ... مثلما غادروا أباه بطوس

وكان أبوه الرشيد مات أيضاً غازياً بسرطان الكلي في طوس ..

كان معاوية منذ توليه الامارة في الشام ثم الخلافة يتعهد طرسوس بالتحصين .. وكانت من أهم الثغور الشامية ، وكان طلاب الجهاد في سبيل الله يقصدونها للغزو .. وظلت تحت سلطان المسلمين إلى سنة ٣٥٤ هـ حين خرج ملك الروم نقفور فاستولى عليها مع المصيصة وبقية الثغور ، وذلك في عهد سيف الدولة بن حمدان .. وقد سلمها جيش المسلمين لنقفور على الصلح والأمان وعلى أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض .. إلا أن الطاغية نقفور اشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأنه من أراد المقام من المسلمين بها فعليه الجزية . وإن تنصر فله التكريم . قال : فتنصر خلق كثير والعياذ بالله تعالى . وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام . وأحرق نقفور المصاحف وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان يجمع من أيام بني أمية . لأن طرسوس كانت مستودعاً للسلاح في عهد الامويين الذين كان عهدهم أقوى العهود ضد الأعداء عسكرياً .. ومن المؤسف انه في هذه الفترة التي حدثت فيها فاجعة سيطرة الروم على طرسوس اهم الثغور الإسلامية كان سيف الدولة وكل ملوك المسلمين كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين . فعطلوا هذا الثغر فنعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده .

(٢) لم اجد لبانياس وصف لا في معجم ياقوت ولا في مراصد الاطلاع . مع انها ثغر من اهم الثغور الإسلامية . وتكرر ذكرها في ذكر الحروب بين الروم والمسلمين عبر العصور .

(٣) جبلة .. بفتح اوله وثانيه .. قال الحموي : قلعة مشهورة بساحل الشام من اعمال حلب قرب اللاذقية وقد جلا منها الروم عندما فتح المسلمون حمص. قال وبنى معاوية بمنطقة جبلة=

فيها ، ورتب بها الحامية العسكرية قرر تحرير الثغور الثلاث المتبقية والتي تعتبر امتداداً لمرفأ اللاذقية الرئيسي وهي (طرطوس ، بانياس ، جبلة) .

كانت هذه الموانيء لا تزال بأيدي البحرية الرومانية ، ولكن عزائم حامياتها إنهارت بعد أن بلغها سيطرة المسلمين على ميناء اللاذقية الكبير ، فقرروا الهرب منها . قبل وصول وحدات الجيش الإسلامي .

اتجه عبادة أولاً بمفرزة من الجيش نحو جبلة ، وكان جميع رجال حاميتها من الرومان ، فلما وصلها وجد أن أهلها قد جلوا عنها جميعاً بطريق البحر إلى بلاد الروم عقب علمهم بسقوط ميناء اللاذقية الأم ، فاستولى عليها ، ثم ترك بها حامية صغيرة لحفظ الأمن والمراقبة .

ثم وجه قوة أخرى نحو طرطوس وبانياس وكلاهما متقاربتين ، فوجدهما أيضاً خاليتين من أية قوة عسكرية للعدو ، لأن حامياتها العسكرية (أيضاً) انسحبتا عبر البحر بعد علمها بوقوع مرفأ ومدينة اللاذقية في قبضة الجيش الإسلامي .

فسيطرت قوات عبادة بن الصامت على طرطوس وبانياس بدون أي قتال شأنها شأن جبلة ، وبهذا الاستيلاء تمت لجيش أبي عبيدة السيطرة الكاملة على

حصناً خارجاً من الحصن الرومي القديم ، لأنه كان في الحصن القديم رهبان نصارى يتعبدون على دينهم ، وقد تحولت جبلة إلى بلدة وازدهرت في عهد الإسلام ، وظلت بأيدي المسلمين من سنة ١٧ هـ إلى سنة ٣٥٧ هـ حيث اخذها الروم فيما اخذوا من الثغو المجاورة لها . ولم تزل بأيدي الروم حتى سنة ٤٧٣ هـ حتى ثار على الروم بها قاضي المسلمين بها ابو محمد عبد الله بن منصور التنوخي المعروف بابن ضليعة ، واعانه في ذلك قاضي طرابلس جلال الدين ابن عمار صاحب طرابلس . فأخرج من بها من الروم ونادى بشعار المسلمين . فانتقل من كان بها من الروم إلى طرابلس فأحسن ابن عمار اليهم وفي سنه ٥٠٢ هـ استعادها الفرنجة من ايدي المسلمين إلى أن جاء البطل صلاح الدين الأيوبي فأعادها إلى سلطان الإسلام سنة ٥٨٤ .. قلت واسم جبلة لعدة مواضع كثيرة اخرى .. انظر معجم ياقوت ج ٢ حرف الجيم

الثغور البحرية الشمالية التي كانت أقرب الثغور إلى الأراضي البيزنطيـــة وهي (أنطاكية ، جبلة ، طرطوس ، بانياس) وكان الرومان لهذه الميزة (هي قرب هذه الموانيء من بلاد الروم الأصلية) قد حصنوا هذه الموانيء وأقاموا بصفـــة دائمة بها مسالح قوية وحصوناً منيعة لا تزال آثارها باقية يراه من يمر بهـــا حتى اليوم ، وأنشئت قلاعاً حربية حولها لا تزال قائمة على الجبال حتى اليوم .

معاوية يهتم عسكرياً بالثغور البحرية هذه

ولما كانت طرطوس وبانياس وجبلة تشكل مع اللاذقيـــة سلسلة من الثغور البحرية الإستراتيجية بالنسبة لمن يحكم الشام ، وأن تحصينها وإقامة المنشئـات الحربية بها أمر مهم وضروري لأمن الشام كلها ، لأنها أقرب الثغور البحريـــة للروم ، قام الخليفة معـــاوية في عهده بالاعتناء بها ، فأقام بها شبكات دفاعية قوية ، شحنها بالمقاتلين بصفة دائمة ، تحسباً لأية غارة مفاجئة يقوم بها الأسطول الروماني على الشام .

وكانت هذه التحصينات التي أقامها معاوية في هذه الثغور أدت أجل الخدمات للإسلام والمسلمين ، إذ كانت بمثابة محطات إنذار مبكر تنذر من يحكم الشام إذا ما تعرض لنية غزو من قبل البيزنطيين .

وكم تلقى معاوية في عهده من حاميات هذه الثغور إشارات تنذره بأن هناك تحركات للروم تنوي غزو الشام لاسترجاعه فيستعد لمواجهتهم .

وعندما نشب الصراع الدامي المؤسف بينه وبين أمير المؤمنين علي في صفين عقب مقتل عثمان ، طمع ملك الروم في استعادة الشام من المسلمين ، مستغـــلاً فرصة الإختلاف الدامي بين الفئتين المسلمتين .

وبلغ معاوية ما ينويه ملك الروم بهذا الصدد ، فوجه اليه إنذاراً شديـــداً يقول فيه ما معناه : « لا يغرنك ما بيني وبين ابن عمي من خلاف ، إنه إن بدرت

منك بادرة غدر للتحرك نحو بلادنا ، فإني سأضع يدي في يد ابن عمي وناتيك سوياً في جيش أوله عندك وآخره في منابت الزيتون بالشام .

وكان ملك الروم يخاف معاوية خوفاً شديداً لما عرف عنه من دهاء ومكر وشجاعة وبعد نظر وقدرة على حبك الحيل والمكائد لأعدائه ، فأقلع ملك الروم عن فكرة الزحف إلى الشام وبعث إلى معاوية يتودد اليه بالهدايا كتعبير عن حسن الجوار والإلتزام بما بينهما من معاهدة .

فتح المحور الأوسط من ساحل الشام

في الوقت الذي كان فيه أبو عبيدة يحارب في الشمال من أجل تحرير المدن الشمالية الساحلية منها وغير الساحلية ، ومنذ سيطرته على قنسرين كان هناك محوران يحارب فيهما جيشان للاسلام .. محور في الساحل الأوسط ، وقد كلف بتحريره الأمير يزيد بن أبي سفيان .. والمحور الجنوبي ، وكلف بتحريره الأمير عمرو بن العاص يسانده الأمير شرحبيل بن حسنة . وكان تحركهما من منطقة فحل وبيسان ونابلس بفلسطين .

ولنتحدث الآن إن شاء الله عن عمليات الأمير يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية في المحور الأوسط من الشريط الساحلي على الأبيض المتوسط ، ثم بعد ذلك نتحدث عن عمليات الأمير عمرو بن العاص في المحور الجنوبي والأخير إن شاء الله .

ففي السنة التي تم فيها تحرير مقاطعة قنسرين قبل حلب وهي السنة الخامسة عشرة هجرية صدر مرسوم من الخليفة عمر بن الخطاب عين بموجبه الأمير يزيد بن أبي سفيان قائداً لتحرير المحور الأوسط من الشريط الساحلي على البحر الأبيض المتوسط ، حيث توجد بيروت وعرقة وجبيل وصور وصيدا .

ومن منطقة قنسرين تحرك الأمير يزيد بثلاثة آلاف مقاتل نحو هدفه وكان

على مقدمته أخوه معاوية ، وفي ذلك الوقت نفسه اتجه القائد العام بقواته الرئيسية نحو حلب لفتحها ، وقد فتحها كما تقدم تفصيله .

قال في كتاب (فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين) .. انطلق يزيد بن أبي سفيان بجيشه في اتجاه الساحل ، وعلى مقدمته أخوه معاوية ، ولم يلق جيش يزيد وأخيه معاوية مقاومة تذكر ، نظراً لهرب أعداد كبيرة من السكان والتحاقهم بالروم ، ففتح معاوية عرقة [1] وبقية المدن الساحلية في المحور الأوسط ، مثل صور وصيدا وبيروت وجبيل .

حديث الطبري عن حملة محور الساحل الأوسط

إن الرتل الذي تحرك بأمر من الخليفة من قنسرين نحو الساحل الأوسط ، هو في الواقع (مع قيامه بعمله الاساسي) بمثابة دعم للقائد عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة اللذين كانا قد كلفا قبله بتحرير المدن الساحلية في المحور الجنوبي مثل غزة وقيسارية وعكا وشبه الساحلية مثل إجنادين ورفح ، وكان يرابط في هذه المدن الحصينة قوات مختلطة من الروم وحلفائهم العرب المتنصرة.

قال الإمام الطبري في (تاريخه ج ٣ ص ٦٠٣) .. لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص من فحل نزل عمرو وشرحبيل بيسان فافتتحاها ، وصالحته الاردن واجتمع عسكر الروم بإجنادين وبيسان وغزة ، وكتبوا إلى الخليفة عمر

---

(١) عرقة .. بكسر اوله وسكون ثانيه .. بلدة في شرقي طرابلس قاله ياقوت .. بينهما اربعة فراسخ . وهي في سفح جبل ، بينها وبين البحر ميل . وعلى جبلها قلعة . وكان الروم قد استولوا عليها من المسلمين . فغزاها سيف الدولة بن حمدان وطردهم منها . فقال شاعره ابو العباس الصفري في ذلك :

أخذت سيوف السبي في عقر دارهم ... بسيفك لما قيل قد اخذ الدرب
وعرقة قد سقيت سكانها الردى ... ببيض خفاف لا تكل ولا تنبو
كأن المنايا اودعت في جفونها ... فأرواح من حلت به للردى نهب

بتفرقهم ، فكتب إلى يزيد بن أبي سفيان بأن يدفيء ظهورهم بالرجال وأن يسرح معاوية إلى قيساريـة وكتب إلى عمرو بن العـاص بأن يصدم الارطبون ، وإلى علقمة بأن يصدم الفيقار .

وكتب خصيص إلى معاوية قائد مقدمة أخيه يزيد (وكان عمر أعرف الناس برجال الحرب والسياسة) كتب إلى معـاوية بأن يتولى بنفسه (رغم تبعيتـه لامارة أخيه يزيد) فتح مدينة قيساريـة .. الحصن الرئيسي الاعظم في المحور الجنوبي على ساحل الشام .. فقال في تكليفه لمعاوية : « أما بعد فإني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير .

معاوية يفتح قيسارية حصن الروم الساحلي الأعظم

فتوجه معاويه بجيشه بقيادة أخيه يزيد إلى قيسارية ، ولما وصل ضواحيهـا – وكانت مدينة حصينة – دار بينه وبـين الرومان المعتصمين بها قتـال شرس ضاري ، استبسل فيه الرومان إلى أبعد الحدود ، واستماتوا في القتال كي يحتفظوا للاسطول الروماني بهذا الثغر العظيم المهم ، لان قيساريـة من أهم موانيء البحر الابيض المتوسط الذي يستخدمه الاسطول الروماني في القتال لإنزال النجدات من المشاة والمؤن والذخائر . وثغر قيسارية يمتاز بسلسلة من الحصون التي يسميها المؤرخون العرب .. الصيـاصي استنـاداً إلى تسمية القرآن الكريم الذي سمى حصون اليهود في المدينة .. (صياصي) .

ورغم قوة التحصينان والمواقع الاستراتيجية التي تمتاز بها مدينة قيساريـة فإن معاوية (وهو المحارب الممتاز والداهية المعروف بالمكر الحربي) ما زال بهم يطاولهم في الحصار ، حتى ضيق الخناق عليهم فأجبرهم على الخروج من حصونهم والبروز للقتال خارج المدينة بعد أن بلغوا حد الاختناق من الحصار الشديـد ،

فاشتبك معهم معاوية بجيشه في معارك ضارية يكون الخاسر فيهـــا الرومان ، فتعود بقاياهم هاربة إلى حصونهم تاركين ساحة المعركة مغطـاة بجثث الآلاف من قتلاهم ، فيطاردهم معاوية حتى أبواب القلاع التي يسارعون إلى إغلاقهـا ليحموا أنفسهم من المسلمين .

واستمر الوضع هكذا عدة أيام .. يخرج الرومان من المدينة محاولـــين فك الحصار عن طريق الهجوم على المسلمين فيشتبك معهم المسلمون وتـدور المعـارك حامية رهيبة فتسقط آلاف الضحايا ، وينتهي القتال دونما نتيجة حاسمة .. فلا المسلمون يستطيعون اقتحام المدينة فيدخلونها ويضعون حداً لهذه الحرب الطويلة العنيفة والنزيف الرهيب المتزايد .. ولا الرومان في هجماتهم الجريئة قادرون على إبعاد المسلمين عن المدينة وفك الحصار عنها الذي أضر بهم كثيراً .

اليوم التاريخي الحاسم في حرب قيسارية

لقد أضر الحصار الذي فرضه معاوية على قيسارية إضراراً كبيراً بالرومان وصاروا يبحثون عن مخرج من كرب الحصار الذي نزل بهم نتيجة صبر معاوية وبرودة أعصابه بعدم تضايقه من تكرار الهجمات التي يشنها المحـــاصرون حين يخرجون من المدينة ويهاجمون المسلمين آملين أن يتمكنوا من طردهم عن المدينة ، فينزلون دونما شك الخسائر بالمسلمين ، ولكن خسائرهم تكون أكثر في كل الهجمات التي يشنونها على المسلمين الذين ظلوا ثابتين يشددون من الحصار .

وفي يوم تاريخي أغر ضاق الرومان ذرعاً بطول الحصار مع شدته وقد بلغت عندهم القلوب الحناجر ، استبسلوا وتعاهدوا داخل قلاعهم وحصونهم المحصورة في قيسارية على أن يهزموا المسلمين هزيمة تامة تطردهم إلى غير رجعة عن قيسارية أو يفنوا عن آخرهم ، لأن معاوية بمكائده الحربية وذكائه السياسي في المجـــال

العسكري قد أتعب (في حصاره) الرومان تعباً شديداً وأرهقهم حتى خافوا أن يموتوا جوعاً .

ففي ذلك اليوم فتح الرومان أبواب المدينة وخرجوا بأجمعهم (وكانوا أكثر من مائة الف مقاتل) ثم هاجموا المسلمين هجوماً عنيفاً ، مستخدمين كل إمكاناتهم من الأسلحة ، وقاتلوا في صبر واستبسال وشجاعة ، لأنهم يـــدركون أن هذا القتال الذي أنشبوه ستقرر نهايته مصيرهم ومصير مدينتهم المحصورة قيسارية. إما أن يكون النصر حليفهم فتسلم لهم مدينتهم ويحتفظون بقواتهم في مستواها العالي الممتاز ، وإما أن ينهزموا فتسقط المدينة في أيدي رجال معاوية ويستأصلون شأفة الوحدات الرومانية التي تشكل حاميات المدينة المحصورة .

ولدى خروج الرومان من المدينـــة في هجومهم الكاسح ثبت لهم معـاوية بجنده وحثهم على الصبر وبشرهم بالنصر لأنهم مجاهدون في سبيل الله ولايريدون إلا إعلاء كلمة الله .

ودارت حول أبواب قيسارية وفي أرباضها معركة رهيبة طاحنـــة استبسل فيها الفريقان وأبدوا شجاعة فائقة حتى أنهم أثناء الإلتحام تماسكوا بالشعور وتطاعنوا بالخناجر .

الرومان يحاولون إبعاد المسلمين عن قيسارية وطردهم ، والمسلمون مصرون على السيطرة على المدينة وفتحها وإبادة المدافعين عنها ، لأن بقاءها في أيـــدي القوات الرومانية يشكل تهديداً خطيراً لكل القوات الإسلامية المتواجدة في الشام وخاصة فلسطين ، لأن قيساريـة مرفأ بحري من أهم المرافيء التي تعتمـد عليه الإمبراطورية البيزنطية بواسطة أسطولها البحري الذي هو العمود الفقري بالنسبة لامبراطورية مثلها .

ورغم اعتداد الرومان بكثرتهم الغامرة وقدرتهم القتالية ومعداتهم المتوفرة

فقد فشل هجومهم على قوات معاوية فشلاً ذريعاً ، حيث تلقفتهم رماح وسيوف المسلمين في معركة رهيبة سالت الدماء أنهاراً ، لأن الفريقين ثبتا ثباتاً منقطع النظير .

وفي النهاية أنزل الله نصره على المسلمين ، وهزم معاوية وجيشه حاميات قيسارية هزيمة منكرة لم ير مثلها في المنطقة إذ أصاب الرومان (رغم كثرتهم الغامرة) الوهن فولوا الأدبار ، فركب المسلمون أكتافهم ووضعوافيهم السيوف فقتل منهم في المعركة ثمانون الفاً ، وركن من بقي منهم حيـاً إلى الفرار خارج المنطقة ، فقامت وحدات من فرسان معاوية بمطاردتهم فقتـل من الرومان في عمليات المطاردة هذه عشرون الفاً ، فكانت خسارة الرومان في عمليات قيسارية مائة الف قتيل ، ودخلت القوات الإسلامية بقيادة معاوية مدينة قيساريـة وسيطرت عليها سيطرة تامة .

الطبري يصف معركة قيسارية

وقال أبو جعفر الطبري شيخ المؤرخين . يصف معركة قيسارية الرهيبة ..

« وسار معاوية في جنده حتى نزل على قيسارية ، وعليهم رجل اسمه (بني) فهزمه وحصره في قيسارية ، ثم انهم (أي الروم) جعلوا يزاحفون معاويـة ، وجعلوا لا يزاحفونه من مرة إلا وهزمهم وردهم إلى حصنهم ، ثم زاحفوه آخر ذلك وخرجوا من صياصيهم ، فاقتتلوا في حفيظة واستماتة ، فبلغت قتلاهم في المعركة ثمانين الفاً ، وكملها في هزيمتهم مائة الف . وبعث معاوية إلى الخليفة عمر بالفتح مع رجلين من بني الضبيب ، ثم خاف منهما الضعف ، فبعث عبـد الله بن علقمة [1] الفراسي ، وزهير بن الحلاب الخثعمي [2] ، وأمرهما أن يتبعاهمـا

---

(١) ذكر ابن الأثير في أسد الغابة رجلا من الصحابة . اسمه عبد الله بن علقمة بن المطلب . فقال : هو القرشي المطلبي . قلت ولعله هو الذي حمل بريد الفتح .

(٢) لم اجد له ذكر فيما بين يدي من تراجم الصحابة .

ويسبقاهما ، فلحقاهما فطوياهما وهما ثانيان)[1] .

وهكذا نجح معاوية بن أبي سفيان في تدمير أقوى قوة رومانية بحرية تتمركز على ساحل البحر الأبيض المتوسط في المحور الأوسط من الساحل .

وبعد سقوط قيساريـــة أخذت مدن الساحل الأخرى في المحور الأوسط تتساقط تحت أقدام معاوية ومنها بيروت وصيدا وصور وعرقة وجبيـــل . ويظهر أن هذه المواني لم يلاق الأمير معاوية مقاومة تذكر عندما قام بفتحها . فلم نر أحداً من المؤرخين ذكر أن معارك تذكر دارت بين المسلمين والروم عندما احتل معاوية بيروت وعرقة وجبيل وصور وصيدا . ويظهر أن سقوط قيسارية في يد معاوية أعطى حاميات هذه الثغور درساً فهموا منه أنهم ليسوا بأقوى من أكثر من مائة الف من خيرة الجند الروماني كانت تدافع عن قيساريـــة فسحق معاوية مقاومتها ودمرها واحتل قيسارية عنوة وهي أعظم وأهم ميناء يعتمد عليه الروم . بعد ميناء طرابلس الذي استعصى فتحه على المسلمـــين حتى قام معاوية بفتحه (بعد عنـــاء شديد) في عهد الخليفـــة عثمان في العام الرابع والعشرين للهجرة .

عمليات المحور الجنوبي على الساحل

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا أن القائد عمرو بن العاص يسانـــده الأمير شرحبيل بن حسنة قد أسندت اليه مهمة فتح المحور الجنوبي الغربي على الساحل الفلسطيني كله وما جاوره وأهم ما في هذا المحور والذي عانى المسلمون منه المتاعب (ميناء غزة وموقع إجنادين) الذي كان خالد بن الوليد (قبل اليرموك) قد سحق فيه أقوى قوة للرومان في المنطقة بقيادة القـــائد الشهير سرجيوس ، ولكن الرومان تمكنوا من السيطرة من جديد على إجنادين في حالة انشغـــال

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠٤ .

المسلمين بالقتال في المحور الشمالي بالشام ، وأسند الرومان قيادة حاميات إجنادين إلى أشجع وأدهى قائد من قوادهم وهو (الارطبون) الذي لم يستطع التغلب عليه وقهره إلا داهية العرب الامير عمرو بن العاص الذي أطلق عليه الخليفة عمر بن الخطاب لقب (أرطبون العرب) إعجاباً بذكائه ودهائه وقدرته على تدبير المكائد في الحروب ، ولا أحد أعلم بالرجال من عمر بن الخطاب ، ولذلك أسند إلى عمرو بن العاص مهمة معالجة الإستيلاء على المحور الجنوبي الغربي الذي أصعب وأخطر ما فيه قوة الارطبون الرابض في موقع إجنادين . التي كتب لها أن تشهد الصدامات الدامية المريعة مرات ومرات بين المسلمين والروم . حيث قتل فيها وفي معركتين ضاريتين ما يقارب المائتي الف من الجنود الرومان وحلفائهم العرب المتنصرة ، في المرة الاولى على يد خالد بن الوليد وفي المرة الاخيرة على يد عمرو بن العاص . حيث بالحيلة والدهاء الحربي تمكن من التغلب على ثعلب بيزنطا المسمى الارطبون وانتزع منه إجنادين بعد معارك ضارية . ومبارزة بالحيل والمكايد فاز فيها عمرو بن العاص .

فيما مضى من هذا البحث أشرنا إلى أن هناك محاور قتالية ثلاثة تقاتل فيها ثلاثة جيوش مسلمة لتطهيرها من القوات الرومانية التي حتى ذلك الحين لاتزال (رغم سيطرة المسلمين على الشام الداخل) تحتل هذا الشريط الساحلي بأكمله . وهو الممتد من الاسكندرونة شمالاً حتى رفح جنوباً .

وكان لا بد من انتزاع هذا الشريط الساحلي وتطهيره من القوات الرومانية إذ أن المسلمين لن يتم لهم الاستقرار فيما فتحوا من تراب الشام حتى يستولوا على شواطئه جميعها ، إذ من المحتمل جداً (إذا ما بقيت هذه الشواطيء تحت الاحتلال البيزنطي) أن تجمع بيزنطا قواها من جديد وتقوم بإنزال كبير عن طريق هذه الشواطيء لاستعادة الشام من أيدي المسلمين .

لذلك صدرت الاوامر من القيادة العليا بتحريك الجيوش لتطهير جميع مدن الساحل من القوات الرومانية حتى تدخل جميع الشواطيء ضمن سلطة الخلافة الإسلامية .

ومن أجل تحقيق هذا الغرض المهم ، تألفت ثلاثة محاور كلف العاملون فيها باحتلال الشواطيء التي حددت القيادة العليا لهم مهمة احتلالها وطرد الرومان منها .

وقد ذكرنا تفاصيل احتلال الامير أبي عبيدة (بعد فراغه من حروب حلب المضنية) المحور الساحلي الشمالي مثل أنطاكية واللاذقية وطرطوس وجبلة وبانياس.

كما ذكرنا تفاصيل العمليات في المحور الاوسط التي انتهت باحتلال معاوية تحت قيادة أخيه يزيد - قيسارية وبيروت وعرقة وجبيل وصور وصيدا .

وحديثنا الآن سيكون عن العمليات الاخيرة التي بها انتهت وتمت السيطرة للجيش الإسلامي على جميع موانيء البحر الابيض المتوسط الواقعة على الساحل الشامي ما عدا طرابلس التي استعصى فتحها حتى أيام عثمان حيث فتحها معاوية سنة خمس وعشرين للهجرة .

وهذه العمليات التي نحن بصدد الحديث عنها هي عمليات المحور الجنوبي في فلسطين حيث بقي موقعان من أهم المواقع الحربية تحت سيطرة الرومان وهي ميناء غزة وموقع إجنادين القريب من الساحل والذي يرابط فيه قائد من أعظم وأدهى القادة الرومان وأشهرهم وهو الارطبون .

وكان المكلف بقيادة العمليات في هذا المحور الجنوبي والاخير ، الامير عمرو ابن العاص السهمي يسانده الامير شرحبيل بن حسنة ، وكلاهما من القادة الاربعة البارزين الذين عبروا حدود الشام بتكليف من الخليفة الاول لفتحها .

فتح غزة [1]

كانت غزة في الشام من أهم الموانيء البحرية التي يعتمد عليها الرومان لجلب التعزيزات من جنود ومؤن وذخائر إلى المنطقة الجنوبية فلسطين والاردن ، وكانت بها حامية قويـــة جداً يقودها ضـــارب روماني قوي شديد الشكيمة إسمه الفيقار .

وكانت بالقرب منها في الشمال الشرقي على وجه التحديد يقع موقع إجنادين الذي يسيطر عليه الرومان ويتولى قيادته داهية الروم الاكبر (الارطبون) وكانت غزة وإجنادين تساند الواحدة الأخرى لقرب بعضهما من بعض . ولان بهما أقوى قوة بقيت للروم في فلسطين .

كان عمرو بن العاص يقود جيشاً غنياً بالرجال والقادة الاكفـــاء المجربين الابطـــال ، فنظر (وهو يرسم مخطط تطهـير المحور الجنوبي من بقـايا الجيوش الرومانية) أن أهم ما يبدأ به لإنهـاء الوجود الروماني هناك ويجعـل وحدات الإسلام سلسلة مترابطة جيشاً واحداً يسيطر على ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقي من الاسكندرونة شمالاً حتى العريش جنوباً ، هو الموقعان الهامان (غزة وإجنادين) إذ بسقوطهما في أيدي المسلمين يتم كل شيء وتتم السيطرة لجيش التوحيد على جميع شواطىء البحر الابيض المتوسط الواقعة على إقليم الشام كله.

وهنا فكر فرأى أن أخطر رجل روماني في المنطقة يحتاج إلى صبر وحنكة وجلد هو (الارطبون) الذي يتولى حماية موقع إجنادين، وان الرجل الذي يأتي

---

(١) غزة – بفتح اوله وثانيه – مدينة في اقصى الشام من ناحية مصر ، بينهاوبين عسقلان فرسخان او اقل في غربيها : وهي من اعمال فلسطين ، فيهـــا مات هاشم (جد النبي ص) ، وبها ولد الامام الشافعي رحمه الله : وغزة ايضاً : رملة في بلاد بني سعد بن زيد بن مناة فيها احساء جمة ونخل .. وغزة ايضاً . بافريقيا بينه وبين القيروان نحو ثلاثة ايام في طريق الجزائر.

بعده في المرتبة الثانية من حيث الدهاء والمكر والخبرة بالحرب هو (الفيقار) الذي يتولى مهمة الحفاظ على ميناء ومدينة غزه والموانيء التابعة لها مثل عسقلان .

فقرر عمرو أن يتولى بنفسه منازلة الداهية الاكبر أرطبون ، وأن يوكل مهمة معالجة تطهير غزة إلى قائد من أهم قادة الإسلام المجربين وهو علقمة ابن مجزر [1] .

فوجهه عمرو بوحدات من الجيش الذي يقوده ليتولى أمر (الفيقار) ولا ينفك حتى يقهره ويفتح مدينة غزة التي بفتحها لا يتم استكمال سيطرة المسلمين على ساحل الشام كله فحسب ، بل يزول أكبر عائق يحول بين المسلمين والانطلاق إلى مصر لفتحها ، لان غزة ورفح مفتاح سيناء ، وسيناء مدخل القطر المصري لمن يريد غزوها من الشرق ، وفي برنامج الجهاد الذي وضع في المدينة فإن نشر كلمة التوحيد في القطر المصري أمر وارد ، ولا بد للقوات الإسلامية من أن تجتاز سيناء لتحرير مصر من سلطان الكفر والإلحاد فتحرير ميناء غزة (إذن) يعني الشيء الكثير بالنسبة للقوات الإسلامية المجاهدة ، وتحريره ييسر عليها أموراً كثيرة تريد القيام بها لإعلاء كلمة الله تعالى .

---

(١) هو علقمة بن مجزر بن الأعور بن جعدة .. الكناني المدلجي كان من السابقين الأولين في الاسلام ، وقد ولاه النبي (ص) قيادة إحدى السرايا في عهده .. وكان يحب المزاح فأوقد ناراً وهو يتحرك بجيشه وقال لأصحابه : اليس طاعتي واجبة . قالوا بلى . قال : فاقتحموا هذه النار ، فقام رجل ليقتحمها طاعة لأميره ، فاحتجز . وضحك علقمة وقال : إنما كنت العب . فبلغ ذلك النبي (ص) فقال : أما إذا فعلوها فلا تطيعوهم في معصية الله عز وجل . قال في اسد الغابة : وبعث عمر بن الخطاب علقمة هذا في جيش إلى الحبشة فاستشهدوا جميعاً. فرثاهم حواس العدوي فقال :

ان السلام وحسن كل تحية تغدوا على ابن مجزر وتروح

فرض المسلمين الحصار على غزة

تحرك علقمة بن مجزر بقوة كبيرة نحو غزة وكانت ذات أسوار تحصنها برأمن الشرق ، وماء البحر يحصنها من الغرب . وهكذا وجدها علقمة مدينة حصينة ليس من السهل اقتحامها . فقرر فرض الحصار عليها من البر (طبعاً) وبقيت حرة تتلقى الإمدادات من البحر لأن المسلمين (حتى ذلك الوقت) لم يكن لهم أسطول بحري يستخدمونه لمهاجمة أو محاصرة الموانيء البحرية. وقدتعب المسلمون وهم يحاصرون مدينة بحرية .

وطال الحصار ، وفشلت كل المحاولات لاقتحام غزة عنوة عن طريق اقتحام الأسوار والأبواب ، فلا بد إذن من اللجوء إلى الحيلة ، والحرب خدعة كما قال الرسول ﷺ .

وهنا قرر القائد علقمة قائد قوات الإسلام التي تتولى حصار غزة أن يخاطر بحياته ، فقد قرر أن يتنكر في زي جندي عادي مسلم، ويطلب مقابلة (الفيقار) قائد الحامية الكبيرة المدافعة عن غزة ، متظاهراً بأنه يحمل رسالة شفوية من قائد جيش الإسلام المرابط حول المدينة ، تتضمن التفاوض لعل الفريقان يتوصلان إلى اتفاق ينهي حالة الحرب بينهما .

وكان هدف القائد علقمة من وراء هذه المخاطرة أن يطلع بنفسه على تحصينات المدينة ومواقع الضعف في هذه التحصينات ، ويعرف مدى قوة الجيش المدافع عن المدينة ، ويختبر قائد الحامية ذاته ، وكان يأتي في الدهاء والشجاعة والمكر بعد القائد (الأرطبون) الذي يتولى عمرو بن العاص أمره .

ولا شك أن القائد علقمة إذا ما عاد سالماً من رحلته المحفوفة بأشد الأخطار يستفيد من المعلومات التي سيحصل عليها عندما يطلع على تحصينات العدو من

الداخل ويعرف مواطن الضعف والقوة في هذه التحصينات ، فيكون له ذلك عون كبير إذا ما قرر أن يقتحم غزة عنوة وبقوة السلاح.

اجتماع القائدين الخصمين داخل غزة

أرسل علقمة من يخبر قائد الحرس لغزة أن جندياً عربياً يرغب في مقابلة القائد الروماني (الفيقار) ليبلغه رسالة من قائد جيش المسلمين الذي يرابط حول غزة ، وأنه لذلك يطلب الاذن له بالدخول إلى المدينة ليبلغ الفيقار الرسالة ويتفاوض معه إن رغب باسم قائد المسلمين المرابطين حول الميناء .

وقد تبلغ الفيقار في الحال ذلك الطلب ، فسمح في الحال لعلقمة المتنكر في زي الجندي العربي العادي بالدخول إلى غزة ، وفتح الباب للقائد علقمة ، فدخل المدينة مخاطراً بحياته ، وأثناء مروره بالممرات والمسالك والدهاليز والساحات والاستحكامات في المدينة من الداخل صار يتفحص الجميع بحذر ليجمع في (ذاكرته) المعلومات الضرورية التي يحتاج إلى معرفتها كي تساعده عندما يشن الهجوم الشامل على المدينة الحصينة التي يتولى الدفاع عنها قائد داهية هو الفيقار .

قاد الحرس الأمير علقمة المتنكر حتى وصلوا به إلى حيث يجلس القائد العام الروماني وهناك رحب الفيقار بعلقمة ووسع له في المجلس كرسول ، والرسول في جميع الأعراف والقوانين العالمية منذ عرف الإنسان المدنيه له حصانته وحرمته حتى ولو كان رسولاً من الأعداء المحاربين .

شرع علقمة المتنكر في التفاوض (باسم قائد قوة الحصار) مع الفيقار حول المتاعب التي يعاني منها الفريقان المتواجهان اللذان لم يحرز أحدهما نصراً حاسماً على الآخر ، وأنه يحمل رسالة شفوية من قائد المسلمين وتفويضاً مطلقاً للوصول

إلى وضع يكون في صالح الفريقين المحاصرين والمحصورين ، فالسلم خير من الحرب وحقن الدماء خير من سفكها .

كان الفيقار الداهية على جانب عظيم من الفطنة والذكاء والدهاء والفراسة ، فأدرك (بذكائه) من علقمة في حديثه أنه ليس رجلاً عادياً ولا جندي بسيط ، بل رجل من أخطر الرجال . وقال الفيقار في نفسه هذا وربي هو قائد الجيش العربي نفسه تقمص شخصية جندي عادي جاء في هيئة رسول ، وإذا لم يكن هو قائد جيش المسلمين ، فإنه لا يقل عنه منزلة . واننا لن ننكب العرب بأعظم من القضاء على هذا الرجل سواء كان هو القائد أو لم يكن ، لأنه يقوم مقام كتيبة بأكملها . هكذا (كما يبدو) كان الفيقار يحدث نفسه .

محاولة اغتيال القائد علقمة ونجاته

فقرر القائد الروماني الفيقار قتل القائد علقمة (غيلة) في أحد الممرات وهو راجع إلى قومه . لأنه واثق من أن قتله سيكون من أعظم النكبات على جيش الإسلام المحاصر لغزة .

فاستدعى الفيقار أحد الرجال من قواته الخاصة ، وأسر اليه بحديث ، لم يسمعه (طبعاً) علقمة ، ولكنه (وهو الحصيف البعيد الفراسة) رسخ في ذهنه أن مدار هذا الحديث السري بين الفيقار والرجل الذي أسر اليه يتضمن الأمر باغتياله وهو في طريق عودته إلى قومه . فأسقط في يده ، ولكنه لم يسمح لأي ارتباك أو اضطراب يبدو عليه ، بل أخذ يفكر في مخرج ينقذه من الورطة التي وقع فيها .

فهداه تفكيره إلى أن يقول للقائد الفيقار ما معناه .. (إنني لست وحدي الذي يستطيع البت في الأمور ، ولكن هناك عشرة من أصحابي القادة ، بمن فيهم القائد العام للقوة المحاصرة لكم ، هم الذين يملكون إعطاء الكلمة الأخيرة

في الموضوع ، فاسمح لي بأن أذهب وآتيك بهم كي يستمعوا إلى شروطك ومطالبك بشأن هذه الحرب .

فطمع الفيقار في أن تكون كارثة العرب أكبر ، فقد يكون قال في نفسه . إنها أثمن فرصة إذن أن نتمكن من قتل أحد عشر من عظام قادة المسلمين بدلاً من قائد واحد ، وهنا استدعى الفيقار ، رجله الذي أمره (سراً) باغتيال علقمة ، بإيقاف عملية الإغتيال ، وأن يترك علقمة حراً يخرج من المدينة .

وهكذا نجحت حيلة علقمة الألمعي ، فنجا من الإغتيال الذي كان مدبراً له.

وبعد أن وصل علقمة مقر قيادته (وكان قد عرف مواطن الضعف في التحصينات الرومانية بالمدينة) أمر في الحال بهجوم حاسم مباغت على غزة ، مستفيداً من معلوماته الخاصة .

فهجمت قوات الإسلام على غزة في ضراوة وتنظيم هجمة رجل واحد في الحال ، فبهت القائد الفيقار ، واستيقن أنه لم يكن مخطئاً أول الأمر حينما اعتقد أن الذي كان يفاوضه في مجلسه داخل المدينة وعدل عن اغتياله هو القائد العام لقوات الإسلام التي تتولى محاصرة غزة .

وأما الهجوم الصاعق المفاجيء المنظم على غزة عن طريق مواقع الضعف في التحصينات ، ارتبكت القوات الرومانية المدافعة عن المدينة وتخاذلت ثم انهارت مقاومتها ، فاقتحم المسلمون المدينة ، وما هي إلا لحظات حتى أصبحوا وسط المدينة يشددون قبضتهم عليها ويتمركزون في معاقلها ويضعون السيف في المحاربين الروم المكلفين بالدفاع عنها حتى تمت لهم السيطرة الكاملة عليها .

وهكذا وبعد حصار طويل ومصاولات ومجاولات حربية وسياسية نجح البطل علقمة بن مجزر في فتح تلك المدينة الاستراتيجية الهامة (غزة) وأصبح بعد فتحها الطريق مفتوحاً للمسلمين إلى مصر براً وبحراً ، حيث كانت مدينة

غزة تمثل خط الدفاع الأول عن الإقليم الغربي من أقاليم الإمبراطورية الروميه وهو (مصر) .

وسقوط قيسارية وتدمير الجيش العظيم المدافع عنها على يد جيش معاوية وبسقوط غزة نفسها وتوابعها من المرافىء الصغيرة تم للمسلمين الإستيلاء على جميع الشريط الساحلي في الشام الممتد من الاسكندرونة شمالاً حتى رفح جنوباً . ولم يبق من الموانىء البحرية سوى مدينة طرابلس التي استعصت على المسلمين حتى تمكن الأمير معاوية من فتحها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

هزيمة الارطبون وفتح إجنادين

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا أن عمرو بن العاص (بعد سيطرة أبي عبيدة على مدينة فحل ونابلس وبيسان وطبرية) صدرت اليه الأوامر بتصفية القوات الرومانية المتمركزة في المحور الجنوبي من ساحل الشام وما يجاوره في فلسطين ، وكلف شرحبيل بن حسنة بأن يرابط في الأردن على أن يكون مسانداً عند اللزوم للأمير عمرو بن العاص في مهمته الصعبة .

وذكرنا تحركات عمرو بجيشه نحو المحور المشار اليه وذكرنا تفاصيل فتح غزة التي كلف الأمير عمرو القائد علقمة بن مجزر بمهمة تطهيرها من الجيوش الرومانية واضطلع هو (أي عمرو) بمنازلة داهية الروم (الارطبون) الذي يرابط بالقوات الرومانية الرئيسية في الجنوب في منطقة إجنادين التي تمكن الرومان من استعادتها بعد أن احتلها خالد بن الوليد قبيل معركة اليرموك ووضعوا فيها أكبر حامية من جيشهم بقيادة الارطبون عضدهم الأيمن الذي يعتمدون عليه لمساندة القوات المتواجده في القدس واللد والرملة التي كانت لا تزال تحت سلطان القوات الهرقلية .

كان عمرو بن العاص في الواقع مسؤولاً عن تصفية القوات الرومانية في الجنوب

كله غزة وإجنادين بالإضافة إلى القدس واللد والرملة وقيسارية أيضاً لأنها قريبة من إجنادين مقر قيادة الداهية الروماني الأعظم الأرطبون الذي يحسب عمرو له الف حساب ، ويعلم أنه إن تغلب عليه سهل عليه تصفية ما يتبعه من مسالح ومواقع . بما في ذلك القدس واللد والرملة .

فكر عمرو في الأمر فوجد أن الأرطبون بتنسيقه مع قوات قيسارية والقدس واللد والرملة وغزة يملك قوة هائلة يصعب على عمرو بجيشه الصغير الذي يقوده أن يقوم بتصفية كل هذه المواقع التي تخضع لقيادة داهية الروم الأكبر ، فكتب عمرو للخليفة عمر بن الخطاب يخبره بحقيقة الموقف ويطلب منه المدد لتدعيم قواته التي عليه أن يحارب بها في المنطقة التي يتولى الأرطبون حكمها والتصرف في جيوشها .

وكانت أقوى قوة يخشاها عمرو (بعد قوة إجنادين التي يقودها الارطبون بنفسه) القوة التي ترابط في قيسارية القريبة جداً من إجنادين حيث الوحش الارطبون ، فقيسارية لقربها من إجنادين قد أحسنت التنسيق مع الارطبون في إجنادين بحيث تستطيع (بما فيها من قوات ضخمة) مساندة الارطبون .

ولما تلقى الخليفة عمر التقرير من القائد عمرو ، وتبلغ طلب الدعم منه . أصدر أمره (أولاً) كما أشرنا اليه فيما مضى من هذا البحث للقائد يزيد بن أبي سفيان أن يقتطع من جيش أبي عبيدة في منطقة قنسرين ثلاثة آلاف مقاتل ويتجه بهم نحو المحور الجنوبي أو بالأحرى الأوسط القريب جداً من المحور الجنوبي ليساند ويدعم عمرو بن العاص في مهمته الصعبة ، على أن يجعل على مقدمته أخاه معاوية وأن يركز هجومه على ميناء قيسارية ، وفعلاً أسند يزيد إلى أخيه معاوية مهمة معالجة الجيش الضخم المرابط في ميناء قيسارية ، فضرب معاوية الحصار عليها حتى افتتحها بعد أن قتل جيشه من القوات المدافعة عنها ما يقرب مائة الف روماني .

وبهذا اشتد ساعد عمرو بن العاص وضعف إلى حد كبير مركز الداهية الارطبون الذي كان يعلق أكبر الآمال على قوات مدينة قيسارية الضخمة التي قصم معاوية ظهره بتدميرها .

ولكن الداهية الثعلب ظل قوياً ثابتاً والأسود لا تصطاد بسهولة .

بعد تطهير ميناءي غزة وقيسارية لم يبق في المحور الجنوبي ما يحسب عمرو له حساب سوى الارطبون ، المرابط في موقع إجنادين ذي التاريخ الحافل بالمعارك الدامية .

وقد حرص الخليفة عمر بن الخطاب على أن يتولى معالجة أمر الأرطبون القائد عمرو بن العاص بنفسه ، لأن الخليفة لا يرى كفؤاً لهذا الداهية الروماني سوى عمرو بن العاص ، وقد عبر الخليفة عن هذه الحقيقة بقولته المشهورة .. (لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج)[1] . يقصد بذلك أنه اختار عمرو بن العاص لمنازلة الارطبون لأنه ليس في القواد العرب من يقدر على التغلب عليه ، لا سيما وأن الارطبون مشهور بالدهاء والمكر ، وعمرو بشهادة خبراء الصحابة أحد دهاة العرب الثلاثة ، فالداهية ليس لمواجهته سوى داهية مثله . فلا يفل الحديد إلا الحديد .

عمرو يدخل الارتباك على تنظيمات الأرطبون

وعندما قرر الامير عمرو بن العاص تصفية الحساب مع خصمه النـد الالد (الارطبون) وبعد أن تلقى المدد والدعم من عسكر الإسلام الذين جاءوا من قنسرين بقيادة يزيد بن أبي سفيان أو الذين بعث بهم الخليفة من المدينة ، وضع خطط محكمة لإضعاف قوة الارطبون وتخريب التنسيق القائم بينه وبين القوات

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠٥ .

التي ترابط في القدس واللد والرملة ليسهل عليه الإنفراد به ، حين يشغل وحدات القدس واللد والرملة بقوات خاصة .

وعندما قرر بدء العملية ضد الأرطبون وتصفية الحساب ، بعث أولاً علقمة ابن حكيم [١] ومسروق العكي [٢] بعدة وحدات لمحاصرة القدس بقصد عزل حاميتها عن الأرطبون كي لا تقدر على إسناده عندما يحتاج اليها .

كذلك لنفس الغرض وجه القائد أبا أيوب المالكي [٣] لمشاغلة القائد الروماني (التذارق) في منطقة الرملة التي هي واللد متقاربتان ، وذلك بقصد منعه من الاتصال بالقوات الرئيسية التي يقودها الأرطبون في إجنادين وبقصد القضاء على قواته أيضاً وتحرير منطقة الرملة واللد .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب مهتم غاية الإهتمام بالمحور الذي تعمل فيه قوات عمرو بن العاص بفلسطين ، لأنه يدرك خطورة داهية الروم الأرطبون ، ولأنه حريص كل الحرص على تحرير العاصمة المقدسة في فلسطين (القدس) التي هي ضمن عمليات عمرو بن العاص والتي لا تزال في قبضة الأعداء ، لذلك سارع فأرسل إمدادات جديدة إلى عمرو ، وكان عمرو لسعة الرقعة التي تجري عملياته الحربية فيها في أمس الحاجة إلى هذه الإمدادات ، وعلى الأخص حاجته إلى تقوية الرتل الذي يتولى حصار مدينة القدس ، يتضح ذلك من فعل عمرو نفسه ، فإنه حالما تلقى الدعم الجديد من المدينة بعث قوه جديدة لتدعم علقمة بن حكيم ومسروق العكي اللذين يتوليان محاصرة المدينة المقدسة : وكان الدعم المبعوث اليهما بقيادة الضابط محمد بن عمرو [٤] .

---

(١) لم أجد له ذكر فيما بين يدي من تراجم .
(٢) لم أجد له ذكر فيما بين يدي من تراجم.
(٣) الطبري ج ٣ ص ٦٠٥ .
(٤) ه الخ .

كما وجه أيضاً دعماً آخر لمساندة أبي أيوب المالكي الذي يتولى محاصرة الرملة، وكان الدعم المرسل اليه بقيادة عمارة بن عمرو بن أُمية الضمري [1] .

الارطبونان يتواجهان

وهكذا تقابل الداهيتان أرطبون الروم وأرطبون العرب (عمرو بن العاص) كما سماه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إعجاباً بدهائه .

وكان كل من الداهيتين يحاول التغلب على خصمه وتدمير قواته .

كان أرطبون الروم يتفوق تفوقاً ساحقاً في عدد الجنود على الأمير عمرو بن العاص ، ولكن ابن العاص بدهائه حرم الارطبون من الاستفادة من هذه الكثرة بعد أن تلقى الإمدادات من الخليفة عمر ومن جيش أبي عبيدة بقيادة يزيد بن أبي سفيان الذي دمر أخوه معاوية (تحت امرته) أقوى قوة يعتمد عليها الارطبون للمساندة وهي القوة المتواجدة في قيسارية التي قتل في معركتها الحاسمة جند معاوية مائة الف منهم . كما نجح عمرو في إشغال الوحدات المتواجدة في القدس واللد والرملة عن الارطبون بفرض حصار شديد عليها .

ولنترك إلام الطبري يحدثنا في كتابه العظيم (تاريخ الرسل والملوك) عن المواجهة التي حدثت بين عمرو بن العاص والارطبون . قال الطبري :

ولما توجه علقمة إلى غزة ، وتوجه معاوية إلى قيسارية صمد عمرو بن العاص إلى الارطبون ، ومر بإزائه ، وخرج معه شرحبيل بن حسنة على مقدمته ، واستخلف أبا الأعور الأسلمي على عمل الأردن ، وولى عمرو بن العاص مجنبتيه عبد الله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكي ومالك بن كنانة ، فخرج حتى ينزل على الروم بإجنادين ، والروم في حصونهم وخنادقهم ، وعليهم الارطبون ، وكان

---

(١) هو الخ .

الارطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً ، وأنكاها فعلاً ، وقد وضع بالرملة جنداً عظيماً وبإيليا (القدس) جنداً عظيماً ، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمر قال : قد رمينا أرطبون الروم بارطبون العرب، فانظروا عم تنفرج ، وجعل عمر رحمه الله من لدن وجه أمراء الشام يعد كل أمير ويرميه بالإمدادات ، حتى إذا أتاه كتاب عمرو بن العاص بتفرق الروم كتب إلى يزيد أن يبعث معاوية في خيله إلى قيسارية ، وكتب إلى معاوية بامرته على قتال أهل قيسارية وليشغلهم عن عمرو .

وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل إيليا (فصاروا بإزاء أهل إيليا فشغلوهم عن عمرو وبعث أبا أيوب المالكي إلى الرملة وعليها التذارق وكان بإزائها ، ولما تتابعت الإمدادات على عمرو بعث محمد بن عمرو [1] مدداً لعلقمة ومسروق ، وبعث عمارة بن عمرو بن أمية الضمري مدداً لأبي أيوب المالكي وأقام عمرو على إجنادين [2] .

أما عمرو بن العاص فلم يكن عمر بن الخطاب إلا مصيباً كل الإصابة حين اختار عمرو بن العاص لمنازلة داهية الروم الأكبر الارطبون وما كان أحد أعرف بالرجال من عمر بن الخطاب ، فقد حطم عمرو (ببراعته بعد توفيق الله أعظم قوة في الجنوب كانت عائقاً في تحرير العاصمة المقدسة ومايتبعها من مدن ودساكر) وما أحسن ما قال الشاعر أحمد شوقي في تولية عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص قيادة الجيش ..

وما النجوم الزهر حفت بالقمر أروع من عمرو على خيل عمر

---

(١) هو الخ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥ : ٦ ،

فتح إجنادين وقهر الارطبون

كانت إجنادين يومذاك حصن الروم في فلسطين ، كانت محصنة للغاية ،وهي سلسلة من الحصون والمسالح ، وكان عمرو يريد بنفسه معرفة ما بداخل موقع إجنادين ، كي يعرف مواقع الضعف كي لا يتورط في هجوم فاشل فمن يعرف مقاتل خصمه تمكن من قتله .

فعندما اطمأن عمرو بعد تلقيه الدعم من الخليفة الفاروق إلى قوة مركزه العسكري ، وان ظهره محمي بالقوات التي تحاصر القدس واللد والرملة وبعد أن حطم معاوية قوات قيسارية البالغة أكثر من مائة الف مقاتل شرع في العمل من أجل الاستيلاء على إجنادين وإخراج الثعلب الماكر من جحره (الارطبون) والتغلب عليه .

فبث عناصر استطلاعه نحو المدينة ، ودس عيونه إلى داخلها ليقدموا له التقارير عن نقاط الضعف في مواقعها ليستفيد من ذلك عندما يريد مهاجمتها .

ولكن عناصر عمرو (على ما يظهر) لم تشف غليله في تقاريرها ، فلم يجد في هذه التقارير ما يفيد كثيراً ، لأنه يريد أن يكون هجومه على الارطبون ناجحاً عن طريق مواطن الضعف في التحصينات والمواقع في القلاع .

وعمرو ليس من نوع القادة المغرورين المتعجلين في أمورهم ، بل هو قائد محنك طويل التجربة ذو نفس طويل وبال واسع ، لا يقدم على عمل عسكري إلا وهو موقن في نفسه الكبيرة بأنه سيكون بإذن ربه موفقاً .

فلما لم ير في تقارير استخباراته ما يركن اليه كثيراً من حيث التعرف على مقاتل خصمه العنيد الارطبون من حيث معرفة ما يجب أن يعرفه داخل المدينة قرر أن يغامر ويخاطر بحياته ويدخل المدينة بنفسه (متنكراً على هيئة ضابط منتدب من قبل القائد العام للتفاوض مع الارطبون) .

وقد فعل ذلك إلا أنه كاد أن يقتله ذكاء وفراسة نده الارطبون لولا أن ذكاء ودهاء عمرو تغلب على ذكاء ودهاء الارطبون ، فنجا عمرو من الاغتيال الذي كان قد تقرر القيام به بأمر من الارطبون الذي أيقن أنه ليس ضابطاً صغيراً منتدباً وإنما هو القائد العام عمرو نفسه .

فقد ذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص طلب الإذن لمقابلة الأرطبون في مقر قيادته داخل المدينة كقائد مرؤوس مفوض من قبل الامير عمرو بن العاص .

وعندما تبلغ الارطبون الطلب سمح لعمرو بالدخول عليه على أساس أنه رسول أرسله عمرو للتفاوض .

دخل عمرو (متنكراً مدينة إجنادين) ، ومنذ دخل الباب وهو يتفحص ويستطلع ليعرف ما يجب أن يعرفه قائد عام كبير مثله من مواقع ونقاط الضعف في خطوط الدفاع عن المدينة من الداخل ليسهل مداهمتها من الخارج أثناء الهجوم الذي تقرر أن يقوم به .

الأرطبون يكرم خصمه الألد

وعندما وصل عمرو إلى حيث يجلس القائد الداهية الارطبون قام له الارطبون وأجلسه إلى جانبه حسب البروتوكول المتبع في الاعراف العسكرية في كل عصر وزمان .

فصار عمرو يفاوض الأرطبون على أنه رسول من أمير الجيش ، وكان خلال ذلك يتفحص الحصون والمواقع الحربية ويعرف ما قدر على معرفته من قوة أو ضعف التحصينات في مواقع الدفاع .

وعقب محادثات جرت بين الاثنين ، ورأى عمرو أن لا ضرورة لبقائه بعد أن استنفد جهده لمعرفة ما يمكن أن يعرفه من مواقع الضعف والقوة في تحصينات

المدينة طلب الاذن بالانصراف ليبلغ قائده الأمير بنتيجة التفـــاوض . ولكن الأرطبون طلب من عمرو البقاء قليلاً ليجريا مزيداً من المحادثات .

كان الارطبون داهية وكان من أذكى الناس وأعمقهـم فراسة ، فعرف من منطق عمرو وأسلوب حديثه أثناء التفاوض أن الرجل الذي يفاوضه ليس ضابطاً صغيراً ، وإنما هو عمرو بن العاص نفسه دخل متنكراً على هيئة قائد مرؤوس .

وكان الغدر من شيم الرومان ، فعزم الفتك به غدراً ، ولو نجح لغـير سير القتال في إجنادين .

فقال الأرطبون في نفسه :

« ان هذا والله عمرو بن العاص نفسه ، وإن لم يكن هو نفسه فهو في منزلته خبرة وذكاء ودهاء ، ولن أضرب المسلمين ضربة هي أوجع من أن أقتـل هذا ولكنه بالتأكيد عمرو » . هكذا كان الأرطبون يحدث نفسه أو نحوه .

وعندما استيقن في نفسه أن الذي يحدثه عمرو بن العاص نفسه استدعى في الحال أحد الحرس الموثوق بهم من رجاله ، وأسر اليه بأن يقوم بقتـل عمرو بن العاص غدراً وغيلة في مكان خفي أثناء انصرافه من الحصن ، فأوعده تنفيـــذ الأمر ، ثم ترك الأرطبون وقد صمم على الفتك بعمرو عند مروره بمكان معين حدده لرجاله .

وهنا باحساس القائد الفذ ذي الذكاء الخارق والدهاء الكبير والفراسة التي لا تخطيء ، أدرك الأمير أن ما أسر بـــه البطريق الأرطبون إلى الضابط من خاصته إنما هو أمر باغتياله في مكان ما عند مغادرته القلعة ، فأراد التخلص من الوقوع في الفخ . فقال للبطريق الأرطبون (دونما أي ارتباك أو اختـــلال في الكلام) بل قال بكل برودة وثبات .. قد سمعت مني وسمعت منك ، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطـاب مع هذا

الوالي لنكاتفه ، ويشهدنا أمره ، فأرجع فآتيك بهم الآن ، فإن رأوا في الذي عرضته مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك » [1] .

وهنا طمع الارطبون في أن يقتل عشرة أمراء بدلاً من أمير واحد وكلهم هيئة أركان حرب جيش الإسلام الذي يضرب عليه الحصار .

لذلك عدل مؤقتاً عن اغتيال عمرو بن العاص حين استدعى رجلاً يبلغ الضابط الذي كلفه الارطبون باغتيال عمرو بأن لا يفعل بل يسمح له بالمرور والخروج سالماً من المدينة فقال له : اذهب إلى فلان فرده إلي فرجع اليه الرجل وقال لعمرو : انطلق فجيء بأصحابك ، فخرج عمرو ، ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأن عمراً خدعه . فقال : خدعني الرجل ، هذا أدهى الخلق ، فبلغت عمر بن الخطاب . فقال : غلبه عمرو ، لله عمرو [2] وقد عرف الارطبون الخدعة بعدما رأى جيوش الإسلام تتدفق على أبواب وأسوار المدينة في هجوم كاسح صاعق .

وهكذا نجح داهية المسلمين وأرطبون العرب (كما وصفه ابن الخطاب) . نجح في التمويه على داهية الروم حتى غلبه بالمكر والخديعة التي هي من أقوى الأسلحة في الحروب (الحرب خدعة) .

فقد قام في الحال (مستعيناً بمعلوماته الخاصة عن موطن الضعف في تحصينات إجنادين) بهجوم شامل حاسم على إجنادين ، وهنا أسقط في يد الارطبون ، وتخاذل ، لان الهجوم الصاعق المركز الذي شنه الامير عمرو لم يترك لقواته فرصة ، فتخاذلت هذه القوات ، ونجح عمرو في اقتحام المدينة ، وفي الحال ،

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٥ - ٦٠٦ .
(٢) قالها الرسول الكريم (ص) .

نشبت معركة ضارية صبر الفريقان فيها . حتى ان الطـــبري قال وهو يصف المعركة بإجنادين . .

« فالتقوا باجنادين فاقتتلوا قتـــالاً شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم »[1] .

غير أن الجيش الروماني انهزم شر هزيمة ، وسيطر عمرو على إجنـــادين سيطرة كاملة .

أما الداهية الارطبون فقد تمكن من الإفلات بعد الهزيمة الماحقـة ، فهرب والتجأ إلى مدينة القدس ، وتحصن فيها مع المحصورين ، إلى أن فتحت أبوابهـا للخليفة عمر بن الخطاب ، بعد أن هرب منها أيضاً الارطبون إلى القطر المصري كما سيأتي تفصيله في موطنه .

عمرو يتجه نحو القدس

وبعد أن نجح الامير عمرو بن العاص في تدمير جيش الارطبون في إجنادين وعلم بهرب الارطبون إلى العاصمة المقدسة مدينة القدس ، قرر أن يتجه بـكامل قواته نحوها ونحو المدن التابعة لها لتطهيرها من بقايا القوات الرومانية التي هي تابعة للأرطبون .

أخذ عمرو بن العاص في التحرك بحذر نحو مدينة القـــدس ، وكانت هذه المدينة تقع على مرتفع وهي ذات تحصينات شديدة ، ولهذا لم يتعجل الامير عمرو في مهاجمتها آملاً أن تفتح صلحاً وبدون سفك دم ، لانها مدينة مقدسة ، والمسلم بحكم تربيته الدينية لا يحب سفك الدماء وخاصة في الاماكن المقدسة ، وقدوته في ذلك نبيه محمد ﷺ الذي منع سفك الدماء عند دخوله مكة يوم فتحها .

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٣ ص ٦٠٦ .

لذلك فان عمرو بن العاص قبل أن يتجه نحو القدس التي هي في الواقع محاصرة من قبل بعض الوحدات التابعة له ، اتجه إلى المدن والمواقع الحربية الرومانية القريبة من القدس والتي تساند القوة المحصورة فيها مثل اللد والرملة وبيت جبرين ويافا وتبنى فافتتحها كما افتتح عمرو أيضاً مرجعيون[١] ونابلس[٢] وسبطية[٣] وعمواس ورفح[٤] .

غير أن الداهيه الارطبون تمكن مع عدة وحدات من المنهزمين في إجنادين من الدخول إلى مدينة القدس حيث أفسحت القوات الإسلامية المحاصرة للقدس الطريق لهم حتى دخلوا القدس . بعد أن تمكنوا من دحرهم فانضموا إلى قوات

---

(١) لم يذكر اسم وتحديد مكان مرجعيون في المعاجم القديمة ولكنها اليوم مدينة مشهورة في القطاع الجنوبي من لبنان وبها وحولها دارت معارك ٩٧-٩٨-٩٩ هـ بين المسيحيين اليمينيين والفلسطينيين ومساندهم من أهل لبنان .

(٢) نابلس – بضم الباء واللام .. مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها . كثيرة المياه ، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ (أي أربعون ميلا) لها كورة واسعة ، وعمل جليل ، كله في جبل القدس قال : ولليهود اعتقاد عظيم في هذا الجبل ، واسمه عندهم : (كاريريم) وهي مدينة السامرة . لا يسكنون غيرها إلا لحاجة من عمل . قال وبها طائفة من اليهود لهم بنابلس مجد كبير (يزعمون أنه القدس ، وأن بيت المقدس المعروف ملعون عندهم (قلت وهذا هو سبب محاولة بعض اليهود اليوم تدنيس هذا المسجد الشريف) ثم قال في مراصد الاطلاع : حتى إذا اجتاز أحد عليه أخذ حجراً ورجمه قلت واليوم ١٩٧٩ بسبب انحراف المسلمين عن دينهم الحق واتحاد اليهود حول دينهم الباطل تمكن اليهود من السيطرة على فلسطين كلها . ومع هذا لا يزال البعض يظن (حالماً) أنه سيحرر فلسطين في مذهب ماركس ولينين اليهوديين ، وأعني بهم معتنقي اليسار الماركسي من الفلسطينيين الذين يتاجرون بها أكثر مما يحاربون لتحريرها . والله لن يحرر فلسطين إلا الذين يحملون (صدقاً) لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ويقاتلون في ظله .

(٣) سبطية بفتح أوله وثانيه : مدينة قرب سميساط ، وهي في فلسطين وهي على يومين من بيت المقدس ، قرب نابلس .

(٤) فتوح البلدان ص ١٤٤ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٨ .

عمرو بن العاص الرئيسية في إجنادين وبقي القائد الفعلي للقوات المدافعة عن القدس الارطبون وهذا يعني أن الارطبون بما لديه من قوة تمكنت من النجاة في معركة إجنادين كانت قوية بدليل تمكنها من فك الحصار عن القدس ، بازالة القادة العرب الثلاثة عن مواقعها حول المدينة المحصورة ثم دخلت المدينة .

قال الطبري يصف لجوء الارطبون (بعد إجنادين) إلى القدس ..

« ثم ان الارطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيليا (القدس) ونزل عمرو إجنادين ، ولما أتى الارطبون إيليا أفرج له المسلمون حتى دخلها ، ثم أزالهم ، ونزل عمرو إجنادين ، فانضم علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيوب إلى عمرو باجنادين »[1] .

وبعد أن توحدت جميع الجيوش العاملة في فلسطين تحت قيادة عمرو بن العاص من جديد بعد إجنادين ، قام بفرض الحصار على مدينة القدس ،وقدصمم أهلها على المقاومة ، لا سيما وأن قائدهم الداهية إرطبون .

غير أن الحصار لم يدم طويلا رغم كثافة القوة التي تدافع عن القدس ، فقد حدث خلاف بين حاكم القدس المدني (سفرونيوس) وبين قائد حامياتها العسكرية الارطبون .

كان سفرونيوس يميل إلى مصالحة المسلمين وتجنب سفك الدماء وتسليمهم المدينة المقدسة ، والارطبون مصر على المقاومة ، وأخيراً مالت الاغلبية من أهل القدس إلى رأي حاكمها ، فعرضوا الصلح على القائد عمرو ، ولكنهم اشترطوا أن يتولى عقد الصلح واستلام المدينة الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، فأجابهم عمرو إلى طلبهم ووعدهم بأنه سيخبر الخليفة .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٦ .

أما الارطبون ، فلما كان غير راض عن الصلح وتسليم القدس على أساسه للمسلمين ، انسحب من فلسطين ولجأ إلى مصر ، وكان محارباً عنيداً محترفاً ، وقد قتل الارطبون (فيما بعد لجوءه إلى مصر) قتله رجل من قبائل قيس ، وذلك عندما تعرض الارطبون لسرية من المسلمين كانت تقوم بالغزو في بعض الصوائف [١] . ولكن الارطبون مع ذلك تمكن من قطع ذراع قاتله القيسي ثم أسلم الروح متأثراً بجراحه . فقال القيسي بعد أن قتل الارطبون وقطعت ذراعه .

فان يكن أرطبون الروم أفسدها [٣] فان فيها بحمد الله منتفعا
وإن يكن أرطبون الروم قطها فقد تركت بها أوصاله قطعا [٤]

عمرو بن العاص يكتب للخليفة بعرض القدس الصلح ويشكو له المتاعب

وفي الواقع كان الامير عمرو قد لقي كثيراً من المتاعب ، ولقي مقاومة شرسة وهو يحاصر القدس ولقي أتعاباً كثيرة في جميع حروبه مع الروم في أنحاء فلسطين كلها ، وكل ذلك ذكره للخليفة في كتابه اليه .

فقد كتب إلى الفاروق « اني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً وبلاداً ادخرت لك في رأيك » [٤] .

وهنا إشارة من عمرو إلى أن القدس من الصعب اقتحامها بحد السيف ، وأن عمرو وحده لا يمكنه بمفرده وبما معه من قوات محدودة أن يقتحم القدس عنوة .

---

(١) الصوائف : جمع صائفة ، وبها سميت غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزونها صيفاً لمكان البرد والثلج .

(٢) يعني يدها التي قطعها الارطبون .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٨ .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٦٠٧ .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يثق بكل كلمة يقولها قائده الداهية الخبير عمرو بن العاص ، وخاصة فيما يختص بالسياسة الحربية لمهارته الفائقة وخبرته الواسعة وتجربته العميقة .

لذلك فان الخليفة عمر ، وثقة بما كتبه اليه قائده عمرو قال كلمة خالدة شهد فيها لعمرو بعمق المعرفة بعد أن تسلم كتابه .. (إن عمراً لم يقل إلا بعلم) [1] .

لذلك قرر الخليفة أن يذهب بنفسه إلى فلسطين ويتولى بنفسه تحرير المدينة المقدسة (القدس) إما عن طريق الحرب وإما عن طريق الصلح .

وقد كفى الله المؤمنين القتال ، ففتح الله القدس للمسلمين على يد الخليفة عمر صلحاً ، حيث خرج اليه حاكم القدس (سفريونيوس) بعد أن اتبعت الاكثرية رأيه من الروم .. خرج ومعه أعيان المدينة المقدسة من أحبار ومدنيين وسياسيين وعسكريين (بعد أن هرب منها الارطبون والتذارق إلى مصر) فعقد مع الخليفة نفسه الصلح الذي على أساسة سلم حبر القدس الاكبر الخليفة عمر مفتاح المدينة ، فدخلها المسلمون دون أن تسفك قطرة دم وذلك ما أثلج صدر الخليفة والمسلمين ، لانهم يكرهون أشد الكره أن تراق قطرة دم في تلك البلدة المقدسة الطاهرة .

ابن الأثير يتحدث عن فتح الخليفة عمر القدس

ولنترك الإمام ابن الأثير يحدثنا عن قصة استسلام مدينة القدس للخليفة الفاروق ، فقد قال في الكامل :

« ففي هذه السنة أي سنة ١٥ هـ وقيل سنة ١٦ ، فتح بيت المقدس ، وسبب

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٧ .

ذلك أنه لما دخل أرطبون إيليا (القدس) ، وفتح عمرو غزة ثم فتح سبسطية وفيها قبر يحيى بن زكريا (ع) ، وفتح نابلس بأمان على الجزية ، وفتح مدينة لد (يعني اللد) ، ثم فتح تبنى ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ويافا، ومرج عيون .

فلما تم ذلك لعمرو أرسل إلى الأرطبون رجلاً يتكلم بالروميـــة وقال له : « إسمع ما يقول وكتب معه كتاباً فوصل الرسول ودفع الكتـاب إلى أرطبون وعنده وزراءه . فقال أرطبون : لا يفتح والله عمرو شيئاً من فلسطين بعـد إجنادين . فقالوا له : من أين علمت هذا ؟ فقال : صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب »[1] .

المداعبة بين عمرو بن العاص والأرطبون

وروى الطبري في تاريخ الرسل والملوك حديث مداعبة جرت (عن طريق المكاتبة) بين الداهيتين داهية العرب ابن العاص ، وداهية الروم ، أرطبون وذلك قبل أن يهرب من القدس .

قال الطبري :

« كتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري . أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد إجنادين ، فارجع ، ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة » .

فدعا عمرو رجلاً يتكلم بالروميـــة ، فأرسله إلى أرطبون وأمره أن يغرب ويتنكر ، وقال : استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله .

وكتب اليه .. جاءني كتابك ، وأنت مثلي ونظيري في قومك، لوأخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي ، وقد علمت اني صاحب فتح هذه البلاد ، واستعـــدى

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٨ .

عليك فلاناً وفلاناً – لوزرائه – فاقرئهم كتابي ، ولينظروا فيما بيني وبينك . فخرج الرسول على ما أمر به حتى أتى أرطبون فدفع اليه الكتاب بمشهد من النفر ، فاقترأه فضحكوا وتعجبوا ، وأقبلوا على أرطبون . فقالوا : من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ فقال صاحبها رجل اسمه (عمر ، ثلاثة أحرف ، فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر »[1] .

وتذكر بعض المصادر أن الخليفة عمر لما قرر الخروج إلى الشام لفتح بيت المقدس واستخلف علي بن أبي طالب على المدينة قال له علي : أين تخرج بنفسك إنك تريد عدواً كلباً ؟

فقال عمر : أبادر بالجهاد قبل موت العباس ، انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الجبل ، فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان ، فانتقض (فعلاً) بالناس الشر .

وسار عمر وقدم الجابية على فرس ، وجميع ما قدم الشام أربع مرات .. الأولى على فرس .. والثانية على بعير .. والثالثة على بغل ، ورجع لأجل الطاعون. والرابعة على حمار ، وكتب إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية وهي مكان سماه لهم بالقرب من دمشق اليوم سماه لهم في المجردة ، ويستخلفوا على أعمالهم ، فلقوه حيث رفعت لهم الجابية .

وقد حضروا اليه جميعهم بعد أن ترك كل قائد منهم نائباً يحل محله في قيادة الجيش الذى يقوده .

قال ابن الأثير : وكان أول من لقي الخليفة بالشام يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد بن الوليد ، وهم على الخيول ، عليهم الديباج والحرير .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠٦ .

فنزل عمر وأخذ الحجارة ورماهم بها (مستنكراً لبسهم هذا) وقال لهم :

ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم إياي ، تستقبلون في هذا الزي ؟ وإنما شبعتم منذ سنتين ، وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم . فقالوا :

يا أمير المؤمنين إنها يلامقة [1] وان علينا السلاح . فقال : نعم إذن .

وركب عمر حتى دخل الجابية ، وعمرو ، وشرحبيل كأنهما لم يتحركا من مكانهما .

وكان أحبار اليهود وأحبار النصارى يجدون في كتبهم أن بيت المقدس ، لا يفتحها من المسلمين إلا عمر بن الخطاب ، وقد أشار إلى هذا الأرطبون حين أجاب عمرو بن العاص على خطابه .

ولما قدم عمر الجابية قال له رجل من أحبار اليهود كان فيها ..

يا أمير المؤمنين . انك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا .

قالوا : وكان عمرو بن العاص قد أتعب الروم وأتعبوه في القدس ، ولم يقدر على القدس ولا على الرملة [2] .

عقد صلح افتتاح القدس في الجابية

قالوا : وبينما عمر بن الخطاب معسكراً بالجابية قرب دمشق وحوله قادة الجيوش بالشام ، وهو يفكر في أمر فتح القدس إذا بأعيان القدس أنفسهم مع حاكمها يأتون إلى الجابية ويعرضون على الفاروق تسليم القدس للمسلمين على أساس الصلح ، شريطة أن يكون الذي يتسلم مفاتيحها ويفتتحها ويتولى توقيع وثيقة الصلح الخليفة نفسه .

---

(١) اليلمق .. القباء المحشو ، وهو بالفارسية يلمة .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٩ .

وكان وصول حاكم القدس المدني (سفرونيوس) وأعيان القدس إلى الجابية بصورة فجائية وغريبة أثارت دهشة القادة المحيطين بالخليفة عمر ، ولم يعرف أحد أنهم جاءوا للصلح بمجرد رؤيتهم سوى الخليفة عمر وحده .

فقد أقبلوا على المعسكر يمتطون صهوات الخيل وفي أيديهم السيوف تلمع ، مما جعل الناس في المعسكر يقومون إلى سلاحهم معتقدين أنه هجوم روماني مفاجيء على المعسكر .

غير أن الخليفة عمر عرف بثاقب فكره أنهم دعاة سلم ، وأنهم إنما جاءوا يطلبون الصلح ووضع الحرب أوزارها في فلسطين ، وأنهم ليسوا محاربين يريدون الهجوم كما توهم البعض فقام إلى سلاحه ، فأمر من في المعسكر أن يلزموا الهدوء ويتركوا السلاح .

ووصف ابن الأثير هذا الحدث التاريخي الغريب في الكامل فقال :

« فبينما عمر بالجابية معسكراً ، فزع الناس إلى السلاح . فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : ألا ترى إلى الخيل والسيوف ؟ فنظر ، فإذا كردوس يلمعون بالسيوف . فقال عمر : مستأمنة (أي طلبة أمان) فلا تراعوا ، فأمنوهم ، وإذا هم أهل إيليا (بيت المقدس) وحيزها [1] (أي القرى والأرياف التابعة لها) .

وبعد أن سمح الخليفة لأهل القدس بدخول المعسكر على خيلهم وبأسلحتهم أبلغوه الهدف الذي من أجله جاءوا اليه وهو عقد الصلح معه على أن يسلموا له بيت المقدس وتكون المدينة ومن فيها آمنين على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم وكنائسهم ، وأن يدفعوا الجزية للمسلمين .

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٤٩ .

فقبل عمر عرضهم وعقد الصلح معهم على الجزية فسلموا له المدينة المقدسة شخصياً وتم الصلح بينهما .

قال ابن الأثير :

« وشهد ذلك الصلح الحبر اليهودي الذي قال للخليفة عمر : لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا .

فسأله عمر .. عن الدجال ، وكان عمر كثير السؤال عنه . فقال الحبر اليهودي : وما مسألتك عنه يا أمير المؤمنين ؟ أنتم والله معشر العرب تقتلونه دون باب لد ببضع عشرة ذراعاً [1] .

وقال أبو جعفر الطبري : أن الحبر اليهودي إياه صرح للخليفة الفاروق أن الدجال هو من عنصر يهودي وأنه من بني بنيامين [2] .

منع اليود من السكنى مع النصارى في القدس

قالوا : وقد اشترط النصارى أثناء إبرام وثيقة تسليم القدس للمسلمين صلحاً. اشترطوا أن تمنع الإدارة الإسلامية اليهود أن يساكنوا النصارى في بيت المقدس، وقد وافق الخليفة الفاروق على هذا الشرط وأمر بمنع اليهود من سكنى مدينة بيت المقدس مع أهلها النصارى .

كذلك اشترط النصارى منع نصارى الروم وغيرهم من مختلف الطوائف النصرانية مطلق الحرية في مغادرة المدينة المقدسة إلى أي بلاد شاءوا مصحوبين بكل ما يريدون استصحابه من أموالهم .

وقد وافق الخليفة أيضاً على هذا الشرط وجعله في صلب الوثيقة .

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٦٠٦ .

نص وثيقة تسلم الفاروق مدينة بيت المقدس

وقد ذكر المؤرخون نص وثيقة الصلح التي بموجبها أستلم ابن الخطاب مدينة بيت المقدس وهذا هو النص :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان .. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منهـا ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضر أحـد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيليـا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم (أي المحاربين) واللصوت (أي السراق) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بينهم وبـين صلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهـم وعلى أموالهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم قعدوا ، وعليهم مثل ما على أهل إيليـا من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة الخلفـاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .. شهد على ذلك خالد بن الوليـد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة »[1] .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ .

كما كتبت وثيقة أخرى لنصارى اللد القريبة من بيت المقدس وهذا نصها .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل (لد) ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين .. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ومن حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم .. ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .. وعلى أهل (لد) ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدن الشام وعليهم إن خرجوا مثل ذلك إلى آخره »[1] .

السيطرة الكاملة للمسلمين على الشام بعد تطهير بيت المقدس

وهكذا وبعد أن تم إبرام وثيقة تسليم المدينة المقدسة في فلسطين القدس إلى عمر بن الخطاب أصبحت الشام كلها من أقصاها إلى أقصاها (ما عدا مدينة طرابلس) خاضعة لسلطان الإسلام ، حيث أن مدينة طرابلس استعصت على المسلمين لمناعة قلاعها وحصانة موقعها ، ولم يتم فتحها للمسلمين إلا في عام ٢٤ هفي عهد عثمان على يد قوات الأمير معاوية بن أبي سفيان .

الفاروق يدخل بيت المقدس

وبعد أن ساد السلام جميع أرجاء فلسطين باستسلام بيت المقدس للخليفة عمر ، (وكانت إجراءات الصلح تمت في الجابية قرب دمشق) . بعد ذلك تحرك الخليفة وبعض قواد جيشه نحو المدينة المقدسة للصلاة فيها وللاطلاع على معالمها وبث مزيد من الطمأنينة في قلوب أهاليها من المعاهدين النصارى ، وأنهم في ذمة المسلمين وحمايتهم لا يمكن أن ينالهم سوء ما داموا كذلك .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٣٤٩ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ وما بعدها .

وقد وصف الطبري في تاريخ الرسل والملوك دخول الخليفة الفـــاروق بيت المقدس وما صنعه فيها فقال :

من رواية أبي مريم مولى سلامة .. « شهدت فتح إيليا مع عمر رحمه الله . فسار من الجابية حتى يقدم إيليا .. ثم مضى حتى يدخل المسجـد ، ثم مضى نحو محراب داود ونحن معه .. فدخله ثم قرأ سجدة داود ، فسجد وسجدنا معه وعن رجاء بن حيويه عمن شهد . قال : لما شخص عمر من الجابية إلى إيليـا ، فدنا من باب المسجد وقال : ارقبوا لي كعباً (أي كعب الأحبـــار) وكان يهودياً فأسلم .

فلما انفرق الباب به قال : لبيك اللهم لبيك هو أحب اليك .

ثم قصد محراب داود عليه السلام ، وذلك ليلا فصلى فيه ، ولم يلبث أن طلع الفجر ، فأمر المؤذن بالإقامة . فتقدم فصلى بالناس وقرأ بهم (ص) وسجد فيها ، ثم قام وقرأ في الثانية صدر بني إسرائيل ثم ركع ثم انصرف . فقال: علي بكعب فأتي به . فقال : أين ترى أن نجعل المصلى ؟

فقال : إلى الصخرة .

فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب ، وقد رأيتك وخلعك نعليك .

فقال : أحببت أن أباشه بقدمي .

فقال : قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره ، كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها ، اذهب اليك ، فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة ، فجعـل قبلته صدره ، ثم قام من مصلاه إلى كناسة ، كانت الروم قد دفنت بهـا بيت المقدس في زمان بني إسرائيل ، فلما صار اليهم أبرزوا بعضها وتركوا سائرها . قال الطبري : وقال عمر أيها الناس اصنعوا كما أصنع ، وجثا في أصلهـا ، وجثا

في فرج من فروج قبائه ، وسمع التكبير من خلفه ، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء . فقال : ما هذا ؟

فقالوا : كبر كعب وكبر الناس بتكبيره .

فقال : علي به . فقال : يا أمير المؤمنين ، انه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة . فقال : وكيف ؟ فقال : ان الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عنهم فدفنوه (كذا) ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل ، ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليت ، فبعث الله نبياً على الكناسة ، فقال : ابشري أوريشليم عليك الفاروق ينقيك مما فيك ، وبعث إلى القسطنطينية نبي ، فقام على تلها ، فقال : يا قسطنطينية ما فعل أهلك ببيتي ، أخربوه وشبهوك كعرشي ، وتأولوا علي ، فقد قضيت عليك أن أجعلك جلحاء [1] . يوماً ما لا يأوي اليك أحد ، ولا يستظل فيك على بني القاذر سبأ وودان ، فما أمسوا حتى ما بقي منه شيء » [2] .

قصة مصرع الأرطبون داهية الروم الأكبر

كان الأرطبون هو القائد المسؤول عن الدفاع عن القدس عندما كان عمرو بن العاص يحاصرها ، وكان داهية شجاعاً شديد الشكيمة ، ولكن الأكثرية الساحقة من أهالي القدس (عسكريين ومدنيين وسياسيين ودينيين) رأوا إنهاء حالة الحرب لأن الحصار ضرسهم وملوا الحرب ، ورأوا أن لا أمل لهم في التغلب على العرب ، فقرروا مصالحة المسلمين على أن يسلموا لهم المدينة .

ولكن بعض كبار القادة وعلى رأسهم أرطبون رفضوا هذه الفكرة وقرروا

---

(١) جلحا أي لا شجر فيها .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٦١١ وما بعدها .

الإستمرار في الصمود وتحمل الحصار حتى تأتيهم الإمدادات من بـــلاد الروم عن طريق البحر .

ولكن هؤلاء القادة كانوا أقلية ، فتم الصلح بين المسلمين والأغلبية الساحقـة من الروم مصالحة .

ولما رأى الأرطبون أن الصلح واقع لا محالة وأن المسلمـــين سيدخلون بيت المقدس ، فضل عدم الدخول في حرب أهلية مع قومه ، وغادر مع الذين على رأيه فلسطين إلى مصر عبر سيناء .

وظل الأرطبون يحارب المسلمين بصلابة وعناد حتى قتـله المسلمون في بعض الوقائع بعدما جاءوا إلى مصر واستولوا عليها .

قال الطبري وعن أبي عثمان وأبي حارثة قالا : ولحق الأرطبون بمصر مقـدم عمر الجابية ، ولحق به من أحب ممن أبى الصلح ، ثم لحق عند صلح أهل مصر وغلبهم بالروم في البحر ، وبقي بعد ذلك ، فكأن يكون على صوائف الروم ، والتقى هو وصاحب صائفة المسلمين ، فيختلف هو ورجل من قيس ضربتـين ، فقطع أرطبون يد القيسي وقتله القيسي فقال :

فإن يكن أرطبون أفسدها ... فإن فيها بحمد الله منتفعـا
بنانتان وجرموز أقيم بـه ... صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا
وإن يكن أرطبون الروم قطها ... فقد تركت بها أوصاله قطعا

وقال زياد بن حنظلة :

تذكرت حرب الروم لما تطاولت ... وإذ نحن في عام كثير نزايله
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا ... مسيرة شهر بينهن بلابـــله
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده ... يحاوله قرم هناك يساجله
فلما رأى الفاروق أزمان فتحها ... سما بجنود الله كيما يصاوله

والقت اليه الشام أفلاذ بطنها ... وعيشاً خصيباً ما تعد مآ كله
أباح لنا ما بين شرق ومغرب ... مواريث أعقاب بنتها قراملة
وكم مثقل لم يضطلع باحتماله ... تحمل عبئاً حين شالت شوائله

وقال أيضاً :

سما عمر لما أتته رسائل ... كأصيد يحمي صرمة الحي أغيدا
وقد عضلت بالشام أرض بأهلها ... تريد من الأقوام من كان أنجدا
فلما أتاه ما أتاه أجابهم ... بجيش ترى منه الشبائك سجدا
وأقبلت الشام العريضة بالذي ... أراد أبو حفص وأزكى وأزيدا
فقسم فيما بينهم كل جزية ... وكل رفاد كان أهنأ وأحمدا [1]

بعد دخول ابن الخطاب مدينة بيت المقدس تمت السيطرة للمسلمين على جميع القطر الفلسطيني وبالتالي السيطرة الكاملة على بلاد الشام ما عدا مدينة طرابلس العتيدة ذات المنشآت البحرية الحصينة والقلعة الشاهقة التي تتوسط المدينة وتحتل تلاً عالياً على نهر يقسم المدينة قسمين ، فقد ظلت ممتنعة يعجز كل جيش إسلامي يحاول الإستيلاء عليها حتى عام ٣٤ هـ حين احتلها معاوية وذلك في عهد الخليفة عثمان حين استعان معاوية بالأسطول الكبير الذي بناه في عهد عثمان ، لأنه في عهد عمر بن الخطاب كان ممنوعاً على قادة الجيوش أن يركبوا جنودهم البحر في أي غزو لأنه يعتبر ذلك مجازفة بأرواح الجنود التي هي من أغلى ما يحرص الفاروق عليه .

ولكن عثمان لما سمح لمعاوية بغزو البحر أنشأ أسطولاً بلغت قطعه البحرية الفاً وسبعمائة سفينة حربية ، وبجانب من هذه السفن استعان على فتح المدينة التاريخية (طرابلس) .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦١٢ وما بعدها .

الفاروق يجعل فلسطين ولايتين

كانت فلسطين ولا تزال أخصب مناطق الشام ، وقد أكد هذه الحقيقة الإمام الطبري بقوله :

« وفلسطين تعدل الشام كله »[1] .

وبعد أن استقرت الأوضاع في فلسطين للمسلمين وتلاشت كل المقاومة البيزنطية فيها بعد سقوط القدس واللد والرملة ، قام الخليفة عمر بتقسيم فلسطين تقسيماً إدارياً (إن صح هذا التعبير) .

فجعلها نصفين .. أسند حكم النصف الأول وعاصمته (القدس) إلى الأمير فاتح غزة ، علقمة بن مجزر ، وأسند القسم الثاني (وعاصمته الرملة) إلى علقمة ابن حكيم ، وضم اليه الجيش الذي كان تحت قيادة عمرو بن العاص الذي له الفضل الأكبر في تحرير فلسطين .

فقد حدثنا الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال :

وفرق (أي عمر) على فلسطين رجلين .. فجعل علقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة ، وعلقمة بن مجزر على الثاني وأنزله إيليا (بيت المقدس) ، فنزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه .

وفي موضع آخر قال الطبري :

وعن سالم قال :

« استعمل عمر علقمة بن مجزر على إيليا وعلقمة بن حكيم على الرملة في الجنود التي كانت مع عمرو ، وضم عمراً شرحبيل اليه بالجابية ، فلما انتهيا إلى

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠٨ .

الجابية وافقا عمراً رحمه الله راكبـــاً ، فقبلا ركبتيـــه وضم عمر كل واحد منهما محتضنهما [1] .

عمر ينشيء التنظيمات الادارية

وبعد استكمال السيطرة على الشام بعد استسلام بيت المقدس كان أول عمل عمله الخليفة عمر هو تدوين الدواوين ، ففرض لكل مسلم فرضاً (وهو ما يسمى اليوم بالراتب) يأخذ المسلم كل سنة من خزينة بيت المال ، مبلغاً من المال، وهذا هو أرقى نظام وضعه الفاروق للضمان الإجتماعي .

ولم يسو الخليفة بين الأفراد في مبلغ الرواتب ، بل جعلها متفاوتة .

ففضل أهل السابقة والبلاء في الجهاد .

فجعل رواتبهم أعلى من رواتب من تخلفوا عنهم في الإسلام .

كما فرض لأقرباء رسول الله ﷺ أكثر من غيرهم لقرابتهم منه ﷺ ، مثـل العباس والحسن والحسين .

وكان سهيل بن عمرو العامري وصفوان بن أمية الجمحي والحارث بن هشام المخزومي من زعماء قريش في الجاهلية ، وكانوا ممن أسلم في الفتح وحسن إسلامهم.

ولكن الفاروق جعل رواتبهم أقـــل ممن سبقوهم إلى الإسلام حتى وإن كانوا عبيداً عتقوا .

وكان الثلاثة الزعماء يظنون أن عمر سيجعل لهم الرواتب عالية تتماشى مع مراكزهم في قبائلهم ، ولكنه لم يفعل ، فجعلهم كعامة الناس .

لذلك رفضوا استلام الرواتب احتجـــاجاً وقالوا : لا نعرف أن يكون أحد أكرم منا .

فقال عمر :

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦١١-٦١٢ .

إنما أعطيتكم على السابقة في الإسلام لا على الأحساب ، لذلك راجعوا عقولهم فوجدوا الصواب فيما فعل عمر فاستلموا أعطياتهم .

وقد خرج سهيل بن عمر (وكان من أبر الناس وأفضلهم رغم تأخر إسلامه) إلى الشام بأهله ، كما خرج الحارث بن هشام بأهله إلى الشام وما زالا يجاهدان في سبيل الله حتى نالا الشهادة في معارك الحدود الشمالية في حروب الدروب [1] .

عمر يرفض جعل راتبه أعلى من عامة المسلمين

ولما عاد الخليفة عمر من الشام إلى المدينة وشرع في تنظيمات الدولة الإدارية والمالية وضع كوادر بموجبها تثبت أعطيات (رواتب) عامة المسلمين وخاصتهم في دواوين خاصة اقترح عليه أعيان الصحابة ، مثل علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف أن يبدأ بنفسه بحيث يكون على رأس قائمة أصحاب الأعطيات من حيث ضخامة المرتب لأنه خليفة وذو تكاليف أكثر من غيره ومتفرغ لخدمة الأمة ليس له دخل تجاري يغنيه فرفض اقتراحهم وقال :

أبدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب .

فكان أول من سجل إسمه للأعطيات (الرواتب) في الديوان (قسم الرواتب بالمالية) العباس بن عبد المطلب ، فكان راتبه أعلى راتب بين جميع الصحابة وهو خمسة وعشرون الفاً .

ثم فرض لأهل بدر .. فجعل راتب كل إنسان حضر بدراً خمسة آلاف .

ثم ساوى الحسن والحسين (رغم صغر سنهما وكونهما من غير أهل بدر) بأهل بدر فجعل عطاء كل واحد منهما خمسة آلاف ، لقربهما من رسول الله ﷺ .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦١١-٦١٢ .

ثم جعل راتب كل من أسلم بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف .

ثم جعل راتب من بعد الحديبية إلى أن توقفت حرب الردة ثلاثة آلاف .

ثم جعل رواتب الذين شهدوا القادسية واليرموك لكل واحد الفين .

وفرض لأصحاب المواقف المشهودة والذين يقال لهم : (أهل البلاء البارع) الفين وخمسمائة .

وقال بعضهم : لو جعلت عطاء (أي راتب) أهل القادسية مثل أهل الأيام التي قبلها ، أي ثلاثة آلاف .

فقال : لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا .

وقيل له : قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم عن فنائه .

فقال : من قربت داره أحق بالزيادة ، لأنهم كانوا رداً للحوق وشجى للعدو ، فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والأنصار ، فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم ، وهاجر اليهم المهاجرون بعد .

ثم جعل عمر رواتب من بعد القادسية واليرموك الفاً .

وجعل رواتب الروادف للمثنى لكل مقاتل خمسمائة ، وجعل راتب أبي ذر مثل رواتب أهل بدر ، رغم أنه لم يشهدها .

رواتب أمهات المؤمنين

وجعل عمر رواتب أمهات المؤمنين ، لكل واحدة عشرة آلاف ، وفضل عليهن عائشة الفين ، لمحبة رسول الله ﷺ إياها ، ولكنها لم تأخذ هذه الزيادة ، وأبت إلا أن تكون مثل أمهات المؤمنين الأخريات .

وأكرم نساء أهل بدر ، فجعل راتب كل واحدة منهن خمسمائة ، ونساء من بعد أهل بدر إلى الحديبية أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك ثلاثمائة ، وجعل رواتب

نساء محاربي القادسية مائتين ، ثم سوى بعد ذلك بين النساء ، وجعل راتب كل صبي من أبناء المسلمين بدون تمييز مائة .

وروى عنه رضي الله عنه أنه قال :

لقد هممت أن أجعل العطاء (أي الراتب) أربعة آلاف ، الفاً يجعلها الرجل في أهله والفاً يزودها معه والفاً يتجهز بها ، والفاً يترفق بها ، فهات رحمه الله قبل أن يفعل .

وقال قائل : يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الأموال عدة لكون إن كان ، (أي لحدث إن حدث) فقال : كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها ، وهي فتنة لمن بعدي ، بل أعددتها ، طاعة لله ورسوله ، فهما عدتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون ، فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم [1] .

عمر يستشير مجلس الشورى فيما يفعل بالغنائم العظيمة

وفي هذه السنة . سنة ١٥ هـ التي تمت للإسلام السيطرة على الشام كله ماعدا مدينة طرابلس ، وانتصر المسلمون ذلك الإنتصار الرائع في القادسية التي قتل فيها وزير الحرب وقائد قوات الفرس رستم .. في هذه السنة ارتفع مخزون الأموال التي غنمها المسلمون نتيجة هذه الإنتصارات ، فأقلق عمر ذلك وكان يخاف الله ويخشى تكديس الأموال ، فهاله ارتفاع تجميد الأموال التي غنمها المسلمون في تلك السنة في معارك العراق والشام ، كما كثر امتلاك الدولة مساحات شاسعة من الأراضي الغنية الصالحة للزراعة وخاصة في العراق ، والتي تنتج من المحصولات الزراعية كميات هائلة .

لذلك استشار الفاروق ما يمكن تسميته من مجموع كبار الصحابة (مجلس الشورى) كيف يتصرف في هذه المشكلة التي عرضت له وأقضت مضجعه ،

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦١٣ وما بعدها والكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٥٠ وما بعدها .

رجل يخشى الله ، ويتخوف من أن يخطيء حين يتصرف منفرداً في هذه الأموال المنقولة وغير المنقولة العظيمة . ولدى تداول الآراء اتفق رأيه ورأي علي بن أبي طالب بما أراح ضمير عمر .

قال أبو جعفر :

كتب إلي السري . قال : لما فتحت القادسية وصالح من صالح من أهل السواد (هو ما بين دجلة والفرات أغنى الأراضي الزراعية في العراق) وافتتحت دمشق وصالح أهل دمشق قال عمر للناس :

اجتمعوا فأحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية والشام . فاجتمع رأي علي وعمر على أن يأخذوا من قبل القرآن فقالوا :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى يعني الخمس فلله وللرسول أي إلى الله والرسول .. من الله الأمر وعلى الرسول القسم . « ولذي القربى واليتامى والمساكين » الآية [1] .

ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها .. « للفقراء المهاجرين » الآية [2] .

فأخذوا الأربعة أخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدىء وثني وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ، ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالى : (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) [3] فقسم الأخماس على ذلك ، واجتمع عمر وعلي وعمل به المسلمون بعده .

فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم .

ثم فرض الأعطية من الجزاء (أي الجزية) على من صالح أو دعي إلى الصلح

---

(١) الحشر آية ٦ و ٧ .
(٢) الحشر آية ٧ .
(٣) الطبري ج ٣ ص ٦١٧ .

من جزائه ، مردود عليهم بالمعروف . وليس في الجزاء أخماس ، والجزاء لمن منع الذمة ووفى لهم ممن ولي ذلك منهم ، ولمن لحق بهـــم فأعانهم ، إلا أن يواسوا بفضلة من طيب أنفس منهم من لم ينل مثل الذي نالوا . (الطبري ج ٣ ص ٦١٧ وما بعدها) .

وضع قاعدة التاريخ الهجري

وكما وضع الفاروق رضي الله عنه النظم الإدارية والمالية في السنـــة الخامسة عشرة .. فدون الدواوين وضع سلماً للرواتب لأفراد الأمة نساء ورجالاً وأطفالاً وحتى أهل الذمة من غير المسلمين العاجزين عن العمل ، كذلك نظم التاريـــخ ووضعه على الوثائق والرسائل . ففي السنة ١٦ هـ فكر في وضع قاعـدة للتاريخ العربي يعمل بها المسلمون .

فقد قال الطبري :

حدثني ابن أبي سبرة عن عثمان بن عبد الله بن أبي رافع عن ابن المسيب قال :

أول من كتب التاريخ عمر لسنتين ونصف من خلافته ، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علي بن أبي طالب .

وعن عثمان بن عبد الله بن أبي رافع قال :

سمعت سعيد بن المسيب يقول : جمع عمر بن الخطاب النـــاس فسألهم . . من أي يوم نكتب . فقـــال علي : من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر .

الفاروق يحج بعد امتلاك الشام

وبعد أن استقرت الأوضاع في الشام وأصبحت بأكملها إقليماً تابعاً للمدينـة المنورة عاصمة الخلافة وفي السنـــة السادسة عشرة ، قام الخليفـــة عمر بأداء مناسك الحج .

واستخلف على المدينة زيد بن ثابت .

وكان عامل عمر في هذه السنة على مكة ، عتاب بن أسيد الأموي ..وكان شاباً صالحاً مستقيماً ، وكان عليها أميراً من عهد الرسول ﷺ .

وكان على الطائف الشاب الصالح الآخر وهو عثمان بن أبي العاص ، وعلى اليمن الصحابي المؤسر الشهير (يعلى بن أمية) [١] .. وعلى اليمامة والبحرين .. (العلاء بن الحضرمي) [٢] ، وعلى عمان حذيفة بن محصن الغلفاني [٣] .

وكان حذيفة هذا أحد القادة البارزين الذين قادوا الألوية أيام حروب الردة فسحقوا الإنقلابيين المرتدين ، وكانت منطقة عملياته العسكرية يوم ذاك مسقط وعمان .

وكان في تلك الأيام (أي بعد استكمال فتح الشام) على حرب الموصل ربعي بن الأفكل .

وعلى الخراج بها ، عرفجة بن هرثمة البارقي .. وهو أحد قادة الألوية المشهورة التي قامت في عهد الصديق بسحق المرتدين واعادة الحكم للإسلام في جزيرة العرب بعد أن انتقضت الجزيرة كلها .

محاولة عرب الجزيرة النصارى القيام بانقلاب ضد المسلمين

الجزيرة هنا تعني الأراضي الواقعة ما بين دجلة والفرات في الشمال حتى حدود تركيا . وهي التي تسمى بأرض الروم أو آسيا الصغرى .

وكان يقطن الجزيرة هذه عرب من النصاري النساطرة ، وكانوا رغم

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة (معارك الإسلام الفاصلة) .

(٢) انظر ترجمة هذا القائد في كتابنا (حروب الردة) .

(٣) انظر ترجمته في كتابنا حروب الردة وكان قائداً لإخماد الفتنة في عمان في الجنوب .

اشتراكهم في الوطن والدم مع المسلمين الفاتحين على غير ولاء لهم ، وإن كانوا في الظاهر يعلنون خضوعهم لهم وولاءهم .

فقد كانوا على ولائهم القديم للاستعمار الروماني الذي كان يستخدمهم دائماً وقوداً للحروب وكرأس حربة في أية حرب يخوضهـــا الرومان عدوانيـــة كانت أم دفاعية .

إتصال النصارى العرب بهرقل

ورغم أن الإمبراطور القسيس العجوز (هرقل) موقن بأن العرب المسلمين هم سادة الشام إلى الأبد ، فإن أحلام العودة إلى الشام التي تغالطه في هذه الحقيقة ، كانت تراود خياله .

أما قادة جيشه وكبار الأقطـــاب في دولته فطمعهم في العودة (حكاماً إلى الشام) كان أوسع ، فهم لم يهضموا بعد كيف تمكنت حفنة من البدو العرب من انتزاع أغلى درة في تاج بيزنطا بهذه البساطة والسهولة .

إن العرب أقل عدداً ، وجيوش بيزنطا أكثر جنداً وأوسع خبرة بأساليب الحرب وأغزر مادة في التموينات والأسلحـة والذخائر . فكيف إذن انهزمت هذه الجيوش أمام رتل من الجنود البدو غير النظاميين والذين أكثرهم كان يقاتل حاسراً بدون درع ، ويركب الخيل بدون سرج ؟

لذلك كان رجال دولة هرقل في القسطنطينية أكثر تطلعاً منه إلى العودة إلى السيطرة على الشام .

ولقد جاءهم ما يوسع أطماعهم هذه . فازدادوا شغفـــاً بالعودة إلى الشام ضباطاً وأمراء . .

فقد نقلت اليهم استخبـاراتهم أن عرب الجزيرة من النصارى يحثونهم على تجهيز حملة رومانية من الجيش والأسطول كبيرة لمهاجمـة الشام . وأن العرب

المتنصرة هؤلاء مستعدون لإعلان الثورة لصالح بيزنطا ضد النظـــام الإسلامي القائم المستقر هناك وكان أكثر النصارى تحمساً لهذه الفكرة نصارى (الرها) ونصارى (نصيبين) ونصارى (الرقة) [1] .

محاولة الرومان احتلال حمص من جديد

ولقد رحبت وزارة الحرب في القسطنطينيـــة لدعوة نصارى الجزيرة إلى الهجوم على الشام ووثقت من قيامهم بالثورة ضد المسلمين في الوقت المناسب .

ومن أجل التنسيق لتحقق هذا الهدف ، اجتمع (سراً) من العرب المتنصرة (عرب الجزيرة) ومن الرومان في مكان ما من بلاد الروم ، للاتفـاق على أي المواقع في الشام يجعلونه هدف هجومهم الكبير الأول .

لقد كان المتبادر إلى الذهن أن حلب أو أنطاكية ستكون الهـدف الأول للغزو المزمع الجديد ، وذلك لكون كل منهما قريباً جداً من حدود المملكـــة البيزنطيـــة .

---

(١) الرقة ـ بفتح أوله مع التشديد - التي ينصب عنها الماء ، جمعها رقاق ، وفي الجغرافيا مدينة كانت من أشهر المدن في الجزيرة وتقع على الشاطىء الشرقي لنهر الفرات ، بينهـــا وبين مدينة حران ثلاثة أيام . قال القائد سهيل بن عدي وهو الذي شاوك في فتحها :

أخذنا الرقة البيضاء لما ... ورأينا الشهر لوح بالهلال

قالوا : وكان على الشاطىء الغربي مدينة أخرى تعرف برقة واسط كان بها قصران للخليفـــة الأموي هشام بن عبد الملك على طريق رصافة الشام وأسفل من الرقة بفرسخ واحد . . ونصيبين بالفتح ثم الكسر ثم ياء : مدينة شهيرة عبر التاريخ ، وهي من أعظم مدن الجزيرة في العراق ، كانت محطاً للقوافل في العصور القديمة ولهذا كان الملوك يتنازعون السيطرة عليها . بينهـــا وبين سنجار أربعة وخمسون ميلاً . وكانت محصنة وعليها سور منيع ، وهي كثيرة الميـــاه ، والماء يجري في وسطها وهناك مدن ومواقع أخرى تسمى نصيبين . لكن الاسم إذا أطلق أطلق على هذه المدينة العتيدة .

ولكن لما كان عرب الجزيرة وهم يقعون في أقصى الشرق من الشام، وبعضهم يقطن ضمن الأراضي العراقية بالقرب من الشام .. ولما كان المتفق عليه بين المتآمرين أن هؤلاء العرب سيكونون رأس الحربة في الغزو الجديد . فقد اتفق الفريقان على أن تكون مدينة حمص هدف الإنتفاضة والهجوم .

ويظهر أن الاختيار وقع على حمص لعدة عوامل منها .

١ - كونها العاصمة الثانية لهرقل أيام ملكه الشام . وفيها خلايا وأصدقاء متسترون له .

٢ - ولأن حمص لا تبعد كثيراً عن ميناء طرابلس الشهير الذي كان حتى تلك المحاولة لا يزال في قبضة الجيش البيزنطي .

٣ - ولأن هناك موانيء حربية يعرفها الأسطول البيزنطي ، قريبة جداً من حمص ويمكنه الإنزال فيها عند الحاجة . وهي (طرطوس وبانياس ثم اللاذقية) .

٤ - ولأن حمص يعسكر فيها أضخم جيش إسلامي في الشام حيث كانت مقراً للقائد العام أبي عبيدة بن الجراح .. فإذا أخذوا هذا الجيش على حين غرة فإنهم يدمرون أضخم قوة تعسكر للاسلام في الشام .

ثم بعد ذلك يسهل عليهم بمساندة عشرات الألوف من المتنصرة أن يستعيدوا القطر الشامي بلدة بلدة .

استخبارات المسلمين تكتشف المؤامرة قبل حدوثها

غير أن أجهزة استخبارات الإسلام لم تكن بغافلة في الشام وشمال العراق عما يحاك للاسلام والمسلمين في الخفاء من هؤلاء الخونة عرب ما بين النهرين في الشمال .

فقد كانت هذه الإستخبارات تتبع عيونها تحركات المشبوهين من العرب المتنصرة في الجزيرة ، وكانت تجمع كل المعلومات عن المؤامرة .

وكانت تفاصيل الإتصالات والمحادثات بين الروم والخونة المتنصرة تصل الإستخبارات الإسلامية ، أولاً بأول .

وكانت التقارير عن المؤامرة ترفع إلى القيادة في الشام بكل دقة وتفصيل . فترفع هذه القيادة كل ما يصلها من معلومات (بأسرع ما يمكن) إلى الخليفة الفاروق في المدينة .

وقد اهتم الفاروق بالمؤامرة أشد الإهتمام .

فوضع (وبأسرع ما يمكن) خطة محكمة لإحباط هذه المؤامرة .

قوات الاحتياطي في العراق تضرب الخونة في الجزيرة وتجهض المؤامرة

لم تأت السنة السابعة عشرة من الهجرة إلا وقد تمت السيطرة لجيوش الإسلام على المدائن عاصمة كسرى وبذلك تمت السيطرة الكاملة للمسلمين على العراق كله.

الحاكم العام للعراق وقائد جيوشها آنذاك سعد بن أبي وقاص .

وكان أبو عبيدة بن الجراح في مثل منصبه بالشام .

وكان الخليفة الفاروق لما انتهت الحرب في القطرين (الشام والعراق) أمر بتوزيع وحدات من الفرسان على ثماني مناطق ، ليكون هؤلاء الفرسان كالاحتياطي ، وكقوات طواريء خفيفة تسارع للعمل في الأمور التي تتطلب الاستعجال .

وكان من هذا الإحتياطي أربعة آلاف فارس بالكوفة .

وإلى هذا التوزيع أشار الإمام الطبري بقوله :

(كان عمر قد اتخذ في كل مصر على قدره خيلاً من فضول أموال المسلمين عدة لتكون: إن كان : فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فارس) [1] .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٥١ .

خروج الخليفة من الشام لمواجهة المؤامرة بنفسه

ولما كانت التقارير تشير إلى خطورة المؤامرة وأنها قد تنجح إذا لم يقض عليها بسرعة . فقد قرر الخليفة الفاروق نفسه الخروج إلى الشام ليكون سنداً لقائده أبي عبيدة بن الجراح .

وكان من أروع ما في الخليفة الفاروق الإصابة في اتخاذ القرارات والسرعة في التنفيذ . وحسبه رضي الله عنه شهادة قول النبي الأعظم ﷺ في حقه :

(أنزل الله الحق على لسان عمر وقلبه) وذلك لكثرة ما ينزل القرآن بتأييد فكرة قالها عمر .

وفي الوقت الذي قرر فيه الخليفة الخروج بنفسه إلى الشام . وخرج (فعلاً) حتى وصل (الجابيه قرب دمشق) .. في هذا الوقت أصدر أوامرة المستعجلة إلى حاكم العراق وقائد جيوشها سعد بن أبي وقاص بأن يبعث على جناح السرعة باحتياطي الكوفة وعدده أربعة آلاف فارس : لضرب منطلق التآمر في شمال الجزيرة حتى لا يتمكن الخونة من العرب المتنصرين من مساندة الرومان إذا ما عبروا الحدود نحو حمص . .

كما أمر عمر سعداً بأن يبعث بجيش آخر مدداً لأبي عبيدة لمساندته بحمص لمواجهة الغزو الكبير الذي تعده القسطنطينية بتواطيء من العرب المتنصرة في الجزيرة .

وقد صدع القائد سعد بالأمر .

فبعث على جناح السرعة عدة وحدات من الفرسان لضرب منبع التآمر وهم عرب الجزيرة النصارى ، وقد أسند سعد قيادة هذه الوحدة إلى قادة ثلاثة هم :

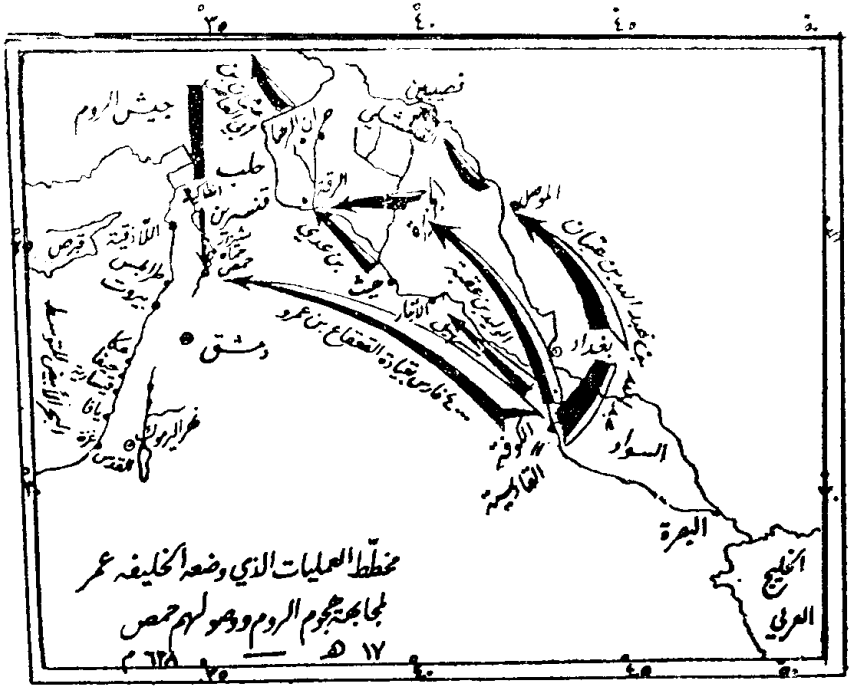
٣٥°
٤٠°
٤٥°
جيش الروم
حلب
قنسرين
اللاذقية
قبرص
طرابلس
بيروت
دمشق
عمان
غزة
القدس
البحر الأبيض المتوسط
الرقة
نصيبين
الموصل
بغداد
السواد
الكوفة
القادسية
البصرة
الخليج العربي
سعد بن أبي وقاص
عبد الله بن عتبان
أبو عبيدة بن الجراح
خالد بن الوليد
يزيد بن أبي سفيان
شرحبيل بن حسنة
سعد بن عبادة
سعد بن عمرو
٤٠ فارس بقيادة القعقاع بن عمرو
مخطط العمليات الذي وضعه الخليفة عمر
لمجابهة هجوم الروم ووصولهم حمص
١٧ هـ — ٦٣٨ م

١ - سهيل بن عدي [١] .

٢ - الوليد بن عقبة [٢] .

٣ - عياض بن غنم [٣] الفهري . وهو أمير الجميع .

كما سارع بتحريك قوات كثيفة من العراق نحو أبي عبيدة في حمص بقيادة الفارس الشهير القعقاع بن عمرو التميمي [٤] .

وكل هذه التحركات السريعة جاءت وفق مراسيم أصدرها الفاروق إلى حاكم العراق سعد وهذا نصها .

« سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند ، وليأت الرقة . فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وأن أهل قرقيسيا لهم سلف ثم ليقصد حران والرها » .

وفي مرسوم آخر إلى سعد .

(وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ : وسرح عياض ابن غنم فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم) وكان القائد عياض من كبار قادة العراق الذين خرجوا وعبروا صحراء السماوة مع خالد بن الوليد نجدة لجيش اليرموك .

وجاء في مرسوم للخليفة ثالث :

(انتدب الناس مع القعقاع بن عمرو ، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص فإن أبا عبيدة قد أحيط به وتقدم اليهم في الجد والحث [٥] .

---

(١) يظهر أن سهيلاً هذا من فضلاء التابعين الأولين ، لأنني لم أجد له ترجمة بين الصحابة الكبار في أمهات التراجم .

(٢) انظر ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٣) انظر ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٤) انظر ترجمته فيما مضى من هذا الكتاب .

(٥) الطبري ج ٤ ص ٥١ .

أبو عبيدة يستعد في حمص للمواجهة

وفي الوقت الذي أخذت فيه النجدات ووحدات الإحتيـــاط تتحرك من مرابضها في العراق بقصد دعم حاكم الشام أبي عبيدة : كان أبوعبيدةالذي جيشه في حمص هدف المؤامرة - يعد العدة للقتال : ولما كان قد ترك يده اليمنى خالد ابن الوليد أمير أعلى قنسرين ، ورتب عدة وحدات من جيشه في مراكز مختلفة متقدمة : وذلك حسب أمر الخليفة كما فعل في العراق . فقد سارع أبو عبيـدة وأصدر أمره إلى الأمير خالد بأن ينضم اليه بقواته في حمص ليشاركـــه في صد الغزو الكبير المنتظر .

كما أصدر أمره إلى جميع قوات المسالح المتقدمة ومراكز المراقبة في الداخل بأن يلتحقوا هم أيضاً به في حمص .

مؤتمر حربي للتشاور

وعندما تكاملت كل القوات المطلوب تواجدها في حمص من أهل الشام ، دعا الأمير ابن الجراح إلى مؤتمر عسكري حضره كل قادةالفرق والألوية وعلىرأسهم الأمير خالد بن الوليد .

وقد طرح أمير الشام الموقف الناجم عن التحركات الرومانيـــة والعرب المتنصرة في الجزيرة للتشاور واتبـــاع أفضل السبل لصد الغزاة وإحبـــاط المؤامـــرة .

وفي هذا المؤتمر كل أعطى رأيه الذي يراه صواباً .

وكان أول من تكلم الأمير خالد بن الوليد ، فاقترح أن تقوم القوات الإسلامية في حمص بمناهدة الروم ، واعتراضهم في الطريق قبل أن يصلوا إلى منطقةحمص، وذلك لإرهابهم وإعطائهم فكرة عن أن قوة الإسلام أقوى مما يتصورون .

غير أن الأمير أبا عبيده خالف الأمير خالداً في هذه الفكرة . ولكنـــه لم

يحب الاستبداد (وهو في موقف استشارة) فاستشار باقي القواد ، فحبذ كلهم التحصن في مدينة حمص ، حتى يستشيروا الخليفة في المدينة ويروا رأيه .

وإذا ما هاجمهم الرومان قبل وصول الجواب من عمر قاتلوهم .

ولم أر فيما بين يدي من مصادر أن عمر جاء منه شيء بشأن التحصن في حمص أو الخروج للمواجهة خارجها .

وعلى كل حال فإن الروم (فعلاً) نجحوا في اجتياز حدود الشام بجيوشهم في اتجاه حمص .

وكانت منطقة عبورهم من الحدود تقع غربي حلب قرب أنطاكية .

وكان عرب الجزيرة من النصارى قد احتشدوا حول حمص في انتظارهم ، ليشكل الجميع قوة ضاربة يجتاحون بها مدينة حمص .

الاحاطة بحمص

وفعلاً نجح الرومان والعرب المتنصرة في تطويق مدينة حمص بقواتهم الضاربة.

فكان الموقف حرجاً بالنسبة لجيش أبي عبيدة .

وكان العرب المتنصرة يشكلون رأس الحربة في الهجوم على مدينة حمص .

فكانوا مركز الثقل في حركة الغزو هذه .

لأنهم هم الذين دعوا الروم اليها فأجابوهم .

إنهم خونة ما في ذلك من شك . لأنهم كانوا في حالة تعاهد مع المسلمين .

ولقد بدأ الخناق يضيق على أبي عبيدة وجيشه في حمص .

انسحاب المتنصرة يقلب ميزان القوى لصالح المسلمين

غير أن عمر الفاروق وقائده الشجاع الفذ سعد بن أبي وقاص في العراق ضربا ضربتهما ، فكانت من أنجح الضربات التي غيرت ميزان القوى حول حمص لصالح أبي عبيدة وجيشه .

بلغ الخونة من عرب الجزيرة النصارى المشتركين في الحصار مع الروم أن قوات تحركت بسرعة من مواقعها في العراق .

وهنا ارتبك هؤلاء الخونة العرب النصارى . قبـــل أن يتضح لهم إلى أية جهة تقصد نجدات العراق إلى ديارهم للاغارة عليهم وتأديبهم ، أم إلى حمص لدعم أبي عبيدة .

وعلى كل كان هذا الإرتباك عاملاً أجبر هؤلاء المتنصرة على التخلي عن حلفائهم الرومان الذين تورطوا بسببهم في هذا الغزو الذي آل إلى الفشل .

فقد انسحبت جميع الوحدات من محاربي المتنصرة من أهل الجزيرة . انسحبوا من منطقة حمص بدافع الخوف على ديارهم في الجزيرة من أن تغير عليها فرسان المسلمين المتحركة من العراق .

فقد انسحبوا ليدافعوا عن ديارهم في الجزيرة إذا ما كانت هذه الديار وجهة قوات الصاعقة من فرسان المسلمين التي تحركت من الكوفة بقيادة عياض بن غنم .

فك الحصار والفتك بقوات الروم

وبعد أن نقلت استخبارات أبي عبيدة الية أنباء انسحـــاب جميع عناصر المتنصرة العرب من التجمع الروماني شعر بالارتياح .

فقد تراخت قبضة الرومان التي كانت شديدة على مدينة حمص .

ثم عقد أبو عبيدة مجلساً عسكرياً تدارس (على أثر التطورات الجديـــدة) الموقف مع هيئة أركان حربه وفي هذا المجلس اقترح خالد بن الوليد أن يشن أبو عبيدة على الرومان هجوماً صاعقاً معاكساً ، فحبذ الجميع اقتراح الأمير خالد .

وفي الحال قام أبو عبيدة بالهجوم الشامل على قوات الروم المحاصرة لحمص .

وقد نجح الهجوم نجاحاً باهراً .

فقد تمكن الجيش الإسلامي من تدمير أكثرية الجيش الروماني المحيط بحمص، وفر من بقي منهم على قيد الحياة نحو آسيا الصغرى في اتجاه أنطاكية .

فكلف أبو عبيدة وحدة من الفرسان بمطاردة الفارين ففتكت بأكثرهم . فلم ينج منهم إلا الشريد .

وهكذا فشل الغزو ونجت حمص من الوقوع في قبضة الرومان .

والعامل الحاسم في الأمر هو انسحاب عناصر عرب الجزيرة المتنصرين من التجمع الروماني .

ولقد أنجز أبو عبيدة كل هذه المهام الحربية وبهذه السرعة قبل أن يصل الخليفة عمر بنجداته الرئيسية إلى الجابية في الشام .

وقبل أن تصل قوات الدعم التي يقودها القعقاع بن عمرو من العراق بأمر من الأمير سعد بن أبي وقاص ، فقد وصلت قوات الدعم هذه إلى حمص بعد ثلاثة أيام من انتهاء معركة النصر التي خاضها جيش أبي عبيدة منفرداً ضد الرومان .

وإذا كانت قوات الدعم التي يقودها القعقاع لم تشترك في معركة حمص الأخيرة ، فإن تحركها كان من عوامل الحسم في المعركة .

فقد كان هذا التحرك لما بلغ العرب المتنصرة من أهل الجزيرة المتواجدين ضمن جيش بيزنطا لمحاصرة حمص عامل إرهاب أرهبهم ، وخافوا أن يكون قصده بالتحرك من الكوفة ديارهم في الجزيرة ، فتركوا الروم وحدهم في الميدان وانسحبوا بدافع الدفاع عن ديارهم في الجزيرة بين النهرين .

إشراك قوات العراق في الغنائم وإن لم تشترك في القتال

ولقد غنم جيش أبي عبيدة من الرومان غنائم عظيمة .

ووصلت قوات الدعم من العراق بقيادة القعقاع إلى منطقة حمص قبل أن تقسم الغنائم .

فاحتار الأمير أبو عبيدة هل يشرك قوات الدعم العراقية في الغنائم أم لا .

إنهم لم يباشروا أي قتـــال ضد الروم ، ولكنهم كانوا من عوامل الحسم لصالح الإسلام في المعركة .

وأخيراً قرر أن يحمل الأمر إلى الخليفة عمر ليرى رأيه في هذا الموضوع

ولذلك عرض الأمر على الخليفـة فقرر أن تشترك قوات الدعم من وحدات الصاعقة الآتية من العراق في غنائم حمص .. لأن أثرها كان عظيماً في إجبـار العرب المتنصرة على الإنسحاب من جيش الروم وذلك عندما بلغهم تحرك هذه القوات وغيرها من العراق فخافوا أن يكون هدفها ديارهم في الجزيرة فخـذلوا حلفاءهم الرومان وانسحبوا من جيشهم .

وفي نفس الوقت وجه الخليفه عبارات شكر رقيقـة إلى قوات الدعـــم هذه على سرعة تحركها وأشار إلى أثرها الحـــاسم في سير الأمور لصـــالح المسلمين قائلاً :

(جزى الله أهل الكوفة سيراً : يكفون حوزتهم ويعدون أهل الأمصار : أشركهم فإنهم قد نفروا اليكم ، وتفرق لهم عدوكم) والعبـارة الأخيرة إشارة إلى كون قوات الكوفة كانت مبعث إرهاب في نفوس الخونة من عرب الجزيرة المتنصرين أصحاب فكرة المؤامرة .

فأشركهم أبو عبيدة وساوى بينهم في الغنيمـة وبـين الذين خاضوا وحدهم معركة حمص الحاسمة [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٢ وفن الحرب ص ١١٦ للعسلي .

الخليفة الفاروق في الشام للمرة الثانية

كان الخليفة الفاروق عندما تلقى من قائده في الشام نبأ مؤامرة عرب الجزيرة النصارى مع الروم على الإسلام والمسلمين في الشام : أزعجه الخبر واهتم بأمر الشام غاية الإهتمام : وخشي أن تكون مؤامرة حمص من الروم والخونة العرب النصارى بداية عملية واسعة ينوي الرومان القيام بها – عن طريق البر والبحر – لاستعادة الشام بالقوة .

لذلك غادر المدينة بنفسه ليكون قريباً من مسرح الأحداث لاتخاذ الإجراءات الحاسمة المناسبة لمعالجة المشكلة إذا ما نجمت . وقد وصل الجابية قرب دمشق في السنة السابعة عشرة وهي المرة الثانية التي يزور فيها الشام .

لقد كان تصرف النصارى من عرب الجزيرة (ما بين النهرين) تصرفاً مشيناً للغاية .

فقد نكثوا عهدهم وغدروا بالمسلمين الذين لم يروا منهم إلا الوفاء والصدق والعدل والتسامح .

تعهد نصارى الجزيرة للرسول ﷺ

كان عرب الجزيرة هؤلاء في حياة الرسول الأعظم ﷺ وفدوا عليه في المدينة ، وعقدت بينه وبينهم معاهدة تعهد فيها هؤلاء العرب النصارى بأن لا ينصروا أحداً على المسلمين (انظر ابن هشام) .

وها هم اليوم يرتكبون أعظم خيانة ويأتون بأكبر جناية في حق المسلمين .

ها هم يغرون العدو الروماني بالمسلمين ويحرضونه عليهم ، وعندما عبرت الجيوش الرومانية حدود الشام كان هؤلاء المتنصرة من عرب الجزيرة عضداً وسنداً ضد جيش أبي عبيدة في حمص . فقد اشتركوا في محاصرة أبي عبيدة في حمص ، وكان مقرراً أن يظلوا مشتركين في الحصار إلى جانب العدو لولا أن

وصلتهم أنباء تحرك وحدات الصاعقة من قوات الدعم العراقية من الكوفة وغيرها.

احتلال الجزيرة وتأديب النصارى الناكثين

لقد كان (بعدما حدث) وضع أنصار الجزيرة يشغل بال الخليفة الفاروق عمر.

لقد كانت لهم عهد وذمة أعطاهم إياهما الرسول ﷺ في المدينة.

ولكنهم بعدما حدث منهم من غدر وتأليب على المسلمين لم تعد لهم في رقاب المسلمين عهد ولا ذمة.

ولقد ظل الذي حدث من متنصرة عرب الجزيرة يشغل بال الخليفة الفاروق.

لأنهم كشفوا عن أنهم عنصر غادر خبيث لا يؤمن جانبه رغم العهود والمواثيق التي يعطيها.

وأن هؤلاء المتنصرة .. قد يتكرر منهم (لو سنحت لهم الفرصة) أن يرتكبوا خيانة أكبر.

لذلك اتخذ الفاروق قراراً حاسماً بتأديب هؤلاء العرب المتنصرة وسحق قوتهم العسكرية وقتل روحهم الحربية ، كاجراء صارم للحيلولة بينهم وبين أن يرتكبوا أي عمل خياني ضد المسلمين في المستقبل القريب أو البعيد.

فقرر أن تغزوهم وحدات من جيوش الإسلام فتخمد شوكتهم بحيث تطأ أرضهم وتقوم بتأديبهم تأديباً يجعلهم يذكرونه كلما فكروا مرة أخرى في التآمر على المسلمين.

ولما كانت أكثرية هؤلاء العرب المتنصرة تقع ديارهم في منطقة العراق حيث الرهاء والرقة ونصيبين ما بين دجلة والفرات ، فقد صدرت أوامر الخليفة إلى قائد جيوشه في العراق سعد بن أبي وقاص بأن يكلف وحدات من فرسان جيشه بالتحرك إلى ديار هؤلاء الخونة لضربهم وتأديبهم بالسيطرة على بلادهم وإخضاعها بحد السيف تربية لهم.

قوات التأديب تتحرك

فصدع الأمير سعد بالأمر فحرك عدة آلاف من الفرسان من مدينة الكوفة، وأمرهم بأن يطأوا ديار أولئك الخونة ويخمدوا شوكتهم .

وكانت قوات الصاعقة من هؤلاء الفرسان يقودها ثلاثة من مشاهير قادة الجيوش في العراق وهم :

١ – الوليد بن عقبة .

٢ – سهيل بن عدي .

٣ – عبد الله بن عتبان [١] .

فكانت قوات الصاعقة هذه من الفرسان مجموعات ثلاث .

وقد سلكت كل مجموعة منهم طريقاً غير الذي سلكته الأخرى لتكون عملياتهم الهجومية على حركة كاشة تطبق على الجزيرة كلها من الجناحين والقلب .

فقائد المجموعة الأولى وهو الوليد بن عقبة فقد تحرك على المحور الأوسط وهو ما بين نهري دجلة والفرات وأخذ يزحف شمالاً .

وأما قائد المجموعة الثانية وهو سهيل بن عدي . فقد تحرك بقواته على محور الفراض غربي الفرات مشكلاً الجناح الأيسر للقائد الوليد بن عقبة .

أما قائد المجموعة الثالثة (وهو عبد الله بن عتبان . فقد كان تحركه على محور نهر دجلة مشكلاً الجناح الأيمن للقائد الوليد بن عقبة . وصار يزحف شمالاً في اتجاه الموصل شمال شرق.

---

(١) هو عبد الله بن عتبان الأنصاري . وأشار ابن الأثير إلى أنه من الصحابة المقربين إلى القائد سعد بن أبي وقاص قائد جيوش العراق . حيث قال : وسير سعد عبد الله بن عتبان من العراق إلى الجزيرة ، فسار على الموصل إلى نصيبين ، فصالحه أهلها .

وقد كانت مهمة القائد الأول الوليد بن عقبة من أصعب المهام . لأن عليه أن يواجه (إذا ما حصلت مواجهـــة) أكثف قوات لهؤلاء النصارى الناكثين في الجزيرة .

فقد كان عليـــه أن يقاتل أقوى قبائل الجزيرة وأعتـــاها (بني تغلب ، وأياد وتنوخ) .

وقد واصل الوليد على المحور الأوسط تقدمه في حذر ، وكان يتوقع أن يلقى أعنف مقاومة بين أهل الجزيرة . غير أن كل هذه القبائل العنيـــدة القوية الكثيرة العدد قد تخاذلت وأدركها الخوف من جيش الإسلام، فاستقبلهزعماؤهم معلنين الندم عما ارتكبوا وطلبوا مصالحة المسلمين والدخول في ذمتهم من جديد. ما عدا قبيلة واحدة هي قبيلة أياد المتنصرة هربت بقيادة زعيمها (أيادبن نزار) عبروا الحدود ولجأوا إلى إمبراطورية بيزنطا .

أما باقي الزعماء وهم زعماء بني تغلب وتنوخ قبلوا الإنضواء تحت سلطـــان الإسلام على أساس الصلـــح الذي يكفل لهم الإمان على أرواحهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم .

ولما كان الصحابي ذو القدم الراسخة في الإسلام عيـاض بن غنم الفهـري هو الحاكم العام للجزيرة كلها فقد أبلغه القائد الوليد بن عقبة رغبة هؤلاء النصارى في الصلح . وأنه سيصالحهم إذا ما وافق الأمير عياض .

وقد قبل الأمير عياض وأبلغ الوليد بأن يقبل منهم ويصالحهم . فصالحهم . ثم فتحوا له مدينة (الرقة) . فدخلها جيش الإسلام وسيطر عليها وأقام فيهـا حاميات للأمن .

أما قائد المجموعة الثانية وهو سهيل بن عدي فواصل تحركـه غربي الفرات

حتى انتهى به التحرك أيضاً عند مدينة (الرقة) فشارك القائد الوليد في فرض الحصار عليها حتى استسلمت بموافقة الأمير عياض بن غنم الفهري .

أما قائد المجموعة الثالثة وهو (عبد الله بن عتبان) فواصل تحركه شرقي نهر دجلة حتى وصل الموصل فدخلها .

ومن الموصل عبر نهر دجلة في اتجاه نصيبين الواقعة على الشاطيء الغربي لنهر دجلة شمال الموصل .

وعندما وصل مدينة نصيبين لم يجابه من عربها المتنصرين أية مقاومة .

بل خرج أهلها لمقابلته وطلبوا الصلح .

فأبلغ أمير الجزيرة عياض بن غنم رغبتهم في الصلح فوافق .

فصالحهم عبد الله بن عتبان .

وهكذا وبوقوع مدينة نصيبين ومدينة الرقة (وهما أعظم مدن المتنصرة) في قبضة المسلمين لم يعد هناك في الجزيرة من معاقل للنصارى سوى مدينتين تقعان في أقصى شمال الجزيرة ، وهما مدينتا الرها وحران .

وقد قرر حاكم عام الجزيرة وقائد جيوشها عياض بن غنم أن يتولى بنفسه فتح ما تبقى في الجزيرة للعرب النصارى في الجزيرة .

فأمر عياض سهل بن عدي وعبد الله بن عتبان أن يعيدا تنظيم قواتهما ثم ينضما اليه . فانضما اليه بوحداتهما .

كذلك مزج القائد عياض قوة الدعم التي عادت من منطقة حمص بقيادة القعقاع بن عمرو إلى العراق : مزج هذه القوات في قواته . فصارت قوات الأمير عياض والقادة الثلاثة (القعقاع وسهيل وعبد الله بن عتبان) جيشاً واحداً قرر الأمير عياض أن يكون على رأسه أثناء الزحف شمالاً .

وعندما قرر التحرك بجيشه كلف القعقاع أن يكون بوحداته طليعة للجيش.

ثم أخذ عياض في التحرك نحو حران والرها وبقية المواقع في الجزيرة .

فكان الأمير عياض كلما اقترب جيشه من قرية أثناء تحركه قابله أهلها بطلب الصلح والأمان .

وما زال يتحرك دون أن يلقى حرباً حتى وصل مشارف مدينة حران الشهيرة .

وما كاد أهلها النصارى العرب يعلمون باقتراب جيش عياض حتى خرج أعيان مدينة حران لاستقبال القائد عياض : وأبلغوه أنهم يرغبون في الصلح ولا رغبة لهم في الحرب . فقبل منهم وصالحهم ، وبهذا الصلح ظفروا بعفو عام عن جرائم الخيانة التي ارتكبوها باستثارة الرومان ومساندتهم في الثورة على حمص ضد المسلمين الذين تمت لهم السيطرة على الشام كلها .

ولقد دخل الأمير الصحابي الكبير عياض مدينة حران وأقام فيها معسكراً لجيشه ، وأصدر إلى عساكره أوامر مشددة بأن لا يتعرضوا بأي سوء للعرب النصارى من أهل حران وأريافها .

فتح مدينة الرها

ومن مدينة حران دفع عياض بمجموعة قتالية نحو أهم وآخر مدينة في الجزيرة وهي مدينة (الرها) التي كانت لجمالها وطيب هوائها وملاصقتها آسيا الصغرى (بلاد الروم) كان الملك هرقل يتخذها (كحمص وأنطاكية) مقراً له في بعض فصول السنة . وكانت آخر مدينة يتمركز هرقل في بلاد العرب هارباً إلى القسطنطينية .

كانت المجموعة القتالية التي تحركت لتحرر مدينة الرها بقيادة سهل بن عدي وعبد الله بن عتبان .

وقد وصل هذان القائدان إلى الرها دون أن يلقيا أية مقاومة .

وعندما وصلا مشارف مدينة الرها ، استقبلهما أهلها بطلب الصلح وإنهاء حالة الحرب .

فعقدا معهم صلحاً نيابة عن الأمير عياض بن غنم .

فتح الجزيرة أيسر فتح قام به المسلمون

وبوقوع مدينة الرها في قبضة الجيش الإسلامي استكمل هذا الجيش فتح كل الجزيرة بمدنها وقراها دونما إراقة قطرة دم واحدة .

ولقد أشار إلى هذه الحقيقة شيخ المؤرخين الإمام الطبري فقال :

فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً .

وقد تكلم الشعر في حرب الجزيرة ووقوعها في أيدي المسلمين .

فقد قال أمير الجيش في ذلك عياض بن غنم :

من مبلغ الأقوام أن جيوشنا ... حوت الجزيرة يوم ذات زحام

جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا ... عمن بحصن غيابة القدام

ان الأعزة والأكارم معشر ... فضوا الجزيرة عن فراخ الهام

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو من يأوي بلاد الشام[1]

فتح أرمينيا[2]

وبعد أن أحكم المسلمون السيطرة على الشام بتأديب عرب الجزيرة وإخضاعهم

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٣ .

(٢) أرمينيا . ويقال لها : أرمينية : إقليم عظيم في غرب آسيا قالوا في دائرة المعارف الاسلامية التي الفها بريطانيون : اسم أرمينيا يدل اليوم كما يدل قديماً على أواسط البقاع وأكثرها ارتفاعاً من المنطقة الجبلية الواقعة في غرب آسيا ، وهي البلاد الشاسعة التي تحد غرباً بآسيا=

وتمكن جيش الفاروق من قتل دابر المؤامرة الكبرى . فدمر جيشه بقيادة أبي عبيدة جيش الروم الغازي في منطقة الجزيرة في السنة السابعة عشرة للهجرة : فكر الخليفة في نقل عمليات الجهاد إلى مناطق أرمينيا التي يقع اليوم بعضها ضمن الجمهورية التركية ، وبعضها ضمن الإتحاد السوفياتي .

ومن أهداف هذا الغزو لأرمينيا على ما يظهر أن تكون قوات الإسلام المسلحة منتشرة على حدود بيزنطا على شكل حزام واقي يحيط بأراضي الدولة البيزنطية من جميع الجهات المتاخمة للمسلمين في الشام وأطراف العراق ، بحيث

=الصغرى وشرقاً بهضبة آذربيجان والشاطيء الجنوبي من بحر الخزر (بحر قزوين) ويحدها من الشمال والشمال الغربي البلاد الواقعة على شواطيء بحر نيطش وبلادالقوقاز التي يفصلهاعن أرمينيا نهر اكروريونة ، ويحدها من الجنوب ، السهل الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين (البلاد الواقعة في الدجلة والزاب الأعلى) .

أرمينيا منبع الأنهار

وقالوا : وأرمينيا بلاد الأنهار العظيمة التي تنساب في جميع الجهات ، وأشهرها دجلة والفرات : ويتكون الفرات من اتحاد نهرين هما : قره صو (الغربي أو قل : الشمالي ومراد صو الشرقي (او قل الجنوبي) وكلاهما يبدأ من المرتفعات الداخلية القريبة من اضروم وبايزيد (قلت وهذه اليوم ، ارمينيا التركية) اما نهر دجلة ، فينبع من الجبال الواقعة في الحدودالجنوبية لأرمينية المسماة (بجبال طوروس) الأرمينية .

تاريخها

وتعاقب (منذ أقدم العصور على ارمينيا عدة ملوك من سلالات مختلفة . ويدل على قدمها في التاريخ وجود الكتابة المسمارية ، ويقال : انها من عهد جيل ليس بسامي ، ولا آري . هاجر هذا الجيل إلى أرمينيا قبل الميلاد بتسعة قرون . ويطلق هذا الجيل على نفسه اسم (هالدى) ومن ثم سمي هذا الاقليم قديماً (هالديا) وذلك قبل ان يطلق عليه اسم ارمينيا . وبعد سلسلة طويلة من الحروب على ارمينيا بين مختلف الأجناس عبر القرون تمت السيطرة لهرقلملك بيزنطا عليها الذي في عهده فتح المسلمون الشام . وقد تعرضت ارمينيا لعدة غارات ناجحة وغير ناجحة من المسلمين في عهد عمر ، ولم يحكم المسلمون السيطرة على كل ارمينيا إلا عام ٨٢٤ و ٦٤٥م في عهد الخليفة عثمان وذلك بتوجيه من معاوية امير الشام (انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٢٧ وما بعدها ففيها اوسع التفاصيل عن ارمينيا وتاريخها الطويل .

تشكل هذه القوات الإسلامية جزءاً واقياً يمتد من بحر الخزر (بحرقزوين اليوم) شرقاً حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً .

وبذلك يأمن المسلمون مفاجأة أي غزو يقوم به الرومان .

لذلك قرر الخليفة أن يبعث بقوات كافيـــة للتسيطر على الأراضي (شمال العراق) حتى بحر الخزر .

أقسام أرمينيا الأربعة

كانت هناك منطقة شاسعـة تقع على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين اليوم) تسمى أرمينيـــا الكبرى . وكانت متاخمـــة لآسيـا الصغرى وللأراضي التي استولى عليهـــا المسلمون في الجزيرة : أرمينيا الكبرى كانت يوم ذاك تنقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول والثـــاني : يقع شمال شرق بحر الخزر ، وكان يحكمه ملوك من الخزر أنفسهم : وهذان القسمان يسميها الجغرافيون الأقدمون : أرمينيـــا الأولى والثانية .

أما القسم الثالث والرابع فيقع جنوب وجنوب شرقي بحر الخزر، وملاصق للأراضي الرومانية ويسمونه : أرمينيا الثالثة والرابعة .

وهما تابعتان للتاج البيزنطي وهما أقرب الأرمينيات إلى الجزيرة التي تمت للأمير عياض بن غنم السيطرة عليها في السنة السابعة عشرة للهجرة .

معارك أرمينيا

وحسب الخطة الموضوعة حرك الأمير عياض بن غنم مجموعة قتالية كبـيرة بقيادة عثمان بن أبي العاص [1] لفتح أرمينيا الرابعة .

---

(١) لم اجد له ذكر بين تراجم الصحابة .

تحرك القائد عثمان من الجزيرة بقواته حتى وصل أطراف أرمينيا الرابعة ، وهناك على أرض تقع بين أرمينيا الرابعة والجزيرة وجد قوات كثيفة للعدو .

فدارت معركة عنيفة استشهد فيها كثير من أعيان الصحابة : بينهم الصحابي الطاهر النقي صفوان بن المعطل [1] .

ولكن الرومان لم يصبروا كعادتهم على طول القتال وضراوته ، فانهزموا . فطاردهم القائد عثمان ، ولم ينج منهم إلا الشريد .

ولما كان أهالي أرمينيا الرابعة ليسوا من العنصر البيزنطي ، وإنما هم من عنصر الخزر تقريباً ولم تكن لهم رغبة في القتال تقدم أعيانهم إلى عثمان بن أبي العاص يطلبون الصلح والدخول في ذمة المسلمين .

فرحب بهم القائد عثمان وقبل منهم عرضهم وصالحهم على الجزية على أن يكونوا في ذمة المسلمين يحمونهم كما يحمون أنفسهم وأهاليهم .

وبعد ذلك عاد الأمير عثمان من أرمينيا الرابعة إلى الجزيرة بمعظم قواته ، وترك هناك قوة من الجيش كحامية : وإدارة مدنية تتولى إدارة شؤون البلاد إياها .

وبعد ذلك تتابعت الفتوحات الإسلامية هناك حتى أصبح بحر الخزر كله بحيرة إسلامية ، نتيجة سيطره المسلمين على كل البلدان المشرفة عليه من جميع الجهات .

بيزنطا يجبرها الفاروق على إعادة الخونة العرب الفارين من الجزيرة

فيما مضى من هذا البحث ذكرنا أن قبيلة أياد بقيادة زعيمها نزار بن أياد لما علمت بتحرك قوات الصاعقة من الكوفة في العراق لتأديب الخونة من العرب

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة الأحزاب) .

المتنصرة من أهل الجزيرة ، لما علمت هذه القبيلة وعدد أفرادها لا يقل عن أربعة آلاف فروا من الجزيرة ولجأوا إلى بلاد الروم بآسيا الصغرى .

وقد رحبت بهم السلطات البيزنطية وأكرمتهم باعتبارهم لاجئين سياسيين. وكي تستفيد منهم كعنصر عربي هام يمكن استخدامه عند اللزوم ضد السلطات الإسلامية في الشام أو العراق .

ولقد اهتم الخليفة عمر غاية الإهتمام بتواجد هذا العدد الهائـــل من العرب داخل أراضي بيزنطا لأن في تواجدهم هناك كعنصر عربي محارب معاد للإسلام خطراً كبيراً على المسلمين .

لذلك قرر الخليفة الفاروق الاتصال مبـاشرة بامبراطور الروم وكان أيامها قسطنطين بن هرقل وأنذره بأن يخرج هؤلاء العرب النصارى من بلاده .

وهدده في الإنذار بأنه (أي الإمبراطور) إن لم يخرجهم سيعمد إلى جميـع النصارى من الروم الداخلين والمطمئنين في ذمة المسلمين إلى بلاد الروم.

فقد كتب الخليفة عمر إلى قسطنطين :

(انه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك ديارنا وأتى دارك: فوالله لتخرجنه أو لنعمدن إلى النصارى ثم نخرجهم اليك) .

ولقد انزعج ملك الروم لهذا الإنذار الصريح .

فهناك في بلاد الشام جاليات نصرانية كبيرة من الروم ، بلغ قسطنطين أنها تعيش آمنة مطمئنة وفي رغد من العيش في ظل ذمة المسلمين وهي تقدر بعشرات الألوف .. يتمتعون كلهم بحقوق المواطن المسلم نفسه من حق في الحرية المطلقة – ما عدا حرية التخريب – .

وإجبار مئات الألوف هؤلاء على الهجرة من الشام والعراق تاركين ديارهم وممتلكاتهم ، سيلقي عبأ غاية في الثقل على كاهل الإمبراطورية التي تعاني نقصاً

كبيراً في موارد اقتصادها نتيجة فقدانهـــا الشام البقرة الحلوب التي كانت من أكبر مصادر اقتصادهم المزدهر .

لذلك لم يتردد قسطنطين (وبمجرد تسلمه إنذار الخليفة الفاروق)في تحقيق رغبته : فأمر في الحال بإخراج هؤلاء العرب النصارى من بلاده .

فرجع منهم إلى الجزيرة أربعة آلاف وكلهم من قبيلة أياد ، ورفض آخرون منهم العودة إلى الجزيرة فتشتتوا في بلاد الروم مستخفين فـيما يلي حدود الشام واستقروا هناك .

أنفة واستكبار عرب الجزيرة عن الجزية

قالوا وبعد أن تسلم الأمير الوليد بن عقبة إمارة شمال الجزيرة في عهد عمر الفاروق : يظهر ان النصارى العرب أنفوا أن يسمى ما يدفعونـــه سنوياً لبيت مال المسلمين ، جزية .

فبعث الوليد رؤساءهم إلى المدينة ليتفاوضوا مع الخليفة عمر .

فلما اجتمعوا بالخليفة قال لهم :

أدوا الجزية .

فقالوا : أبلغنا مأمنا ، والله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم، والله لا تفضحنا بين العرب .

فهددهم الخليفة بأنه سيجبر ملـك الروم على إعادتهم إلى بلادهم ، ثم يضع عليه الرق فيكونوا جميعاً عبيـــداً بموجب قواعد الرق الحربي حسب العرف الإسلامي والدولي في ذلك العصر . حيث قال لهم :

أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدونه (أي الجزية وأنتم صغرة قمأة ، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ، ثم لأسبينكم) .

فقالوا :

فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء (أي جزية).

فقال : أما نحن فنسميه جزاء ، وسموه أنتم ما شئتم .

وكان نصارى تغلب فيهم أنفة وعزة ومنعة . فقبلوا مرغمين .

ولكنهم لتكبرهم واستعظامهم أنفسهم أتعبوا أميرهم الوليد بن عقبة بمنازعتهم ، فعزم على التنكيل بهم وتأديبهم ليتركوا المشاغبات عليه وعلى موظفي الدولة فقال في ذلك شعراً :

إذا ما عصبت الرأس مني بمشوذ فغيك عني تغلب بنت وائل

فبلغت كلماته هذه الخليفة عمر ، فخاف أن يتمردوا عليه ويحرجوه فينفد صبره فيبطش بهم ، لذلك أعفاه الخليفة عمر من منصبه ، واستبدله عليهم بفرات ابن حيان [1] ، وهند بن عمرو [2] .

فهدأت الأحوال واستتب الأمر للمسلمين نهائياً في الجزيرة ، ولم يبد (بعد) من قبائل تغلب ولا غيرها ما يسوء الإدارة الإسلامية [3] .

الفاروق يعود إلى المدينة

وبعد أن اطمأن الخليفه الفاروق إلى الأوضاع في الشام بعد إحباط مؤامرة الرومان والخونة من نصارى الجزيرة العرب . عاد إلى المدينة عاصمة الخلافة : وذلك عام ١٧ هـ .

---

(١) فرات بن حيان صحابي جليل وهو من بني عجل وكان من القادة الحربيين المظفرين شارك في مصادمة مسيلمة الكذاب مع الزعيم ثمامة بن أثال الحنفي . وقد تقدمت ترجمته في هذا الكتاب .

(٢) هند هذا لم اجد له ذكر بين تراجم الصحابة فيما بين يدي من مصادر .

(٣) الطبري ج : ص ٥٥ والعسلي (فن الحرب ص ١٦٨) .

غير أنه في نفس السنة عاد ودخل الشام . وهي المرة الثالثة يدخل فيها الفاروق الشام بعد الإسلام غير أن الخليفة لما وصل مكاناً في الشام يقال له : (سرغ) [1] .

بلغه انتشار وباء الطاعون في الشام ، فعاد إلى الحجاز .

وكان خروجه هذه المرة غازياً ومعه مشيخة المهاجرين والأنصار : بينهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أعيان الصحابة .

الطاعون هو السبب

ويقولون : إن عمر لما بلغه انتشار الوباء في الشام تردد : أيستمر في التحرك داخل الشام أم يرجع بالناس لأن وباء الطاعون مرض معد خطير فتاك ، ومعه صفوة المهاجرين والأنصار ، فهو يخشى عليهم من الوباء .

غير أن عمر لم يستبد بالأمر فعقد اجتماعاً للتشاور مع كبار مستشاريه من صفوة المهاجرين والأنصار حول ما إذا كان عليه أن يستمر غازياً . أم يعود بالمسلمين تجنباً للوباء المعدى الفتاك .

وشأن طبيعة البشر ، فقد اختلف الصحابة في الأمر .

فبعضهم يحبذ الإستمرار في مسيرة الجهاد رغم انتشار الوباء ، وبعضهم يحبذ العودة في الناس قبل دخول منطقة الوباء .

وبينما الناس بين محبذ للدخول ومفضل للرجوع جاء القول الفصل في موضوع الوباء وما يجب على المسلمين فعله .

وذلك أن الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف كان عنده خبر عن رسول الله ﷺ فيه تعليمات صريحة بعدم دخول الأصحاء إلى منطقة الوباء، وعدم خروج المصابين من منطقته إلى منطقة المعافين منه .

---

(١) سرغ بفتح وسكون ثانيه هو اول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك .

وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فلم يحضر اجتماع الصحابة المشار اليه .

فلما حضر وأخبر ذكر لعمر أنه سمع حديثاً من النبي ﷺ فيه الدليل على عدم المخاطرة بأرواح المسلمين الأصحاء ووجوب الرجوع بهم حتى يتطهر الإقليم من هذا الوباء الخطير .

ولنترك شيخ المؤرخين الطبرى يحدثنا عن هذا الموضوع .

قال رحمه الله في تاريخه الشهير (تاريخ الرسل والملوك) :

(خرج عمر إلى الشام غازياً سنة سبع عشرة ، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد ، فأخبروه أن الأرض سقيمة ، فرجع بالناس إلى المدينة .

وفي حديث آخر من رواية ابن عباس قال الطبري :

خرج عمر غازياً وخرج معه المجاهدون والأنصار ، وأوعب الناس معه ، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة بن الجراح : ويزيد بن أبي سفيان : وشرحبيل بن حسنة : فأخبروه أن الأرض سقيمة . فقال عمر لابن عباس :

إجمع لي المهاجرين الأولين قال فجمعتهم له ، فاستشارهم ، فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل : خرجت لوجه الله تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك .

ومنهم القائل :

إنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقدم عليه .

فلما اختلفوا عليه قال :

قوموا عني . ثم قال :

إجمع لي مهاجرة الأنصار ، فجمعتهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق

المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا : فقالوا مثلهم : فلما اختلفوا قال : قوموا عني . ثم قال :

إجمع لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعتهم له ، فاستشارهم ، فلم يختلف عليه إثنان . وقالوا :

إرجع بالناس ، فإنه بلاء وفناء . قال : فقال عمر : يا بن عباس أسرع في الناس فقل :

ان أمير المؤمنين يقول لكم : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه ، فأصبح عمر على ظهر ، وأصبح الناس عليه ، فلما اجتمعوا قال :

أيها الناس اني راجع فارجعوا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرار من قدر الله ؟

قال : نعم ، فرار من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان : إحداهما خصبة والأخرى جدبة : أليس يرعى من رعي الجدبة بقدر الله ، ويرعى من رعي الخصبة بقدر الله ؟

ثم قال : لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ، ثم خلا به ناحية دون الناس .

فبينما الناس على ذلك (أي من الإختلاف) إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس فقال : ما شأن الناس ؟ فأخبر الخبر. فقال عندي من هذا علم .

فقال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فماذا عندك ؟

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلاتقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم إلا ذلك) .

فقال عمر :

فلله الحمد ، انصرفوا أيها الناس ، فانصرف بهم .

أكثر القادة الكبار يستشهدون بالطاعون

ولم يكن الطاعون موجوداً عام ١٧ هـ في الشام وحدها ، بل كان في العراق أيضاً ومصر .

فقد روى الطبري عن سيف قال :

قالوا : ووقع الطاعون بالشام ومصر والعراق ، واستقر بالشام، ومات الناس الذين هم بالأمصار في المحرم وصفر ، وارتفع عن الناس .

ولقد التهم الطاعون خيرة القادة والأشراف الذين قادوا حرب الجهاد والتحرير بالشام .

وممن أصيب بالطاعون القائد العام أبو عبيدة بن الجراح : والقائد يزيد بن أبي سفيان : ومعاذ بن جبل : وسهيل بن عمرو العامري وابنه عتبة ، وغيرهم من أشراف الصحابة وأبناء الصحابة .

وجاء عن أبي جعفر . إشارة إلى أن الخليفة الفاروق حاول إبعاد القائد العام أبي عبيدة رحمه الله عن منطقة الوباء لإنقاذه .

ولكن أمين الأمة ابن الجراح أدرك مقصد عمر ، فأبى ذلك ، وأصر على أن يبقى مع جنده في الشام ، فإن يكن الموت . فما أحلى الموت في سبيل الله . وهل أعز مطلباً من الشهادة ؟

فقد قال الطبري :

(فلما اشتعل الوجع وبلغ ذلك عمر ، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه) .

« أن سلام عليك ، أما بعد فإنه قد عرضت لي اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها » .

فعرف أبو عبيدة التقي الورع أن الفاروق إنما أراد أن يستخرجه من منطقة الوباء لينجو . فقال :

« يغفر الله لأمير المؤمنين ، ثم كتب اليه : يا أمير المؤمنين اني قد عرفت حاجتك إلي ، واني في جند المسلمين ، لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاءه ، فحلني من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعني في جندي » .

فلما قرأ عمر بكى . فقال الناس : يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة ؟ قال : لا وكأن قد . ثم كتب اليه :

« أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضاً عمقة (أي وخيمة) فارفعهم إلى أرض مرتفعة » .

قال أبو موسى الأشعري :

فلما أتاه كتاب عمر دعاني فقال :

(يا أبا موسى إن كتاب أمير المؤمنين قد جاءني بما ترى ، فاخرج فارتد للناس منزلاً حتى أتبعك بهم) قال أبو موسى : فرجعت إلى منزلي لأرتحل فوجدت صاحبتي قد أصيبت ، فرجعت اليه فقلت له : والله لقد كان في أهلي حدث . فقال :

(لعل صاحبتك أصيبت ؟) قلت : نعم . قال : فأمر ببعيره فرحل له ، فلما وضع رجله في غرزه طعن (أي أصابه الطاعون) . فقال : والله لقد أصبت ثم سار بالناس حتى نزل الجابية ورفع عن الناس الوباء .

عمرو بن العاص يجعل الجبال مصحات للمرضى

وقد أشار المؤرخون إلى أن قائد الجيش الرابع في الشام الأمير عمرو بن العاص أول من فطن من القادة في الشام أن سكنى الجبال من أنجع الأمور المضادة لاشتعال الطاعون لذلك أمر الجيش أن يرفعوا من المدن والقرى والدساكر إلى رؤوس الجبال حيث البرودة والهواء النقي . الذي لا يتلوث بالأوبئة .

فقد ذكر الإمام الطبري أن الأمير عمرو لما رأى فتك الطاعون بالقادة والجند راعه ذلك فقام خطيباً مصدراً أمره إلى الجميع مرضى وأصحاء بأن يرتفعوا بأنفسهم إلى قمم الجبال حيث قال :

« أيها الناس ان هذا الوجع إنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال، ثم خرج وخرج الناس ، فتفرقوا ، ورفع الله الطاعون عنهم قالوا : فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص فوالله ما كرهه »[1] .

ضحايا الطاعون

ولقد كانت ضحايا الطاعون بين جند الإسلام في الشام جسيمة مروعة فرح لها الرومان وطمعوا في المسلمين نتيجة النقص الهائل الذي حدث في الجيش بسبب الأعداد الهائلة التي حصدها الطاعون منهم . كذلك تخوف المسلمون من أن يتعرض الشام لعملية غزو واسعة في حالة الضعف الذي أصاب الجيش نتيجة استشهاد أحسن أمرائه وخيرة ضباطه وجنوده .

وقد أشار الإمام أبو جعفر إلى هذا فقال :

« ان طاعون عمواس استمر شهوراً عديدة وحصد أرواحاً لا تحصى ، كان موتاً لم ير مثله ، طمع له العدو في المسلمين ، وتخوفت له قلوب المسلمين ، كثر موته وطال مكثه ، وكان هذا الطاعون في سنة ١٧ هـ »[2] .

الفاروق في الشام للمرة الرابعة

وبعد الإصابات الجسيمة القاتلة من الطاعون التي أصابت قادة الجيش وأشراف المسلمين وعامتهم في الشام قرر الخليفة الفاروق في نفس السنة (١٧ هـ) أن

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٦١ .
(٢) الطبري ج ٤ ص ٦١ .

يذهب بنفسه إلى الشام ، لوضع تنظيمات جديدة وقيادات جديدة ، وأسس أمور إدارية جديدة .

ففي هذه السنة استخلف أبا الحسن علي بن أبي طالب نائباً عنه على المدينة ، ثم خرج وجهته الشام ومعه وجوه الصحابة وأعيانهم .

وسلك في طريقه إلى الشام تبوك ثم درب الساحل الشرقي لخليج العقبة ، ولما وصل (أيلة) تنحى عن مركبه لخادمه ثم ركب بعير خادمه ، وكان عليه رحل متواضع عبارة عن فرو مقلوب .

وتصرف الخليفة الفاروق هو أروع مثل للتواضع يضربه لمن بعده من الحكام يا لروعة النفوس العظيمة : أمير المؤمنين وخليفة المسلمين يتخلى عن فرسه لخادمه المسكين ليركبه ، ويركب هو بعير خادمه المتواضع . ولقد فعل الفاروق فعله هذا عن قصد وعمد في الوقت الذي سيستقبله فيه قادة الجيوش وأمراء الأجناد في الشام . ففضل أن يستقبلوه وهو على جمل ذي رحل متواضع .

لقد خشي الفاروق رحمه الله على نفسه داء الكبر عندما يستقبله أمراء جيوشه المنتصرون . فأراد أن يؤدب نفسه ويقمعها كي لا يجد الغرور والكبر سبيلاً اليها .

فنزل عن فرسه لخادمه ليركبه وركب هو بعير خادمه ليكون على ظهره حين يستقبله قادة الجيوش وأمراء النواحي .

رحمة الله عليك أيها الفاروق : لقد أتعبت وأحرجت كل من جاء بعدك من حكام المسلمين ، رضي الله عنك ونسأله تعالى أن يحشرنا في زمرتك مع الصديقين والشهداء والأبرار من عبيده الأذلاء لعزة جلاله .

قالوا : وكان القواد والأشراف من الذين حرروا الشام في حروب الجهاد في استقبال الخليفة عمر قريباً من حدود الجزيرة ، كذلك كان معهم الأعيان من

أهل الذمة والمعاهدين النصارى للترحيب به وتأكيد ولاءهم للسلطة الإسلامية .

وعندما اجتاز الحدود واختلط مع المرافقين له بأهل الشام لم يعرفه أحد ، لانه ليس له أية علامة تميزه عن غيره من المسلمين .

بل دخل الشام وظهر أمام القادة والاشراف وأعيان المسيحيين المعاهدين كأدنى فرد ممن هم في صحبته من المدينة ، حيث كان يركب بعير خادمه وتحته رحل رث .

فما كان أحد من المستقبلين يظن أن الخليفة سيدخل الشام وهو على هذه الهيئة

فلما لم يستطيعوا أن يعرفوا صاروا يسألون :

أين أمير المؤمنين ؟

فقال لهم (وهو على بعيره المتواضع) : أمامكم . يعني نفسه .

فعجب الناس غاية العجب .

وكان أشد الناس تعجباً وإعجاباً بالخليفة العادل عمر أشراف الجاليات المسيحية من أهل الذمة .

فقد كان لسان حالهم يقول (وهم الذين لمسوا تكبر الرومان) : أهكذا يكون حاكم المسلمين الذي تحت تصرفه في الخزائن آلاف آلاف الدنانير ؟

فزاد إعجابهم بهذا الرجل الذي تمثلت لهم فيه العظمة بكل معانيها .

وكان بعض المستقبلين أثناء تحركهم لاستقباله قد التقوا به ولكنهم لم يعرفوه للحالة العادية البسيطة التي كان عليها ، فتخطوه نحو حدود الجزيرة ، وهم يظنون أنهم سيرون موكباً مهيباً تحوطه الحراب وفصائل الفرسان .

وبعدها علموا أنه كان بين أصحابه ليس له أية علامة تميزه عن الآخرين ، فكروا راجعين فوجدوه قد دخل مدينة (أيلة) بالعقبة على رأس الخليج .

وأيلة التي يسميها اليهود اليوم (ايلات) بلدة عربية مسيحية وليس بها أحد من اليهود عبر العصور . كان لها رئيس قسيس من النصارى .

وكان أهل (أيلة) النصارى سلماً للمسلمين من العهد النبوي وذلك أنه ﷺ لما وصل بجيشه الضارب إلى تبوك لإرهاب الرومان وتحطيم كبرياء عملائهم من العرب المتنصرة ، جاء سكان إيلة هؤلاء إلى تبوك ورغبوا في أن يكونوا في ذمة المسلمين ، فأحسن اليهم الرسول الاعظم ﷺ وعقد معهم صلحاً . وظلوا على ولائهم للمسلمين حتى دخول الخليفة عمر بلدتهم واستقراره بها مؤقتاً .

الخليفة الفاتح العظيم يرقع قميصه

وفي مصادر التاريخ الموثوقة أن الفاتح العظيم الفاروق الذي تفيض من تحت يديه خزائن بيت المال بقناطير الذهب والفضة لكثرة الغنائم التي غنمتها جيوشه : الخليفة العجيب هذا لما وصل بلدة إيلة بأطراف الشام استدعى أسقفها المعاهد ، فلما جاء الأسقف دفع اليه القميص الذي كان يلبسه في سفره الطويل ذلك : وكان القميص قد انشق من قعدته من طول السفر – فقال للأسقف : أغسلوا هذا وارقعوه .

فانطلق الأسقف بقميص الخليفة معتزاً فرقعه ثم أمر بغسله فغسل .

ثم عاد الأسقف إلى الخليفة الفاروق وقد رقع القميص وغسله : ومعه كسوة جديدة ذات قماش ممتاز أراد الأسقف أن يهديها للفاروق فقال للخليفة :

هذا قميصك رقعته وغسلته ، وهذه كسوة لك مني ، فنظر عمر إلى الكسوة الجديدة فلمسها بيده ، ثم لبس عمر قميصه المرقع ورد الكسوة الجديدة على الأسقف . وقال – مادحاً قميصه المرقع – هذا أنشفها للعرق [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦٤ .

إلى الجابية

ثم تحرك الخليفة من إيلة في اليوم التالي في اتجاه الشمال ، وما زال يتحرك ومعه مشيخة الصحابة حتى وصل الجابية . في الشام قرب دمشق فعسكر بها .

وكانت الجابية - وهي من سهل البقاع قرب دمشق والجولان - مكان عمر المفضل في كل جيئة يجيء فيها الشام .

قالوا : وكان معه عميد الأسرة الهاشمية وأكبر رجالها سناً العباس بن عبد المطلب . وكان عمر يحبه ويكرمه حباً في رسول الله ﷺ لأن العباس عمه ﷺ .

قال رافع بن عمر :

سمعت العباس بالجابية يقول لعمر : أربع من عمل بهن استوجب العدل : الامانة في المال ، والتسوية في القسم ، والوفاء بالعدة ، والخروج من العيوب : نظف أهلك ونفسك [1] .

الفاروق ينشيء قيادات جديدة ويقسم الشام إلى محافظات

وفي الرحلة الرابعة هذه التي قام بها الفاروق إلى الشام ، قام بتفقد المناطق الهامة في القطر الشامي .

فزار المسالح والمواقع المتقدمة على حدود بيزنطا وعزز الوحدات الحربية المرابطة على حدود الروم في الشمال تعزيزاً قوياً .

كما قام بتقسيم الشام إلى كور (جمع كورة) وهي الإقليم .

وهو تقسيم أشبه بتقسيم البلاد إلى محافظات .

كذلك حدد أوقاتاً للغزو في الشتاء ، وهو مايسمى في التعبير القديم بالشتواتي.

كما حدد أوقاتاً للغزو في الصيف ، وهو ما يسمى أيضاً بالصوائف .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٦٥ .

وفي هذة الرحلة قام بإعفاء بعض الامراء والقادة الكبار من مناصبهم وعين غيرهم بدلاً منهم في مناصبهم القيادية .

منهم شرحبيل بن حسنة قائد أحد الجيوش الرئيسية الاربعة التي دخلت الشام من الجزيرة في عهد الخليفة الاول : أعفاه الخليفة من منصبه ، واستبدله بالامير معاوية بن أبي سفيان الاموي .

فبدا على البطل شرحبيل شيء من عدم الرضا ، بدليل أنه قال للفاروق حين أعفاه من منصبه : (أعن سخطة يا أمير المؤمنين عزلتني) ؟

قال : (لا . إنك لكما أحب) .

ثم ألمح الخليفة لشرحبيل بأن الموقف أصبح اليوم موقف إدارة وسياسة ودهاء وأنه يوجد بين الصحابة أناس أقدر من آخرين في هذه الناحية ، ولكل زمان دولة ورجال .

فقد قال لشرحبيل – بعد أن زكاه وأثنى عليه – : (ولكنني أريد رجلاً أقوى من رجل) .

ولكن شرحبيل – مع رضاه بما فعل عمر – لم يكتف منه بذلك ، بل طلب منه أن يزكيه على رؤوس الاشهاد من القادة ومشيخة المهاجرين والانصار ، كي لا يظنوا أن الخليفة إنما عزله لزلل ارتكبه . فقال الفاروق : نعم .

ثم قام عمر في الجابية في الناس وقال :

(أيها الناس اني والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة ولكنني أردت رجلاً أقوى من رجل) .

ثم كان ذلك الرجل الذي عينه بدلاً من شرحبيل هو داهية العرب معاوية ابن أبي سفيان .

أما أبو عبيدة فقد أقره الخليفة في منصبه ، وأقر خالد بن الوليد حاكماً على

قنسرين ، وقائداً للقوات المتقدمة التي عليها اقتحام حدود العدو ، والمعبر عنها في حديث السابقين (بالدروب) ، وقد ترك الخليفة خالداً أميراً على أن يكون تحت رئاسة أبي عبيدة بن الجراح .

كما أمر الخليفة عمرو بن عنبسة [1] على الاهراء وهي من مقاطعات الشام الشهيرة في ذلك العصر .

قسمة المواريث

وعندما عاد الخليفة عمر من الحدود الشمالية حيث تفقد القوات المتقدمة المرابطة في الثغور قام بقسمة مواريث الذين قضوا نحبهم شهداء بوباء الطاعون .

ويذكر المؤرخون [2] أن سيد بني مخزوم الحارث بن هشام ابن عم خالد بن الوليد خرج للجهاد إلى الشام في سبعين من أهل بيته فاستشهدوا جميعاً، ولم يرجع منهم سوى أربعة .

فقال في هذا المصاب العظيم أو بالاحرى الفوز الكبير . قال المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي وكان شاعراً :

من يسكن الشام يعرس به ... والشام إن لم يفتنا كارب
أفنى بني ريطة فرسانهم ... عشرون لم يقصص لهم شارب
ومن بني أعمامهم مثلهم ... لمثل هذا أعجب العاجب
طعنا وطاعوناً منا يهمو ... ذلك ما خطلنا الكاتب [3]

---

(١) عمرو بن عنبس من قادة الحرب المشهورين ، ولكن لم اجد له ذكر بين تراجم الصحابة ويظهر انه من ابنائهم الذين لم يصحبوا الرسول (ص) .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٦٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٦٤ .

خالد بن الوليد أعظم قائد في عصره

من المعلوم المتفق عليه بين جميع خبراء العالم ومفكريه وكتاب التاريخ على اختلاف ميولهم ومشاربهم ، أن خالد بن الوليد هو من أعظم قادة العالم وأقدرهم على إدارة دفة المعارك وإحراز الإنتصارات ، وانه لم ينهزم ولا مرة واحدة في جميع المعارك الشهيرة التي خاضها وقاد المسلمين فيها ،

وأن له اليد الطولى في تحرير الشام من نير الإستعمار الروماني وجعله إقليماً إسلامياً ، بعد أن كان إقليماً نصرانياً بيزنطياً .

ولو لم يكن لخالد من مجد عسكري إلا انتصاره في معركة اليرموك التاريخية لكفى .

خالد يعزل مرتين

لقد كان الخليفة عمر بن الخطاب على خلاف قديم (ومنذ حرب الردة) مع خالد بن الوليد ، فكان يرى أن فيه تسرعاً في اتخاذ القرارات وتنفيذها ، ويرى أن فيه قسوة . ولهذا كان الفاروق يقول في كل مناسبة : (أن في سيف خالد لرهقا) . كما أنه كان افتتان جنده به .

وكان من رأيه – وبعدما حدث منه في قصة مالك بن نويرة [1] – أن لا

---

(١) هو مالك بن نويرة بن حزة اليربوعي التميمي . أخو متمم بن نويرة الشاعر المشهور برواثع المراثي في أخيه مالك هذا .. قال ابن الأثير قدم مالك على النبي (ص) وأسلم واستعمله على بعض صدقات (زكوات) بني تميم . ولما ارتدت العرب اختلف الصحابة في أمر مالك ، بعضهم قال : أنه وقومه لم يرتدوا وأنهم أذنوا وبعضهم قالوا غير ذلك ، فاعتقل خالد مالكاً وبعضاً من قومه ، فجرى إعدامهم نتيجة غلطة لغوية ، وكان عمر بن الخطاب ناقماً على خالد لأنه يرى أنه قتل رجلاً مسلماً ، لا سيما أنه تزوج امرأته بعد قتله ، ولكن أبا بكر لم يطاوع عمر وقال : تأول (خالد) فأخطأ ولا أشيم (أغمد) سيفاً سله الله على المشركين . ودفع دية مالكاً حلا للاشكال وقد شهد متمم أخو مالك بأنه مات مرتداً بدليل انه لما اعجب عمر شعره==

يتولى منصبا قياديا مطلقاً ولكن الخليفة الأول كان معجباً بشجاعة خالدوقدرته على كسب المعارك وتحطيم قوات الأعداء بتوفيق من الله .

لذلك كان الصديق يخالف الفاروق فيما يتعلق بخالد في هذه الناحية .

ومن هنا قبل عذره في هفوة موضوع مالك بن نويرة ، فدفع ديات قتلى بني يربوع وسيدهم مالك من بيت المال ثم رضي عن خالد ، وقلده بعد ذلك قيادة الحرب في أصعب مناطق الردة وهي مناطق بني حذيفة في نجد ، فخاض أعنف معركة عرفها المحارب المسلم في حياته ، ثم سجل للإسلام على الردة الإنتصار الساحق بعد أن كان المسلمون قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة المدمرة .

فغير مجرى الأحداث الحربية كله في الجزيرة لصالح الإسلام . لأن بني حنيفة كانوا من أعتى وأشرس وأقوى قوة ضاربة بين المرتدين .

فلم تكد باقي الأقاليم يسمع زعماؤها المرتدون بانتصار خالد في اليمامة ، حتى صاروا يتساقطون الواحد بعد الآخر .

وعندما فتح باب الجهاد خارج الجزيرة العربية عين الخليفة الأول قائدهخالداً لقيادة الجيوش في أصعب جبهة وهي العراق ، حيث الجندي الفارسي المشهور بالصبر على القتال .

ثم لما تحرجت حالة المحاربين المسلمين في الشام أنجدهم أبو بكر بخالد وولاه قيادة الجيوش في الشام بعد أن أمره بأن يترك العراق تحت قيادة المثنى بن حارثة .

=في مقتل اخيه مالك قال : لو كنت اقول الشعر لقلت في اخي زيدمثلما قلتفيمالكقال متمم للخليفة عمر : لو مات مالك على ما مات عليه اخوك ما بكيته . وهذا يدل على انه ماتمانعاً للزكاة وخارجاً على الدولة بدليل انه انضم إلى جيش سجاح المتنبئة بعد ان صالحها. وكانمالكاً شجاعاً كريما جميلا ، وزوجته نوار من اجمل النساء .

وقد علم العالم كله كيف انتهت معركة اليرموك بتحطيم الجيش الروماني على يد خالد تحطيماً كاملاً .

وبعدها بفضل الله ثم بفضل براعة خالد في اليرموك صار المسلمون بقيادة غير خالد يسيرون من نصر إلى نصر .

ومات الخليفة الأول ، فعزل الخليفة الثاني خالداً في الحال ، وتسلم خالد مرسوم العزل ومعركة اليرموك التي يقودها خالد قد بلغت الدرجة القصوى من الإلتهاب ، فتقبل في قرارة نفسه العزل ، ولكنه خشي أن تضعف معنويات جنده إن هو أعلن نبأ عزله عن القيادة في تلك اللحظات المصيرية الحاسمة .

لذلك استمر في إدارة دفة المعركة وأخفى (مؤقتاً عن جنده) نبأ عزله ، وحتى إذا ما حقق لهم النصر الساحق على الرومان . دخل على أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة وسلمه مرسوم العزل والتولية : عزله هو وتولية أبي عبيدة مكانه .

وهكذا عزل البطل العظيم وهو يرتقي أعلى درجة في سلم مجده .. ولله في خلقه شؤون : وصدق محمد ﷺ حين قال : (على الله أن لا يرفع شيئاً إلا وضعه أو كما قال) :

وإذا كان خالد القائد قد أزيح عن منصبه فإن خالد الشجاع المحارب المظفر بقي كما هو خالد كما عرفه جنده .

وقد عرف له الأمير الجديد الصالح الطيب أبو عبيدة حقه ، فجعله يده اليمنى ومستشاره المقرب فكان يدخره لحل المعضلات الحربية ، وكان يكرمه ويرفع من منزلته لما له من باع طويل في نصرة الإسلام سواء في جزيرة العرب وفي العراق أو في الشام .

ومما لا شك فيه أن الفاروق لم يعزل خالداً لخيانة أو عداوة ، وإنما خشي الفتنة ، فقد بلغه شدة تعلق الجند بخالد : فخشي أن يعتقد البعض فيه ما لا يجوز فيظن أن النصر لا يكون إلا بقيادة خالد : فعزله كي يدرك الناس أن الله ينصر المجاهدين بخالد وبغير خالد .

وقال خفت افتتان المسلمين به وفتنة النفس أعيت من يداويها

والدليل على أن عمر لم يكن لديه أدنى شك في نزاهة خالد ونقاء صفحته . انه عندما جاء إلى الجابية في رحلته الرابعة والأخيرة ، جعل الشام ست محافظات كبرى

أولها : محافظة حمص ، وجعلها مقر قيادة القائد العام أبي عبيدة .

ثانيها : محافظة دمشق وأسند أمرها إلى يزيد بن أبي سفيان .

ثالثها : محافظة فلسطين ، وأسند أمرها إلى علقمة بن مجزر .

رابعها : محافظة الاهراء ، وأسند أمرها إلى عمرو بن عنبسة .

خامسها : محافظة الساحل ، وأسند أمرها إلى عبد الله بن قيس .

سادسها : محافظة قنسرين بما فيها العواصم وهي المثلث الواقع بين حلب وأنطاكية والحدود الشمالية : وأسند أمرها إلى خالد بن الوليد .

وكانت محافظة قنسرين ، أهم واخطر المحافظات لأنها تتاخم حدود العدو ، فمنها كان خالد طوال إمارته في قنسرين يشن الغارات الموفقة على الأراضي البيزنطية داخل آسيا الصغرى ، وكان في كل غارة يعود وجنده منتصرين وبغنائم وفيرة .

وكانت غارات المسلمين على آسيا الصغرى قد تصل في بعض الأحايين إلى أنقرة (عاصمة تركيا اليوم) .

الفاروق يودع الشام الوداع الأخير [1]

وفي شهر ذي الحجة من سنة سبع عشرة هجرية قفل الخليفة راجعاً من الشام إلى المدينة

وقبل أن يغادر الشام القى في قواته المسلحة بالجابية كلمة قصيرة أشار فيها إلى الأعمال الإدارية التي أحدثها أثناء وجوده بها . فقال :

« ألا إني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله : قسطنا بينكم : فيئكم ومنازلكم ومغازيكم : فجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج (أي الثغور) وبوأنا كم : ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من سعيكم : وسعينا لكم طعامكم : وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم : فمن علم شيئاً ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله) .

بكاء الناس لتذكرهم الرسول ﷺ عندما أذن بلال

قالوا : وحضرت الصلاة بالجابية . فقال الناس :

لو أمرت بلالاً فأذن : فأمره فأذن : فما بقي أحد كان أدرك النبي ﷺ وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته ، وعمر كان أشدهم بكاء : وبكى من لم يدركه ببكائهم حين تذكر الرسول ﷺ .

وهكذا لم يعد الخليفة الفاروق من رحلته الرابعة والأخيرة في الشام إلى المدينة إلا بعد أن أصبحت الشام (ما عدا طرابلس) إقليماً ساكناً مستقراً تابعاً لمقام الخلافة في المدينة .

وانصرف القادة والولاة إلى تنظيم الشؤون الإدارية داخل الإقليم وانتهت الحرب فيه .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٦٦ .

ما عدا القوات المتقدمة المرابطة على حدود بيزنطـــا في الشمال تحت إمرة خالد بن الوليد ، فإن هذه القوات تقوم في كل سنة بغزوتين داخل بلاد الروم : غزوة في الصيف ، وهي التي يقال لها الصوائف ، وغزوة في الشتاء ، وهي التي يقال لها الشواتي .

وكانت هذه الغارات على شكل هجمات الكوماندو يقوم بهـا رجال أشداء مدربون ، وقد يبلغون في غاراتهم قرب (بورصة وأنقرة) أي أنهم يصلون في حروب الشواتي والصوائف إلى مناطق لا تبعد سوى ثلاثمائـــة كيلو متراً عن العاصمة يومذاك قسطنطينية .

بطلا حرب الكوماندو

وكان النجمان اللامعان في غارات الحدود : خالد بن الوليد : وعيـاض بن غنم اللذان كانا يتوليان توجيه هذه الغارات الموفقة .

وكانت هذه الغارات أشبه بحرب الاستنزاف حيث لم يهدف القائمون بها من ورائها احتلال أي منطقة في المناطق التي يغيرون عليها .

وإنما لإرهاق العدو البيزنطي وإشغاله عن التفكير في القيـــام بأية محاولة أخرى لغزو الشام واستعادتها من أيدي المسلمين كما فعل في عملياته بحمص .

الفصل المؤلم في حياة أعظم بطل

شن خالد بن الوليد مرة من المرات غارة على بلاد الروم ففنم وجيشه مغانم عظيمة ، وكانت حصته من الغنيمة شيئاً عظيماً ، وكان البطل كريماً .

فقصده الناس يطلبون رفده .

وكان فيمن قصده ملك كنـــدة السابق بحضرموت ، الأشعث بن قيس ، فأعطاه عشرة آلاف .

وكان الخليفة عمر له مراقبون يرقبون تصرفات القادة والأمراء ، ويبلغونه ما يجب أن يعرفه عنهم فكان لا يخفى عليه شيء من تصرفاتهم .

فلما بلغ عمر ما صنع خالد مع الأشعث لم يعجبه ذلك بل أغضبه ،واعتبره، إما خيانة وإما تبذيراً لا مبرر له .

وأحد الأمرين في نظر عمر يستوجب العزل عن إدارة وقيادة شؤون المسلمين.

أبو عبيدة يحقق مع حبيبه وصديقه خالد

وعلى أثر ذلك ، وانطلاقاً من هذه النظرة الفاروقية الدقيقة استدعى عمر صاحب البريد وكتب معه إلى أمير الشام (وكان أبا عبيدة)وكلفه بأن يستدعي الأمير خالداً من مقر عمله في قنسرين إلى حمص لاستجوابه عما نسب اليه من إنفاق العشرة الآلاف .

كما أمر أبا عبيدة بأن يقيم خالداً بين الناس في المسجد بعد أن يعقله بعمامته وينزع قلنسوته . ومن هنا يبدأ الفصل المحزن في حياة قاهر الرومان بطل الابطال .

فقد صدع أبو عبيدة لامر الخليفة عمر ، فكتب إلى زميله وشريكه في الجهاد خالد أن يقدم عليه إلى حمص للاستجواب المعلن الشديد كما هي أوامر الخليفة العادل الصارم .

لقد كان أمين الامة حبيب الرسول ﷺ أبو عبيدة لين العريكة ، وكان يود في قرارة نفسه لو أن حبيبه ويده اليمنى في الازمات خالد يظل سليماً هادىء البال لا يقلق باله شيء حتى الموت .

ولكنها أوامر الفاروق .

ومن ذا الذي يستطيع أن يخالف أوامر الفاروق الذي يحاسب نفسه ويقسوا عليها لقهرها قبل أن يحاسب غيره ، حتى يعرض نفسه للمرض من شدة المحاسبة خوفاً من الله تعالى .

كانت التعليمات إلى أبي عبيدة من عمر صريحة .

فهو مكلف بأن يستجوب خالداً بشأن العشرة الآلاف التي دفعها للأشعث بن قيس ، فإن قال : إنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة المسلمين ، وإن قال : إنها من ماله الخاص ، فذلك سرف وإسراف ، وواحد من الامرين يبرر عزله من منصبه القيادي .

ولا شك أنها من أصعب اللحظات على الرجل الطيب التقي أبي عبيدة ، تلك التي حضر فيها زميله في الكفاح والجهاد خالد إلى المسجد ، ورقى فيها أبو عبيدة المنبر (والألم يعتصر فؤاده) وأصدر أمره إلى خالد بأن يجيب في هذا التحقيق على أسئلته .

ومن على خشبة المنبر بحمص وجه السؤال أبو عبيدة إلى خالد عن العشرة الآلاف المشار اليها :

أمن مالك يا خالد أجزتها للأشعث أم من إصابة أصبتها ؟

وهنا التزم خالد الصمت ولم يجب على السؤال حتى تكرر استجوابه ، وهو ساكت ، وأبو عبيدة أيضاً كان ساكتاً . فلم تبدر منه ولا كلمة واحدة تشم منها رائحة العنف بخالد . بل اكتفى بتكرار الاستجواب ، وخالد ملتزم الصمت .

وهنا قام بلال بن أبي رباح الحبشي وقال :

يا خالد إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا و كذا.

ثم تناول قلنسوة خالد فمقله بعمامته وقال ما تقول :

أمن مالك أم من إصابة ؟ وهنا (فقط) قال خالد : لا . بل من مالي ، فأطلقه بلال وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده . ثم قال :

نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا .

وبهذا الفصل انتهت المرحلة الأولى من متاعب الأمير خالد النفسية .

هكذا علمنا الدنيا الانضباط

يا للعظمة والروعة :

أعظم قائد يدوخ أعظم امبراطورية في العـــالم : قائد كانت تهتز تيجان الأباطرة على رؤوسهم لمجرد سماع ذكره في العالم : يقف طائعاً وديعاً بين النـاس كأبسط إنسان عادي يستجوبه مولى حبشي ويربطه بعمامته وينتزع قلنسوته من على رأسه على رؤوس الأشهاد : دون أن يحتج أو حتى يتبرم مجرد تبرم. أويذكر الناس بأنه هو الذي بسيفه مهد الطويق للسيطرة على الشام لانتصاره حين كان قائداً في معركة اليرموك الحاسمة .

بل يظل صامتاً مستسلماً ، طاعة لولي أمره الخليفة .

ولكن لا غرابة : إنه الإسلام لا يفرق في تحري الحق وإحقاقه بـــين أمير ومأمور ، ثم انه عمر الفاروق على رأس الحكم : عمر الذي أشرف على تنفيذ حد الجلد في ابنه وثمرة فؤاده عمر لا يفعل إلا ما يرى فيه رضى الله تعالى .

وعندما يعتقد أن عملاً فيه رضا الله ، وفي تركه سخط الله تعالى لا يمكن أن تقف الجبال أمامه عند تنفيذه .

فلا يستغرب أن يأتي هذا التصرف من عمر في حق خالد .

إن عمر لم يفعل ما فعل حيال خالد بغضاً له أو انتقاماً منه أو حقداً عليه ، كلا فكل هذه النقائص لا مكان لها في قلب عمر النقي الطاهر الكبير .

فعمر – كما صرح للناس جميعاً عدة مرات – يحب خالداً ويجـــله ولا ينكر فضله فيما قام به من جهاد عظيم ، ولكنها إجراءات أملتها مراقبة عمر لربه تعالى والخوف من عقابه الذي يعاقب به الولاة الذين يرى أنهم أخطأوا .

فرحم الله عمر ورحم الله خالداً فقد كان كلاهما من دعائم الإسلام .

نهاية البطل سياسياً وعسكريا

بعد الذي حدث لخالد في مسجد حمص من استجواب ثم نزع لقلنسوته واعتقاله بعمامته ، بقي البطل متحيراً : أهو لا يزال أميراً على منطقته بالشام أم أنه قد فصل من منصبه .

إن المؤشرات الظاهرة تدل على أنه لا بد وأن يكون قد عزل .

ولكنه لم يتبلغ من أمير الشام رئيسه الحبيب الصالح الأمين أبي عبيدة شيئاً بهذا الصدد .

والواقع أنه قد عزل من منصبه وأن أمير الشام في نفس الوقت تلقى من الخليفة الفاروق أمراً بعزل خالد عن كل مناصبه . كما تسلم أمين الأمة أبو عبيدة مرسوماً بأن يضم هو اليه كل المديريات التي كان خالد حاكماً ووالياً عليها وقائداً لجيوشها

ولكن أبا عبيدة (وهو الرقيق القلب الحريص كل الحرص على عدم جرح شعور الأسد زميله في الجهاد ويده اليمنى في الملمات) عز عليه أن تكون هذه نهاية البطل المغوار .

فثقل عليه أن يبلغه في ساعات الإبتلاء تلك في المسجد نبأ عزله من منصبه واستدعائه إلى المدينة .

فمراعاة لشعور الأمير خالد أخفى أبو عبيدة مرسوم توليته عمل خالد بعد عزله منه ، وتركه وشأنه يباشر عمله كأمير على قنسرين والعواصم .

وقد استبطأ الخليفة الفاروق قدوم خالد عليه من الشام ، فكتب اليه يأمره أن يقدم عليه المدينة ، ويخبره بأنه لم يعد أميراً على العواصم وقنسرين لأنه منذ حادثة مسجد حمص كان معزولاً ، ولكن أبا عبيدة لم يبلغه نبأ العزل .

وكان خالد في قرارة نفسه يتوقع (بعد الذي حدث في مسجد حمص) أن

يعفى من منصبه ، ولكنه بقي حائراً حتى تلقى أمر العزل مباشرة من الخليفة .

وهنا توجه خالد إلى زميله وصديقه أمير الشام أبي عبيدة بالعتب الرقيق على إخفائه نبأ عزله قائلا :

(رحمك الله : ما أردت إلى ما صنعت : كتمتني أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم) .

فأجابه أبو عبيدة في إشفاق وأدب جم :

(إني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك أبداً ، وقد علمت أن ذلك يروعك) ج ٤ ص ٦٨ .

خالد يودع الجند الذين حاربوا تحت لوائه

وبعد أن عزم خالد على التوجه إلى المدينة بعد ترك منصبه حسب رغبة الخليفة الفاروق ، وقف في مقر قيادته بقنسرين ، وهناك القى في جنده كلمة وداع مؤثرة .

ولا شك أن الجند أسفوا لفراقه لأنهم ذاقوا دائماً تحت قيادته المظفرة حلاوة الإنتصارات التي تتخللها إنكسارة واحدة .

ثم عاد إلى حمص وهناك ودع رفيق السلاح البطل الآخر أبا عبيدة ، ثم القى في جند حمص وهم جمهرة الجيش الذي كان يقوده ، عندما كان قائداً عاماً بالشام : القى فيهم كلمة وداع أخرى مؤثرة ثم توجه نحو المدينة ، وقرر أن يبلغ مشيخة الصحابة استيائه مما ناله بأمر الخليفة . لأنه يعلم أن حرية الفرد في الكلام في عهد عمر مكفولة تماماً حتى ضد الخليفة نفسه رغم ما اشتهر به الخليفة الفاروق من شدة وحزم في محاسبة الأمراء والقادة .

خالد يشكو عمر للصحابة

ولما وصل خالد المدينة وقبل أن يمثل بين يدي الخليفة عمر توجه إلى المسجد وشكا عمر إلى جمهرة الصحابة بعد أن قص عليهم ما حدث له بالشام في حمص.

وبعد أن أبلغ مشيخة المهاجرين والأنصار ما حدث له في مسجد حمص توجه إلى عمر ومثل بين يديه وأبلغه أنه شكاه لأهل المدينة في المسجد قائلاً :

لقد شكوتك إلى المسلمين ، والله إنك في أمري غير مجمل يا عمر .

فتقبل الخليفة (وبروح ديموقراطية عالية إن صح هذا التعبير) كل ما فعل وقال خالد ، فلم يغضب ولم يبد أقل اعتراض ، ولكنه استجوب خالداً مرة ثانية عما لديه من أموال قائلاً :

(من أين هذا الثراء) ؟

فقال خالد : (من الأنفال والسهمان وما زاد على الستين الفاً فهو لك) .

فوافق عمر على ما قال خالد : فقوم عروضه وكل ما يملك ، فزادت عشرون الفاً فأدخلها عمر بيت مال المسلمين.

ثم كشف الخليفة عمر لخالد عما يكنه له من احترام وحب وإكبار وإجلال قائلاً :

(يا خالد والله إنك علي لكريم وإنك إلي لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء) .

ثم بعث الفاروق برسوم إلى جميع الأمصار يزكي فيه خالداً ويشرح للناس أنه لم يعزله لجريرة ارتكبها على أي مستوى ، وإنما لأن الجند افتتنوا به وبشجاعته فخاف عمر الفتنة على الجند وعلى خالد نفسه وعلى الأمة كلها .

فقد جاء في هذا المرسوم الذي وزع على كل العواصم والمدن الكبرى :

(إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت

أن يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، والا يكونوا بعرض فتنة) .

فعمر هنا خاف أن يتحول إعجاب الجند بقائدهم العظيم خالد إلى تقديس ، وتقديس البشر للبشر سلم العبادة للمقدس .

وقد أشار شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله إلى تخوف عمر هذا فقال في عمريته في الديوان :

وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا ... فيه وقد كان أعطى القوس باريها

فقال خفت افتتان المسلمين به ... وفتنة النفس أعيت من يداويها

عام الرمادة وعظمة الفاروق

وبعد عودة الخليفة الثاني إلى المدينة من الرحلة الرابعة والأخيرة إلى الشام ، وفي السنة الثامنة عشرة للهجرة تعرض المسلمون في المدينة ونواحيها لمجاعة شديدة مخيفة .

وهذا العام هو المشهور في تاريخ الإسلام (بعام الرمادة) .

وسمي ذاك العام الصعب بهذا الإسم لأن الريح لشدة القحط إذا هبت كانت تثير غباراً مثل (الرماد) .

وقد نال المسلمون في ذلك العام جوع شديد : وكاد الكثيرون يموتون لشدة الجوع .

قالوا : كان الرجل يتفقد جماله ليذبح لأهله وأطفاله ليأكلوا ، فلا يجد إلا جلداً على عظم ، من شدة الهزال الذي أصاب البهائم لانعدام الكلأ .

من ذلك ما رواه الطبري قال :

ان رب عائلة . قال له أهله اذبح لنا شاة فقد بلغنا أي أشرفنا على الهلاك .

فقال لهم : ليس فيهن شيء ، فما زالوا به حتى ذبح لهم شاة . فإذا العظم أحمر ليس عليه لحم .

الفاروق يضرب من نفسه أروع الأمثلة على العدل

ولقد ضرب عمر الفاروق من نفسه أروع الأمثلة للحاكم المسلم الذي يشعر بثقل مسؤولية الحكم والاهتمام بشأن من يحكم اهتماماً يجعله يساوي نفسه بأوسطهم ويشعر بمتاعبهم وآلامهم فيجعلها متاعبه .

فعندما اشتدت المجاعة تلك السنة واستشرى الجوع في الناس حلف عمر أن لا يذوق سمناً ولا لحماً ولا لبناً حتى يرفع الله القحط ويحيا الناس من أول الحياء.

ولقد قال الفاروق ذلك العام كلمة يجب على كل حاكم مسلم أن يجعل منها رائده في تعامله مع رعيته .

فقد لام بعض الصحابة الخليفة عمر على امتناعه من اللحم والسمن واللبن حتى اغبر لونه وحثه على أخذ شيء منها . فقال رضي الله عنه :

(كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما مسهم) .

وهذا هو التعبير الصحيح عن الشعور الصحيح بآلام الأمة . وإلا فكيف يشعر الإنسان بأن الناس يتألمون من الجوع إذا لم يذق هو طعم الجوع. وبالتالي كيف يهتم بأمر الجائعين إذا لم يكن هو جائعاً مثلهم ؟

وعندما أخذت الاحوال تتحسن ، وردت إلى السوق بعض الاطعمة ، ومن بينها سمن ولبن ، فسارع غلام لعمر واشترى السمن واللبن بأربعين ثم أتى بهما اليه وقال :

يا أمير المؤمنين قد أبر الله بيمينك وعظم الله أجرك : قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتها بأربعين . فقال عمر : أغليت بهما ثم أمره أن يتصدق بهما قائلاً : فتصدق بهما فإني أكره أن آكل إسرافاً .

وقد تحدث شيخ المؤرخين الإمام الطبري عن عام الرمادة فقال : من رواية سيف :

كانت الرمادة جوعاً أصاب الناس بالمدينه وما حولها سنة ثماني عشرة فأهلكهم الجوع حتى صارت الوحوش (في غيبوبة الجوع) تأوي إلى الانس ولاتتعرض لاحد ولا يتعرض لها أحد ، وحتى جعل يذبح الشاة ، فيعافها من قبحها ، فيرمي بها .

وما زال الناس في كرب حتى جاء رجل إلى عمر فأخبره أنه رأى النبي ﷺ وكأنه يريد من عمر أن يستسقي بالمسلمين .

فاستسقى عمر :

فأغاث الله الناس وارتفعت المحنة .

فقد روى الطبري من رواية سيف . قال :

فخرج عمر فنادى في الناس .

الصلاة جامعة .

فصلى بهم ركعتين ثم قام فقال :

أيها الناس هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه ؟

قالوا :

اللهم : لا .

وكان بلال بن الحارث قال : إنه رأى رسول الله ﷺ فيما يرى النائم وأنه سمع الرسول ﷺ في المنام يقول :

قل لعمر لقد عهدتك كيساً وما زلت على رجل فما شانك ؟

قال عمر : متى رأيت هذا ؟

قال : البارحة .

فخرج عمر فنادى في الناس :

الصلاة جامعة فصلى بهم ركعتين ثم قال :

أيها الناس ، أنشدكم بالله ، هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه ؟

قالوا : اللهم . لا .

قال : فإن بلال بن الحارث يزعم ذيه وذيه فقال : صدق بلال فاستغث بالله وبالمسلمين (أي اطلب من أهل الغنى واليسار المساعدة للفقراء) وكان عمر عن ذلك محصوراً .

فقال عمر : الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف ما أذن القوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء .

فكتب إلى أمراء الأمصار : أغيثوا أهل المدينة ومن حولها ، فإنه قد بلغ جهدهم ، وأخرج الناس إلى الاستسقاء . فخرج وخرج معه العباس ماشياً فخطب فأوجز ، ثم صلى ، ثم جثا لركبتيه وقال : اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا ، ثم انصرف ، فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغدران لكثرة الأمطار .

وفي رواية أخرى أن دعاء عمر يوم استسقى عام الرمادة : (اللهم عجزت عنا آصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم فاسقنا واحي العباد والبلاد) .

قالوا : وجاءت من الشام أربعة آحلة من طعام إلى المدينة إغاثة لأهلها ، وذلك تلبية لطلب الفاروق وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأحيوا مع أول الحياء) [1] .

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٩٨ .

محاولة بيزنطية لغزو الشام في عهد عثمان

منذ السنة السابعة عشرة هجرية كانت الأوضاع مستقرة في الشام وحتى السنة الرابعة والعشرين هـ والروم ملتزمون الهدوء ، لم يحاولوا القيام بأية محاولة لغزو الشام .

ولكنهم في هذه السنة وفي عهد إمارة معاوية على الشام بلغ معاوية أنهم يعدون العدة للقيام بغزو شامل لاستعادة الشام .

ولما اطلع معاوية من استخباراته العاملة داخل بلاد الروم على تفاصيل ما يحاك ضده وضد جيشة في بيزنطا سارع وطلب النجدة من الخليفة الثالث عثمان بعد أن شرح له تفاصيل المؤامرة البيزنطية الجديدة .

وكان الرومان تمكنوا على حين المسلمين فقاموا بإنزال بحرى في الشام فاحتلوا بعض المدن الساحلية القريبة من طرابلس ، مثل بيروت ، وجبيل ، وعرقة . غير أن التقارير تفيد أن قوة الغزو البيزنطي يتمثل ثقلها في ثمانين الف مقاتل تحتشد بأطراف آسيا الصغرى لتعبر الحدود براً إلى الشام ، غير أن إنزال مشاة البحرية البيزنطية في موانيء لبنان عزز حامية مدينة طرابلس التي ظل الرومان يحتفظون بها حتى عهد الخليفة عثمان ٢٤ هـ .

كانت العراق بها من الاحتياطي حوالي أربعين الفاً ، موزعين على عدة مواقع هامة للطوارىء وكلهم من الفرسان .

وكان منهم بالكوفة (وهي أقرب هذه المواقع إلى الشام) عشرة آلاف فارس من ذلك الإحتياطي .

فعندما تلقى الخليفة الثالث الإستغاثة من أمير الشام معاوية كتب إلى أمير الكوفة الوليد بن عقبة يأمره بأن يبعث في الحال إلى الشام لنجدة معاوية عشرة آلاف فارس ، كي تشارك في صد الغزو المنتظر فقد كتب عثمان إلى الوليد :

(أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامة في ثمانية أو تسعة أو عشرة آلاف اليهم من المكان الذي ياتيك فيه رسولي والسلام)[1].

النجدة تتحرك من الموصل

كان أمير الكوفة الوليد بن عقبة قد غزا الشمال فهاجم الأعداء في أرمينيا ، حيث حدث تمرد الذين كانوا قد صالحوا المسلمين ودخلوا في ذمتهم في عهد الخليفة الثاني ، فغزاهم الوليد لتأديبهم وحاربهم حتى دوخهم فخضعوا له ورضخوا وأعطوا الجزية من جديد (عن يد وهم صاغرون) ثم شن الغارات من حولهم من الكفار ممن لم يكن لهم عهد في رقاب المسلمين ، فأوقع فيهم القتل وسبى منهم وغنم جيشه غنائم عظيمة ، ثم قفل راجعاً بعد ذلك الظفر العظيم ، واتخذ منطقة الموصل طريقاً له إلى مقر امارته .

وبينما هو في الحديثة بمنطقة الموصل تلقى خطاب الخليفة الذي يأمره فيه بإرسال نجدة مستعجلة لمساندة أمير الشام معاوية ضد الغزو الروماني المنتظر .

وفور تسلم الأمير كتاب الخليفة عثمان جمع جنده ووقف وأبلغهم رغبة الخليفة في مواصلة الجهاد ونجدة الأمير معاوية للبدء بالرومان قبل أن يبدأوا هم المسلمين ثم خطب فيهم قائلاً :

« أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسناً، ورد عليهم بلادهم – يقصد استعادة أرمينيا – التي كفرت ، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت وردهم سالمين غانمين مأجورين : فالحمد لله ، وقد كتب إلي أمير المؤمنين

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٧ .

يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف : تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشتهم الروم وفي ذلك الأجر العظيم والفضل المبين : فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي .

كان الوليد قد عينه قائداً لهذه النجدة .

فسارع الناس مستجيبين لنداء الأمير الوليد : فلم تمض ثالثة حتى خرج من الموصل من أهل الكوفة : فمضوا حتى دخلوا الشام وانـــدمجوا في جيش الشام المستعد لمواجهة الغزو .

وقاموا بمهاجمة الأراضي البيزنطية قبل أن يهاجمهم الرومان .

وكان على جند الشام القائد الشهير والفاتح المشهور ، حبيب بن مسلمة الفهري .

وعلى جند الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي .

وقد شمل هجوم المسلمين أرمينيا بالإضافة إلى آسيا الصغرى .

وكان الذي تولى مهاجمة أرمينيا في الشمال الشرقي حبيب بن مسلمة الفهري .

والذي تولى مهاجمة الروم في آسيا الصغرى سلمان بن ربيعة الباهلي .

وقد لاقى حبيب بن مسلمة في أرمينيا مقاومة شرسة من قائد روماني اسمه (الموريان) اتضح أنه يقود ثمانين الفاً ، فلقي حبيب صعوبة في التحرك داخل أرمينيا ، ولكنه حث رجاله على الاستبسال فاستمروا في تقـدمهم وإن كان ببطء في أول الأمر .

ولكن حبيب في النهاية بعد أن لمس انهيار الروح المعنوية بين جند الروم رغم كثرتهم الغامرة و كونهم ثمانين الفاً في حين كان فيـه حبيب لا يقود سوى جيش صغير : تمكن حبيب في النهـاية من شن هجوم صاعق على قوات الموريان وأنزل بهم الهزيمة الساحقة .

وكان من أسباب نجاحه في الهجوم ، هو نجاح القائد الباهلي سلمان بن ربيعة الذي تمكن في آسيا الصغرى (حيث ثقل الجيش الروماني) من أن يشن غارات ناجحة على مسالح الروم ومواقعهم ، فقام بسلسلة من الغارات الخاطفة أباد فيها قوات العدو المتقدمة وفتح عدة حصون داخل آسيا الصغرى نفسها ، الأمر الذي أشغل وزارة الحرب في بيزنطا عن تعزيز قوات قطاع أرمينيا التي يقودها الموريان .

ولقد بلغ حبيب بن مسلمة في انتصاراته ذروة حيث تمكن من تدمير قوات (الموريان) وكثافتها ، واحتل معسكر الموريان نفسه .

ولم يكتف البطل ابن مسلمة بتدمير قوات الموريان بأرمينيا التابعة لبيزنطا ، بل أخذ يتوغل بجيشه في قلب بلاد الروم نفسها ، فوصل في غاراته الموفقة إلى مدينة (قاليقلا) وهي مدينة جميلة بناها حاكم قونية وملطية لزوجته (قالي) ثم تقدم منها إلى مدينة (مربالا) وقبل أن يهاجمها تقدم اليه بطريق من بطارقتها بوثيقة تثبت أنها سلم للمسلمين وأنها على صلح معهم وفي ذمتهم ، وكانت الوثيقة موقعة بالشهود من القائد الكبير عياض بن غنم الفهري : فتركها حبيب وشأنها ثم نزل ضيفاً على بطريق (خلاط) ثم تقدم بجيشه داخل بيزنطا نفسها ، فالتقى بقائد مدينة مكس ففضل الأخير السلم على الحرب وعرض على حبيب الصلح فصالحه على الجزية .

وما زال حبيب بن مسلم يتقدم في بلاد الروم حتى تمت له السيطرة على عدة مقاطعات ، منها (طير) و (ببفروند) و (جرذان) .

ولم يعد حبيب من غزواته الظافرة تلك حتى أداخ القوات الرومانية داخل بلادها ، وصارت المقاطعات هناك التي سيطر عليها تحمل إلى المسلمين الجزية في الشام[1] .

---

(١) الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٨ .

معاوية يقابل التحديات بأكبر

وهكذا قابل داهية العرب معاوية – تحديات الإمبراطورية الرومانية بتحديات أكبر ، فبدل من أن يمكنها من التوغل في بلاد الشام قامت جيوشه بغارات في أحشاء الإمبراطورية نفسها وأذلت الجيش الروماني فألقت عليه الدروس القاسية .

وصارت بيزنطا بدلاً من أن تفكر مرة أخرى في القيام بغزو المسلمين في الشام ، صارت (فقط) منشغلة بصد الغارات الإسلامية التي لم تنقطع طوال أيام معاوية .

معاوية يحتل عمورية

وجاء في أمهات التاريخ أن الأمير معاوية لما عاد حبيب بن مسلمة وسلمان بن ربيعة الباهلي من غاراتهما على بلاد الروم نفسها متوجين بذلك الظفر العظيم والنصر الكبير : قاد بنفسه حملة كبرى على بيزنطا نفسها .

فقاد جيشاً عظيماً توغل به في أحشاء آسيا الصغرى التي تسمى (يومذاك) بلاد الروم ، وذلك عبر ما يسميه المؤرخون القدامى : (الدروب) وهي الحدود .

وقد هزم معاوية في حملته الكبرى هذه كل من لاقاه من الوحدات الرومانية داخل بيزنطا ، وأوغل فيها بعيداً حتى استولى على مدينة عمورية الشهيرة ، والتي يقال : إن إسمها (بورصة) وهي مدينة سياحية جميلة وبها مياه معدنية شافية ولا تبعد كثيراً عن العاصمة اسطمبول .

قالوا : وقد وجد معاوية أثناء اجتياحه جنوبي بيزنطا على الساحل حصوناً وقلاعاً رومانية خالية ما بين أنطاكية وطرطوس فشحنها بالمقاتلين المسلمين من أهل الجزيرة والشام .

وبعد أن عاد معاوية من حملته الكبرى المظفرة هذه كلف القائد يزيد بن الحربان بأن يقوم بمواصلة غزو الروم في الصيف ، ففعل مثلما فعل معاوية .

قصة عربسوس

وقالوا : وكانت بين الشام وبلاد الروم مدينة يقال لها : (عربسوس) فهي من مدن الحدود .

ويظهر أن سكانها كانوا من متنصرة العرب الذين كانوا موالين للروم ، وكانوا على ما يظهر على الحياد بين العرب المسلمين والروم .

ولكن استخبارات الإسلام حصلت على معلومات أكيدة تفيد أن سكان (عربسوس) يتجسسون على المسلمين ، وينقلون أخبارهم إلى الروم ، ولا يخبرون المسلمين بشيء من أحوال الروم . وذلك في أخريات أيام عمر .

وقد تبلغ الخليفة عمر في المدينة خطر بقائهم سالمين أحراراً في مدينتهم بين الجبهتين .

وكان قد أمر بمعاملة سكان عربسوس معاملة خاصة من حيث التسامح لتظاهرهم بأنهم موالون للمسلمين ، وأنهم عرب مثلهم .

(وبعد التأكد من وضعهم الخياني) كتب إلى أحد القادة (وهو ابن سعد) بأن يجليهم عن مدينتهم ، وأن يهدمها ويمحوها من الوجود . اتقاء لشر أهلها .

ومع ذلك فقد أمر الخليفة الأمير عمير بن سعد [1] بأن يفاوضهم أولاً

---

(١) هو عمير بن سعد بن شهيد بن عمرو الأنصاري الأوسي سمع زوج أمه الجلاس بن سويد في غزوة تبوك يقول إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير ، فقال عمير : أشهد أنه لصادق وانك شر من الحمير . وقال عمير : والله اني لأخشى إن كتمتها عن النبي (ص) أن ينزل قرآن وأن أخلط بخطيئة ، ولنعم الأب هو لي (يعني الجلاس) وكان يحسن اليه فأخبر عمير النبي (ص) فدعا رسول الله (ص) الجلاس ، فعرفه ، فتحالفا ، فجاء الوحي يؤكد ما بلغ عمير فقرأ رسول الله (ص) : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ، الآية) الى قوله : فان يتوبوا يك خيراً لهم . فقال الجلاس : أتوب إلى الله ولقد صدق .. كان عمير من مشاهير الرجال المقربين إلى عمر ، وناهيك بالفاروق لا يقرب إلا الأفاضل الكرام (انظر كتابنا غزوة تبوك).

ويبلغهم أنه مستعد لتعويضهم عن كل شيء شيئين مثله ، فإذا أبوا شن عليهم الحرب وأجلاهم عنها بالقوة .

لأنها أصبحت وكراً خطيراً للجاسوسية ضد المسلمين .

فقد جاء في مرسوم الخليفة لعمير بن سعد بهذا الصدد .

(إن قدمت اليهم فخيرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فإذا هم رضوا بذلك فاعطهم إياه وأجلهم وأخيرها فإن أبوا فانبذ اليهم وأجلهم سنة ثم أخيرها) (١) .

فذهب عمير بن سعد واجتمع بأعيان وعمد مدينة (عربسوس) وعرض عليهم أمر الخليفة ، ثم طلب منهم الجلاء عن المدينة ، وعرض عليهم أن تدفع لهم الدولة تعويضات مضاعفة عن كل ممتلكاتهم .

ولكنهم استكبروا ، فرفضوا الطلب والعرض العادل وأبوا أن يخلوا عن المدينة .

وهنا (وحسب تعليمات الخليفة) اضطر الأمير عمير بن سعد فزحف ناحية (عربسوس) ثم طوقها بالجيش ، ولكنه لم يدخلها بل أمهلهم سنة كاملة ، فظل الجيش حولها مرابطاً سنة كاملة . دون أن يتعرض لهم بأي ضرر . سوى مراقبتهم من حيث التجسس .

وعندما انتهت المهلة وهي سنة كاملة ، تقدم رجال الجيش ودخلوا المدينة ، ثم أخرجوا أهلها بالقوة ، وأرغموهم على الجلاء .

وقد حدث الجلاء دون أن تحدث إصابات في الأرواح بين سكان المدينة ، لأن الجيش لديه أوامر بالحفاظ على أرواحهم ، وهو مكلف فقط بإجلائهم . فأجلاهم وسمح لهم بحمل كل ما يقدرون على حمله من متاعهم .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٥٥ .

وقد كان جلاء سكان (عربسوس) أول حادث أمني كبير تقوم بـه قوات الحدود للحفاظ على أمن القوات الإسلامية المسلحة .

ولقد كان هذا الجـلاء خسارة كبرى لنشاطات الإستخبـارات البيزنطيـة ، إذ فقدوا عنصراً من أهم عنـاصر مباحثهم واستخباراتهم العسكرية [1] .

دور المرأة في المعركة

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينيـا البيزنطية ، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدو وفتح حصوناً ومدناً كثيرة وكان بمحاربته (الموريان) في شرق بيزنطا بأرمينيا من أهم الأسبـاب التي أحبطت عملية الغزو التي كان الروم يعتزمون القيام به على الشام كما تقـدم تفصيله في هذا البحث .

وقد كان لحبيب بن مسلمة زوجة مؤمنة شجاعة ، وكانت تحبه كزوج بطل ، وترافقه في غزواته المظفرة .

وعندما قرر المغامرة بمهاجمة القائد الكبير الروماني (الموريان) بأرمينيا أبلغته زوجته أنها ستشترك معه في القتال .

قال الطبري : (وكان حبيب بن مسلمة صاحب كيد (أي حيلة في الحرب) فأجمع على أن يبيت الموريان فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك . فقالت له : فأين موعدك ؟ فقال سرادق الموريان أو الجنة : ثم بيتهم . فقتل من أشرف له ، وأتى السرادق فوجد امرأته قد سبقتـه ، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق ، ولقد مات عنها حبيب رحمه الله فخلف عليها الضحاك بن قيس فهي أم ولده .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٥٥ .

عودة إلى المنطلق تحرير الموانيء المحتلة

ذكرنا فيما مضى من هذا البحث أن الروم نجحوا في إنزال مشاة البحرية في بعض موانيء لبنان : بيروت وعرقة وجبيل ، وعززوا حامية ميناء طرابلس . وقد قام القائد سفيان الأزدي بأمر من معاوية أمير الشام بتحرير كل تلك الموانيء من مشاة البحرية الرومان . ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة طرابلس ولم يزل محاصراً لها حتى طرد الرومان منها إلى الأبد [1] .

فتح مدينة طرابلس ٢٤ هـ

بعد استسلام حامية بيت المقدس للخليفة الفاروق ، تمت السيطرة الكاملة للخلافة الإسلامية على جميع أقاليم الشام ، ما عدا مدينة طرابلس ، التي تعتبر أحسن وأقوى معقل بحري للروم في الشام كلها ، حيث توجد على أعلى مرتفع فيها ثلاث مدن حصينة جداً يصلها جميعاً بالبحر ممر سري تحت المدينة يسلكه الجند الروماني عندما يحزبهم أمر وخاصة عندما تتعرض المدينة لحصار شديد .

هذه المدينة (طرابلس) استعصت على المسلمين ، حتى تولى معاوية بن أبي سفيان فتحها عام ٢٤ هـ وذلك في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

الروم يحصنون طرابلس

لقد قام الروم بعد انكساراتهم المتوالية على يد قوات عمر الفاروق في الشام. قاموا بعدة محاولات عن طريق الثورة والإنزال البحري واجتياز حدود آسيا الصغرى .. لاستعادة سيطرتهم على الشام .

وكانت المحاولة الأخيرة واليائسة .. هي المحاولة عن طريق احتشادهم في مدينة طرابلس .

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٩٦ .

ففي هذه السنة ٢٤ هـ قام الرومان بتعزيز قواتهم المتواجدة في معاقل طرابلس بقوات جديدة وكثيفة بعثوا بها من بيزنطا بحراً وتم إنزالها في الميناء ، كما تجمعت فيها فلول بعض المنهزمين الذين تمكنوا من الإفلات في بعض المعارك التي خسرها الرومان في الشام .

معاوية بطل فتح لبنان

كان معاوية بن أبي سفيان قد تولى في عهد الخليفة عمر فتح أهم المدن الساحلية بيروت وعرقة وجبيل وصور ، وهو يومئذ يعمل تحت قيادة أخيه . . قائد الجيش الأول في الشام يزيد بن أبي سفيان الذي يلقبونه بيزيد الخير لصلاحه وتقواه .

وعندما آلت إمارة الشام إلى معاوية في عهد الخليفة عمر بعد استشهاد أخيه في الطاعون ثم في خلافة عثمان . . قام في عهد عثمان بإنشاء أسطول بحري كبير قوامه الف وسبعمائة سفينة حربية من مختلف الأحجام .

وقد ساعدت سفن هذا الأسطول الأمين معاوية في الاستيلاء على مدينة طرابلس بلبنان .

وكان معاوية كقائد خبير وسياسي ماهر قد اهتم بمدن ومعاقل الساحل الشامي اهتماماً كبيراً ، لأنه يعرف أن أية محاولة قد يحاول الرومان القيام بها لاستعادة الشام إنما ستكون في الأغلب عن طريق البحر لأن الرومان يملكون أعظم أسطول بحري في العالم آنذاك .

فقام معاوية بنفسه أول الأمر وتولى ترميم وتقوية الحصون البحرية المقامة لحماية الشام من خطر البحر الذي يعتبر حتى ذلك الحين بحيرة رومانية إذا استثنينا الساحل الشامي الذي امتلكه جيش الإسلام بعد انتزاعه من سيطرة قوات هرقل .

وكان معاوية شديد الإهتمام بمدينة طرابلس ، لأن الرومان فيها باقون وكأنهم شوكة في جنب سلطات الإسلام في الشام . . وكان معاوية يرى أنه لا بد

من القضـــاء عليهم أو العمـــل على طردهم من تلك المدينة التـــاريخية الحصينة العتيدة .

كي لا تكون مصدر إزعاج لجيش الإسلام في الشام الذي يعد العدة بتوجيه من معاوية للانطلاق نحو الشمال حيث المناطق التي تقع اليوم ضمن روسيا الغربية والتي فتحها جيش الإسلام في عهد عثمان وبإشراف الأمير معاوية ، ومنها بلاد الديلم والخزر وباب الأبواب وغيرها مما يقع ضمن جمهوريات السوفييت .

حصانة طرابلس الشديدة

كانت طرابلس تضم ثلاث مدن متقاربة ووسطها تنتصب قلعتهـا العظيمـة المنيعة المشرفة على نهر عميق .

وكان معاوية يملك من استخباراته كل المعلومات الدقيقة اللازمـــة عن هذه المدينة وقوة تحصينها وكثرة مسالكها السرية التي تعين العدو في حربه .

لذلك لما عزم على الإستيلاء عليها شن عليها الهجوم القوي من البحر والبر .

فسير في البحر دوريات من السفن الحربية الخفيفة بقصد قطع المؤن والذخائر التي كانت طرابلس تتلقاها من القسطنطينية ، وقد نجح معاوية في ذلك نجاحاً تاماً.

فقد قطعت عن المدينة الإمدادات بمختلف أنواعها من البحر ، إذ كان المسيطر عليه دوريات الأسطول الإسلامي المسلحة من الزوارق الحربية الخفيفة .

أما من البر فقد كلف معاوية القائد سفيـــان بن بخيت الأزدي [1] بفرض الحصار الشديد عليها .

---

(١) سفيان هذا ترجم له ابن عساكر فقال : هو سفيان بن بخيت (بالتصغير) الأزدي كان ميراً على بعلبك من قبل معاوية . أخرج له أبو نعيم في الحلية والبخاري في التاريخ ، كان من قدماء الصحابة ، وكان في زمن معاوية ، أرسله معاوية في جيش عظيم قال : فعسكر في مرج السلسلة ، بينة وبين طرابلس خمسة أميال ، في أصل جبل يقال له : طويل . (ابن عساكر ج٦ ص١٣٨)

تقدم سفيـان بن بخيت بجيشه من البر ، وكان على صلة تامة بقوات الإسلام البحرية التي فرضت الحصار على البحر .

وعندما اقترب من مدينة طرابلس . وقدمت له استخباراته المعلومات اللازمة عن المدينة وقلاعها الحصينة وما فيها من قوات رومانية كثيفة .

رأي أن لا يستعجل القيام بأية عملية اقتحام للمدينة لصعوبـــة الوصول إلى قلاعها الحصينة .

لذلك اكتفى بتشديد الحصار عليها وعزلها عن الخارج براً وبحراً .

ومع هذا كان يقوم كل صباح بالهجوم على المدينة ويناوش حاميـاتها بقصد التضييق عليهم وإلحاق ما يمكن إلحاقه بهم من خسائر في الأرواح .

وكان القائد سفيان إشعاراً للروم بأنه لن يترك طرابلس حتى يفتحهـا . ، شيد على بعد أميال من حصون المدينة حصناً كبيراً واسعاً منيعـــاً ، حمل عبر التاريخ إسم (حصن سفيان) .

استمر من هذا الحصن يشن الغارات ويشدد من الخناق على الروم المحصورين في قلاع طرابلس حتى ضرسهم الحصار ، وكادوا يموتون جوعاً بعـد أن عزلوا تماماً عن الخارج براً وبحراً .

الجلاء عن المدينة

وعندما رأت الحاميات الرومانية في قلاع طرابلس أن لا طاقة لهم بما هم فيه من حالة الضيق والحصار ، بعثوا (سراً إلى القسطنطينية) يستغيثون بالروم ليعملوا الحيلة فقط في تمكينهم من الهرب من طرابلس بحراً .

وقد استجابت القسطنطينية ، فبعثت اليهم قطعاً بحرية كبيرة من الأسطول الروماني . وأمرتهم بالتجمع عند أفواه السراديب التي تصل القـــلاع بالبحر . فتجمعوا سراً في الليل .

وهنا تسللت قطع الأسطول الروماني الكبيرة في ظلام الليل فنقلت المحصورين على ظهورها بسرية تامة إلى بيزنطا .

لقد كان من عادة القائد سفيان الأزدي توجيه جيشه لتشديد الحصار على الروم ومناوشتهم في الصباح ، ثم يعود الجيش في المساء ويعتصم بالحصن حتى الصباح ، وذلك خوفاً من أن يتعرض لهجوم ليلي مباغت حول المدينة ، بعيداً عن مقر قيادته .

وفي يوم من الأيام قام جيش الإسلام بالتحرك للهجوم والمحاصرة صباحاً ، فاتضح له أن مدينة طرابلس خالية من الحاميات الرومانية ومن أي عنصر روماني .

فدخل القائد سفيان المدينة ، ثم أبلغ الأمير معاوية أن طرابلس أصبحت كلها تحت سلطان المسلمين وذكر له تفاصيل القصة .

ولما كانت خالية من العنصر العربي من المتنصرة الذين كانوا يناصرون الرومان في الشام . فقد أصبحت (أي طرابلس) خالية تماماً من السكان بعد أن جلا عنها الرومان .

فحمل اليها معاوية جالية يهودية ، وأنزلها المنطقة التي تسمى اليوم بالميناء .

وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ونشبت النزاعات الداخلية في الشام والعراق والحجاز بين الزبيريين والمروانيين اهتبل الرومان الفرصة ، فقاموا بإنزال بحري كبير فيها واحتلوها من جديد .

وظلت طرابلس متمردة على المسلمين حتى قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بسحق هذا التمرد وأعاد طرابلس إلى حضيرة السلطة الإسلامية .

وهكذا وبفتح معاوية لطرابلس ، تم للمسلمين الاستيلاء على الشام بجميع أقاليمه الأربعة من جميع الجهات .

قصة تمرد الجرامقة المستمر بمنطقة اللاذقية

في إقليم اللاذقية وفي جبل اللكام المشترك مابين سوريا وتركيا اليوم وبانياس وبوقا توجد أيام الفتح الإسلامي مدينة جبلية حصينة إسمها جرموقة ويسمى أهلها : الجرامقة نسبة اليها .

وكانت جرموقة هذه تتبع إدارياً ، لمحافظة أنطاكية في عهد حكم الروم للشام.

وعندما تبدلت الأوضاع في الشام واستولى الجيش الإسلامي على إقليم أنطاكية بما في ذلك أنطاكية نفسها اعتصم الجرامقة بمدينتهم الجبلية الحصينة (جرموقة) .

وكان الجرامقة من أشد الناس عداوة للاسلام وأشدهم ولاء للمستعمر الروماني .

ولذلك فإن قسماً من هؤلاء الجرامقة لما خاف عسكر الإسلام جلا عن جرموقة والتحق ببلاد الروم .

وعندما فتح أبو عبيدة أنطاكية لم يهتم أول الأمر بالجرامقة لأنهم (على ما يظهر) عنصر عربي خالص منعزل في منطقة لا يمكن (كما بدا لأبي عبيدة) أن يشكلوا أي خطر على أمن المسلمين ، لذلك تركهم في مدينتهم الجبلية ولم يوجه اليهم أية قوة قتالية رغم أنهم نصارى .

حبيب بن مسلمة يغزو الجرامقة

غير أنه عندما أعلنت أنطاكية التمرد على المسلمين ونقضت الصلح ، وتوجه اليها حبيب بن مسلمة فأعادها بحد السيف إلى مسار الذلة والخضوع ، تحرك بقواته نحو الجرامقة لإخضاعهم باحتلال مدينتهم الجبلية التي ظنوا أنها مانعتهم .

ويظهر أن ابن مسلمة لديه تعليمات من أبي عبيدة لغزوهم .

ولكن الجراجمة رغم شجاعتهم ورغم حصانة مدينتهم الجبلية فقد أصيبوا بالهلع بمجرد علمهم بتحرك حبيب بن مسلمة بقوته القتالية نحوهم .

فلم يتمالكوا أنفسهم حتى سارعوا إلى حبيب وطلبوا منه الأمان ورغبوا في عقد الصلح . فعقد معهم صلحاً ، ورجع عنهم بعد أن أقروا بالجزية .

لقد كانت منطقة الجراجمة منطقة حساسة بالنسبة لأمن المسلمين فقد كانت مدينتهم في جبال تقع على الحدود الفاصلة بين إقليم اللاذقية الإسلامي في الشام وبين الروم ، وكانت منطقة جبلية غاية في الوعورة .

إسقاط الجزية عن الجراجمة

ولما كان الوضع هكذا (على ما يظهر) فان القائد المسؤول في إقليم اللاذقية عقد معهم صلحاً جديداً أسقط عنهم فيه الجزية وذلك بموجب شروط أربعة :

١ – أن يكون الجراجمة العرب أعواناً للمسلمين ضد أعدائهم .

٢ – أن يقوم رجالهم القادرون على حمل السلاح بتنظيم المسالح ومراكز المراقبة على الحدود في جبالهم المتاخمة لبيزنطا لمراقبة أية تحركات رومانية ضد المسلمين ، وإخبار القيادة الإسلامية في اللاذقية فوراً .

٣ – لهم مقابل ذلك أسلاب من يقتلون من الروم .

٤ – يعفون من الجزية . فلا يؤخذ منهم شيء مطلقاً.

وقد شملت هذه الإتفاقية غير المحاربين منهم كلا فيما يخصه ، مثل الانباط والتجار والعمال والزراع والأجراء : وقد أطلق على هذه الأصناف الخمسة إسم الرواديف لأنهم صاروا من الجراجمة وليسوا منهم .

لقد وفت الإدارة الإسلامية في اللاذقية لأولئك الجراجمة فطبقت نصوص المعاهدة فيما يختص بناحيتها .

ولكن الجراجمة ، لم يطبقوا الإتفاقية بل صاروا مذبذبين يميلون مع الظروف.

يتظاهرون بالولاء والخضوع للادارة الإسلامية في اللاذقية عندما يكون وضع المسلمين قوياً ومستقراً وليست لديهم مشاغل تشغلهم عن هؤلاء الجراجمة .

كما أنهم يظهرون الصلف والتمرد إذا ما شعروا أن هناك مشاغل سياسية أو عسكرية تشغل المسلمين عنهم : وكان وضع الجراجمة من حيث اعتصامهم بالجبال يساعدهم على التمنع والغطرسة عندما يشعرون (مثلاً) أن هناك متاعب يتعرض لها المسلمون تصرفهم عن الإلتفات اليهم .

ورغم التساهل الذي أبدته الإدارة الإسلامية في اللاذقية والتسهيلات التي منحتها للجراجمة ، فان هؤلاء الجراجمة ، ظلت الإتصالات المشبوهة بينهم وبين جيرانهم الروم مستمرة ضد المسلمين .

كان يساعدهم على إخفاء هذه الإتصالات المشبوهة عن القيادة الإسلامية في اللاذقية سلاسل الجبال التي يقطنونها والمطلة على بانياس واللاذقية والممتدة حتى عمق الأراضي الرومانية . حيث يذهب رسل الجراجمة ويتنقلون عبر سلاسل الجبال بين بيزنطا وبين مدينتهم (جرجومة) الرابضة في أحضان الجبال الشاهقة ، دون أن تشعر به القيادة الإسلامية في اللاذقية إلا في النادر ، حيث تكتشف الدوريات الإسلامية المسلحة بعض هذه التحركات المشبوهة .

عبد الملك يهادن الجراجمة ثم يبطش بهم

وقد ظل الجراجمة مصدر متاعب لحرس الحدود من المسلمين والقيادة الإسلامية في اللاذقية نفسها وكانت متاعبهم هذه بين مد وجزر ، حسب الظروف . حتى جاء عهد عبد الملك بن مروان ، فشكلوا بالاشتراك مع حلفائهم الرومان قوة ضاربة وزحفوا بها فاحتلوا أكثر مدن الساحل الأوسط بالشام وكانوا ذوي قوة قتالية ممتازة وعدد غامر مع شجاعة وتهور .

ولقد استفحل أمرهم وتطاير شررهم عندما نشب الخلاف المسلح

المؤسف بين الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير وبني مروان المتخـذين من الشمال قاعدة كبرى لهم .

فأثناء تلك الفترة استغل الجراجمة الفرصة واتصلوا بحلفائهم القدامى الرومان (سراً) وتم الإجتماع بين مندوبي الفريقين في أعالي جبـــال اللكام المطلة على اللاذقية وعلى بلاد الروم

وهناك تم الإتفاق بين الجراجمة وبين الروم على أن يؤلف الفريقـــان قوة ضاربة مشتركة من الروم والجرامقـة ، واتفقوا على أن يكون مكان تجمع هذه القوة سلاسل الجبال المطلة على اللاذقية حيث توجد مدينة الجراجمة (جرجومة).

تم هذا الإتفاق في عام ٦٨ هـ .

وبعد أن تكامل الحشد في الجبال من الروم والجرامقة تحركت هذه القوات المشتركة ونزلت إلى اللاذقية فهاجمتها وتمكنت في الحال من الاستيلاء عليها بعد أن طردت منها حامياتها الإسلامية الغير القوية نسبياً .

ثم اتجه الروم والجراجمـــة جنوباً على الشريط الساحلي حتى سيطروا على منطقة لبنان كلها الساحل والداخل وتعاظم خطرهم حتى صاروا يهددون عاصمة بني أمية دمشق .

وقد أوقعت عبد الملك بن مروان هذه التحديات من الروم والجرامقة في ورطة .

فمعظم قواته تستعد لمواجهة أشجع القادة في العراق وهو مصعب بن الزبير .

وفي نفس الوقت غدر الجرامقة بعهدهم واحتلوا بالإشتراك مع الرومان منطقة لبنان كلها وصاروا يهددون عاصمة بني مروان دمشق . فما العمل ؟

ان مصعب بن الزبير زاحف بأهل العراق والحجاز وهدفـــه أيضاً احتلال كرسي ملك بني مروان أيضاً (دمشق) .

غير أن عبد الملك (وكان قمة في برودة الأعصاب والتجلد عند الشدائد) لم يعدم مخرجاً من هذه الورطة الخطيرة .

فقد تمكن بدهائه من أن يقنع الروم وحلفاءهم الخونة الجرامقة بعقد هدنة بينه وبينهم ، تعهد بأن يدفع لهم – ما دامت الهدنة قائمة – كل أسبوع الف دينار ذهب .

كان المبلغ باهظاً ، ولكن أبهظ منه لو اضطر إلى المحاربة في جبهتين .

ولقد اغتبط الجرامقة بهذا الصلح لما فيه لهم من كسب مادي عظيم .

ولما نجح عبد الملك في التغلب على الجيش الزبيري واستشهد قائده البطل مصعب في الميدان ودانت لبني مروان العراق كلها . وجد عبد الملك الفرصة سانحة كي ينتقم من الخونة الجراجمة ويبعد الغزاة الروم الأجانب من بلاد المسلمين.

الرأي قبل شجاعة الشجعان

فقد وجه إلى الروم والجراجمة في لبنان أحد قادته الدهاة وهو سحيم بن المهاجر [1] للقضاء على فتنة الروم والجراجمة المسيطرين على الإقليم اللبناني بجميع موانئه البحرية .

---

(١) سحيم بن المهاجر هذا من أعظم رجالات بني أمية وبدهائه قضى على فتنة من أخطر الفتن التي واجهها عبد الملك بن مروان في الشام وبحرها . وقد ذكر ابن عساكر قصة توصل سحيم هذا بدهائه إلى قتل قائد الانباط (الجراجمة) وهيئة أركان حربه وهم مجتمعون في كنيسة متزيين بزي الروم . قال ابن عساكر : ج ٦ ص ٦٥ : كان سحيم من سكان طرابلس ، ولي امرتها في أيام عبد الملك بن مروان ، ولما كان طاغية الروم رأى ما صنعه الله للمسلمين وأخذهم مدائن الساحل كاتب أنباط جبل لبنان وانباط جبل اللكام (قلت وهم الجراجمة) ، فخرجوا جراجمة وعسكروا بالجبل ووجه طاغية الروم قلقط (وكان غير رومي) في جماعة من الروم في البحر ، فسار بهم حتى ارسى بهم بوجه الحجر ، وخرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان، وثب بقواده إلى أقصى الجبل حتى بلغ افطاكية وغيرها من الجبل الأسود.. فأعظم ذلك المسلمون،==

فاستخدم أولاً للقضاء عليهم الحيلة والدهاء .

فقد كلف بعض عناصر استخباراته بأن يشيعوا في الأوساط الرومانيـــة والجرجمية أنه قد تمرد على الخليفة عبد الملك .

حتى لم يكن احد يقدر ان يخرج في ناحية من رجال وغيرها إلا بالساحل، ثم استفحل امر الروم، فغلبوا على الجبال كلها من لبنان وسنير ، وجبل الثلج (يعني جبل الشيخ اليوم) وجبال الجولان، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل ، حيث بعث اليهم عبد الملك بالأموال ليكفوا ، حتى يفرغ لهم وكان مشغولاً بقتال اهل العراق ومصعب بن الزبير وغيره..

ثم كتب عبد الملك إلى سحيم في مدينة طرابلس يتواعده ويأمره بالخروج اليهم ، فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم ويسأل عن خبرهم وامورهم حتى بلغه ان قلقط (قائدهم العام) في جماعة من اصحابه تزيا بزي الروم في لباسه وهيئته وشعره وسلاحه ، متشبهاً ببطريق من بطاوقة الروم قد بعثه ملك الروم إلى جبل اللكام في جماعة من الروم ، فغلب على ما هنالك . فلما دنا (سحيم) من القرية خلف اصحابه وقال : انتظروا حتى مطلع كوكب الصبح ، فدخل على قلقط واصحابه وهم في كنيسة يأكلون ويشربون ، فمضى (وكان داهية) إلى مقدم الكنيسة فصنع ما يصنعه النصارى من الصلاة والقول عند دخولها كنائسها ، ثم جلس إلى قلقط فقال له : من انت .. (فتظاهر انه جاسوس يعمل لحساب الروم ضد المسلمين) فقال : حيث انتمى لرجل يشبهه فصدقه فقال : إنما جئتك لما بلغني من جهاز سحيم وما اجتمع به من الخروج اليـــك لأخبرك به واكفيك امره إن اتاك ، ثم تناول من طعامهم ، ثم قال لقلقط واصحـــابه : انكم تأتون ههنا للطعام والشراب ، ابعث معي عشرة من هؤلاء من اهل النجدة والبأس حتى نحرسك الليلة، فاني لست آمناً ان يأتيك ليلاً ، فبعث معه عشرة وامرهم بطاعته ، فخرج بهم إلى اقصى القرية وقام بهم على الطريق الذي يتخوفون ان يدخل عليهم منه سحيم ، فأقام حارساً من رجال (قلقط) وامر اصحابه فناموا وامر الحارس إذا اراد النوم ان يوقظ حارساً منهم وينام هو . قال ابن عساكر : فحرس الأول ثم الثاني ، ثم قام الأمير سحيم الثـــالث ، وقال : انا احرس فنم : فلما ناموا كلهم قتلهم بذباب سيفه رجلاً رجلا ولما ضرب التاسع أصاب العاشر برجله فوثب إلى سحيم فأخذه فصرعه الرومي وجلس على صدره فاستخرج سحيم سكيناً من خفه فقتله بها .. ثم اتى الى الكنيسة فقتل قلقط في الحال وقتل اصحابه رجلا رجلا ، ثم خرج الى اصحـــابه العشرين فجاء بهم فأراهم قتله الحرس وقلقـط ومن في الكنيسة ، ووضعوا فيمن بقي خارج الكنيسة في الجبل . فعلم بهم من بقي حياً من الروم والجراجمة والانباط ، فخرجوا هرباً حتى اتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوها ولحقوا بأرض الروم ، ورجع الأنباط والجراجمة الى جبـــالهم فتفرقوا .
(ابن عساكر ج ٦ ص ٦٥)

وبعد انتشار هذه الإشاعة ورواجها وصل سحيم فعـــلا بنفسه إلى معسكر الجراجمة متظاهراً بالتمرد ومعلناً الرغبة الإنضمام إلى الجراجمة لأنهم عرب وهو وكافة قواته عرب .

ثم صار يتردد على زعيم الجراجمة ويطلب منه المشورة ، وهدفه الإطلاع على عورات قوات العدو .

فحتى إذا ما كشف نقاط الضعف لدى الجراجمة والروم وألم بالمداخل القتالة عليهم شن على الجميع هجوماً كاسحاً ما كان يدور بخلدهم .

وكان الهجوم موفقاً . فقد ارتبك الروم والجراجمة في لبنان ، فقتل قائـد الجراجمة وقتل أكثر قادة الجيش الروماني الغازي ، وتمزقت بقية قواتهم دون أن تتمكن من القيام بأية مقاومة .

ثم سيطر سحيم على جميع القطر اللبناني وأعاده إلى حضيرة السلطة الإسلامية .

وقد تشرد الجراجمة وتشتتوا في الأرض .

بعضهم التجأ مستخفياً إلى حمص وقرى دمشق ، ورجع أكثر من بقي حياً إلى قراهم في سلاسل الجبال حول بانياس واللاذقية .

عبد الملك يجلي الجراجمة عن جبالهم المنيعة

ورغم الهزيمة المدمرة التي أصابت الجراجمة وحلفاءهم الروم في لبنـان فقد ظلوا مصدر متاعب للدولة الإسلامية .

ففي سنة ٨٩ هـ وصلت عن طريق ميناء اللاذقية وبانياس وطرطوس قوات رومانية من الاسكندرية واتصل قائدها بالجراجمة ، فأعلنوا العصيان على دولة بني أمية وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك وكان دائماً مبعث تمردهم مدينتهم الحصينة الرابضة بين سلاسل جبال اللكام حول اللاذقية .

وقد وجه الوليد اليهم أخاه مسلمة (وكان عسكرياً فذاً) فحاصرهم ثم اقتحم عليهم مدينتهم الحصينة ودوخهم رغم وعورة المسالك اليهم. وكان مسلمة من أعظم الأبطال بين الأمراء .

وبعد أن خضد شوكتهم ودوخهم ولكي يقطع دابر فتنتهم التي لا تنتهي أجبرهم على الجلاء من منطقتهم الجبلية حيث مدينة الجرجومة ، ثم أسكنهم مدينة دمشق كي يكونوا قريباً من العاصمة تحت المراقبة .

ورغم ما فعلوا من ثورات متلاحقة فقد ترك لهم الخليفة الوليد حريتهم الدينية وبدلاً من أن يأخذ منهم الجزية خصص لهم رواتب .

ولكن الوليد أمر بتدمير مدينتهم العاتية في الجبل لئلا يطمعوا في العودة اليها في ظرف من الظروف. وكان لهم بطريقاً نزل أنطاكية ، ثم هرب إلى بلاد الروم.

وبعد هدم مدينة الجراجمة في جبل اللكام لم يقم لهم كيان يخشى خطره العسكري ، ثم تلاشوا واندمجوا (بمرور الزمن) في سكان مدن وقرى حمص ودمشق وبقية المدن السورية . ولم يظهر في سجلات التاريخ (بعد) شيء اسمه الجراجمة الذين كانوا دائماً كوجع الضرس لكل حاكم يحكم الشام .

نظرة وتحليل

لقد كان من عادتنا اختتام كل كتاب نؤلفه يتضمن بحوثاً عسكرية وسياسية أن نعقد فصلاً أخيراً نذكر فيه الدروس المستفادة وأسباب النصر وعوامل الهزيمة وأشياء أخر .

ولكننا لدى اطلاعنا على مختلف المصادر التي تحدثت عن حرب المسلمين في الشام ، وجدنا أن العلامة العسكري الخبير الأستاذ بسام العسلي جزاه الله خير الجزاء قد كفانا هذه المهمة . حين تحدث في كتابه (فن الحرب في عهود الخلفاء

الراشدين والأمويين) عن هذا الموضوع فأوفى على الغاية فذكر بكل دقة الدروس المستفادة وبقية أسباب النصر ودواعي الهزيمة .

لذا فنحن هنا نذكر ما كتبه الأستاذ العسلي بهذا الصدد مع الشكر الخالص له على الجهد الذي بذله والإيضاح الذي أبداه .

الدروس المستفادة

لقد قال الأستاذ العسلي :

وصلت طلائع القوات العربية الإسلامية إلى حدود بلاد الشام في نهاية السنة الحادية عشرة للهجرة . واستسلمت دمشق للعرب المسلمين في السنة الرابعة عشرة للهجرة ، وبين التاريخين فترة عامين ونصف تقريباً .

فإذا قورنت المساحة الأرضية التي تم احتلالها بالمدة التي تطلبها هذا الإحتلال ظهر بوضوح أن هجوم العرب المسلمين سار في مرحلتين . الأولى بإيقاع بطيء ومعدل ضعيف ، وكان لذلك ميزاته الكبرى فقد انطلق العرب المسلمون من جزيرتهم لمجابهة أقوى دولتين عرفهما العالم القديم .

وكان عليهم تحطيم عدد من المعطيات ، حتى يتمكنوا من تثبيت أقدامهم ، والانطلاق بثبات وقوة للمراحل التالية :

١ — كان عليهم تحطيم عامل التفوق البشري والتفوق بالإمكانات المادية .

٢ — وكان عليهم تحطيم عامل الهيمنة الأجنبية .

٣ — وكان عليهم نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل وتعريف سكان البلاد بأهدافهم .

٤ — وكان عليهم دراسة العدو ، ومعرفة نقاط ضعفه ، ودراسة الأرض ومعرفة ميزاتها .

٥ ــ وكان عليهم تطوير تنظيماتهم وتعديل أساليبهم بما يتوافق مع المواقف المختلفة والتحديات التي تجابههم .

واستطاع العرب تحطيم هذه المعطيات بمجموعة من الإجراءات والأساليب منها :

١ ــ خوض حرب استنزاف صعبة وشاقة ، وتجنب اللقاء بمعارك حاسمة إلا بعد أن يتصلب عود الجيوش الإسلامية من خلال معاركه اليومية ، ومن خلال أعمال قتالها بعد تقسيم المعركه الكبرى إلى مجموعة معارك ثانوية ، يتم خلالها تحطيم قوات العدو وتدمير أكبر قوة قتالية ، كما في إجنادين واليرموك .

٢ ــ عدم تمكين الروم من تشكيل مقاومات جديدة . وذلك بالقضاء على أكبر قدر ممكن من قواته ، واتباع أسلوب الإبادة وتطويق ميدان المعركة ، وعزله ثم القيام بالمطاردة الحاسمة (يوم فحل) .

٣ ــ إحراز انتصارات حاسمة في المعارك اليومية ، وبذلك تزول رواسب الهيمنة الأجنبية ، ويكتسب المقاتلون الثقة بقدرتهم على تحطيم قوة العدو ، مهما كانت كبيرة .

٤ ــ اتباع أسلوب الحرب النفسية ، وإحباط الروح القتالية ، لدى الخصم عن طريق الثبات في المقصد وعدم التردد في المواقف الحاسمة والعناد في القتال ، والصدق في تنفيذ التهديد والوعيد .

٥ ــ الاتصال بسكان البلاد (والقبائل العربية بصورة خاصة ، لوضعها خلال المرحلة الأولى على الأقل في موقف الحياد ، مع تكوين مجموعات مع الأنصار تعمل إلى خلف قوات العدو ، وتوفر للعرب المسلمين المعلومات عن قوات عدوهم وتحركاته ونواياه وما يعتزم تحقيقه .

٦ ــ تعديل التنظيم القتالي ، والإفادة باستمرار من تجارب ــ الخطأ والصواب ــ لوضع أسس تتوافق مع تنظيم العدو وحجم قواته ونوع أسلحته ووضعه النفسي .

العوامل التي ساعدت العرب المسلمين في تنفيذ مخططهم

لقد ساعد الروم على غير إرادة منهم القادة العرب المسلمين في تنفيذ مخططاتهم . فقد استمروا في تقييمهم لقوة العرب المسلمين على نحو ما كانوا يفعلونه سابقاً . ولذلك دفعوا اليهم في البداية قوات صغرى .

وعندما دمر العرب المسلمون هذه القوات توقف هرقل عن زج قوات جديدة في انتظار تطور الموقف ، وعلى أمل أن يكتسب العرب المسلمون بعض المكاسب المادية الصغرى التي تصرفهم عن تحقيق واجباتهم وأهدافهم ، ثم يقوم الروم بهجوم حاسم يعيدون به العرب إلى جزيرتهم .

وكان هذا الجهل لما حملته الموجة الفاتحة من العرب المسلمين ، وعدم إدراك الروح الجديدة (يعني عقيدة التوحيد التي تطمح إلى فتح آفاق واسعة ، والوصول إلى أبعاد غير محدودة .

وهو من العوامل التي كانت في صالح العرب المسلمين .

وكان قادة العرب بالمقابل يعرفون جيداً أهدافهم ، ويعرفون قوة بني الأصفر ويحسبون حساباً لها ، ويقفون موقف الحذر في كل خطوة من خصومهم .

وهذا ما حملهم على إجراء دراسة موضوعية دقيقة لكل تصرف ولكل موقف يقفه العدو ومعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف ، والإفادة من نقاط الضعف مع إيجاد الوسائل لمعالجة نقاط القوة والتغلب عليها .

لقد عمل كل جيش من جيوش المسلمين بشكل مستقل في منطقة العمليات المحددة له .

وكان القادة على اتصال مستمر ودائم فيما بينهم لتبادل المعلومات ودراسة المواقف ومجابهة الأحداث الطارئة .

وكان كل قائد يسرع لدعم القائد الآخر في مسرح عملياته، ويضع قواته تحت تصرفه لمجابهة قوات الروم المتفوقة .

وعندما يتم القضاء على هذا التفوق يعود كل جيش إلى منطقة عمله [1] .

كان الروم يتحركون بصورة بطيئة ، نتيجة لتنظيماتهم الإدارية ، وللحجم الكبير في إمداداتهم وتموينهم ، بينما كانت القوات العربية خفيفة الحركة ، سريعة المناورة ، لا يثقلها التموين والإمداد ، تتعايش مع المنطقة التي تعيش فيها ويكتفي المقاتل بالزاد القليل .

وهذا مما كان يساعد قوات المسلمين على التنقل بسرعة من منطقة إلى منطقة ومن جبهة إلى جبهة ومباغتة الخصم قبل أن يكمل استعداده القتالي وتجمعه .

لقد برهنت معارك المرحلة الأولى على تميز المقاتلين من العرب المسلمين بكفاءة بدنية عالية وقدرة على تحمل الصعاب .

ويمكن أخذ تحرك خالد بن الوليد من العراق إلى الشام نموذجاً لذلك .

فقد تجاوز خالد المسافة عبر الصحراء في خمسة أيام ، ثم استمر في مسيرته نحو الجنوب مع الإشتباك في القتال مع الخصم خلال كل مرحلة من مراحل المسير .

كما أن تحرك قوات المسلمين إلى إجنادين وزج القوات بالقتال فوراً وثم العودة إلى الجولان والتحرك إلى اليرموك برهان آخر على كفاءة المقاتلين وقدرتهم العالية على تحمل أعباء القتال .

---

(١) لا أظن أن شيئاً من هذا قد حدث .

نتائج المرحلة الأولى من العمليات

آ – النتائج الإستراتيجية :

١ – تنظيم قاعدة متقدمة – انتهت المرحلة الأولى من عمليات الجبهة الشرقية بسقوط دمشق ، وأصبح باستطاعة العرب المسلمين الانطلاق منها لمتابعة فتح الأقاليم ، والاستناد إلى قاعدة قوية ومأمونة لا خطر من تطويقها ولا خوف من عزلها .

ولم تعد المدينة منطقة الحشد ، بل أصبحت الجابية[1] هي مقر القيادة الأمامية.

وكان الخليفة عمر يتوجه اليها في كل مرة يتطلب الأمر فيها معالجة موقف من المواقف على مقربة من مسرح العمليات .

كما أصبح باستطاعة الجيوش العربية أن تستفيد من إمكانات هذه القاعدة لدعم القوات المتقدمة بمتطلباتها البشرية والتموينية .

٢ – استنزاف قوة الروم :

لقد استغرقت معارك المرحلة الأولى قوة الخصم وأحدثت تغيراً جذرياً في ميزان القوى ، وحطمت عوامل تفوق الروم المادية والبشرية والمعنوية .

وأصبح العرب المسلمون أكثر قدرة على تطوير عمليتهم بسرعة ، والانطلاق بثبات وحزم نحو أهدافهم الجديدة .

---

(١) الجابية : بكسر الباء وياء خفيفة ، قرية كانت مغمورة ، ثم اشتهرت أيام فتح العرب للشام ، وهي من أعمال دمشق وفي منطقة الجولان ، ولذلك يقال لها : جابية الجولان ، وهي قرب مرج الصفر في شمال حوران ، وبالقرب منها تل قال البقاعي : يقولون له : تل الجابية . وهو كثير الحيات ، وقد شهدت الجابية عدة مؤتمرات يعقدها الخليفة عمر بن الخطاب مع قادة الحرب في الشام ، لأنها دائماً تكون معسكره عندما يزور الشام . فمنها كانت تصدر بعض مراسيم العزل والتولية لقادة الجيوش . وقد جاء اليها عمر بن الخطاب عدة مرات في خلافته ، للتفتيش والتحري في الجيوش .

٣ ـ تحقيق الهدف من الحرب (المقصد) .

وضعت معركة إجنادين واليرموك واحتلال دمشق حداً نهائياً لاحتلال الروم ، وبذلك تحقق الهدف المحدد للحرب وهو تحرير الشام من سيطرة الروم والتمهيد لمرحلة نشر الإسلام فيها .

لقد كانت نهاية المرحلة الأولى عملاً حاسماً في تطوير الموقف العام ، نظراً لما تتميز به الشام من موقع جغرافي واستراتيجي ذو أثر كبير على مسيرة العمليات في المنطقة كلها .

٤ ـ التمهيد لإقامة علاقات اجتماعية جديدة .

كانت الحرب في نظر العرب المسلمين وسيلة لنشر الدين الإسلامي .

ولهذا بقي الهدف الأساسي مرافقاً لأعمال القتال كلها .

وعندما كانت تتوقف المعركة يبدأ القادة وبأسرع ما يمكن إلى ترسيخ جذور العلاقة بين أهل البلاد الأصليين وبين العرب المسلمين .

وتبدأ هذه العلاقة بمعاهدة الصلح التي تحدد واجبات كل طرف وحقوقه على الطرف الآخر .

ثم تتطور هذه العلاقة إلى التعايش والفهم المتبادل للأهداف بين الحاكمين والمحكومين على أسس ثابتة من الحق والعدالة .

ب ـ النتائج العسكرية .

١ ـ ظهور قيادات عسكرية .

كانت المعارك المتتابعة بمثابة مدرسة تعلم منها القادة فن الحرب .

وكان لاحتكاكهم بجيش الروم دور كبير في إغناء معرفتهم بقيادة التشكيلات الكبرى وتطبيق فن الحرب وتطويره لمجابهة المواقف المختلفة .

وإن ظهور أسماء كثيرة مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو وضرار بن الأزور وغيرهم ، ما هو إلا برهان على وجود أصالة ثابتة واستعداد فطري للاضطلاع بأدوار قيادية .

ثم جاءت التجارب فصقلت هذه المواهب وأبرزتها إلى مسرح الوجود في صورتها الرائعة .

٢ – وجود مركزية في القيادة .

تميزت قيادة العمليات بمركزية قوية .

فكان الخليفة هو الذي يحدد الأهداف المتتابعة وينسق الجهد بين مختلف مسارح العمليات .

وكان قادة مسارح العمليات على درجة عالية من الكفاءة مكنتهم من تفهم الواجبات المحددة لهم بشكل عميق .

وكانت مؤتمرات القادة تشابه إلى حد كبير مؤتمرات قادة الجيوش ورؤساء أركان حربهم .

حيث كان يتم في هذه المؤتمرات طرح المواقف وطريقة مجابهتها وتحديد الوسائل اللازمة لذلك .

٣ – الانضباط في القيادة التنفيذ

ان متابعة مسيرة العمليات في المرحلة الأولى تبرز ، الكثير من الشواهد على انضباط صارم وطوعي لدى المقاتلين من العرب المسلمين القادة منهم والمرؤوسين على حد سواء .

ان توجيه خالد بن الوليد إلى الشام ، وتسليمه القيادة ثم عزله عنها من الشواهد على هذه الانضباطات .

وان السرعة في تنفيذ أوامر خالد بن الوليد في التحرك – علماً بأن الجميع كانوا ضد هذا التحرك عبر المحور الذي اقترحه ابن الوليد للجنوب وزج القوات في إجنادين ، ثم في اليرموك ما هو إلا شواهد على الانضباط الصارم الطوعي في تنفيذ الأوامر .

كما أن إعادة التنظيم وتشكيل القوات تشكيلاً مستحدثاً وإجراء تعديلات في كل فترة يدل دلالة واضحة على توفر انضباط رائع وتجاوب كبير بين القيادة والمنفذين .

٤ – الروح العالية (التي مبعثها عقيدة التوحيد)

وأخيراً لم تكن كفاءة القيادة ولا التنظيم ولا الثقة بالمعدات تستطيع تحقيق تلك الإنتصارات الرائعة ، لولا توفر الروح المعنوية بدرجة عالية بين المقاتلين .

قلت : وهذه الروح المعنوية التي لا مثيل لها ما كانت لتتمتع بها قوات العرب الفاتحين لولا عقيدة الإسلام التي من أجل نشرها عبر العرب الحدود يجيوشهم إلى الشام .

لقد برهن المقاتلون العرب المسلمون على روح معنوية عالية وعلى إيمان عميق بالهدف الذي يقاتلون من أجله ، وان هذه الروح المعنوية وذلك الإيمان الراسخ هو الذي كان يحفزهم على مجابهة كافة التحديات وإحباطها ، وهو الذي يحملهم على تقبل صعاب المعركة واقتحام أخطار الحرب دونما تفكير إلا بهدف واحد، هو تحقيق الهدف من الحرب .. قلت (وهو نشر الإسلام وإفساح الدعوة أمامه).

أ – الاستراتيجية

١ – الإنطلاق من قاعدة قوية أمينة .

يظهر الحرص على تطبيق هذا المبدأ من خلال حدثين بارزين :

أولهما : عندما أرسل الخليفة عمر إلى يزيد بن أبي سفيان يطلب اليه توجيه

معاوية لفتح قنسرين ، نظراً لأن بقاء هذه المدينة في وسط البلاد المفتوحة يشكل مقاومة جانبية تغري الروم بتوجيه قوات لدعمها .

وهي بالإضافة إلى ذلك تهدد مؤخرة القوات الزاحفة إلى الشمال .

أما الحدث الثاني فهو عودة أبي عبيـــدة بن الجراح لفتـــح البلاد المتمردة بتحريض من الروم .

وفتح بعلبك وحمص وقيسارية قبل متابعة التحرك لفتح حلب أو الإنطلاق غرباً إلى أنطاكية أو شرقاً إلى الجزيرة الشامية .

٢ – وضوح الهدف

كان هدف الجيوش العربية منذ غادرت الجزيرة هو إزالة دولة الروم وانتزاع الشام من قبضتهم وتحريرها .

ولهذا فعندما انتهى فتح دمشق اندفعت القوات لمتابعـــة واجباتهـــا في مختلف الإتجاهات .

فتوجه أبو عبيدة وخالد بن الوليد شمالاً .

واندفع عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة جنوباً إلى الأردن وفلسطين .

ودفع يزيد أخاه معاوية لفتح المدن الساحلية .

وأخذت القوات تتنقل من موقعة إلى موقعة ومن مدينة إلى مدينة ، حتى تم لها تحقيق الواجب المحدد لها .

ان هذا الوضوح في الرؤيا والوضوح في تحديد الهدف هو العامل الذي مكن القادة من إنجاز واجباتهم بعيداً عن الإرتجال ودونما تردد أو تهاون .

٣ – حرمان العدو من موارده الإقتصادية

ان تحرير الشام في حد ذاته هو عملية حرمان بيزنطية من مواردها الإقتصادية وتقليص رقعة دولتها وحصرها ضمن حدود ضيقة .

أما على مستوى العمليات فقد استهدف القادة وبصورة مستمرة حرمان العدو من موارده الإقتصادية ، وانتزاع المواد التموينية من قبضته ، والاسراع بتوجيه قوات للاغارة على أرتال إمداداته .

وكان حرمان القوات من الموارد الاقتصادية عاملاً حاسماً في إرغام هذه القوات على التراجع والانسحاب بعدأن أصبحت جميع خطوطها التموينية مهددة.

كما أن تضييق الحصار على المقاومات كان من العوامل الحاسمة التي أرغمت هذه المقاومات في حمص وبعلبك على الاستسلام .

٤ – ردع العدو عن التفكير في تغذية الثورة المضادة

عندما هربت قبيلة أياد بن نزار إلى (بيزنطة) أرسل الخليفة عمر رسالة إلى ملك الروم – قسطنطين بن هرقل – طالباً إعادة القبائل الملتجئة اليه مهدداً بإجراء مماثل .

مما أرغم قسطنطين على تنفيذ طلب الخليفة عمر .

وعندما تقدمت الروم بهجومها عام ١٧ هـ كان الرد المباشر هوإرسال أربعة مجموعات قتالية لغزو ما وراء الدروب ، وتهديد الروم داخل بلادهم .

ان هذه الاجراءات كانت البداية في تنظيم أسلوب الردع ضد الروم بهدف منعهم من التفكير في تغذية العصيان ضد الاسلام وقطع جميع الروابط التي كانت تصل بين الروم وبين أهل البلاد .

٥ – الابقاء على العنصر العربي

أعز الله العرب بالاسلام ، وكان على العرب واجب ثقيل هو حمل الرسالة إلى جميع أنحاء الدنيا .

ولهذا كان الانسان العربي عزيزاً على قيادته .

وكانت القيـــادة تحرص باستمرار على عدم زج القوات إلا بعـــد إعداد الظروف المناسبة .

وعندما هاجم الروم حمص عام ١٧ هـ رفض أبو عبيدة مجابهتهم والتعرض لهم وكتب إلى الخليفة عمر ، فعمل الخليفة على فتح جبهة ثانيـــة وأرسل قوات دعم إلى حمص .

وعندما شعر أبو عبيدة أنه قادر على مجابهة الموقف قام بتنظيم هجومه ، ونجح في تدمير قوة الروم وتمزيقها .

وعندما وجه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسي لغزو ما وراء الدروب وجابه ميسرة قوات متفرقة وجه أبو عبيدة بسرعة قوات كبرى بقيادة مالك ابن الأشتر النخعي لدعمه .

كما وأمر ميسرة بالرجوع ، حرصاً على حياة العرب المسلمين .

وعندما وجه الروم قوات كبيرة بقيادة الموريان لمجابهة حبيب بن مسلمـــة أصدر الخليفة عثمان أوامره إلى الوليد بن عقبة لتوجيه قوة تتوغـل في أرمينيا من أجل دعم مسلمة .

هذه بعض الملامح التي تظهر حرص القيادة بداية من الخليفـــة وحتى قادة العمليات – على حياة العرب المسلمـــين الذين كان عليهم حمـــل واجب نشر الدين الاسلامي .

٦ – تنظيم العلاقات العامة في المجتمع

كان الهدف من ردع العدو عن التفكير في تغذية روح الثورة المضادة وحرص القيادة على العنصر العربي هو من أجل إقامة سلم دائم تعيش فيه جماهير البلاد التي فتحها المسلمون في أمن واستقرار ، مما يمهد السبيل للتفاهم المتبادل ونشر دين الاسلام بإقناع وحكمة عملاً بقوله تعالى :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

ولقد كانت سلسلة المعاهدات والاتفاقيات التي عقدت مع حكام أهل البلاد خطوة في مجال تنظيم العلاقات العامة وبناء المجتمع الجديد على أسس الخير والحق والعدالة .

إن حادثة جبلة بن الأيهم ، هي من الشواهد على الأسس التي بنى عليها العرب المسلمون مجتمعهم ، وكانت للمعاملة الطيبة التي قابل بها العرب المسلمون أهل البلاد من العوامل الأساسية التي ساعدت على تحقيق الحد النهائي ، وهو إقامة المجتمع العربي المسلم .

ب – في تطبيق مبادىء الحرب

لقد كانت المبادأة في قبضة قادة العرب المسلمين منذ لحظة مغادرة طلائعهم الجزيرة العربية ، واستمر القادة في الحفاظ على المبادأة .

وكان القادة يرفضون باستمرار إرادة العدو في فرض مكان المعركة وزمانها ، ويتمنعون عن زج قواتهم قبل إعداد الظروف المناسبة لتحقيق النصر .

لقد تجمعت قوات أرطبون في إجنادين ، وأرسل عمرو بن العاص قوات لحصار إيليا والرملة بهدف عزل قواتها عن التدخل في المعركة .

وأرسل الخليفة عمر أوامره إلى يزيد بتوجيه معاوية لفتح المدن الساحلية ، كما أرسل أوامره بتوجيه قوة لحصار غزة بقيادة علقمة بن مجزر . ومنع حاكمها الفيقار من توجيه قوات لدعم (أرطبون) .

ثم أخذ عمرو بن العاص يستعد لقتال خصمه ، ويجمع المعلومات عنه وينتظر قوات الدعم التي وجهها اليه الخليفة عمر .

وعندما تهيأت له أسباب النصر قام بتنفيذ معركته وهو على ثقة تامة من النتيجة .

٥ – الإقتصاد بالقوى

كان العنصر العربي قليلا في عدده إذا ما قورن بأعداد الجيوش المعادية .

ولهذا فقد اتبع أسلوب عدم تبديد القوى المقاتلة، والحفاظ على القوة الضاربة.

عمل الخلفاء الراشدون على حشد كل الإمكانات وزجها في مسارح العمليات وفق أهمية الأهداف .

ثم جاء الأمويون فأفادوا من كل الإمكانات والطاقات التي يمكنها حمل الأعباء عن المقاتلين ، فنقلوا من البصرة الأساورة والزط لتكليفهم بإحياء الأرض وحماية الثغور .

كما سمحوا للعناصر غير المسلمة في الإسهام بالقتال ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على إبقاء العنصر العربي لممارسة دوره القيادي .

وكان لهذه السياسة دورها في بناء المجتمع الجديد بخطوات سريعة وفعالة .

٦ – المحافظة على الهدف

كان الخليفة يحدد الهدف العام .

وكان القادة يحددون الأهداف المتتابعة ضمن نطاق الهدف العام ، ويحصلون على موافقة الخليفة .

وكان الهدف الأساسي هو نشر الإسلام .

وقد جاءت الفتوحات لتحقيق هذا الهدف .

ولهذا بقي الهدف الأساسي هو المهيمن على تحديد الهدف العام والأهداف التالية: ورافق العمليات في مسيرتها وحتى نهايتها .

وقد برهن العرب المسلمون جميعاً وفي كل المستويات على حرصهم التام والتزامهم المطلق بالهدف الذي يعملون له ويقاتلون من أجله ويقيمون السلم وبناء المجتمعات من أجله .

جـ – في فن القيادة

ان متابعة مسيرة العمليات تظهر بشكل واضح الكفاءة العالية التي تميز بها القادة من العرب المسلمين في مجال فن القيادة، ويظهر ذلك بشكل خاص من خلال:

١ – قراراتهم الصحيحة في كل مرحلة من مراحل المعركة .

٢ – عدالتهم في معاملة مرؤوسيهم .

٣ – مجابهة المواقف الصعبة بشجاعة .

٤ – التصميم على تحقيق الهدف .

٥ – الاستماع الى القادة ومشاورتهم .

٦ – اختيار القادة الأكفاء للواجبات والأعمال المختلفة .

٧ – تقدير المواقف بشكل جيد – والإخلاص في العمل .

٨ – روح الفروسية .

لقد كان عزل عمر بن الخطاب لقادة (خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة في إطار هذه القيم والمفاهيم .

وكانت حادثة جبلة بن الأيهم ضمن إطار هذه القيم والمفاهيم .

وكان سلوك القادة على مسارح العمليات ضمن هذا الإطار أيضاً .

د – العامل المعنوي .

كان العامل المعنوي [١] (وهو روح عقيدة التوحيد) هو العامل الحاسم

---

(١) كان المربون العسكريون من جميع الأمم ولا زالوا حتى اليوم يجعلون أساس ثقافتهم العسكرية للجندي غرس العوامل التي تقوي في نفسه من الروح المعنوية .. لأن القادة في جميع الأمم يعتبرون قوة الروح المعنوية من أهم الأسباب التي تحقق لهم الإنتصار .. لذا فهم يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بتكديس السلاح وتدجيج الجندي به كاملاً .. وماذا يفيد السلاح حتى وإن كان من أجود وأرقى الأنواع إذا كانت روح الجندي المعنوية منهارة . أو ليست موجودة بتاتاً، وهكذا نرى المسلمين تنتصر جيوشهم على الروم في الشام وهم آلاف قليلة لا يزيدون في أكثر تقدير على اربعين الفاً .. بينما قوات الروم لاتقل عن نصف مليون جندي مزودين بأحسن الاسلحة ...

والأساسي فيما حققه العرب المسلمون من انتصارات ، وكانت جذور هذا العامل تستند إلى :

١ – الإيمان بقضية عدالتهم (قلت وهي قضية نشر الإسلام بين الأمم) وواجبهم في تعريف العالم على هذه القضية (وهي التي من أجلها امتشقوا الحسام واندفعوا من جزيرتهم العربية) .

٢ ثقتهم بقادتهم – ثقة تزيل كل عوامل التردد والاحجام .

٣ – غيرتهم وأثرتهم – وتفانيهم في حماية إخوانهم في الدين ورفاقهم في السلاح .

هـ – العوامل المساعدة .

وهناك مجموعة أخرى من العوامل التي استخدمها العرب المسلمون في حروبهم ، وكانت عوناً لهم على منجزاتهم ومنها :

١ – الاستطلاع المستمر لمعرفة أخبار العدو .

٢ – خداع العدو (والحرب خدعة) .

٣ – التمويه .

٤ – استخدام العنف لإحباط الروح القتالية لدى العدو .

٥ – استخدام الحرب النفسية .

٦ – زج كل الإمكانات في المعركة .

= وأفتكها ، . ولكنهم خلو من الروح المعنوية . في الوقت الذي يتمتع المسلمون بروح عالية لامثيل لها مستمدة من عقيدة الإسلام التي ملأت قلب المسلم بأنه في قتاله ، لا بد وأن ينال إحدى الحسنيين الاستشهاد الذي يعقبه الخلود في الجنة ، وإما النصر الذي من نتائجه عز الدنيا ثم بعد ذلك رضوان الله في الآخرة . وهذه العقيدة الرائعة هي التي جعلت أربعمائة من الفدائيين المسلمين يقاتلون بقيادة عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك التاريخي جميعهم ليوهنوا من زخم هجوم الروم الذي كادوا به يكتسحون المسلمين . وقد نجحوا في إيقاف هذا الهجوم وكانت أرواحهم الطاهرة ثمناً لذلك النصر الذي ساهموا فيه بأعظم قسط في ذلك اليوم المشهود .

المصادر التي يمكن الرجوع اليها عند دراسة هذا الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
القرآن الكريم	. . . . .
صحيح البخاري	محمد بن اسماعيل البخاري
صحيح مسلم	مسلم
تفسير ابن كثير	اسماعيل بن كثير
الطريق إلى المدائن	أحمد عادل كمال
معارك خالد بن الوليد	ياسين سويد
فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين	بسام العسلي
تاريخ الخميس	
تاريخ الطبري المسمى (تاريخ الرسل والملوك)	محمد بن جرير الطبري
فتوح الشام للواقدي	الواقدي
تاريخ اليعقوبي	
معجم البلدان لياقوت	ياقوت الحموي
معجم ما استعجم للبكري	البكري
قصة الحضارة	ول ديورانت
معالم تاريخ الانسانية	هـ . ج ولز
الفتوحات العربية الكبرى	الجنرال جلوب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تاريخ بن عساكر (التهذيب)	ابن عساكر عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الدمشقي
دائرة المعارف الاسلامية	مجموعة من المستشرقين
دائرة المعارف القرن الرابع عشر العشرين	محمد فريد وجدي
الكامل في التاريخ لابن الأثير	محمد ابن الأثير الجزري
سيرة ابن هشام	محمد بن اسحاق
مغازي الواقدي	محمد بن عمر الواقدي
حياة سيد العرب	حسين باسلامة
جوامع السيرة	علي بن جزم
السيرة الحلبية	ابن برهان الدين
الخصائص الكبرى	عبد الرحمن السيوطي
سمط النجوم العوالي	عبد الملك بن حسين العصامي
شفاء الغرام في تاريخ البلد الحرام	محمد بن أحمد بن علي الفاسي
وفاء الوفاء	علي بن أحمد السمهودي
تاريخ الخلفاء	للسيوطي
زاد المعاد	ابن القيم
الأغاني	الاصفهاني
صبح الأعشى	أحمد بن علي النقشبندي
الصداقة والصديق	ابو حيان التوحيدي
المغني في الفقه	الإمام ابن قدامة
غزوات باشميل من (بدر إلى تبوك)	محمد أحمد باشميل
فتح القدير (تفسير)	محمد بن علي الشوكاني

اسم الكتاب	اسم المؤلف
في ظلال القرآن	الشهيد سيد قطب
الكشاف	الامام الزمخشري
الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف (فقه حنبلي)	ابن منصور
شبهات حول الاسلام	محمد قطب
جمع الفوائد	ابن القيم
سقوط الجولان	خليل مصطفى
غاية المنتهى (فقه حنبلي)	مصطفى السيوط الرحيباني
التحفة (فقه شافعي)	ابن حجر الهيثمي
تاريخ الطبري	محمد بن جعفر الطبري
القانون الدولي العام	الدكتور سموحي فوق العادة
محمد نبي ورجل دولة	الدكتور مونتجمري وات
حقائق الاسلام وأباطيل خصومه	محمود العقاد
ما يقال عن الاسلام	محمود العقاد
فقه السنة	سيد سابق
فقه السيرة	محمد الغزالي
الرسول القائد	محمد شيت خطاب
الأدب المفرد	محمد بن اسماعيل البخاري
تفسير الامام محمد عبده	محمد عبده
حياة محمد ورسالته	مولانا محمد علي
البداية والنهاية	الامام ابن كثير

اسم الكتاب	اسم المؤلف
آثار المدينة	عبد القدوس الأنصاري
لسان العرب	ابن منظور الافريقي المصري
نيل الأوطار	محمد بن علي الشوكاني
اليهود في القرآن	عفيف عبد التاج طبارة
الطبقات الكبرى	الامام ابن سعد
مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع	صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق
معجم النساء	رضا كحالة
الإعلام	خير الدين الزركلي
ديوان الحماسة	المتنبي
العرب قبل الإسلام	جورجي زيدان
حضارة العرب	جوستاف لوبون
التشريع الجنائي في الإسلام	عبد القادر عودة
الإصابة في أسماء الصحابة	ابن حجر العسقلاني
الاستيعاب	ابن عبد البر
أسد الغابة في أسماء الصحابة	محمد بن محمد بن الأثير
أيام العرب في الإسلام	محمد أبو الفضل علي النحاوي
أيام العرب في الجاهلية	محمد أبو الفضل علي النحاوي
الروض الأنف	السهيلي
نهاية الأرب في أخبار العرب	القلقشندي
معجزة محمد رسول الله	عبد العزيز الثعالبي
قصص الأنبياء	النجار

اسم الكتاب	اسم المؤلف
تاريخ ابن خلدون	عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي
معجم قبائل العرب	رضا كحالة
تاريخ الإسلام السياسي	الدكتور حسن ابراهيم حسن
حروب الإسلام والإمبراطورية الرومانية	أمين سعيد
حروب الإسلام والامبراطورية الفارسية	أمين سعيد
تاريخ الأمة العربية	محمد أسعد أطلس
عجائب الأقاليم السبعة	محمد بن موسى الخوارزمي
حياة محمد	محمد حسين هيكل
بهجة المحافل	يحيى بن أبي بكر العامري
أمتاع الأسماع	المقريزي
عصر النبي	محمد عزة دروزة
البدء والتاريخ	الإمام البلخي
صورة الأرض	ابن حوقل
الآثار الباقية من القرون الخالية	محمد بن أحمد البيروني
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	المقدسي المعروف بالبشاري
خطط الشام	محمد كرد علي
أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى البلاذري
جمهرة أنساب العرب	أحمد بن علي بن جزم
جمهرة رسائل العرب	أحمد زكي صفوة
جامع الأصول من أحاديث الرسول	المبارك بن محمد بن الأثير الجزري
سنن البيهقي الكبرى	الامام البيهقي

اسم الكتاب	اسم المؤلف
مسند الامام عبد الرزاق	الامام عبد الرزاق
مسند الامام زيد بن علي	الامام زيد بن علي بن الحسين
مسند الامام أحمد	الامام احمد بن حنبل الشيباني
نصب الراية	للإمام الزيلعي
النهاية في غريب الحديث	لابن الأثير الجزري
منهاج النبوية في الرد على الشيعة والقدرية	الامام ابن تيمية
جزيرة العرب	حافظ وهبة
صفة جزيرة العرب	جان جاك بيربي
نسب قريش	المصعب بن عبد الله الزبيري
المجتمعات الإسلامية في القرن الأول	شكري فيصل
فتوح البلدان	البلاذري
الحرية عند العرب	ابراهيم حداد
جزيرة العرب	الهمداني
الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة	محمد حميد الله
لمحات من تاريخ العالم	جواهر لال نهرو
قصة الحضارة	ول ديورنت
المحبر	محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي
عيون الأخبار	ابن قتيبة
تاريخ الشعوب الاسلامية	بروكلمان
تاريخ الأمم الاسلامية	محمد الخضري
المختصر في تاريخ البشر	عماد الدين بن اسماعيل أبي الفداء

اسم الكتاب	اسم المؤلف
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر	شمس الدين محمد بن طالب الأنصاري
عبقرية محمد	محمود العقاد
عبقرية الصديق	محمود العقاد
الصديقة بنت الصديق	محمود العقاد
تهذيب الصحاح	محمد بن أحمد الزنجاني
مجمع الزوائد	علي بن أبي بكر الهيثمي
الجامع الصغير	السيوطي
صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار	ابن بليهد
الإمام الترمذي	صحيح الترمذي
سنن أبي داود	الامام أبو داود
الفاروق القائد	محمود شيت خطاب
تاج العروس من جوامع القاموس	الامام الزبيدي
شذرات الذهب في أخبار من ذهب	عبد الحي بن العماد الحنبلي
تفسير القرطبي	الامام القرطبي
تفسير الطبري	الامام محمد بن جرير الطبري
فتح الباري بشرح صحيح البخاري	الامام ابن حجر العسقلاني
الكرماني شرح البخاري	الامام الكرماني
المجموع شرح المهذب	الامام النووي والشيخ محمد نجيب المطيعي
الرحلة الحجازية	
دائرة المعارف البستاني	البستاني
المستدرك للحاكم	الامام الحاكم
المحلى	الامام علي بن أحمد بن حزم

اسم الكتاب	اسم المؤلف
سنن النسائي	الامام النسائي
اليمن عبر التاريخ	أحمد حسين شرف الدين
قرة العيون بتاريخ اليمن الميمون	عبد الرحمن بن علي الشيباني
تاريخ اليمن	عمارة بن أبي الحسن اليمني
تاريخ اليمن (أيضاً)	دكتور حسن محمود
العقد الفريد	الامام عبد ربه
الأبطال	توماس كارليل
تاريخ حضرموت السياسي	صلاح البكري اليافعي
مجموعة قادة الفتح الاسلامي (ستة كتب)	اللواء محمود شيت خطاب
دائرة المعارف الاسلامية	مجموعة المستشرقين الانكليز
الفتوحات العربية الكبرى	الجنرال جلوب

كتب للمؤلف

١ – غزوة بدر الكبرى - ترجم إلى اللغة الانكليزية
٢ – غزوة أحد
٣ – غزوة الأحزاب
٤ – غزوة بني قريظة
٥ – صلح الحديبية
٦ – فتح خيبر
٧ – غزوة مؤتة
٨ – فتح مكة
٩ – غزوة حنين
١٠ – غزوة تبوك
١١ – الاسلام ونظرية داروين
١٢ – القومية في نظر الاسلام – ترجم إلى الفرنسية والانكليزية
١٣ – أكذوبة الاشتراكية
١٤ – العرب في الشام قبل الاسلام
١٥ – إسكات الرعاع
١٦ – لا . . يا فتاة الحجاز
١٧ – كيف نحارب الالحاد
١٨ – صراع مع الباطل
١٩ – لهيب الصراحة
٢٠ – هل هذا من العروبة ؟ (شعر)
٢١ – حروب الردة
٢٢ – حروب الاسلام في الشام

الكتاب القادم إن شاء الله حروب الاسلام في العراق

فهرس أعلام كتاب حروب الاسلام في الشام

الصفحة

حرف الألف

إبان بن سعيد ٢٤٣
إبن الاثير ٨١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٣٠٨ ، ٣٨٩ ، ٤٥٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢
ابن أبي سبرة ٥١٥
ابن إسحاق ٢٧٦
ابن ذي الخمار ١٦٤
ابن عابس ٣٧٩
ابن عساكر ١٦٠
ابن كثير ٢٩
ابن ملجم ٤٦٤
أبو الأعور الأسلمي ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٤٨٧
أبو الأعور بن سفيان ١٦٤
أبو أمامة ٢٣ ، ٢٣٠
أبو أيوب المالكي ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥
أبو بكر الصديق « رض » ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

الصفحة

٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢ ، ٥١٦ ، ٥٥٥
أبو جعفر الطبري ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٨١ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٤٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٧
أبو جندل بن سهيل بن عمرو ١٨٣
أبو حارثة ٥٠٧
أبو حثمة ٢٠٧
أبو الدرداء ١٥٨

الصفحة

أبو ذر الغفاري ٥١٢
أبو الروم بن عمير بن هاشم ٢٤٤
أبو الزهراء القشيري ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨١
أبو سفيان بن حرب ٦٧ ، ١٤١ ، ١٥٨
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧
٢٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢
أبو عبيد الثقفي ٨٩ ، ٩٠
أبو عبيدة بن الجراح ٥ ، ٨ ، ٩ ، ٢١
٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣
٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ٧٨
٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠٧ ، ١٥٤
١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٧٣ ،
١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ،
١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ،
٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ،
٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،

الصفحة

٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ،
٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ،
٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ،
٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،
٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ،
٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،
٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،
٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،
٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،

الصفحة

٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ،
٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ،
٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٦ ،
٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ،
٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٤٣ ،
٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٢ ،
٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ،
٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٨٣ ،
٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠١

أبو عثمان ٢٣٠ ، ٥٠٧
أبو العلاء المعري ٣٨٦
أبو موسى الأشعري ٥٤٦
أبو هريرة ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٥
أبو يمامة ١٦٠
الأرطبون ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٤٤٨ ، ٤٧٠ ،
٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،

الصفحة

٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ،
٥٠٧ ، ٦٠٢

أحمد شوقي ٤٨٨
الأحنف بن قيس ٤٦٤
أسامة بن زيد ٤ ، ١٦
الإسكندر المقدوني ٣٩٢ ، ٤١٠
أسماء بنت أبي بكر ١٦١
الأشتر النخعي ٣١٢ ، ٤٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٥٦
الأشعث بن شناس ٣٧٩
الأشعث بن قيس ٥٥٩ ، ٥٦١
أصطفان ١٢٥
أم حكيم بنت الحارث بن هشام ٨ ،
٢٠٦ ، ٢٨٤
أم عبد الله بنت يزيد الكلبية ٥٧٧
امرؤ القيس ٣٤ ، ١٦٣ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
أمين سعيد ١٤٠
أياد بن نزار ٥٣٢ ، ٦٠٠

الصفحة

حرف الباء

باهان ٤٤ ، ١٤٠ ، ١٤٥
بترك بن مرقص ٤٤٤
بسام العسلي ١٦٩ ، ١٨٧ ٢٢٢ ، ٢٣٤
٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٣٢٨ ، ٣٧٥
بشر بن عصمة ٢٨٦
بشير بن الخصاصية ٨٦
بطليموس بن لاغوس ٣٩٢
البكري ١٣٢
البلاذري ١٣٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
٣٠٨ ، ٣٨٨
بلال بن أبي رباح ٣٧٩ ، ٥٥٨ ، ٥٦١
بلال بن الحارث ٥٦٨ ، ٥٦٩
بلعام بن باعور ٣٩٢
بلقورس الآشوري ٣٩٢
بني ٤٧٣

حرف التاء

التذارق (سرجيوس) ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤
٧٠ ، ٧٦ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥
١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ،
٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٣١٩ ،

الصفحة

٤٧٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٧
توذرا ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧
تيودور ٥٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥
١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢

حرف الجيم

جارية بن عبد الله الأشجعي ١٦٧
جبلة بن الأيهم ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣
١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ،
٢٧٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٩٣ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤
جرجرين ٢٣٦
جرجمة ١٩٨
جرجة بن توذرا ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
١٤٠ ، ١٥١ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٤١
جرير بن عبد الله البجلي ٨٧
جرير بن عبد الله الحميري ٨٧
جستنيان ٥٨ ، ١٨٩

الصفحة

جعدة بن جبير ٤٢٨
جعفر بن أبي طالب ٣
جلوب الجنرال ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣
جنادة بن تميم المالكي ٤٨٧
جندب بن عمرو بن حممة ١٦٦ ، ٢٤٢
جورج مرعي حداد ١٣٢ ، ١٣٣
جويرية بنت أبي سفيان ٨ ، ١٦١ ، ٢٠٧

حرف الحاء

الحارث بن أبي شمر ١٨٩
الحارث بن جبلة ١٨٩
الحارث بن حسان الذهلي ٨٦
الحارث بن هشام ١٨٣ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٥٣
حافظ ابراهيم ٢٤٨ ، ٥٦٦

الصفحة

حبيب بن مسلمة الفهري ١٦٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٧ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠١
الحجاج بن عبد يغوث ٢٣٥
حذيفة بن محصن الغلفاني ٥١٦
حرقوص بن النعمان ١٠٤
حمزة الأصفهاني ١٨٩
حسان بن ثابت ٣٣٤
الحسن بن علي بن أبي طالب ٤٦٤ ، ٥١٠ ، ٥١١
الحسين بن علي بن أبي طالب ٥١٠ ، ٥١١
حوشب ذو ظليم ١٦٦

حرف الخاء

خالد بن سعيد بن العاص ٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٦٤ ، ٢٠٤ ، ٢٤٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
خالد بن الوليد ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥

الصفحة

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

الصفحة

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
٢٥٠ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، ٣٥٣ ،
٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٧٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،
٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،
٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ،
٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ،
٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،
٤٢٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ،

الصفحة

٤٥٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،
٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٨٣ ،
٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ،
٥٢٦ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ،
٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ،
٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ،
٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٤

الخنساء بنت عمرو السلمي ٢٥٢
خولة بنت الأزور ١٦١، ٢٠٨ ، ٢٣٩
خولة بنت ثعلبة ٢٠٨
خيري حماد ٢٦١

حرف الدال

دامس العملاق ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ،
٤٣١ ، ٤٣٨
داود عليه السلام ٣٩٣ ، ٥٠٥
دحية بن خليفة ١٦٣
دحية الكلبي ٣١٢
الدراقص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
١٤٠ ، ١٥١
دمر ١٢٦

الصفحة

حرف الذال

ذا سمستان ٣٧٩
ذهيل بن عطية ٣٧٩
ذو الكلاع الحميري ٢٤ ، ٣٢ ، ١٦٦ ،
٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٥١ ، ٣٨٤

حرف الراء

رافع بن عبد الله ٣٦٨
رافع بن عمر ٥٥١
رافع بن عمير الطائي ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢
ربعي بن الأفكل ٥١٦
الربيع بن مطر بن بلخ التميمي ٨٨
ربيعة بن عامر ٣٨٤
رجاء بن حيويه ٥٠٥
رستم ٤٧ ، ٥١ ، ٣١١ ، ٥١٣
رملة بنت طلحة الزبيري ١٦١

حرف الزاي

الزبا ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٠
الزبير بن العوام ١٦٦

الصفحة

الزهراء ٣١٢
زهير بن الحلاب الخثعمي ٤٨٣
زياد بن حنظلة ١٦٣ ، ٣٨٠ ، ٥٠٧
زيد بن ثابت ٥١٦
زيد بن حارثة ٣

حرف السين

سحيم بن المهاجر ٥٨٧ ، ٥٨٩
السري ٢٣٠ ، ٥١٤
سعد بن أبي وقاص ٤٧ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ١٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣١
سعد بن هزيم ٣٢
سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص ٢٤ ، ١٦٤
سعيد بن حرث بن قيس ٢٤٣
سعيد بن زيد ١٥٥ ، ١٧٠ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
سعيد بن عامر ١٢٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤

الصفحة

سعيد بن المسيب ٥١٥
سعيد بن عمرو بن نفيل ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٤٢٠
سعيدة بنت عاصم الخولاني ٢٠٨
سفريونيوس ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٠١
سفيان الأزدي ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢
سقلار بن مخراق ٢٨٩
سلقوس نقطور ٣٩٢
سلمان بن ربيعة الباهلي ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤
سلمى بنت هاشم ٢٠٨ ، ٢٤٢
سليمان بن خالد بن الوليد ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٣
سليمان بن داود عليه السلام ٣٦٦
السمط بن الأسود ١٦٥ ، ٣٧٩
السمط الكندي ٣٨٩
سمير بن كعب ٢٩١
سمية بنت عاصم الخولاني ١٦١
سهل بن صباح العبسي ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢
سهم بن المسافر بن هزمة ٣١٢
سهيل بن عدي ٥٢٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤

الصفحة

سهيل بن عمرو ٣١ ، ١٦٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٤٥
سيف البصري ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٥٦٨

حرف الشين

شداد بن عاد ٣٠٥
شرحبيل ١٦٧
شرحبيل بن حسنة ٥ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣٨٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٤
شعيب ٢٣٠
شكري فيصل ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
شنس ٢٦٧ ، ٣٠٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

الصفحة

حرف الصاد

صفوان بن أمية الجمحي ١٦٤ ، ٥١٠
صفوان بن المعطل ٥٣٨
صيفي بن علبة بن شاول ٢٨٥

حرف الضاد

الضحاك بن قيس ١٢١ ، ٥٧٧
ضرار بن الأزور الأسدي ٨٧ ، ١٢٥ ، ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٨٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٠ ، ٣٨٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٥٩٧
ضرار بن الخطاب الفهري ٨٧

حرف الطاء

الطفيل بن عمرو ٢٤٢
طليب بن عمير ٢٤٢
طليحة بن خويلد الأسدي ١٧

حرف العين

عائشة ٥١٢

الصفحة

عاصم بن عمرو التميمي ٨٦
عامر بن الأصلع الربعي ٤١١
عامر بن حثمة ٢٨٥
عبادة بن الصامت ٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦
العباس بن سهل بن سعد الساعدي ٢٠٧ ، ٢٠٨
العباس بن عبد المطلب ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥١١ ، ٥٥١ ، ٥٦٩
عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي ٨٦
عبد الله بن جعفر ٣٨٤
عبد الله بن رواحة ٣ ، ٢٧٤
عبد الله بن الزبير ٥٨٦
عبد الله بن سليمان الدينوري ٤١٣
عبد الله بن صفوان ٤١٣
عبد الله بن عباس ٥٤٣ ، ٥٤٤
عبد الله بن عتبان ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٩٤
عبد الله بن علقمة الفراسي ٤٧٣
عبد الله بن قرط ٤٢٨
عبد الله بن قيس ١٦٥ ، ٥٥٧
عبد الله بن مسعود ١٦٠ ، ٣٧٩
عبد الله بن معتم ٤٤٣ ، ٤٥٥

الصفحة

عبد الرحمن بن أبي بكر ١٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٨٤ ، ٤٢٠
عبد الرحمن بن عوف ٥٠٣ ، ٥١١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤
عبد الرحمن بن معاذ بن جبل ١٧٨
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ١٦٤
عبد الملك بن مروان ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩
عتاب بن أسيد الأموي ٥١٦
عتبة بن ربيعة بن بهز ١٦٧
عتبة بن سهيل بن عمرو ٥٤٥
عتبة بن العاص ٣٨٤
عثمان بن أبي العاص ٥١٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨٠
عثمان بن عفان ٢٤٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٣ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥٤٢ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٦٠١
عدي بن حاتم الطائي ٨٨
عرفجة بن هرثمة البارقي ٥١٦
عصمة بن عبد الله ١٦٧
عقيرة بنت غفار ٢٠٨

الصفحة

عكرمة بن أبي جهل ٨ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ١٢٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٨ ، ٢٨٤

العلاء بن الحضرمي ٥٢٦

علقمة بن حكيم ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٢ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠٩

علقمة بن مجزر ٤٧٠ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٦٠٢

علي بن أبي طالب (رض) ٢٧ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٩٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨

عمارة بن الصعق ٢٨٥

عمارة بن عمرو بن أمية الضمري ٤٨٧ ، ٤٨٨

عمارة بن نخشن ٢٨٦

عمر بن الخطاب « الفاروق » (رض) ٤ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ،

الصفحة

٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ،

الصفحة

٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،
٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ،
٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٩٥ ،
٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
٦٠٤
عمر بن شمر ٣١٢
عمر بن مالك ٣٤٣، ٣٨٠، ٤٥٥، ٤٥٦
عمرو بن الحبيب بن عمرو ٢٨٥
عمرو بن سعيد ٢٤٢
عمرو بن العاص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٢١، ٢٩
٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١
٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤
٥٦ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٦ ،
١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ،
١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،
١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٧٧٧ ،
١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ،
٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ،

الصفحة

٢٦٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٥ ،
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
٣٢٤ ، ٣٨٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ،
٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ،
٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ،
٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ،
٥٠٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٩٧ ،
٥٩٩ ، ٦٠٢
عمرو بن عامر ماء السماء ١٩٣
عمرو بن عكرمة ٢١١ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢٤٢
عمرو بن عنبسة ١٦٥ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧
عمرو بن فلان العذري ٣٣ ، ١٦٦
عمرو بن كليب ٢٨٥
عمرو بن معد يكرب ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٢٣١ ، ٣٥١ ، ٣٧٠ ، ٣٨٤
عمرو بن ميمون ٣٨١
عمليق بن لون بن سام بن نوح ٣٩٢

الصفحة

عمير بن سعد ٥٧٥ ، ٥٧٦
عياش بن أبي ربيعة ٢٤٣
عياض بن غنم الفهري ٨٧ ، ١٦٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٣
عيسى عليه السلام ٣٩٥

حرف الغين

غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ٢٩١
غرة بنت عامر ١٦١
غفيرة بنت غفار ١٦١

حرف الفاء

فرات بن حيان العجلي ٨٦ ، ٥٤١
فيليب حتي ٢٧٣ ، ٣٠٦
فيشي ١٣٤
الفيقار بن نطوس ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٤٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٦٠٢

حرف القاف

القاسم ٢٣٠
قباث بن اشيم ١٥٥ ، ١٦٧
القبقلار ٢٧٦
القشيري ٣١٢
قسطنطين بن هرقل ٥٣٩ ، ٦٠٠
القعقاع بن عمرو ٨٧ ، ١٦٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣٣ ، ٥٩٧
قناطر ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٦
قيس بن سعد بن عبادة ٤٦٤
قيس بن عمرو بن يزيد بن عوف ١٦٦
قيس بن هبيرة ١٦٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٣٨٤ ، ٤٢٠

حرف الكاف

كراكوس الشيخ ٢٢٦
كركس ٣٩٨
كسرى ٣٧ ، ٥٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤

الصفحة

كعب الأحبار ٥٠٥ ، ٥٠٦
كعب الضمري ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣
كعوب بنت مالك بن عاصم ٢٠٨
كوكب ١٢٦

حرف اللام

لاوي بن حنا ١٢٦
لبدة بن عامر بن خشمة ٢٨٦
لبنى بنت جوير ٢٠٨
لقيط بن عبد القيس ١٦٦

حرف الميم

مالك بن الأشتر النخعي ٣٥١ ، ٣٨٤ ، ٦٠١
مالك بن خزعل الربعي ٤١١
مالك بن كنانة ٤٨٧
مالك بن نويرة ٥٥٤ ، ٥٥٥
ماهان البطريق ٢٤ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٣٩٧

الصفحة

المثنى بن حارثة الشيباني ٥٢ ، ٥٣ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٠ ، ١٤٤ ، ٣١١ ، ٣٤٢ ، ٥٥٥
مذعور بن عدي العجلي ١٦٣ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤
مرثد بن نجيبة الفزاري ٨٨
محمد بن عبد الله ﷺ ٣ ، ٨ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٥٧ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٧٧ ، ٣١٦ ، ٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ . ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٨
محمد بن عمرو ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥
محمود الدرة ٨٢

الصفحة

محمية بن زنيم ٢٤٥ ، ٢٤٦
المرقال ، هاشم بن أبي وقاص ٣٧٣
مخشي بن خويلد ١٦٤
مرزوق بن مالك ٤١١
مسلمة بن عبد الملك ٥٩٠
مسروق بن العيسى ٢٩٢
مسروق بن فلان ١٦٧ ، ٣١٢
مسروق العكي ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥
مسعود بن علوان ٤٠٠ ، ٤٠١
مسلمة بن حبيب الفهري ٣٨٤
المسيب بن نجبية الفزاري ٨٨ ، ٣٧٣
مسيلمة الكذاب ١٧ ، ٢١٠
مشافع بن عبد الله بن شافع ٣١٢
مصعب بن الزبير ٥٨٦ ، ٥٨٧
مصعب بن عدي ٣٥٩
مصعب بن عمير ٢٤٤
مطرح ٢٣٠
معبد بن أم معبد الأسلمي ٨٦
معاذ بن جبل ٨ ، ١٢٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٥٤٥
معاوية بن أبي سفيان ٢٤٩ ، ٣٨٩ . ٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ،

الصفحة

٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،
٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٣ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ،
٤٨٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ ،
٥٥٢ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ،
٥٨٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ،
٥٩٩ ، ٦٠٢
معاوية بن خديج ١٦٦
معاوية بن قرمل المحاربي ٨٨
المقداد بن الأسود ١٥٨
مناوش بن الضحاك ٤١٦
المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي ٥٥٣
الموريان ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٦٠١
موسى عليه السلام ٣٩٣
ميخائيل دي غويي ١٣٢
ميسرة بن مسروق العبسي ٤٢٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٦٠١
ميناس ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٨١

حرف النون

نابليون ٢٥١

الصفحة

نافع بن الأسود ٣١٣
نزار بن أياد ٥٣٨
نسطورس ٢٨٩
نسيبة بنت كعب ١٦١
نضير بن الحرث بن علقمة ٢٤٣
نعم بنت فياض ٢٠٨
النعمان بن بشير الأنصاري ٣٨٦
نعيم بن عبد الله النحام ٢٤٣
نقيطاس ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

حرف الهاء

هـ . ج – ولز ٢٢٤ ، ٢٢٦
هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ٨٧ ، ١٦٣ ، ٣١٢ ، ٣٨٤
هرابيس ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦
هربيس ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٧

الصفحة

هرقل ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ،

الصفحة

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ،
٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٤٤١ ،
٤٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٥١٧ ،
٥١٩ ، ٥٣٤ ، ٥٧٩ ، ٥٩٣

هشام بن العاص ٢٤٢
هند بنت عاصم الحولاني ١١٦
هند بنت عتبة ١٦١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
هند بن عمرو ٥٤١
هنيبال ٢٥١
هود عليه السلام ٣٠٥

حرف الواو

الواقدي ١٣٢ ، ٢٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٤٠١
ول ديورنت ٢٢٧
الوليد بن عبد الملك ٥٨٢ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠
الوليد بن عقبة ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٤٣
٥٢٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ،
٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٢ ، ٦٠١

الصفحة

حرف الياء

ياسين سويد ٥٣ ، ٥٤ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٤٩ ، ١٧٢ ، ١٩٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢
٢٣٣ ، ٢٥١ ، ٣٧٧
ياقوت الحموي ٢٨٣ ، ٣٠٨ ، ٣٨٢ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
يحيى بن زكريا ٤٩٨
يزيد بن أبي سفيان ٥ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩
٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣
٤٤ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٩ ، ١٠٧ ،
١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٣ ،
١٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ،
٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ،
٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ،
٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ،
٤٩٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧ ،
٥٧٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ،
٦٠٢

الصفحة

يزيد بن الحربان ٥٧٤
يزيد بن سنان ٢٣٠
يزيد بن يحنس ١٦٣
يعلى بن أمية ٥١٦
يعمر بنت عاصم الخولاني ١٦١
يلبزا ريوس ١٨٩
يوحنا الراهب ابن البطريق ٣٩٥ ،
٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥
يوحنة بن رؤبة ٢٧٥
يوشع بن نون ٣٩٣
يوقنا البطريق ابن البطريق ٣٩٥ ،

الصفحة

٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ،
٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،
٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩
يوليوس قيصر ١٤٩ ، ١٥٠
يونس بن عمرو الغساني ٤٠٩

فهرس العناوين

العناوين	الصفحة
مقدمة د . محمد علي البار	٣
كلمة وردة محمد أحمد باشميل	١١
حروب الإسلام في الشام	١٥
تمهيد	١٥
التفكير في الامبراطوريتين الجارتين	١٥
الجهاد فرض على المسلمين	١٦
شراسة حروب الردة	١٧
بداية التحرك إلى الشام	١٩
خالد بن سعيد ينتصر في الشام	٢١
الانتكاسة التي أصابت خالداً فأفقدته منصبه	٢٤
دور عكرمة بن أبي جهل في إنقاذ خالد	٢٦
الهجوم الشامل على الشام ١٣ هـ	٢٨
أعظم الجيوش الأربعة جيش يزيد	٣٤
الوصية التاريخية من أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان	٣٥
مدى علم البيزنطيين بالتحرك الإسلامي إلى الشام	٣٦
حرب العقيدة عند المسلمين	٣٨
خطة الخليفة الصديق الأولى في الزحف إلى الشام	٣٩
الانسحاب الموقت	٤٤
وضع القادة الأربعة في اليرموك	٤٥
تجمع الروم في اليرموك	٤٥
القادة الثلاثة يطلبون المدد من المدينة	٤٦
تعيين خالد بن الوليد أميراً على جيوش الشام	٤٧
مختصر عن الوجود الروماني في الشام	٤٨
إيقاف الزحف على المدائن	٥٠
دمشق بدلاً من المدائن	٥٢
هجوم الفرس المعاكس بعد غياب خالد	٥٢
حرب استنزاف وإنهاك في الشام	٥٣

	الصفحة
وضع الجيش الروماني في الشام وتقييم مستواه العسكري	٥٧
عاصمة الشام الحقيقية	٦٠
الشام بلد عربي منذ آلاف السنين	٦٠
عنصر الغساسنة يشد أزر الرومان في الشام	٦٠
انقلاب خطط هرقل على عكس ما يريد	٦٤
المعركة الحاسمة (اليرموك)	٦٥
التفوق المعنوي لا المادي الذي يحقق الإنتصارات	٦٥
ميزات الجيش الروماني	٦٦
صبر الجندي المسلم على شظف العيش	٧٠
هرقل المحارب الممتاز المحترف	٧٢
صعوبة مهمة القوات الإسلامية الغازية	٧٤
خطط الاستدراج التي اتبعها هرقل	٧٤
كيف تمزق جيش خالد بن سعيد	٧٥
نصارى حمص يبكون لانسحاب المسلمين	٧٧
عدل الإسلام مصدر الإنتصارات	٧٨
خطة التقسيط الرومانية كيف فشلت	٧٩
مكان التجمع الإسلامي بالتحديد	٨٠
كيف توجه خالد من العراق إلى الشام	٨٠
لمحة عن أعمال خالد الحربية في العراق	٨١
اختلاف خالد والمثنى حول اقتسام الجيش	٨٥
عدد الصحابة في جيش خالد الزاحف من العراق	٨٨
القائد المثنى في المدينة لطلب المدد	٨٩
الفرس يستعيدون ما فقدوه من أراض في العراق في غياب المثنى	٨٩
العودة الى المنطلق : خالد ورحلته إلى الشام	٩٠
معركة المصيخ	١٠٤
عدد جيش الإسلام بعد وصول خالد	١١١
فتح مدينة بصرى قبل اليرموك	١١١
خالد يتدارس الوضع في الشام مع القادة الثلاثة	١١٢
كيف كانت خطة هرقل لتصفية جيوش الأسلام	١١٣
الانسحاب من اليرموك ثم العودة اليه	١١٦
معركة إجنادين	١٢٠

	الصفحة
قائد الجيش الأول يحاول تفادي الحرب بالتفاوض	١٢٥
هزيمة الرومان المدمرة بإجنادين	١٢٧
الجنرال جلوب باشا يصف تحطيم الجيش الروماني بإجنادين	١٢٨
هرقل وخيبة الأمل الشديدة	١٣١
معركة اليرموك الفاصلة	١٣١
هل دارت معركتان باسم اليرموك	١٣٢
الطبري يؤكد تكرار القتال في اليرموك قبل إجنادين ومعركة اليرموك الكبرى	١٤١
اسلوب الروم في القتال	١٥٠
تنظيم المسلمين العسكري في اليرموك	١٥١
شعور الفريقين بأن المعركة معركة مصير	١٧١
دقة خالد في التنظيم والمعرفة بالنتائج	١٧١
التوجيه المعنوي بين المسلمين	١٧٥
تفنيد تهمة باطلة	١٨٠
عودة إلى المنطلق : خالد يبعث قبل المعركة يدعو الروم إلى السلام	١٨٢
اسلوب استقبال الرومان للوفد الإسلامي	١٨٣
فشل المفاوضات	١٨٧
كيف بدأت المعركة الفاصلة	١٨٨
الف من الصحابة	١٩٦
اشتعال المعركة الفاصلة	١٩٦
البداية السيئة للرومان	١٩٨
وصعق الرومان فشنوا هجومهم الكاسح	٢٠٠
تراجع المسلمين عند الصدمة الأولى	٢٠٢
ثبات قلب الجيش الإسلامي	٢٠٤
دور المرأة في المعركة اللاهبة	٢٠٥
مجزرة المدائيين وكسر الهجوم	٢٠٩
هزيمة الروم الساحقة	٢١٩
المطاردة	٢٢٢
عودة إلى المنطلق	٢٢٨
وصول خبر وفاة الخليفة الأول والمعركة على أشدها	٢٤٤
انتهاء المعركة واعتزال خالد الامارة	٢٤٦
أقوال وتحاليل المؤرخين عن معركة اليرموك الحاسمة	٢٤٩
دور النساء في المعركة	٢٥٢

	الصفحة
الفصل بين فرسان العدو ومشاته	٢٥٣
استخدام الاحتياطي	٢٥٤
مغالطات بعض المؤرخين الأجانب	٢٥٤
نشاط الجنـــدي المسلم وكسل الجندي الروماني	٢٦٣
زعم الجنرال جلوب وجود خيانة في الجيش الروماني	٢٦٤
فعالية العقيدة الصادقة	٢٦٨
العرب المتنصرة لم يكونوا عوناً للمسلمين في حرب الشام بل على العكس	٢٧٣
ما بعد اليرموك	٢٨١
معركة مرج الصفر	٢٨٣
فتح مدينة فحل	٢٨٨
فتح العاصمة دمشق	٢٩١
وثيقة صلح دمشق	٣٠٧
إعادة جيش العراق إلى العراق	٣١١
الشعر في المعركة	٣١٣
اتجاه أبي عبيدة لتحرير ما تبقى من معاقل للرومان في الشام	٣١٤
فتح بيسان	٣١٤
فتح طبرية	٣١٦
تقسيم جيش الإسلام لتصفية ما تبقى للروم من مدن ومواقع في جميع أنحاء الشام	٣١٨
هرقل يرسم خطط مقاومة يائسة في حمص	٣٢٠
محاولة الروم استعادة دمشق	٣٢٠
معركة مرج الروم الضارية	٣٢٢
بعلبك والبقاع تصالحان المسلمين	٣٢٥
كيف أسلم جبلة بن الأيهم	٣٢٦
الروم يضمرون الغدر مع الصلح	٣٢٩
الاغارة على معرة حلب	٣٣١
الصلح مع قنسرين والرستن	٣٣٢
الرومان يجشدون العرب المتنصرة	٣٣٣
خالد يوقع أكبر قائد رومي في كمين ثم يقع هو في كمين	٣٣٤
خالد يعدم حاكم قنسرين كي لا يفلت	٣٣٥
جبلـــة بن الأيهـــم يهرب إلى القسطنطينية	٣٣٦
فتح قنسرين	٣٣٦
مصرع القائد ميناس على يـــد خالد بن الوليد	٣٣٨
معركة بعلبك الطويلة	٣٤٤

	الصفحة
أبو عبيدة يتولى تأديب هربيس محافظ بعلبك	٣٤٥
أهمية بعلبك وقلعتها	٣٤٩
فتح مدينة بعلبك بعدقتال شرس	٣٥٣
عودة إلى المنطلق : استسلام بعلبك	٣٦٢
مصرع البطريق هربيس بأيدي قومه	٣٦٨
أبو عبيدة يتحرك من البقاع إلى حمص	٣٦٩
فتح حمص	٣٧٣
رحلة هرقل النهائية من الشام	٣٨٠
فتح الرستن	٣٨٢
فتح المعرة وشيزر	٣٨٥
فتح حماة	٣٨٧
فتح قنسرين للمرة الثانية	٣٨٨
فتح حلب ١٥ هـ وتحرك جانب من الجيش لفتح المدن الساحلية	٣٨٩
ملك حلب شبه المستقل	٣٩٤
المعركة الأولى قبل حلب	٣٩٨
كيف تم الصلح بين أهل حلب وأبي عبيدة في غياب يوقنا	٤٠١
مذبحة نصارى حلب على يد بطريقها	٤٠٤
الملك يوقنا يقتل أخاه الراهب يوحنا	٤٠٥
الاستيلاء على مدينة حلب وإنقاذ أهلها	٤٠٦
العرب المتنصرة والاستخبارات الرومانية	٤٠٨
بطريق حلب يهاجم المسلمين في معسكراتهم هجوماً مفاجئاً	٤١٢
أبو عبيدة يأمر بالحيطة وتشديد الحراسة	٤١٤
فعالية استخبارات يوقنا بين المسلمين	٤١٤
اكتشاف جواسيس يوقنا داخل معسكر المسلمين	٤٢١
وصول المدد من المدينة وفتح قلعة حلب بحيلة عملاق حضرمي من المدد	٤٢٣
قلق الخليفة عمر لانقطاع أخبار العمليات حول القلعة	٤٢٧
تفاصيل حيلة العملاق الحضرمي لفتح قلعة حلب	٤٣٠
فك الحصار الموهوم	٤٣٢
كيف تسلق الفدائيون سور القلعة	٤٣٦

	الصفحة
أبو عبيدة يأمر برفع السيف عن الروم	٤٣٩
سقوط اواقع الهامة المتبقية بأيدي الروم بعد سقوط حلب	٤٤٠
فتح أنطاكية	٤٤١
كرسي النصرانية	٤٤٥
أنطاكية تغدر وتنقض العهد	٤٤٦
الخليفة عمر يأمر بإقامة حامية كبرى في أنطاكية	٤٤٧
أبو عبيدة يتحرك لفتح بقية مدن الساحل الشمالي ويستأذن لدخول حدود بيزنطا	٤٤٨
خالد بن الوليد يهاجم الروم في بلادهم	٤٥٢
فتح الحدث	٤٥٤
ماذا تعني حروب الحدود	٤٥٤
أبو عبيدة يتفرغ لفتح المدن الساحلية الشمالية	٤٥٦
فتح اللاذقية	٤٥٧
احتلال طرطوس بانياس جبلة	٤٦٥
معاوية يهتم عسكرياً بالثغور البحرية هذه	٤٦٧
فتح المحور الأوسط من ساحل الشام	٤٦٨
حديث الطبري عن حملة محور الساحل الأوسط	٤٦٩
معاوية يفتح قيسارية حصن الروم الساحلي الاعظم	٤٧٠
عمليات المحور الجنوبي على الساحل	٤٧٤
فتح غزة	٤٧٧
اجتماع القائدين الخصمين داخل غزة	٤٨٠
محاولة اغتيال القائد علقمة ونجاته	٤٨١
هزيمة الارطبون وفتح إجنادين	٤٨٣
الارطبون يكرم خصمه الالد	٤٩٠
عمرو يتجه نحو القدس	٤٩٣
المداعبة بين عمرو بن العاص والارطبون	٤٩٨
عقد صلح افتتاح القدس في الجابية	٥٠٠
منع اليهود من السكن مع النصارى في القدس	٥٠٢
نص وثيقة تسلم الفاروق مدينة بيت المقدس	٥٠٣
السيطرة الكاملة للمسلمين على الشام بعد تطهير بيت المقدس	٥٠٤
الفاروق يدخل بيت المقدس	٥٠٤
قصة مصرع الارطبون داهية	

	الصفحة
الروم الاكبر	٥٠٦
الفاروق يجعل فلسطين ولايتين	٥٠٩
عمر ينشيء التنظيمات الإدارية	٥١٠
عمر يرفض جعل راتبه أعلى من عامة المسلمين	٥١١
عمر يستشير مجلس الشورى فيما يفعل بالغنائم العظيمة	٥١٣
وضع قاعدة التاريخ الهجري	٥١٥
الفاروق يجمع بعد امتلاك الشام	٥١٥
محاولة عرب الجزيرة النصارى القيام بانقلاب ضد المسلمين	٥١٦
اتصال النصارى العرب بهرقل	٥١٧
محاولة الرومان احتلال حمص من جديد	٥١٨
استخبارات المسلمين تكتشف المؤامرة قبل حدوثها	٥١٩
قوات الاحتياطي في العراق تضرب الخونة في الجزيرة وتجهض المؤامرة	٥٢٠
خروج الخليفة من الشام لمواجهة المؤامرة بنفسه	٥٢١
أبو عبيدة يستعد في حمص للمواجهة	٥٢٤
مؤتمر حربي للتشاور	٥٢٤
الإحاطة بحمص	٥٢٥
انسحاب المتنصرة يقلب ميزان القوى لصالح المسلمين	٥٢٥
فك الحصار والفتك بقوات الروم	٥٢٦
إشراك قوات العراق في الغنائم وإن لم تشترك في القتال	٥٢٧
الخليفة الفاروق في الشام للمرة الثانية	٥٢٩
تعهد نصارى الجزيرة للرسول ﷺ	٥٢٩
احتلال الجزيرة وتأديب النصارى الناكثين	٥٣٠
قوات التأديب تتحرك	٥٣١
فتح مدينة الرها	٥٣٤
فتح الجزيرة أيسر فتح قام بـــه المسلمون	٥٣٥
فتح أرمينيا	٥٣٥
أقسام أرمينيا الاربعة	٥٣٧
معارك أرمينيا	٥٣٧
بيزنطا يجبرها الفاروق على إعادة الخونة العرب الفارين من الجزيرة	٥٣٨
أنفة واستكبار عرب الجزيرة	

	الصفحة
عن الجزية	٥٤٠
الفاروق يعود إلى المدينة	٥٤١
الطاعون هو السبب	٥٤٢
الفاروق في الشام للمرة الرابعة	٥٤٧
قسمة المواريث	٥٥٣
خالدبن الوليد أعظم قائد في عصره	٥٥٤
الفصل المؤلم في حياة أعظم بطل	٥٦٠
هكذا علمنا الدنيا الإنضباط	٥٦٢
نهاية البطل سياسياً وعسكرياً	٥٦٣
خالد يودع الجند الذين حاربوا تحت لوائه	٥٦٤
خالد يشكو عمر للصحابة	٥٦٥
عام الرمادة وعظمة الفاروق	٥٦٦
الفاروق يضرب من نفسه أروع الامثلة على العدل	٥٦٧
محاولة بيزنطية لغزو الشام في عهد عثمان	٥٧٠
النجدة تتحرك من الموصل	٥٧١
معاوية يقابل التحديات بأكبر	٥٧٤
معاوية يحتل عمورية	٥٧٤
قصة عربسوس	٥٧٥
فهرس الاعلام	٦١٥

* * *

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

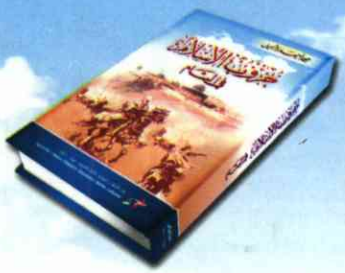

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان
Dar El Fikr - Printers- Publishers- Distributors- Beirut- Lebanon